

تأليف

ميزان هارون

العقيدة والمذاهب - قسم الدراسات الإسلامية
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

رجالٌ صنعوا التاريخ وخدموا الإسلام والعلم في بنغلاديش

يحكي بإيجاز تراجم لأكثر من مئة من عظماء هذه الدولة وكبار علمائها وأساتذتها
ودعاتها ومصلحيها منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي إلى يومنا هذا

بقلم /

ميزان هارون

(التكميل في الحديث) الجامعة المحمدية الإسلامية، بناني، داكا
(الأدب العربي) الجامعة الإسلامية دار العلوم (المسجد الأكبر)، ميربور، داكا
(العقيدة والمذاهب) جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية





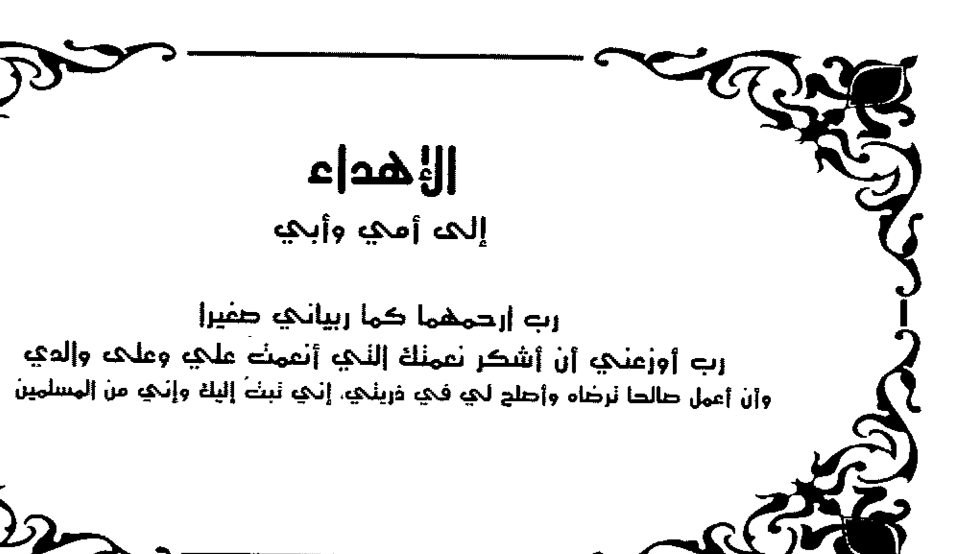
رجال صنعوا التاريخ وخدموا الإسلام والعلم في بنغلاديش
التأليف: ميزان هارون- حفظه الله
اعتنى بنشره: أبو مريم إسماعيل حسين- حفظه الله

الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ- ٢٠١٨م

الناشر: دار البيان، داكا
☎: +٨٨٠١٩٦٨٨٤٤٣٤٨
✉: darulbayanasia@gmail.com

التوزيع والتسويق: مكتبة الأزهر، داكا

الطباعة والتجليد: بوي كاريغر
☎: +٨٨٠١٩٦٨٨٤٤٣٤٩



الإهداء

إلى أمي وأبي

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا
رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي
وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين

كلمة الشكر



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فقد اعتنى المسلمون منذ بداية التاريخ بحياة سلفهم الصالح، وحفظ حياتهم ووقائعهم، وتسجيل خدماتهم وتجاربهم، ومنهج أفكارهم ونظرياتهم، فكل جيل لاحق أخذ النور من الجيل السابق، وسارَ على منهجه، وذلك اتباعا للإرشاد القرآني حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]

لذلك كان جديرا بالأمة المسلمة البنغالية أن تعتني بعلمائها وأئمتها، ودعاتها وقادتها، وأن تحتفظ بتاريخهم، وتعتزّ بأمجادهم، وتستفيد من تراثهم، وقد صدرت عدة كتب في تراجم علماء هذه الدولة، إلا أن معظمها لا تخرج من إطار التقليد والمتابعة، والنسخ واللصق، وحشو الصفحات بالقصص والكرامات، دون الاهتمام بمواطن الدروس من حياتهم، وأخذ الزاد من مشكاتهم، ثم إن هذه الكتب كلها كتبت باللغة البنغالية، فكانت فوائدها مقتصرة على حدود البنغال، وعلى الناطقين بهذه اللغة، أما المسلمون في العالم كله فلم يكن لهم حق في قراءتها، ولا نصيب للاستفادة منها، هنا جاء الأخ المكرم ميزان هارون- حفظه الله- وكتبَ هذا السفر بالعربية، وبذلك ملأ ثغرةً كبيرة، وأسدى خدمة جليلة ليست إلى الأمة البنغالية فحسب، وإنما إلى الأمة الإسلامية بكاملها.

أما بدورنا فقد كنا نعرف ونعترف بأن اللغة العربية هي أوسع باب للتعرف على الإسلام، وأكبر نافذة للاطلاع على الشريعة، فلا يمكن التضلّع من الشريعة والرسوخ في القرآن والسنة إلا بإتقان هذه اللغة وإجادتها، لذلك كنا نحرص دائما أشد الحرص على نشر اللغة العربية في الديار البنغلاديشية، ونخطط لبذل كل نفس ونفيس في هذا السبيل، بل وتحقيقا لهذا الهدف أنشأنا "دار البيان"، لتكون منصة نقوم عليها، ونرفع منها راية اللغة العربية خفاقة، وهذا الكتاب المبارك- إن شاء الله- هو بداية مشوارنا، ومقدمة أحلامنا، وباكورة طباعتنا العربية، نتمنى أن ينال الترحيب من القراء، ونسأل الله أن يتقبل منا وينفع بهذا الكتاب الناس، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أبو مريم

دار البيان، داكا

تقديم

فضيلة الشيخ العلامة محمد سلطان ذوق الندوي- حفظه الله

مدير جامعة دار المعارف الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المرضيين، ومن تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

فإنني لم أبق صالحا لأكتب مضمونا مستقلا ولا نقدا أو تعليقا على كتابة أحد، لانحراف صحتي وعلالة طبعي التي جعلتني رهين الفراش منذ سنوات، أرجو الله العافية، في هذه الحالة الصحيّة يقترح مني الأخ ميزان هارون كتابة كلمة أو رأي على تأليفه- "رجال صنعوا التاريخ وخدموا الإسلام والعلم في بنغلاديش"،(١) فتسلية لقلبه وتشجيعا على عمله أخذت القلم، وبالله التوفيق.

تصفحتُ أوراق هذا الكتاب الذي ألّفه هذا الكاتب الشاب المجتهد وجمع تراجم العلماء والدعاة إلى الله في بنغلاديش الذين يستحقون أن يكتب ما صنعوا بماء الذهب، فيهم رجال سقوا حقول العلم والمعرفة بدعوتهم ودمائهم ونذروا أعمارهم لخدمة الإسلام والعلم، وهم الذين تركوا لنا ثروة قيمة من علوم القرآن والسنة، وفيهم فقهاء ومفتون وقضاة، وفيهم مصلحون ومجددون، قاموا بأعمال إصلاحية وتجديدية لدحض الشرك والبدع، ونشر السنة النبوية، لولا جهدهم وجهادهم لامتلأت هذه البلاد

---

(١) عنوان الكتاب ليس من وضع المؤلف، بل شيخنا المقدم- حفظه الله ورعاه- هو الذي اقترح هذا العنوان، فوجدناه أحسن العناوين وثبتناه.

بغياهب الشرك والخرافات، فيهم شخصيات عملوا في ميادين السياسة الإسلامية كأبطال مجاهدين وجنديين في معارك الجهاد، وفيهم فرسان القلم مداد أقلامهم أزكى وأطيب من دم الشهداء.

فأعجبني ما قرأتُ في هذا الكتاب من سير هؤلاء الأعلام، بأسلوب رائع وعبارة شيقة تأخذ بأعنة القلوب.

أرى المؤلف العزيز بذل جهودا جبارة للأسفار إلى مناطق سحيقة وجمع معلومات من خلال لقاءات مع العلماء والدعاة وتلاميذ هؤلاء الرجال، والمتصلين بهم، والأسفار في بنغلاديش ليست بسهلة، ستكون هذه المعلومات حلقات لسلسلة العمل الجليل على نطاق أوسع في ترتيب التاريخ العلمي والدعوي لهذه البلاد، التي أنجبت أفذاذا من العلماء والدعاة والمصلحين، لو كانت مواطنهم في الهند أو باكستان أو الدول العربية لكان لهم شأن، وكان مراكزهم غير ما نراها.

أدعو لهذا الكاتب المجتهد أن يتقبل الله منه هذا الجهد ويوفقه لمواصلة العمل في مجال العلم ويبارك في حياته، إنه ولي التوفيق.

كتبه بخطّه: محمد سلطان ذوق الندوي

١٤٣٩/٥/٤هـ

جامعة دار المعارف الإسلامية، شيتاغونغ، بنغلاديش

تقديم

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الله السهلي- حفظه الله

أستاذ العقيدة والمذاهب، جامعة الملك سعود



الحمد لله الذي امتن على أنبيائه ورسله بما آتاهم من العلم، دلالة على عظم المنّة، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [النساء:١١٣]

سبحانـــك اللهم خير معـلم	علمت بالقلم القرون الأولـى
أرسلت بالتوراة موسى مرشـــدا	وابـــــن البتول فعلم الإنجيلا
وفـــــجرت ينبوع البيان محمدا	فسقى الحديث وناول التنزيلا

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الخير نبينا ورسولنا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فقد سرني كثيراً اجتهاد الابن الفاضل الشيخ ميزان هارون في طلب العلم، الطالب في قسم الدراسات الإسلامية جامعة الملك سعود، فهو من الطلاب المتميزين النابهين، ولديه رغبة عظيمة في التزود من العلم الشرعي، والعلم هو سبيل رقي الأمم والنهوض بها، إنه الطريق الموصل للجنة لمن

حسنت نيته وصلحت سريرته، كفى بالعلم فضيلة : أن يدعيه من ليس فيه، ويفرح إذا نسب إليه؛ وكفى بالجهل : أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه .

والمسابقة في العلم والسهر فيه من المكرمات التي يتسابق أهل الفضل فيها كما قال الشاعر:

وسهرتمْ في المكرمات وَكَسْبِها   سهراً بغير هَوىً وغيرِ سَقام

و الشيخ ميزان وفقه الله وسدده يقدم اليوم هذا السفر المبارك الذي سماه "رجال صنعوا التاريخ وخدموا الإسلام والعلم في بنغلادش" ترجم فيه لمائة وثلاثة من الأعلام، في هذا البلاد الغالية من بلاد المسلمين، بلاد البنغال، التي يعيش فيها أكثر من مائة وستين مليونا، فهو يبرز جهود هؤلاء الفضلاء، وقد بذل فيه الكثير من الوقت والجهد، وحاول أن يتخلص مما يذكر في بعض التراجم من الخيالات والأوهام، والمبالغات .

أسأل الله أن يوفق علماء بلاد البنغال وكل علماء المسلمين إلى ما يحبه ويرضاه، من العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يجمع كلمتهم على الحق، وأن ينصر بهم دينه ويعلي بهم كلمته، وأسأله سبحانه أن يوفق الشيخ ميزان، وأن يرزقه العلم النافع والعمل الصالح، وأن ينفع به ويسدده، إنه سميع قريب مجيب .

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أخوكم

أ.د. عبدالله بن دجين السهلي

أستاذ العقيدة بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية . جامعة الملك سعود الرياض

كلمات بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فبعد عمل دؤوب وسعي حثيث وسهر مستمر دامت أربع سنوات تقريبا خرج هذا السفر المبارك إلى النور، ولم يكن له أن يخرج إلا بعد أن أغدق الله على مؤلفه نعم الصحة والعافية، والصبر على البحث والاستقصاء، والمتابعة والمراقبة، وعلى السير في طول دولة بنغلاديش وعرضها، وزيارة مآثر العلماء ومعالمهم، واللقاء مع ورثتهم وحملة ميراثهم العلمي والدعوي، والحديث معهم، وتسجيل تاريخهم وتجاربهم، وهكذا جاءَ هذا السفر يحمل في طياته قصصا كثيرة، طويلة وقصيرة، وللمؤلف حق أن يحكي بعضها إن لم يكن كلها.

لما كان كاتب هذه السطور صغيرا لم يتجاوز الربيع السادس عشر من عمره، وكان في بداية شبابه، تعرّف على تلك الشخصية العملاقة التي كانت نادرة في تاريخ شبه القارة الهندية، بل في تاريخ الإسلام المعاصر كله، وهي شخصية علامة الهند وداعيتها السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومنذ اليوم الذي تعرّف فيه الصبي على الشيخ الندوي أحس في قلبه بشوق عامر ورغبة جياشة في الوصول إلى أعماق حياته وسيرته، وانبهر بإنجازاته، ومدى خدماته وكثرة أعماله، فهب يبحث عن مقومات نجاحه ومفاتيح سعادته، ودوافع عمله من أجل الإسلام والأمة- دون حزب أو جماعة- طوال حياته، حتى صار الصبي يسير على آثاره، ويحب طريقة فكره واستراتيجية عمله، ويستعين بخبراته وتجاربه في ميدان الحياة، ومجال التأليف والكتابة، وحقول الدعوة والتجديد.

هنا أثناء العيش مع مؤلفات الشيخ الندوي، وقع في يده كتابٌ له بعنوان "المسلمون في الهند"، وقد كتب الشيخ في مقدمته: "كنتُ في رحلتي في الشرق الأوسط أواجه سؤالا كان يتكرر ويوجه في كل مسجد وفي كل مناسبة: ما عدد المسلمين في الهند؟ فأجيب أنهم أربعون مليونا، وهناك يندهش الناس ويندفع بعضهم قائلا: يا سلام! أربعون مليونا! فلولا ثقتهم بالضيف ولا الجد في الجواب، لسارعوا إلى التكذيب أو الشك على الأقل...، بل قد كان بعض الإخوة يسأل: هل في الهند مساجد؟ هل فيها مدارس دينية؟ هل عندكم علماء، هل يوجد هناك من يحسن أن يقرأ القرآن؟ هل هناك من يفهم العربية؟ أسئلة تدل على أن معلومات إخوتنا العرب عن المسلمين في الهند ضئيلة جدا، وتدل كذلك على تقصير علماء الهند في القيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم، وبهذه الأمة الإسلامية العظيمة التي مثلت دورا رائعا في تاريخ الإسلام وتاريخ العلم العام...".

لو وقع هذا للشيخ العلامة الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد وقع للكاتب هو الآخر، خصوصا منذ أن وصلَ إلى السعودية، وبدأ يعيش في جامعتها ومساجدها ومدارسها، ويختلط مع مجتمعاتها، فكأن الأسئلة نفسها كانت

تتكرر على أذنه كل يوم: كيف المسلمون في بنغلاديش؟ وهل عندكم علماء ودعاة؟ وكيف خدماتهم في نشر التوحيد، وإحياء السنة وإماتة البدعة؟ والذين كان لهم إلمام بهذه الدولة كانوا يعرضون أسئلة أعمق منها: لماذا البدع منتشرة في بنغلاديش؟ ولماذا الحالة السياسية متدهورة؟ وماذا موقف العلماء من هذه الأزمات الدينية والسياسية؟ وهل أدى علماء بنغلاديش دورهم في الدعوة والإصلاح؟ وهل أدى أمانتهم في ميدان السياسة، وقهر الظلم والظالمين، وتحكيم القرآن والسنة في بقعة يزيد عدد المسلمين فيها على مئة وخمسين مليونا!

منذ ذلك الحين كانت هذه الأسئلة لا تفارقه في حله وترحاله، ونومه ويقظته، بل كانت تطيف به في أحلامه، فكان يتساءل :لماذا هذا الغموض كله؟ ولماذا أثيرت هذه النقاع كلها حول علماء بنغلاديش ورجالها؟ وأين مصدر هذا الخمول؟ ثم يستمر سائلا: وهل قدّم علماء بنغلاديش أنفسهم إلى إخوانهم العرب؟ وهل نهض فيهم من يعرّف نفسه وإخوانه بالعالم العربي، ويكشف النقاب عن تاريخهم ودورهم في الدفاع عن الدين ونشر السنة في هذه البقاع؟ وهل سجل أحد تاريخ علماء هذه الدولة ودعاتها ومصلحيها؟ فكانت الإجابة بـ"لا"!

لقد كان واجبا على علماء هذه الدولة أن يدرسوا تاريخ علمائها ودعاتها، ويقوّموا إنجازاتهم ونجاحهم في الدعوة والإصلاح، ويرصدوا سيرهم وأيامهم، ويستثمروا تجاربهم، كما يسجلوا العقبات التي وضعت في طريق الدعوة والنهوض بالأمة المسلمة البنغلاديشية، وهنا ثارت في نفس راقم هذه الحروف الحمية الإيمانية والغيرة الأخوية، ورأى أن تقصيرا فادحا قد وقع، وبقي واجب أوجب بلا أداء، فلا بد أن يزاح الستار عن تاريخ علماء هذه الدولة ودعاتها وكثير ما هم، فيُختار أعلامهم وأكابرهم، وترسم حياتهم وتجاربهم، ثم تعرض على العالم الإسلامي، وخصوصا على العرب وبلغتهم، لكي يتم التعارف بين العرب والعجم، وبين الإخوة المسلمين، ويسهل طريق التعاون على البر والتقوى، فنزل مع ضعفه وقلة زاده ونبوة سيفه في الميدان عند خلوه، إذ الراجل أولى عند غياب الفارس! والقليل خير من المعدوم!!

من هنا بدأ السير مع هذا الكتاب وبدأ السهر، والبحث والتنقيب، وبدأ السفر واللقاء، واستمرّت الجهود المضنية قرابة أربع سنوات، حتى جاء الكتاب في هذه الحلة، يختار بين دفتيه صورة مئة رجل وزيادة، من آلاف الرجال الذين مضوا في تاريخ الأمة البنغالية، وصنعوا تاريخ العلم والتعليم، والدعوة والإصلاح، والسياسة والقيادة، في ربوع البنغال -شرقها وغربها- عموما وفي دولة بنغلاديش خصوصا، إذ لا يمكن الإحاطة بجميعهم وتفصيل حياتهم وجهادهم في إطار ضيق مثل هذا، وليس هو موضعه، بل جاء هذا الكتاب كمقدمة، وكنقطة الانطلاق لمسيرة طويلة ممتدة على قرون، وكإشارة خضراء للكتاب والباحثين بأن هناك مجالا أوسع وأشمل للتأليف والتسجيل، وأن عملا موسوعيا لا يزال على كواهل العلماء، وأن مشروعا تاريخيا ضخما لا يزال في انتظار البناء والبناة.

يتحدّث هذا الكتاب عن مئة وثلاث شخصيات من العلماء والدعاة والكتاب والمصلحين والسياسيين، حديثا مرتبا حسب تاريخ الوفيات، ومقسما على الإجمال والتفصيل، فيترجم لتسع وخمسين بالشكل التفصيلي، ويتحدث عن أربع وأربعين بالشكل الإجمالي وفي الهوامش، ولا يفهمنّ القارئ أن التفصيل دليل الخيرية والأفضلية على الإجمال، فليس الذين جاءت حياتهم وسيرهم بشكل تفصيلي أفضل بالضرورة من الذين جاءت حياتهم بالشكل الإجمالي وفي الهوامش، لأن السبب في اختيار هذا المنهج يرجع إلى أمور، أولها وأهمها قلة المصادر والمراجع، وعدم توفر المعلومات، ثم إن الذين لم يرد ذكرهم في هذا الكتاب- وهم الأكثر، فعدد مئة وثلاث شخصيات من تاريخ بنغلاديش لا يعد شيئا ذا بال إذا قورن بعلماء ورجالات الإسلام جميعا في هذه البقعة المباركة- هم ليسوا دون الذين جاء ذكرهم، وليس أصحاب الكهف أفضل من الرسل الذين لا نعرفهم! لأن المعيار الأساسي كان في اختيار الشخصيات هو العمل في ميدان الدعوة والإصلاح، ونشر العلم والمعرفة، والتأليف والكتابة، والجهاد والحركات في مجال السياسة وتحكيم الشريعة، ومن هنا لقد كان هناك علماء ربانيون بقوا طول حياتهم بعيدين عن الضوء، وقضوا حياتهم في الخمول والخلوة، والزهد والربانية، والعبادة والإحسان، وفي المناجاة مع الله والاستغفار بالأسحار، وأدوا دورهم داخل حدود مدارسهم وخانقاهاتهم، فلم يخرجوا منها، ولم يكتبوا شيئا أو كتبوا قليلا فضاع، ولم يدخلوا في السياسة والقيادة، فلم يشتهروا ولم يعرفهم الناس، ولم يسجل لهم التاريخ تسجيلا! بينما عُرف من هم أدنى من هؤلاء بكثير، وسجّلت حياتهم وأعمالهم بتفصيل دقيق، إذ هم عملوا في النور والنهار، وتركوا مؤلفات ومؤسسات، ووقفوا مواقف تاريخية اشتهروا بها، فعرفهم الشعب وعرفهم التاريخ، إذن هذا الكتاب ليس ميزانا يزن الرجال ويحدد أثقالهم، ويميز بين مراتبهم ومستوياتهم، وإنما هو غيض من فيض، ومقدمة يضع النور على الطريق، وحلقة أولى للسلسلة الطويلة، ومؤشر إلى فراغ يجب أن يملأ ويعمل فيه.

ثم عرض المؤلف هذا الكتاب على الناشرين في العالم العربي، في السعودية ومصر ولبنان والكويت وغيرها من البلدان العربية، لأن الكتاب جاء بلغة عربية، ومخاطبه الأول هم العرب، ثم العالم، لكن للأسف لم يجد منهم تجاوبا ملحوظا، ولعل ذلك لأسباب أهمها غياب الاستقرار السياسي في العالم العربي، والتدهور الكبير الذي تسلط على الحركات العلمية والتأليفية في مناطق الشرق الأوسط مؤخرا، ثم عمر المؤلف وخبراته، ومستواه العلمي والعملي الذي لم يتجاوز بعد المرحلة الجامعية، ولم يعبر عتبة الثلاثين، فما قيمة قلم مؤلف في هذا العمر وفي هذه المرحلة، ما لم يبلغ الكبر ويتربع على كرسي المشيخة؟ ومن هنا قطع المؤلف أمله من نشره في العالم العربي، ووجّه انتباهه إلى وطنه بنغلاديش، لكنه- من حسن الطالع أو سوئه- واجه هناك الأزمات نفسها، لعدم رواج الكتب العربية- وخصوصا العلمية والفكرية- في هذه الدولة، وعدم إقبال الناس- بمن فيهم الطلاب والعلماء- عليها، وضعف اللغة والأدب حتى في الأوساط المثقفة، والعقلية المؤسفة لدى معظم الناشرين وموقفهم السلبي من نشر الأعمال الفكرية والبحثية الأصيلة، والتجاري مع التيار، والحرص على النسخ والترجمة، والتهاوي على الكتب التجارية الجالبة للمنفعة.

في هذه الفترة المتأزمة المظلمة جاء أخ غالٍ في الله، وجاء حبيب كريم، الأخ أبو مريم إسماعيل حسين صاحب "دار البيان"، فبسط يد المساعدة، وتحمّل نشر هذا الكتاب على كاهله، ولم يسبق لدارهم نشر كتاب

عربي ولا تجربة، فكان بمثابة مجازفة، لكن الحب إذا غمر القلب فاض الكؤوس، حتى صار هذا الكتاب باكورة نشرهم العربي بعد أن ذللوا جميع العقبات، وقهروا التحديات، فوفقهم الله وسددهم، وبارك فيهم، وحقق آمالهم وأحلامهم، وتقبل حبهم للإخوة في الدين وللغة العربية، ورغبتهم في تعليمها ورفع لوائها، ونشر تاريخ علماء هذه الدولة وعرضها على العالم.

وأخيرا لا ينسى المؤلف بعض الأيادي البيضاء التي كانت دوما ممتدة إليه، وعاملة معه وراء الستار، بدءا من الأسرة والأقارب إلى المشايخ والأساتذة، ويخص هنا بالذكر عددا من الإخوة الذين باشروا الجهد، وأتعبوا أنفسهم، وزوّدوه بالمصادر والمراجع، ومثلوا دورا لن ينسى في تحقيق هذا المشروع، بمن فيهم الشيخ المفتي محفوظ الحق نجل شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، رئيس الجامعة الرحمانية العربية بداكا، حيث فتح للمؤلف باب مكتبة الجامعة الغنية، واستفاد منها أياما وليالي متتالية، ثم أستاذه الكريم الشيخ المفتي واجد علي، نائب رئيس الجامعة المحمدية الإسلامية بداكا، كما يشكر الأخ الكبير الدكتور محمد أمين الحق، والأخ مولانا طه حسين محمد دانش، والأخ محمد شعيب أحمد، والأخ منظور أحمد، والأخ احتشام الحق النعماني، والأخ سعيد حسين، والأخ محمد منهاج الدين، والأخ حسين محمد نعيم الحق، والأخ محمد شهادت فيصل، والأخ عبد القادر معصوم، وغيرهم كثيرون إن لم يعرفهم الناس فالله عرفهم وكتب أسماءهم عنده.

كما يتقدم ببالغ الشكر والتقدير إلى الشيخ العلامة محمد سلطان ذوق الندوي لتكرمه بتقديم الكتاب رغم ضعفه وتدهور صحته، وإلى شيخه الغالي الأستاذ الدكتور عبد الله السهلي لتكرمه بكتابة سطور قيمة رغم تزاحم أعماله وتضايق وقته، والذي كان– ولم يزل– بمثابة دوحة كبرى للمؤلف، يظلّه ويسقيه ويربّيه.

وختاما يسأل الله المؤلف أن يرزقه الإخلاص فيما يقول وفيما يكتب، ويتقبل منه هذا العمل قبولا حسنا، ويكتب له النشر والإفادة، وينفع به البلاد والعباد، كما يطلب من القراء أن لا يترددوا في تنبيه المؤلف عن الأخطاء وتزويده بالملاحظات النافعة، فكتاب أو موضوع مثل هذا ليس عمل إنسان واحد، وإنما هو عمل لجنة محكمة وجماعة كبيرة، لكن الله أعلم حيث يجعل رسالته ويؤتي من فضله من يشاء، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ميزان هارون

٢٢/١١/١٤٣٩هـ الموافق ٤/٨/٢٠١٨م

سكن الطلاب، جامعة الملك سعود، الرياض

nadwi1999@gmail.com

المجتمع البنغالي المسلم بعد سقوط البنغال

في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي كان المسلمون في الهند عامّة، وفي البنغال خاصّة على فوّهة بركانٍ حيّ على وشك الانفجار، وكانت جذوة الثأر والانتقام، والمقاومة والمجابهة ملتهبةً في قلوبهم، بعد أن جثم عليها الغرب بكلكله، وجاءَ بحضارته وجنوده، لتدمر حضارتها، وتحلب خيراتها، وتسلب حريتها، فأصبحت البنغال ترتجّ بالثورات، ونداء العلماء بالانتفاضات، وإعلان القادة بالحروب ضدّ الأعداء المحتلّين لأرضهم، والناهبين لأموالهم، والمعتدين على أعراضهم؛ لأن البنغال هي التي كانت المحطة الأولى لاحتلال بريطانيا للهند، ونقطة انطلاق هذا العار، وبداية الاستعمار!

وإن كان الاحتلال قد جاءَ على المسلمين والهندوس على حدّ سويّ، إلا أنه كان للمسلمين أكثر ألما، وأفدح خسارةً، وأشدّ ذلّا وهوانا بالمقارنة مع الهندوس، فرأوا فيه الفزع الأكبر، بينما الهندوس تفاءلوا به، أو ظلّوا محايدين وغير مندفعين له على الأقلّ، واعتبروه قفزة في عالم الحضارة والأفكار العالية، ونقلة مهمة إلى الخير والفلاح، لأن الإنجليز وإن لم يأتوا لهم بخير، إلا أن أعدى أعدائهم وألدّ خصومهم– المسلمين– قد طُردوا من الحكم، وحُرموا من السلطان، هذا الذي جاءَ قرّة لأعينهم، وكفى طمأنينة لقلوبهم، وعدوّ العدوّ صديق، أما المسلمون فقد كانوا إلى الأمس سادة الهند وقادتها، وأصحاب الأمر والنهي فيها، حكموا هذه القارة العظيمة عبر ثمانية قرون، وشيّدوا حضارة إنسانية راقية عميقة الأبعاد، وكان علماؤهم منار الهدى وأساتذة الأرض، إلا أنهم نزعوا ثوب الجهاد، وطووا راية الفتوح، واستكان حكامهم إلى اللهو والدعة، وأصبح أمراؤهم وقادتهم سكارى بالشهوات والملذات، حتى خلتْ منهم القصور، وامتلأت بهم القبور، وأصبحت حكومة المسلمين كسلع التجارة في أيدي الإنجليز تُباع وتشترى، وأصبحوا جميعا رعايا للقوّة المحتلّة الغربية المتطفّلة، بلا قوّة ولا سلطان، فهانوا على الناس، وتألبت عليهم الدنيا، وأصبحوا مفلسين، وأصبحوا لا يقيم لهم الهندوس وزنا، بل يشمتون

بهم وينظرون إليهم شزرا![١]

ذلك كله إضافة إلى طبيعة هذا الدين الذي جاءَ ليظهر على الأديان كلها، وعلى الفلسفات والاتجاهات، والمناهج والمذاهب برمّتها، وبذلك يكوّن الإسلام في أتباعه روح القيادة والريادة، والإرشاد والتوجيه، فالمسلم الحقّ في إسلامه، يقود البشر إلى دينه، ولا ينقاد لدينهم، ويوجّه الناس إلى الخير الذي أدركه في هذا الدين، ولا يتوجّه باتجاهاتهم، لذلك لا نرى المسلمين في بقعة من بقاع العالم، على امتداد التاريخ، قد رضوا بعدوان المعتدين، واحتلال الغرباء المحتلّين لأراضيهم، وأطماع المستعمرين، وموقف الأمير المجاهد عبد القادر الجزائري أمام الاحتلال الفرنسي للجزائر، ودور أسد الصحراء وشيخ الشهداء عمر المختار في مقاومة الاحتلال الإيطاليّ لليبيا، ودور علماء الهند وعامة مسلميها في طرد الإنجليز والجيش البريطاني خير شاهدٍ على ذلك وواقع تاريخيّ، فهم الذين حملوا السلاح دفاعا عن الهند، وقدّموا صدورهم العارية لسيوف الأعداء، وكانوا في مقدمة الجند وعلى رأس النفيضة، حينما قبع الهندوس في قوقعتهم دفاعا عن أظهرهم.

وهذه الأسباب كلّها جعلت المسلمين وخصوصا علماءهم وشيوخهم قذى في عين الاحتلال، وأكبر عائق في نيل مآربهم، وتحقيق مطامعهم، فالإنجليز منذ أول يومهم على أرض الهند، كانوا على بيّنة بأن العلماء هم أزخر مصدر وأغنى منبع للقوّة الروحية، والحمية الدينية، والجذوة الإيمانية للشعب المسلم، وهم العزاء الأخير للمسلمين في كل بقعة بعد نبيّهم، فإنهم ورثته وحماة لدينه ورسالته، وأدركوا هذه الحقيقة بكل معانيها وصورها بعد سقوط البنغال ومن أول وهلة احتلالهم للهند، فرأوا العلماء يقومون لمقاومتهم، ويرفعون أصواتهم ضدّ احتلالهم واعتدائهم، وينادون بالنهضات، ويشعلون الثورات ويغذونها، من حين لآخر، حتى تذبذب أمرُ الإنجليز، وأصبحوا في حيرة من المسلمين، وطواهم اليأس، واستبد بهم القنوط، وانقطع أملُهم في التحكّم على الهند، لأن ألسنة العلماء- وهي غضاب- تعمل ما لا تعمل السيوف العضاب، لذلك أخذت الحكومة الإنجليزية المحتلة هذه الحقيقة بعين الاعتبار، ففكرت وقدرت، ودبرت دسائس لتقليم أظافر المسلمين، والقضاء على معنوياتهم، حتى يخلو لها الجوّ تفعل بهم ما تريد، من القتل والنهب، والنفي والتشريد، والإبعاد عن الوظائف وخيرات البلاد.

إلا أن الأبواب المجيدة لتاريخ الجهاد والفداء والتفاني في سبيل الله ورفع كلمته في شبه القارة

(١) اقرأ في كتاب العائمية في سياسة شبه القارة الهندية والمسلمون، تأليف عبد الواحد، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش (١٩٨٣م)

الهندية وفي هذه الفترة الحرجة الدقيقة التي كُتبت على أيدي قادة المدرسة الدهلوية الجهادية، على رأسهم الإمام شاه عبد العزيز الدهلوي، والإمام أحمد بن عرفان البريلوي، والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، وقادة حركة ديوبند وبناة هذه المدرسة، على رأسهم مولانا محمد قاسم النانوتوي، ومولانا حسين أحمد المدني، ثم خلفاء الإمام البريلوي في البنغال، أمثال الشيخ نور محمد النظامبوري، والشيخ إمام الدين البنغالي، والشيخ كرامت علي الجونبوري، ثم بعض رواد الدعوة والإصلاح والجهاد ضد الاحتلال، مثل الحاج شريعت الله في شرق البنغال، والسيد نثار علي تيتومير الشهيد في غرب البنغال، كلّها كانت نتيجة طبيعية لفطرة هذه الأمة، وتربية هذا الدين، وتمثيلا حيّا واقعيا لدور العلماء المسلمين المثالي في تاريخ الإسلام، وكلها جاءتّ في هذه الفترة التاريخية المهمّة الدقيقة، وتتابعتّ كحبّات لسلسلة متينة في غاية الاتّساق، فترة تبعتّ سقوط البنغال عام ١٧٥٧م واستمرّت قرنا كاملا لتنتهي في ثورةٍ كبرى عام ١٨٥٧م.

الحاج شريعت الله

(١٧٨١ - ١٨٤٠)

الداعية المصلح، رائد النظام الإسلامي في البنغال، قائد الحركة الفرائضية

جو حالك ينتظر النور

بعد سقوط البنغال عام ١٧٥٧م أطبقتْ على مسلمي البنغال ليلةٌ حالكةٌ من الظلم والظلام، والطغيان والعدوان، ليلةٌ كلها ظلم وجورٌ، ووقاحة ورقاعة، واعتداءٌ على النفوس والأعراض، وامتهان الكرامات، ونهب الممتلكات والخيرات، والحرمان عن الحقوق، فتعاظمت بلوى المسلمين، واشتدت محنهم، وبلغ منهم الاضطهاد والانهزام كل مبلغ.

كانت الهند قرونا طويلة ترفل في ظل الحكومة الإسلامية باستتباب الأمن والاستقرار، والسعادة الحقة، والرفاهية والسيادة، والمجد والعزة، وكان المسلمون حتى الأمس أصحاب الأمر والنهي في البلاد، وكانوا يأخذون الضرائب من الرعايا المسلمين والهندوس، فيأخذونها بصفاء وإنصاف، ويجمعونها في خزانة الدولة العامرة، ثم يستثمرونها استثمارا، أما اليوم فقد وُكل إلى الهندوس إخراج الضرائب والجبايات من المسلمين، فكانوا طغاةً، وكانوا شرّ جباةٍ.

الذين كانوا حتى الأمس على عرش السلطة، وفي القصور الحمراء، وكانت الدنيا حولهم روضةً من رياض الجنة، وكانت تلك الأيام كلها أعراسا، فلما قصّروا في جنب ربهم، وتجاه دينهم، وتقاعسوا عن مسؤولياتهم نحو الوطن والشعب، وتقاعدوا عن حمل الدعوة إلى دينهم، والتضحية في سبيله، وأعرضوا عن تطبيقه، هلك عنهم مالهم، وما أغنى عنهم سلطانهم، وذهب عزهم ومجدهم، وفقدت كرامتهم وسيادتهم، وأصبحوا اليوم مفلسين، هائمين على وجوههم، يتخبّطون في الحياة خبط عشواء، ويضطهدهم فيهم أراذل الأمم.

طفّف الإنجليز الكيل مع المسلمين، وعاملوهم معاملة الأذلة الصاغرين، فتجففت لهم ينابيع الحياة الكريمة، وانسدّت دونهم أبواب الوظائف الحكومية على مصراعيها، وفقدوا حقوقهم الدينية، جاءَ ملاك الأرض من الهندوس المتشددين وأخذوا بناصية الحكم نيابة عن الإنجليز، حتى قامت الدولة الجديدة على أكتافهم، وأصبح الحكم فيهم ملكا عضوضا، ففرضوا الضرائب على الملح، وعلى لحية المسلمين، وحرّموا رفع الأذان وذبح البقر في أحيائهم وأعمالهم، وأمروا المسلمين بالمشاركة المالية في مناسبات الهندوس وتقديم المساعدات المادية في احتفالاتهم من جانب، وأجبروهم على الأخذ بالزيّ الهندوسي، وبتقصير اللحى وإعفاء الشوارب بالقوّة من جانب آخر، وبالجملة كان كل ذاك عاصفة هوجاء ضربت المجتمع البنغالي المسلم، لتقضي على حضارتهم وثقافتهم عن آخرها، ولتمحو هويتهم الدينية التي احتفظوا بها أكثر من ألف عام، وسط لجّة طاغية صاخبة من الثقافات الوثنية والخرافات البوذية، ولم ينسوها لمحة بصر، فلما جاء اليوم الإنجليز، تكاتف معهم الهندوس، لتصفية حسابهم مع المسلمين، حساب يمتدّ على قرونٍ.

طلوع الصبح

في هذا الجوّ المكفهرّ، وفي هذه المرحلة التاريخية الدقيقة لمسلمي البنغال، وفي عصر انحلال السلطة الإسلامية في الهند، وتولي الإنجليز مقاليد أمور الدولة، وُلد طفلٌ عام ١٧٨١م [١] في منطقة «فريدبور» من شرق البنغال (حاليا محافظة «مداريبور» في بنغلاديش)، [٢] ليكون يتيم أبيه وأمه بعد الولادة بسنوات،[٣] وينشأ في حضن عمّه، ويتربى تحت ظلاله، ثم ليكون يتيم دهره، وفريد قرنه! وذاك الطفل اليتيم هو شيخنا المصلح المجاهد، قطب البنغال،[٤] ومؤسس أول حركة دينية وإصلاحية واجتماعية وسياسية في هذه البقعة،[٥] الحاج شريعت الله، الذي نشأ يتيما ليكون عظيما، وليعيش خالدا في

(١) علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص١٨

(٢) حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف محمد عبد اللطيف البريسالي، ص١

(٣) أذكى الحسد والتعصب لبعض المؤلفين- حتى المنتسبين إلى الإسلام- إلى أن تنكّروا لوالد الشيخ شريعت الله، وزعموا بأنه غير معروف النسب! مع أن والد الشيخ عبد الجليل (تعلقدار) كان إنسانا وجيها شريفا، معروفا بين قومه بجاهه ومكانته، انظر مثلا British Policy and the Muslims in Bengal ١٧٥٧-١٨٥٦, Azizur Rahman Mallick, p. ٧٧ وكذلك Islam in Bangladesh, Razia Akter Banu (١٩٩٢) p. ٣٥ واتهموا حركة الشيخ شريعت الله وجهوده للنظام والمساواة والإصلاح بأنها فوضى وشغب ولا تنظيم، وسنرى القضية نفسها في حياة تيتومير، انظر مثلا Land of two rivers, Nitish K. Sengupta (٢٠١١), p. ٢٢٩

(٤) هكذا لقبه شيخه، مولانا أبو ظاهر السهمي، ينظر للتفصيل في حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف محمد عبد اللطيف البريسالي، ص ٤١

(٥) Islam in Bengal (from thirteenth to nineteenth century) Jagadish Narayan Sarkar, p. ٥٣

التاريخ، فاليُتم لم يكن قطّ مأساة في تاريخ الأعلام والعظماء، وناهيك باليتيم محمد عليه الصلوات والسلام، وهو سيّد العظماء.

نشأته وتعاليمه

نشأ شريعت الله في قريته وراهق، وأخذ العلم عن عمّه، ثم سافرَ إلى كلكتا حاضرة البنغال الثقافية آنذاك، وقبلة رجال العلم والأدب، ومركز الحضارة، وملتقى المشاهير والأعلام، وذهبَ عند الشيخ بشارت علي الذي كان معروفا بعلمه وصلاحه، وكان عالما تقيّا ربانيّا، فأعجب به شريعت الله وتمسّك بجواره، وأخذ يستفيد من علومه ومعارفه، وهديه وورعه، كما أدخله الشيخ بشارت علي في مدرسة هوغلي، وتحمل مصاريفه الدراسية على كاهله، وتعهدّه بالنصح والرعاية، والعون والمساعدة، وهكذا مضت سنون ولما يبرز في شريعت الله ما يلمّح إلى مستقبل باهر، ودور خالد ينتظر في حياة مسلمي البنغال على مرّ التاريخ!

حنين المؤمن الصادق إلى بيت الله

هكذا مضتْ أعوامٌ حتى خطر ببال شريعت الله بيت الله الحرام، واغتمر قلبه وروحه حبا عامرا للحرمين الشريفين- زادهما الله شرفا- وحنينا غريبا لشدّ الرحال إليه، وأداء المناسك في رحابه، وزيارة مسجد الرسول، وإلقاء السلام واقفا بين يديه ﷺ، هذا الشعور كان غريبا له، طرأ عليه بلا مقدمات وإرهاصات، وهكذا يكون قدر الله للإنسان، فالمستقبل الباهر الذي ينتظره كان مناطا بهذه الرحلة المباركة، ليشهد نقطة حيّة ماثلة بين الله وبين الإنسان، وليختلط مع المسلمين من بقاع وألوان وأجناس شتى، فيستمع إلى تجاربهم في الدعوة والإصلاح، وتاريخهم في الحفاظ على الدين والدفاع عن كيان الأمة، ويعيش فترةً عامرةً في أطهر بقاع الأرض، وليأخذ دروسا حيّة لحياة البشر، وأساليب نهضة الأمم والوقوف في وجه الطواغيت، وتحقيق انقلاب شامل في الميدان، هذه هي دروسٌ قيمة مثاليةٌ قلما تُوجد في صفحات الكتب ورفوف المكتبات.

في رحاب الحرم

خرجَ شريعت الله ميمما شطر الكعبة مع شيخه بشارت علي، حتى وصلَ إلى مكة المكرمة، وكحّل عينيه بأنوار البيت العتيق، وأكمل مناسك الحجّ، وقضى فيها مدّة يدرس ويتعلم، ويستفيد من العلماء، ثم حانَ أوان الوَداع، لكن كانت في نفسه حاجة أراد أن يقضيها، فآثر البقاء في الأرض

المقدّسة وفي جوار بيت الله، وفي مركز الإشعاع الفكري والروحي، وهذا البقاء استمرّ لفترة طويلة تناهز ٢٠ عاما،[١] فترة ملؤها العلوم والمعارف، والاستفادة من العلماء وقادة الحركات الدعوية والإصلاحية، وزيارة المصلحين، وانتجاع مجالس الشيوخ، ومجالسة أهل العلم والأخذ منهم، كما أقام سنتين في القاهرة، واستفادَ من مكتبة الأزهر الشريف،[٢] حتى أصبح إنسانا غير إنسان عندما خرجَ من وطنه البنغال، إنسانٌ علّمته الحياة كثيرا، وحنّكته تجارب الدعاة وزعماء الإصلاح والتجديد المعاصرين، ولا حكيم إلا ذو تجربة، ومنحته خبرة طويلة، فأثرى بكل ذلك مكتبة حياته، ورسمَ خطّة صارمةً لتحقيقها في وطنه وفي أمّته.

نقطة تحول في الفكر والحياة

جاءَت نقطة تحوّل في حياة الحاج شريعت الله عندما كان بمكة، والتقى بدعاة الحرم والمصلحين للدولة الجديدة القائمة على أساس التوحيد النقي، والدعوة إلى الإسلام الخالص من الشوائب، الدولة التي وضعَ حجر أساسها الديني، والدعوة التي أرسى دعائمها المصلح الكبير الإمام محمد بن عبد الوهّاب رَحِمَهُ اللهُ (١٧٠٣-١٧٩٢)، لكن للأسف أنه لا يزودنا التاريخ بمعلومات وافرة عن هذه المرحلة من حياة الحاج شريعت الله، ولا يذكر مشايخه الذين أخذ عنهم منذ وصوله إلى الحرمين حتى مغادرته، لكننا نعلم بأنه لم يكن هناك لقاء بين الحاج وبين الإمام، فقد توفي الإمام قبل وصول الحاج إلى بلاد الحرمين، على حين ذكر بعض المؤرخين أن الحاج شريعت الله لقي ببعض خلفاء الإمام وتلامذته الذين تربّوا على يديه وتخرّجوا في مدرسته، فاستفاد منهم، ورسمَ خريطة عمله في ضوء حركة الإمام المجدد وتجاربه، حتى أطلقوا على حركته الفرائضية "وهابية" وأعادوا جذورها إلى الدعوة السلفية.

لكننا لسنا على يقين بوجود هذه الصلة المباشرة بين الحركة الفرائضية والدعوة السلفية، فإن التاريخ لا يزوّدنا بشيء يرتقي من درجة الشك إلى درجة اليقين، ولو سلّمنا جدلا بأن الحاج شريعت الله تأثر بالدعوة السلفية، فإنه يقتصر على منهج الدعوة والإصلاح وخصوصا في باب التوحيد، أما الفقه فقد كان الشيخ يصرح بنفسه بأنه على مذهب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ في الفقه.[٣]

---

(١) Constructing Bangladesh: Religion, Ethnicity, and Language in an Islamic Nation, Sufia M. Uddin ٢٠٠٦) p. ٥٤

(٢) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. ٨٢

(٣) محمد عبد اللطيف البريسالي، صاحب ترجمة الحاج شريعت الله، ردّ على كون حركة الحاج شريعت الله حركة وهابية، وانتقد المؤلفين الذين سمّوها

الجمع الغريب بين الصوفية والسلفية

أثناء إقامته بالحرم التقى شريعت الله بالشيخ طاهر بن محمد سعيد السنبهلي، الذي كان فقيه النفس، ومتضلّعا في المذهب الحنفي،[١] حتى سُمّي بـ "أبي حنيفة الصغير"، وراسخ القدم في اللغة والآداب، وكان صوفيا قادريا، فاستفاد منه الحاجّ وأخذ العلوم الظاهرة، ثم بايعه في الطريقة القادرية،[٢] وعكفَ على تزكية النفس، ورياضة القلب، والاجتهاد في سبيل الحصول على درجة الإحسان، والربّانية السليمة، حتى نال منه الخلافة والإجازة،[٣] وهذا إن دلّ على شيء، فإنه يدل على رحابة صدر الحاج شريعت، وانفتاح قلبه، وسعة أفقه، فكأنه جمع بين المشرقين والمغربين، ووصل بين البحرين بينهما برزخٌ

"وهابية"، وصرّح بأن حركة الشيخ شريعت الله لم تكن حركة وهابية، وإنما هي فرية الإنجليز ليجعلوها قذى في عين الشعب البنغالي المسلم، وكانت هذه الحركة على نهج المذهب الحنفي، انظر حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف عبد اللطيف البريسالي، ص٦٣- ٦٤ وانظر كذلك Islam in Bengal (from thirteenth to nineteenth century) Jagadish Narayan Sarkar, p. ٥٥، وانظر كذلك History of the freedom movement in India, R.C Majumdar, Vol I, p. ١١٧

وقد أيدهم الدكتور معين الدين أحمد خان، أكبر مؤرخ للحركة الفرائضية وحياة شريعت الله، فذكر أن شريعت الله كان يقول عن نفسه بأنه حنفيّ! History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤) p. ٣٥, ٥٥، نعم إنه ربما تأثر بالدعوة السلفية أثناء إقامته في مكة، إلا أن حركته تختلف عن الحركة السلفية في معظم الأمور، من الاعتراف بالتصوف حتى التقليد، ولا تتفق مع الحركة السلفية إلا في نقطة التركيز على التوحيد، وهذا التأثر أو الاتفاق لا يجعل الحركة الفرائضية وليدة الحركة السلفية، انظر ٥٦ وما بعدها كذلك الأستاذ مهر علي ذكر بأنه تأثر بالوهابية، انظر History of the Muslims of Bengal Vol II p. ٢٤٢, ٣١٠، أما مؤلف سلفي هندي مولانا محمد يوسف البهتي فقد ذكر أن الحركة الفرائضية بدأها علماء أهل الحديث! انظر "بر صغير مين أهل حديث كي أوليات" (الأردية) ص١٢٢، وهذا ما فعله معظم كتّاب أهل الحديث في هذه الدولة، بلا دليل وبرهان، انظر على سبيل المثال ما كتبه الشيخ مصلح الدين في رسالته "الحركة السلفية في البنغال" (رسالة الماجستير في جامعة الإمام ١٤١٢هـ) بأن الحركة الفرائضية هي أول حركة ذات طابع "سلفي" في البنغال (ص ٧٩ وما بعدها)، لكن على أية حال، فإن إثبات هذا التأثر أو عدمه لا يقدّم من أهمية الحركة الفرائضية ولا يؤخرها في شيء، بل الجدل على إثبات ذلك أو نفيه لا يأتي إلا بالضرر على الأمة ومصيرها.

(١) اختلف المؤرخون في معرفته ومذهبه، فجعله البعض شافعيا، والبعض حنبليا سلفيا، والكثير جعلوه حنفيا صوفيا! انظر مثلا British Policy and the Muslims in Bengal ١٧٥٧-١٨٥٦, Azizur Rahman Mallick, p. ٧٧ وكذلك Encyclopedia of Islam, Vol II, p. ٥٧ حيث جعله كل منهما شافعيا، وانظر Islam in Bangladesh, Razia Akter Banu (١٩٩٢, Reprinted ٢٠١٢) p. ٥٧ حيث جعله "وهّابيا"، وانظر Political Ideology of Abul Ala Maududi, Dr. Zakirullah Firdausi p. ٦٩ ذكره حنفيا، وهذا هو الراجح، وقد مال إلى ذلك الدكتور معين الدين خان في كتابه، انظر History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤) p. ١٤٧.

(٢) History of the Muslims of Bengal, Dr. Mohar Ali Vol II A p. ٣٠٦

(٣) حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف محمد عبد اللطيف البريسالي، ص٢٤

لا يبغيان، فاستفاد من الحنابلة والحنفية، وربطَ بين السلفية والصوفية، وهي جامعةٌ ممتنعةٌ على أكثر الناس رغم حاجتها وجدارتها في الأمة الإسلامية في الماضي والحاضر، فالأرض التي كان للحاج شريعت الله أن يعمل فيها تتطلّب منه هذا الجمع الغريب المفيد، ليستمع الناس إلى كلامه وليستجيبوا بدعوته.

بداية الدعوة والإصلاح

في عام ١٨١٨م (أو ١٨٢٠م) عادَ الحاج شريعت الله إلى وطنه البنغال وهي مازالت مظلمة مظلومة، ترزح تحت وطأة الإنجليز وسطوة الهندوس، والإسلام لم يبق منه إلا اسمه، ولم يبق من الدين إلا مظاهره ورسمه، ولم يبق في يد المسلمين إلا سجّل الماضي السحيق، وتاريخ الآباء والأجداد، كانت البدع والخرافات متعمّقة الجذور في حياة المجتمع البنغالي المسلم، وكانت سوق الشرك والترهات الصوفية السخيفة نافقة رائجة، وكانت عبادة القبور، والطواف بمقابر أولياء الله، والسجود في أضرحة الصالحين، وسترها بالأردية، وتقديم النذور والقرابين للمزارات، ورفع الأعلام، وعزف المزامير، وذبح البقر والغنم فيها، وإيقاد المصابيح والسرج، والمبايعة على أيدي الفسقة، وتجار الدين، والمشاركة في المناسبات الهندوسية والاحتفالات الوثنية، كلها كانت على قدم وساق، بل العادات الجاهلية، والتقاليد الهندية القديمة، هي التي كانت لها صولة وجولة في المجتمع، حتى كادت أن تظهر ديانة خليطة من الإسلام والهندوسية.(١)

بالجملة كانت حياة المسلمين ربيبة الهندوسية، وهذه العوامل الدينية والخلقية هي التي جاءتْ بالإنجليز ومهّدت لهم طريق الاحتلال لهذه البقعة، فالمسلمون لا بدّ أن يعيشوا مع دينهم وبإيمانهم، وعلى عهد دائم بربّهم، كلما ينحلّ هذا العقد أو يحصل الخلل في هذه الرابطة، يضطرب حبلهم، وتتسلّط عليهم أمم الأرض بعتوّها وعدوانها، "إنا كنا أذَلَّ قومٍ فأعزّنا اللهُ بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزّنا اللهُ به أذلّنا اللهُ".

ثمار دعوة قائمة على التوحيد

أدرك الشيخ شريعت الله أن الحركة الإصلاحية لا بدّ أن تبدأ من الجذور، والماء لا بدّ أن يُصبّ في أصل الشجرة، لتعود إليها خضرتها ونضارتها، وحياتُها وشبابُها، فتنبت نباتا حسنا وتؤتي أكلَها، وعرف الشيخ بأن مسلمي البنغال إن كانوا بحاجة إلى شيء يعيد إليهم عزهم واعتبارهم، ويسترد لهم أرضهم

(١) انظر تاريخ البنغال الاجتماعي والثقافي، تأليف الدكتور محمد عبد الرحيم، (الترجمة البنغالية) ج ٢، ص١٩٥ وما بعدها وكذلك ٣١٢ وما بعدها بالتفصيل

وعقارهم، وعروشهم وكراسيهم، ومكانتهم الضائعة، ويقضي على كل مظهر من مظاهر الظلم والاستغلال، ويبني المجتمع من جديد، فهم بأشد حاجة إلى الإيمان، والإسلام الصحيح، والمحجّة البيضاء التي تركهم عليها رسول الله ﷺ، وما دام لا يتمّ ذلك، فمهما كانت الجهود تُبذل في النهوض بهذه الأمة، واسترجاع مجدها التليد وماضيها العريق، كلها تذهب في مهاب الرياح، وقد شهدَ لها مثالا حيّا بأم عينه خلال حياته في أرض الحرمين، مثال دولةٍ كانت دويلاتٍ متقطّعة، وإمارات سقيمة هزيلة متحاربة، فلما جاءت دعوة التوحيد، وتجاوب معها الناس، وصلح الإيمان، وقامَ الإسلام بصورته الأصلية النقية الصافية، استطاعوا أن يقطعوا أشواطا بعيدة واسعة المدى في التاريخ، فأعاد الله إليهم مجدَهم وتاريخهم، وأعاد للإسلام هيبته ونفوذه، وأصبحت لهم دولةٌ من أعظم الدول تتغنى بالمجد والشرف.

هنا صحّت عزائم الحاج شريعت الله على بدء العمل التجديدي بإحياء الإيمان في قلوب المسلمين، وإصلاح صلتهم بالدين، وعلاقتهم مع الله، قبل إصلاح أحوالهم الاجتماعية والسياسية والمادية، فبدأ العمل، لكن الشعب البنغالي المسلم كان في أحطّ أدوار الظلمات والجاهلية، وفي أعماق البحار، حتى واجهوا الدعوة المخلصة قبيح المواجهة، وكافؤوا الإحسان بالإساءة، فأصاب الشيخ خيبة أمل من وطنه وبني جلدته، وخرجَ يتوجّه إلى العالم، وحضرَ العراق وفلسطين ومصر، حتى وصلَ إلى مكّة المكرمة، قضى هذه المرة في أرض الحرمين قرابة عامين عاكفا على الدراسة والعبادة، والابتهال والتضرّع، والدعاء لشعبه، ثم أخذ طريقه عائدا إلى الوطن وهو مؤمن بقبول دعوته وانتشار رسالته.

عادَ الشيخ شريعت الله إلى البنغال، وأعلن بصوت مجلل على مسامع المسلمين: "أيها الناس! إن المسلم لا يخاف إلا الله، ولا يحقّ له أن يخاف إنسانا مهما كان قويّا وذا بطش وبأس، ومهما اشتدّ شرّه وضرّه، وهذا الخوف يتجلّى في القيام بأداء الفرائض على أحسن وجه يقدر عليه، وإن العلماء والأولياء لا يزيدون على أن يكونوا معلّمين ومربّين للمجتمع الإسلامي، وليسوا وسطاء بين الله وبين الناس، ولا شركاء لله في قضائه وقدره، فلا يستحقون السجود والركوع، والعبادة والنذور، بل هذه كلها شركٌ، تبعد الإنسان عن الله، وتحول دون الصراط المستقيم،" هكذا ركّز على التوحيد تركيزا بالغا، وركّز على البيعة والتوبة، مع التحذير من الشرك والبدع، والتقاليد الجاهلية، والعادات الهندوسية.(١)

بهذه الدعوة الحارّة الحيّة الدافقة بدأ الحاج شريعت الله حركته الإصلاحية، ونفخ في مسلمي البنغال

(١) انظر الحركة الوهابية، تأليف عبد المودود، ص٩٦

روحا جديدة من الحماس للدين، والحنين إلى الشهادة، والغيرة على الإسلام، مع التوبة والتقوى، والعودة والإنابة، واتباع السنّة، ونبذ الابتداع، والزهد في الحياة، وتحمّل المشاق في سبيل الله، حتى شاع أمرُه بين الناس وطبّق الآفاقَ، وعمّ مناطق البنغال شرقها وغربها، وبدأ الناس يكبّون على هذه الدعوة الفريدة من نوعها، دعوة لم يسمع بمثلها أحدٌ منذ فترةٍ طويلةٍ، ودعوة تذكّرهم بدعوة الإسلام الأصلية من أول هلة انطلقتْ فيها رحلتُها ورسالتُها، وإذا كانت ركيزة هذه الدعوة تتمحور حول فرائض الدين، وأركان الإسلام، والتوبة، ونبذ الشرك والبدع، جرى اسم هذا الحركة على ألسنة الناس بـ"الحركة الفرائضية"،[1] قبل أن تكون حركة النهضة السياسية والاجتماعية تعمل لاستعادة المجد وطرد الإنجليز.

الجبهة الجديدة في الحركة

فلما قويت الحركة، وشبّت عن الطوق، والتفّ حولها الناس، وكثر لها الأتباع والأسماع، وبدأ نورُ التوحيد وسنا الإيمان تلوح في أفق البنغال من جديد، وهبّ المسلمون يتدفّقون على الصلاة والجماعة، ويُقبلون على عبادة الله وحدَه لا شريك له، وانطلقت المساجد المهجورة منذ عقود ترفع اسم الله من جديد، وتملأ الجوّ بالأذان الشجيّ الساحر، وعمّت هذه الدعوة معظم أرجال البنغال، فتحَ الحاج شريعت الله جبهةً جديدةً في الحركة الفرائضية، وجناحا جديدا في هذه الكتيبة الإيمانية التي تكوّنت في البنغال تحت سمع الإنجليز والهندوس وبصرهم، لكنهم أحجموا عن الوقوف في طريقها مادامت الحركة رأوها تقف عند حدود الدين والإيمان، ولا تتدخّل في الاجتماع والاقتصاد، والشؤون السياسية التي قد تناهض مصالحهم وتحول دون مطامعهم، لكن هذه الجبهة الجديدة التي أراد الحاجّ المصلح أن يضيفها إلى الحركة الدينية السلمية كانت بمثابة مغامرة جريئة، قد تكلّفه أغلى ثمن يملكه في الحياة، فلو وقفَ بحركته عند هذا الحد لعاش في سعة من العيش وإقبال، وتمتّع بحياة هادئة مطمئنة، سليمة من المخاطرات والتهديدات، لكن الحاج كان إنسانا من الطراز الأول، فآثر مصالح الأمة على المآرب الشخصية، واختار بناء مستقبل الوطن والشعب على حساب مستقبله.

كيف وقد رأى بأم عينيه ما حل بالمسلمين في الهند من الكوارث والنوازل بعد ذهاب دولتهم، ومغيب شمس حرية الهند واستقلالها، واحتلال الإنجليز لها، ورأى ما آل إليه الشعب البنغالي المسلم من الانحطاط الاجتماعي والسياسي والقيادي والثقافي، وظلم الأقوياء للضعفاء، وتفريق المجتمع على أساس

[1] Islam in Bengal (from thirteenth to nineteenth century) Jagadish Narayan Sarkar, p. ٥٦

الطبقة مالم يسبق له نظير في تاريخه![1] كما لم يكن الشيخ بمنأى عن الحركات الإصلاحية والدينية والسياسية التي كانت تقوم على أرض الهند من حين لآخر منذ تسلّط بريطانيا على الهند عام ١٧٥٧م، ونهوض الأمراء والعلماء الغيارى على الدين والوطن لطرد الاحتلال من أرض الهند، والعودة بسلطان الإسلام والمسلمين فيها مرّة أخرى، بدءا من معركة «بلاسي» بقيادة السلطان سراج الدولة، ومرورا بمعركة «بوكسار» بقيادة النواب السيد (مير) قاسم، و«ثورة الفقراء» بقيادة الصوفي مجنون شاه وأصحابه، وأخيرا ظهور شهيد بالاكوت الإمام أحمد بن عرفان البريلوي وإسماعيل الدهلوي رحمهما الله وجهادهما في «وادي بالاكوت»، ثم ما حدثَ في ساحة «ناركيل باريا» للسيد الشهيد تيتومير وأصحابه، وقد وصلت إلى البنغال أصداء نداء الإمام عبد العزيز الدهلوي، وإعلانه المؤمن الجريء السافر "بأن الهند لم تعد دار الإسلام، وإنما أصبحت دار الحرب، فأصبح الجهاد فرضا على كل مسلم، لطرد الإنجليز المحتلين من دولة المسلمين"، سمعَ الحاج شريعت الله هذا النداء، وشاهد هذه الحوادث كلها، فنهض وسارَ على منوال سلفه المجاهدين، وكرّر نداءَ الجهاد على مسامع البنغال، فسمعه المسلمون، كما سمعه الهندوس المستغلّون والإنجليز المحتلّون.

ردة فعل من معسكر الأعداء

جاءَ نداء الجهاد على لسان الحاج شريعت الله، كصاعقةٍ على الهندوس والإنجليز، فقد كانوا لا يتصوّرون بأن مثل هذا النداء الجريء قد يرتفع من تحت أنقاض حضارةٍ بالية اجتثّت من قواعدها، وزحزحتْ عن مكانها، وحرمت من قوّتها وروحها، ودالتْ عليها الدولة، كما جاء هذا الإعلان كنداء سماوي جديد، وكنفخة روحية جديدة في كيان المسلمين، فقد كانوا يريدون النهوض والقيام، ولا يجدون من يأخذ بأيديهم ويهديهم إلى هدفهم المنشود، فأقبل عليه المسلمون إقبالا عظيما، وبلغ عدد أتباعه ومريديه من الكثرة حدا لا يحصرهم العد.

شاهد ملاك الأرض الهندوس والإقطاعيون في هذه الحركة قطعا لأملهم، وانهيارا لصرح مستقبلهم، ونقضا لأحلامهم، لأنهم أدركوا أن هذه الحركة تملك مقومات نهوض الأمة المسلمة البنغالية، الأمية الساذجة، الغارقة في الغفلة والانطواء والعزلة، وقد جاءت هذه الحركة لتُنبّههم من سكرتهم، وتُعيد إليهم

[1] انظر تفاصيلها في كتاب حركة ديوبند: تاريخها وتراثها وعطاؤها (البنغالية)، تأليف العلامة أبي الفتح محمد يحيى ص١٤٥ وما بعدها، وكذلك انظر History of the Muslims of Bengal, Vol II A, Muhammad Mohar Ali, (١٩٨٨) (Imam university)

رُشدهم، وثقتهم بإيمانهم وكرمهم، ومكانتهم في المجتمع البنغالي، وتذكّرهم بأنهم الذين كانوا حتى الأمس خلفاء الأرض وملوك الآفاق، وأن آباءهم وأسلافهم هم الذين حكموا البنغال أكثر من خمس مئة قرنٍ، وأن هذه الحركة بإمكانها أن تهدّ أقوى صرح للظلم، وتدكّ أكبر بنيان للجور على وجه الأرض، وعندما يتمّ ذلك، ينتهي عصر الاستعباد، ويضمحل سلطان الهندوس، وتنقضي أيامُهم، ويُنتزع منهم زمام القيادة، وأن الذي زرع الظلم، لا بدّ أن يحصد الهلاك.

هكذا رأى الإنجليز والهندوس في هذا الانقلاب الأبيض موتا زؤاما لهم، فوقفوا في طريق هذه الحركة حجر عثرة، وحاولوا القضاء عليها من طرق شتى، وصبوا على الشيخ وأتباعه جام الغضب، وأذاقوهم صنوف النكال، من الضرب والطرد، والسجن والاعتقال، والزجر والتهديد، ونشر الاتهامات الباطلة الكاذبة عنهم، وتشويه صورتهم في "وسائل الإعلام".[1]

ولا عجب في كل ذلك على كفار يصدّون عن سبيل الله، وإن تعجب فعجبٌ دور هؤلاء العلماء، أو بالأصح المتعالمين الذين كانوا يحملون ألقابا ضخمة للعلم والمعرفة، ورجال الصوفية، الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، والذين كانوا يُخفون رذائلَهم في جدران الزوايا، ويخدعون الناس في دينهم، ويتّجرون بالإيمان، ويأكلون أموال الناس بالباطل، حتى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وكانت على أبصارهم غشاوة، فهؤلاء وأولئك كلهم رأوا أن أيامَهم على وشك الانتهاء، وأن أجلَهم قد فقد الصلاحية، فصافحوا مع الإنجليز والهندوس، ووقفوا بجانبهم في صفّ واحد ضد حركة الحاج شريعت الله، وكانوا يدا واحدةً للقضاء على هذه الحركة من قواعدها! فاستولوا على الإعلام، وارتقوا المنابر يسبّحون بحمد الحكام الكفار ويقدّسون أوامرهم، ويصدقون كذبهم، ويبررون مواقفهم، ويخشونهم كخشية الله أو أشد خشية! وينشرون الفزع في قلوب المجاهدين! ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]

هنا في نهاية هذا الحديث لا بدّ أن نقف على قضية حساسة وقفة قصيرة، وهي قضية كون الهند دار الحرب أم لا؟ فقد أعلن- أو بالأحرى- رأى الحاج شريعت الله "بأن الهند أصبحت دار الحرب،

(١) وانظر تفاصيلها في Islam in Bengal (from thirteenth to nineteenth century) Jagadish Narayan Sarkar, p. ٥٥

فلا تصح للمسلمين فيها صلاة الجمع والأعياد حتى تعود الحكومة الإسلامية على أرضها، ولا يجوز للمسلمين أن يتوقّفوا عن الجهاد حتى يعود الإسلام إلى مكانه وتعود للمسلمين مكانتُهم"،[1] ومن هنا لم يصلّ الشيخ شريعت الله ولا أتباعه الجمع والأعياد حتى نهاية عهد الإنجليز وظهور باكستان عام ١٩٤٧م![2]

كانت دعوة الشيخ شريعت الله وإصلاحه قائمة على مذهب الإمام أبي حنيفة، وكان بنفسه مقلّدا للمذهب الحنفي في الفقه،[3] لكننا لا ندري من أين أخذ الشيخ هذا الرأي الغريب الخطير؟ وهل رأى أحدٌ هذا الرأي من الفقهاء الثقات المتقدمين أو المعاصرين؟ فقد أفتى كثير من العلماء الأعلام أمثال الشيخ مولانا شاه عبد العزيز الدهلوي عام ١٨٠٣م، ثم تبعه في هذه الفتوى تلميذه الشيخ أحمد بن عرفان البريلوي عام ١٨١٨م، ثم سارَ على منهجه تلميذه السيد الشهيد تيتومير، وأعلن هؤلاء كلهم بكون الهند "دار الحرب" تحت سطوة الإنجليز،[4] إلا أننا لا نرى أحدا منهم ينفي الجمع والأعياد في قرى الهند وأريافها، ومدنها وحواضرها، مع استثناء لفيف ضئيل من العلماء الذين كانوا يرون هذا الرأي، ويتوقفون عن أداء الجمع والأعياد،[5] بل بالعكس نجد هناك عددا كبيرا من العلماء خالفوا الشيخ شريعت الله في هذا الرأي، ورفعوا أصواتهم ضدّه، وردّوا عليه ردا كبيرا، وعلى رأسهم الشيخ المصلح العظيم مولانا كرامت علي الجونبوري، ومولانا أبو بكر الصديقي (مؤسس خانقاه فرفرا)، والشيخ نثار الدين أحمد (مؤسس خانقاه سرسينا)، والشيخ روح الأمين البشيرهاتي وغيرهم، بل كان الشيخ الكبير المفتي عميم الإحسان لا يرى الهند دار الحرب أصلا،[6] وكلهم ينتمون إلى المذهب الحنفي! حتى ظهرت هناكٌ تيّارات متلاطمة، وحصلت بينهم جدالٌ ومناظراتٌ، وخرجت رسائل ومؤلفات، وبلغت بهم الحال أن بدأ الشيخ الجونبوري يسمّي أتباع الحركة الفرائضية "بالخوارج" ويردّ عليهم في كل موطن،[7] وقد أثر

(١) حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف محمد عبد اللطيف البريسالي، ص٦٤، وكذلك حركة ديوبند: تاريخها وتراثها وعطاؤها، تأليف العلامة أبي الفتح محمد يحيى ص١٣٨

(٢) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٣

(٣) حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف محمد عبد اللطيف البريسالي، ص٤٦

(٤) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٥

(٥) History of the Muslims of Bengal, Dr. Mohar Ali, Vol II, p. ٣١٣-٣١٤

(٦) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ، ف، م أمين الحق ص٣٥٤

(٧) أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش ص٢٨٨، هنا يخطئ من يظن من المؤلفين أن الحاج

ذلك سببا في دعوة الشيخ شريعت الله وانتشارها، وفي مكانة أصحابها الدينية ودورهم في المجتمع، حتى اشتهروا بـ"اللاجمعيين"، كما يرى البعض أن اسم هذه الحركة بـ"الفرائضية" لم يأت لأنهم يركّزون على الفرائض، وإنّما لأنهم يتركون الجمع والأعياد ويهتمون بالصلوات الخمس (الفرائض) فقط![1]

ومع تكأّفهم في ذلك كانت على تأويل بعض اجتهادات المذهب الحنفي في شروط الجمع والأعياد، من كون البلد دار الإسلام؛ دون دار الحرب، والمصر؛ دون القرى الصغيرة، ووجود وال مسلم أو نائبه،[2] فجعلوها أصلا لهم وسندا وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، نصا وحرفا، لا فقها وبصيرة، ولذلك قد يُلامون على تزمتهم لمنهجهم، وجمودهم عليه، ودفاعهم عنه دفاع من يذب عن حمى الإسلام وشعائره،[3] رغم معارضة كبار العلماء المعاصرين ومحاربتهم له، لكن لا يلامون على اجتهادهم، فلهم أجر ذلك بإذن الله، وربنا ذو رحمة واسعة.

مع هذه الأسباب هناك أسبابٌ أخرى لا يسع المقام إسهابَها، لهذا كله لم يُكتب للحاج شريعت الله أن يجني ثمار دعوته، ويشهد بعينيه نتاج جهده وجهاده، والمراحل الأخيرة لحركته التي نذرَ لها حياتَه، وقضى لنجاحها ليلَه ونهارَه، وشبابَه وشيخوختَه، حتى أرسى قواعدَها وجعلَ لها أرضا صلبةً تقوم عليها بقوّة وعزيمة، فقد جاءه الأجل المحتوم عام ١٨٤٣م وانتقلَ إلى رفيقه الأعلى، إلا أنها بفضل تلك الذخيرة الكبرى من رجولة العالِم، وبطولة المؤمن، وصلابة المجاهد المتمسك بحبل الله، التي أودعها الحاج

شريعت الله لم يعلن الجهاد على الاحتلال، وإنما كانت حركته حركة إصلاحية دينية واجتماعية، فإن إعلان دولة مسلمة محتلة "دار الحرب" هو إعلان جهاد في أوضح معانيه! واستنفار للمسلمين للقيام به! انظر Constructing Bangladesh: Religion, Ethnicity, and Language in an Islamic Nation, Sufia M. Uddin (٢٠٠٦) p. ٤٤

(١) History of the Muslims of Bengal, Dr. Mohar Ali, Vol II, p. ٤١

(٢) [illegible] كانا من أبرز ما استدل به الفرائضيون في تركهم للجمع، دون الأول (انظر History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤) p. [illegible])، وقد اهتمّ بهما الفقهاء [illegible] حتى ذكروهما من أوائل شروط صحة الجمع في مؤلفاتهم، انظر "الفتاوى العالمكيرية (الطبعة الكبرى الأميرية) مجلد ١ ص١٤٤، [illegible] ص٧٤، وانظر كذلك ردّ المحتار للعلامة ابن عابدين (دار عالم الكتب) مجلد ٣ ص٥.

[illegible] في صفحة ١٤، ونصّ على صحة الجمع في البلاد التي بأيدي الكفار، فلو وصل كلامه- وهو يعتبر إمام [illegible] شريعت الله عن منهجه.

(٣) [illegible] كراهة واستخفاف، ويناصبون لهم العداء، فلا يصلون خلفهم، ولا يناكحونهم، [illegible] على منكر عظيم وشر مستطير في المجتمع لنسلم! ولا ندري هل هذه الرواية فيها [illegible] مولانا كرامت علي الجونبوري، تأليف مولانا عبد الباطن الجونبوري، ص ٧٠

شريعت الله في دماء أتباعه، ظلّت الحركة الفرائضية قائمة تعمل عملَها وتؤدي دورَها وسط أمواج عاتية من الهندوس والإنجليز والطابور الخامس من بيوت المسلمين.

نهاية الحركة ومصيرها

بعد وفاة القائد المؤسس للحركة الفرائضية، تولّى زمامَها نجله الوحيد المجاهد محسن الدين المعروف بـ "دودو ميان"، الذي نشأ وتربّى تحت ظلّ أبيه ورعايته المباشرة، وبرزتْ فيه عبقرية القيادة منذ شبابه، فخاضت الحركة الآن تحت إشراف الشيخ دودو ميان مع القوّات المحتلّة والظالمة مصادمات ومشاززات خوضا مباشرا، وأولى الشيخ دودو الإصلاح الاجتماعي والسياسي أبلغ الاهتمام، أكثر من اهتمامه بالإصلاح الديني، ودخلَ السجن مرارا وتكرارا، فازداد شعبية وقبولا! حتى زادت قوّة الحركة واتّسع نطاقها، وانتشرت في مناطق ما لم تنتشر فيها أيام مؤسسها! بل أصبح الشيخ دودو أكبر تأثيرا وأجلّ شأنا من والده الشيخ شريعت الله![1]

عيّن الشيخ دودو في كل منطقة خليفة له، وأسند إليهم القيام بشؤونها، ونشر العدل والمساواة فيها، وتجنيد الأتباع الجدد من سكانها،[2] ودعوة غير المسلمين فيها إلى الإسلام! وقد دخلَ على يديه أناس كثير في الإسلام،[3] هكذا ازداد عدد أتباعه، وبلغ ثمانين ألف فرائضي، وذكرت بعض المصادر الأخرى أن عدد أتباعه وصل إلى ثلاث مئة ألف فرائضي![4] وظهرت شبه دولة إسلامية يمكن أن نطلق عليها "الدولة الفرائضية" الممتدّة على معظم مناطق البنغال الشرقية وبعض من البنغال الغربية! لأن نفوذ رجال الحركة كان فيها أكثر من نفوذ رجال الحكومة! وكانت قوانين الحركة تصادم قوانين الدولة العامة.[5]

لكن حقا على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه، فلما كانت هذه الحركة في قمّتها وأوجها، جاءَ النداء الأخير لمؤسسها الثاني الشيخ دودو ميان، فذهب إلى رفيقه الأعلى، وبذهابه ذهبت أيام الحركة، وذهبت قوّتها وسلطانها، وفترتْ في روحها ومعنوياتها، وبدأت مع الأيام تفقد

---

(١) Bangladesh: Past and Present, Salahuddin Ahmed (٢٠٠٤) p. ٨٥

(٢) Historical Dictionary of Bangladesh, Syedur Rahman, p. ٩٢ وكذلك The Bengal Delta: I. Iqbal, p. ٧٠

(٣) History of Modern India, S.N Sen, p. ٨٧

(٤) The Bengal Delta: Ecology, State and Social Change, I. Iqbal p. ٧٠

(٥) Islam in Bengal (from thirteenth to nineteenth century) Jagadish Narayan Sarkar, p. ٥٧-٦٠

صفاءها في الهدف، وسلطانًا على القلوب والضمير، وبدأت الخلافات تتفاقم بينها وبين عامة المسلمين، لفقدها الهدف الذي جاءت من أجله، وانحرافها عن الدرب الذي منذ وجودها سارت عليه، حتى أصبحت الدولة والديمقراطية لا الدين والخلافة رأسها مالها، بل أصبح بعض قادتها من الهندوس![١]

رغم أن الحركة الفرائضية لم تتمكّن من طرد الإنجليز، ومن استرداد الحكم الإسلامي للبنغال، إلا أنها لم تكن قطّ حركة فاشلة، وإنما كانت حركةً أدّتْ دورَها إلى حدّ كبير، في عصرها ومحيطها، وستبقى مصدر أملٍ ومنبع قوّة وتجارب قيّمة مفيدة لكل من يقوم بالعمل الإسلامي في عصر انحطاط المسلمين، وتدهور الإسلام السياسي، ولعل من أبرز جوانب الحركة الفرائضية هو تقديم مثالٍ واقعيّ للعالم بأن الحركة الدينية الإصلاحية إذا قامت على أساس صلبٍ متين، أساس التوحيد النقي، والإيمان الخالص، والإخلاص للشعب، والعمل على صلاحهم وصالحهم، دون مصالح النفس، تصنع الخوارق، وتأتي بالعجائب.

وفي الأخير نقول إن هذه الحركة ظهرتْ في صميمها للإصلاح الديني، ونشر العقيدة الصحيحة، وترسيخ التوحيد النقي في قلوب المسلمين، ومحاربة الشرك والبدع، ولم يأت الاجتماع والسياسة إلا تبعا لها وعند الحاجة، لكن للأسف عندما يتحدث المؤرخون عنها، يكون تركيزهم أكثر على تاريخها الاجتماعي والسياسي العلماني، وليس الإيماني والعقدي، والدعوي والإصلاحي.

(١) The Bengal Delta, I, Iqbal Khan p. ٧٣

السيد نثار علي تيتومير الشهيد

(١٧٨٢- ١٨٣١)

المصلح المجدد، قائد حركة التحرير، أمير دولة إسلامية في البنغال

الانتفاضة تتواصل

في الوقت الذي كانت رحى معركة حاسمة تدور بين الإسلام والسيخية في وادي بالاكوت بقيادة الإمام المجاهد السيد أحمد بن عرفان البريلوي رحمه الله، وفي الفترة التي كانت الحركة الفرائضية تقوم على قدم وساق في البنغال الشرقية بقيادة المجاهد الباسل الحاج شريعت الله، كانت هناك كتيبة إسلامية ثالثة في البنغال الغربية تحارب الإنجليز المحتلين والهندوس الإقطاعيين، وتواجه سيوفَهم ورماحَهم ونبالَهم ورصاصهم بصدور عارية، وكان قائدها من أبرز تلامذة الإمام الشهيد البريلوي، ومن خيرة المتخرّجين في مدرسته الفكرية والجهادية والروحانية، ونابغة موهوب من ورثة خالد وسعد وأبي عبيدة، وواحد من سادة المعارك وعباقرة الحروب، البَطَل البنغالي الأكبر السيد نثار علي تيتومير، إنسانٌ أمضى حياته مجاهدا، وقضى في ساحة الوغى شهيدا، رحمه الله تعالى.

كيف كتب الهندوس والإنجليز تاريخ المسلمين في الهند؟

لقد ظلم المؤرخون والأدباء الإنجليز والهندوس هذا البطل الكبير، ولم يوفوه حقَّه من الإنصاف والاعتراف، أو على الأقل لم يحتفظوا بالأمانة العلمية والموضوعية المنصفة في سرد حياته، والبحث عن جذوره، وتسجيل أحداث حركته وجهاده، فجاءتْ حياتُه محرّفة الوجوه، ومشوّهة المعالم، التي توحي إلى القارئ لصفحات حياته في الكتب والمؤلفات، والروايات والمسرحيات، والصحف والمجلات، كأنه يقرأ

حياة ابن حرمي، أو لصّ شقيّ، وقاطع طريق، أو "إرهابي متطرّف"، يتعطّش لدماء غير المسلمين وهدم معابدهم![1]

وهذا ليس غريبا على المسلمين في شبه القارة الهندية عندما ينظرون في كتب الهندوس ثم الإنجليز التي تتناول تاريخ الإسلام والمسلمين في هذه البقعة، وتصوّر حياة قادتهم وسير أعلامهم وتراجم أعيانهم ومشاهيرهم، فالهندوس لم يعترفوا يوما من الأيام بأن المسلمين جزءٌ من الشعب الهندي، وأبناء هذا الوطن الوسيع، بل اعتبروهم غرباء وأجانب، وأمة وافدة دخيلة على أمم الهند الممزوجة من الأجناس والألوان المختلفة، فكأنه كل جنس وكل لون يمكنه أن يكون هنديا ومواطنا صالحا للهند إلا المسلمين. ثم عندما وقعت الهند تحت سنابك الاحتلال، برزَ فيهم كتّاب ومؤلفون، وأدباء ومؤرخون، فكتبوا عن الإسلام وتاريخ المسلمين، وسردوا حياة أبطالهم، وقادتهم وزعمائهم، كتبوا كما أملتْ عليهم أهواؤهم وأغراضهم، لا كما تقتضيه منهم أمانة التاريخ، ودقّة العلم والمعرفة، فجاء تاريخ الإسلام في الهند تاريخ مشوّه ومزوّر، وجاء الشعب المسلم الهندي شعبا مفلسا مسكينا، كأنه لم ينجب عبر مسيرته الطويلة الممتدّة على القرون في هذه البقعة، واسعة المدى ومترامية الآفاق ووافرة الخيرات، لم ينجب بطلا أو قائدا يستحقّ من تاريخ البشر الشكر والتقدير، والذكر والتكريم! والعهدة في ذلك تعود قبل الجميع على كواهل المسلمين الذين قصّروا في هذا الجانب تقصيرا فادحا، وأهملوا كتابة تاريخهم وتراجم أمجادهم إهمالا يبلغ حدّ الجناية.

---

(١) انظر مثالها في كتاب "تيتومير أو حرب «ناركيل باريا»" للمؤلف الهندوسي «بيهاري لال سركار»، وهو أول كتاب بنغالي يتحدث عن حياة تيتومير، لكنه مليء بالاتهامات الكاذبة، ومحاولة النيل من شخصية تيتومير وكرامته، والقصص الخرافية الباطلة، النابعة عن التعصب الفكري والمذهبي، ثم كتاب "تيتومير في صورة جديدة" (البنغالية) لمؤلف هندوسي متعصب «رودرابرتاب تشاتوبادهيايا»، فإنه سارَ على منوال سلفه، بل فاقه في الاعتداء على تيتومير! وانظر كذلك كتاب The Muslims of British India, P. Hardy (Cambridge ١٩٧٢) p. ٥٧، نعم قد حصل بعض القتل وسفك الدم والنيل من المعبد الهندوسي، لكن ذلك كان بعد أن هدم الهندوس مسجدا، وهذه الأمور ليست مما يُستغرب أثناء الحرب بين الطائفتين المتقاتلتين، انظر Peasant Labour and Colonial Capital Vol III, Sugata Bose, P. ١٤٩ واقرأ اعتداء المؤلفين– الهندوس والإنجليز وبعض المسلمين– على تيتومير بشكل تفصيلي في كتاب "أثر الثورات المحلية في الأدب البنغالي والثقافة البنغالية" لمؤلفه «رانجيت كمارا سمادر» ص٢٦٢ وما بعدها، ثم انظر نقد الدكتور مهر علي لبعض المؤلفين للتحيز في هذه الصدد History of the Muslims of Bengal, Vol II A p. ٢٤٦ وما بعدها

(٢) انظر نظرة الهندوس إلى المسلمين منذ القديم إلى اليوم في كتاب "العقلية المسلمة والهندوسية" تأليف أبي الأسد (٢٠١٤م)

ميلاده ونشأته

وُلد تيتومير بمحافظة «٢٤ برغنة» من البنغال الغربية عام ١٧٨٢م،[1] في أسرةٍ مسلمة شريفة بين قومها، تنحدر من سلسلة ذهبية وتنتهي إلى السبط الأصغر لسيد البشرﷺ، سلالة السادة الحسينيين، وبذلك كان تيتومير بنغالي المولد وعربي الأرومة، ولا بدع بالدم العربي الحسيني القحّ الذي يتحدّر من الدوحة المحمدية أن يأتي بالعجائب، ويخلق سوانح التاريخ، حتى ولو مضى عليه عشرة قرونٍ.

بدأ الصبيّ تيتومير الدراسة في عامه الرابع، حسب ما جرت به عادة الأسر الشريفة المسلمة آنذاك، فحفظ القرآن في صغره، شأن أمثاله من ذوي النباهة والصلاح، ودرس اللغات والرياضيات، والكلام والفلسفات، والأدب والفرائض، وتدرّب على الرياضة البدنية، وإدارة الأسلحة، وإشهار السيوف، والرمي، وإطلاق النار، والسباحة والملاكمة، وما إن مضى من عمره ثمانية عشر ربيعا إلا وقد برزَ في ميدان الحياة شابّا قويّا، وناضجا نضجا حسنا، وصبيحا وسيما، مشدود الأعصاب، ومفتول الجسم، ومكتمل الجوانب، ومتناسب الأعضاء، متضلعا من شتى العلوم والمعارف، ومتقنا لعدّة لغاتٍ بما فيها العربية والأردية والفارسية والبنغالية–اللغة الأم، إتقان أبنائها لها، فكل هذه اللغات كانت تجري على لسانه بطلاقة نادرة، كأنه أحد أبنائها والمتخصّصين فيها! وكان صوتُه بالقرآن الكريم رخيما رقيقا، شجيّا ساحرا، يسحر الناس ويدخل في القلوب راحة وسرورا، وكان خطيبا مفوّها،[2] مع ذلك كله لم تكن هناك إرهاصات بأن هذا الشاب سيكون له مكان في الحضارة الإنسانية، ودور في تاريخ الجهاد والسياسة.

أداء الحجّ وأثره في حياته

نشأ تيتومير وتزوّج في سن باكرة، وقضى فترةً كبيرة من حياته في قريته، حتى بلغَ أشدّه وبلغ تسعا وثلاثين سنة، وهنا حدثَ له مثل ما حدثَ للشيخ المصلح الحاج شريعت الله، فشعرَ في قلبه بشوقٍ غريبٍ ملتهبٍ، ورغبة عامرة غلابة إلى الحج، وإلى زيارة الحرمَين الشريفين، إلا أن خطرته هذه جاءت في وقتٍ متأخّر بالنسبة للحاج شريعت الله، ومن غرائب الصدفة أن الحجّ هو الذي كان نقطة تحوّل في حياة كلا البطلَين، وأن كلّا منهما جاء على مسرح التاريخ وقام بدوره بعد أداء المناسك وزيارة بيت

---

(١) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق، ص٤٥

(٢) تيتومير: أول شهيد في حركات التحرير، تأليف الأستاذ أ.ب.م عبد الباري، ص٨

الله، ولم يكن لأحدهما دورٌ، ولم يكن يعرفهما أحدٌ قبل هذه الرحلة المباركة، ولولا كثرة الروايات وصحّة الطرق والأسانيد، ولولا الثقة بالكتّاب والمؤرخين، لم نكد نصدّق هذه الصدفة الغريبة، إلا أن الثقة بكتب التاريخ، والإيمان الكامل الراسخ الذي لا يتزحزح بقوّة الحجّ ومعنوياته، وصلاحيته في إثارة المواهب وإشعال النبوغ، وصنع الرجال، ودوره في بناء الشعوب وإنشاء الأمم على مرّ التاريخ، كل ذلك جعلنا لا نجد إلى إنكار هذه القصّة سبيلا.

وهذا لا يمتنع على أهم شعيرة من شعائر الدين، تمنح فرصة اللقاء بأجناس وألوان شتى، والاختلاط بملايين الناس، بمن فيهم الحكّام والسلاطين، وقادة الفكر وزعماء الإصلاح، ورجال الدين والسياسة، وسواد الناس من جميع طبقات المجتمع، فهو موسم ذهبي للقاء مع الله، ومع الإخوان المسلمين على وجه البسيطة، لكي يستفيد بعضهم من البعض، من علمه وفكره، وتجارب حياته، ثم يطبّقها بعد الرجوع إلى الوطن، وهذا الذي حدثَ مرّة للحاج شريعت الله مؤسس الحركة الفرائضية، عندما أخذ العلم والفكر في مكة، واستفاد من علماء الحرمَين، وهاهو يحدث مرّة أخرى للمجاهد الشهيد تيتومير، رحمهم الله جميعا.

وصلَ تيتومير إلى أرض الحرمَين مضطرب البال، لا يهدأ قلبه، ولا يقر له قرارٌ، فقد عاشَ فترةً طويلةً وسطَ شعبه وبني قومه، ورأى كيف كانوا غارقين في طوفان الشرك والوثنية، ومتسكعين في ظلمات البدع والخرافات، وكيف ارتكس مسلمو البنغال في الضلال، وارتدوا إلى الجاهلية، وعكفوا على العادات الكفرية والتقاليد الباطلة، وشعائر الديانات الوضعية القديمة، من عبادة أهل القبور، وصرف النذور إليهم، والابتهال والاستغاثة بهم،[١] حتى لم يكد يوجد فرق بين مسلم وهندوسي، لا في الاسم ولا في اللباس، ولا في العمل والعبادة! رأى هذه كلها من جانب، كما رأى من جانب آخر سطوة الأجانب المحتلين والجيران المستغلين عليهم، وعاشَ معاناة المسلمين التي تولى كبرها ملاك الأراضي الهندوس بكل أنواعها وألوانها، كما شاهد الوهن الشديد، والتخاذل الكبير، والجمود الغاشم تنشب أظافرها في صفوف العلماء، ويتمكّن من عامة المسلمين الجهل والجمود، والانحلال الخلقي، والإحساس الداخلي بالهزيمة في الثقافة، والهوية والمعنوية، أمام النظريات البشرية التي صاغها البشر بمعزل عن الله وعن الوحي، والتي تسلّطت عليهم من كل وجهٍ، ورأى كيف أفسد معظمهم ترف الحضارة، وساق

---

(١) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. ٩١ وانظر كذلك في كتاب تيتومير في صورة جديدة، تأليف رودرابرتاب تشادوبادهيايا، ص٤٩ وما بعدها

شبابهم إلى الخمر والقمار، وكيف استسلم أغنياؤهم للرخاء ونعيم القصور، وانغمسوا في لذات الحياة ونعيمها، حتى أصبحوا الموتى بلا إحساس، يموتون تخمة ورفاهية، بينما كان الفقراء يتجرّعون غصص البؤس والشقاء، ويموتون جوعا، فرأى أن انقلابا عظيما شاملا لا بد أن يحدث، وأن الشعب البنغالي المسلم بحاجة إلى تغيير جذريّ عام، تغيير يشمل الإيمان والهوية، والدين والمدنية، والعمل بالشريعة النقية الصافية، والجهاد في سبيل الدفاع عن الدولة، لكن هل من سبيل إلى ذلك؟

لقاء مع الشيخ أحمد البريلوي والمبايعة

هذه الأسباب هي التي أقلقت تيتومير وأقضت مضاجعه، ونغّصت عليه عيشه، ومن سنّة الله تعالى أن الظلام كلما يشتدّ ويحلك ويعمّ الكون، يقترب الفجر ويشرق النور، وأن الألم كلما يزيد، يقترب المخاض، وأن العسر كلما ينهال، يأتي اليسر، وأن الخطب كلما يدلهم، والنوازل تنزل، يأتي الفرج، وهذا الذي تحقّق مرّة أخرى لتيتومير، ففي أثناء القيام بالحرم تناهى إليه الخبر بأن شيخا ربانيا كبيرا، ومجاهدا بطلا، وعالما جليلا من الهند، قدم للحرم، مع قافلة كبيرة من رفقائه وأتباعه، فهرولَ تيتومير إليه، وأخبره بما يعانيه من الاضطراب والتذبذب، والقلق والبلبلة، فهدّأ الشيخ من روعه، ورسمَ له خريطة العمل، وأخذ منه البيعة في تزكية النفس والجهاد، وكان ذاكم الشيخ إمام المجاهدين في العصور المتأخرة، وأمير دولةٍ إسلامية في الهند أيام الانحطاط والاحتلال، المجاهد العظيم، شهيد بالاكوت، السيد أحمد بن عرفان البريلوي رحمه الله.[١]

رسم خريطة طريق

في هذا السفر وفي رحاب الحرم، جلس تيتومير مع شيخه وعدد من أهل الفضل وقادة الجهاد والحركات مجالس كثيرة، جرى فيها نقاشٌ حول رسم خريطة الطريق، وكيفية بدء الإصلاح، وعرض هذه الدعوة على الشعب، وتجنيد المسلمين للجهاد، وهنا تحدّث تيتومير في أحد المجالس حديثا يشهد على ذكائه ونبوغه، وبعد نظره في العمل الإصلاحي، وعبقريته في المقاومة والجهاد، وكذلك يمنح هذا الحديث للقارئ صورةً حيّة وخطوطا عريضة عن سير الحياة في تلك الحقبة من الزمن، والتي لها أثر كبيرٌ في حياة من يعايشها، وكأنه خلاصة مئات من الصفحات، فقال: "إن مسلمي البنغال يعيشون اليوم انحطاطا

---

(١) الحركة الوهابية، تأليف عبد المودود، ص٣٨، وكذلك علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص٥٥

سنة، ولم يكن لأحدهما دورٌ، ولم يكن يعرفهما أحدٌ قبل هذه الرحلة المباركة، ولولا كثرة الروايات وصحّة الطرق والأسانيد، ولولا الثقة بالكتّاب والمؤرخين، لم نكد نصدّق هذه الصدفة الغريبة، إلا أن الثقة بكتب التاريخ، والإيمان الكامل الراسخ الذي لا يتزحزح بقوّة الحجّ ومعنوياته، وصلاحيته في إثارة المواهب وإشعال النبوغ، وصنع الرجال، ودوره في بناء الشعوب وإنشاء الأمم على مرّ التاريخ، كل ذلك جعلنا لا نجد إلى إنكار هذه القصّة سبيلا.

وهذا لا يمتنع على أهم شعيرة من شعائر الدين، تمنح فرصة اللقاء بأجناس وألوان شتى، والاختلاط بملايين الناس، بمن فيهم الحكّام والسلاطين، وقادة الفكر وزعماء الإصلاح، ورجال الدين والسياسة، وسواد الناس من جميع طبقات المجتمع، فهو موسم ذهبي للقاء مع الله، ومع الإخوان المسلمين على وجه البسيطة، لكي يستفيد بعضهم من البعض، من علمه وفكره، وتجارب حياته، ثم يطبّقها بعد الرجوع إلى الوطن، وهذا الذي حدثَ مرّة للحاج شريعت الله مؤسس الحركة الفرائضية، عندما أخذ العلم والفكر في مكة، واستفاد من علماء الحرمَين، وهاهو يحدث مرّة أخرى للمجاهد الشهيد تيتومير، رحمهم الله جميعا.

وصلَ تيتومير إلى أرض الحرمَين مضطرب البال، لا يهدأ قلبه، ولا يقر له قرارٌ، فقد عاشَ فترةً طويلةً وسطَ شعبه وبني قومه، ورأى كيف كانوا غارقين في طوفان الشرك والوثنية، ومتسكعين في ظلمات البدع والخرافات، وكيف ارتكس مسلمو البنغال في الضلال، وارتدوا إلى الجاهلية، وعكفوا على العادات الكفرية والتقاليد الباطلة، وشعائر الديانات الوضعية القديمة، من عبادة أهل القبور، وصرف النذور إليهم، والابتهال والاستغاثة بهم،[1] حتى لم يكد يوجد فرق بين مسلم وهندوسي، لا في الاسم ولا في اللباس، ولا في العمل والعبادة! رأى هذه كلها من جانب، كما رأى من جانب آخر سطوة الأجانب المحتلين والجيران المستغلين عليهم، وعاشَ معاناة المسلمين التي تولى كبرها ملاك الأراضي الهندوس بكل أنواعها وألوانها، كما شاهد الوهن الشديد، والتخاذل الكبير، والجمود الغاشم تنشب أظافرها في صفوف العلماء، ويتمكّن من عامة المسلمين الجهل والجمود، والانحلال الخلقي، والإحساس الداخلي بالهزيمة في الثقافة، والهوية والمعنوية، أمام النظريات البشرية التي صاغها البشر بمعزل عن الله وعن الوحي، والتي تسلّطت عليهم من كل وجهٍ، ورأى كيف أفسد معظمهم ترف الحضارة، وساق

(١) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p ٩١، وانظر كذلك في كتاب تيتومير في [illegible] نشادوبادهيايا، ص٤٩ وما بعده

شبابهم إلى الخمر والقمار، وكيف استسلم أغنياؤهم للرخاء ونعيم القصور، وانغمسوا في لذات الحياة ونعيمها، حتى أصبحوا الموتى بلا إحساس، يموتون تخمة ورفاهية، بينما كان الفقراء يتجرّعون غصص البؤس والشقاء، ويموتون جوعا، فرأى أن انقلابا عظيما شاملا لا بد أن يحدث، وأن الشعب البنغالي المسلم بحاجة إلى تغيير جذريّ عام، تغيير يشمل الإيمان والهوية، والدين والمدنية، والعمل بالشريعة النقية الصافية، والجهاد في سبيل الدفاع عن الدولة، لكن هل من سبيل إلى ذلك؟

لقاء مع الشيخ أحمد البريلوي والمبايعة

هذه الأسباب هي التي أقلقت تيتومير وأقضت مضاجعه، ونغّصت عليه عيشه، ومن سنّة الله تعالى أن الظلام كلما يشتدّ ويحلك ويعمّ الكون، يقترب الفجر ويشرق النور، وأن الألم كلما يزيد، يقترب المخاض، وأن العسر كلما ينهال، يأتي اليسر، وأن الخطب كلما يدلهم، والنوازل تنزل، يأتي الفرج، وهذا الذي تحقّق مرّة أخرى لتيتومير، ففي أثناء القيام بالحرم تناهى إليه الخبر بأن شيخا ربانيا كبيرا، ومجاهدا بطلا، وعالما جليلا من الهند، قدم للحرم، مع قافلة كبيرة من رفقائه وأتباعه، فهرولَ تيتومير إليه، وأخبره بما يعانيه من الاضطراب والتذبذب، والقلق والبلبلة، فهدّأ الشيخ من روعه، ورسمَ له خريطة العمل، وأخذ منه البيعة في تزكية النفس والجهاد، وكان ذاكم الشيخ إمام المجاهدين في العصور المتأخرة، وأمير دولةٍ إسلامية في الهند أيام الانحطاط والاحتلال، المجاهد العظيم، شهيد بالاكوت، السيد أحمد بن عرفان البريلوي رَحِمَهُ اللهُ.[1]

رسم خريطة طريق

في هذا السفر وفي رحاب الحرم، جلس تيتومير مع شيخه وعدد من أهل الفضل وقادة الجهاد والحركات مجالس كثيرة، جرى فيها نقاشٌ حول رسم خريطة الطريق، وكيفية بدء الإصلاح، وعرض هذه الدعوة على الشعب، وتجنيد المسلمين للجهاد، وهنا تحدّث تيتومير في أحد المجالس حديثا يشهد على ذكائه ونبوغه، وبعد نظره في العمل الإصلاحي، وعبقريته في المقاومة والجهاد، وكذلك يمنح هذا الحديث للقارئ صورةً حيّة وخطوطا عريضة عن سير الحياة في تلك الحقبة من الزمن، والتي لها أثر كبيرٌ في حياة من يعايشها، وكأنه خلاصة مئات من الصفحات، فقال: "إن مسلمي البنغال يعيشون اليوم انحطاطا

(١) الحركة الوهابية، تأليف عبد المودود، ص٣٨، وكذلك علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص٥٥

في الإيمان واليقين، والتجرد في العقائد والأعمال. مما لا يسوّغ دعوتهم إلى المقاومة قبل الدعوة إلى الإيمان والعقيدة الإسلامية الخالصة، ولا يسمح لهم بالنزول في ميدان الحرب قبل نزولهم في ميدان العمل والأخلاق، وإصلاح الظواهر والبواطن، وتزكية النفوس من الشوائب،[1] فإذا دعوناهم إلى الجهاد قبل دعوتهم إلى الإيمان لكان ذلك كارثة، ولذلك قبل كل شيء أخذتُ على نفسي عهدا بدعوة قومي إلى الإيمان والعقيدة السلف، وإصلاح النفوس والمجتمع، فإن نجحتُ في خطّتي فالهندوس من الطبقات الدنيا هم الآخرون- فضلا عن المسلمين- سيتطوّعون لمحاربة الاحتلال والإقطاع، وسيكونون عونا علينا في جهادنا ضدّ الأعداء".

ثم أخذ تيتومير طريقه إلى الوطن عام ١٨٢١م،[2] وهو يتدفّق علما ومعرفة، وقوّة في الروح، ورسوخا في الإيمان، وثقة بالخطّة التي اختطّها لشعبه ووطنه، لانتشالهم من ظلام وظلم، ظلام الشرك والخرافات، والاندفاع إلى الوثنية، والثقافات الدخيلة، وظلم الاحتلال والإقطاع.

ركائز دعوته وجبهات جهاده

كانت الركيزة الأولى لدعوته وأهم جبهات جهاده هي الإيمان بالله، والتوحيد النقي الصافي، والقيام بشعائر الدين، وأركان الإسلام، وإصلاح المسلمين في ظواهرهم وبواطنهم، ومحاربة الشرك والبدعة، واللادينية، والعادات الجاهلية، وبث التوحيد والعقيدة الصحيحة، والتمسّك بالشريعة وأحكامها، كبيرها وصغيرها، والعودة إلى الإسلام حتى في الأكل واللباس والتسمية، وقص الشارب وإعفاء اللحية!

فكان يرى أن المدخل إلى نهضة المسلمين، وعودتهم إلى مكانتهم الطبيعية على مسرح الحياة، وفي موكب الحضارة والمدنية، والتأثير في مسير الأمم، وتبليغ رسالة هذا الدين إلى العالم، هو الإيمان القويّ العزيز بالله، والثقة بالإسلام، والفهم الصحيح لهذا الدين، ونبذ الابتداع.

ثم كانت جبهة إصلاح المجتمع، وإزالة الطبقية الغاشمة للضعفاء، ودفع ظلم الهندوس للطبقة المزارعة، والأخذ منهم حقوق المسلمين الفقراء، ورفع الصوت ضد الطغاة، ملاك الأرض والإقطاعيين،

---

(١) لو ذهبنا هنا نفصّل هذه الحملة الخالدة التي قام بها الشيخ تيتومير في أرض الحرمين، لأصبح من ذلك كتابٌ ضخم، فالجاهلية التي كان يعيشها المسلمون في البنغال وقتئذ، قد لا تقلّ عن الجاهلية الكبرى، وقد أردنا أن نفصّل ذلك في كتاب مستقل، سنتحدّث عن تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد البنغال، في فترة قريبة بإذن الله تعالى.

(٢) ... أول شهيد في حركات التحرير، تأليف الأستاذ أ.ب.م عبد الباري، ص١٩

والدفاع عن النفوس والأعراق والأموال، فإن تحقق كل هذا تأتي مرحلة الجهاد ضد الإنجليز، ورفع الصوت ضدّ الاحتلال والاستعمار، وطردهم من دولة المسلمين.

فبالجملة لا تختلف حركة السيد تيتومير عن حركة الحاج شريعت الله كثيرا، بل من أجل هذا ستتكرّر نفس المشاهد التي مرّت بالقارئ في حياة المصلح الحاج شريعت الله، والحقيقة أن هذا الاتّفاق، وهذا التماثل الغريب ليس من شأنه أن يثير الشبهة حول دقّة هذا التاريخ، ولا يسوغ للقارئ أن يبحث عما يدعم استغرابه ويوهن الحقائق من كتب الإنجليز ومؤلفات الهندوس، وإنما من شأن هذا الاتّفاق أن يعطي للقارئ صورةً صادقةً أمينةً للأوضاع الدينية، والخلقية، والسياسية والثقافية، التي كان يعيشها المجتمع البنغالي المسلم آنذاك، بل قد لا نبالغ عندما نقول إن العالم الإسلامي بشكل عام كان يعاني من الضعف في الإيمان، والإفلاس في الأخلاق، والفتور في العلاقة مع الله، والتفريط في جنبه، والانحطاط في ميدان العمل والسياسة، فلا غرابة إذا كان العاملون في ميدان الأمة يرسمون خططا للأعمال تُشبه بعضها بعضا أو تتقارب، وإنما هي كانت حاجة الوقت، ومن شروط الإصلاح، وأولويات العصر، إذا كانت مشاكل العالم الإسلام هي مشاكل متجانسة، فالأعمال الإصلاحية والحركات الإحيائية لا بدّ أن تكون متجانسة ومتشابهة، إلا أن حركة تيتومير كانت حركة جهادية ومسلحة أكثر من الحركة الفرائضية، وخصوصا في حياة مؤسسها.

بداية الجهاد

تحقيقا لهذه الأهداف النبيلة وافتتاحا للعمل، بنى تيتومير زاويةً في البنغال لتكون مركزا لدعوته وحركته، وتربية أتباعه تربية علمية وعملية، تربية تؤهلهم لحمل رسالة العلم والجهاد والدين، وهنا قدّم تيتومير دعوةً عامّة إلى مسلمي وهندوس البنغال للحضور في هذه الزاوية في يوم من أيام الجمعة، ليتحدّث إليهم صريحا جريئا، وليعرّفهم بدعوته ومهمّته، فاجتمع حشدٌ كبيرٌ من أتباع الديانتَين، وتحدّث إليهم، يرشدهم، ويوجههم.

ثم بدأ تيتومير يجوب مناطق البنغال بهذه الدعوة وبهذا المشروع، ويجمع الناس، ويخاطبهم بإيمان وثقة، وجرأة وحماس، وكان فيما يقول: "أيها الإخوة! إن الإسلام دين السلام، وشريعة التسامح والتضامن والاستقرار، فلا يسمح بعداوة وقتال الناس بمجرّد أنهم لا يدينون بالإسلام، ولا يسمح فإفساد العلاقة الثنائية والتعايش السلمي بين الشعوب على أساس الفرق في الدين ومنهج الحياة، لكن

لو بغى أحدٌ على مسلم، فالمسلمون جميعهم إخوةٌ يشدّ بعضهم أزر بعض، وينصر أحدهم الآخر، ظالما كان أو مظلومًا".

كما كان يحذرهم من الدناءة في الأخلاق وسوء التعامل مع الناس، ويحثّهم على مكارم الشيم، والبعد عن سفاسف الأمور إلا معاليها، فالأخلاق تنبئ عما ينبع قلب صاحبها من إيمان وتقوى وبرّ، وتجيب بهم إلى العقيدة الصحيحة، فهي بالنسبة للدين مثل الروح في الجسد، إذا فارقته أصبح جثّة هامدة لا حياة لها ولا حراك.

كذلك كان يدعوهم إلى الجمع بين الشريعة والطريقة، والحقيقة والمعرفة، وكم كانوا يتحاربون عليها، ويتفرّقون على أساسها، ثم يذكّرهم بالصلاة والصيام، وإعفاء اللحى وقصّ الشوارب، وينذرهم بعذاب الله عند مخالفة الشريعة.

وبالجملة كانت دعواته في هذه المرحلة تتلخص في أن المخلوق لا يوصف بصفات الخالق، ولا يوصف الخالق بصفات المخلوق، ولا تُعبد عبادة إلا على أساس القرآن والسنة الصحيحة، والقدر خيره وشره وحلوه ومره بيد الله، فنفع الإنسان أو ضرره ليس بيد الإنس والجن والملائكة والشياطين، والأولياء والصلحاء، وإنما هو بيد الله، ومن ثم فلا توجّه العبادة إلا إلى الله وحدَه![1]

لقد كان تأثير هذا الإعلان النابع من القلب عظيما في قلوب المستمعين، فاستيقظ النائم وانتبه الغافل، وجاءت انتفاضة عامة في المجتمع البنغالي المسلم، وهبّ الناس يتوافدون على الشيخ تيتومير، وينخرطون في سلك المجاهدين، وأصبح صوت الشيخ يملأ الفضاء، وينادي بحقوق المضطهَدين، وهذه كانت بداية الدعوة، وهذه كانت هي الأسس التي قامت عليها حركته الإصلاحية، كلها شعاعٌ من نور الإيمان، وقبسات من ضياء القرآن والسنّة، ودروس الإسلام وتعاليمه في التعايش السلمي مع الشعوب وأتباع الأديان الأخرى، حتى دخلَ عدد كبير من الهندوس في الإسلام وانخرطوا في سلك أتباعه، ولم تكن الدعوة في هذه المرحلة تتضمّن الأنشطة الحركية ضدّ الهندوس أو الإنجليز، فلم يكن يُعقل أنهم يقفون في طريقها، ولم يكن يصحّ لهم أن يتدخّلوا في شؤونها.[2]

---

(١) Shaheed Titumir, the Muslim Hero of Bengal, Muin-ud-din Ahmad Khan, p. ٧ وانظر تفاصيل حياته في هذا الكتاب.

(٢) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق، ص٤٧

خيانة الهندوس واستبداد الإنجليز

إلا أن الهندوس كانوا دوما يوجسون خيفة من المسلمين، ويحسبون كل صيحة عليهم، فلما رأوا شعبية تيتومير، وطلوع نجمه، ومكانته بين الناس، وانتشار سلطانه، وتملكه للقلوب، أيقنوا أن هذه الدعوة ستأتي لهم بالذبح والمهالك، وأن هذه الحركة ستتحوّل إلى حركة سياسية مسلّحة تهدّدهم، وتصادم مآربهم، وتدك دولتهم، فلذلك ثاروا ودعوا بالويل والثبور، واتّهموا الدعوة بالوهّابية،[1] وهي لقبٌ في أحلى معانيها كانت تعني سبا وشتما، وتطرّفا و"إرهابا"- إن صحّ التعبير- في شبه القارة الهندية آنذاك، ثم اجتمع قادة الهندوس على منصة واحدة، وأصبحوا يدا واحدة ليضربوا هذه الدعوة

---

(١) هل ترجع بذور دعوة تيتومير الإصلاحية إلى حركة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهّاب رحمه الله؟ وهل تأثر تيتومير بأفكار الإمام؟ وهل يمكن أنه قد لقي ببعض خلفاء الإمام وقادة الدعوة، إبان زيارته للحرمين الشريفين وأيام بقائه في مكة؟ ذكر كثير من المؤلفين أنه تأثر بخلفاء وأئمة الدعوة السلفية أيام إقامته في مكة والمدينة، (انظر مثلا Peasant labour and Colonial Capital Vol III, Sugata Bose, p. ١٤٩ وكذلك South Asia's Modern History, Michael Mann, p. ١٤٩)، لكن هذا لا يعدو أن يكون فرضا وتخمينا، فليس بأيدينا ما يثبت ذلك أو ينكره، إلا أن التاريخ يُثبت لنا بكل دقة وقوة أن كل حركة إصلاحية قامت في الهند، ودعتْ إلى العقيدة الصحيحة، ونبذ البدع، اتّهمت من أهل البدع ومعسكرات الخصوم من الهندوس والإنجليز بـ"الوهابية"، وقد تأثر تيتومير بالشيخ الإمام ولي الله الدهلوي رحمه الله، ثم سارَ في ركاب مرشده الإمام أحمد بن عرفان البريلوي رحمه الله، ورفع لواء العقيدة السلفية النقية، وتصدى لمحاربة الشرك والوثنية، وكشف عملاء البدع، وهدم أوكارها! فلا غرو أن يدعى وهابيا، وتدعى جماعته وهابية. انظر "أحاسيس بالاكوت" تأليف جيبول أمين دولال ص٤٦

لذلك لا نستطيع إرجاع دعوة تيتومير إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإن دعوة تيتومير نتيجة دعوة الإمام أحمد البريلوي، ودعوة الإمام أحمد البريلوي نبعتْ من دعوة الإمام ولي الله الدهلوي، وهو مؤسس الدعوة التوحيدية- أو قل الدعوة السلفية- في الهند، وليس بينها وبين دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب تلاق ولا أخذ ورد. انظر التفصيل في History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤) p. ٤٢ وانظر كذلك مجلة "التحريك" الشهرية، الصادرة من مؤسسة أهل الحديث براجشاهي بنغلاديش، العدد الثالث، العام السابع، ديسمبر، ٢٠٠٣م ص١٠، وكذلك الحركة الوهابية، تأليف عبد المودود، ص٩٧

ولعل هذا التشابه بين الدعوتين دفع المؤرخين يسمون "الطريقة المحمدية" للإمام البريلوي "الوهابية الهندية"! وجعل علماء أهل الحديث في الديار الهندية يعدون تيتومير واحدا منهم. (انظر تيتومير في صورة جديدة لمؤلفه رودرابرتاب تشادوبادهيايا ص٣٥ وكذلك Muslim Politics in Bengal ١٨٥٥-١٩٠٦, Jayanti Maitra p. ١٩، وانظر كذلك الحركة السلفية في البنغال (رسالة الماجستير) للشيخ مصلح الدين، ص٨٦ وما بعدها، وهذا ما نستحيله.

أما سماع الشيخ تيتومير عن الدعوة السلفية وهو في مكة المكرمة وأخذه من أئمة الدعوة أو حتى التأثر بهم فلا نستحيلها أو لا ندريها! انظر للمزيد كتاب "آثار الثورات المحلية في الأدب البنغالي والثقافة البنغالية" لمؤلفه رانجيت كمارا سمادر ص٢٤٧، ومن اللطائف أن بعض العلماء- المتصوفة- في البنغال خالفوا دعوة الشيخ تيتومير بحجة أنها دعوة خاطئة وبدعة! The Oxford History of Islam, John L Esposito (Oxford University press) p. ٥٣٨، لكن على أية حال- حنفيا كان أو سلفيا- لم يخلد تيتومير في التاريخ لمذهبه الفقهي، ومنهجه الفكري، وإنما لإيمانه بالله، وحبه لدين الله، والشهادة في سبيل الدفاع عن الشريعة والأمة.

[illegible] حربية رجل واحد. فبدأت المؤامرات تُحاك ضدّ هذه الحركة، ومحاولات وأدها في مهدها.

[illegible] يرد تيتومير أن ينزل الساحة قبل أن يستعدّ، إذ كانت دعوته آنذاك في طور الإعداد، فسار على طريق قانوني، ورفع الشكوى إلى المحكمة المحلية ضد الهندوس، لكن الهندوس بكبرهم وغطرستهم لم يكونوا يحسبون للمحكمة اعتبارا! ولا يزنون للقانون والنظام وزنا! بل كانوا يرون أنفسهم فوق القانون!

[illegible] للمحكمة الوثنية أن تقف بجانب الإسلام وتذود عن حقوق المسلمين! فأصدرت المحكمة بالعكس- قوانين ضد تيتومير وأصحابه، قوانين كلها ظلم واعتداء، تنمّ عن بغض الشديد والكراهية اللاإنسانية، والحقد الدفين، التي كانت تكنّها صدور الهندوس ضدّ المسلمين وقادتهم ومصلحيهم، هكذا تكررت مأساة المسلمين، وكان من تلك القوانين الآثمة فرض الحظر على إعفاء اللحى وقص الشوارب، وفرض غرامة مالية على من يخالفها، كما فُرضت الضرائب على بناء المساجد، وعلى تسمية المولود بالأسماء العربية والإسلامية، فإذا تريد أن تبني مسجدا في أراضي المسلمين لا بدّ أن تدفع الغرامة إلى الهندوس! وإذا تريد أن تعطي أولادك أغلى الأسماء في دنياك، الأسماء العربية والإسلامية من محمد أو عبد الله فإنه بعد مخالفة لا بدّ أن تسدد غرامتها للوثنيين! كما صدر الحكم بأن [illegible] اللحية [illegible]! حتى لن يجترئ أحدٌ على ذلك أبدا، ومن يقوى [illegible] ومشكلاته.[4]

ثم [illegible] الهندوس [illegible] الاعتداء [illegible] وأوغروا على تيتومير وأصحابه صدور الإنجليز، [illegible] بالشكاوى [illegible]، ولصقوا [illegible] الاتهامات الباطلة، ووشوا إلى الإنجليز بأن تيتومير يريد أن [illegible] عن طريق هذه الحركة التي بدأها، فلا بدّ من تصفية الحساب معه، ولا بدّ من إغلاق باب هذا [illegible] قبل أن يستفحل، [illegible] فهم الإنجليز حركة تيتومير كما أسرّ في أذنهم الهندوس، وتأزمت الأمور [illegible]، وأصبحوا حربا على هذه الحركة، وهبوا للإطاحة بها، واستئصالها من [illegible].

(1) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. [illegible]

(2) [illegible] أول شهيد في [illegible] تأليف الأستاذ [illegible] عبد الباري، ص٢١

(3) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. [illegible]

(4) [illegible] أول شهيد في [illegible] تأليف الأستاذ [illegible] عبد الباري، ص٢١ - ٢٢

لم يقف الهندوس عند هذا الحدّ، لما رأوا الإجراءات القانونية في الحكومة قد تؤخّر عملية القبض على تيتومير، وقد تبرّئ ساحته من التهم التي وجّهوها إليه كذبا وزورا، فلم يلبث أن نحض آلاف الهندوس تحت قيادة الإقطاعي الغاشم، الحاقد على الإسلام والمسلمين، «كريشناديف راي»، وانقضوا على «ناركيل باريا»، القرية التي استقرّ بها تيتومير مع أصحابه وأتباعه، ولما لم يكن المسلمون على علم بهذا الهجوم، ولم يكونوا على عدّة وأهبة، فوجئوا بضربةٍ عنيفة على أيدي الهندوس، أسفرتْ عن قتل عدد منهم، وجُرح الكثير.[1]

بعد ذلك تتابعت غارة الهندوس على المجاهدين، لا يُعقل أن كلها كانت على حين غفلة من الإنجليز، بل نحن نتأكّد هنا بيقين أن السلطة الإنجليزية هي الأخرى كانت تريد إطاحة المسلمين، كما كان تيتومير يعرف ذلك بيقين،[2] لكنها كانت تتمنى أن تتمّ هذه المهمّة الآثمة على أيدي الهندوس، حتى تكون ساحتهم نقيّة صافية من دماء المسلمين الأبرياء، وتبقى رايتهم عالية خفّاقة طالما أعلنت على سمع العالم وبصره حقوق الإنسان، ولقّنت البشر العلم والحضارة والمدنية، فلما اشتدّت الهجمات، وبلغ السيل الزبى، أحس تيتومير وأصحابه بالخطر المحدق بكيان الأمة المسلمة البنغالية في هذه المنطقة، كما أحسوا بضرورة قرار حاسم، يضمن بقاء المسلمين فيها بكل عز واعتبار، وأداء شعائر الدين بكل حرية وأمن واطمئنان، فشمروا عن ساعد الجد لأداء ما كان عليهم من واجب الجهاد والمقاومة، والدفاع عن حمى الدين الشريعة، ونزلوا في الساحة.[3]

إمارة إسلامية قامت في أرض البنغال

لقد سمع الشيخ تيتومير وأصحابه قول نبيّهم سيد المجاهدين ﷺ إنه "ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه"! فعزموا أنهم ما داموا لبسوا لأمتهم ونزلوا في الساحة، لن يتزحزحوا عن الميدان، ولن ينسحبوا عن الساحة إلا مكللين بالنصر المبين، وعملوا على التجنيد، فما هي إلا أيام حتى زاد عدد أتباعه وبلغوا ألوفا مؤلفة، ووقع بين المسلمين والهندوس مشاكسات وحروب، كان النصر في معظمها حليفا لأهل الإسلام!

(1) المرجع السابق، ص٢٦-٢٧

(2) انظر كتاب أثر الثورات المحلية في الأدب البنغالي والثقافة البنغالية، لرانجيت كمارا سمادر ص٢٥٨

(3) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. ٩٣

ثم عادت معجزة تاريخ الإسلام، ورأى العالم مرة أخرى صلاحية هذا الدين وأثره في قلوب المسلمين، ورأى قيام إمارة إسلامية جديدة في قلب إمبراطورية وثنية كافرة، فقد أعلن الشيخ إقامة إمارة إسلامية مستقلة في البنغال، وأعلن نفسه سلطانا، واختار من أصحابه وزراء، على غرار ما أنجزه قبله شيخه ومرشده الإمام الشهيد البريلوي رحمه الله. وقد امتدت هذه الإمارة المباركة من منطقة «ناديا» و«٢٤ برغنة» في غرب البنغال إلى «فريدبور» في شرقها[1] إمارة تحكم بأمر الله وتحكّم شرع الله، وتناصب العداء للاحتلال والاعتداء، وبدأت راية الدستور القرآني ترفرف على أرجاء البنغال بكل خفقان، وبدأ المسلمون –والهندوس كذلك– يعيشون في حدودها بكل عزّ واعتزاز.

المأساة الأخيرة

هنا ثارت ثائرة الاحتلال، وجن جنون الإنجليز، وتوغرت صدورهم على مسلمي البنغال مرة أخرى، وعلى تيتومير وحركته بوجه خاص، ووجدوا فرصة ذهبية لإغلاق هذا الباب للأبد، والقضاء على هذه الجماعة قضاء نهائيا، الذي هو بالفعل قضاء على آخر معقل الإسلام في البنغال، وموئل المسلمين، ومركز دفاعهم وجهادهم، ومنبع قوتهم وثورتهم، حتى لا تقوم لهم قائمة بعدها، فسيّروا جيشا عرمرما مدججا بقيادة مقدم إنجليزي خبير «ستورت» للقاء حاسم مع تيتومير وأصحابه، وكما أسلفنا أن تيتومير كانت دعوته منصبّة وموجّهة إلى إصلاح المسلمين في إيمانهم وعقيدتهم، ومقاومة الهندوس ورفع الصوت ضدّ ظلمهم وجورهم للمسلمين، ولم تكن موجّهة إلى محاربة الإنجليز وقتالهم في البداية، إلا أن عنصرية الحكومة الكافرة وتحيزها للهندوس أثارت خلافا وتوترا بينها وبين تيتومير، وأصبح القتال محتوما.

في يوم السبت ١٩ نوفمبر عام ١٨٣١م خاض تيتومير وأصحابه المجاهدون حربا غير متكافئة مع جحافل الإنجليز الجرارة، لأن المجاهدين لم يكن على أهبة للقاء الإنجليز في هذه المرحلة الأولى من الدعوة، وكان باب الفرار مفتوحا أمامهم، لكنهم لم يفروا؛ لأن لهم قلوبا حالت بينهم وبين الفرار، كما أن باب الصلح والسلم أو بالأحرى الخضوع والاستسلام كان مفتوحا بين أيديهم على مصراعيه، لكن تيتومير وأصحابه لم يكن لأمثالهم أن يدعوا إلى الجهاد والثبات ثم ينكصوا على أعقابهم، ويرضوا بأن يستسلموا للاحتلال، ويتخاذلوا لليأس والخذلان، ويتحملوا تبعة التهمة الكاذبة بين أيدي الجناة، وهم

(١) South Asia's Modern History, Michael Mann, p. ١٤٩

يحبون الموت في سبيل الله كما يحب غيرهم الحياة، فاختاروا الموت على الحياة، وآثروا الشهادة على الاستكانة، وهنا وقعت الواقعة، وحميت ساحة الوغى، واستبسل المجاهدون ليخوضوا حربا فريدة من نوعها، ونهضوا ليواجهوا بسلاحهم الأبيض جيشا عرمرما، خرج للإجهاز عليهم، وليفنيهم عن آخرهم، مدجّجا بأحدث ما أبرزه العلم المعاصر من مبيدات ساحقة، لكنهم كانوا غيورين على الدين والوطن، فوقفوا مواقف الموت، وأبلوا بلاء حسنا، حتى خرّ تيتومير شهيدا في ساحة المعركة، وجاد بروحه في سبيل العقيدة والمبدأ، في قلعته التي صُنعت بالخيزران واشتهرت في التاريخ بـ« قلعة الخيزران».

انتهت الحرب عن استشهاد أكثر المجاهدين، وأصيب الكثير بجروح غائرة، وأُسِر الآخرون، فزجّ بهم الإنجليز في زنزانة العذاب[1] ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]

شجرة مباركة لا تسقط أوراقها

شهد التاريخ هكذا مأساة أخرى حصلتْ على أيدي الاحتلال، مأساة تعاورتها أقلام وأخرجتْ فيها أفلام، وقد لا يضرّ المسلمين ذلك؛ فإنها قد توافدت عليهم من المأساة ونزلتْ بهم من النوازل ما لا يُحصى في مراحل مختلفة من التاريخ، وفي النوازل الثقال توزن أقدار الرجال، فتركت هذه المأساة دروسا قيّمة للشعب البنغالي المسلم، وتركتْ أثرا بعيد الغور في طريقهم إلى التحرير، ومن هنا رغم أن حركة تيتومير كانت منحصرة في مناطق محدودة، وأن مساحتها الزمانية وكذا المكانية كانتْ ضيقة، إلا أن آثارها كانت خالدة تتخطّى حدود الزمان والمكان، قد تعلّم المسلمون منها أن الهندوس لن يتحمّلوا وجودَهم في هذه البقعة، وأنهم مازالوا يعدّون المسلمين أجانب وغرباء، وأن المسلمين ما داموا يتخلون من الاهتمام بالجهاد، ويستسلمون للبذخ والترف، ويبالغون في الرقي المادي، ونيل الحظوة عند الحكام، والسكوت عن جرائمهم، ما دام المسلمون يعيشون عيشة ذل ومهانة كهذه، لا سبيل للخلاص من الاحتلال، والإسلام لا غالب له إلا الله، وعودة المسلمين إلى دينهم الصحيح، والإيمان الراسخ بالله، ونبذ العادات الجاهلية والتقاليد الهندوسية، والعقائد الخرافية الشركية، والجهاد الدؤوب في سبيل الدين واليقين، هي رؤوس أموال المسلمين، وسفينة نجاتهم، وجزيرة آمالهم، وكنوز سعادتهم في الدنيا والآخرة،

(١) علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص ٥٦، وانظر كذلك للتفصيل في تيتومير: أول شهيد في حركات التحرير، تأليف الأستاذ أ.ب.م عبد الباري ص ٣٣-٣٦.

وكذلك العقيدة النقية الصافية المجردة من شوائب الشرك والبدع التي خلّفها تيتومير لشعبه، واستقرّت في نفوس أتباعه، وخالطتْ لحومهم ودماءهم، وباعوا في سبيلها حياتهم، والجهاد الذي لقّنه إياهم، هما المفتاحان الرئيسان لانتصار الشعب البنغالي المسلم، وتفوّقهم على الشعوب.

هكذا فارق الدنيا، وقد خلف وراءه بوادر ثورة عارمة سرعان ما اشتدّ سعيرُها وازداد أوارُها، وتحوّلت الشرارة إلى لهيب، حتى بلغت الذروة في بضع سنين على وفاته عام ١٨٥٧م، ومن هنا رغم مرور نحو قرنين كأن بطلنا لا يزال حيا يعيش ويتحدّث، ولا يزال مصدر جهاد، ومنبع أمل، ورمز حركة وتحرير، وأيقونة حرية واستقلال وغلبة، مثله كمثل شجرة طيبة مباركة، تؤتي أكلها ولا تسقط أوراقها، وكان أول من ألقى دروس التحرير للشعب البنغالي المسلم، ومن أوائل من دعا إلى التوحيد والعقيدة الصافية، وتطبيق الإسلام في كل مرحلة من مراحل الحياة، فلا يتحدّث متحدّث عن العقيدة، ولا يؤرخ مؤرخ قصة تحرير البنغال، إلا يأتي اسم هذا المجدد المجاهد في المقدمة، وفي طليعة القافلة، جزاه الله عنا خير الجزاء.

مولانا نور محمد النظامبوري

(١٧٩٠- ١٨٥٨)

الداعية المصلح، غازي بالاكوت، خليفة الإمام البريلوي

معروف لا يعرَف

إنه أحد عمالقة تاريخ الإسلام، ومن أولئك العباقرة الذين حفظوا لنا الشريعة، ونصروا الأمة المسلمة في هذه البقعة، والذين لولاهم لما كان هناك اليوم إسلام، ولما كان للمسلمين عين ولا أثر، ولما كانت هناك مساجد يذكر فيها اسم الله، ولا مدارس يقرأ فيها كتاب الله، فقد عاهدوا الله وأوفوا بالعهد، وحفظوا لنا ديننا بحد سيوفهم، وحرارة قلوبهم، وضراعتهم في جوف الليل، وضراوتهم في قيظ النهار، وجاهدوا في وقت واحد في جبهات مختلفة، فبذلوا أرواحهم الطاهرة الزكية، وسفكوا دماءهم الصافية النقية في ساحة الوغى، وفدوا بعمرهم ومالهم وفرحهم وسعادتهم، في حقول الدعوة إلى الله، ورفع رايتها الغالية، وإصلاح الأمة، ونشر العقيدة الصحيحة، ومحو البدع والجاهلية، حتى لم يجدوا وقتا ليتزوّجوا، ولينجبوا الأولاد، وليعيشوا عيشا هنيئا رغدا بين أعطاف الأسرة، بعيدا عن الساحة، إنه المجاهد الأعظم، والإمام المصلح، غازي بالاكوت، وخليفة الإمام البريلوي، الشيخ الصوفي، ومرجع الأولياء، مولانا نور محمد النظامبوري الغزنوي رَحِمَهُ اللهُ.

مرحلة التكوين

ولد نور محمد في محافظة «نواخالي» عام ١٧٩٠م، في أسرة دينية شريفة، تتحدّر من سلالة ملكية غزنوية،[1] فقد هاجرَ سلفُه من «غزنة» إلى البنغال قبل قرون، واستقرّ بهم المقام في «نواخالي»،

(١) Shane-E Waisi , Ahmadul Islam Chowdhury, (٢٠٠٧) p. ٦٥

وظلوا فيها يدعون ويصلحون، ويعملون من أجل الدين، وما أدراك بدم غزنوي وبما أدّى هذا الدم من دورٍ بليغ فريد في تاريخ الإسلام والحضارة الشرقية الدينية، وكان شيخنا قد ورثَ ذاك الدم، وجرى في شرايينه، فقام بما لم يقم به إلا العظماء.

أخذ نور محمد دراسته الأولى من والده الشيخ محمد فناح، ثم دخلَ في كتاب قريته وأكمل الابتدائية، وكانت البنغال الشرقية آنذاك شبه خاوية من المدارس الدينية، والمراكز العلمية، فسافرَ إلى [illegible] الغربي، ودخلَ في المدرسة العالية بكلكتا عاصمة البنغال الغربية، وقبلة العلماء والطلاب، ومنارة ذوي [illegible] في تلك الأيام، وظلّ يدرس فيها سنوات حتى تخرّج، ونال لقب "فخر المحدّثين"، ثم استأنف مرحلة ثانية من حياته- مرحلة التدريس- في المدرسة العالية نفسها.[١]

من كلكتا إلى بالاكوت: مع الإمام البريلوي

عام [illegible] للميلاد وصلَ الإمام أحمد بن عرفان البريلوي إلى كلكتا في طريقه إلى مكة، وأقام فيها ثلاثة أشهر يدعو ويصلح. ويجنّد جهاده ضد القوات المحتلة الوافدة، والوثنية الجبارة الوطنية، ولإقامة الخلافة الإسلامية في البقعة الهندية، فهرولَ الشيخ النظامبوري إلى الإمام، ووضعَ يدهَ في يده، وبايعه على الطاعة، والتزكية، والجهاد.[٢]

من اليوم الذي بايعَ فيه الشيخ النظامبوري الإمامَ البريلوي، لازمَه ملازمة الظل للإنسان، فصاحبه في حله وترحاله، وفرحه وترحه، وأنسه وبؤسه، وبيته وساحته، وحقول دعوته وميادين قتاله، قرابة عشرة أعوام، إلى آخر عهد الإمام بالدنيا، فقدَ سافرَ معه إلى الحرمين، وحجَ وزارَ، ثم قام بالدعوة والإصلاح في طول البنغال وعرضها، ومن شرقها إلى غربها، ولما بدأ الإمام قتاله ضد الاحتلال والسيخ، كان الشيخ النظامبوري رفيقا له في كل موطن وفي كل موقفٍ يقفه، وفي كل ميدان ينزله، في مناطق «بشاور» و«بنجاب» وغيرهما، حتى جاءَ ٦ مايو عام ١٨٣١م، ذاك اليوم العبوس في تاريخ الإسلام في الهند يوم بالاكوت، الذي خاض فيه إمام المجاهدين غمار حرب غير متكافئة ضد السيخ، وأصبحَ جزءا من التاريخ، فقد **استشهد** الإمام ومعه عدد كبير من أصحابه، ونجا الشيخ النظامبوري بمشيئة الله مع عدد ضئيل ممن نجوا، بعد أن أبلوا بلاء حسنا، وأبدوا بسالة نادرة، وجرحوا جروحا ثخينة غائرة.[٣]

---

(١) مقال مولانا معين الدين، جريدة "نيا ديغانتا" (الأفق الجديد) اليومية، الجمعة، ٤ مارس، ٢٠١٦م

(٢) Biographical Encyclopedia of Sufis: South Asia, N Hanif (٢٠٠٠), p. ٣٥٦

(٣) كاروان إيمان وعزيمت (الأردية)، تأليف مولانا أبي الحسن علي الندوي (مجلس نشريات إسلام) ص ١٢٥

بعد بالاكوت: عودة إلى المنزل

بعد أن انحسرت معركة بالاكوت عن شهادة عدد كبير من المجاهدين، ونخوة الجيش السيخي وعنجهيته، انسحب الجيش الإسلامي عن الساحة، والتجأت الفلول إلى الجبال، وهنا جاءَ امتحان جديد لهم، وابتلاء آخر، فاشتدّ عليهم اعتداء الاحتلال، وبدأت المراقبة، وخرجت عيون الأعداء تبحث عن الغزاة في كل مكان، فاختفى الأبطال عن الأنظار واختفى معهم الشيخ النظامبوري، حتى وصلَ إلى كلكتا، وظل يعيش فيها بعيدا عن الضوء وعن الملأ، وبعد فترةٍ أخذ طريقه إلى مسقط رأسه، ووصل إلى قريته وبيته، وخلّف وراءَه صفحةً من حياته خلّدته في التاريخ![١]

جهوده في الإصلاح ومحاربة البدع

لقد استشهد إمام المجاهدين، وانقرضت مرحلة الجهاد والقتال، التي كانت أعز مرحلة في التاريخ الإسلامي المعاصر، لكن جهاد المجاهد الحق لا ينتهي، لذلك لما عادَ الشيخ المجاهد النظامبوري من جهاده ضدّ السيخ، رأى في وطنه ميدانا جديدا ينتظره، وساحة جديدة ليستأنف فيها جهاده، الجهاد ضد البدعة والوثنية السائدة في منطقته، فهب يدعو الناس إلى العقيدة النقية الصافية، ويلقنهم كتاب الله وسنة رسوله، ويحذرهم من البدع والخزعبلات، كما أن القتال لم تخبُ جمراته قط في نفس هذا المجاهد العظيم، فظلّ يشجع الناس على التحرير، وقتال الإنجليز، ويجتهد في الدعوة ويكدح في الإصلاح، وإعداد الجيل لمحاربة الجهل والظلم في ذات الوقت، حتى عمّت دعوته المناطق المجاورة لـ«نواخالي» كلها، وجاءت انتفاضة إيمانية شاملة من تخوم «فيني» غربا إلى سواحل خليج البنغال شرقا! وقائد الانتفاضة يصول ويجول، ولم يجد فرصة الزواج وتكوين الأسرة، بل عاشَ طوال حياته سيدا وحصورا، حتى انتقل إلى رفيقه الأعلى عام ١٥٥٨م.[٢]

كان الشيخ النظامبوري على القمة من الورع والعبادة، والزهد والإنابة، وكان وليا من أولياء الله، وقطبا من الأقطاب، وقد جُبل على التقوى والخشية من الله منذ صغره، تتجلى من خلال التزامه بالشريعة والوقوف عند حدودها، والتعامل مع الله ومع الناس، ثم لما بايعَ الشيخ الإمام البريلوي زادتْ صحبة الإمام تقواه وإيمانَه، وحماسه للدين، ورغبته في الآخرة، حيث قدّم إلى الإمام كل ما كان عنده

---

(١) انظر في مقال الشيخ شريف محمد، مجلة الكوثر الشهرية، مايو، ٢٠١٣م

(٢) Shane-E Waisi , Ahmadul Islam Chowdhury, (٢٠٠٧) p. ٦٩

من الدنيا، صدقة في سبيل الله، ولما سأل الإمام ماذا تركتَ لأهلك؟ كأنه قال " تركت لهم الله ورسوله"! وكان في غاية من الإخلاص لله ولدينه، بعيدا عن الرياء كل البعد،[1] كما كان لا يضيع لحظة من حياته بدون ذكر الله، وعادَ القرآن غضا طريا على لسانه، وبرزت وراثة النبوة والرسالة في شمائله، يحافظ على الصلوات مع الجماعة، وينتظر من صلاة إلى صلاة، ويستعدّ لها، حتى إن يخرج يظل قلبه معلقا بالمساجد! وكان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويسأل الحاضر، ويفتقد الغائب.

ضياعه بين ضلال الجهلاء وغفلة العلماء

لقد عرفَ الناس هذا الإمام وعرفوا مزاياه ومكانته، فأقبلوا عليه إقبالا عظيما، ووضعوا فيه الثقة، وأصغوا إليه، واستفادوا منه، حتى التف حوله عدد كبير من الأتباع والمريدين، بايعوه على الطاعة والتقوى، والسلوك والإحسان، وقد تخرّج على يديه كثير من العلماء الذين أصبحوا فيما بعد عظماء الإسلام في هذه البقعة، وأعلام الدعاة، وقادة المصلحين، ومراجع العامة والخاصة، على رأسهم الشيخ فتح علي الويسي، مؤسس زاوية «سوريشوار»، ومولانا غلام السلماني وغيرهما،[2] كما بايعه وتأثر به مولانا أحمد الله «المايز فنداري»، والشيخ حميد الله خان بهادر.[3]

وكان الشيخ أبو بكر الصديقي مؤسس زاوية «فرفرا» خليفة الشيخ فتح علي الويسي، ثم تفرعت عنها زاوية «سرسينا» على يد الشيخ نثار الدين أحمد خليفة الشيخ الصديقي، وبذلك هذه الإصلاحات العامة الشاملة للهند والبنغال وهؤلاء المصلحون العظماء ليسوا إلا أفنان تلك الدوحة الباسقة التي نشأت واستقامت تحت ظلال الإمام البريلوي، وقد أوصى قبل وفاته بأن لا تُشيد على قبره القبة، ولا تشدّ إليها الرحال، ولا يقام عليه احتفال، ولا يُتخذ مسجدا، ولا يصنع حوله ما يخالف الشريعة، فكان كذلك في حياة خلفائه وتلامذته الأولين.[4]

لكن خلفَ من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات، وتنكبوا المحجة. فضلوا وأضلوا ملايين الناس، وأصبح حملة لواء دعوته وإصلاحه يوما حملة لواء الضلال وأئمة النار، يبنون زوايا الشرك وأوكار الجاهلية، ويعبدون القبور، ويحتفلون بالأضرحة والمزارات، ويروّجون كل بدع في أسوق الأمة،

(١) تحريك سيد أحمد شهيد (الأردية)، تأليف حضرت مولانا غلام رسول مهر، ج ٣، ص ٣٤٧
(٢) كاروان جهاد وعزيمت (الأردية)، تأليف مولانا أبي الحسن علي الندوي (مجلس نشريات إسلام)، ص ١٢٥
(٣) Shane-E Waisi . Ahmadul Islam Chowdhury. (٢٠٠٢) P. [illegible]
(٤) [illegible]

وصارت خانقاهاتهم حوانيت الخمر، ومسارح الرقص والغناء، ومخادع الزناء!

بينما ظلّ العلماء في غفلة عجيبة من هذا الإنسان العظيم الذي هو منهم ولهم، والذي حفظَ لهم الدين والعلم في هذه البقعة، واستحق أن يكون مرجعا لهم وإماما، ومصدر قواتهم الروحية والسياسية، ومشكاةً يؤخذ منها النور في أعمال الدعوة والإصلاح، والقتال والقيادة، لكنهم لم يكافئوه، ولم يقدروه حق قدره، ولم يشكروا سعيه، بل لم يستفيدوا منه، فظلَ هذا الإنسان مغمورا مهجورا في أوساط العلماء، ومدفونا تحت أطمار النسيان في المدارس والحلقات، والمراكز العلمية والعربية، هنا جاء دعاة الباطل واستغلوه، واتجروا باسمه، بحيث إنك لو تسمع إليهم لتتعجب من كثرة تكرارهم لاسم الشيخ وانتمائهم له، وردّ أباطيلهم إليه، حتى لتظن الشيخ إمام المجرمين، وقائد الصوفية الملحدين، بينما هو إمام من أئمة المؤمنين، وقادة الدعاة والمصلحين!

إمام الدين البنغالي الحاجيبوري

(١٧٨٨ - ١٨٥٩)

الداعية المصلح، غازي بالاكوت، خليفة الإمام البريلوي

قافلة لا تتوقف

الموكب النوراني الذي خرجَ من البنغال الشرقية، ومرّ في طريقه بـ «شيتاغونغ» و«نواخالي» و«سلهت»، والجزء الشمالي منها، ومنطقة «كلكتا» و«تريبورا» من الهند، يدعو إلى الله ويصلح عقائد المسلمين، ويجنّد للجهاد في سبيل الله، حتى وصلَ إلى وادي بالاكوت، تحت قيادة إمام المجاهدين أحمد بن عرفان البريلوي، كان موكبا وحيدا فريدا من نوعه في تاريخ هذه البقعة، لم يخرج مثله قطّ، يجمع بين الدعوة والجهاد جمعا نادرا، كانوا رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه في ساحة الوغى، ومنهم من عادَ إلى وطنه، يدعو وينتظر، وكان في طليعة الموكب، الشيخ الصوفي نور محمد النظامبوري، والشيخ بركت الله البنغالي، والشيخ عنايت الله البنغالي، والشيخ عبد الحكيم الشاتغامي، والسيد حمزة الآراكاني، والمنشئ إبراهيم، والشيخ الشهيد عليم الدين، والشهيد شرف الدين، والشيخ تِشراغ علي، وإمام القافلة، الشيخ مولانا إمام الدين البنغالي.

بداية مظلمة تنصب في نهاية مشرقة

ولد إمام الدين في محافظة «نواخالي» عام ١٧٨٨ للميلاد، ليكون يتيم أبيه في ربيعه الثالث، فتزوجت أمه من إنسان لا يحمل له في قلبه حبا ولا رحمة، ثم ما زادت الأيام إلا ظلما وظلاما، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وتنكد له العيش، فاستأذن الطفل من أمه وخرجَ وحيدا من بيته، في طريق لا يكاد يبصر منتهاه، ويبحث عن مستقبل لا يعرفه، حتى وصلَ إلى داكا ومكث فيها أياما، ثم

خرجَ منها متجولا حتىٰ توقف سيره في كلكتا،(١) وهكذا ظل يتنقّل بين مدن، ومن عاصمة إلىٰ عاصمة تنقل اللقيط، يبحث عن مكان يلجأ إليه، وعن مركز علمي يدرس فيه، وهل توقّع هو أم أحد من العالم في ذاك الوقت أن هذا الطفل اليتيم الطريد الشريد سيصبح عما قريب أحد عظماء الدهر، وبطل الأبطال في تاريخ شبه القارة الهندية؟ وسيجل اسمه في قائمة الخالدين لن يمحىٰ، ما دام في الدنيا دين يُجاهَد في سبيله، وراية تُرفع في السماء.

خرجَ إمام الدين من كلكتا حتىٰ وصلَ إلىٰ دهلي، وهنا طلعت له أول كوكبة السعادة، فالتقىٰ بإمام الهند، الشيخ عبد العزيز الدهلوي، نجل الإمام ولي الله الدهلوي، وتتلمذ عليه، وبعد فترة عام ١٨٢٠م، جاءت سعادته الكبرىٰ، عندما حضر في مجلس من مجالس إمام المجاهدين أحمد البريلوي في «لكناؤ»، وهنا وجدَ إمام الدين بغيته، ورأىٰ منزله، ووضعَ يده في يد الإمام البريلوي، وبايعه علىٰ الجهاد والطاعة، ولازمه ملازمة الظل، لا يفارقه في حله وترحاله، وجهاده وراحته، وأكله وعبادته، حتىٰ كافأه الإمام بثقته وإخلاصه، وجعله من خاصته، وأقرب الناس إليه، فأصبح من طليعة المجاهدين.(٢)

مع الإمام البريلوي إلىٰ وادي بالاكوت

مكث الشيخ إمام الدين مع مرشده الإمام البريلوي في «راي بريلي» فترة، ثم في عام ١٨٢١م لما خرجَ الإمام مع أصحابه يريد الحجّ صاحبه الشيخ، ولما وصلَت القافلة إلىٰ كلكتا، وأقام الإمام فيها لمدة ثلاثة أشهر، استأذن منه الشيخ وذهبَ إلىٰ مسقط رأسه ليزور أمه، بعد قرابة ربع قرن!(٣) ثم عادَ إلىٰ كلكتا وخرجَ مع المرشد إلىٰ الحرمين، وفي نهاية عام ١٨٢٣م لما صلت القافلة إلىٰ كلكتا عائدة من مكة أجازه الإمام البريلوي في التزكية، وأمره بالخروج في سبيل الدعوة إلىٰ الله، وتجنيد المجاهدين في سبيل الله، فخرجَ الشيخ ونهض يجوب أقطار البنغال الشرقية من «شيتاغونغ» و«نواخالي» إلىٰ مناطق «تريبورا» الهندية، وبعد فترة لما خرج الإمام مع جيشه يبدأ جهاده في الميدان عام ١٨٢٥م، هاجرَ إليه الشيخ إمام الدين وشاركَ في جيشه، وجاهدَ معه في كل موطن، حتىٰ جاءَ عام ١٨٣١م وحصلتْ المعركة الكبرىٰ في وادي بالاكوت، استشهد فيها الإمام البريلوي مع عدد كبير من جيشه، ونجا الشيخ إمام

(١) الموسوعة الإسلامية، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، ج ٥، ص٤٦

(٢) كاروان إيمان وعزيمت (الأردية)، تأليف مولانا أبي الحسن علي الندوي (مجلس نشريات إسلام) ص ٨٤

(٣) تحريك سيد أحمد شهيد (الأردية)، تأليف حضرت مولانا غلام رسول مهر، ج ٣، ص٣٣٨

الدين مع من نجا، بينما استشهد أخوه عليم الدين، وأخذ طريقَه إلىٰ مسقط رأسه شرق البنغال.(١)

عبقريته التي تندر في التاريخ

لو ينظر الباحث بعين فاحصة في حياة هذا الإنسان، ليأخذه العجب العجاب، فكيف برجلٍ نشأ يتيما، وفي بقعة مظلمة متخلفة، بعيدة عن مراكز الحضارة، وحواضر العلم والمعرفة، في أحط أدوار تاريخها، فخرجَ منها بلا راعٍ ووليّ، ومربٍّ ومنشئ، وبلا زاد ومتاع، ثم هو الذي عادَ إليها بعد ربع قرنٍ، شابا يتدفق حياة ونشاطا، وتتلألأ علىٰ جبينه درة السعادة والثقة، ويحمل في يده راية اليقين، ونور العلم، فيدعو الناس إلىٰ الله، وإلىٰ إصلاح العقيدة، وترميم العلاقة مع الله، ويجنّدهم للجهاد في سبيل الله، ضد الاحتلال والوثنية، ويقبل عليه الناس إقبالا كبيرا، حتىٰ تحصل نهضة إيمانية وجهادية كبرىٰ في تاريخ هذه المنطقة، ويصبح هذا الإنسان أساس هذه النهضة، وحلقة الوصل بين «بنجاب» قاعدة جهاد الإمام البريلوي، وبين البنغال الشرقية.

فالجهاد المبارك الذي بدأه الإمام البريلوي في الهند، ثم انتشرَ نورُه في بقاع شبه القارة الهندية بأجمعها، لم يكن ليمتدّ إلىٰ أقصىٰ البنغال الشرقية، لولا هذا الإنسان وعدد من إخوته في الدين، أمثال الشيخ النظامبوري وغيره، بل كان الشيخ إمام الدين رئيس هذه القافلة، وربان السفينة، وكان أقرب الناس إلىٰ الإمام بين أصحابه البنغاليين، حتىٰ لما كثر الخونة في صفوف المجاهدين، وتسرّب فيهم عدد كبير من المنافقين، وخيف علىٰ حياة الإمام، وظهرت ضرورة حراسته وحمايته، اختير الشيخ إمام الدين في الحراس المقرّبين! وهذا إن دل علىٰ شيء، دل علىٰ مكانته من الإمام، وثقته به.

ولما وضعت معركة بالاكوت أوزارها، وأسفرت عن خسائر فادحة في جيش المجاهدين، وقتلهم وتشتتهم في أرجاء الهند، عادَ الشيخ النظامبوري مع أصحابه إلىٰ مسقط رأسه، مجهودا ومنهوكا، فكان من المتوقّع أن يقبع في بيته، ويعيش عيشة هادئة بقية حياته، لكن مثل هذا التوقّع لا يجوز في مثل هذا الإنسان، وأنىٰ له بذلك؟ فإن إيمانه ويقينه، ومكانته في الجهاد والقيادة، وحظه من رباطة الجأش وقوة الشكيمة، لا تسمح له أن يختار حياة الرخاء والرفاء، لذلك ما إن رجعَ إلىٰ وطنه، وتفرَّغ من جهاده ضد الاحتلال والسيخ، بالسيوف والأسنة، إلا وبدأ جهاده في جبهة جديدة، ضد الشرك والبدعة، والخرافة والجاهلية، باللسان والجنان، وبالدعوة والمحاضرة، وفي الوقت نفسه، كان إنسان آخر مبارك

(١) انظر للتفصيل الموسوعة الإسلامية، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، ج ٥، ص ٤٦ و٤٧

يحمل لواء الدعوة في أرجاء البنغال وآسام: الشيخ الكبير مولانا كرامت علي الجونبوري، فكان بينه وبين الشيخ الجونبوري علاقة حب وإخاء وإخلاص ووفاء، وتعاون على البر والخير والتقوى، كلما كان الشيخ الجونبوري يأتي منطقة «نواخالي» يجلس معه، ويستفيد منه، ويخطط في الدعوة والإصلاح، حتى حدثت نقلة إيجابية كبيرة في تاريخ الإسلام في البنغال، وعاد كثير من الناس، التائهين في متاهات الجهل والبدعة، إلى الشريعة الغراء.

الأمانة التي تركها الشيخ على أكتافنا

في عام ١٨٥٨م زاد حنينه إلى بيت الله. فخرج مع أهله، وأدى مناسك الحج، وفي طريقه عائدا إلى الوطن انتقل إلى الرفيق الأعلى على متن السفينة بالقرب من «عدن» عام ١٨٥٨م، ففاضت جثته إلى حضن البحر الأحمر. لكن الفصول المنيرة من تاريخ البطولة والجهاد في سبيل الله التي سطرها، ومآثره الحية في الدعوة والإصلاح، لم تكن لتغوص في البحر مع جثته الطاهرة، إلا أنه- للأسف- هذا الذي وقع، فتغافل عنه الجيل الذي جاء بعده، ونسيه العلماء الذين ورثوا العلم منه ومن تلامذته، فنسيه الناس، حتى لو سألت اليوم العلماء هذا السؤال عن هذا الإنسان، لتجد معظمهم لم يسمعوا عنه، فضلا عن أن يعرفوا حياته ومآثره.

كيف يجوز أن ننساه؟ وهل وجدنا الدين والعلم إلا بالدعوة وجهود هذا الإنسان وأصحابه؟ إذ أخبرنا التاريخ بكل صراحة أن معظم مناطق هذه البلاد كانت مظلمة، غارقة في بحر الشرك والوثنية إلى نهايتها، ولم يكن الإسلام عند أهلها إلا شبحا لا حياة فيه ولا روح، ولا أثر له في الحياة وفي المجتمع، لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه. هذا حال ... فجاء هذا الإنسان وأصحابه، وحفظوا لنا الدين والكتاب والشريعة والأمة المسلمة. وإذ كنا اليوم مسلمين، فهو حسنة من حسنات هؤلاء العباقرة، ومنحة من منحهم، وبفضل تضحياتهم، وثمرة جهودهم وجهادهم. ولكن الشيخ أكرم الحسيني الجونبوري جد الشيخ محمد الله الحافظجي، لم تر[illegible] على يده، ونشأ تحت ظلاله![٢]

كان هذا الإنسان مثالا نادرا يجمع بين جهاد الدعوة، والقلم والإصلاح، والتربية والسياحة العلمية والعملية، ولم أشعر جميع بينها؟ فهو الذي أثبت قبل نحو قرنين من اليوم أن التزكية والجهاد

[illegible]

توأمان، لا بد من كليهما، ولا يغني أحدهما عن الآخر، إذ كان له أن يبتعد عن معامع القتال، وعنده بيعة وإجازة من الإمام البريلوي، أكبر أئمة عصره، ويكتفي بالدعوة والإصلاح بهدوء وأمان في أرجاء البنغال، كما كان له أيضا لما عادَ إلى وطنه بعد معركة بالاكوت أن يعيش حياة هادئة وادعة في أحضان أسرته، وقد جاهدَ، وشهد أكبر معركة في تاريخ الهند المعاصر بين الإسلام والوثنية، لكنه لم يفعل هذا ولا ذاك، بل لما تفرّغ من الجهاد في جبهة القتال، بدأ جهادَه في جبهة الدعوة والإصلاح، وأزال كثيرا من الظلام المحيط بسماء البنغال، لذلك الواجب الأوجب على الأمة المسلمة البنغالية أن لا تنسى أمثاله، بل تسجّل تاريخهم بمداد من الذهب والنور، لا سيما في عصر صار البون شاسعا بين الزاوية والساحة، وأصبح معظم أهل العلم لا يعنون بالساحة عشر معشار عنايتهم بالزاوية، ليكون زادا على طريق الأجيال القادمة، رحم الله الشيخ إمام الدين وكثّر أمثاله.

مولانا كرامت علي الجونبوري

(١٨٠٠- ١٨٧٣)

المصلح العظيم، هادي آسام والبنغال، خليفة الإمام البريلوي

نحن الآن أمام رجلٍ عظيم من عظماء الدنيا، ومصلح من أعلام المصلحين، وبطل من أبطال العالمين، وإنسان من الطراز الأول، ومن النوع الفذّ الفريد، رجلٌ أوقفَ حياتَه على الدعوة والإصلاح، فخرج من بيته، وفارق أهله وأقاربه، وخلّف دنياه وراء ظهرانيه، وقضى أيامه في غير موطنه، وأمضى ليله ونهارَه في القرى والأرياف، والأنهار والأدغال، يدعو الإنسانية الضالّة عن الصراط إلى رشدها، ويُصلح الأمة الضائعة وسط لجج الخرافات والوثنية، فكان داعية رحّالة، يجوب أقطار البنغال وآسام قطرا قطرا، ويبلّغ الدعوة الدينية الخالصة إنسانا إنسانا، فيستمع إليه الناس، ويستجيبون لدعوته، ويكثر عدد أتباعه ومريديه على الأيام، حتى أشرقت هذه البقاع بنور الإسلام، وهبّت عليها نفحة من نفحات الإيمان، وانقشعت ظلمات الجهل والأمية، التي كانت مطبقة ومخيّمةً على أرجائها، فكان منّة ربانية جليلة لأهل هذه المناطق، جاءَ من الخارج ليصلح الداخل، ألا هو المصلح العظيم المعروف في التاريخ بـ«هادي البنغال وآسام» و«قطب الإرشاد»، مولانا كرامت علي الجونبوري رَحِمَهُ اللهُ.

ميلاده ونشأته

ولد كرامت علي في مستهلّ القرن التاسع عشر الميلادي بمدينة «جونبور» من ولاية «أترابراديش» في الهند، وكان ذلك عام ١٨٠٠ للميلاد،[١] فكأنه كان إيذانا ببداية عصر جديد، وكأنه جاءَ مجدّدا لقرن، وُلد في أسرةٍ دينية شريفة، ترجع جذورُها إلى شجرة عربية قحة، مباركة خالصة، وتنتهي إلى

---

(١) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق، ص٣١

ضميره، هنا سمعَ أن أمير المجاهدين السيد أحمد بن عرفان البريلوي رَحِمَهُ اللَّهُ وصلَ إلى «راي بريلي» في رحلة دعوية، مع حشد كبير من أصحابه وخلفائه، وارتطمتْ أمواج الشوق واللهفة في قلبه، وجاءَ مدٌّ كبير من الفيوض الإلهية، والربانية الخالصة، وأحس بروحه تحدو وتطير إلى الإمام، وأفضى كل ذلك إلى والده، وقد رحّب الوالد بولده، وأذن له بالسفر، فخرجَ من «جونبور» ومضى قدما إلى زاوية «عَلَم الله» في «راي بريلي».

عرفَ الإمام البريلوي رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الشابّ التقيّ الغيور منذ اللحظة الأولى من دخوله عليه، بفراسته الإيمانية، ونظرته الروحية القويّة، وبطول تجاربه بالحياة والناس، وأدرك أن هذا الشاب الذي قد تسلّح بشتى العلوم والفنون الظاهرة، وبألوان من المعارف، لو حصلتْ له الآن العلوم الباطنة، والقوّة في الروح، والإخلاص في العمل، والربانية في الأخلاق والسلوك، ليكوننّ من نوابغ العصر، ومن عظماء التاريخ، ومن قادة الدعاة والمصلحين، ولينفعنّ الأمة والدين نفعا كبيرا، فأخذ منه البيعة، وأفاده في شتى مجالات العلوم والفنون، وفي غضون ثلاثة أسابيع أجازَ له الإمام بالرجوع، وبالبدء في عمل الدعوة والإصلاح، ومبايعة الناس على تزكية النفوس، وإحياء الشعائر والضمائر.(١)

انطلاق الدعوة والإصلاح في «جونبور»

هكذا انتهتْ رحلةٌ مباركةٌ تاريخية في حياته، لتكون نقطة انطلاق لرحلة جديدة، رحلة الإصلاح والإحياء، والدعوة المستمرّة والحركة الدؤوبة، رحلةٌ كلها مخاطرة ومجازفة، وقلب الميزان، فالقرار والطمأنينة التي حصلتْ له عند اللقاء مع السيد الإمام، سرعان ما تغيّر وتحوّل إلى اضطراب، وقلق فكري كبير، بعد الإجازة من الإمام ببدء العمل، وبعد أن خطرَت بباله أوضاع المسلمين المأساوية الخطيرة في «جونبور»، لكنه تمالكَ نفسهُ، وشمّر عن ساعديه، ونزل في الساحة.

عندما رجعَ الشيخ إلى موطنه «جونبور»، كان المجتمع المسلم هناك في أحطّ أدوار التاريخ، ديانةً وإيمانا، وورعا وصلاحا، وأخلاقا وأنظمة، وثقافة ومدنية، وعلما ومعرفة، فالسجود للشيوخ والأولياء، وعبادة الموتى، والطواف بالقبور، والحجّ إلى الأضرحة، وتقديم القرابين للمزارات، وإقامة الأعراس ومجالس السماع والغناء، والمواجيد والمواويل، والطرب والرقص، والعزف على الطبول، والإتيان بعجائب الإنشاء والقصائد، باسم الدين والذكر، وباسم الروحانية والتزكية والتصوّف، كانت شائعة عميقة

---

(١) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق، ص٣٣

الجذور، وكانت الثقافة الهندوسية الوثنية في قمة طغيانها وعدوانها، وكانت الحياة الاجتماعية لدى المسلمين مصطبغة بالصبغة الهندوسية، بدءا من الأكل والشرب، والزي واللباس، حتى العبادة، والاحتفالات الدينية الخالصة، بل كانوا يتباهون بالانتماء إليها والاحتفال بها، وتجاسروا على تعطيل الشعائر الدينية، فكانت معظم المساجد في «جونبور» مهجورة وموصدة الأبواب، وقد تُفتح، لا للصلاة والجماعة، وإنما لإقامة الأعراس، ومحافل الموسيقى والرقص، والعزف على الأوتار والأطبال، وتحوّلت بعض المساجد إلى الإصطبل، تربط فيها الخيول والأبقار والحمير! وتُرك الأذان في النهار، فلا يؤذّن إلا في الليل، ولا يجتمع الناس في المساجد لإقامة الصلاة مع الجماعة.[1]

هذا الجوّ الحالك للمجتمع الهندي المسلم الذي له تاريخ عظيم، وماض عريق في الديانة والصلاح، والجهاد لنشر الدين وإقامة الشعائر، ينبئنا عن مدى إفلاسه، ومدى الانحطاط الإيماني والخلقي الذي حصل له الآن، ولم يكن في هذا المحيط الكبير إنسانٌ واحدٌ، صاحب قلب كبير، غيور على دينه وإيمانه، يتجرأ ويرفع الصوت ضد هذا الفساد العريض، ومن هنا تبرز عبقرية الشيخ كرامت علي، وجرأته وغيرته، وروح التفاني والفداء التي كان يملكها، للعمل في سبيل الله، وفي رفع كلمة الله.

خرجَ الشيخ وبدأ يجوب في طريق «جونبور»، ويدعو الناس إلى دين الله، ويبحث عن جماعة من الرجال، أصحاب القلوب الواعية الجريئة، ليكونوا أحجار زاوية، يقوم عليها الصرحُ العظيم من الدعوة والإصلاح، وبناء الإنسان والمجتمع، حتى وجد خمس أرواح مؤمنة قد اجتمعوا حوله، فاستصحبهم، ووضعَ بهم أولى خطوة في طريق الإصلاح، واللبنة الأولى لدولة دعوية قوية، وبدأ بهم إقامة الصلاة في المساجد، وهبّ الأذانُ يرتفع من المساجد وقتَ النهار من جديد، بعد فترةٍ تَطول.

فوجئ المجتمع المسلم في «جونبور» بهذا المنظر المهيب الغريب، وكأنهم وجدوا فيه شيئا ضاعَ منهم على مرّ الأيام وفي حين الغفلة، وهاهي بضاعتهم الضائعة ردّت إليهم مرّة أخرى، فبكى كثيرٌ من الناس هيبة ودهشة، وحسرةً على الأيام الخالية المؤسفة الرهيبة، ونهضوا وأقبلوا أيما إقبال، وقد زادَ هذا الإقبال العظيم في قوّة الدعوة، وفي معنويات الدعاة، فزادوا سرعةً ونشاطا، وجهدا وجهادا، واستبسالا واستماتةً، وسرعان ما تغيّر جوّ «جونبور»، وعُمّرت المساجد بالصلاة والتلاوة، وارتفعت الأصوات بالذكر والتسبيح، والبكاء والنحيب، وقامت المدارس ودور التعليم والتربية، التي لا غنى للمجتمع المسلم

(١) أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش ص ٢٨٣، وانظر تفاصيلها في سيرت مولانا كرامت علي جونبوري، تأليف مولانا عبد الباطن الجونبوري ص٢٨ وما بعدها

عنها، والتي هي أكبر وسيلة لنشر الدعوة والتجديد، وأقوم سبيل للدعاة والمجدّدين، وعلى رأسها «المدرسة الحنيفية»، التي أخرجت أمّة كاملة فيها رجالٌ وأعلامٌ، ولهم خدمات جليلة للدين والوطن، لن ينساها التاريخ، والتي لا تزال قائمة تشعّ الضوء وتنير العقول بعد زهاء قرنين، وهكذا صلح هذا المجتمع، وصلح أهله، وعاد إليه بهاؤه ورواؤه، وصفاؤه ونقاؤه.

انتصار الحكمة على الحماس

هنالك طرقَ مسامع المسلمين في «جونبور» نداء المؤذن، يؤذّن بالجهاد على طواغيت السيخ، في وادي بالاكوت، بقيادة أمير المجاهدين الإمام السيد أحمد البريلوي رحمه الله، ذلك النداء المبارك، وذلك الأذان الحيّ الدافق الذي طالما انتظره الشيخ كرامت علي، واستعدّ له منذ نعومة أظفاره، وتدرّب ليكون على رباط دائم، وعلى أهبة تامّة، فما إن سمع النداء إلا وهرولَ إلى حضرة السيد الإمام، ليحقّق حلمه الذي ظل يضطرم في صدره، ويترقب فرصة تحقيقه.

لكنّ المقادير رسمت له طريقا آخر، وكأن مشيئة الله أرادت أن تقيّضه في جهاد أسبق من هذا الجهاد، له شأن أيما شأن، وأثر يفوق أثر النار والأسلحة، والرماح والأسنة، وله صدى تجلجل وتعلو صرير السيوف وصهيل الخيول، وقد تكون الأقدام في ذاك الجهاد أثقل وأحدّ، وأشدّ وطأة من سنابك الجياد، فماذا كان ذاك الجهاد يا ترى؟

إنه جهاد الدعوة والإصلاح، ومجاهدة النفس، والحرب على الشرك والبدع، ومجابهة الجاهلية، وانتشال المسلمين من خرافات أهل الضلال، وشطحات أهل الباطل، الذين يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق، ويأكلون أموال الناس ويصدون عن سبيل الله، ويدعون الناس إلى النار، في بقعتين كبيرتين من بقاع شبه القارة الهندية، آسام والبنغال بشرقها وغربها، وقد كان هذا الاختيار موفقا، كأنه كان من إشارة السماء، وإلهام الله في روع السيد الإمام، وشهادة صدق على فراسته الإيمانية، وبعد نظره، وطول تجاربه في عمل الدعوة والإصلاح والجهاد، حتى اختار هذا الشبل الناهض لهاتين البقعتين الكبيرتين، اللتين كانتا من أحطّ بقاع الهند ديانة وأخلاقا، وأشدها إفلاسا في الثقافة والمدنية، وأكثرها غرقا في الظلام والجاهلية، وأحوجها إلى نور العلم واليقين.[1]

لذلك منعه السيد الإمام من الذهاب معه إلى بالاكوت وخوض القتال ضد السيخ، وأمره- مقابل

(١) انظر لتفاصيل حالة البنغال اليئيسة في تلك الفترة التاريخية في كتابه "مكاشفات رحمت" (الأردية).

ذلك- بالسفر إلى آسام ثم البنغال، لتكون تلك الأرض ساحة جهاده، ومجال عمله، ومقرّ حياته في بقية الأيام، وعندما سمع كرامت علي هذا الكلام من الشيخ المرشد، وهو شابّ غيورٌ، ذو قلب نابض، وحيّ دقّاق، حزن لأول وهلة، وانكسر قلبُه، ورأى أنه حرم من نعمة كبرى، كم استعد لها، وكم انتظرها، لكن مكانة الإمام أحمد الريادية والقيادية، ورتبته في عالم الدعوة والجهاد، وتجاربه في الحياة، وعلاقته بالله، وزهده وتقواه، وفراسته الإيمانية، ورفعة شأنه عند قلبه وعند قلوب ملايين المسلمين في الهند، كل ذلك جاءَ بلسما على جرحه الثخين، وبدأ يجفّ ويلتئم، فما كان منه إلا ان انقاد لأمر المرشد، وهبّ يحثّ خطاه إلى شرق الهند.[١]

مأزق زلت فيه الأقدام

هنا فاتَ كثيرا من الكتاب والمؤلّفين، والمؤرخين لحياته، والعلماء المعاصرين لعصره، السبب الحقيقي الذي أبعده عن الخوض في ساحة الوغى بوادي بالاكوت مع أصحابه وأقرانه، ثم صرفَه عن النزول في معمعة الثورة الكبرى، والاكتواء بنارها، وقد شارك فيها كلّ مسلم له قلبٌ ينبض للإسلام ولمستقبل المسلمين، فضلا عن العلماء الربانيين، وعن القادة المصلحين والمجدّدين، لذلك أخطأ هنا كثير من الناس، وظنّوا بهذا المصلح العظيم ظنونا، واتّهمه البعض بالجبانة والنذالة، والخوف من نزول الساحة، وإيثار السرير على الشهادة، والعمالة لصالح الإنجليز، والدفاع عن الاحتلال،[٢] إلا أنه قد تجلى لنا من خلال الدراسة العميقة المطردة لحياة الشيخ الجونبوري وتضحياته وعطائه، واستعداده للقتال، وإعداد نفسه وجسمه، وتدريباته على إدارة الأسلحة وركب الحصان، والرمي والسباحة، وبالاختصار اتصافه بكل صفات يجب على جندي مقاتل أن يتّصف بها، وإظهار رغبة القتال عند شيخه ومرشده الإمام أحمد الشهيد،[٣] وشهادة الأئمة والعلماء على إخلاصه للدين، وحنينه الغامر للجهاد والميدان،[٤] أنه

(١) أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية ببنغلاديش ص٢٨٥

(٢) انظر على سبيل المثال هجوم الشيخ مصلح الدين السلفي على الشيخ الجونبوري في رسالته الحركة السلفية في البنغال، حيث كتب: "وكان الشيخ كرامت علي أصبح مداهنا للإنجليز وشبه الجاسوس لهم، وقد أضرّ بالحركة الجهادية والسلفية بكشف أسرارها لدى الإنجليز، والطعن في السلفيين، وإصدار الفتاوى ضد الجهاد، ونشر العداء، وإثارة الحقد بين الناس خلاف الحركة بمؤلفاته وخطبه، وقد ظهرت فيه شدة التعصّب للمذهب الحنفي والبغض على أهل الحديث" (ص١٠٩)، ولينتبه القارئ على حماس المؤلف لمنهجه، وكيف أن الانقضاض على الشيخ الجونبوري جاءَ لموقفه من السلفية أكثر من الاحتلال.

(٣) انظر سيرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تاليف مولانا عبد الباطن الجونبوري، ص٣٧

(٤) فقد ذكر مولانا أبو الحسن الندوي بأن الشيخ كرامت علي كان يحمل في قلبه رغبة عامرة متدفقة للجهاد بالسيف، وأبدى رغبته لمرشده الإمام المجاهد السيد أحمد البريلوي، لكن الإمام اختار له القلم على السيف، واللسان على السنان، فلم يكن منه إلا أن سمع لمرشده وخاضَ في الدعوة والإصلاح بقلبه

فريةٌ وبهتان، أو ظنون باطلة ما أنزل الله بها من سلطان،[١] لا يصلح لمكانة هذا المجاهد العظيم، والمصلح الجليل، ومن أبرز خلفاء أمير المجاهدين الإمام أحمد الشهيد، نعم إنه لم يُشارك في الثورة الكبرى ولا في حركات النهضة، ولم يسجل نفسه في قادة المجاهدين ضد الإنجليز أمثال تيتومير والحاج شريعت الله وابنه دودو ميان وغيرهم، وهذا أمر محسوم في التاريخ، وقد تكون له أعذار في ذلك ومبررات، أو تقصير من جانبه وعدم فقه الواقع والعمل به، لكنها لا تجعل منه قائد علماء السلاطين، وعملاء الاحتلال.

من أجل ذلك، كانت حياته وحركاته، وجهوده وجهاده، موجّهة كل التوجه إلى الدعوة، وإصلاح بواطن الأمة، وإزالة الشوائب التي علقت بإيمانها، وعقيدتها، ودينها، وإسلامها، ومنهاج حياتها، وتنقيتها عن أغلاط وأوهام يتابع فيها اللاحق السابق، باللسان وبالقلم، فلم يدخل في غمار السياسة، والحركات المسلّحة، التي كانت قائمة على قدم وساق آنذاك، مثل الحركة الفرائضية في البنغال الشرقية، وحركة تيتومير الجهادية في البنغال الغربية، ولم ينزل في ساحة القتال والثورات الاستقلالية لتحرير الهند من رجس الكفار والاستعمار، وإنما ظلّ داعية رحّالة، دائم الترحال، يجوب أقطار آسام والبنغال، يدعو

وقالبه، وكان ذلك الاختيار- كما قال مولانا الندوي- "اختيارا موفقا، وكرامة من كرامات الإمام البريلوي"، انظر كاروان إيمان وعزيمت (الأردية) لمولانا أبي الحسن الندوي ص ١١٤ و١١٧، وانظر كذلك شهاد الشيخ رابع الحسني الندوي في تقديمه لكتاب تذكره حضرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا مجيب الله الندوي ص٨، وقد ذكر مؤلفه نقلا من كتاب سوانح حيات أحمدي للشيخ جعفر القاسمي:" أن الشيخ الجونبوري شاركَ مع شيخه في جهاد بالاكوت، لكن قبل المعركة بقليل، أرسله شيخه إلى جهة الشرق، ليقوم بالدعوة في آسام والبنغال" ص٢٧.

(١) ذكر الدكتور صادق حسين اللاهوري في كتابه مسلمنا الهندي: "إن منطقة ((جونبور)) التي أنجبتْ العلماء المجاهدين الذين أدّوا دورا بليغا في الجهاد ضدّ السلطان جلال الدين أكبر، عندما أعلن حربه على الإسلام، خرج منها في الآونة الأخيرة رجلٌ انضوى تحت لواء الإنجليز، ونذرَ حياتَه للدفاع عن الاحتلال، ورغّب المسلمين عن الجهاد، وحثّهم على عدم مخالفة الإنجليز!" نقلنا هذه السطور من كتاب حياة مولانا الحاج شريعت الله، تأليف عبد اللطيف البريسالي ص٧٨، إلا أن الدكتور محمد عبد الله ذكر في كتابه دور علماء البنغال في السياسة: "في البداية كان الشيخ كرامت علي الجونبوري شديدا على الإنجليز وفي طليعة المجاهدين ضدّهم، إلا أنه مع الأيام تغيّر موقفه من الإنجليز، وأصبح يرى مخالفتهم تعود على للمسلمين بالأضرار والخسائر، ولم يكن الشيخ وحيدا في هذا الموقف، فقد كان كلٌ من النواب عبد اللطيف، والسير السيد أحمد خان، والسيد أمير علي يرى عدم مخالفة الإنجليز، ويمشي على درب المصالحة والمسالمة"، انظر: دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٥-١٦، وقد ذكر الأستاذ أنيس الزمان في كتابه العقلية المسلمة والآداب البنغالية: "كان الشيخ كرامت علي لا يرى الحرب ضد الإنجليز صحيحة في ميزان الإسلام!" ص٢٨، وانظر كذلك Islamic Revival in British India, Metcalf D. Barbara, p. ٧٠ كما ذُكر عن الشيخ المنشئ مهر الله بأن كان الشعب المسلم آنذاك أضعف من أن يواجه الاحتلال! انظر العقلية المسلمة والآداب البنغالية، لأنيس الزمان ص٢٧٥، وانظر كذلك كلام الشيخ كرامت بأن الجهاد في الهند- دار الإسلام في رأيه- لا يصح، بل يعدّ خروجا على الحاكم! The Indian Musalmans, W.W. Hunter, (London ١٨٧٦), p. ٢١٩ (Appendix III)

الناس إلى الله، ويُصلحهم في إيمانهم وعقيدتهم، ويقوّي صلتهم بالله، ويزهّدهم في الدنيا وفيما عند الناس، ويرغّبهم في الآخرة وفيما عند الله، ويدعو غير المسلمين إلى الإسلام، حتى أسلم على يديه عشرات الملايين منهم، وكان تلميذه الجليل سرفراز خان يحذّر الناس من التنصير والمنصرين![1]

سفينة نوح تمخر عباب الهند الشرقية

خرجَ الشيخ كرامت علي من مسقط رأسه «جونبور» متجها إلى بقاع الهند الشرقية، آسام والبنغال بشقيها، وهذه البقاع كانت قد تقوّضت فيها دعائم الدين تقوضا تاما، وانطمست معالم التوحيد، وانغمس ملوكها وأمراؤها في الملذات والشهوات، وانتشرت بين عامتها وخاصتها الرذائل والمنكرات، ففسدت الأخلاق، وفترت الهمم، وقل العلم، وذهب العلماء، أقفرت مساجدها، وعمرت أسواقها، وفشت ظلمات الجاهلية والأمية في كل شبر من أشبار المجتمع، هنا جاءَ الشيخ الجونبوري، يحمل في يده راية فجر جديد، راية التوحيد والسنة، والعقيدة النقية البيضاء، فاستيقظ الناس، وهرعوا إليه ملبين، وانضووا تحت رايته، صادقين مقبلين، غير مدبرين، حتى حصلت معجزة، وجاءت ثورة إيمانية، ونشأت حركة دينية وعقدية، كان لها أبرز الأثر في مجرى الحياة وأحداث البلاد، ولا تزال آثارها باقية بكل قوتها ولمعانها في هذه المناطق، ولولا جهاده الدائم القائم، وجهوده المضنية المستمرة، بل لولا دفع حياته ثمنا لصالح هذه الأمة، وللدفاع عن إيمانها وعقيدتها وكيانها، لكان تاريخها غير تاريخها اليوم! ومن ثم فستظل الأمة البنغالية مدينة لهذا المصلح الهندي العظيم، ما دامت الشمس تُشرق، ومادامت الأرض تدور.

لقد جاب الشيخ الجونبوري معظم بقاع آسام، جبالها وكهوفها، ووصلَ إلى أركان البنغال الأربعة، وزارَ جل مناطقها، قراها ومدنها، وأريافها وعواصمها، وأنهارها وأدغالها، حتى لم تكد تبق من البنغال قرية إلا وصلَت إليها دعوته، وقام فيها من يحبه ويقلده![2] وقد يحتار القارئ في هذه النقطة، عندما يخبره التاريخ بأن هذه الأسفار المستمرّة، والرحلات الدؤوبة في البنغال الشرقية، معظمها تمّت على متن أسطول من زوارق خشبية، خصّصه الشيخ لأجل هذه المهمّة الشاقّة العويصة الطويلة! أسطول تكوّن من عدّة زوارق، كان عالمه كلّه فيها، زورقٌ فيه أسرته، وزورقٌ ثان فيه خلفاؤه، وثالثٌ فيه مدرسةٌ ومكتبة، ورابعٌ فيه الشيخ نفسه وأصدقاؤه المقرّبون ومجالسه العلمية.

هكذا عاشَ الشيخ معظم حياته في الزوارق، وفوق الماء، وفي القنوات والأنهار، أكل فيها ونام،

---

(١) تذكره حضرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا مجيب الله الندوي ص٦٨

(٢) Islam in Bangladesh, Razia Akter Banu, (١٩٩٢, reprinted ٢٠١٢) p. ٦٦

وقرأ وكتب، ودعا وصلى، وأنجب الأولاد،[1] وذلك لندرة وسائل النقل آنذاك، وسهولة وصول هذا الأسطول إلى أرجاء آسام، وأدغال البنغال ومجاهلها! ثم إن سُحب الجهل المتراكمة وأغشية الظلام المتلبدة على هذه البقاع منذ قرون، لم تكن لتنقشع في يوم أو يومين، وفي عدة أشهر أو بضع سنين، فاستمرّ في جهاده الدعوي والإصلاحي طوال أكثر من خمسين عاما، وبذلك لقّبه بعض المؤرخين حقا بـ«نوح الثاني» و«داعية السفينة»، وقد حازَ وحده من الفتح المبين والنجاح المحير، وأنجز بنفسه، ما لا تنجزه جماعة كبيرة، وحكومة قوية! حتى أسلم على يديه أكثر من عشرة ملايين غير المسلمين![2] وهو لا ينطق لغتهم، وهم لا ينطقون لغته![3] هذي هي معجزة الجهاد والجهود، وكرامة السعي وراء الهدف، وثمار إعداد الجيش وبناء الجيل، إذا صاحبها الإخلاص، وساعدتها الحكمة، وحالفها التوفيق.[4]

داعية رحالة ومكتبة متنقلة

إلى جانب هذه الرحلات الدعوية الدائمة، والجولات المستمرّة، وتعليم الناس، وبناء المساجد والمدارس، كانت هناك جبهةٌ أخرى لحركته ودعوته، وهي الجهاد بالقلم، والكتابة والتأليف، فقد أدرك أن هذه الدعوات والمواعظ والنصائح ستذهب بعد وفاته، أما الكتب والمؤلفات فستبقى آلاف السنين، وإلى أجل غير مسمّى، في المكتبات الإسلامية، تُفيد القلوب، وتُنير العقول، وتجلب الدعوات لصاحبها، فلذلك كتَبَ كثيرا، وألّف ألوف الصفحات، في نشر السنة، والعقيدة الصحيحة، وتوضيح معنى الألوهية، ومحو البدع، وعبادة العباد، والتقاليد الجاهلية، والعادات الوثنية، وكان حنفي المذهب،

---

(١) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق، ص٣٥

(٢) Biographical Encyclopedia of Sufis: South Asia N. Hanif (٢٠٠٠), p. ١٨٩ وانظر كذلك تذكره حضرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا مجيب الله الندوي، هامش ص ٣٧، وقد ذكر مولانا أبو الحسن الندوي أنه سمعَ النواب بهادريار جنك يقول: "بأن عدد المهتدين على يد الشيخ كرامت علي الجونبوري من المسلمين وغير المسلمين، في البنغال الشرقية، يزيد على عشرين مليونا"! انظر كاروان زندكي (الأردية) لمولانا أبي الحسن الندوي، (مكتبة إسلام) جلد ٣، ص٥٤

(٣) تذكره حضرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا مجيب الله الندوي ٥٢

(٤) بينما نحن نكتب هذه السطور، فإن قلوبنا تتكسّر وأرواحنا تتفطّر حسرة على ضعفنا وتقصيرنا في جنب الله وفي جنب دين الله، فقد رأينا كيفَ أن عشرة ملايين من غير المسلمين أسلموا على يد داعية واحد، وبفضل حركة إنسان واحد، في عصر قلة العلم وندرة العلماء، بينما الآن مع كثرة العلماء، وتوافر وسائل العلم والمعرفة، نرى عددا هائلا من المسلمين في بنغلاديش يرتدّون عن الإسلام، ويدخلون في حظيرة النصرانية! انظر مقالا بعنوان "الاجتياح التنصيري لبنغلاديش بين عجز الداخل وصمت الخارج" للدكتور شمس الحق صديق، مجلة البيان (٢٠١٢/١١/٢٢م)، وانظر كذلك مقال للمفتي يوسف سلطان بعنوان "حركة التنصير في بنغلاديش وواجب العلماء والمثقفين"، المتوفر في موقع "دار الإسلام".

وصوفي الطريقة، ولم تمنعه حنفيته أن يفتح قلبه للمذاهب الفقهية الثلاثة، ويناقش آراءها، ثم يأخذ أصحها! لكنه كان شديدا على «اللامذهبية»،(١) كما لم تضرّه صوفيته أن يجاهد للسنة ويحارب البدعة!(٢) حتى أصبحت مؤلفاته تُناهز خمسين كتابا، تشهد على عبقريته، وقدرته على الخلق والإنشاء، وقوّة قلمه، وحكمته في الدعوة، وتسجّل أسماءه في الخالدين، النابغين النابهين، ومن أبرز ما كتبه بالأردية والعربية والفارسية ◊ مفتاح الجنّة (هو أشهر كتبه، نال قبولا وإقبالا نادرا) ◊ ترجمة شمائل الترمذي إلى الأردية ◊ ترجمة مشكاة المصابيح ◊ القول الثابت (في رد الشرك والبدعة) ◊ مقامع المبتدعين ◊ البيعة والتوبة (في ضرورة البيعة والطريقة) ◊ مراد المريدين (في تأييد الاحتفال بالمولد والمناسبات) ◊ البراهين القطعية في مولد خير البرية ◊ زاد التقوى (في التصوف) ◊ قوّة الإيمان ◊ رفيق السالكين ◊ تنوير القلوب ◊ الحجّة القاطعة (في الردّ على الفرائضية) وغيرها كثير،(٣) وقد جرت محاولة جمع أعماله الكاملة في مكان واحد، وتحت عنوان "ذخيرة كرامت"، ونشرت في عدة مجلدات.

عواصف وعراقيل في طريق الدعوة

لم تكن طريق الدعوة معبّدة ممهدة، مفروشة الورود، بل كانت فيها عثرات وعقبات، وواجهت الشيخ الجونبوري مشاكل ومحن لا تعدّ ولا تحصى،(٤) من تقلب الجو، صيفه وشتائه، حرّه وقره، وتغير الفضاء، وتجذر الفتن في الأعماق، وسورة البدع وانتشارها، ونفاق سوقها، ورواج بضاعتها، وكثرة أعوانها وأنصارها، وكان من أعوص قضايا ذلك العصر مواجهة دعوة الشيخ الجونبوري بدعوة الشيخ الحاج شريعت الله رَحِمَهُ اللهُ من جانب، وبالدعوة السلفية بقيادة الشيخ عنايت علي والشيخ ولايت علي رَحِمَهُ اللهُ من جانب آخر، وجها لوجه، وكان سبب ذلك هو الخلاف في الآراء والأفكار، والنظريات التي رآها كلّ منهم، والمسألة التي كانت مدار الخلاف هي أن الحاج شريعت الله يعدّ الهند كلّها بما فيها البنغال دار الحرب، فلا يرى فيها الجمع والأعياد، أما شيخنا كرامت علي الجونبوري فقد كان شديدا على هذا الرأي، ويرى فيه منكرا عظيما، وفي أهله الزيغ والانحراف، وقلّة الفقه، وضحالة النظر في

(١) History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤) p. ٨٦

(٢) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. ٩٨

(٣) أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، وانظر تفاصيل كتبه في سيرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا عبد الباطن الجونبوري، ص١٤٥ وما بعدها

(٤) انظر نبذة من تلك المحن في رسالته "اطمينان القلوب" (الأردية).

الظروف والشريعة، كما كان بدوره يكره الحركة الفرائضية لعدة خلل اكتشفه في هذه الحركة وأصحابها،(١) فينتقدها نقدا جريئا جهيرا، ويلقي فيها المحاضرات، ويخوض المناظرات، ويؤلف المؤلفات،(٢) وكان يرى أن الهند ليست دار الحرب، كما هي ليست دار الإسلام، وإنما هي في منزلة بين المنزلتين، قد تسمّى دار الأمان، ما دام المسلمون لا يواجهون العقبات في طريقهم إلى العبادة وإقامة الشعائر الدينية، وكانت المدرسة السلفية بجانب الشيخ كرامت علي الجونبوري في هذه المسألة، لكن في مسألة التقليد نرى أن الميزان يتقلب رأسا على عقب، فهنا تقف الحركة الفرائضية مع الشيخ كرامت علي، على منصة المذهب الحنفي، بينما تقف المدرسة السلفية في جانب آخر!

ولا يسعنا في هذا المكان الضيق أن نحلل آراء هذه المدارس كلها، ونحكم على إحداها بالصواب أو بالخطأ، التي نفع الله بها الإسلام والمسلمين كثيرا في هذه البقاع المترامية الفسيحة، في أحلك أدوار التاريخ، وأشدها ظلاما واكفهرارا، حتى لولاهم لكان هذا الشعب في ديار البنغال غير شعب اليوم! وما لنا بها حاجة أصلا، فقد غيض الماء، وقضي الامر، واستوت الفلك على الجودي، وأفضى هؤلاء إلى ما قدّموا.

لكننا نكتفي بأن لكل واحد من الطرائق الثلاث نصيبا في الحق والباطل، بينما كان كل فريق منهم واثقا بأن الحق بجانبه وحده، وأن الباطل كله من نصيب غيره! وهنا كانت المشكلة الكبرى، والخطب الجسيم، ومن أجله توسّع الخلاف على مرّ الأيام، وزاد الشرخ، وظهر جدل ومشاحة بين هذه التيارات الثلاثة، وبلغ بها الحال حتى بدأ الشيخ الجونبوري يتّهم الفرائضيين بالخوارج، ويسمي الحاج شريعت الله إمام الخوارج في عصره، ويهجم على السلفيين هجوما ضاريا، ويطلق عليهم «اللامذهبية»،(٣) ويخرجهم جميعا من دائرة أهل السنة والجماعة،(٤) ويفعل ذلك كل حزب مع خصمه، هكذا نشأتْ مرحلة مؤسفة لتاريخ الإسلام في منطقة البنغال، وضاعتْ جهودٌ جبابرة من هذه المعسكرات في المماحكات والمناظرات العقيمة،(٥) ولم تقف يوما من الأيام معا على منصة الوحدة، ولو

(١) انظر سيرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا عبد الباطن الجونبوري، ص٧٠

(٢) المثال على ذلك كتابه الحجة القاطعة، وتزكية العقائد، والعقائد الحقة وغيرها

(٣) History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤) p. ٨٥

(٤) سيرت مولانا كرامت علي ص٨٤

(٥) ينظر للتفصيل أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع للمؤسسة الإسلامية بنغلاديش ص٢٨٨-٢٩٠، وانظر لتفاصيل المناظرات سيرت مولانا كرامت علي جونبوري (الأردية)، تأليف مولانا عبد الباطن الجونبوري ص٧٢ وما بعدها

وقفت لكان تاريخ هذه الدولة غير تاريخها اليوم.

توقف قلبه ولم يتوقف عمله

بعد حياةٍ حافلة، تمتدّ على أكثر من خمس وسبعين سنة، دفع منها زهاء نصف قرن في غير وطنه، وعلى متن الماء، داعيا ومصلحا، ومرشدا ومربيا، وكاتبا حكيما قديرا، انتقل إلى رفيقه الأعلى، راضيا ومنيبا، وكان ذلك عام ١٨٧٣ للميلاد، في محافظة «رانغبور» التي استقر بها مقامه في الأيام الأخيرة، فدفنَ فيها، ليكون ذلك أروع أمثلة البطولة، والسمو الإنساني، والتضحية والإيثار، والزهد والعطاء، والهجرة والجهاد، في سبيل الله تعالى ونشر دينه، وقد ولي بعده أستاذية مدرسته، وقيادة سفينته أنجاله البررة، يأتي في طليعتهم الشيخ مولانا عبد الأول الجونبوري، فكان خير خلف لخير سلفٍ،[1] وبعده أصابَ هذه الطريقة وهن وانحطاط، وتسرّبت فيها انحرافات، وتولى قيادتها أناس لا يعرفون الحق، ولا يهدون السبيل.

(١) ولد عبد الأول الجونبوري عام ١٨٦٦م في منطقة «سنديب»، وحفظ القرآن الكريم صغيرا، ثم سافرَ إلى مكة، ودخلَ في المدرسة الصولتية، ودرسَ عند العلامة، المجاهد الباسل، الشيخ رحمت الله الهندي، صاحب «إظهار الحق»، وأخذ منه الفقه والحديث، واللغة والأدب، كما أخذ من المحدث الكبير العلامة عبد الحق الإله آبادي المكي التفسير والإجازة في الحديث، ثم رجع إلى وطنه، وعكفَ على الدعوة والإصلاح في أركان البنغال وآسام، وكان كاتبا قويا، أديبا أريبا، متقنا لعدة لغات، على رأسها العربية، ومالكا لناصيتها، وكان مؤلفا مكثرا، يزيد عدد ما كتبه على ١٢١ كتابا ورسالة، معظمها في الفقه والأحكام الشرعية، وقد توفي هذا الإنسان العظيم عام ١٩٢١م في كلكتا بالهند، لم يسبق مثله في اللغة العربية في تاريخ هذه الدولة. (انظر مجلة الجمعية الآسيوية ببنغلاديش، الجزء الرابع، ديسمبر ١٩٨٦، ص١٢٦)

المُنشيُ محمد مِهر الله

(١٨٦١- ١٩٠٧)

داعية الإسلام، المناظر الجليل، محارب التنصير في البنغال

جاء من أقصى المدينة رجل يسعى

لو قُدّر لهذا الإنسان أن يولد في أسرة غنية، معروفة بالعلم والطبّ، والثروة الطائلة، والمناصب العليا، وأن يفتح عينيه في حسب كريم، ونسب رفيع، وفي بيت مصمد نبيل، وأن ينشأ في عاصمة من العواصم العلمية الكبرى، أو في مدينة تجارية متقدّمة من مدن شبه القارة الهندية، ولو أتيح له أن يدرس في مركز من المراكز الدينية الشهيرة في الهند آنذاك، ويأخذ العلوم الدينية على أعلامها وفطاحلها، ولو قُيّضت له مكتبةٌ يستفيد منها، ودارٌ من دور النشر تطبع رسائله، وتنشر كتبَه بين الناس في إطار موسع، ولو قدره شعبه حق قدره، وعرفوه حق المعرفة، وأوفوه جزءا بسيطا من حقّه، لكان لهذا الرجل شأنٌ جليل غير شأنه اليوم، ولكان عظيما من العظماء، وجبلا من الجبال، ولكان العالم يعرفه ويقدّر جهاده، كما عرفَ كثيرا من زملائه ومعاصريه، وقدّروا جهودهم تقديرا كبيرا، ولولاه لربّما كان تاريخ الإسلام في هذه الدولة غير تاريخه اليوم، ولربما كانتْ هذه الدولة أسبانيا الثانية، أو تيمور الشرقية الأخرى!

في الوقت الذي كانت حركة التنصير الهندي في غلوائها وغليانها، تحت رعاية الاستعمار وفي ظل الحكم البريطاني المباشر، وانتشر المنصرون من أقصى الهند إلى أقصاها، وتحمّسوا في الدعوة إلى دينهم بعزّ وإباء، ودعوا الناس إلى النصرانية بكل حيل مستندين إلى الحكومة، وكان الإنجيل يُفسّر على الملأ وفي نور النهار، فاحتار العلماء، وأصيب جمهرة الأمة بدهشة، وفي الوقت الذي توقّفت فيه الحركات

الإصلاحية والتجديدية التي حمل لواءَها في فترة من التاريخ أمثال الشيخ الحاج محمد شريعت الله، والشيخ السيد نثار علي تيتومير، والشيخ كرامت علي الجونبوري من جانب، والنواب عبد اللطيف، والسيد أمير علي من جانب آخر، وفترتْ الحركات الدينية، وضعف الإيمان في القلوب، وأخذت الشكوك والشبهات والأغلاط والأوهام مكانتها في النفوس، وتابعَ فيها كل لاحق سابقَه، وتقاعس العلماء عن أداء مهمتهم، وتباطؤوا عن حمل راية حضارتهم بعد أن سقطت على الأرض، برزَ إنسانٌ في شرق البنغال، وجاءَ مؤمن مخلص، فجاء معه اليقين، وجاءت السكينة.

وفي الوقت الذي كانت رحى المعركة الحاسمة تدور بين المجاهد العظيم، والمناظر البطل، الشيخ رحمت الله الكيرانوي وبين القساوسة وقادة المنصرين في الهند، كانت في البنغال الشرقية معركةٌ ثانية تدور بذلك الحماس وبتلك الصرامة، بين بطل مسلم وقسيس مرتد ومتنصّر، وقد كان بطل هذه المعركة أكبر حظًا وأوفر نصيبا؛ فانتصر الإسلام على النصرانية، واهتدى القسيس، ودخلَ في حظيرة الإسلام من جديد، ودخل معه كثير من المنصّرين، ويمكن أن يدرك القارئ أهمية هذا الإنسان ومكانته في الدعوة والإصلاح بأن المنصّرين في البنغال يعتبرونه "لوثر المجتمع البنغالي المسلم"، وكان الهندوس يرونه "شنكراجاريا الشعب المسلم"،[١] إنه بطلنا الجليل، والمجاهد العظيم، وداعية الإسلام، ومحارب التنصير، العلامة المنشئ محمد مِهر الله الجسري رَحِمَهُ اللهُ.

متى وُلد هذا الإنسان العظيم وكيف نشأ؟

وُلد المنشئ مهر الله في قرية «غوش» بمحافظة «جسر» عام ١٨٦١ للميلاد، وذلك كان بعد أربعة أعوام من حركة التحرير والثورة الكبرى، التي انفجرتْ من أقصى الهند إلى أقصاها عام ١٨٥٧م، وكادت تطيح بالسلطة المحتلة، إلا أنها عادت في النهاية بالفشل، فما إن تربع الإنجليز على الكرسي مرة أخرى وبقوةٌ مزيدة، حتى امتدّت أياديهم الآثمة إلى المواطنين، وخاصة إلى المسلمين، وساموهم سوء العذاب، واضطهدوهم شر اضطهاد، وتفننوا في تضييق الحياة عليهم، فكانت تلك المرحلة من أحرج مراحل التاريخ وأدقّها للشعب المسلم في شبه القارة الهندية، وفي مثل هذه الفترة الحرجة، وُلد المنشئ مهر الله في أسرة مسلمة متديّنة، متضعضعة، رقيقة الحال، وُلد ليفقد والده المنشئ محمد وارث الدين في العام الخامس، فازدادت حالة الأسرة سوءا، وازدادت النار حطبا، وأصبحت الحياة كلها ظلاما وحلكة حوله وحول أسرته.[٢]

(١) المنشئ مهر الله: حياته وأعماله، تحرير الأستاذ ناصر هلال، ص٤٧

(٢) المنشئ مهر الله: عصره ومصره ومجتمعه، تأليف محمد أبي طالب، ص١٩

مع ذلك كله كانت أمه متفائلة إلى درجة عالية،[١] وترى دائما النصف الملآن من الكأس، وكان أملها في الله كبيرا، فآنست منه رشدا، وأدخلته في كتّاب قريته، تحقيقا للأحلام التي كانت ترقبها فيه، ولما شب الفتى عن الطوق، وقوي ظهره، واشتدّ عوده، سافرَ إلى بعض القرى والأرياف المتجاورة، في طلب المزيد من العلم والحكمة، وهنالك قرأ القرآن الكريم وجوّده تلاوة وترتيلا، ثم درسَ علوم القرآن والحديث، وتعلّم عدّة لغاتٍ، فأتقن العربية، والأردية، والفارسية، وحتى الإنجليزية،[٢] وحفظ الدواوين، فكانت الأبيات الفارسية لكبار شعرائها مثل الشيخ السعدي وفريد الدين العطار، تجري على لسانه بسلاسة مدهشة.

لم يدخل في جامعة فأصبح أستاذ أساتذة الجامعات!

هكذا انتهتْ حياة دراسته وأيامُ تحصيله، انتهت الدراسة قبل أن يدخل في كلية، وأن يضع قدمه في ساحة جامعة، أو ينخرط في سلك تلامذة عالم مشهور، لكن هذه الحقائق المريرة لا تضع علامات التعجب في حياة إنسان وُلد في أسرة رقيقة الحال، وذاقَ مرارة اليتم في الصغر، وليست في الأسرة سوى أختين وأم، لا يجدون من يعولهم، ولا يجدون ما يسدّ رمقهم، ويقيم أودَهم، وإنما يثير التعجب ما حدثَ في حياة هذا الإنسان في أيامه الآتية، كيف أصبحَ يتيم الأب هذا يتيم دهره؟ وكيفَ أصبح هذا الشابّ الذي لم يدخل في كلية أو جامعة، ولم يتتلمذ على مرشد أو مربّ كبير، ثم أصبح مؤسس مدارس وكليات، ومنشئ دور النشر ومكتبات، وأصبح محطّ أنظار الناس، وملتقى الدعاة، وقائد المناظرين، وكابوسا حيّا للمنصّرين؟ هذا كله تاريخ مجيدٌ، وتاريخ لتوطيد القدم، ومواجهة المشاكل، والتغلّب على الصعاب والمتاعب، وقصص رائعة لبناء النفس، وتكوين الشخصية، والطموحات اللامتناهية، والعزيمة الباسلة التي لا تتزحزح، والبحث المطّرد عن الضالّة، والسعي الحثيث الدؤوب إلى الغاية المنشودة، ينبغي للعالم أن يكون على علْم به، ويستفيد منه ويفيد الآخرين.

مراقبة حركة التنصير ورسم خريطة العمل

بعد هذا التحصيل العلمي، وهذا الرصيد المنخفض من المعارف، بدأ حياته العملية، ليكون عونا على أمه وأختيه في الحياة، وعائلا وحيدا لأسرته، فتعلم الخياطة، وفتحَ محلا في «جسر»، وفي فترة قريبة

(١) Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press), p. ١٠٣

(٢) International Journal of Advanced research in Management and social Science, Vol II, Feb ٢٠١٤, p. ١٧٧

ظهر كخياط مبرّز مشهور في عالم الخياطة وصناعة الملابس، وأقبل على محلّه ناسٌ من جميع الطبقات، لكن هذا الشاب الطموح والغيور، الدافق حياة وجهادا، لم يكن يرضى أن تنحصر حياته في دائرة الخياطة الضيّقة، وفي هذه المهنة المادية، التي تُدافع عن أجساد المسلمين وتجمّل ظواهر الأمة، وتترك بواطنها وسرائرها، وإيمانها وعقائدها، وثقافتها ومعنوياتها مفتوحة الأبواب، معرّضة للمخاطر والمهالك، وفي أثناء هذا العمل، وفي هذا المحلّ، شاهدَ المنشئ حركة التنصير تصل إلى كل محلّ، وتقوم في كل سوق، وتدقّ على كل باب، كما شاهد ردّة هائلة جاست بيوت المسلمين، وكاد هو بنفسه أن يركن إلى النصرانية شيئا كبيرا! وظهرت جميع الإرهاصات، وانتهتْ المقدمات، ولم تبق إلا مرحلة التعميد![1]

لكن الإنسان الذي بعث الله لإنقاذ الأمة المسلمة من النصرانية، يستحيل أن يقع بنفسه في شراكها، هنا وقعَ في يده كتاب «أباطيل النصرانية» للشيخ الحافظ نعمت الله، و«محمد في الأناجيل» للداعية المهتدي المولوي إحسان الله،[2] حتى أدرك الشيخ أن النصرانية ليستْ إلا شبحا من أشباح شريعة قديمة، فقدتْ صلاحيتها، وضاعتْ عصرَها ومكانتَها، ولم يبق منها إلا لباسٌ فضفاضٌ يسدى على الإنسان بلا شعور منه عن الحقيقة، كما أدرك أن هذه الأمواج الطاغية العاتية من التنصير والتضليل، لو لم يتم سدّ طريقها الآن، وإغلاق بابها، والردّ عليها ردًا حاسما قويا، لجرفت أمة الإسلام من هذه البقعة، ولطمست هويتها ومعالمها وآثارها، ولتحولت مساجدها إلى كنائس، ومناراتُها إلى الصلبان، ولقامت مكان هذه الدولة المسلمة دولةٌ صليبيةٌ، ولو لم يتم دحر النصرانية ومحوها من هذه البقعة التي تعتزّ بكثرة المساجد والمدارس، والعلماء والدعاة، لكان وجودهم بلا جدوى، بل ولكان بطن الأرض خيرا لهم من ظهرها! فكر المنشئ في هذا كله، وتساءل نفسه ماذا فعلَ من أجل دينه، والدفاع عن شعبه؟ فهبّ، وقامَ وحدَه على المسرح.[3]

في هذه المرحلة الدقيقة من حياته، ومرحلة الانقلاب والاضطراب في عقله وذهنه، سافرَ المنشئ إلى مقاطعة «دارجيلينغ» بالبنغال الغربية لحاجة، وهي إذ ذاك مدينة زاهرة، ملتقى الحضارات والمدنيات، ومحطّة العلماء ورجال الأديان، فكانت مشيئة الله أن يبقى فيها المنشئ فترةً، ليستفيد من علومها ورجالها، وليأخذ خطى مهمّة في طريق الدعوة.

---

(١) Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press), p. ١٠٤

(٢) المنشئ مهر الله: عصره ومصره ومجتمعه، تأليف محمد أبي طالب، ص٢٦

(٣) تاريخ الأدب البنغالي (العصر المعاصر)، تأليف محمد عبد الحي، والسيد علي أحسن ص٩٩

يبني بيته على أساس صلب متين

بقي الشاب مهر الله بـ«دارجيلينغ» لفترة، غارقا في عالم الكتب والمؤلفات، وموغلا في البحث والمطالعة، ودراسة الكتب المقدّسة في الأديان الثلاثة: النصرانية والهندوسية والبوذية، وقراءة عشرات الكتب التي لا يصل إليها إلا من له بصرٌ في التاريخ، وصبرٌ على البحث، وباعٌ في اللغة والأدب، فقرأ الإنجيل و«الفيدا» و«تريبيتاكا» بحروفها وفقراتها، كما قرأ مؤلفات العلماء المهتدين، الذين سجّلوا في كتبهم تجارب حياتهم، والمقارنة بين دينهم القديم ودينهم الجديد، وبينوا فضل الإسلام على سائر الأديان، وحددوا الأسباب التي أخرجتهم من حظيرة تلك الديانات إلى رحاب الإسلام، وكان من أبرز هذه المؤلفات القيمة التي كان لها دورٌ كبير في حياة هذا المجاهد كتابان لسليمان الوارثي: «لماذا أسلمتُ؟» و«البحث عن الحقّ»، وكتاب آخر باللغة الأردية «تحفة المقتدي» لمؤلف لم يعرف اسمه، وقد كانتْ رحلته مع هذه الكتب رحلة روحية ممتعةً لا يشعر بها إلا من جربها، فقد استفاد منها ما لم يستفد من غيرها، وظل طوال حياته مدينا لها.

موقف علماء البنغال من المنصرين

رجع المنشئ مهر الله إلى وطنه «جسر» ليس خيّاطا، وإنما رجع عالما متمكّنا من الشريعة الإسلامية الغراء، ومتضلعا من الدراسات المقارنة للديانات، وخبيرا بالكتب المقدسة، وعارفا بنقائصها ونقائضها، والمضامين المخالفة للذوق الإنساني، والطبيعة البشرية والقانونية الموجودة فيها، رجع وشاهدَ المجتمع البنغالي المسلم متخلّفا، ورأى المسلمين متوزّعين على معسكرات صغيرة متنافرة متناحرة، لكل معسكر رايته وقائده، ونظرياته وفلسفاته، وكل جار يعتدي على جيرانه، ورأى خلافا بين أصحاب «الحركة الفرائضية» و«الحركة الجونبورية»، وانعزال العلماء عن ميدان الحياة، مشتغلين بالنزاعات الفرعية الفقهية، ليست ذات خطر كبير وأهمية بالغة، ورأى اضطرابا وتوترًا بين الحنفية والسلفية، والمقلدين وغير المقلدين، حتى أصبحت هذه "المحنة" هي شغل العلماء والمجتمع المسلم الشاغل، وحديث النوادي والمحافل، وصار أمرهم فوضى، وفي هذا الجوّ المغبر دهمهم فرسان النصارى، ورأى المنصرين يصطادون في الماء العكر، ويعرضون الإسلام ونبيَّه على المسلمين بأسلوب يجافي الواقع والإنصاف، وينصبون شراكا لسواد الأمة، عن طريق الخدع والطمع، وتحريف النصوص، وتشويه معالم الدين، وصورة نبيه، وشريعته، حتى ارتدّ عدد كبير من المسلمين عن الإسلام وتنصروا، كما قام الدعاة الهندوس ينتقدون الإسلام نقدا لاذعا،

ويعملون على إثارة الشكوك في قلوب المسلمين، وزحزحة ثقتهم بدينهم، وأسسوا جمعيات، وطرحوا حركات لمنع انتشار الإسلام بين الهندوس،[1] ولوضع عراقيل في طريق الدعوة الإسلامية، في غفلة رهيبة من العلماء والدعاة الذين كانوا يجاهدون، ويبذلون أنفسهم وأموالهم، ويستنفدون مواهبَهم ونبوغَهم، دفاعا عن مذاهبهم ومواقفهم، وتغليب آرائهم على آراء الآخرين، وتحريض العامة على خصومهم ومخالفيهم في الفقه والرأي! هنا قام المنشئ، وانتقد العلماءَ نقدا علميا رصينا، فيه عتاب عليهم، ونصيحة لهم، وقد كتبَ رسالةً في هذه الفترة وذكرَ فيها: "هل عجزت الأوساط العلمية من المسلمين عن إقامة حوار ضد التنصير؟ الشخص الذي يشهد بأنه مسلم، ثم يصبر على إهانة نبي الإسلام، لا يستحق أن يُسمى مسلما!"[2]

من روائع جهاده ضد التنصير

شاهد المنشئ مهر الله كلّ ذلك، فرأى أن الإيمان هو الأولّ، وهو الروح للمجتمع المسلم، فإذا كان الإيمان في خطر، وعرضة لهجوم الأعداء، لا يصحّ الخلاف على الفروع والجزئيات، ولذلك لم يشغل باله بالمسائل التي كانت رائجة ونافقة في الأسواق، ولم يقيّد نفسَه في سلك جماعة أو حزب، بل ظلّ حرّا طليقا، كسحاب في السماء، يظل كل مسافر، ويسقي كل مزرع، ويعمل في كل جبهة، ويحضر في كل ناد ومحفل، ويتعاون مع كل أحد، ويعدّ نفوسا لهدفٍ كان يرى أسمى الأهداف في الحياة.

بعد فترةٍ سافرَ إلى كلكتا، عاصمة البنغال الغربية، وجلس مع جماعة من أصدقائه وأحبائه مجالس كثيرة، وفي نهاية المطاف دعي مجلسٌ عامّ في أحد المساجد في كلكتا، فاجتمع فيه حشدٌ كبيرٌ من صفوة المجتمع الإسلامي وأهل الفضل، والعاملين في مجال الدعوة، ورجال التربية، وهنا أحسّ الجميع بحاجة إلى هيئة، تجمعهم في رحابها، تحت سقفٍ واحد، ولغاية مشتركة، وبهذا ستنصبّ الجهود في بوتقة واحدة، وتكون الفائدة أجدى وأنفع وأشمل، فأنشؤوها في ذلك المجلس، وسمّوها «لجنة نشر الإسلام بعموم الهند»، وألقيت مسؤوليتُها في آسام والبنغال على المنشئ مهر الله.[3]

(١) International Journal of Advanced research in Management and social Science, Vol II, Feb ٢٠١٤, p. ١٧٤ وانظر كذلك مقدمة المؤلف في كتاب " أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها" تأليف الشيخ مهر الله، ومطبوع أكاديمية المنشئ محمد مهر الله للبحث، توزيع مكتبة التقوى، داكا

(٢) Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press), p. ٩٧

(٣) المنشئ مهر الله: حياته وأعماله، تحرير الأستاذ ناصر هلال، ص٣٦

هنا برزَت عبقرية المنشئ مهر الله كمجاهد عظيم، وكمصلح جليل في مجال الدعوة، وتعريف غير المسلمين برسالة الإسلام، ودعوتهم إلى اعتناقه، وإصلاح عقائد المسلمين، وإنقاذهم من الفتن والدعوات المنافية لروح الدين، ومحاربة التنصير، ومقاومة الهندوسية، والردّ على أباطيل الدعاة الهندوس والمنصرين في وقت واحد،[1] والخوض معهم في المناظرات والردود، وإلقاء الخطب والمحاضرات، هكذا علا صوتُ هذا الداعية، وارتفعَ اسمُهُ، وانطلقت شهرتُه تمتدّ كخطيب مفوّه، وكمناظر مسلم قدير، وأخذت رايته الغلابة الظافرة تخفق على آفاق مترامية من آسام والبنغال، وهب الناس يُقبلون عليه ويستجيبون لندائه من كل حدب وصوب، لو كان في عصر الإعلام، لكان أشهر من داعية الإسلام الشيخ أحمد ديدات، والدكتور ذاكر عبد الكريم نايك.

في عام ١٨٨٧ للميلاد تفجر في البنغال الغربية بركان نصراني، عندما ظهر منصّر باسم يوحنا المكرم ضمير الدين، وكان هذا الرجل ضمير الدين «فيديآبينود»، فارتدّ عن الإسلام وتنصّر، وكان قد وُلد عام ١٨٧٠ في «مهربور»، ودرسَ في «كلية القديس بولس اللاهوتية» بمدينة «إله باد»، ثم درسَ في الكلية اللاهوتية بكلكتا، وتعلم عدة لغات، من العربية والعبرية والسنسكريتية واليونانية، كما كان متقنا للبنغالية والأردية والإنجليزية والأردية والفارسية واللاتينية، وبالخلاصة أصبح هذا الإنسان في القمة من العلم والمعرفة، واللغات والآداب، واللاهوت والشعر، وتمكن من الديانة النصرانية، ورسخَ في أناجيلها، وبرزَ في الميدان كداعية متحمّس إليها، ومدافع عنها، ومتعصّب شديد التعصب لها.[2]

بدأ يوحنا رحلتَه الدعوية أول ما بدأ بالهجوم على القرآن! فأثار حوله شبهات، ونشر مقالات في مجلة نصرانية كانت تصدر من البنغال، كلها تتلخّص في نتيجة واحدة، وهي: "أن القرآن الذي نزل على الرسول محمد هو ليس المصحف الذي بأيدي المسلمين الآن، بل النسخة الأصيلة لذلك القرآن أحرقت في عصر عثمان بأمر منه"، ثم جمع هذه المقالات ونشرها في كتاب باسم «أين القرآن الأصلي»؟ وأثار شبهات حول حجية القرآن، وكونه من الله، بلا تحريف ولا تبديل! حتى انبرى له المنشئ مهر الله وردّ عليه ردودا قويّة مستمرّة أخرسته، وكانت نتيجتها هداية يوحنا وعودته إلى بيته بعد خروجه منه بثمانية أعوام، ونشر كتاب «القرآن الأصلي في كل مكان».

ثم تتابعتْ جلسات وندوات، ومناظراتٌ ومخاصمات بينه وبين القساوسة المنصّرين في مناطق شتى،

(١) Encyclopedia of Eminent Thinkers, Vol XXI, Dr. Jai Narain Sharma p. ٥٨

(٢) The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing) p. ٢٣١

من أقصى حدود البنغال غربا إلى أقصى حدود آسام شرقا وشمالا، كان المنشئ فيها فارس الميدان، وصاحب لواء النصر والظفر، وكان محمد ضمير الدين الذي ارتدّ وتنصّر ثم اهتدى، من أقرب الناس إليه، وبمثابة الساعد الأيمن له في هذه المناظرات، وقد برزَ كداعية وكمؤلف كبير قدير للإسلام في هذه المنطقة، فيقال أنه كتبَ ١٠٨ كتابا ورسالة في الردّ على النصرانية، والفضل في ذلك يرجع قبل الجميع إلى شيخنا المنشئ مهر الله، فكان من أصفى أصدقائه، وهو الذي هدى له طريقَه إلى الله،[١] وعلى رأس ما كتبه الشيخ ضمير الدين «صدق الإسلام وشهادة أصحاب الديانات»، و«الخطبات الإسلامية»، و«محمد سيد المرسلين وتفنيد شبهات المنصرين» وغيرها،[٢] ومن أبرز المناظرات التي خاضها الشيخ مهر الله في هذه الفترة، مناظرته التي وقعتْ في «بريسال» عام ١٨٩١م، على رؤوس الأشهاد، دامت هذه المناظرة لثلاثة أيام متتالية، ثم عادَ الشيخ إلى بيته مكللا بالنصر المبين، ومرتديا وسام العز والانتصار على المنصرين.[٣]

كان وعاظا غير وعاظي اليوم

بجانب المناظرات مع المنصرين، والدفاع عن الدين، ودعوة غير المسلمين إليه، كانت للشيخ مهر الله عناية كبيرة بالمسلمين، وبإيمانهم وعقيدتهم، وأحوال قلوبهم، وقوّة يقينهم، فأخذ المحافل والمجامع الدينية العامة وسيلة للاختلاط مع سواد الناس، والحديث إليهم، وسمع أسقامهم، وبيان الشفاء لهم، ولم يأخذها مطية لكسب الدنيا، وامتصاص دماء الناس،[٤] وكان مبايعا على يد المرشد الكبير الشيخ مولانا أبي بكر الصديقي، مؤسس خانقاه «فرفرا»،[٥] لكنه كان أبعد الناس عن الخرافات الصوفية وبدعها وضلالاتها.

عبقريته في ميدان التأليف

مع أن الشيخ مهر الله أمضى معظم حياته في إلقاء المواعظ، والإرشاد والتوجيه، والخوض مع

(١) المنشئ مهر الله: عصره ومصره ومجتمعه، تأليف محمد أبي طالب، ص ٣٤

(٢) تاريخ الأدب البنغالي (العصر المعاصر)، تأليف محمد عبد الحي، والسيد علي احسن، ص١٠٢ و١٠٣

(٣) انظر تفاصيل هذه المناظرة والمناظرات الأخرى الكثيرة Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press), p. ١٠٩ وما بعدها

(٤) Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press), p ١١٣

(٥) International Journal of Advanced research in Management and social Science, Vol II, Feb ٢٠١٤, p. ١٧٨

المنصرين في المناظرات، إلا أنه تفرّغ لكتابة وتأليف كتب، ونشر مؤلفات قيمة مازال كثيرها متداولة بأيدي الناس، بعد وفاته بأكثر من قرنٍ، وهذا خير شاهد على إخلاص المؤلف، وسعة علمه، وصفاء حسه، ورقّة شعوره، وجمال فنّه، وتمكّنه مما تناوله في هذه الكتب، وقدرته على التعبير والبيان، وكان يحبّ البنغالية لغته الأم، ويهتم بها أيما اهتمام، حينما كانتْ مهجورة أو شبه مهجورة في المجتمع البنغالي المسلم، ويحثّ الناس على إتقانها، واتخاذها وسيلة من وسائل النهضة، ومن أبرز هذه الكتب وأنفعها، وأكثرها قيمة: ٥ أباطيل النصرانية (١٨٨٧م) ٥ الردّ على النصرانية ودليل الإسلام (١٨٩٥م) ٥ مهر الإسلام (١٨٩٧م) ٥ معاناة الأرامل (١٩٩٨م طبعة ثالثة) ٥ أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها (١٨٩٧م) ٥ الحوار بين النصراني والمسلم (١٩٠٨م) ٥ جواب النصارى (١٩٠٩م طبعة ثانية)،[١] وقد طُبعت مجموعة هذه المؤلفات في مجلّدين ونُشرتْ.[٢]

آثاره في التعليم والتربية

لم يُكتب للشيخ مهر الله أن يدرس في المدارس والجامعات، ويحصل العلم على الأساتذة، ولذلك كان يشعر بضرورة نشر العلم ونور المعرفة في المجتمع، وأهمية تثقيف الشعب البنغالي المسلم، ومن ثم نراه يسعى لنشر العلم والثقافة، ويؤسس مدارس دينية ومعاهد علمية، ومراكز ثقافية، لرفع الجهل والظلام، والغي والضلال، في شتى مناطق آسام والبنغال، ومن أشهرها «المدرسة الكرامتية» التي أسسها في قريته «مانوهربور» عام ١٩٠١ للميلاد،[٣] على اسم مولانا كرامت علي الجونبوري، بعد معاناة كثيرة، وكان يتحمل مصاريفها طوال حياته مع رقة حالته، وزهده وتقشفه، وصبره على الضيق والعوز! فكان من بركة ذلك الإخلاص أنها ما زالت قائمة باسم «مجمع المنشئ مهر الله».

أساليب دعوته وأسرار نجاحه

كان صاحب قلب كبير، رحب الصدر، واسع الأفق، يحلم دائما بتوحيد صفوف المسلمين، والتأليف بين قلوبهم، ويكره البون والفرقة كرها شديدا، وقد اجتمع فيه حبّ الواقعية وعدم التعصّب، مع إتقان العلم والتعمّق، وكان له دورٌ كبيرٌ في إزالة النزاع من بين علماء التيارات الشتى، ورفع خلاف

(١) المنشئ مهر الله: حياته وأعماله، تحرير ناصر هلال، ص١٧ و١٨

(٢) وانظر تاريخ الأدب البنغالي (العصر المعاصر)، تأليف محمد عبد الحي، والسيد علي احسن ص١٠١و ١٠٢

(٣) المنشئ مهر الله: عصره ومصره ومجتمعه، تأليف محمد أبي طالب، ص٧٣

مذاهب مختلفة، والجمع أو التقريب بين الحنفية والسلفية، وملء الفجوة بين الطوائف الإسلامية أو تضييق شقتها على الأقل، في كثير من المناسبات، وقد دُعي أكثر من مرة إلى مناظرات- أو بالأحرى حروب داخلية- فيما بين الطوائف الإسلامية، لكنه لم يستجب لها، وإذا استجاب لبعضها، حضرها، واستغل الفرصة في الدعوة إلى وحدة الأمة، وجمع شتاتها، ورفع الفرقة من بينها، والدفاع عن الدين صفا واحدا، وكان لا يرى الجدل- مهما كان السبب- فيما بين المسلمين، والإسلام على مفترق الطرق![1]

كما كان مصلحا عظيما من الطراز الأول، فمع أنه نذرَ حياته كلها للرد على النصرانية والهندوسية، إلا أن ذلك لم يكن من باب الهجوم عليهم، وإنما من باب الدفاع عن كيان الإسلام والمسلمين أولا، وإبداء محاسن الإسلام، ودعوة غير المسلمين إليه ثانيا، وإصلاح المجتمع، ودفع الظلم عن المظلوم على اختلاف الأجناس والأديان ثالثا وأخيرا، فلم ينظر إلى عامة الهندوس أو حتى النصارى في المجتمع بأنهم أعداؤه، وإنما نظروا إليهم بأنهم بشرٌ![2] فرفعَ صوتَه ضد كثير من الخرافات الاجتماعية الجائرة والعادات اللاإنسانية المسيطرة على المجتمع الهندوسي! ووقفَ بجانب المظلومين، وتحدّث عن معاناة المرأة بين الهندوس! وعادة عضل الأرامل من الزواج بعد وفاة زوجها! وفي هذا كتبَ كتابه الشهير «معاناة الأرامل»،[3] كما نعى على نظام الطبقات السائد في المجتمع الهندوسي إذ ذاك، فكان سببا في دخول كثير من نساء الهندوس في الإسلام![4]

وقد كان شاعرا مطبوعا، طيع القريحة، وأديبا قصّاصا، تتلمذ عليه الكثير أو تأثروا به أثرا بليغا، وتبنّوا آراءه ونافحوا عنها، ودخلوا في صراعات أدبية من أجلها، ثم برزوا في ميدان الشعر والأدب البنغالي وأصبحوا من الشعراء الفحول، ومن الأعلام الفطاحل، بمن فيهم الشاعر البنغالي الكبير إسماعيل حسين السراجي، والشاعر الشيخ حبيب الرحمن، والشيخ فضل الكريم، والعالم المصلح الأديب مولانا محمد أكرم خان،[5] وكان الشيخ خان معجبا به، بل وجد فيه منهج حياته بعد أن لقيه وتأثر به، وكان يقول: "العمل الذي عمله الشيخ مهر الله، مع أنه لم يدخل في مدرسة دينية، ولم يأخذ العلم على أيدي

(١) Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press), p ١١١

(٢) المنشئ مهر الله: حياته وأعماله، تحرير الأستاذ ناصر هلال، ص٢٨-٢٩

(٣) العقلية المسلمة والآداب البنغالية، تأليف أنيس الزمان، ص٢٧٣

(٤) وانظر كذلك مقدمة المؤلف في كتاب أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها، تأليف الشيخ مهر الله، ومطبوع أكاديمية المنشئ محمد مهر الله للبحث، توزيع مكتبة التقوى، داكا

(٥) علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص٦٠

العلماء، لم يعمل به مئات العلماء المتخرجين في المدارس الدينية، وحملة الشهادات العليا، وهنا تتجلى عبقريته وندرته".[1]

مرضه ووفاته

نتيجة هذا الجهاد المطرد، والجهود المضنية، والجولات المستمرّة، بين أرجاء البنغال وأركان آسام، بالدعوة، والنصيحة، وإصلاح الأمة والمجتمع، ونشر العقيدة الصحيحة، ومحو البدع، وقبل كل شيء وبعد كل شيء محاربة التنصير والهندوسية، في كل حين وفي كل مكان، وعدم عنايته بالجسم وصحّته، وسلامة البدن، بلغَ من هذا الإنسان الجهدُ، ونال منه النصب، بعد أن ظلّ طوال حياته شابا متدفّقا، متوثب النفس، ومتوقد الروح، ومتفجّر الهمة، وموفور الصحة في عامة الأحوال، ثم طغى عليه الفتور والإرهاق، فأصابته العاهة الشديدة، حتى أصبح طريح الفراش، وبدتْ عليه آثار الأجل المحتوم، ونهشته الأمراض والأسقام، ورأى الموت باديا بين عينيه، وجاءَ النداء الأخير، والتحقَ بالرفيق الأعلى عام ١٩٠٧م، في عمرٍ لا يزيد على خمسة وأربعين عاما![2]

لكن حمزة لا بواكي له

لقد خلف المنشئ وراءه أمّه الحنين، وزوجَته، وستة من البنين والبنات الصغار، وهو العائل الوحيد لهذه الأسرة الكبيرة، وكان قد كسبَ من المال كثيرا، لكنه بذل كلّه في سبيل الله، زاهدا في الدنيا، وراغبا فيما عند الله، قانعا بالكفاف، ومتبلّغا باليسير، لم يدّخر مالا، ولم يحفظ عقارا، حتى ذهب من الدنيا ولم يترك لهم شيئا، فقد علمته الحياة الصمت والحكمة، وتحمل المشاق، والصبر على شظف الحياة وتعويد الأسرة عليها، وكانت حياته غاية في البساطة والسذاجة، صاحب تواضع ظاهر، وأدب جمّ، حتى ما كان أحدٌ يعرفه من ملامح وجهه ولباسه بأنه عبقري من عباقرة الإسلام ويتيم دهره.

وقد تعرّض أهله لمشاكل واضطرابات كثيرة بعد وفاته، وضعها جيرانه ومعارفه، وصُودرتْ عدّة مؤلفاته، ومنعتْ من النشر،[3] وكانت تكأة لإهانتهم وإذلالهم، بل زاد الطين بلة، عندما غُرموا بغرامة

(١) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص١٦٧

(٢) المنشئ مهر الله: حياته وأعماله، تحرير الأستاذ ناصر هلال، ص١٣، هكذا جاء في كتب كثيرة، أما في مقدمة كتاب أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها، تأليف الشيخ مهر الله، ومطبوع أكاديمية المنشئ محمد مهر الله للبحث، ذُكر أنه توفي في نهاية عام ١٩١٢م!

(٣) فمثلا كتابه أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها نشره بعد وفاته نجله الأكبر عام ١٩١٢م، فكان صاعقة على الشعب الهندوسي، عوامه وخواصه، حتى دهاة الهندوس- وهم كانوا للشيخ بالمرصاد منذ حياته- وسجّلوا قضية عليه في المحكمة، فحكمت المحكمة بمصادرته والمنع من طبعه ونشره، وفرضت على

مالية ضخمة، قصمت ظهورهم، وكسحتهم من البيت إلى الشارع، وحوكموا محاكمات طويلة عريضة من أجلها، في حين كانوا في أحوج ما يكونون إلى الاستفادة منها، ليقيموا بها صلبهم، ويسدوا بها رمقهم، ولم يؤدّ الشعب البنغالي المسلم حقّ هذا الإنسان الكبير إلى أهله وأسرته، بل كافؤوا حسناته بالسيئات، وجزوا إحسانه بالإساءة،[١] العشاق بيننا كثير، ولكن كم فيهم قيس بن الملوح؟

من هنا كان الشيخ ضمير الدين يقول: "أيها الشعب البنغالي المسلم! إن هذا الإنسان بذل كل ما كان له في سبيلكم، وهاهو الآن قد ترك الدنيا وأهله صفر اليدين، وما بذلتم له شيئا في حياته، فماذا فاعلون لأهله بعد وفاته!"

لكن المآثر الكبرى التي خلفها في حياة لم تطل كثيرا، والإنجازات الضخمة الهائلة التي تركها في هذه الأيام المعدودة، قد خلّدته، وحجزتْ له مكانة كبيرة في التاريخ، وستحفظ ذكره ومكانته على ألسنة العالمين أبد الدهر بإذن الله تعالى، كأن الزمن قد طُوي له، فأنجز وحده في سنين معدودة ما لا ينجزه الجماعة الكبيرة في عقود.

ردّة ولا أبا بكر لها

في الوقت الذي أحاط بهذه الدولة ظلام التنصير من جديد، وخيّمت على هذا الوطن ظلمات الهندوسية والعلمانية واللادينية، وأصبحتْ شتى مناطق الدولة تتعرّض في كل يوم لمحاولات التنصير، وبدأت القبائل تتكالب على التعميد، ويرتدّ كثير من المسلمين، حان الوقت أن يرفع الشعب البنغالي المسلم رأسه، وينظر في عبقرية هذا الإنسان من جديد، ويوفه حقّه بعد أن كان مغموط الحق في حياته، ويدرس تراثه من جديد، ويأخذ منه نورا يمشي في ضوئه إلى الأمام، ويتّخذه منارة رشد في طريق الجهاد ضدّ التنصير، والدفاع عن كيان هذا الدين، وهذا الشعب، ومن أولى من العلماء في ذلك كله؟ في القيام بأفضل الأعمال، وأعظم الطاعات، وأكبر القربات- الدعوة في سبيل الله، وحراسة حدود الشريعة؟

الأسرة غرامة مالية قدرها ٢٠٠ تاكا آنذاك! Encyclopedia of Eminent Thinkers, Vol XXI, Dr. Jai Narain Sharma p. ٦١ وكذلك مقدمة كتاب أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها، مطبوع أكاديمية المنشي محمد مهر الله للبحث.

(١) المنشي مهر الله: عصره ومصره ومجتمعه، تأليف محمد أبي طالب، ص٢

مولانا القارئ إبراهيم

(١٨٦٤- ١٩٤٢)

الشيخ الرباني، العالم المصلح، مؤسس «زاوية أوجاني»

هو مرشد رباني من الطراز الأول، ومن طليعة الشيوخ المصلحين في ديار البنغال، ومن أبرز خرّيجي المدرسة الربانية، التي أسسها مولانا رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله على أرض الهند، فبارك الله في هذه المدرسة، ونفع بها البشر على وجه المعمورة بأسرها، وقد كان شيخنا من أصفى تلامذة مولانا الكنكوهي الذي أخذ منه العلمَ والعملَ، ثم بايعَه، وترقّى في كنفه، وتحت رعايته، حتى خرجَ من زاويته، وهو مستعدّ لحمل أعباء الدعوة والتبليغ، وإصلاح المجتمع، وإرشاد الناس إلى طريق الهدى والصلاح، فبدأ العمل، وما هي إلا أيامٌ، حتى أقبل عليه الناس إقبالا لم يسمع بمثله، وحصلَ انقلابٌ روحي شامل، لم يحصل له شبيه في هذه البقعة منذ قرونٍ! إنه الشيخ الحاج السيد القارئ محمد إبراهيم رحمه الله.

الميلاد والنشأة

وُلد محمد إبراهيم بمحافظة «نواخالي» عام ١٨٦٣ للميلاد، في أسرة مسلمة شريفة، لها جاه وشهرة في المنطقة، ثم بدأ الدراسة في قريته، وتعلم مبادئ العربية والفارسية، وكانت البنغال الشرقية آنذاك تعاني من قلّة المدارس الدينية، والمراكز العلمية الشرعية، ومن نضوب العلم والمعرفة، وندرة العلماء الراسخين في العلوم الإسلامية الأصيلة، والقادرين على الاستفادة منها، ونشرها في المجتمع، ولذلك كانت المدرسة العالية بكلكتا محطة العلماء والطلبة، وملتقى القوافل العلمية، ومصبّ الطلاب الطموحين، رغم فجوة كبيرة، وإشكال ضخم هائل، في جذرها، وسؤال مهمّ عظيم، حول تاريخ تأسيسها وبنائها، فسافر

الشيخ إلى كلكتا، وانخرط في سلك طلبة المدرسة العالية.[١]

لكن قدر الله كان يُريد منه تعليما أفضل، ومركزا دينيا أعلى وأنفع، وأرضا أطهر وأصلح لتعلم القرآن والشريعة، ولذلك بعد فترة تجريبية يسيرة، عندما شاهد الشيخ أن أمله بدأ يخيب في رحاب المدرسة العالية، وأن أحلامه بدأتْ تتبخّر في كنفها، صمّمَ على تركها، وأن يقرأ عليها سلام الوداع.

في الطريق إلى مكة

وهنا واتته السعادة الكبرى في الحياة، وسنحت الفرصة للسفر إلى بيت الله، فوصلَ إلى مكّة، وبدأ يبحث عن عالم يأخذ منه العلم، أو مركز ديني يدخل فيه ويتفرّغ للحياة العلمية، حتى وقعَ اختياره على المدرسة الصولتية، تلك المدرسة التي بوركتْ في عمرها، وشهدتْ نهضة علمية، وتزعّمت النشاط المعرفي، وقادت حركات التعليم والتربية، والتي لا تزال قائمة، وتعتزّ بكونها أقدم مدرسة أُسست في الجزيرة على المنهج النظامي، الذي أخذ شكله النهائي في الهند، ثم انتشر فيما جاورها من البلاد الإسلامية، والذي لا يزال مطبّقا تطبيقا حرفيّا في معظم المدارس الدينية والعربية، وهي المدرسة التي أسسّها مجاهد الهند العظيم، ومناظر الإسلام الخالد، الشيخ رحمت الله الكيرانوي عام ١٢٧٤ من هجرة المصطفى، ومنذ تأسيسها، لا تزال تنشر العلم، وتخرّج العلماء، وتقدّم إلى المسلمين خدمة جليلة، فدخلَ الشيخ إبراهيم فيها، وبدأ يقرأ القرآن على أعلام القرّاء المعاصرين، ولعلّه كان أول طالب من البنغال الشرقية يدرس في هذه المدرسة.[٢]

درسَ الشيخ إبراهيم في المدرسة الصولتية فترةً كبيرةً، وتضلّع من علم القراءات على أيدي نوابغ الحجاز، حتى علت شهرته، وارتفعت رايته، وشاعَ ذكره الطيب في بطاح مكة وأطراف الحجاز، وكان ذلك في عهد الحسين بن علي الهاشمي، شريف مكّة وملك الحجاز آنذاك، فسمع الحسين قراءة الشيخ إبراهيم، فأعجب بها، وأمرَ إدارة المدرسة الصولتية لتعيينه مدرّسا لها، وأصبح الطالب إبراهيم مدرسا للمدرسة الصولتية، ودرّس فيها عشرة أعوام تقريبا.

عاد إلى الوطن للدعوة والإصلاح

عندما بلغَ من عمره ثلاثين عاما، ورأى كثيرا من العالم، وامتلأت الحياة بالتجارب، عادَ الشيخ

(١) سيرة موجزة لمولانا القارئ إبراهيم، تأليف مولانا السيد محمد إسحاق، ص٥ و٦

(٢) حياة الشيخ مولانا القارئ إبراهيم، تأليف الشيخ مولانا محبوب إلهي الأوجاني، ص١٦٠

إبراهيم إلى وطنه، ليبدأ أهم مرحلة من مراحل الحياة، وليقوم بمهمّة رئيسة بين شعبه وقومه، التي استعدّ لها هذه الأيام كلّها، فوصلَ إلى «لاكشميبور» وأوى في بيت صديق له ومعه زوجته العربية، التي تزوّجها أثناء إقامته بمكّة وتدريسه بالمدرسة الصولتية، وقد كانت أرض أبيه وأجداده في «نواخالي» ذهبتْ في الأنهار، فلذلك تحوّل إلى قرية «ماسينبور» من محافظة «لاكشميبور»، وأخذها مركزا لجهاده وإصلاحه، وهنا بنى مسجدا، وأنشأ مدرسة، وعلّم القراءة بلهجات مختلفة، حتى سرت شهرته بين الناس، وأقبل عليه الطلاب من كل حدب وصوب.

في زاوية مولانا الكنكوهي

رغم هذه الأعمال الهائلة، والمسؤوليات الكبرى، والإقبال العظيم من الناس، كان يحسّ بفراغ كبير في الحياة، ذلك الذي كان يقلقه دائما ويقضّ مضاجعه، ويضع قلبه على جمرة من غضى، وهنا ألقى الله في روعه اسم مرشد كامل، وشيخ رباني مصلح، قيّض الله لهداية ملايين البشر، ولإصلاح المجتمع الهندي إصلاحا شاملا، سلطان الأولياء مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، فخرجَ الشيخ لـ«كنكوه» وحضرَ في مجلس الكنكوهي، ووضعَ يده في يده، وبايعه في تزكية النفس وتصفية الباطن، والرجوع إلى الله تعالى بالقلب السليم، مكثَ الشيخ في زاوية مولانا الكنكوهي فترةً قصيرة قد لا تزيد على عشرين يوما، وفي أثناء ذلك أخذ منه علم السلوك، وهو علم يقوم على التربية والتهذيب، وتزكية النفوس، وتخليتها عن الرذائل، أكثر مما يقوم على التعليم والتلقين، ولقي دروسا في حقائق الحياة، وزخارف الدنيا، ومطامعها وزينتها، وطرق محاربة الشيطان، وإصلاح البشر، ووصلَ في سلّم التربية الروحية إلى المدارج العليا، وهنالك أجازه مولانا الكنكوهي للقيام بواجب الإصلاح والإرشاد في البنغال، وأخذ البيعة من الناس على التمسك بشريعة الله والوقوف عند حدودها.[١]

بين الجامعة والزاوية، نهضة علمية وروحية شملت أرجاء أوجاني

بعد العودة من «كنكوه» تفرّغ الشيخ القارئ لنشر التوحيد والإيمان، وإحياء السنة، ومحو البدعة، ونفخ روح الإخلاص والإنابة، والربانية الخالصة في الضمائر، ولتربية نفس الإنسان، وتنمية روحه، وغرس الفضائل في أخلاقه، مع التدريس في المدارس، وإلقاء الدروس والمواعظ في المساجد والمحافل، فأسس الجامعة الإسلامية الإبراهيمية عام ١٩٠١م.

(١) انظر مقال الشيخ تفضل الحق الحبي غنجي، مجلة الكوثر الشهرية، مايو ٢٠١٥م

كما أنشأ زاوية كانت مركزا للعلم والعمل في ذات الوقت، ونموذجا رائعا للجمع بين التعليم والتربية، والدراسة والعبادة، والمطالعة والإنابة، حتى خرّجت هذه الزاوية علماء ربّانيين، وعظماء المصلحين، وصفوةً مختارة من القرّاء البارزين، بمن فيهم القارئ بشير الله، والقارئ حبيب الله، والقارئ سخاوت الله، وكان من أصفى تلامذته وأقرب خلفائه الشيخ السيد محمد إسحاق مؤسس زاوية «تشرموناي» ووالد الشيخ السيد فضل الكريم، الذي تخرّج على يديه، وأنار بقعةً كاملة بنور الإيمان واليقين.

كان يحب القرآن كثيرا

كان الشيخ شغوفا ولوعا بالقرآن الكريم، فلقد آمن بالقرآن منذ طفولته، واستضاء قلبه بسراجه، وقضى شبابه بالقرآن وعلم القراءات، ثم عاشَ حياتَه كلّها في رحابه، فكان يغرّد بالقرآن، وفي أثناء الصلاة كانت أصداء تلاوته تجلجل في رحاب المسجد، وتعتريه حالاتٌ غريبةٌ وجذبة شديدة، وكان بكّاء به، يبكي وينتحب، ويُبكي المستمعين.[1]

وقفات مع بعض الأسئلة ومناقشتها

الانقلاب الإصلاحي العظيم الذي أحدثه الشيخ القارئ إبراهيم في هذه الدولة، جعل له مكانة مرموقة في الدين والعلم، ووجاهة عند الناس، وبذلك فقد أصبح الشيخ صاحب راية خفّاقة، وزاوية عامرة، وجماعة هائلة، لا تزال تتبّع طريقه في الدعوة الإصلاح، وتقتفي أثره في تزكية النفوس، بعد وفاته بزهاء قرن، فإن قام أحدٌ أو بعض من هؤلاء الملايين، بما يمسّ الدين في صميمه، أو يتعّدى الحدّ الذي حدّده الشارع، العهدة عادت على صاحب ذلك الصنيع، لا على هذا المرشد العظيم، الذي ما أراد من قومه إلا أن يهتدوا، ويرجعوا إلى الله خاشعين منيبين.

لذلك عندما نسمع أخبار الكشوف والكرامات، التي قيلتْ أن حصلت له، ولمن يسير في منهجه في عالم السلوك والربانية، وكثيرا ما هي، قد لا يثق بها التاريخ، وقد لا يصدّقها العلم، ولا يكون لها وزنٌ وقيمة في ميزان الشريعة، لعدم ثبوتها، أو لشدّة ضعف في روايتها، أو لغرابتها وعدم استئناسها في عالم الخوارق والمعجزات، مثل زلزلة الأرض حوله أثناء ذكره، وتقطّع أوصاله إربا إربا في شدّة حالاته ومكاشفات قلبه، وذكر الأشجار والأحجار والجمادات بصوت رفيع يُسمع متناغما مع ذكره، فإن كل

(١) المرجع السابق

ذلك لا يحطّ من شأنه ولا ينال من منزلته؛ لأنه لم يثبت منه أنه حاكَها أو ادّعاها،[1] والحقيقة أن هذه الخوارق لا ترفع قيمة الإنسان عند ربه، ولا تزيد شيئا في ميزان حسناته، وهي ليست دليلا على تقوى الرجل وليست آية على ورعه، ولا شرطا لولايته وقربه من ربّه، بل هو منّة إلهية يؤتيها الله من يريد من عباده بفضله ومشيئته.

ذهبت روحه وبقيت أعماله

بعد حياة عمّرها بالأعمال الجليلة للدين والأمة قضى الشيخ المصلح إبراهيم نحبَه وانتقل إلى جوار ربّه عام ١٩٤٢م، وهو في الثمانين من عمره، وفي أوج شهرته وعظمته، ودُفن في أوجاني، ساحة جهاده، ومركز حركته، وخلّف وراءه أحد عشر كوكبا وسبع ثريات، كلهم من العلماء العاملين، وزوّج إحدى بناته بالمصلح العظيم العلامة تاج الإسلام المعروف بفخر البنغال، وزوّج بنته الصغرى بكبير علماء «نواخالي» مولانا نور الله المعروف بـ«أسد البنغال».[2]

وقد تولّى بعد وفاته مهمّة الدعوة والإصلاح، التي تركَها، نجله الشيخ شمس الحق، ثم جاءَ حفيدُه القارئ مبارك الكريم، فكان خير خلف لخير سلف، برزَ فيه من العلم والعمل، والإخلاص والتفاني في سبيل الدعوة، والربانية الخالصة، ما جعله محطّة القلوب، ومركزا حيا للإصلاح والإنابة، وعادت إلى الزاوية أيامُ الجدّ والمجد، وقد توفّي الشيخ مبارك الكريم عام ٢٠١٣م ودُفن بجوار جدّه، رحمهم الله جميعا.

(١) اقرأ بعضها في سيرة موجزة لمولانا القارئ إبراهيم، تأليف مولانا السيد محمد إسحاق

(٢) إنه الشيخ الكبير، مولانا نور الله بن نواب علي، المعروف بـ«أسد البنغال» و«أديب ديوبند»، وُلد عام ١٩١٤م تقريبا في محافظة «نواخالي»، درسَ في جامعة هاتهزاري، ثم سافرَ إلى الهند، ودخلَ في جامعة ديوبند، وأكمل مرحلة التكميل عام ١٩٣٢م، ثم تخصّص في الفقه والأدب، وتخرّج بدرجة الامتياز، وعُيّن مدرّسا في قسم الأدب بديوبند عام ١٩٣٦م، فكان أول مدرّس بنغلاديشي في تاريخ ديوبند! لكن وفاة والده بعد أشهر حالت دون استمراره في التدريس بديوبند، وعادَ إلى مسقط رأسه، ظلّ الشيخ نور الله طوال حياته يتنقّل بين مدارس كثيرة، ويدرّس الحديث النبوي في مراكز علمية شهيرة، بما فيها المدرسة الإسلامية بـ«تشاوموهاني» ودار السنة بـ«سرسينا» والمدرسة العالية بداكا والمدرسة الكرامتية بـ«نواخالي»، وخاضَ معامع السياسة منذ فترة مبكرة من حياته، وصالَ وجالَ تحت قيادة العلامة الباسل أطهر علي، وتحت مظلة «نظام الإسلام»، وقاد المظاهرات، وأدار المؤتمرات، وأشرف على مؤسسات، وقد تركَ عدة مؤلفات قيمة بالعربية والبنغالية، وكان وعاظا كبيرا، يجوب أقطار الدولة بدعوة التوحيد والعقيدة النقية الصافية، والتحذير من البدع، وكان خطاطا بارعا، وقد توفي رحمه الله عام ١٩٦٨م.

مولانا السيد حبيب الله القرشي

(١٨٦٥-١٩٤٣م)

المصلح الكبير، منشئ الجيل، مؤسس جامعة هاتهزاري

إذا كان مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله يرجع إليه فضل انقلاب شامل في تاريخ الهند المعاصرة وبناء جيل كامل على أساس متين من العلم والمعرفة، والدين والعبادة، والورع والعفة، والزهد والنسك، والدعوة والإصلاح، والعفة، والترفّع عن النقائص، مع بناء المجتمع والدولة، وتقديم نموذج رائع للسياسة الإسلامية، ومحاربة الطغيان والاستبداد، من أجل الدين، وصالح المؤمنين والمواطنين، فإن الشيخ العلامة السيد حبيب الله القرشي رحمه الله يرجع إليه فضل بناء جيل كامل، وانقلاب شامل، وفتح أفق جديد للتعليم والتربية، وإصلاح المجتمع، ونشر العلم السماوي والثقافة النقية المتينة في بلاد البنغال. إنها قصة تاريخية رائعة في هذه المنطقة، وقصة وضع حجر الزاوية لأول جامعة إسلامية عربية، وأقدم مركز علمي، وأكبر معقل ديني، لا يزال له أثر فعال، ودور قيادي في حياة الدولة والشعب. إنها قصة إنشاء جامعة هاتهزاري.

البيئة التي ولد فيها ونشأ

وُلد السيد حبيب الله في (هاتهزاري) عام ١٨٦٥م، في أسرة مسلمة شريفة، تنحدر من سلسلة النسب العربي الكريم التي تنتهي إلى قبيلة بني أمية من قريش، إلى مروان بن الحكم الأموي القرشي، لذلك عُرف الشيخ حبيب الله بالقرشي، فقد انتقل جدّه الأعلى إلى هذه المنطقة قبل قرون، واتخذها سكنا، وتولّى فيها مشيخة الإسلام، إذ كان شيخا جليلا عربيا، فلا غرو أن يقوم على يده أكبر

جامعة عربية وأقدمها في هذه البقعة.[١]

فقدَ أمّه في طفولته، فكان الوالد مطيع الله أبا له وأما، ربّي برعاية الوالد، وحنان الوالدة، ودلّله وهذبه، ومنحه العطف والحنان، ثم أحسن تعليمه، ووضعَه عند القارئ المولوي إمام الدين الميانجي، فقرأ عليه القرآن، ثم درسَ عند الشيخ مسيح الله الأدرية والفارسية، ومبادئ الكتب العربية، ودخلَ بعد ذلك في «المدرسة المحسنية» وأمضى فيها فترةً من الزمن.[٢]

رغم أن الهند كانت قراها وأريافها، فضلا عن المدن والقصبات، وحواضر البلاد وعواصم الحكومات، تزخر حينئذ بالعلماء والمتعلمين، والمدارس الإسلامية، والمراكز العلمية الشهيرة المتدفّقة، مثل الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، ومظاهر العلوم بـ«سهارنبور»، ودار العلوم التابعة لندوة العلماء بـ«لكناؤ»، وجامع العلوم بـ«كانبور»، والمدرسة العالية بكلكتا وغيرها، إلا أن البنغال الشرقية كانت متخلّفة للغاية، ومفلسفة في العلوم الدينية والشرعية الصحيحة، والتاريخ العريق لدارسة الحديث النبوي الشريف في هذه المنطقة، الذي عمّر هذه البقعة وأنارها في العصور الوسطى، قبل ثمانية قرونٍ تقريبا، على أيدي أعلام المحدثين، أمثال الشيخ شرف الدين أبو توامة، وتلميذه الشيخ شرف الدين يحيى المنيري، كان قد اندرستْ معالمه، ودُفن تحت أنقاض الذاكرة، ولم يبق لها من هذا العزّ العتيق إلا بعض الآثار الحجرية، يتبرّك بها الناس ولا يقرؤونها، وبعض القصص الغريبة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، سوى أنها تثري مكتبات التاريخ ومؤلفات العلم والحضارة.

في رحاب دار العلو ديوبند

سافرَ الشيخ عام ١٣٠١ للهجرة إلى الهند ووصلَ إلى دار العلوم ديوبند، وهو يتدفّق بالطموحات، ويبحث عن المزيد، فبقي في ديوبند أياما، إلا أن قدر الله أراد له سعادة قد لا تعدلها سعادةُ البقاء في ديوبند، فاضطربت صحّته، وتدهورت حاله مع الأيام، وظهر جوّ ديوبند غير صالح له، فخرجَ في طريقه إلى «كانبور»، حيث يقصد عَلَما من أعلام الأمة المسلمة، ومجدّد القرن، وحكيم الأمة، وسلطان الأولياء، مولانا أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، وكان يدرّس حينئذ في جامع العلوم بـ«كانبور»، فكان خير عوضٍ عن دار العلوم ديوبند.[٣]

(١) انظر مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ احمد الله، ج١، ص١١٠

(٢) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص١٧٢

(٣) حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، ج١، ص٢٧

استمرّت الدراسة في جامع العلوم طوال سبع سنواتٍ، درسَ من خلالها التفسير والحديث، والأدب والتاريخ، والمنطق والفلسفات، بجانب هذه العلوم الظاهرة، كانت هناك رحلة دؤوبة مستمرّة، وجهاد مطّرد في تزكية النفس، ورياضة القلب، والتفرّغ للزهد والعبادة، حتى تكون النفس مطواعا لإرادة الله، ووقّافا عند حدود الشريعة، وكل ذلك كان تحت رعاية مباشرة لحكيم الأمّة، والطبيب الروحي النطاسي، ومجدّد العصر، مولانا التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، فبايعَه واستفاد منه طوال هذه الفترة، حتى نال الإجازة، وقفل عائدا إلى مسقط رأسه.[١]

البنغال الشرقية في الظلام والجاهلية

عادَ الشيخ إلى وطنه، ليبدأ مرحلةً ثانية من مراحل حياته، بل أهم مرحلةٍ من مراحل حياة كل عالم وداعية ومصلح ومجدّد، ليبدأ العمل وفقَ ما علمه، وليبدأ الصحوة والدعوة، والدفاع عن الدين وإنقاذ الأمة، من الجهل والضلال، والشرك والبدع، ومن مخالب أئمة النار وأصحاب الشطحات، والمتجرين بالدين، فقد كانت البنغال عموما، ومنطقة شيتاغونغ خصوصا، أشدّ ظلاما، وتخلّفا، وغرقا في محيط الضلال، والابتداع في الدين، والعبادة لغير الله، لأسباب يطول بيانها، أهمها قلّة العلماء الراسخين في الدين، وندرة المراكز العلمية التي تشعّ بين الناس نور الإيمان، وتبثّ فيهم العقيدة الصحيحة للإسلام، وتقرأ عليهم النصوص الدينية، الخالصة عن العلائق والشوائب، فالعلماء لم يكن عددهم بقليل، لكن أكثرهم كانوا أصحاب البضاعة المزجاة، ويعانون من عدم التمكن من القرآن والسنة، والقدرة على استيعاب النصوص، واستخراج الحلول للقضايا الطارئة على حياة الأمة، من ينابيع أمهات الكتب، إضافة إلى ذلك كان ما يُسمى "حالة الطوارئ لضعاف القلوب"، الذين درسوا العلم والشريعة، لكن الفكر في المعاش، والضيق في الاقتصاد، أنساهم ما كانوا عليه من الثقة بالدين والإيمان، والإحساس الصادق بقيمة العلم الشرعي ومكانة العلماء، والتوكّل على الخالق حقّ التوكّل، وإيثار الآخرة على الدنيا، وما عند الله على ما عند الناس، وتشبّثوا بأذيال النهم والمطامع، وتنكّبوا عن الدرب، وانحرفوا عن الجادّة، واشتروا الدنيا بالآخرة، والضلالة بالهدى، ورضوا بالعاجلة عن الآجلة، ولهثوا حول كل أجياف، حتى ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، وهم الذين اشتهروا في التاريخ بعلماء السوء، وخطباء الفتنة، وأئمة الضلال والظلام، لكنهم لبسوا لبوس العلم، وطلوا بطلاء الحرص على الدين

(١) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص٩

والأمة، هم الذين جاؤوا بالويلات على المسلمين، وأنزلوا بهم المحن، وأذاقوا الأمة مرارة الزيغ والضلال، واستغلّوا شعور الناس بالله وبرسوله، وضلّلوا البسطاء، وحيّروا العلماء، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾

بداية العمل ونقطة الانطلاق

بدأ الشيخ حبيب الله عملَه والمجتمع المسلم حوله غارقٌ في الشرك والبدع، وعبادة الأولياء، والاستغاثة بالأموات، والسجود للقبور، والنذور للأضرحة والأشجار قائمةٌ على قدم وساق، وسوق البدع رائجة نافقة إلى حدّ الإغراء، تربّع الشرك على التوحيد، وحلّت البدع محلّ السنة، فهاله حجم المصائب، ونوع الداء، ومدى القوّة والقدرة، والجدارة والإمكانية، التي يتطلبها إصلاح ما فسد، وإعادة بناء المجتمع.

بنى الشيخ مسجدا أمام بيته، وبدأ يصلي بالناس فيه متطوّعا، لا يتقاضى راتبا، ولا يبتغي جزاء ولا شكورا، مع ذلك لم يشكره الناس، بل ولم يشكره أحقّ الناس عليه وأحبهم إليه وأولاهم به، والده مطيع الله الميانجي، فقد كان والده، حسب عادات الناس السائدة في ذلك المجتمع، يحلم بأن الابن بعد أن درسَ في الخارج، وفي المراكز العلمية الكبيرة، سيقوم بدورٍ كبير في المجتمع، وسيحتلّ مكان القيادة، والإمامة للعامة والعلماء، حسب التقاليد المتجذّرة، ووفق العقائد المنتشرة منذ الماضي العريق، لكن أباه فوجئ بابنه الذي ثارَ على المجتمع، وخرجَ على قوانين الأجداد، وأشعل حربا شعواء على العقائد التي احتفظ بها الناس أبا عن جدّ، ورأى أن هزيمة ابنه في هذه الحرب متحقّقة، وأن جميع أمله قد تبخّر، فبدأ يخالف الابن.

في وجه مخالفة الأب، وعواصف هوجاء من عداوة المجتمع، وحقد العلماء، وبغض أصحاب الزوايا والطرق، وتحت وطأة شديدة من الأكاذيب والافتراءات، تارة بـ«الوهابية»، وتارة أخرى بـ«اللامذهبية» و«السلفية»، حتى كاد الشيخ أن يترك أمله، ويرفع الراية البيضاء، لكنه وزنَ معاصريه بمن كان قبلهم، ورأى أنهم قد خفوا في الميزان، فلم ير ضرورة المبالاة بهم، وثبتَ في مهمّته ثبات الرواسي، وظلّ يعمل ليل نهار بيقين متجدّد، وبحماس مزيد، وبإيمان أثبت من الجبال، وأعصاب أمتن من الحديد.

هنالك كتب رسالةً إلى مرشده مولانا التهانوي رحمه الله، يطلب منه توجيها في هذه الحالة العويصة، وضوءا في طريق العمل للمستقبل، فأمره الشيخ باعتزال الناس وترك المجتمع لفترة، والتفرّغ للعبادة في خلوة، وتوطيد العلاقة مع الله بكثرة الذكر والاستغفار، والتوبة والمراقبة، فاعتزلَ الناس وانزوى في حجرة

صغيرة بجوار مسجده، وانكبّ على العبادة، والبكاء والدعاء، حتى شاعَ أمرُه بين الناس، وبرزَ فيهم كقطب من الأقطاب، وأصبحوا يتدفّقون عليه من كل حدب وصوب، بالهدايا والقرابين!

نهضة دينية علمية لا بدّ منها

أدرك الشيخ أن الخطّة لم تنجح، ولم تأت بثمرتها المرجوّة، وأن الاستراتيجية بدت غير موفّقة لهذا المجتمع، ومحاربة أباطيله وأضاليله، فلا بدّ من مشروع جديد، ورسم خريطة طريق مجدية، فكتبَ إلى المرشد التهانوي مرّة أخرى، بيّن فيه نتيجة الخطّة السابقة وعواقبها، وحاجة تغييرها بما هو أصلح منها، حتى جاءَ ردّ الشيخ، يأمر بإنشاء مدرسة، وتربية الأمة عن طريق العلم، وبث الثقافة الإسلامية، ونشر الوعي الديني في جميع طبقاتها، وقد ثبتت هذه الخطة موفّقة، وأحدثتْ أكبر نهضة علمية مباركة في تاريخ هذه الأمة، شملت الدولة في طولها وعرضها، لا تزال آثارها ملموسةً، ماثلة للعيان.

نهضة لا بدّ أن نعرف جذورها، ونخوض في تفاصيلها، ونسجل مواقفها بجزئياتها وكلياتها، وكيف جاءتْ هذه النهضة الإيمانية والعلمية الصحيحة الخالصة، في تلك القرية المتخلّفة المفلسة، والفترة المظلمة الغارقة في البدع والشرك، لأنه يساعد القارئ اليوم على تقييم جهود السلف تقييما صحيحا، ووضعها في نصابها، وتقديرها تقديرا مناسبا، فالطريق لم تكن معبّدة ممهّدة منذ الأزل، لأنهم الذين مهّدوا الطريق، وفتحوا الباب، ثم جاء جيلنا، ووجدوا السبل كلها ممهّدة مفروشة الورود والرياحين، فظنّوا أنها هكذا خلقتْ من أول يومها، وانتظرتهم بفارغ صبرٍ، فجاؤوا وأدلوا بدلوهم، وكلّلوا بالنجاح.

نبتة صغيرة تصبح دوحة عظمى

أنشأ الشيخ حبيب الله مدرسةً صغيرةً في قرية «تشاريا» عام ١٨٩٧م، كما أمر به مرشده مولانا التهانوي رحمه الله،[1] فاجتمعَ جماعةٌ من صغار الطلاب، وأقبل يدرّسهم فيها، ويربّيهم بحماس كبير، وبحميّة إيمانية نادرة، وبإخلاص لا يرتقي إليه شبهة، خصوصا بالنسبة إلى عصر أصبح فيه من المستحيلات أن عالما كبيرا، متمكّنا من العلوم والفنون، ومتخرّجا من المركز العلمي الشهير في الهند، يكون مدرّسا في مدرسة صغيرة في قرية نائية، نائمة وسط الجبال والأنهار، لا أمل لها في المستقبل، ولا نور في الأفق، وأصبح ذلك من عالم الخيال، لكن الخيال كان حقيقة متحقّقة في حياة هؤلاء الأعلام، فبارك الله في جهودهم، ودانتْ لهم الدنيا، وأصبحت تلك القرية المعتزلة المنقطعة التي بقيت دهرا كاملا

(١) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص٥٣

خاملة ضائعة، فإذا هي أمّ القرى، وسرّة الدنيا، وحاضرة المدن، وعاصمة العواصم، اتجهت إليها الأنظار، وارتحلت إليها أبناء الأقطار، يرتشفون من معينها.

فرسان أربعة غيروا مجرى التاريخ

في حين كان الشيخ حبيب الله يشتغل بالتدريس والتوجيه، والإدارة لمدرسته الصغيرة، كان في شيتاغونغ ثلاثة عقول واعية، وأرواح مستنيرة، تتحسّر على نصيب الأمة البنغالية من الدين وعلومه، وتموت حسرة وكمدا على حاضرها الأليم، ومستقبلها المظلم، وتفكّر وتدبّر في إيجاد حلّ، وفتح طريق، يخفّف عليها وطأة الظلام، وغلواء الجهل، ويفتح لها عالما كله نورٌ وضياء، وكانت هذه الأرواح الثلاثة الطيبة تتمثّل في الشخصيات الثلاث البارزة، الخالدة في تاريخ هذه الأمة، المجاهد العظيم الشيخ مولانا عبد الواحد[١]، والشيخ عزيز الرحمن المعروف بالصوفي[٢]، والشيخ عبد الحميد،[٣] رحمهم الله جميعا.

---

(١) هو الشيخ الرباني، العلامة المجاهد، مولانا عبد الواحد بن جنات علي، وُلد عام ١٨٥٠ م، في أسرة مسلمة شريفة، وعُرف منذ الصغر بالذكاء النادر، والذاكرة القوية، والعقلية الرفيعة، درس في «المدرسة المحسنية»، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في دار العلوم ديوبند، وظل فيها طوال أربعة عشرَ عاما، لم يرجعْ إلى وطنه، ولم يفتح الرسائل التي كانت تصل إليه من أسرته وأقربائه، وتشرّف بدراسة الحديث على يد الشيخ محمد قاسم النانوتوي، والشيخ محمد يعقوب النانوتوي، وبعد التخرّج من ديوبند، حضرَ في زاوية العالم الرباني، وشيخ المشايخ في عصره، مولانا فضل الرحمن الغنج مرادآبادي، فبايعه واستفادَ منه طوال عامين، حتى نالَ الخلافة، وعادَ إلى وطنه، وكان أبرز مآثره الخالدة تأسيس جامعة هاتهزاري، فكان ثاني- بل أول- أربعة قامتْ جامعة هاتهزاري على أيديهم المباركة، وظلّت تُنير هذه البقعة على مدى أكثر من قرنٍ كامل، وكان عالما متمكّنا، قويّ الحجّة، حاضر البديهة، خاضَ مناظرات ضدّ أهل البدع وهزمهم على الملأ شر هزيمة، حتى اتّهمه أهل البدع بـ«الوهابية» و«اللامذهبية»، فقد كان له دورٌ كبير في محاربة البدع ونشر السنة في أرجاء شيتاغونغ، كما كان عابدا زاهدا، يكثر من الاستغفار، ويهتمّ بالسنن اهتماما بالغا، وقد اختاره الله عام ١٩٠٥م.

(٢) هو الشيخ الكبير، محقق العصر، مولانا عزيز الرحمن، وُلد عام ١٨٦٢م في قرية «بابونغر» بمحافظة شيتاغونغ، درسَ في «المدرسة المحسنية» إلى مرحلة الفضيلة (الأولى)، وعُرف بـ«الصوفي» (وهي كلمة قد تعني في المجتمع البنغالي غير ما تعنيه في المجتمع العربي) منذ الصغر، لطبيعته الهادئة الوديعة، ولين جانبه، وتواضعه، وحسن خلقه، تعرّف على الشيخ عبد الواحد وتوطّدت بينهما صلة الحبّ والصداقة، فتعاونا على البرّ والتقوى، وكان ركنا من الأركان الأربعة لجامعة هاتهزاري، ثم درّس فيها لفترة طويلة، وقد أنشأ مؤسسات ومدارس أخرى، من أبرز تلامذته الشيخ مولانا أحمد حسن، مؤسس جامعة جيري. وقد توفي عام ١٩٢١م، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

(٣) هو مجاهد الملة، ومناظر الإسلام، ومجدد الأمة، الشيخ مولانا عبد الحميد بن رستم علي المنشي، علمٌ كبيرٌ من أعلام القرنين التاسع عشر والعشرين، وُلد عام ١٨٦٩ للميلاد، وتخرّج في «المدرسة المحسنية» بشيتاغونغ، ثم أنشأ مدرسة في قريته وبدأ يدرّس فيها، وبثّ العلم والمعرفة، كما أنشأ جمعيةً دينية، للدعوة إلى التوحيد، وتوعية الناس على العقيدة الصحيحة، ونبذ الشرك والبدع، وكان واعظا كبيرا، يحضر في كثير من المحافل والمجامع، على حساب نفسه، ويلقي المحاضرات، ويهتمّ بالقضايا الواقعة في الحياة اليومية، والتي يغفل عنها كثير من الناس، مثل الاهتمام بالسنّة في كل عمل من أعمال الحياة، والكراهة للبدع، وأهمية الحجاب للمرأة، والطهارة والنجاسة، وقضاء الحاجة، وطريقة الاستنجاء، والمداومة على السواك وغيرها، وكان مناظرا كبيرا، خاضَ الجدال والمناظرات مع أهل البدع والخرافات، وكان حربا على شطحاتهم، حتى لُقّب بـ«فخر الإسلام»، كما كان عابدا زاهدا، تقيا، متمسّكا بالسنة في كل عمل

ولما اجتمعتْ هذه الأرواح الثلاث إلى روح رابعة مؤمنة، قويّة حكيمة، منيرة واعية، كان نورا على نور، ونزول المطر المنهمر في الفلاة بلا استسقاء، فجلسوا مجالس، وعقدوا حوارات متتالية، يناقشون الخطّة، ويتناولونها بالحذف والزيادة، حتى صحّت عزيمتهم على نقل المدرسة الصغيرة من قرية «تشاريا» إلى الجانب الغربي من سوق «هاتهزاري» آنذاك، ووضع حجر أساسها من جديد، وإنشاء بيتٍ جديد، بعونٍ ماديّ ومعنويّ من بعض المحسنين وأصحاب القلوب الكبيرة، ذلك البيت الذي كان نواة أكبر جامعة إسلامية عربية في هذه الدولة، وصورة مصغّرة لمؤسسة كبيرة، والخطوة الأولى نحو نهضة علمية دينية عامة، وإصلاح شامل، والانتقال من مجال ضيق محدود إلى ميدان واسع كبير، وكان ذلك نهاية القرن التاسع عشر عام ١٨٩٩ للميلاد.[١]

جامعة هاتهزاري في طفولتها

لم تمض أيامٌ إلا وقد واجهت المدرسة- النبتة الصغيرة التي ما زالت في طفولتها- معاناة كثيرة، ومخالفات من بعض الناس، حتى اختل البناء، وتوقفت الدراسة، وجاءت فكرة الانتقال مرة أخرى، ونُقلت القاعدة من ذلك المكان إلى هذه الساحة الكبيرة الممتدّة التي تقوم فيها الآن بكل عزّ وشموخ، ومجد عريق متأصل، تحمل عنوان "الجامعة الأهلية دار العلوم معين الإسلام"، وكان ذلك في السنة الأولى من القرن العشرين عام ١٩٠١ للميلاد،[٢] فكأنه كان بشارةً كبرى، وإرهاصات قيّمة، تؤذن عهدا جديدا، ودولةً جديدة للتوحيد والسنة، ونشر الخير والعلوم الشرعية، ومركزا من مراكز العلم، ومقرا لأئمة العلم والفقه في هذه المنطقة التي كانت محرومة من هذا الخير منذ بداية التاريخ.

ثم قدّم المؤسسون طلبا إلى الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله أن يتولّى رئاسة المجلس الاستشاري الأعلى، ويزوّدهم بالتوجيهات القيّمة، والإرشادات الموفّقة في مسيرهم على هذا الدرب، وقد لقي الطلب بالقبول من الشيخ، وبذلك أصبح أوّل مربّ وموجّه لهذه الجامعة، ثم جاء الشيخ ضمير الدين رحمه الله،[٣] أبرز تلامذة المدرسة الكنكوهية وخليفة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله،

من أعماله، وأنشأ مؤسسات كثيرة لنشر العلم وبث العقيدة الصحيحة بين الناس، ولعل أبرز إنجازاته وثمار جهوده وجهاده هو تأسيس جامعة هاتهزاري مع الأعلام الآخرين، وقد ظلّ مدرسا فيها إلى آخر لحظات من حياته عام ١٩٢٠م.

(١) حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، جـ١، ص٣٦

(٢) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص٥٣ وانظر كذلك حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، جـ١، ص٣٦، إذن العمل الذي بدأ عام ١٩٩٩م، اكتمل عام ١٩٠١م، ولذلك هذا الذي يعدّ اليوم سنة تأسيس جامعة هاتهزاري.

(٣) إنه إمام الشريعة والطريقة، العلامة ضمير الدين أحمد الإسلام آبادي، وُلد عام ١٨٧٨م في محافظة شيتاغونغ، وذاقَ مرارة اليتم في مراهقته، ثم سافرَ إلى

وتكرّم بتولية رئاسة مجلس الأمناء للجامعة مدى الحياة، ثم مضت الأيام، واستمرّت رحلة الجامعة في سلّم التطور والكمال، وظلّ عدد المدرسين والطلاب في ازدياد قائم، حتى وصلت الصفوف الدراسية إلى مرحلتها الأخيرة، وافتتحت مرحلة التكميل (التي هي آخر مرحلة للدراسة الجامعية في المنهج النظامي)، واختير الشيخ سعيد أحمد محدّثًا للجامعة،[1] وبذلك كان أوّل محدّث في تاريخها يتولّى تدريس كتب الحديث بشكل رسميّ، هكذا تمّ كلّ شيء بهدوء ونجاح، وبأسلوب ربّاني خالص، قائم على أساس التعاون على البر والتقوى، والإخلاص والتفاني في سبيل الله، إلا أن لبنةً مهمّة كانت قد بقيت أن توضع في مكانها، بل كانت هي أهمّ لبنة لأن يكتمل بها تشييد هذا الصرح الشامخ المنيف، وهي رئاسة الجامعة وقيادتها!

قصة غريبة نادرة في تاريخ الرئاسات

هنا حدث تاريخٌ نادرٌ غريبٌ، وحقيقةٌ قد تفوق الخيال، ونقلةٌ هائلة عودةً إلى تاريخ سلف هذه

«ينغون» عاصمة «ميانمار»، يبحث عن العمل، وكان ذلك عادة الناس في ذلك الوقت، ثم جاءت نقطة تحوّل في حياته، عن طريق بعض الأحلام الصادقة، فسافر إلى الهند، وحضر في زاوية مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، وأظهر رغبة البيعة، إلا أن الكنكوهي رفضه وأمره بطلب العلم قبل العمل، والجهاد في سبيل السلوك والطريقة، وإصلاح الظاهر قبل إصلاح الباطن، فدخل في رحاب جامعة ديوبند، وظلّ فيها ستّ سنوات، يأخذ العلم على أساطين العلماء، وعلى رأسهم شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي، والشيخ المفتي عزيز الرحمن العثماني، ثم عاد إلى مولانا الكنكوهي وأخذ منه الفقه، ومكث في زاويته طوال ثلاث سنوات، واجتهد في الرياضة والربانية، حتى نال منه الخلافة والإجازة، ثم دخل في جامعة هاتهزاري، على طلب من بانيها، وظلّ فيها طوال حياته، يدرّس ويوجّه، ويخرّج العلماء والدعاة، وكان من أبرز تلامذته المفتي الأعظم فيض الله، والشيخ شاه عبد الوهاب، ومن أصفى خلفائه الشيخ مفتي عزيز الحق، والشيخ الحاج مولانا محمد يونس، كوكبان من كواكب سماء فتية، وبطلان من أبطال تاريخها، بل تاريخ جامعة فتية لا يكتمل بدون هذا الإنسان، فإنه هو الذي عمل كأول موجّه ومشير ومخطّط وداع لميلادها وظهورها، كما كان عالمًا زاهدًا، ومجاهدًا مناظرًا، وفقيهًا متبحّرًا، قام بالدعوة والإصلاح، ونشر العقيدة الصحيحة، والرد على البدعة في أرجاء البنغال وآسام وبورما، وأنشأ مؤسسات علمية ودعوية كثيرة وأشرف عليها، وقد اختاره الله عام ١٩٤٠م، اقرأ عنه بالتفصيل في كتاب مستقل "تذكره ضمير، مختصر حالات قطب عالم حضرت الحاج مولانا شاه ضمير الدين أحمد إسلام آبادي" (الأردية)، تأليف مولوي فيض أحمد الإسلام آبادي.

(١) إنه مجاهد مصلح، وعالم رباني، وأول شيخ يتولّى تدريس الحديث في أول جامعة عربية في البنغال، الشيخ سعيد أحمد بن نور بخش السنديبي، وُلد عام ١٨٨٢م في منطقة «سنديب» بمحافظة شيتاغونغ، ثم سافر إلى الهند ودخل في دار العلوم ديوبند، وأخذ العلم على كبار علمائها، كان على رأسهم شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، ثم بايعه ونال منه الخلافة، كما استفاد من الشيخ مولانا رشيد أحمد الكنكوهي في التزكية والسلوك، ثم عاد إلى مسقط رأسه، ودخل في جامعة هاتهزاري، وتولّى فيها تدريس الحديث، فكان أول شيخ الحديث في البنغال، وأول شيخ الحديث في جامعة هاتهزاري، ظلّ في التدريس طوال خمسة وثلاثين عامًا، تخرّج على يده من خلالها عددٌ هائل من كبار العلماء والمحدثين في هذه الدولة، وكان من أبرز تلامذته المفتي الأعظم فيض الله، والشيخ أحمد حسن، توفّي الشيخ سعيد أحمد عام ١٩٥٥م، ودفن بجوار مدرسة «النشارايا» التي أسسها بيده عام ١٩٤٤م، بعد حادثة حدثت في «هاتهزاري» وألجأته إلى هجرته منها إلى «النشارايا»، لنشر العلم والإيمان، وإنارة تلك المنطقة بنور العرفان.

الأمة، تاريخ الإيثار والفداء، وتاريخ المسابقة في الخيرات، والمبادرة إلى العمل، والزهد في المكافآت، والابتعاد عن المناصب والوظائف، فطال الحوار حول تعيين رئيس للجامعة، كان الجميع ينكفّون عن هذه المكانة، شعورا بثقل الأمانة، وحجم المسؤولية، والاستجواب بين يدي الله، حتى وصل بهم الأمرُ إلى أن كتبوا رسالةً إلى رئيس المجلس الأعلى للجامعة مولانا أشرف علي التهانوي، فجاء الأمرُ السامي بتعيين الشيخ حبيب الله القرشي كرئيس للجامعة، والشيخ عبد الحميد كمديرها التنفيذي، والمشرف على إدارة الصندوق، والشيخ مولانا عبد الواحد كمدرّس القرآن والتجويد والقراءة، والشيخ الصوفي عزيز الرحمن كعميد الشؤون التعليمية وتدريس الكتب الدراسية للجامعة.[1]

هنا منبع التاريخ.. هنا مصنع الرجال

هكذا اكتمل بناء هاتهزاري، وتمّ إنشاء أول معقل علمي رصين في هذه الدولة، ليستمرّ البناء بعدها، وتقوم آلاف المدارس والمعاهد الدينية على شاكلتها، وكان من أبرز تلامذتها وأشهر إنجازاتها: العلامة عبد الودود السنديبي شيخ الحديث بجامعة جيري، والمفتي الأعظم فيض الله، والشيخ أحمد حسن مؤسس جامعة جيري، والشيخ قربان علي[2] شيخ الحديث بجامعة «برورا» وغيرهم كثيرون، وقد كان هؤلاء من أهم رجالات الإسلام في هذه الدولة، ونجوما وضاءة يهتدي بها الناس- الحكام والمحكومون- في ظلمات الحياة، وكانوا مباركين.

الشيخ المؤسس في ذمة الله تعالى

عندما اكتمل البناء، وانتهت المهمّة التي بعث من أجلها، حان وقت المغيب، وتلبية النداء الخالد، ففي عام ١٩٤٣ للميلاد بعد أن ظلّ ٤٤ عاما في رئاسة جامعة هاتهزاري، مرض الشيخ، وبعد فترةٍ يسيرةٍ انتقل إلى الرفيق الأعلى، ليوفى أجره من ربه جلّ جلاله، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان![3]

(١) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص٦٥

(٢) هو الشيخ قربان علي بن الشاه محمود، وُلد عام ١٩٠٦م في محافظة «كُميلّا»، درسَ خمس سنواتٍ في «دار العلوم برورا»، ثم دخلَ في جامعة هاتهزاري وتخرّج في الفضيلة، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في رحاب ديوبند، ودرسَ فيها عدّة سنواتٍ على الأساتذة الكبار، بعدما عادَ إلى الوطن تولّى منصب شيخ الحديث في جامعة «برورا»، وظلّ فيها يدرّس صحيح البخاري إلى آخر عهده بالدنيا، وكان له دورٌ كبيرٌ في الدعوة، والإصلاح، والردّ على الظلم والجور، والبدع والخرافات، داخل «كُميلّا» وخارجها، وكان يحيي الليل ويحافظ على التهجّد، ونالَ الخلافة من المحدث الكبير الشيخ الرباني مولانا سعيد أحمد، شيخ الحديث بجامعة هاتهزاري، وكان على صلة عميقة بجماعة الدعوة والتبليغ، وقد توفّي عام ١٩٧١م، وتولّى منصب شيخ الحديث في جامعة برورا، بعد وفاته، الشيخ الرباني العلامة دلاور حسين، خليفة مولانا حسين أحمد المدني. رحمة الله على الجميع.

(٣) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص١٧٩

مولانا منير الزمان الإسلام آبادي

(١٨٧٥- ١٩٥٠)

رائد الصحافة الإسلامية في البنغال، قائد حركة التحرير

طلوع الصبح الصادق في أفق البنغال

هذا الحديث عن فترة ظلم وظلام عاشها الشعب البنغالي المسلم حينا من الدهر، لما كانتْ الأمية سائدة طاغية، والجهالة فاشية مطبقة، وكانت ليلة دامسة طويلة مخيمة على منطقة البنغال، ولولا وعد الله بإتمام نوره لذهب الإسلام بعيدا، وغاب نوره عن أعين الناس، بما ضُرب حوله من حجب الجهل والظلام، والمؤامرات والدسائس، هنا بدأت تباشير الصباح تتجلى، وطلائع النهضة والعودة إلى الدرب تغمر الأركان الأربعة، فنهضَ في ذلك الظلام نورٌ كاد أن ينير هذه البقعة برمّتها.

لقد كان أوّل من فكّر في تأسيس جامعة عربية إسلامية في البنغال الشرقية، يوم كانتْ هذه المنطقة في أحطّ أدوار التاريخ، وكان أهلها لا يعرف الكتاتيب ولا المدارس الدينية، والمراكز العلمية الصغيرة، فضلا عن الكليات الشرعية المعاصرة، وفضلا عن الجامعات العربية الإسلامية.

و كان أوّل من رفعَ أذان النهضة الأدبية البنغالية الإسلامية في منطقة البنغال، وقام بدورٍ رياديّ في التأليف والتحرير، وفي الصحافة الإسلامية في هذه البقعة، من بيوت المسلمين، فأصدر المجلّات، وحرّر الجرائد والدوريات، وأشرف على الصحف، ونشر الكتب والمؤلفات، فذكّر المسلمين بجلال ماضيهم، وسموّ تاريخهم في الهند، وأنهضهم على عزّهم الراحل، ودورهم القيادي في هذه القارة، وأيقظَهم على أهميّة الحضارة والمدنية، وضرورة التسلّح بأسلحة العلوم العصرية، ودافعَ عن الدين شبهات النصرانية وعلائق الهندوسية، وكتبَ تاريخ المسلمين في الهند من أفق جديد، ومن ناحية جديدة، كانت فيها عزّة المسلمين

ومجدهم، ومكانتهم بين شعوب الهند، التي كانت مخفية مطمورة تحت أمواج طاغية من التهم والافتراءات، على أيدي المؤلفين الهندوس، والمؤرخين المتعصبين.

كما كان من طليعة القادة البارزين في حركات التحرير، وفارسا مجلّيا من فرسان الجهاد ضد الاحتلال، فجاهد جهد مؤمن صادق الإيمان، ودخلَ في السجن مرة بعد أخرى، حتى لما تأزمت الأمور، وزلزت الأقدام، واضطربت النفوس، وبلغت القلوب الحناجر، أبلى الشيخ فيها بلاء حسنا، واستعذب الآلام، وصدق النية مع الله تعالى، وأدّى الأمانة.

شخصية جامعة فذة

وفي الحقيقة لقد جمع هذا الإنسان شخصيات كثيرة في نفسه، ونذرَ حياتَه للدين والأمة منذ بدايته، وحمل لواء ذلك الإصلاح الذي رفعه الشيخ مولانا كرامت علي الجونبوري، وشيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي والشيخ العلامة شبلي النعماني، والعلماء الربانيون المخلصون من جانب، والشيخ السيد أحمد خان، والشيخ مولانا جمال الدين الأفغاني، من جانب آخر، ولذلك نراه يدعو الشعب إلى الصحافة واللغة، والقراءة والثقافة، إلا أنه مع الحذر التام، ومع الوعي الكامل، ومع الحفاظ على الهوية الإسلامية، والوقوف عند حدود الدين، لا كما فعله السير السيد أحمد خان وغيره من المعاصرين.[1]

هنا يتميّز إصلاحه عن إصلاح السيد أحمد خان، والنواب عبد اللطيف، والسيد أمير علي وغيرهم، وقد قضى حياته كلها من أجل تحقيق ذلك الإصلاح، وكان دائم القلق ومستمر الاضطراب لحال الأمة، وحاولَ الدفاع عنها بكل سبيل أُوتي، فقد خاضَ في الصحافة مرّة، ثم دخلَ في السياسة مرّة أخرى، كما أسس مؤسسات لنشر الإسلام، وأنشأ جمعيات لتوحيد الأمة والعلماء، وإعادة مجد الدين وسلطانه، وألف مؤلفات لتثقيف الشعب البنغالي المسلم، حتى خُلّد، وسُجل اسمه في تاريخ الإسلام، بمداد من نور وإيمان، إنه العالم الحكيم، والأديب البنغالي الكبير، والصحفيّ البارز الرائد، الشيخ مولانا منير الزمان الإسلام آبادي رَحِمَهُ اللهُ.

الميلاد والنشأة

وُلد مولانا الإسلام آبادي عام ١٨٧٥ للميلاد في «فتية» بمحافظة شيتاغونغ، في أسرة جليلة

(١) مولانا الإسلام آبادي، تحرير السيد مصطفى جمال، مطبوع المركز الإسلامي الثقافي بشيتاغونغ، ص٢٦

شريفة، واسعة النفوذ في المجتمع، فقد كانت أسرته تتحدّر من سلالة ملكية رفيعة، تصل إلى ملك البنغال المسلم السلطان نصير الدين نصرت شاه (١٥١٩م) ابن السلطان علاء الدين حسين شاه،[1] بدأ الدراسة الابتدائية في كتاب قريته، ثم سافرَ إلى البنغال الغربية، ودخلَ في المدرسة المحسنية الشهيرة التي عُرفت في التاريخ بمدرسة «هوغلي»، والتي كانت آنذاك أشهر المدارس في البنغال الغربية، يؤمها الطلاب والعلماء من أطراف الدولة وأنحائها، وقد أخرجت زمرة غفيرة من العلماء الأعلام أمثال الشيخ الصوفي فتح علي الويسي، والدكتور محمد شهيد الله وغيرهما.

آيات النبوغ بدأت تتجلى فيه

تخرّج منير الزمان من المدرسة المحسنية عام ١٨٩٥ للميلاد،[2] وهو على عتبة العشرين من عمره، وفي أثناء ذلك أتقن العربية والأردية والفارسية والإنجليزية، مع إتقان البنغالية، التي كانت مهجورةً في المجتمع المسلم، وفي المدارس والمراكز التعليمية الإسلامية في ذلك الوقت، رغم كونها اللغة الأم، وكانت الأردية والفارسية في مكانهما وتتمتع بمكانتهما، فتخلّف المجتمع البنغالي المسلم في حلبة اللغات والآداب، والصحافة والكتابة، والتاريخ والثقافة، التي كانت يوما من الأيام سمته وعنوانه، وشعاره ودثاره، بينما أصبح المجتمع الهندوسي فارسها المغوار، وقائد الموكب، وربّان السفينة، وصاحب المائدة، وأصبح المسلمون متطفّلين عليها، يبتلعون فتات ما يقدّمه الهندوس، ذاكم الرعاع الأوشاب الذين لم يقدموا لنا، منذ بداية التاريخ إلى يومنا هذا، إلا سمّا قاتلا، وموتا زؤاما.

كان الشابّ منير الزمان أبي النفس، وصاحب أنفة، وروح متوقدة، ونفس متوثبة، وصبر دائم، وإنسانا حرّا طليقا، طموحا، يعزف عن الوظائف الرسمية، والانطواء على الدائرة الضيّقة، ولا يتحمّل المثول أمام رئيس أو مدير، وكذلك لم يكن يرضى بطريقة عيش كثير من علماء البنغال الذين رضوا لأنفسهم طريقة الكسب والخمول والقعود، والذين كان بعضهم يتّجرون بالدين، ويوظّفونه لتحقيق مآرب مادية، ويؤثرون القروش على القلوب، والعملة على العبادة، ويأكلون على فتات الناس، ولم يكن فيهم إحساس بالعصر ومطالبه وضرورة الدين والدولة، بل كانوا في عمى عن أمور الدنيا وسياستها

(١) إلا أنه ذكر بعض المؤرخين بأنه لم يكن من نسل الملك نصرت شاه، وإنما كان من نسل قائد بارز من قادة جيوش الملك، انظر مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف شمس الزمان خان، ص١٣

(٢) مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف مشرف حسين خان، ص١١

وقيادتها، ولم يكونوا يعرفون التاريخ والجغرافيا،[١] ولذلك بعد إنهاء الدراسة، لما عادَ إلى مسقط رأسه، وتولّى التدريس في مدرسة دينية، لم يستمرّ فيها إلا فترةً يسيرةً، وأخذ طريقه إلى البنغال الغربية!

الريادة في عالم الصحف وقيادة النهضة الأدبية

ذهب منير الزمان إلى كلكتّا مرّة أخرى، التي كانت في ذلك الوقت عاصمة البنغال العلمية، وحاضرتها الأدبية، وملتقى الكتّاب والمؤلفين، ومحطّة أنظار الصحفيين الطموحين، ومظاهرات السياسيين، ونعرات الحركيين، المجاهدين ضد الاحتلال، إلا أن الشيخ أثناء إقامته في شيتاغونغ، وبجانب تدريسه، كتبَ مقالات كثيرة بالأردية والعربية، ونشرها في «دهلي»، و«لكناؤ» و«القاهرة»، وقد نشرتْ له مقالات كثيرةٌ في مجلة المنار، للسيد رشيد رضا، وجريدة الأهرام المصرية، في تلك الفترة.

وصلَ الإسلام آبادي إلى كلكتا عام ١٩٠٣ للميلاد، وبدأ يصدر جريدة أسبوعية باسم «السلطان» باللغة البنغالية،[٢] فلقيت رواجا عظيما وقبولا عاما، وبعد فترةٍ تطوّرت «السلطان الأسبوعية» إلى «السلطان اليومية»، وبدأ الشيخ يتولّى التحرير في مجلّات وصحف أخرى، بما فيها صحيفة «الإسلام»، التي كانت تصدرها «جمعية علماء الإسلام بآسام والبنغال».

ثم بدأ التحرير في صحيفة «الحبل المتين» في نسختها البنغالية عام ١٩١٢م، التي كانتْ رائدة في عالم الصحف والجرائد في ذلك العصر، وتصدر في لغات، تحت إشراف آغا معين الإسلام، تلميذ السيد جمال الدين الأفغاني، كما أصدر جريدة يومية باسم «الأمير»، إلا أنها توقّفت بعد فترة من عوز مالي، أما الشيخ منير الزمان فلم يتوقّف يوما من الأيام، لما جبله الله عليه من علوّ همة، وكبر نفس، وإباء وشمم، وصمود ومثابرة، وكل ذلك كان في عصر الانحطاط والتخلّف في موكب اللغة والأدب، والصحافة والإعلام، الذي كان مخيّما على المجتمع البنغالي المسلم، وكان يقول "لم يمض في التاريخ شعبٌ تطوّرَ وبلغَ قمة المجد والحضارة من دون الاهتمام باللغة الأم، فهي لغة العلم والمعرفة، والحضارة والثقافة، والتجارة والاقتصاد، والفكر والمدنية، وما دام الشعب البنغالي المسلم خلا من الاهتمام باللغة البنغالية وطوى عنها كشحا، ظلّ مفلسا في جميع مجالات الحياة، ومتخلفا في ركب التاريخ".[٣]

هنا برزَ نبوغه، وارتفع نجمه، واشتهر اسمه بين أوساط العلماء والمثقفين، والصحفيين، ورجال

---

(١) مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف شمس الزمان خان، ص٢٠

(٢) المرجع السابق، ص٥٨

(٣) مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف شمس الزمان خان، ص٣٢

السياسة والإعلام، وعُرف بأول محرّر مسلم في جريدة يومية تصدر باللغة البنغالية، وقام بدور بليغ في توعية المسلمين، والدفاع عن الدين، كما كان له دورٌ كبيرٌ في تأسيس «النادي الأدبي لمسلمي البنغال» عام ١٩١١م، وكان أمينه العام الأول الشيخ الدكتور محمد شهيد الله، وبهذا ظلّ رائدا في الصحافة البنغالية الإسلامية، وسيظلّ في مكانته هذه على امتداد التاريخ.

من الصحافة إلى السياسة

إذا كانت الصحافة تعدّ منذ قديم طريقا إلى السياسة، وإذا كان رجالها لا يملكون إلا أن يخوضوا غمار السياسة، عندما تجبرهم طبيعة العمل الصحفي على الاكتواء بنارها، والمسايرة لتطوّراتها ومستجدّاتها، والمعرفة التامّة المستمرّة للحقائق، فقد أصبح ذلك حقا في حياة الشيخ منير الزمان الإسلام آبادي، ثم رأى وطنَه الهند وقعت في براثن الاستعمار، وأدرك مدى الخطر الذي بدأت طلائعه في البنغال، ورأى النكبات التي حلت بالأمة، فمزّقت جسدها، ومعست ماضيها ومستقبلها، بعد هذا كله لم يكن منه إلا أن قام، وخاض غمار السياسة، وشاركَ في الحركات التحريرية، وجاهدَ ضدّ الاحتلال، وكان أمينا عاما لـ«جمعية علماء الهند بآسام والبنغال»، وشاركَ عام ١٩٠٦م في حزب المؤتمر الوطني الهندي، وقامَ بدورٍ قياديّ عظيم في حركات ضدّ «تقسيم البنغال»،[١] وفي «حركة الخلافة» على إثر الانقلاب الكمالي في تركيا وسقوط الخلافة الإسلامية، كما شاركَ في «حركة عدم التعاون» و«حركة العصيان المدني» ضد الاحتلال، تحت قيادة غاندي، حتى دخلَ في السجن معه ومع القادة السياسيين،

---

(١) «حركة تقسيم البنغال» هي حركة قادها المسلمون مطالبين بفصل شرق البنغال من غربها، وإنشاء «ولاية مسلمة جديدة» متكوّنة بالبنغال الشرقية وآسام، وقد أصبحت هذه الحركة ثورة عارمة مع الأيام، حتى خضع الإنجليز أمام مطالب الشعب المسلم وأخذوا القرار لتقسيم البنغال عام ١٩٠٥ للميلاد على أساس الدين، إلا أن الهندوس المتطرّفين ثاروا ضدّ هذا القرار، ورفضوا تقسيم البنغال، وتكوين ولاية جديدة للشعب المسلم، ولجؤوا في ذلك طرقا مسلحة وأساليب إرهابية، هنا شاركهم في هذه الحركة عددٌ من المسلمين والعلماء الأعلام هم الآخرون، وعلى رأسهم الشيخ مولانا محمد آكرم خان والشيخ منير الزمان الإسلام آبادي وغيرهما، وقد قام الشيخ إسلام آبادي بدور ريادي في حركات ضد تقسيم البنغال، في وجه معظم المسلمين والعلماء في البنغال الشرقية، فكان الشيخ يرى تقسيم البنغال أمرا فادحا لحق المسلمين، لأنه يؤدي قطع الصلة بين المسلمين في شرق البنغال وغربها، ويزيد مسلمي البنغال الغربية ضعفا وسوء حالة، وعرضة لهجوم الهندوس، ويزيد النار الحطب، فنهض وأدلى بدلوه، حتى خضع الإنجليز، وصدرَ مرسومٌ جديد عام ١٩١١م يلغي قرار تقسيم البنغال، ومن ثم ثارَ المسلمون، ورفعوا أصواتهم ضدّ هذا المرسوم الذي جاء تحقيقا لمطالب الهندوس، وإنكارا صريحا لمطالبهم، إلا أن الأمر كان قد قُضي، وجاءت هذه الحركات بدون جدوى، وقد سبّب هذا المرسوم شغبا كبيرا بينهم وبين المسلمين، وهكذا وقفَ الهندوس أمام المسلمين في كل مرحلة من مراحل التاريخ، ولا يزالون يقفون أمامهم، والموقف الذي وقفه الشيخ الإسلام آبادي في هذا المكان خلافا لمعظم العلماء إنما هو مجرّد موقف سياسي، وخلاف في منهج العمل، ولا يستحق بذلك الاتهام في دينه ونياته، انظر: مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف شمس الزمان خان، ص٦٠

إلا أنه بعد فترة دبّ الخلاف بينه وبين حركة غاندي، واتسعت الشقة، فغادرها إلى «كتلة التقدم الهندي» تحت قيادة القائد الهندوسي الكبير سوبهاس تشاندرا بوس، وكان له دورٌ قيادي في الجيش الوطني الهندي التابع للكتلة في تلك الفترة، حتى أعيد إلى السجن من جديد.

كان الهدف الأول والأخير من هذه التغيّرات في طريق الجهاد، والتقلبات في المنهج، والمشاركات في الأحزاب مع القادة الهندوس، كانت الهدف في كل ذلك، هو الإطاحة بالاحتلال الغاشم الذي عبرَ البلاد، وركب البحارَ، حتى وصلَ إلى شط المحيط الهندي، ومزّق الهند الهادئة كل ممزق، وأراد الكيد بالإسلام، والنيل من روحه وتعاليمه، ودبّر لطمس الحضارة الإسلامية فيها، ومحو رسالة محمد كلها، وإسقاط كل أثر يُعزى إليها، فلا بد من مقاومة الاحتلال، وتحرير الوطن من طغيان الاستعمار، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، مهما كلف ذلك من الثمن، وحمّل من تنائي الديار، ووعثاء السفر، ومخاطر الطريق.

إنتاج عبقريته وآثار قلمه

بجانب الصحافة والسياسة، والجهاد والقيادة، كان كاتبا مترسلا، سيال القلم، ومؤلفا قديرا، ومصحا واعيا، فأسلوبه يتميّز بالإشراق البياني، وجمال التعبير وسهولته، دون أن ينزل إلى دركة الابتذال والصحفية، وقد حمل الدواة والقلم من أول حياته، ليكون عونا على جهاده وإصلاحه، وسلاحا علميا قويًا حيثما لا يعمل سلاح الحديد والنحاس، فكان يكتب الكتب وينشر الصحف في وقت واحد، وكتب عام ١٩١٤م كتابه القيم الخالد «تاريخ الحضارة الإسلامية في الهند»، وهذا الكتاب دليل صدق على عقلية هذا الإنسان، وبعد نظره، واعتزازه بالحضارة الإسلامية، وحرارة قلبه لتوعية المسلمين على هذا التاريخ، واسترداد ذلك المجد التليد، وكذلك على مكانته في اللغات والآداب.(1)

ثم كتب سلسلةً طويلةً من الأسفار القيّمة، يبرز فيها دور المسلمين في حضارة العالم، وتطوير المدنية، وكشف العلوم والفنون، والتاريخ والجغرافيا، وعطايا الأعلام المسلمين في تراث البشر الخالد، ومن أبرز هذه الكتب ◊ إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا ◊ إسهامات المسلمين في علم الفلك ◊ الحرية والقرآن ◊ نساءٌ عظيماتٌ في الإسلام ◊ تاريخ دعوة الإسلام في الهند (١٩١٥) ◊ حياة الهندوس في ظلال الحكم الإسلامي ◊ سلطانُ تركيا (١٩١٨) ◊ القسطنطينية (١٩١٢) ◊ السلطان أورنغزيب

(١) تاريخ الأدب البنغالي (العصر المعاصر)، تأليف محمد عبد الحي، والسيد علي أحسن ص١٠٦

عالمغير ◊ حياة نظام الدين أولياء (١٩١٦) وغيرها، إلا أن معظم كتبه لم تُطبع في حياته، ولم يحتفظ بها من خلفه بعد وفاته، فضاعتْ كثيرٌ منها، ونرجو أن لا يضيع عند الله ثوابُها.

في كتابه «إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا» كتبَ في صفحة أخيرة سطورا يُنهي بها الكتاب، تجدر أن نذكرها هنا للقارئ، لكي يعرف جرأة قلمه، وجرح قلبه، وألم فؤاده، والحسرة الشديدة على ماضي الإسلام ومجد المسلمين، والعزّة التي ضيّعوها، والتشجيع على استردادها، كما يعرف سعة أفقه، ورحابة صدره، وترحيبه بكل شيء يخدم الدين، وينفع المسلمين، فكتب: "أيها القارئ الغالي! أما بكتْ روحك، ودمعتْ عينُك، عندما مررتَ بهذه الإنجازات، وبهذه الإسهامات التي قدّمها أجدادُك الأولون إلى عالم الجغرافيا؟ وقد أصبحنا الآن مفلسين فيه، ومتخلّفين عن الركب، وبدأْنا نأخذ علوم أجدادنا من غيرنا، ولسان حالنا يقول أسفا: هذه بضاعتنا رُدّتْ إلينا".

ثم كتبَ "ما دام جيلنا المسلم يهمل العلم والصناعة، ويزدري بالتاريخ والجغرافيا، ويتهاون في علم التجارة والزراعة، لن يحصل أي تغيير في وضعنا الحالي، فضلا عن الرقيّ، وفضلا عن الصعود في سلّم المعالي".

الريادة في الأعمال الإنسانية وخدمة الخلق

كان الشيخ الإسلام آبادي رجلا إنسانيا في صميمه، فلم يمنعه ما نال من دنيا عريضة ومكانة وزعامة من إخراج وقت كبير في العمل الإنساني، وخدمة الخلق، والأخذ بأيدي المحتاجين، والوقوف بجانب المساكين، فأنشأ مؤسسات، وفتح مراكز وجمعيات، لمساعدة المكروبين، وإنقاذ المسلمين من النصرانية والهندوسية، ومن أبرزها «الدعوة الإسلامية Islam Mission» التي أدت دورا فريدا في نشر الإسلام في بقاع البنغال، ومحاربة دعوات المنصرين ونعرات الهندوس، و«جمعية خادم الإنسان»، وأيضا «دارُ الأيتام الإسلامية» التي أنشأها بجوار مسجد «قدم مبارك» في شيتاغونغ، ولا تزال قائمة تعمل عملها، وتشهد على صلاح هذا الإنسان العظيم وتشكر دورَه،(1) كما سافرَ إلى بورما في شيخوخته، وأخذ بأيدي المسلمين المقهورين.

خلفه خلفٌ أضاعوا

هكذا عندما رفعه قلمه إلى الذروة، وأحله يراعه مكانا عليا في العلم والأدب، والفكر والفلسفة،

(١) المرجع السابق، ص١٠٦

وأكمل مهمّته التي جاءَ من أجلها، وأدى دورَه في إنهاض مجتمعه وإيقاظ أمته، وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٥٠م، وذهب إلى رفيقه الأعلى، وقد خلف وراءه مكتبة غنية عامرة، حافلة بنفائس الكتب في كل علم وفن، وثروات علمية، ومسودات قيمة، جعلت منه واحدا من أكبر المؤلفين في تاريخ المسلمين.

إلا أن جهوده كانت للأسف لتضيع بين الكسل والإهمال، والغفلة والجهالة، والخدعة والدسيسة، فورثه أناس ما كانوا صالحين لتسلُّم ميراثه، وحمل أمانته، وأداء رسالته، فلم يدركوا قيمته، ولم يقدروا مواهبه تقديرا صحيحا، ولم يزنوا عبقريته وزنا دقيقا، حتى ضاعتْ معظمها، وبقي القليل ليضيع قريبا.

لقد تركَ الشيخ الإسلام آبادي مسودات كثيرة، ثم سلّم صديقه الحكيم ألطاف الرحمن، وهو الإنسان الوحيد الذي نذرَ حياتَه للحفاظ على تراث الشيخ الإسلام آبادي، ١٤ مسودةً منها إلى «مجمع اللغة البنغالية» بداكا عام ١٩٥٨ م، ليقوم بطبعها ونشرها، لكنه خان الأمانة، ولم يقم بواجبه، وضيّع معظم هذه الثروات العلمية القيّمة، عمدا أو جهلا، ولم يطبع منها شيئا، وكانت فيها عدة كتب قيّمة، مثل ٥ دور المسلمين في حركة تحرير الهند (ثلاثة مجلدات) ٥ العلاقة العربية والهندية القديمة ٥ سيرة النبي ٥ عهود «برانا» و«الفيدات» (بحوث في القضايا الهندوسية) ٥ الإسلام والسياسة وغيرها، يا ليت أحدا نهضَ بجدّ ونشاطٍ، واجتهد لطبع هذه الكتب ونشرها في الأمة، عندما هي أحوج ما تكون إلى مثلها.

إنسان أصبح عنوان الوحدة

وقد سعى طوال حياته من أجل توحيد الأمة، وجمع شمل العلماء المنتسبين إلى مذاهب وتيارات، ومدارس الفكر واتجاهات، والوقوف بهم على منصة واحدة، فقد كان المسلمون في عصره أشتاتا، وكان العلماء – ولا يزالون – غارقين في بحر الجدل العقيم والمناظرات الساخنة التي لا تفتر، بين الديوبندية والسلفية، والحنفية وأهل الحديث، وكثيرا ما كانت هذه المناظرات تؤدي إلى رفع الأصوات، وانتفاخ الأوداج، وكادت تفتح باب شر عظيم، هكذا تبدد شمل بني الإسلام، وتمزّقت كلمتهم، وتفككت وحدتهم، وأصبح أمرهم شذر مذر، فنهض الشيخ الإسلام آبادي، ودعا الشيخ محمد أكرم خان الذي كان يناظر علماء المذاهب وخصوصا الشيخ روح الأمين البشيرهاتي الحنفي، كما دعا الشيخ عبد الله الباقي الذي عُرف في التاريخ بهجومه الشرس على المذاهب وخصوصا على الحنفية، كما دعا علماء الحنفية، دعا الجميع إلى ترك الجدال والاختلاف على الدين، وحثهم على تفهم الظروف، واختيار وسائل الإقناع والاقتناع، والمرونة والانفتاح، وأن يصبحوا جميعا أمة متجانسة الفكر، موحدة المذهب،

وصفا واحدا في وجه الأعداء كالبنيان المرصوص، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ولتحقيق هذا الحلم وضعَ أساس «جمعية علماء البنغال» عام ١٩١٣م، وكان لهذه الجمعية دورٌ كبيرٌ في مجالات شتى.[١]

مركز تنصيري يقوم في مكان جامعة عربية إسلامية!

تركَ الشيخ مساحةً كبيرةً من الأرض على شاطئ نهر «كرنافولي»، في المناطق الجبلية بشيتاغونغ، لتقوم عليه أول جامعة عربية إسلامية في هذه المنطقة، إلا أن حلمه ضاعَ بين مطامع الحكومة ودسائس الكنيسة من جانب، وغفلة العلماء من جانب آخر، فقد سمعنا أن هذه الأرض قد أخذها المنصرون، وبنوا فيها مركزا كبيرا لهم باسم «مريم نغر» (مدينة مريم)! بينما جاهدَ الرجل طوالَ حياته ضدّ التنصير والمنصّرين، ودعا غير المسلمين إلى الإسلام، وقام بدور ريادي في دعوة الأقوام الجبلية وهدايتهم، وأرسلَ دعاةً، وفتح مشاريع لنشر الإسلام بينهم، تحت راية جمعية «الدعوة الإسلامية» التي أسسها،[٢] ثم لما ذهب، ذهب كل شيء بذهابه، وظل أكثر العلماء مكبين على دراسة وتدريس العلوم العقلية، وكتب علم الكلام والمنطق والفلسفة، والتفنن في شرحها والتنقيب عن حقائقها ولطائفها، وظلت الفروع الفقهية والمسائل الضحلة قليلة الجدوى وأحيانا التافهة شغلهم الشاغل، حتى وجد المنصرون فرصة للانتقام من هذا الابن الأمين للإسلام، فجاؤوا ولسان حالهم يقول: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

إنها لوصمة عار على جبين الأمة المسلمة البنغالية في تاريخها، ودليل على إفلاسها، وتدهورها وانحطاطها، وأمارة سقوط معنوياتها، وفقد روحها وضميرها، وغفلتها عن مصيرها، وعلامة أن الإسلام هنا في إدبار وأن النصرانية في إقبال! مسلم ترك الأرض لتقوم فيها جامعة عربية إسلامية، فقامتْ فيها كنيسةٌ صليبيةٌ! بالله قولوا لي هل رأيتم شيئا أعجب من هذا في الدنيا؟ إن هذا لشيء عُجاب.

طبتَ حيا وميتا أيها المجاهد العظيم! رحمكَ الله ﷻ وشكر جهودك وجهادك، ورحم أمّتكَ العجوز الخوّارة التي أصبحت أقرب للموت منها للحياة!

كيف نظر إليه قومه؟

لقي الشيخ منير الزمان معارضات شديدة من قبل العلماء ورجال الدين في حياته، عندما جاءَ بدعوة جديدة، وبمنهج فريد يجمع بين الدين والدنيا، والعلم والمدنية، والأصالة والمعاصرة، وفاتحهم في

---

(١) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٣٨

(٢) مولانا الإسلام آبادي، تحرير السيد مصطفى جمال، مطبوع المركز الإسلامي الثقافي بشيتاغونغ، ص٣

ترك الكسل والنوم، ووجوب النهوض والعمل، فلقي التشجيع والقبول حينا، ولقي التثبيط والرفض أكثر الأحيان، لو توقّف عند هذا الحد لكان نعم ما فعل، وما أجدى ما قدّم! لكنه تقدّم، وبالغ في الانفتاح، وربما قد تجاوزَ، فتأثر بالسير السيد أحمد حامل لواء العصرانية، ورائد العقلانية، كما تأثر بجمال الدين الأفغاني، وسارَ على منهجهم في الدعوة والإصلاح، والتفكير والتجديد،[1] وكان -كما قيل- حامل لواء «القومية الهندية» ومؤمنا بجدارتها وضرورتها،[2] فنهض كثير من العلماء والمصلحين، وتتابع الهجوم عليه وعلى منهج دعوته وإصلاحه وسياسته، كما كان لصلته بالحركة السلفية دور في إحداث البون بينه وبين جمهور علماء هذه الدولة.[3]

شبلي البنغال

كان الشيخ الإسلام آبادي نحيفا ضامرا، خافت الصوت، ضعيف الجسد، وركيك العود، ذا قامة قد توحي إلى الخور والانكسار، إلا أن القلب الذي كان يحمله والروح التي يمتلكها كانت قويّة كقوة الملك، وثابتة مستقيمة كثبات الراسيات، ورحيمة بشعبه ووطنه، ولذلك أنجز في حياته ما عجز عنه ملايين البشر، وقد اشتهرَ في الناس بـ«شبلي البنغال»، إلا أن الشعب البنغالي لم يوفه من حقّه رغم الاعتراف منا بهناته- إن صح التعبير- كما وفّى الشعب الهندي الشيخ شبلي النعماني من حقّه.[4]

(١) مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف مشرف حسين خان، ١٢
(٢) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص ٣٤
(٣) Pakistan Quarterly (١٩٦٤) , Vol ١٢-١٣, p. ١٢٩
(٤) مولانا الإسلام آبادي، تحرير السيد مصطفى جمال، مطبوع المركز الإسلامي الثقافي بشيتاغونغ، ص٤٢

مولانا شاه نثار الدين أحمد

(١٨٧٢- ١٩٥٢)

المصلح الكبير، المجاهد القائد، مؤسس زاوية «سرسينا»

الدعوة الإصلاحية الواعية الحكيمة التي قامتْ على يد الشيخ المجاهد الحاج شريعت الله في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي، تحت وطأة الإنجليز وسطوتهم، وتغطرس الهندوس وجبروتهم، يوم كان الشعب البنغالي المسلم من أشد أمم الأرض إفلاسا في دينهم، وكذلك إفلاسا في دنياهم، فتقدم هذا المجاهد الجليل للإصلاح والتجديد، لتدارك أمرهم، ولتلافي ما فاتهم، ولإنهاضهم من كبوتهم، وأدى دورا لا يُنسى في تاريخ هذه الدولة، وامتدّت آثار دعوته وحركته إلى أرجائها، وبلغ حكمه من القوّة والسلطان شأوا كبيرا، فجاءَ انقلابٌ عظيم في دين الناس وعقيدتهم، وجاءتْ نقلةٌ كبيرةٌ إلى الخير والصلاح، وقد وصلَ مدّ هذه الدعوة إلى شطّ نهر «سندهيا» الذي يجري في غرب بريسال، المنطقة الجنوبية القريبة من خليج البنغال، حينما كان هذا الداعية المصلح يجوب في أقطار هذه الدولة، يدعو الناس إلى الله، ويعدّ الجيش للجهاد في سبيل الله، وفي تحرير دولة المسلمين من الظالمين والمحتلّين، وهنا حصلتْ معجزة، واشتعلَ نبراسٌ آخر بهذا النبراس المنير، واستمدّ من نوره، ثم أنار البقعة الجنوبية للبنغال بكاملها ولا يزال يُنيرها، هو العالم الرباني، والمربّي المصلح، والمرشد المجاهد، ومن أبرز خلفاء الشيخ مولانا أبي بكر الصديقي مؤسس زاوية فرفرا، العلامة الصوفي شاه نثار الدين أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، شيخ زاوية «سرسينا» ومؤسسها.

الميلاد والنشأة

وُلد نثار الدين في نهاية القرن التاسع عشر عام ١٨٧٢ للميلاد،[1] في بيت مسلم شريف، يوم

(١) المرشد نثار الدين أحمد، جمعه الشيخ محمد رفيق الله النثارآبادي، ص٧٥

كانت بيوت الإسلام ذات الصلاح والتقوى والعزّ والكرامة، والمحافظة على روح الدين والثقافة الإسلامية الغرّاء البعيدة من تأثير الثقافة الهندوسية المستحكمة في البنغال، والمتغلغلة في بيوت المسلمين وحياة الشعب البنغالي المسلم، قليلةً تعدّ على الأصابع، وُلد الشيخ في تلك الفترة الدقيقة من التاريخ في أسرة دينية علمية، أسرة تضع الدعوة إلى الإسلام وإصلاح الأمة وتزكية النفس والعمل بالشريعة نصب عينيها في جميع مراحل الحياة، كما وُلد لأب صالح الشيخ المنشئ صدر الدين، والجدّ داعية ومصلح كبير الشيخ المنشئ ظهير الدين، فقد كان جدّه مجاهدا من عباقرة المجاهدين، له مكانة في قلوب الناس وكلمة مسموعة بين الشعب، وكان تلميذا للشيخ الحاج شريعت الله، عندما وصلَ الشيخ إلى هذه المنطقة في جولاته الدعوية والإصلاحية الشاملة لـ«بريسال» والمنطقة الجنوبية لبلاد البنغال آنذاك، فلقيه المنشئ وبايعَ على الإصلاح والجهاد، وبدأ يعمل وفق منهج «الحركة الفرائضية»، وأسّس زاوية على شاطئ «سندهيا» في «سروب كاتي» من منطقة «بريسال»، اشتهرتْ في التاريخ بـ «خانقاه سرسينا».

عوامل تكوين عقليته الأولى

وُلد الطفل نثار الدين ونشأ في بيت توارث أهله الورع والتقوى والدعوة والإصلاح والعمل في سبيل الدين وخدمة الأمة، أبا عن جدّ، وكان أوّل نافذة ينظر بها إلى هذه الدنيا، وعرفَ القيم الفاضلة، والمقاييس الخلقية التي كانت تتحكم في حياة آبائه وأجداده، كما عرف ثروة الإيمان التي كانوا يتفانون في المحافظة عليها والنضال عنها، وسمع أمجاد الآباء ومآثرهم الخالدة، فكان كل ذلك في ذاكرته كالنقش في الحجر، وكان لهذه العناصر القوية فضلٌ كبيرٌ على تكوين عقليته وبناء شخصيته، وتحديد مصيره، بدأ الدراسة في كتّاب قريته، وتربّى في بيته تربية دينية خالصة، وعاشَ في محيط روحي، فنشأ متورّعا وصالحا، ولطيفا وديعا منذ طفولته، ومحافظا على الصلوات والعبادات، وبعيدا عن مرح الطفولة وطيشها، وخفتها ورعونتها.

في رحاب العلم والمعرفة

لما بلغَ الثاني عشر من عمره أراد والده المنشئ صدر الدين السفر إلى بيت الله لأداء مناسك الحج، يوم كانت الرحلة عويصة، وكانت الطرق محفوفةً بالأخطار والمهالك والموبقات، وكان السفر إليها شبيها بالمجازفة والمخاطرة، حتى ظهرَت الدعوة إلى إسقاطها عن مسلمي هذه المنطقة، وعدم وجوبها عليهم، إلى أن تتمهدّ الطرق وتتوفّر المصالح والمرافق، إلا أن المسلمين الخلّص الذين دخلَ الإيمان في

قلوبهم واختلطَ حب الحرمين بلحومهم ودمائهم، كانوا مستعدين لتضحية كل ما يملكونه من نفس ونفيس في سبيل الدين، وإحياء فريضة من فرائض الله، وأهم شعيرة من شعائر الدين ودعائمه التي بُني الإسلام عليها، فخرجَ والدُه، إلا أنه قبل الخروج زوَّجَ ابنَه المراهق، وشكرَ الله على إتمام هذه المسؤولية، وخرجَ قرير العين ومطمئن البال، وراضيا بقضاء الله وقدره، خرجَ إلى غير عودة، فأدّى مناسك الحجّ، وهناك وافاه الأجل المحتوم في الحرم، وانتقل إلى جوار ربّه.

ثم نشأ الشيخ تحت إشراف جدّه، واستمرّ في الدراسة، وتركَ أمّه وزوجته، وذهبَ إلى محافظة «مداريبور» ودخل في المدرسة الإسلامية، لأن محافظة «بريسال» لم تكن فيها مدرسةٌ دينية آنذاك، أكملَ المتوسّطة في «مداريبور»، ثم دخلَ في المدرسة الحمادية بداكا العاصمة، وبعد فترةٍ ذهبَ إلى البنغال الغربية والتحقَ بالمدرسة العالية بكلكتا، إلا أنه لم يجد القرار في رحاب المدرسة العالية، فذهبَ إلى محافظة «هوغلي» بالبنغال الغربية ودخلَ في مدرسة هوغلي الشهيرة، وأكملَ فيها الدراسات العليا.(١)

مع الشيخ أبي بكر الصديقي الفرفروي

أثناء دراسته في مدرسة «هوغلي» سمع عن المرشد الكبير الشيخ أبي بكر الصديقي، مؤسس زاوية فرفرا في محافظة هوغلي بالبنغال الغربية، وسمع عن جهوده في الدعوة والإصلاح، وجهاده في التحرير والسياسة، ومكانته في التقوى والصلاح، فلقيه وبايعَه على التزكية والسلوك عام ١٨٩٥ للميلاد، وبدأ يجتهد في العلم والعمل حتى نالَ منه الخلافة والإجازة، واستعدّ للنزول في الساحة.(٢)

إنشاء زاوية سرسينا

عادَ الشابّ نثار الدين إلى الوطن وقلبه ينبض بالعلم والمعرفة، ويتحرّق حسرةً وكمدا على أوضاع الأمة المسلمة، عادَ إلى مسقط رأسه قرية «سرسينا»، ففتحَ كتّابا صغيرا في بيت متواضع مصنوع من الخشب، بثلاثين طالبا وبثلاثة من المعلمين، وهذا الكتّاب الصغير كان نواة جامعة كبيرة، ومعقل حصين متين للعلم والمعرفة، ونشر ضياء السنّة في ظلام هذه المنطقة، ومصدر انقلاب ديني شامل، اشتهرتْ بمدرسة «دار السنّة العالية» بـ«سرسينا»، وبنى بجنب الكتّاب زاويةً يجتمع فيها المسلمون، فيعظهم وينصحهم، ويزوّدهم بالعلم والمعرفة والإيمان واليقين، حتى لقيتْ دعوته قبولا عاما، وعلتْ

(١) المرجع السابق، ص٣١

(٢) المرشد نثار الدين أحمد، جمعه الشيخ محمد رفيق الله النثارآبادي، ص١٣

شهرته، وشاعَ بين الناس اسم «خانقاه سرسينا»، وبدأ الناس يقبلون عليها من كل مكان، وزادَ عدد أتباعه، حتى جعلَ اجتماعا عامًا ينعقد مرتّين في السنة، وحدّد لهما أياما، وبه خرجتْ دعوته من حدود «سرسينا»، وبدأ الشيخ يتنقّل في أرجاء المناطق الجنوبية للبنغال الشرقية ينشئ المساجد، ويفتح الكتاتيب، ويؤسس المدارس، ويدعو ويصلح، ويحلّ المشكلات، ويفصل بين الناس.

مدرسة دار السنة ودورها في التعليم والتجديد

المدرسة التي وضعَ قواعدها المرشد العظيم الشيخ نثار الدين أحمد بلغتْ مع الأيام قمّة مجدها وأوج عزّها وكمالها، فقد أحضر فيها الشيخ كوكبة منيرة من المعلمين ورجال التربية الذين تخرّجوا من أكبر مراكز علمية وجامعات دينية في شبه القارة الهندية، مثل جامعة دار العلوم ديوبند والمدرسة العالية بكلكتا، على اختلاف الفرق بين المنهجين، والبرزخ بين البحرين، فإن الشيخ المرشد بحكم بعد نظره وسعة أفقه وسلامة صدره جمع بين الحسنيين، ودعا الأساتذة من كلا الطرفين، فأرسل رسالةً إلى جامعة ديوبند، وجاء الشيخ المحدث محمد نياز مخدوم الخوتاني التركستاني، والشيخ المحدث عبد الستار البيهاري، وعهدَ برئاستها إلى الشيخ مولانا تجمّل حسين[1] ليكون أول رئيس لها.

كانت مدرسة دار السنّة بـ«سرسينا» تعدّ أزهر البنغال آنذاك، وخرّجتْ جيشا عرمرما من الدعاة والمصلحين والأئمة والقادة، الذين خدموا الإسلام في مناطق جنوب بنغلاديش بوجه خاص، وفي البلد كلّه بوجه عام، وقد لعبتْ هذه المدرسة دورا فعّالا قياديا بين مدارس هذه البلاد، وسط المراحل الدقيقة الحرجة لتاريخ شبه القارة الهندية، عندما كانت حركة باكستان على قدم وساق، فكانت هي ساحة الجهاد وميدان التدريب، وقاعة المؤتمرات ومعسكر المجاهدين، ثم قامتْ آلاف المدارس والكتاتيب على نهجها قد يبلغ عددها إلى ٤٥٠ مدرسة وكتّابا،[2] وأصبحتْ لها هذه المدرسة منارة الهدى تستمدّ من نورها وفيوضها، وبالجملة أصبحت "دار السنة" مدرسة فكرية شاملة أكثر من مركز تعليمي يقتصر على

(١) إنه الشيخ مولانا تجمل حسين بن المولوي رمضان علي، أول رئيس لمدرسة دار السنّة بسرسينا، وُلد عام ١٩٠٨م في محافظة «فيروزبور»، درسَ الابتدائية في كتاب قريته، ثم درسَ في المدرسة العالية بكلكتا، وتخرج في مرحلة «الكامل» عام ١٩٣٢م، ونال الوسام الذهبي، ولقّب بـ«ممتاز الفقهاء»، بايع الشيخ شاه أبا بكر الصديقي مرشد «فرفرا»، ثم أنشأ صلة بالشيخ مولانا نثار الدين أحمد وبايع على يده، حتى نالَ منه الخلافة، وفي عام ١٩٤٣م اختاره الشيخ نثار الدين أحمد رئيسا للمدرسة، فكان أوّل رئيسها، كما أخرج وقتا كبيرا للتأليف والكتابة، فكتب كتبا قيمة كثيرة، ومن أبرزها «جواهر الفقه» الذي دخل في مقرّر المدارس الدينية منذ فترة طويلة، وكان ركنا ركينا في «جمعية حزب الله» التي تأسست على يد مرشده الشيخ نثار الدين أحمد، كما له دورٌ كبير في الدعوة والإصلاح، وكان متواضعا وليّن الجانب، وصاحب وجه بشوش دائما، وقد توفي عام ١٩٧٩م.

(٢) أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية ببنغلاديش ص٣٢٢

تدريس الكتب ونقل بضاعة العلم، كابرا عن كابر وأبا عن جد، ومن جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى طبقة، وهذه كلها تثبت سلامة طبيعتها وخصوبتها، وقدرتها على إنتاج العبقريات وصنع الشخصيات.

بصماته في الإصلاح

أنشأ الشيخ نثار الدين تحت مظلتها كثيرا من المؤسسات الخيرية، وفتح مستشفيات، وأسس جمعيات داخل البنغال وخارجها، تأتي على رأسها «حزب الله جمعية المجاهدين»، مع تلميذه الوفي البار العلامة عزيز الرحمن النثارآبادي، قامتْ بدورٍ بليغ منذ إنشائها ولا تزال تؤدّي دورَها، وكذلك «الصندوق الخيري» الذي فتحه في مكّة المكرّمة لمساعدة الحجاج الوافدين من البنغال، و«دار الضيافة النثارية» التي بناها في المدينة المنورة، كما أنشأ «صندوق حماية الإسلام» لإعادة تأهيل المهتدين ومساعدتهم، والأخذ بأيديهم بعد قبولهم الإسلام عندما يطردون من بيوتهم ويحرمون من ميراثهم، كما أنشأ «مجلس إحياء السنّة» لمساعدة الطلاب وتوجيههم، وتربيتهم على منهج السلف الصالح البعيد عن الشوائب، وأنشأ مراكز للتدريب المهنيّ.[1]

وكان له جهدٌ كبير مستميت في إعادة اعتبار صلاة الجمعة في منطقته، التي ظلّت مهجورة منذ أيام الحاج شريعت الله، بحجة اجتهاده أن الجمعة لا تصح في مناطق البنغال! وقد جاهد ضده مولانا كرامت علي الجونبوري، ثم جاءَ الشيخ نثار الدين، وجادلَ وجاهدَ، وأبلى بلاء حسنا، حتى تاب الناس، وتأسست الجوامع، وهبوا يؤدون الجمع بكل إيمان وحماسٍ.[2]

بين الزاوية والسياسة... والجهاد والتزكية

لم يكن الشيخ نثار الدين مرشدا صوفيا ينطوي على نفسه وفي داخل زاويته، ويعيش بمعزل عن العالم، يصف للمسلمين دواءً وهو لا يعرف حقيقة دائهم ومصدر عللهم، وكيفية معالجتها والوصول إلى الشفاء العاجل، بل كان فارسا شجاعا من فرسان السياسة، والجهاد ضد الطواغيت، وتحديد مصير الشعب المسلم وتقرير مستقبله، نتيجة علو الهمّة وتنوّع الثقافة، ودقّة الملاحظة، والتفكّر في الظروف والمستجدّات، ومراقبة تطور الأحداث في المجتمع، من أجل ذلك عندما كان الاحتلال البريطاني للهند في سرير الاحتضار وعلى شفا جرف هار، وظهرتْ النعرات المتناقضة والدعوات المتنافرة، ونهضت

(١) ينظر للتفصيل تاريخ زاوية سرسينا للأستاذ محمد إسماعيل حسين ٣-١٢، وينظر كذلك في كتاب المرشد نثار الدين أحمد، جمعه الشيخ محمد رفيق الله النثارآبادي، ص١٨

(٢) ترجمة شاه نثار الدين أحمد والشيخ شريف محمد عبد القادر، تأليف محمودة فردوسية القادرية، ص٤٢ و٤٣

معسكراتٌ تعتقد بوحدة الهند وتركها على حالها، ومعسكراتٌ تؤيّد فكرة دولة جديدة للمسلمين يؤدون فيها شعائرهم بكل حرية، ويقيمون صلاتهم، ويرفعون أصواتهم بالأذان والإقامة والذكر والتسبيح، ويعبدون ربهم أينما وكيفما يشاؤون، لا يقف في طريقهم بقرٌ ولا حجرٌ ولا خشب، هنا ظهرتْ جماعةٌ كبيرةٌ من الرجال الأشداء، ذوي صلابة وعزم، ومضاء وحزم، يُقدمون للعظائم ويصمدون للشدائد، والعلماء البارزين ونوابغ المؤلفين، والشيوخ الأجلاء والمربّين من أهل القلوب، ورجال الدعوة والفكر والإصلاح، الذين لهم أتباع وآذان صاغية، ورأوا أنه لا ينبغي للمسلمين أن يشاركوا في تثبيت الدولة الكافرة وتوطيد أركان حكمها، ودعوا الناس إلى تأييد دولة جديدة، إلى إقامة باكستان، حتى تكوّنت «جمعية علماء الإسلام»، وقد شهد لنا التاريخ أنه لولا هؤلاء العلماء والمشايخ، ولولا دعوتهم إلى إقامة دولة إسلامية وتوعيتهم للشعب المسلم في البنغال، لما كانتْ هناك باكستان، ومن ثمّ لما كانتْ هناك بنغلاديش في خريطة العالم، لكن هذا الشعب نسّاءٌ، فنسوا هذا التاريخ وصنّاعه، ونسوا بناة هذه الدولة ومستقبلها، بينما عظّموا وخلّدوا من جاؤوا بعدَهم، وتطفّلوا على موائدهم، وأكملوا البناء الذي وضعَ العلماء والشيوخ أول لبنته.

منطقة سلهت لن تنساه

كان الشيخ أبو بكر الصديقي شيخ فرفرا من أشدّ الدعاة نشاطا وتأييدا لفكرة إنشاء باكستان، فتبعه أتباعه، وسارَ الشيخ نثار الدين أحمد على نهجه، وهو من صفوة تلاميذه وأحب الناس أليه، فبدأ يجتهد ويجاهد، ويدعو الناس إلى تأييد إنشاء باكستان والتصويت لصالحها، والخروج في الشوارع والميادين مطالبين بها، وتولى رئاسة حركة «جمعية علماء الإسلام» التي كانت تؤيد فكرة إنشاء باكستان عام ١٩٥٠ للميلاد،[١] حتى عندما رأى عوام الناس في منطقة «سلهت» إمعة، ومتذبذبين بين الطرفين، أرسلَ إليهم جماعةً كبيرة من أتباعه بقيادة نجله الأكبر الشيخ أبي جعفر محمد صالح، لكي يدعوا الناس إلى تأييد فكرة باكستان، ويبيّنوا لهم حسن ثمارها ونتاجها، ويحذروهم من عواقب البقاء مع الهند.[٢]

---

(١) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦)

(٢) تاريخ زاوية سرسينا: تأليف الحاج محمد إسماعيل حسين ص١٢

الهدف هو الدين وليس الكرسي

هذا الجهاد الدؤوب المستمرّ في ميدان السياسة الذي قضى فيه الشيخ نثار الدين فترةً كبيرة من حياته، واستنفد سنوات قيمة عامرة من عمره، فخاض غمارها واكتوى بنارها وأوارها، لم يكن كل ذلك لهدف سياسيّ بحت، ولحاجة في نفس يعقوب يريد قضاءَها، بل الدين هو الذي كان محرّكه ودافعه، والمصالح الدينية للمسلمين هي التي كانت هدفه الأول وغاياته الأخيرة، ويتجلى ذلك من خلال رسالةٍ له أرسلها إلى محمد علي جناح المعروف بالقائد الأعظم، كتبَ فيها الشيخ: «من المؤسف الشديد أن الرابطة المسلمة لم تنجح في توعية الناس على الإيمان والدين مثل توعيتهم على السياسة والدنيا، فاستيقظ الناس على أساس السياسة أكثر مما استيقظوا على أساس الآخرة، ومن أجل ذلك رغم أنهم يكررون كلمة "باكستان" على لسانهم ليلا ونهارا، إلا أنهم لا يستوعبون قيمة هذه الكلمة، ولن يستوعبوها أبدا حتى تأتيهم فكرة باكستان مع الدين والإيمان، ويُعرض عليهم ثمارها في الأخلاق والمعنويات والثقافة والحضارة»، وقد كان لهذه الرسالة أثرٌ كبيرٌ في محمد علي جناح وأخذه لاستراتيجية جديدة لعرض فكرة باكستان على عوام المسلمين، فقد استغل إلهامات هذه الرسالة، واستثمر فحواها لصالح «الرابطة» دون صالح الأمة.[١]

آثاره في ميدان التأليف

مع التفرّغ للدعوة والإصلاح والتدريس والتأسيس والحركة والسياسة، أخرجَ وقتا كبيرا للكتابة، وتأليف الكتب والرسائل، فكتب مؤلفات ونشرها، ومن أبرزها ◊ طريق الإسلام، في أربعة عشر مجلدا، الذي فصّل فيه المسائل والقضايا اليومية لحياة المسلم، ليكون ذلك نبراسا في طريقهم إلى الله، وقد نال هذا الكتاب قبولا عاما وانتشارا كبيرا ◊ الفتاوى الصديقية ◊ تعليم المعرفة ◊ المسائل الأربع ◊ المرأة والحجاب ◊ اللحية والتدخين وغيرها،[٢] كما أصدر دورية إسلامية باسم «التبليغ».

هكذا كانت صلته بربه

كان عالما ربانيا، وشيخا تقيا، ومصلحا عظيما، حافظَ على السنن والمستحبات طيلة الحياة فضلا عن الواجبات، وكان يتتبع السنن في تدريسه وتأليفه، ودعوته وإصلاحه، وكلماته ومواعظه، وسلوكه

---

(١) دور العلماء في حركة التحرير: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص٧١

(٢) أعلامنا الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش ص٢٠٠٨

وأخلاقه، إلا أنه عندما كان يذكر الله ويؤدي الأوراد، تعتريه حالات، وتارة يصيح، ويسقط مغشيا عليه![١]

وكانت حياته قصّة غريبة في الزهد والتقشّف، والتضحية والفداء، والقناعة بالميسور، وكانت عنده الدنيا ومن عليها في جانب الله أهون من ذرة في الفضاء، فوقف جميع ما كان لديه من المال والعقار على المدرسة، وترك الدنيا وهو لا يملك منها شيئا.

زاوية سرسينا بعد وفاته

إلا إذا كان التدهور في سنّة الله الثابتة في الكون، وحقيقة مرّة في حياة البشر وتاريخ الحضارة، فلا غرو أن تعتري هذه السنّة على هذه المدرسة الدعوية والإصلاحية والفكرية التي تركها الشيخ المرشد، فعلى مر الأيام جاء في زاوية سرسينا أناس لم يكونوا في مكانته من العلم والمعرفة، والفقه والدراية، والإلمام الكامل بالنصوص والشريعة، والورع والتقوى، والعرفان والإصلاح،[٢] فجاؤوا بأشياء كان يحذر منها، واختلقوا سننا وعادات كان يستنكرها، مع أن لهم أيضا دورا في إحياء السنة وإماتة البدعة، وبثّ العلوم الدينية، وبناء الأجيال المسلمة المثقفة، دورا مشكورا، وكان الشيخ يكرّر دائما كلمته المشهورة: "لو قيل إن أحكام الدين هي الشريعة وتطبيقها يسمّى الطريقة، فالطريقة لن تقوم بدون الشريعة، ولن تصلح الثانية إلا بالأولى".

---

(١) ترجمة الشاه نثار الدين أحمد والشيخ شريف محمد عبد القادر، تأليف محمودة فردوسية القادرية، ص٦٣

(٢) خلفه بعد وفاته في زاوية سرسينا نجله الشيخ شاه أبو جعفر محمد صالح، فكان خير خلف لخير سلف، وقد وُلد عام ١٩١٥م ونشأ في ظل أبيه، على يده تربيةً روحانية مباشرةً، ثم درسَ في مدرسة «دار السنّة»، وعندما أنهى دراستَه في سرسينا سافرَ إلى الهند، ودخلَ في جامعة مظاهر العلوم «سهارنبور»، وأخذ العلم على أيدي الشيوخ الربانيين الكبار، أمثال شيخ الحديث زكريا الكاندهلوي، والشيخ عبد الرحمن الكاملبوري، خليفة الشيخ أشرف علي التهانوي، والشيخ العلامة أسد الله وغيرهم، ثم قضى فترةً يسيرةً في رحاب دار العلوم ديوبند، وفي ظل مولانا حسين أحمد المدني، فاستفاد منه في العلم والسلوك، والروح للجهاد، ثم عاد إلى وطنه وبايع والده الشيخ نثار الدين أحمد، واجتهدَ في التزكية، وكان له موقف خاص من حرب تحرير بنغلاديش عام ١٩٧١م، فكان لا يرى الانفصال، ويرى وحدة الأمة المسلمة في باكستان بجناحيها، إلا أن التهم التي وُجّهت إليه لا يلائم إنسانا عاديا، فضلا عن عالم شرعي ومرشد صوفي، ومرب جليل، فعانى معانات، ودخل في السجن، وقد نالَ «جائزة التحرير» عام ١٩٨٠م لدوره في التعليم، وتوفي الشيخ عام ١٩٩٠م، وخلفه في زاوية سرسينا الشيخ شاه محمد محب الله.

مولانا أحمد حسن

(١٨٨٢- ١٩٦٧)

العالم الرباني، المصلح الكبير، مؤسس جامعة جيري

البيت الذي رفعَ قواعدَه الشيخ المصلح حبيب الله القرشي وأصحابه في هاتهزاري، وسمّوه «معين الإسلام»، بارك الله في هذا البيت وتقبّل منهم قبولا حسنا، وجعله منارة الرشد والهدى في هذه البقعة المظلمة، فأزال بها الظلامَ، ونشرَ بها نور العقيدة الصحيحة، والعلوم الشرعية النافعة، النابعة من معينها الذي لا ينضب، وأصلح بها المجتمع، ورفعَ شأنها في الدنيا، ونفعَ بها أمّة كبيرة، فجاء إليها الناس العطشى من كل مكان، ليأخذوا قبسا من هذه النار، وليستمدوا نورا من هذه المشكاة، حتى انتشر انتشارا هائلا، وكبر هذا الموكب المبارك، وتتابعت هذه السلسلة النورانية، وامتدّ هذا الأسطول التاريخي، وقامت منارات، وأُنشئت بيوتٌ ومراكز علمية كثيرة في أرجاء مختلفة من الدولة، وقد كان بطلنا في هذه القصّة، المصلح العظيم، وبركة العصر، ومجاهد الإسلام، الشيخ أحمد حسن رَحِمَهُ اللهُ مؤسس البيت الثاني، المعروف باسم الجامعة العربية الإسلامية بـ«جيري»، أقدم مركز علمي في هذه البقعة بعد جامعة هاتهزاري.

الميلاد والنشأة

ولد أحمد حسن عام ١٨٨٢ للميلاد في قرية «جيري» التابعة لمحافظة شيتاغونغ، في أسرة مسلمة شريفة، لوالده الشيخ وصي الرحمن الذي كان معروفا بفضله وثروته، وكان ذا جاه ومكانة رفيعة بين الناس، وُلد الشيخ ليكون وحيدا لأبيه وأمه، وقطعةً حية من قلبهما، فترعرعَ في كنفهما، وبين نفحات إيمانهما، وبدأ الدراسة على مرأى ومسمع منهما، في رحاب البيت، وعلى يد خاله الشيخ رفيق الله

الذي كان جامعا بين الثقافتين، الشرعية والمدنية، وملتقى البحرين، وكان يجيد اللغات، من بينها العربية والفارسية والأردية والبنغالية والإنجليزية، جاءَ به والده في بيته، ليدرّس وحيدَه، وليربّيه تربية شاملة، وليثقّفه بثقافاته الثرية، وكان يؤمّ الناس في الصلاة، فدرسَ الطفل أحمد عنده القرآن، ومبادئ العربية والأردية والفارسية، ودرسَ جزءا من البنغالية والإنجليزية، وقد شبّ عن الطوق، وأنهى المراحل الأولى من الدراسة في بيته، فكان بحاجة أن يخرج إلى العالم، ويتعدّى حدودَ البيت، لكن إلى أين يتّجه؟

كانت البنغال الشرقية آنذاك خاليةً خاويةً، ولم تكن فيها مدرسة أو معهد، المراكز العلمية التي أنارتْ هذه البقاع في القرون الوسطى، والتي استمرّت تتنوّر وتشّع النور، اندرستْ في عهد الإنجليز، وانغلقتْ أبوابها، واختفتْ أنوارها، وكانت جامعة هاتهزاري لم تبرز إلى الوجود بعد، فكانت «المدرسة المحسنية» التي أُسست هي وأخواتها على يد حاتم البنغال، الحاج محمد محسن، ملجأ وحيدا للطلاب الأذكياء أمثاله، وكانت تدرّس فيها العلوم الدينية والمعاصرة، واللغات والآداب، والرياضيات والفنون.[1]

من المدرسة المحسنية إلى رحاب هاتهزاري

دخلَ الفتى في المدرسة المحسنية، وبه دخلَ في عالم لم يكن على ميعاد منه، في عالم غير عالمه، وفي بيئة غير بيئته التي نشأ فيها، فقد نشأ على الديانة والإنابة، والورع والتقوى، والصلاة والعبادة، والالتزام بزيّ العلماء والصالحين، والبعد عن الرقص والطبول، والغناء والمعازف، أما الآن فدخلَ في محيطٍ لا يبالي بالدين والورع، ووسطَ زملاء ليس لهم من الدين نصيبٌ إلا كنصيب الفقراء في أموال الرأسماليين، الشحاح المقترين، فاشتهر بين الزملاء، وكانوا يلقّبونه بـ"الصوفي"، وقد ينظرون إليه شزرا.

هكذا مضى ثلاثة أعوام، وقد بدأ الشاب أحمد يكره محيط «المدرسة المحسنية» ويتبرّم منها، ويبحث عن بديل لها، وكان ذلك عام ١٣١٨ للهجرة، وقد قامتْ جامعة هاتهزاري منذ سنة وبدأ نورُها ينتشر في الآفاق، حتى طرقتْ مسامع الشابّ أحمد، فكانت بشارة كبرى في حياته، ورأى فيها تحقيق أحلامه، وبناء مستقبله، كان في شوق زائد إليها، وينتظرها بفارغ الصبر، فسلّم على المدرسة المحسنية سلام الوداع، وأخذ طريقَه إلى هاتهزاري.

هنا التقى الشابّ أحمد بقادة المجاهدين وكبار المصلحين، الذين رفعوا قواعد أول معقل ديني وإصلاحي في هذه الديار، فكان نواة المراكز العلمية، ومقّر الجهاد والإصلاح، وأم المدارس، التقى

(١) انظر مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص١٨٤

بالكواكب الدرّية في الدعوة والتربية، وفي طليعتهم المجاهد العظيم الشيخ حبيب الله القرشي، والشيخ سعيد أحمد، والشيخ عزيز الرحمن الصوفي، والشيخ عبد الحميد، والشيخ ضمير الدين رَحِمَهُمُ اللهُ،[1] فأخذ منهم العلم، واستفادَ منهم الكثير، وأنارَ الروح والضمير، وقد كان الشاب أحمد يملك ذكاء نادرا، وقلبا زكيا، وصلة قويّة مع الله، الأمر الذي قرّبه إلى هؤلاء الأعلام، وجعل له مكانة رفيعة في قلوبهم، ونموذجا رائعا لطالب العلم المثالي، وقد كان من أصفى تلامذة الشيخ حبيب الله، وعلى صلة وطيدة معه، يشقّ مسافةً كبيرة ليصلّي خلفه ويتكلم معه بعد الصلاة ويستفيد.

تحت ظل الدوحة الباسقة، مولانا التهانوي

بينما كان الشيخ يتفرّغ للدراسة والاستفادة من هؤلاء الأعلام في رحاب جامعة هاتهزاري، جاءتْ نقطة تحوّل أخرى في حياته، وحدثت نقلةٌ مهمّة إلى عالم الباطن، والربانية الخالصة، والقرب من الله ﷻ، النقلة التي زادتْ من قيمة علمه وقبول جهده، وباركتْ في جهاده، وأفادتْ به الأمةَ في إطارٍ واسع، وكان ذلك لقاءه بمولانا أشرف علي التهانوي لقاء كريما، والاستماع إليه، والمبايعة على يده.

في يوم من الأيام تطاير في رحاب جامعة هاتهزاري نبأٌ عظيم، وسمع الجميع أن مولانا أشرف علي التهانوي وصلَ إلى داكا لأول مرّة في حياته، على دعوة وإلحاح من السير السيد سليم الله بهادر المعروف بـ "النواب سليم الله خان"، فنهض الناس، ونهض الشابّ أحمد، وهرول إلى زيارته في رفقة كوكبة من أعلام جامعة هاتهزاري، وعلى رأسهم الشيخ حبيب الله، والشيخ ضمير الدين، والشيخ عبد الحميد رَحِمَهُمُ اللهُ.

وكان الشيخ حبيب الله والشيخ ضمير الدين على صلة وطيدةٍ بمولانا التهانوي، لأن الشيخ حبيب الله درسَ في مدرسته وبايع على يده، فكان له مربّيا ومرشدا، وكذلك كان الشيخ ضمير الدين من أبرز خلفاء مولانا رشيد أحمد الكنكوهي وأصفى تلامذته، وناهيك بما كان بين أشرف ورشيد من حبّ عميق شريف وصلة متينة، فهذا الذي قرّبهم إليه في رحلته هذه، ومنحهم فرصة سعيدةً للقائه، والاستماع إليه، والاستفادة منه عن كثبٍ وعلى خصوصٍ.

هنا استمع الشيخ أحمد إلى أحاديث التهانوي في مجالس متعددة ومرّات كثيرة، وكان يشعر بأنه يستمع إلى شيء جديد لم يسبق له المثال في حياته، وأثارت أحاديثه أوتار قلبه، وملأتْ فراغا منه،

(١) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص١٩

وكأنه وجدَ ضالّته التي طالما بحثَ عنها وسعى في سبيلها، وفي مجالس التهانوي كانت تعتري على الشيخ أحمد حالاتٌ غريبةٌ ونشوةٌ ساحرةٌ، وقد تصل به الحال إلى حدّ الإغماء، لكثرة الاضطراب النفسي، وشدّة الوطأة والأثر في الضمير، ولكثرة البكاء والنحيب، خاصّة في صلاة الفجر التي كان الشيخ التهانوي يؤمّ فيها بالناس، وهنا جنح قلب الشيخ أحمد إلى الشيخ التهانوي جنوحا كبيرا، وتضافرت الرغبة، وقويت العزيمة على الاستفادة منه في التزكية وتصفية الباطن، فأظهرَ أمنيّته عنده، وطلبَ منه بغيته مع الإلحاح والإلحاف، حتى وافقَ على طلبه وبايعَهُ.(١)

قصة ميلاد جامعة جيري

هكذا عندما أكمل علوم الظواهر والبواطن، وخرجَ من الدراسة الجامعية عالما متمكّنا، متضلّعا من النصوص وعلوم الشريعة، ومبايعا على أعظم مصلح ربّاني في العصور المتأخرة، جاءتْ مرحلة أخرى لتجرّ به إلى ساحة جديدة للعمل، وميدان جديد للجهاد، وكان ذلك مرحلة إنشاء جامعة جيري.

كان الشيخ تقلقه كثيرا حالةُ الأمة، ويأكل قلبه منذ نعومة أظفاره ما خيّم عليها من الشرك والبدع، والغرق في الظلمات، لكنه كان عالي الهمة وسامي الأهداف، فلم يتزحزح، ولم يضرب الكف على الكف آسفا ومتأولا، بل بدأ بالدعوة والإصلاح والحديث إلى الناس في المجامع والمحافل منذ أيام دراسته، وكان إقبال الناس عليه موضع الحيرة لكثير من العلماء والوعّاظ الكبار، والسبب في ذلك يرجع إلى سهولة أسلوبه، وعرض الكلمات على العوام بلغتهم، والحديث إلى الناس بما يفهمون، لا غموض فيه ولا تعقيد، وهذه الروح الطمّاحة للعمل والنفس القفّازة للدعوة والإصلاح لم تزدد مع الأيام إلا سرعة وحدّة، ولذلك في الأيام الأخيرة من دراسته في جامعة هاتهزاري، بعد أن شاهدَ أثرَها في الحياة والمجتمع، ودورَها في نشر الدعوة وبناء الرجال، وتغيير عادات البشر وتقاليدهم، حاورَ إلى بعض إخوانه ومعارفه، وفاتَحهم في حلمه بإنشاء مدرسة في منطقته، فالتقت الآراءُ، وصحّت العزائم على إنشاء مركز علمي كبير، حتى بدأت الدراسةُ في محلّ تجاريّ بقرية «كويغرام»، وبعد فترةٍ يسيرةٍ ومعاناةٍ كثيرةٍ انتقلت المدرسةُ إلى قرية «جيري»، واستأنفت الدراسة تحت شجرة البندق، فكانت نواة الجامعة الإسلامية العربية جيري، وكان ذلك عام ١٩١٠ للميلاد.

(١) انظر مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص١٨٩

تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها

المدرسة التي لم توجد لها أرضٌ تقوم عليها أو دارٌ تأوي تحت سقفها، فافتتحتْ في دكان ثم تحت شجرة، ومع عددٍ معدودٍ من الطلاب، وعلى مساعدة من بعض المحسنين، استمرّت في رحلتها، وبلغتْ مع الأيام ذروة المجد وأوج الكمال، حتى أصبحت من كبرى جامعات عربية إسلامية في هذه الديار، وخرّجتْ موكبا هائلا من العلماء البارزين، والعاملين في مجال التعليم والتربية والدعوة والسياسة، وإصلاح المجتمع والدولة، أمثال الشيخ المفتي عزيز الحق مؤسس جامعة فتية، والشيخ محمد نور الحق شيخ الحديث ورئيس جامعة «جيري»، والشيخ مولانا محمد إسحاق الغازي شيخ الحديث بجامعة «فتية»، والشيخ نور الإسلام شيخ الحديث بالجامعة الحسينية بـ«علماء بازار»، شأنها في ذلك شأن جامعة ديوبند التي بدأتْ تحت شجرة الرمّان ثم ملأت شبه القارة الهندية ظلالا وضياء، بل هي شأن جميع الانقلابات وجذور المراكز والمجامع الإصلاحية التي نجحتْ في الدنيا وأدّت دورها بشكل مدهش، من بداية متواضعة إلى نهاية مذهلة، وكل ذلك بسبب الإخلاص والربانية التي عمل بها هؤلاء العاملون، وأنشؤوا هذه المدرسة على قواعدها، فبارك الله في جهودهم، وأصبحتْ صفحةً مشرقةً في التاريخ.

آثاره في الدعوة والإصلاح

كان وعّاظا كبيرا، ومرجعا في البلد، وكثيرا ما كان يلقي الكلمات في ثلاثة محافل في يوم واحد، من دون أجر ولا جزاء، يؤمّها الناس من أنحاء بعيدة، وكان دائم الفكر ومتواصل الأحزان، ويختار لوعظه مكانا أكثر ظلاما، وأشدّ غرقا في البدع والجاهلية، ومن العجائب أن كلّ مكان ذهبَ فيه وألقى الكلمات، أحدث انقلابا، وبنى مسجدا، أو أسس مدرسة، ولذلك لا يُستغرب عندما يسمع القارئ أن المساجد التي بناها الشيخ يبلغ عددها زهاء ألفَيْن، والمدارس يتخطى عددها ثلاثة آلاف مدرسةٍ بين صغيرة وكبيرة، وخرّج عددا كبيرا من العلماء والدعاة الذين تتردد أسماؤهم اليوم على كل لسان في العالم الإسلامي، وعلى رأسهم الشيخ المفتي عزيز الحق مؤسس الجامعة الإسلامية بفتية، ثانية كبرى جامعة عربية دينية في بنغلاديش، وكان للشيخ أحمد دورٌ في إنشائها، وقد أنشئتْ على عينه، وتحت تعهّده بالرعاية والوصاية.

أسرار نجاحه ومفاتيح سعادته

كان نموذجا رائعا للسلف في السلوك والأخلاق، والصبر والتواضع، والثبات والاستقامة، والجرأة

والشجاعة، والتفاني والاستماتة في سبيل الدين، والجهاد المستمرّ في نشر الدعوة، والإقبال على الطاعة والإنابة، وكان سهل الأسلوب في الكلام، ولين الجانب في التعامل، ومخلصا ربّانيا متّبعا للسنّة النبوية، ومحافظا على دقائقها وجلائلها، وكان لا يستحقر شيئا من المعروف، ينصح المحارمَ والنساءَ في البيوت، ويزجي لهن قصصا من حياة الصحابيات والصالحات، النساء اللائي كنّ أساتذة الرجال، له ذوقٌ رفيعٌ، يحب الظرافة في كل شيء، وكثير النكت، وكان يحتفظ بالصلوات احتفاظا تاما، ويحبّ إطالة القراءة في الصلاة، وظلّت العادة على هذه الحالة، حتى كان يستمع إلى عشرة أجزاء في ليلة واحدة، وقد أصبح شيخا هرما، وقد كان يتهجّد في أول الليل، مخافة النوم في آخره، ولا يترك النوافل من الصلاة، فضلا عن السنن الرواتب، وكان مجازا من الشيخ القاضي معظم حسين خان، خليفة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي.(١)

من الخصائص التي أكرمه الله بها والتي يندر وجودها في أكثر القائمين بالحركات الدينية، والعاملين في الميادين الدعوية والإصلاحية، هي منهجه في الدعوة والإصلاح، وفي الحديث إلى الناس، وإلقاء الكلمات، وطريقه في الردّ على البدع والمنكرات، فقد كان لين الجانب، حلو المعشر، لطيفا متواضعا، ورحب الصدر في الاعتراف بفضل الخصوم، وكان تواضعه يزداد في الردّ على المخالفين، لا يقدح ولا يجرح، ولا ينتقد نقدا هدّاما، بل كان شعاره خير مثال لسلامة النقد، والتوسّط والاقتصاد في الآراء، وإقامة الموازين بالقسط، وتحرّي الدقّة والأمانة في الحكم، فيعرض الحقّ على أهل الباطل بلغةٍ تُبكيهم، وبأسلوبٍ يستهوي القلوب، ويقرّبها من الحقّ، وقد سمعَ مرّة واعظا يشتد في الردّ ويحتد في النقد، بأسلوب جارح، فأرسل يدعوه، وقال له: "إن الله أرسل موسى وهارون إلى فرعون وأمرهما بأن "قولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى"، وليس أحد من الأمة المسلمة أسوأ من فرعون، فلو كان فرعون، مع ادّعائه الربوبية، واستكباره وعلوّه في الأرض، يستحقّ اللين من موسى، فما بالك بهذه الأمة، تجرحهم وتهددهم لخطيئاتهم!"

وقد عانى كثيرا من أهل السوء، رغم هذا اللين، والأسلوب الحكيم في الردّ والنقد، لكنه كان ثابتا مستقيما في دربه، وتحمّل كل ذلك تطوّعا، واحتسابا للأجر من الله، وهذا هو القلب المؤمن، وهذا هو من روائع الإيمان، إذا وجدتْ حلاوته في القلب، يتحوّل أمرّ شيء حلوا، وتلوح طرائق الأمل في غياهب اليأس.(٢)

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٩

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٩ وما بعدها

كتابه «مشايخ شاتغام»

بعد هذا الصيال المرير، والكفاح الدؤوب، والحركة المطردة للدين والعلم والأمة، الممتدّة على ثمانين عاما، داهمه مرض الشلل، وتركه قعيدا بلا حراك، وتوقّف الجسد عن الحركة، أما قلمه القويّ الفيّاض، وروحه الجياشة بالعواطف الصاعقة، والطموحات النبيلة نحو مشكلات وطنه وشعبه، ودينه وأمته، لا تزال تتدفّق حياةً ونشاطا، وعملا وإنجازا، فأملى في ذلك الوقت، وهو في سرير المرض، وقائمة الاحتياط، أملى كلّ ما شاهدَه في الحياة، من حياة الأسلاف وقادة المصلحين في هذه الديار، وقيام الجامعات والمراكز العلمية الكبرى على أيديهم، والحركات الدعوية والإصلاحية التي بذلوا من أجلها حياتَهم، فكان ذلك خميرة فكرة كتابٍ جليل في السير والتاريخ، ذكر فيه تراجم أعيان المسلمين في شيتاغونغ، ومآثرهم وعطاءهم، وجميع ما اتصلت به أخبارهم، وانتهى إليه علمه من أعمالهم وإنجازاتهم، وأسمائهم وألقابهم، وسني ميلادهم وتاريخ وفاتهم، هذا يدلّ على قوّة ذاكرته، ونفاذ ذهنه، وبصيرته، وسعة اطلاعه، كما يدل على براعة اختياره، فشيتاغونغ دائما هي أرض خصبة معطاء، أنجبت كثيرا من الأعلام وما زالت تنجب، وهنا تكمن الصعوبة في الاختيار، وتأتي مغامرة وضع البحر في القارورة، وقد واجهتنا الصعوبة نفسها في إعداد هذا الكتاب الذي بين أيدينا، كان الشيخ في إعداد كتابه، حتى توقف قلمه، ولم ينته علمه، وقد نُشر الكتاب بعد وفاته، وبتحرير الشيخ أحمد الله، باسم «مشايخ شاتغام» (المجلد الأول)، وقد استفدنا به كثيرا في إعداد هذه الفصول.

المفتي عزيز الحق

(١٩٠٥- ١٩٥٨)

العلامة الكبير، المصلح الجليل، مؤسس جامعة فتية

المدرسة التي كانت ثالثة ثلاث، وكانت أقدم مركز علمي عربي وإسلامي في هذه الديار بعد جامعة هاتهزاري وجامعة جيري، ثم امتدّت جذورها، وعمّت منافعها، حتى طبّقت الآفاق، وملأت الدنيا علما ونورا، وقامت بدورٍ لا يستهان بقيمته في نشر العلم، وإيقاظ الشعور الديني، وإيجاد الوعي الإسلامي، هي الجامعة الإسلامية بفتية، وقد كان الشيخ الجليل، والفقيه العظيم، وعملاق الحق والحقيقة، العارف بالله العلامة المفتي عزيز الحق رَحِمَهُ اللهُ مؤسس هذه الجامعة، ورافع قواعد هذا البيت المبارك، وبطل هذا التاريخ.

بداية متواضعة لمرحلة تاريخية فاصلة

وُلد عزيز الحق عام ١٣٢٣ للهجرة الموافق ١٩٠٥ للميلاد تقريبا،[1] في أسرة مسلمة شريفة بـ«فتية» شيتاغونغ، وُلد ليتبع سنّة النبي الحبيب ﷺ في حياته، ليكون يتيم أبيه قبل أن يحول على الطفل حولٌ، وليفقد أمّه وهو في العام الحادي عشر من عمره، فنهض الطفل في كنف جدّه وتحت رعايته، ليجرّب حرارة الحياة ومرارة اليتم في الصغر، فيجتمع عنده رصيدٌ ثريّ من التجارب، للثبات على المبدأ، وحمل الأذى في سبيله، والتضحية بالنفس والمال من أجله، حتى يبرز في ميدان الحياة قويّا مصقولا، مفتولا مشدودا.

---

(١) ذكره العلامة محمد سلطان ذوق الندوي في كتاب تذكره عزيز ص٢٩، وقد حصل خلاف في تحديد سن ميلاده، فذكر البعض بأنه ١٣١٧ للهجرة، انظر تذكره ضمير مختصر حالات قطب عالم حضرة الحاج مولانا الشاه ضمير الدين أحمد إسلام آبادي (الأردية)، تأليف المولوي فيض أحمد الإسلام آبادي ص١٨٦

من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدين

أنهى الدراسة الابتدائية في قريته، وقد لمس فيه جده المنشئ صورت علي أمارات النبوغ، وفرط الذكاء، وقوة البصيرة، وتميزه من زملائه، ورأى فيه مستقبلا باهرا، وقلب مصلح عظيم، ومادة خام مهجورة، يمكن أن تبنى به سفينة عملاقة للدين والحضارة، لمس ذلك بفراسته الإيمانية، وعمق نظره في الناس، وتجاربه في الحياة، فحلم به حلما كبيرا، وأراد أن يضعه في مكانه، وكان قد نذرَه عقب ولادته في سبيل الله، وخدمة دينه، وتعليم القرآن، ونشر السنة، فرأى أن الأوان قد حان، وألحقه بمدرسة حمايت الإسلامية، وبعد سنةٍ انتقل إلى جامعة جيري ولما يكمل الصغير الربيع العاشر من حياته!

من جامعة جيري إلى جامعة ديوبند

دخل الفتى عزيز الحق في رحاب جامعة جيري، تحت إشراف الشيخ أحمد حسن، وكابنٍ له وفلذة كبد، فقد كان يأكل معه ومن كسبه، وكان بيته منزله الدائم في البلد، وكان شديد الحب وكثير الإجلال له، وبقي متتلمذا عليه زمنا طويلا، كما التقى بالشيخ المجاهد عبد الودود السنديبي، محدث العصر، وأول شيخ الحديث في جامعة جيري، والذي له دورٌ كبيرٌ في بناء الجيل، وإنشاء الرجال، فكان ذلك فاتحة خير عظيم في حياته، وأقبل الفتى يستفيد من الشيخ، ويقضي معه ليله ونهاره، في عالم النصوص والكتب، ومؤلفات السلف، والجمع بين المقرّرات الجامعية، والكتب الخارجية العامة، وأسفار المتقدّمين، هكذا استمرّت رحلته في درب العلم، حتى تخرّج في التكميل من جامعة جيري، فكان هو وزملاؤه أول دفعةٍ للمتخرجين في تاريخها.[1]

تخرجَ وهو شابٌ نشيط طموحٌ، يطلب المزيد، ويبحث عن الجديد، ويقصد أنقى وأثرى منابع العلوم الشرعية في شبه القارة الهندية، جامعة دار العلوم بديوبند، فدخلَ فيها وأقام مدّة يسيرة، إلا أن قضاء الله قد حدّد له مكانا آخر، فتدهورتْ صحّته وعانى نكسة الحالة، وبدا جوّ ديوبند غير مناسب له، فخرجَ من ديوبند ودخلَ في جامعة مظاهر العلوم بـ«سهارنبور»، وأخذ العلم على أيدي الشيوخ الكبار والأساتذة البارزين، وعلى رأسهم العلامة الكبير، شيخ الحديث مولانا عبد الرحمن الكاملبوري، فقد استفاد منه كثيرا، وأكمل دراستَه في مظاهر العلوم، وتخرجَ منها عالما متمكّنا، وأديبا بارزا متضلّعا من العربية والفارسية والأردية، واشتهر آنذاك كشاعر مطبوع فحلٍ وكمؤلّف قدير في هذه اللغات الثلاث.

(١) مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص٢٩٠-٢٩١

لكن دار العلوم ديوبند ظلّت محطّ نظره وموطن أمله، حتى في أثناء إقامته ودراسته في مظاهر العلوم، فجرّب نصيبَه مرّة أخرى وعادَ إلى رحاب ديوبند، لكن النتيجة كانت متشابهةً ومتقاربة، وبدأت حالته تتدهور مرّة أخرى، حتى داخل قلبه اليأس، وقطع الأمل، إلا أنه أصرّ، وأقام فيها بضعة أشهر، واستفاد خلالها من علامة الهند، المحدث الكبير، مولانا أنور شاه الكشميري، وكان لهذه الأيام مع هذا العَلَم أثرٌ كبير في حياته، ثم اتّجه إلى زاوية حكيم الأمة، مولانا أشرف علي التهانوي، وأقام عنده ستة شهورٍ، متفرّغا للرياضة والعبادة، والجهاد ضدّ النفس الأمارة، وتطويع الهوى على الإنابة، ثم عادَ إلى وطنه عام ١٣٤٥ للهجرة.[1]

كيف جاءت جامعة فتية إلى الوجود؟

عادَ الشابّ الناهض إلى جامعة جيري، التي قضى فيها معظم حياته، ووضعَ فيها حجر الأساس لمستقبله، عادَ عالما متمكّنا، ربّانيا مخلصا، معلّما مثاليا من الطراز الأول، فجلس فيها للتدريس والإقراء، وما هي إلا أيامٌ حتى علتْ مكانته، واشتهر اسمُه بين الطلّاب، فأقبلوا عليه إقبالا عظيما، وأصبح من أهم ركائز الجامعة، واستمرّ في التدريس أربعة عشر عاما متتالية،[2] حتى حان الوقت لبدء عمل أجلّ، والقيام بمهمّة كبرى، وتحقيق غاية عظمى في الحياة، التي استعدّ لها منذ أوّل يومه، ومن هنا تبدأ مرحلةٌ جديدةٌ في حياته، ويدخل في سجلّ الخالدين، وهي مرحلة إنشاء جامعة فتية.

يشهد لنا التاريخ والحق أحقّ أن يُقال بأن أول من وضع نواة لجامعة فتية هو الشيخ المفتي عزيز الحق رحمه الله، فهو الذي بذر البذور بيده، بتوجيه من شيخه العلامة ضمير الدين أحمد ودعائه، ثم هو الذي نمّاها وسقاها، وتعهدّها بالرعاية والسقاية، بتعاون من كبار علماء الإسلام وشيوخه وأساتذته، أمثال الشيخ العلامة أحمد حسن، مؤسس جيري وغيره، فبارك الله في جهده، وأنبت النبتة نباتا حسنا، حتى آتت أكلها وثمارها في غضون سنوات عديدة.[3]

(١) تذكره ضمير، مختصر حالات قطب عالم حضرة الحاج مولانا الشاه ضمير الدين أحمد إسلام آبادي (الأردية)، تأليف المولوي فيض أحمد الإسلام آبادي، ص١٨٧

(٢) تذكره عزيز، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي، ص٢٢٠

(٣) لقد طالَ الكلام، وكثر القيل والقال فيمن يرجع إليه فضل تأسيس جامعة فتية، فذكرَ البعض أن مؤسسها هو مؤسس جيري العلامة أحمد حسن، بينما ذكر البعض أن لها أكثر من مؤسس، لكن العلامة محمد سلطان ذوق الندوي وغيره من المؤلفين الثقات- وأهل مكة أدرى بشعابها- ذكروا بأن المفتي عزيز الحق هو الذي يرجع إليه فضل بناء جامعة فتية، نعم قدَ ساهمَ في بنائه- توجيها وإرشادا وتعاونا ماديا ومعنويا- كلٌ من قطب العالم العلامة ضمير الدين، والشيخ أحمد حسن وغيرهما مساهمة لا تُستهان، لكن الإنشاء والتنشئة الأولى كانت على يد المفتي عزيز الحق، انظر مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص٢٣٧ وما بعدها بالتفصيل، وانظر كذلك تذكره عزيز، تأليف العلامة محمد سلطان ذوق الندوي ص٢٤١

كان سماحة المفتي يحلم منذ فترة طويلة أن تقوم في مديرية فتية صرحٌ منيفٌ للعلوم الدينية على نهج جامعة هاتهزاري وجامعة جيري، لكن بعض الأسباب حالتْ دون تحقيق ذلك الحلم، فكان قد أصبح جزءا من جامعة جيري لا يتجزأ منها، ولا يهجرها إلى غيرها، وقد عاشَ فيها معظم حياته، دراسة وتدريسا، واستفادة وإفادة، وقراءة وكتابة، ثم أوضاع فتية كانت تصرفه عن الإقدام، فقد كانتْ منطقة فتية آنذاك غارقة في الظلام، والشرك والبدع، والأباطيل والخزعبلات، وكانت في أحط أدوار التاريخ الديني والعقدي، فأي مشروع دعوي أو إصلاحي فيها كان بمثابة من المجازفة، قد تكلّف صاحب المشروع أبخظ الثمن، فكان في انتظار فرصة مناسبة، وإشارة سماوية، واستمر في التدريس بجامعة جيري، لكن القلب كان في ألم دائم، وفكر مستمرّ لتحقيق ذلك الحلم.

هنا جاءه توجيهٌ رشيدٌ من العلامة ضمير الدين أحمد لبناء مركز علمي في فتية، فكأنه جاءَ في أوانه ومكانه، ودليلَ صدق على كرامات الأولياء، وبردا وسلاما على إبراهيم، وجدَ فيه ثقته وسنده، وقوي عزمه، وبدأ يصول ويجول لإنشاء منارة نور في بطن الظلام، وبعد جهد جهيد، ومفاوضات ومعاناة، وبكاء ونحيب مع الله، وجدتْ أرضٌ صغيرةٌ مهجورة، قامت فيها مدرسةٌ صغيرةٌ باسم «المدرسة الضميرية قاسم العلوم» عام ١٣٥٧ للهجرة، وبدأتْ مسيرتها بخطى بطيئة، كانت نواة جامعة كبيرة.

مدرسة صغيرة تصبح جامعة كبرى

لقد كان سماحة المفتي عزيز الحق لا يزال يدرّس في جامعة جيري، حتى رأى الظروف تتطلبه في فتية، فاستشارَ شيوخَه، وهاجَرَ إليها بقلبٍ حالم، يطمح إلى الملاك الأعلى، وكان ذلك عام ١٣٥٩ للهجرة، الموافق لـ ١٩٤٠ للميلاد، فتولّى إدارة المدرسة، وقد كانت قبل ذلك بلا مدير، تسير تحت إشراف لجنة مكونة بعدد من المشايخ، وفي غضون بضع سنوات، وصلتْ المدرسة إلى الصفّ الأخير (صفّ التكميل) وفق المنهج النظامي الديوبندي السائد في شبه القارة الهندية، وهكذا استمرّت مسيرة مدرسة فتية في درب التاريخ، وتحوّلت مع الإيام، من مدرسة صغيرة، إلى جامعةٍ تعتزّ بها الأمة، وتتغنّى بمجدها، فكان ميلاد «الجامعة الإسلامية فتية».

صلته بشيوخه وأساتذته

كان الشيخ المفتي عزيز الحق محبّبا إلى شيوخه وأساتذته، وموضع ثقة واعتماد كبير لديهم، وكان ثناؤهم عليه قد يبدو للقارئ مبالغةً وإطراء، لكن الذي عرفَ الشيخ المفتي، وشاهدَ حياتَه، ودرسَ أدبَه

وورعَه، وتواضعه، وانقياده لشيوخه، وصلته بهم، عرفَ حقيقة هذا الثناء، ودقّته وإنصافه، وقد كان الشيخ المحدّث عبد الودود السنديبي دائما يخاطبه بـ"عزيزي"، وكان الشيخ المثل الأعلى للتنظيم والترتيب في الحياة، ومحافظا على الوقت، ميّالا إلى تحصيل الآداب الرفيعة والعلوم النافعة، وشغوفا بالكتب والدراسة إلى حدّ الإدمان، وجادّا في كل أعماله، ومتقنا لكل ما درسه في القديم والجديد، وكان يدرس في حله وترحاله، وكثيرا ما كان يُرى يقرأ وهو يمشي، وكان يردّد بيتا فارسيا، معناه : قطعتُ الأرضَ كلّها سيرا وزيارةً، وأنا في بيتي أمام كتابي"، وكان معجبا بالشيخ المحدث أنور شاه الكشميري، ويكثر من ذكره وعلمه وفضله وورعه، ليأخذ منه زادا وترغيبا.

نبوغه في اللغات والآداب، وعبقريته في نظم القصائد والأشعار

كان الشيخ المفتي رجلا علميا بلحمه ودمه، وروحه وضميره، وكان له أسلوبٌ فريد في التدريس، يحولّ المعارف العليا إلى معلومات بسيطة، ويأخذ أصعب المادّة، فيضعها في أفواه الطلاب لقمةً سائغةً، وكان يحبّ علم الكلام والفلسفة، ويستخدمها في الجدال والمناظرة ضدّ أصحاب البدع، وكان شاعرا مطبوعا، كثير النوادر في الشعر، وأديبا بارعا، يكتب في العربية والأردية والفارسية على حدّ سواء، بعيدا عن الركاكة والمبالغة، والصناعة اللفظية، والكلفة الفضفاضة، والسجع البارد، وآثار العجمة، وأقرب ما يكون إلى العفوية،[1] مع كونه يحبّ السجع في الكتابة، بحكم العصر الذي عاشَه والبيئة التي نشأ فيها، وكان له ذوقٌ خاصّ في الأدب العربي، وإلمامٌ كبير بالأدب الجاهلي، وشعراء الجاهلية والمخضرمين، وكانت أبياتهم تجري على لسانه بكل سلاسة وأسلوب طبيعي تلقائي، يجمع بين قوّة العاطفة وعمق الفكرة، وكتبَ مؤلفات بالعربية، تشهد على إلمامه بها، وقوّة باعه فيها، ومن أبرز كتبه العربية "خير الزاد في سير الضاد" في النثر، و"عزيز الكلام في مدح خير الأنام" في النظم، و"نعم العروض في نظم الفروض" في الفرائض، وقد زارَ مرّة الروضة الشريفة، ومكثَ فترة في حرم رسول الله، وفي جوار المصطفى، فارتجلت قريحته بأبيات خالدة يتجلى من خلالها ذوقه الرفيع وسليقته الأدبية، وحبه وفداؤه لصاحب الرسالة ﷺ.[2]

(١) تذكره ضمير، مختصر حالات قطب عالم حضرة الحاج مولانا شاه ضمير الدين أحمد إسلام آبادي (الأردية)، تأليف المولوي فيض أحمد الإسلام آبادي، ص١٨٨

(٢) تذكره عزيز، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي، ص٦١

روحي فدى لجزيرة عربية فيها حرم ... والكعبة لبيت الشريف طوافها فرض الأمم

أنوارها عمت على الآفاق واتجلت المنى ... وأضاءت الأطراف والأكناف وانزوت الظلم

روحي فدى لمدينة تجري ينابيع الهدى ... وللروضة في مهدها نام النبي المحترم

يأتيها الزوار من كل فج عميق شاسع ... بركات كل منها هطالة فوق الديم

كما كان له الباع الطويل والقدم الراسخة في اللغة الأردية وآدابها، وكان من بقايا المتضلّعين في الأدب الفارسي ونقاده، فينظم القصائد العربية والفارسية بسهولةٍ وبسرعة مدهشة، وبأسلوب سهل ممتنع يثير عجب أبنائهما، وقد نشأ على يده كوكبةٌ من العلماء الشعراء، والمتخصصين في هذه اللغات الثلاث، لو قدرت هذه الأمة قدرهم، واحتفظت بمآثرهم، ولو سجّلت أعمالهم وإنجازاتهم، لكانوا في طليعة الأدباء، ولكانت هذه البقعة تعدّ أرضا خصبا في تاريخ الأدب المعاصر، وكان الشيخ المفتي معجبا بالمثنوي للرومي، ويحب أن يقرأ فيه، ويجلس مع الزملاء والطلّاب ويقرأ عليهم بشوق وشغف، ويأخذ بمجامع القلوب.[١]

مع الله ومع الناس

أما تواضعه، فكان أعجوبةً، وكان ساذجا بسيطا، وسبّاقا إلى الخير، وكان يحب الصفح، ويميل إلى العفو، ويستيقظ في آخر الليل مبكّرا، فيرتّب أحذية الطلاب الموضوعة أمام غرفهم، وينظّف دورات المياه، تحت جنح الظلام، وكان يحبّ العمل، ويكره الكسل والإخلاد على الفراش والأرائك، وكان عابدا زاهدا، يقرأ القرآن ويجعله ديدنه وأنيسه، ولا يترك قيام الليل والذكر في السحور، وكان صاحب الكرامات، وعارفا من العارفين، ومن أهل مقام الإحسان، فاستفادَ من مولانا التهانوي ومولانا المدني رحمهما الله في شبابه وكهولته، ثم بايع العلامة ضمير الدين أحمد الإسلام آبادي رحمه الله، خليفة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله، ثم ارتقى في سلّم السلوك، حتى أصبح من قادة هذا الميدان، ومن أصفى خلفائه،[٢] فاهتدى به خلقٌ كثير، وأصبحت للسنة هيمنة في بقعة كانت إلى الأمس في زنزانة البدع،[٣]

(١) صفحات من حياتي، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي، ص٥٤

(٢) تذكره ضمير، مختصر حالات قطب عالم حضرة الحاج مولانا الشاه ضمير الدين أحمد إسلام آبادي (الأردية)، تأليف المولوي فيض أحمد الإسلام آبادي، ص٤٢ و١٨٧

(٣) انظر للتفصيل في تذكره عزيز، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي، ص٢٧٠-٢٩٤

كما استفاد منه عددٌ كبير من العلماء والمشايخ في السلوك، وتربوا تحت ظلاله، ونالوا منه الإجازة، على رأسهم الشيخ سلطان أحمد النانوبوري،[١] رئيس الجامعة العبيدية الإسلامية بـ«نانوبور».

فقه المفتي عزيز الحق؛ بينه وبين المفتي الأعظم

كان بحرا في الفقه لا تكدره الدلاء، ومن أبرز فقهاء هذه الأمة في تاريخها، له رأي وفقهٌ، ومنهجٌ خاصّ في تناول القضايا الفقهية، مع الوقوف على قواعد المذهب الحنفي وأصوله، ورعاية العرف وعادات الناس، والأخذ بالمصالح المرسلة، مادامت لا تصادم أسس الشريعة، وقد أصبحتْ آراؤه مدرسةً فقهية تصادمت مع مدرسة فقيه العصر المفتي الأعظم فيض الله، فكانا كفرسيْ رهان، رغم الصلة الوطيدة، والمودة الشديدة بينهما، وتقدير المفتي عزيز الحق له، فكان المفتي الأعظم لا يذكر القصائد والأشعار في كلماته ومواعظه، على غير عادة العلماء والوعاظين في هذه الدولة، ولا يستحسنها، أما شيخنا المفتي عزيز الحق يكثر من ذكرها، وكذلك كان المفتي الأعظم يرى الدعاء الجماعي عقب الصلوات بأنه بدعة إذا أخذه الناس عادة يلتزمون بها، أما الشيخ عزيز الحق فكان يرى جوازَه، مثلما يرى جمهور علماء الإسلام في هذه البقعة، وكذلك الاعتكاف لمدّة أربعين يوما، فكان المفتي الأعظم يرى أنه بدعةٌ، لا أصل له في الشريعة، أما الشيخ المفتي عزيز الحق يرى جوازه، والتزمَ به طوالَ حياته، وقد كان يعتكف معه آلافُ الناس في مسجد فتية، خلال شهر رمضان، بدون إعلان وإشهار، وكذلك كان المفتي الأعظم يرى الذكر الجماعي مع رفع الصوت به بدعة، أما شيخنا عزيز الحق فكان يرى جوازه، وكذلك كان لهما آراء مستقلة متصادمة في مسائل أخرى، من رؤية الهلال وشروط قبول الشهادة فيه وموانع القبول، وطلاق الغضبان وغيرهما.

(١) هو الشيخ الرباني، والعارف السالك مولانا سلطان أحمد بن محمد بذل الرحمن النانوبوري رحمه الله، وُلد عام ١٣٣٢ للهجرة في محافظة شيتاغونغ، قرأ القرآن في كتاب قريته، ثم درسَ في مدرسة حماية الإسلام بـ«نانوبور»، وبعد فترة سافرَ إلى الهند ودخل في دار العلوم ديوبند، وأخذ العلم من كبار الأساتذة، من فيهم الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ إبراهيم البلياوي، ومولانا إعزاز علي، واستفادَ في السلوك من الشيخ المدني، ثم تولّى رئاسة الجامعة الإسلامية العبيدية المعروفة "بجامعة نانوبور"، وكانت الجامعة العبيدية امتدادا لمدرسة "حماية الإسلام" التي أسسها مولانا أمير الدين، ثم ربّاها ووسّعها الشيخ النانوبوري، وجاهدَ في سبيلها، حتى أصبحتْ من طليعة المراكز العربية والجامعات الإسلامية في الدولة، فالفضل في ذلك يرجع إلى هذا الشيخ الرباني، وكان حربا على أهل البدع والخرافات، وله مواقف حميدة ضدّ أصحاب الضلال، وكان عارفا من العارفين، رجل التقوى والصلاح، بايعَ الشيخ المفتي عزيز الحق مؤسس جامعة فتية، ونال منه الخلافة، بل أصبح من أجل خلفائه، ثم استفاد منه كثير من العلماء الأعلام في التزكية والسلوك، ممن فيهم الشيخ ضمير الدين النانوبوري رحمه الله رئيس جامعة «نانوبور»، وقد توفّي الشيخ عام ١٤١٨ للهجرة الموافق ١٩٩٧ للميلاد. انظر تفاصيل حياته في كتاب "الشيخ سلطان أحمد النانوبوري: حياته وتراثه" تأليف الشيخ المفتي سعيد أحمد.

الخلاف الفقهي في هذه المسائل وفي كثير مما لا يسع المجال ذكره وإسهابه في هذا الكتاب، إن دلّ على شيء فيدل على قوّة باعه، وتفقهه، ومدى علمه ومعرفته، وقدرته على إدراك المسائل واستخراجها من نصوص الشرع، لكن هذا الخلاف في الفقه لم يؤدّ قطّ إلى الفرقة والتناحر، فقد كان الشيخ المفتي عزيز الحق على شهرته الواسعة، ومكانته بين العامة والخاصة، ومستواه العلمي، وشدّة تمسّكه بآرائه، يحبّ المفتي الأعظم ويحمل له تقديرا كبيرا، ويحفظ له في قلبه مكانة رفيعة، وكان يقول في صدد المسائل الخلافية بينه وبين المفتي الأعظم : "إنه إمامنا ومربّينا، ومصلح عظيم لنا، فلولاه وأمثاله لاعتدينا وتجاوزنا الحدودَ، فما بالنا أن نسيئ بهم الظن؟"[1]

هكذا كان هؤلاء الأعلام الذين انحرف الناس بعدَهم عن دربهم، فنشأت الخلافات، والتهبت المشاجرات والمماحكات، وحصلت الطامّات، ونسي الناس أسلوب الخلاف، وطريقة التعايش مع المخالفين.

المفتي عزيز الحق في ذمة الله

ولما انتهت المهمّة التي بُعث من أجلها، وحفلت الحياة بإنجازات خالدة ومآثر جليلة، سجلها في الفترة القصيرة التي لم تبلغ بعد ستين عاما، جاءه الأجل المحتوم، ومضى إلى رحمة الله تعالى، وكان ذلك في النصف من شهر رمضان قبل صلاة الجمعة عام ١٣٨٠ للهجرة الموافق لـ ١٩٦٠ للميلاد.

(١) انظر للتفصيل في كتاب تذكره عزيز، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي، ص٦٨-٧٨

مولانا محمد عبد الله الكافي القرشي

(١٩٠٠-١٩٦٠)

المؤلف الكبير، والداعية المصلح، والعالم القيادي البارز

إنه عبقريّ فذّ، وشخصية إسلامية فريدة، متعدّدة الأبعاد، ومتنوّعة المناحي، رجلٌ لم يترك بابا من أبواب المعرفة في عصره إلا طرقه، وبرزَ في ميادين شتّى، وجاهدَ في جبهات مختلفة، وألف مؤلفات، وأصدر صحفا ومجلات، ورفعَ صوتَه ضد الظلم والظلمة، وقضى فترةً كبيرةً من حياته وراء القضبان، حتى أصبح من قادة العلماء البارزين، والدعاة المخلصين، والقياديين الإسلاميين، وكبار المجاهدين ضدّ البدع والخرافات، وصاحب كتب ومؤلفات قيمة، بل أصبح مدرسة فكرية كبيرة، لها الأساتذة والطلاب، ولها المباني والمراكز، والأنظمة والدساتير، وأصبح منهجا في الحياة، وزادا على الطريق، والدليل الهادي، والمثل الأعلى لآلاف البشر في هذه الدولة، إنه الشيخ الرباني، والخطيب المفوّه، ورائد الصحافة الإسلامية، والأديب البنغالي الكبير، والعالم العصامي، ومؤسس «جمعية أهل الحديث»، الشيخ مولانا محمد عبد الله الكافي القرشي رَحِمَهُ اللهُ.

كوكب دري يوقد من شجرة مباركة

ولد الكافي في محافظة «باردامن» بالبنغال الغربية عام ١٩٠٠م،[1] في أسرة علمية شريفة، وفي سلالة طيبة تتحدر من خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي بيئة نقية يطهرها القائمون عليها من كل ما يعكر صفو «النبتة النامية»، ولوالد عالم رباني اتصل بالله بحبل من التقوى، صاحب علم

(١) أربعة من أعلام البنغال المسلمين البارزين، تأليف الدكتور سيف الدين التشودري، ص٣٩ وكذلك الموسوعة البنغالية، لكن الشيخ مصلح الدين ذكر في كتابه "الحركة السلفية في البنغال" نقلا من مجلة "ترجمان الحديث" بأن الشيخ الكافي وُلد في "ديناجبور"، ص٣٦٦

واطلاع الشيخ مولانا عبد الهادي، تلميذ الشيخ العلامة نذير حسين الدهلوي رئيس علماء أهل الحديث في الهند، أنجبَ اثنين من الأبناء، ونشّأهما في كنفه وتحت رعايته، وكوّن عقليتَهما واتجاهاتهما في ضوء علمه وتجاربه، وسلوكه واتجاهه وذوقه، حتى أصبحا من طليعة العلماء الخالدين في تاريخ هذه الدولة، هما الشيخ عبد الله الباقي،[1] وشيخنا عبد الله الكافي.

فقد الطفل الكافي أباه في السادس من عمره، فنشأ تحت رعاية أخيه الأكبر، ومربّيه الأول، الشيخ عبد الله الباقي، وبدأ الدراسة في كتاب قريته، ثم دخلَ في المدرسة العالية بكلكتا، واجتازَ المتوسّطة، وبعد ذلك دخلَ في «كلية القديس جيفيارس Xavier's College» وتخرّج في الثانوية، ثم ثارتْ الانتفاضات ضدّ الاحتلال، وتتابعت حركات التحرير، فتركَ الشيخ الدراسة قبل إكمال البكالوريوس، ودخلَ في غمار الحركة والسياسة، وأصبح من أبرز فوارسها،[2] لكن الإنسان العصامي لا يضره أن يكون في المحلات أو في الجامعات، أو في الأسواق أو في الكليات، فهو يظلّ يثقف نفسه، ويزوّد روحه بالعلوم والمعارف، ويتسلّح بالأسلحة العلمية المتنوّعة، في أي مكان كان، وفي أية مرحلة من مراحل العمر كانت، وهذا الذي حصلَ في حياة الشيخ عبد الله الكافي، فرغم أنه ترك الكلية في منتصف الطريق، وخرج من سكّة الدراسة، قبل أن يصل إلى المحطة، لكن بالعزيمة الصارمة، والثقة الكبيرة بالنفس، تغلّب على العقبات، وظلّ يقرأ ويكتب، ويفكّر ويخطّط، ويحقق ويحلل، ويجمع بين التفسير والحديث، والفقه والأدب، والعلوم والفلسفة، ويتقن اللغات من العربية، والأردية، والفارسية، والبنغالية، والإنجليزية، حتى أصبح أستاذ الأساتذة، ومربّي العلماء، وقائد القافلة العلمية، وربان سفينة الدعوة والإصلاح.

---

(١) إنه الشيخ مولانا عبد الله الباقي بن مولانا عبد الهادي، الأخ الأكبر للشيخ عبد الله الكافي، ومن زعماء أهل الحديث في تاريخ البنغال، وُلد عام ١٨٨٦م في محافظة «باردامن» بالبنغال الغربية، ودرسَ الابتدائية عند أبيه، ثم درسَ في مدرسة جامع العلوم بـ«كانبور» وتخرّج بامتياز، تولى زعامة «جمعية أهل الحديث» بعد وفاة أبيه، ثم أسس «جمعية علماء البنغال» عام ١٩١٣م، مع كبار العلماء أمثال الشيخ مولانا محمد أكرم خان، والشيخ منير الزمان الإسلام آبادي، والشيخ الدكتور محمد شهيد الله، لنشر العقيدة الصحيحة في المجتمع، ونفخ روح الجهاد في المسلمين، كما لعب دورا كبيرا في «حركة الخلافة» عام ١٩١٩م، ثم دخلَ في «حركة عدم التعاون»، ودخل في السجن مرارا، وفي عام ١٩٤٣م دخلَ في «الرابطة المسلمة» وأصبح عضوا في المجلس الولائي بالبنغال، إلا أن عبقريته وجهاده جاءَ معظمها في جمعية أهل الحديث، وتطويرها، ونشرها في البنغال، وكان من مؤسسي «جمعية أهل الحديث لعموم البنغال وآسام» عام ١٩٤٦م، وكان شديدا على المذهب الحنفي والعلماء الأحناف، وقد توفي تغمّده الله عام ١٩٥٢م.

(٢) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٥٩ وكذلك مقال عبد السلام في الموسوعة البنغالية، عنوان "عبد الله الكافي".

فارس القلم تحت راية الكتاب والسنة

لعل من أبرز ما قدّمه الشيخ عبد الله الكافي إلى دينه وقومه، ومما يعدّ من مآثره الخالدة في التاريخ، هو دورُه الريادي في الإعلام والصحافة، ونبوغه المبكر في العلم والتأليف، والتحرير والإنشاء، فقد نزلَ في ساحة الإعلام عندما كان الوضع مهددا، وكانتْ هذه الساحة مهجورةً في المجتمع المسلم، فضلا عن مجتمع العلماء، وكان الميدان تحت رحمة الوثنيين، ووطأة المنصّرين، في تلك الفترة الدقيقة من التاريخ، كان النزول في هذا الميدان أكبر مجازفة بالحياة، لا يقوى عليه إلا صناديد الرجال، وأصحاب القلوب الكبيرة، والهمم العالية الناطحة للسحاب.

اشتغل الشيخ عبد الله الكافي باللغة والأدب من أيام دراسته، ثم ظلّ ينشر المقالات في الصحف والمجلات، كما نشرَ كثيرا من المقال في مجلّتي «الهلال» و«البلاغ»، للشيخ مولانا أبي الكلام آزاد، فاتصل بالشيخ آزاد، وتقرب منه، وتأثر به، ومشى في ركابه، حتى عُرف بـ"آزاد البنغال"،[1] ثم قدّر الله تعالى أن يلتقي بالعالم العبقري الشيخ مولانا محمد أكرم خان، فكان هذا اللقاء لقاء النور بالنور، وانفتح أمام الشيخ الكافي أفق جديد من المستقبل الباهر الواعد، وفرص هائلة لتحقيق أحلامه في الإصلاح والتجديد، فتولّى الشيخ منصب التحرير المساعد في صحيفة «الزمان»، التي كان يصدرها الشيخ أكرم خان، وفي عام ١٩٢٤م أصدرَ بنفسه مجلّة أسبوعية، إلا أن الظروف الاقتصادية حالتْ دون استمرارها، وفي عام ١٩٤٩م أصدر مجلّة علمية باسم «ترجمان الحديث»، وقد اشتهرت هذه المجلة في أوساط العلماء، وسدت ثغرة علمية ودعوية كبيرة في ذلك الوقت، واستمرّت حتى بعد وفاته، إلى عام ١٩٧٠م، كما أصدر مجلّة «عرفات الأسبوعية» عام ١٩٥٧م،[2] ولا تزال هذه المجلّة تصدرُ وتقوم بدورٍ بليغ في الدعوة والإصلاح، وقد اعترفَ فضل هذا الإنسان أولو الفضل، فأكرمه «مجمع اللغة البنغالية» بداكا- بجائزته القيمة، وقدّم له عضويته الشرفية، ونشر كتابا بعد وفاته في ترجمة حياته.[3]

كما برزتْ عبقريته في ميدان الكتابة والتأليف، فقد كان الشيخ عبدالله الكافي كاتبا قديرا، ومؤلفا حكيما مكثرا، وكتبَ ما يزيد على أكثر من مئة كتاب ورسالة، ومن أبرزها ◊ أصول الدستور الإسلامي (١٩٤٧) ◊ الكلمة الطيبة (١٩٤٨) ◊ المصافحة ◊ الطلاق الثلاث (١٩٥٧) ◊ تحديد النسل (١٩٦٠م)

---

(١) محمد عبد الله الكافي، تأليف سيف الدين التشودري، ص١٤ (مطبوع مجمع اللغة البنغالية)

(٢) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ٧٦

(٣) مجلة التحريك الشهرية، يوليو ١٩٩٩م، ص٢٣

◊ حركة أهل الحديث ومزاياها ◊ النبوّة المحمدية ◊ الإسلام والشيوعية ◊ مبادئ الاقتصاد الإسلامي ◊ المطالبة بتطبيق النظام الإسلامي، هذه من أبرز كتبه المطبوعة، إلا أنه للأسف أن ما صدرَ من كتبه هو أقل قليل مما لم يصدر، وظلّت مسودات كثيرة تحت الأنقاض![1] ومن بعض الكتب التي لم تصدر بعد ◊ الأحكام (في أصول الفقه) ◊ كشف القناع ◊ منهاج الاستقامة ◊ تراجم رجال الفرق ◊ كتاب الإيمان ◊ البراهين المحمدية ◊ تاريخ الخوارج ◊ رد العروس (الاحتفال الصوفي) ◊ رد خانقاه (الصوفية) ◊ حركة أهل الحديث وغيره، ومن الغريب أن من هذه المسودات معظمها باللغة العربية!

اكتوى بنار السياسة ثم نفر واعتزل

اشتغلَ الشيخ الكافي بالسياسة منذ فترة مبكّرة في حياته، إلا أنه لم يكن سياسيا في صميمه، بل دخلَ في غمارها من أجل الدعوة والإصلاح، فدخل في «جمعية علماء الهند» عام ١٩٢٢م، وكان يخالف فكرة باكستان، ويؤيد وحدة الهند وبقاءها، وفي عام ١٩٢٦م دخلَ في «الحزب المسلم الحرّ» تحت قيادة الحسين الشهيد السهراوردي، وعمل تحت مظلة «جمعية علماء الهند» لفترة من الزمن، وشاركَ في حركة الخلافة، كما دخلَ في حركات التحرير ضدّ الاحتلال، وصالَ وجالَ في الطرق والشوارع، وقاد المظاهرات، حتى زجّت به الحكومة في السجن، وتتابعَ دخولُه فيه،[2] حتى نشأت لديه الكراهية والبغض للسياسة، وذهبَ إلى الحج عام ١٩٤٢م، وعادَ إلى الوطن إنسانا جديدا، واعتزل ميدان السياسة، وآثر أن يتزوّى ويحتجب منها، فكرس جهودَه وجهاده على الكتابة والتأليف، والدعوة والإصلاح، وإنشاء المساجد والمدارس، والمراكز العلمية، وإدارة الجمعيات الدينية، منها «جمعية أهل الحديث».

لكن الإنسان الذي قضى معظم حياته في ميدان السياسة، وفي غمار الصيحات والحركات، لم يكن له أن ينسى أيامه بسهولة، فظلّ يكتب ويتحدث عن السياسة، وعن حلمه بنبتة جديدة- باكستان- رغم مخالفة ميلادها يوما، وإقامة الخلافة الإسلامية على أرضها إلى نهاية حياته، وكان عندما يتحدث عن باكستان، يتحمّس، وينتفض، ويدافع، ويقوم ويقعد، وكان له رأي حميد خبير في بقاء مسلمي آسام والبنغال الغربية داخل حدود الهند وطريقة العيش مع الهندوس.[3]

---

(١) انظر لتفصيل محمد عبد الله الكافي، تأليف سيف الدين التشودري، ص٩٤ (مطبوع مجمع اللغة البنغالية)

(٢) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٦٠-١٦١

(٣) انظر محاضرة الشيخ في مؤتمر أهل الحديث بـ«راجشاهي» عام ١٩٤٩، في كتاب "تعريف أهل الحديث" من تأليفه، ص٩٩ وما بعدها

قيادة الحركة السلفية في الديار البنغالية

فوق هذا كلّه، الشيء الذي حدّد له مكانة كبيرة في التاريخ، وجعله محطّة أنظار ألوف من الناس، وموضع ثقتهم، والينبوع الصافي لحماسهم وجهادهم، والدليل الهادي الذي يستمدّون من مشكاته نورا في الطريق، هو تأسيسه لجمعية دينية، وحركة من أكبر الحركات الدينية المعاصرة في تاريخ هذه الدولة، حركةٌ لا تزال تعمل عملها، وتؤدّي دورَها، بعد وفاة مؤسسها بمدّة مديدة، وهي «جمعيّة أهل الحديث لعموم البنغال وآسام»، فقد شاركَ الشيخ في «جمعية أهل الحديث لعموم الهند» عام ١٩٢٧م،[1] ثم فكّر في تأسيس جمعية خاصّة للبنغال وآسام، مع كبار من علماء أهل الحديث، حتى تجد الدعوة قوّتها ونشاطها، وهنا جاءت الفكرة إلى عالم الوجود، وبدأت الجمعية مسيرَتها عام ١٩٤٦م،[2] بعد مؤتمر انعقد في «رانغبور»، وقد تولّى الشيخ رئاستَها منذ نشوئها، وسافرَ من أجلها إلى أرجاء الدولة، وطافَ بجميع المناطق، وتجوّب في القرى والأرياف، واستحثّ الناس على الانضمام لهذه الحركة الجديدة، وجنّد الشباب وحرضهم على الانضواء تحت لوائها، وخاض البحوث والمناظرات، وردّ على المناوئين، وكانت دعوته هذه غاية في القوة، وغاية في الحماسة، حتى انتشرتْ وحصلتْ لها مكانة في المجتمع، وسمعت لها صدى في أرجاء البلاد وخارجها[3]، وقد سافرَ إلى أرض الحرمين، والتقى مع مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود، ففرح به الملك كثيرا، وقدّم له هدايا نفسية.

شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية

رغم أنه انتهج منهجا فريدا وسط الأوساط العلمية والدينية في هذه الدولة، ورسم لنفسه ولأتباعه طريقا يختلف عن الطريق الممهّدة فيها، وأسس «جمعية أهل الحديث»، التي تبدو تضاربُ المذاهب الفقهية أو بالأحرى المذهب الحنفي السائد في هذه البقعة من الماضي العريق، إلا أن الشيخ كان داعية من النوع الفريد، ومصلحا من عظماء المصلحين، وفي قمة التواضع وعظمة الخلق، وسعة الأفق، ولذلك مع أننا نراه يخوض المناظرات ضد أهل البدع والخرافات، والقاديانية والقبورية، كما يجادل علماء الحنفية في بعض القضايا الفقهية والعقدية تارة، مع كل ذلك نراه رمزا فريدا في التسامح والتواضع، وسلامة

---

(١) محمد عبد الله الكافي، تأليف سيف الدين التشودري (مطبوع مجمع اللغة البنغالية)، ص١٦

(٢) انظر الحركة السلفية في البنغال، رسالة الشيخ مصلح الدين، ص١٨٤-١٨٥

(٣) مجلة عرفات الأسبوعية، العدد ٤٦-٤٧، العام ٤٥، ١٢ يوليو، ٢٠٠٤م، العدد الخاص في ترجمة الشيخ عبد الله الكافي، ص ٨

الذوق، والعفو والمحبة، والإخلاص والربانية، وصاحب منهج فذّ للجدال بالتي هي أحسن، فكان يحجم عن المناظرات قدر المستطاع، وعندما لم يجد مندوحة عنها، كان يخوضها وهو ينوي إظهار الحق. لا يفحم الخصم، نفورا عن التفاخر والرياء، بعيدا عن الجدال والمراء، يبحث الاعتدال والاقتصاد في كل شيء، فلا يصدر كلاما غيظ، ولا يتطاول على العلماء،[1] وأحيانا كانت لهجته تعلو وتحتد، كردة فعل من خصومه، حتى تكاد تصبح جارحة، إلا أنه سرعان ما كان يسيطر على نفسه، ويسترد التواضع والمرونة، وروح السماحة والأخوة، وكان يذكر اسم الإمام أبي حنيفة- وأئمة المذاهب الآخرين- بكل تقدير وإجلال وإكبار، لا ينافق ولا يجامل،[2] وكان يحب العلامة إقبال، ويسوق أبياته أثناء حديثه. وكان يقول "إن الصبر والتسامح، والتواضع والإخلاص، تفعل ما لا يفعله العنف والحدّة، والغضب والثورة"، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

من أجل هذا الإخلاص والاحتساب، والربانية الصافية المشرقة التابعة لكتاب الله وسنّة نبيه، نراه لا يخوض المناظرات في الآراء الفقهية، ويتجنّب جهدَه الجدال مع أصحاب المذاهب، في الأمور الفرعية، والقضايا الجزئية،[3] في حين كان حربا على القبوريين وأهل البدع والقاديانية، وكان يحلم دائما بوحدة الأمة، وتقريب المذاهب، وتوحيد العلماء، والتقاء الشعب المسلم على رصيف التوحيد، والعقيدة الصحيحة، وجمع كلمة المسلمين على النقطة السياسية،[4] وتحقيقا لهذا الهدف نراه يعمل في انتخاب عام ١٩٥٤م، ويؤيد الأحزاب الإسلامية بنشر الرسائل والملصقات، يدعو الناس للتصويت في صالحها، ولما انعقد مؤتمر وطني يطالب بتطبيق النظام الإسلامي في هذه الدولة، تحت مظلّة «نظام الإسلام»، وهو حزبٌ يقوده علماء مدارس ديوبند، والسادات الأحناف، نرى يتولّى رئاسة ذلك المؤتمر، الرجل السلفي، ومؤسس «جمعية أهل الحديث»، الشيخ عبد الله الكافي![5]

وفي عام ١٩٥٦م دعا الشيخ مؤتمرا للجبهة الإسلامية المتّحدة، شاركتْ فيه معظم الأحزاب الإسلامية، وتحدّث الشيخ في اليوم الثاني من المؤتمر، أمام ٥٠ ألف نسمة تقريبا، بينهم العلماء

(١) محمد عبد الله الكافي، تأليف سيف الدين التشودري (مطبوع مجمع اللغة البنغالية)، ص١٠٥

(٢) انظر محاضرة الشيخ الكافي في مؤتمر أهل الحديث بمحافظة «بابنا» عام ١٩٤٧م، في كتاب تعريف أهل الحديث، للشيخ محمد عبد الله الكافي القريشي، ص ٩، ١٢، ١٣، ٣٢ وغيرها

(٣) مجلة عرفات الأسبوعية، العدد ٤٦-٤٧، العام ٤٥، ١٢ يوليو، ٢٠٠٤م، العدد الخاص في ترجمة الشيخ عبد الله الكافي، ص ٣١

(٤) حركة أهل الحديث: تاريخها وتطوّرها في جنوب آسيا، للشيخ محمد أسد الله الغالب ص٤٧٠

(٥) أربعة من أعلام البنغال المسلمين البارزين، تأليف الدكتور سيف الدين التشودري، ص٤٧

والسادة، وركّز على تفادي المشاجرات والخلافات الجزئية في سبيل تحقيق المصالح الدينية الكبرى، ودعا الجميع للعمل على منصّة واحدة من أجل تطبيق نظام الإسلام في هذه الدولة.

المعاناة في سبيل الدعوة

رغم هذه المكانة التي نالها بين الشعب المسلم في هذه الدولة، امتحن الشيخ الكافي في دينه ومن أجل منهجه ومدرسته الفكرية، وتعرّض لهجمات من الخصوم والمخالفين، فانتقده كثير من الناس في مواطن كثيرة، وقد وجّه إليه النقد في معظمه لموقفه من المذاهب، وخصوصا المذهب الحنفي، فقد كان الشيخ رجلا سلفيا، شديد النكير على التقليد، وداعيا للعمل مباشرة بالحديث، كما شُهِر بالتحفّظ وضيق الصدر، عندما ذمّ المجتمع المسلم، وانتقد تقاليده وعاداته السائدة.[1]

على أية حال، كان إنسانا، يصيب ويخطئ، وليس ملكا مطهرا، ولا نبيا معصوما، وقد صارت أخطاؤه مغمورة في محيط حسناته وتضحياته، وعطائه للدين والأمة، لكن هناك قضية لا نزال نعيشها، فلا بد أن ننتبه عليها، وهي أن الدين لا بدّ أن يقوم على السنّة، ومنهج صاحب النبوّة، مع أخذ عمل الأمة بعين الاعتبار، فما دامتْ الأمة في بقعة من بقاع العالم على أمر لهم فيه حجّة من القرآن أو السنّة، لا ينبغي لداعية أن يفاجئهم ويصادم أمرَهم بسنّة أخرى، فالسنة والأمّة شقيقتان لا تختلفان.

حملة لوائه بعد وفاته

في عام ١٩٦٠م، فاضتْ روحه الطاهرة إلى بارئها، بعد أن أسدى خدمات جليلة، وأضاف صفحات مجيدة في تاريخ هذا الدولة الديني، فانتقل الشيخ إلى ربّه، ولم يخلّف زوجة ولا أسرة، فقد كان من أولئك العلماء العزاب الذين آثروا العلم والعمل للدين على الزواج، إلا أن المدارس التي بناها، وعلى رأسها «مدرسة الحديث» الشهيرة في داكا، والكتب التي ألّفها، والمساجد والمراكز العلمية والمؤسسات الدينية التي خلفها، كلها لا تزال تؤدي دورها وتشهد على عبقرية هذا الإنسان، ولسان صدقه في الدنيا.

مع أن الذين ورثوه لم يوفوه حقّه، ولم يؤدّوا الأمانة التي تركها الشيخ على كواهلهم، فبقي عددٌ هائل من كتبه ورسائله القيمة باللغة البنغالية والأردية والعربية والإنجليزية غير مطبوعة وفي طريق الضياع، لا أدري ما هي الأسباب التي حالتْ دون طبعها ونشرها، وكذلك الجمعية التي تركها الشيخ لأن تكون

(١) المرجع السابق، ص٨٠

رمزا لنشر العقيدة الصحيحة بين الناس، ولتكون منصّة التوحيد، ومنارة الرشد، ومنبع الصلاح، تسبّبَ في كثيرة من الإشكاليات، وانحرفَ كثيرٌ من أتباعها عن درب مؤسسها، ومنهجها في الحياة، والتعامل عند الخلاف مع المخالفين، في حين أصبح مثله من العلماء وبمثل منهجه قلّة نادرةً في هذه البقعة.

المفتي محمد فيض الله

(١٨٩٢- ١٩٦٧)

المفتي الأعظم، ناصر السنة، ماحي البدعة

هو إمام من الأئمة الفقهاء، وسلطان المحقّقين في تاريخ بنغلاديش المعاصر، لو قدّر لهذا الرجل أن يولد في باكستان أو في الهند أو في دولة من الدول العربية لكان له شأن غير شأنه اليوم، ولأقبل عليه العالم، وعكفَ على إنجازاته ومآثره، ووضعَه في مكان القيادة لحركة إصلاحية كبيرة، وسطر اسمه في طليعة عظماء المسلمين النابغين، وقادة المجتهدين النابهين في تاريخ الأمة المسلمة، لكنه وُلد في أرضٍ لا تكاد تعرف أبناءها، ولا تعترف بدورهم، ولا تهتم بجهودهم وجهادهم، ولا توفيهم حقوقَهم، وبين قوم ينسى مآثر الكبار بموتهم، ويدفن إنجازات الأئمة مع أجسادهم تحت التراب، فيحرم نفسَه، ويحرم الدنيا كلها.

فقد كتبَ هذا الإنسان العظيم ما يُقارب مئة كتابٍ، معظمها في الفقه، وفي التجديد، والدعوة والإصلاح، باللغة العربية، وبعضها بالفارسية والأردية، ولم يجد من ينشرها في أوساط العلماء، ويصدرها من العالم العربي، على حين أسواق العالم العربي ومكتباته تعجّ بكتب نهرو وغاندي، وأئمة القصص الخرافية، وأحاديث الخيال، والروايات الماجنة، والآداب الخليعة، ولا يوجد من يعرف أعيان العالم الإسلامي وعلماءه ونوابغ رجاله إلا النادر منهم، إنه الفقيه المجتهد، والمصلح المجاهد، والمؤلّف القدير، والكاتب الجليل، المفتي الأعظم لبنغلاديش، مولانا محمد فيض الله رَحِمَهُ اللهُ.

عبقري أصبح يتيم دهره

وُلد محمد فيض الله عام ١٣١٠ للهجرة، الموافق ١٨٩٢ للميلاد، بمحافظة شيتاغونغ، في أسرة

مسلمة شريفة، لأب مسلم، معروف بالورع والتقوى، والأمانة والبساطة، وذاقَ مرارة الفراق لأمّه الحنون بعد الفطام بأيام، لكنها أوصتْ قبل الوفاة أن ينشأ فلذة كبده النشأة الدينية، ويدرس الكتاب والسنة، فنشأ في كنف أبيه، وفي حضن خالته، وفي العام الرابع افتتح حياة العلم والتحصيل، بقراءة القرآن، فقرأ كتاب الله قبل كتب الناس، ودرسَ العربية قبل أن يدرس البنغالية، هكذا كانت وصية الأم الصالحة منفذة، وكانت الخطّة موفّقة، برزتْ ثمراته في حياته واضحة جليّة للجميع.(١)

كان ذاك الوقت بداية القرن العشرين، وفجر تاريخ جامعة هاتهزاري، لقد تأسس هذا الصرح العظيم ولم تمض عليه أكثر من سنتين، فكانت في عنفوانها وحدّتها، وشبابها وفتوّتها، وهنا دخلَ الصبي فيض الله في حَرَمها، وانخرطَ في السلسلة النورانية التي كانت لتنير هذه الدولة بنور العلم واليقين، فقضى فيها عشرة أعوام، ودرسَ على أيدي أعلام العلماء وكبار المربّين، بمن فيهم رئيس الجامعة، الشيخ المصلح مولانا حبيب الله، وكان الشيخ حبيب الله أديبا متمكّنا من اللغة الفارسية، فأخذ منه الفتى فيض الله، وأصبح رمزا فريدا في آداب الفارسية وأشعارها، ولا أدلّ عليه من قصّة تأليف ديوانه الفارسي الذي ألّفه وهو في الصفّ الثالث في جامعة هاتهزاري، درسَ ديوان «غلستان» لأمير الشعراء الشيخ السعدي، فكتبَ على نهجه هذا الديوان، وأسماه «مواعظ فيض»، وهذا الإتقان للغة الفارسية وأشعارها ودواوينها، جعله تسيل على لسانه الأبيات الفارسية والأردية، أثناء حديثه ومواعظه، وكان يكتب الأشعار الفارسية والأردية عفو البديهة، وفيض الخاطر، من دون أن يستعدّ لها، ويبري قلمه، ويعدّ ممحاةً ليمحو ما ينبو ويشذّ، إلا أنه تراجعَ عن هذا المنهج في السنوات الأخيرة من حياته، وبدأ يكره أن يذكر في المواعظ والخطب شيئا من كلام الناس، وإنما هو كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ يرى أن يكون موضوع الخطب والأحاديث،(٢) كما شرحَ قصيدة «بنات سعاد» لسيدنا كعب بن زهير بالعربية، ونشرها باسم «الاقتصاد في شرح بنات سعاد» وهو لا يزال طالبا في هاتهزاري!(٣)

من هاتهزاري إلى ديوبند: مسيرة علمية فريدة

بعدَ أن درسَ في جامعة هاتهزاري طوال عشرة أعوام، وأخذ العلم على أيدي الأساتذة الكبار في بلده، حتى إذا استوفى ما عندهم، تحقق عزمه على الرحلة، وكانت نفسه توّاقة إلى مواصلة الدراسة وأخذ

(١) حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، ج١، ص٢١

(٢) مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص٣٣٥

(٣) حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، ج١، ص٥ و٦٨

العلوم من معينها الصافي- دار العلوم ديوبند، وكان شيوخه الكبار في هاتهزاري هم الآخرون يريدونه أن يُسافر إلى الهند ويدخل في ديوبند، فزاد الحماس على الحماس، وصحّت العزيمة، فسافرَ ووصلَ إلى ديوبند، والتحق بالجامعة، وبدأ يسبح في بحر العلوم والمعرفة، يحتفظ بالدقائق والثواني، وكان شديد الحرص على الوقت وضنينا به، ولم يكن عنده فرصة التنزّه والاستجمام، وما كان يعرف عطلة ولا أعيادا، ولا دعة ولا راحة، وله برنامج لكل يوم، وكان المفتي شفيع العثماني المفتي الأعظم بباكستان زميلا له في ديوبند، وما أحسن التقاء النورَين، واجتماعَ الكوكبَين.

لم يمض على إقامته في ديوبند ستة أشهر حتى لقي نبأ وفاة والده الذي تركَ ثلاثة أبناء أيتاما في بيته، وكان الشاب فيض الله أكبر أسرته، فتطلبت الظروف منه العودة إلى الوطن قبل تحقيق حلمه، إلا أنه كان منذ صغره رمزا للثبات، وأيقونة الاستقامة، بحيث لا تزحزحه الجبال، ولا تفتّ في عضده، ولا تنخر في ثباته الكوارث والطامّات، مهما كبرتْ واشتدّت، فبقي الشاب في حرم الجامعة، وعاش على أحر من الجمر، وآثر العلم على الحياة، ولم يرجع إلا بعد إكمال الدراسة، وشفاء الغلّة، وجمع أصناف العلوم إلى درجة الإمامة.(١)

نبوغه المبكر وظهور «عمدة الأقوال»

كان الشابّ فيض الله يواصل ليله بنهاره في الدراسة والمطالعة، والغرق في صفحات الرسائل والمؤلفات، وإعداد البحوث والدراسات، وتأليف الكتب، وكان مدمن القراءة يومه كلّه، من يوم أتقن القراءة، وأكثر ما أولع به الفقه وأصوله، والبحوث في القضايا الشرعية، وكانت أيام الإجازة في دار العلوم ديوبند تزفّ له بشارة كبرى، وتأتي بفرصة ذهبية، يعكف فيها على المطالعة، والتأليف والتصنيف، فقد كتبَ في إجازة رمضان أثناء دراسته في ديوبند كتابه الشهير «عمدة الأقوال في ردّ ما في أحسن الأقوال»، وقد جاءَ هذا الكتاب ردا على كتاب مبتدع في شيتاغونغ، المولوي ضمير الدين، عندما نشر كتابا بعنوان «أحسن المقال في جواز الخيرات المروجة في ملك البنغال»، يحبّذ فيه شتى أنواع البدع ويروّجها في المجتمع، وقد راجعَ مسودة هذا الكتاب المفتي الأعظم لدار العلوم ديوبند آنذاك الشيخ عزيز الرحمن، وبارك هذا الجهد، ودعا له الأساتذة الكبار في ديوبند بمن فيهم مولانا أنور شاه

(١) المرجع السابق، ص٤

الكشميري، والشيخ شبير أحمد العثماني، والشيخ إبراهيم البلياوي رَحِمَهُمُاللهُ.[١]

ثم درسَ أمهات كتب الحديث ودواوين السنن على الأساتذة المحدثين، وأئمة الحديث والرواية، وأصحاب المصنفات، في دار العلوم، فقد جلس عند شيخ الهند محمود حسن الديوبندي عدّة دروس، ثم سافرَ الشيخ إلى الحجاز، وجاءَ في مكانه علّامة الهند الكبير مولانا أنور شاه الكشميري، فدرسَ عنده البخاري والترمذي، وقرأَ مسلم على الشيخ شبير أحمد العثماني، وأخذ الموطأ من الشيخ المفتي عزيز الرحمن، واستمرّت إقامته في ديوبند إلى السنة الثالثة، وازدادت حاجة البيت والإخوان الصغار إليه أكثر على مرّ الأيام، وكان واسع الذراع ورحيب الصدر لهم، فأخبر الأساتذة، وعاد إلى الوطن بعد ثلاث سنوات، نزولا عند رغبات الإخوان وإلحاحهم، وكان ذاك عام ١٣٣٤ للهجرة والشابّ فيض الله في الرابع والعشرين من عمره.

عودة إلى المنزل

خرجَ فيض الله من جامعة هاتهزاري قبل ثلاثة أعوام دارسا، وقد عادَ إليها الآن مدرّسا، وهيهات ما قبل هذه الأعوام الثلاثة وبعدها علما ومعرفة، وإلماما وتمكّنا، وإخلاصا وربّانية، وصفاء في القلوب، ونقاء في الروح، وثباتا على الدرب، وسعيا حثيثا إلى الهدف، وتوازنا في المنطق والكتابة، واختيارا لما عند الله على ما عند الناس، فقد واجه إغراءات متعدّدة بعد أن عادَ إلى الوطن، وعرضت له المناصب المدرّة للخيرات، والرواتب الفاخرة المغرية، إلا أن القلب الذي نشأ على الزهد والتقشّف، والكفاية بالقليل، ثم عاشَ مع سيد المرسلين في كتب السير، وشاهدَ حياته وحياة أصحابه، وسلف هذه الأمة، لم تكن لتغترّ وتنخدع بهذه الزخارف الفضفاضة، وتُستمال بإشاراتها وفتنتها، فرفضها بإباء وشمم، وولّى إليها ظهرا، وأكبَّ على التدريس في جامعة هاتهزاري براتب بسيط زهيد لا يكاد يُذكر، وظل يخدم العلم وأهله مع زهادة الراتب وضخامة العمل المرهق حسبةً لله.

شيوخه يستفيدون منه

في فترة يسيرة علا نجمه كمدرّس بارز، وأستاذ فريد من نوعه، وأقبل عليه الطلاب إقبالا عظيما رغم تواجد الشيوخ الكبار والمؤسسين للجامعة أمثال الشيخ حبيب الله، والشيخ ضمير الدين، والشيخ الصوفي عزيز الرحمن، والشيخ سعيد أحمد، لتواضعه، ولأسلوبه الفريد في التدريس، وعندما تولّى الإفتاء

---

(١) المرجع السابق، ص٦ و٩٦-٩٧

بدأ يدرّس ويفتي في ذات الوقت، وعلى مرّ الأيام أصبحت غرفته دارَ الإفتاء، وأصبح هو المفتي الأعظم للجامعة، وبدأ الشيوخ الكبار في الجامعة الذين درسَ عندهم الشيخ فيض الله أيام دراسته يستفيدون منه ويسألونه كلّما تشكل عليهم مسألةٌ من المسائل، في الفقه والتفسير، والحديث والبلاغة، واللغة والأدب، والمنطق والفلسفة، فقد كان جامعا لهذه العلوم كلّها، وشهد له رجالها بالنبوغ والفتوح الكبيرة، وكان موسوعة حية.

إنشاء «حامي السنّة ميخل»

قضى في جامعة هاتهزاري زهاء ربع قرنٍ من حياته، وقد انتشرتْ شهرته بين الناس، وعُرف بالمفتي الأعظم، وأقبل عليه الناس إقبالا عظيما، وهنا أحسّ الشيخ بأن أمانة كبيرة لم يقم بأدائها بعد، وأن حقّا من أعظم الحقوق وأثقلها لا يزال على كاهله، وهو حقّ أهل قريته عليه، وأمانة تبليغ العلم والمعرفة إلى جيرانه، والدعوة والإصلاح بين قومه ومجتمعه، فودّع جامعة هاتهزاري وعادَ إلى قريته «ميخل»، حيث وضع نبتةً لمدرسة صغيرة عام ١٩٣١م، أصبحتْ مع الأيام في مقدّمة المدارس العربية الإسلامية في بنغلاديش، وهي مدرسة «حامي السنّة»، قضى المفتي الأعظم الأيام الأخيرة من حياته في رحابها، يتعهدها بالرعاية والسقاية، ويدرّس ويدعو، ويكتب ويؤلّف.

هكذا قضى هذا الإنسان حياته كلّها في الدراسة والتدريس، وفي عالم الصفحات والكتب، وبحار العلوم والمعارف، وبنى جيلا كاملا للعظماء والمصلحين،[١] ومن أبرز من درسَ عليه ونشأ تحت ظلّه الشيخ العلامة يعقوب شيخ الحديث بجامعة هاتهزاري، والشيخ عبد الوهاب رئيس جامعة هاتهزاري سابقا، والشيخ صدّيق أحمد المعروف بالخطيب الأعظم، والعلامة عبد القيوم شيخ الحديث بجامعة هاتهزاري،[٢] والشيخ أحمد الحق المفتي الأعظم وشيخ الحديث بجامعة هاتهزاري سابقا، والعلامة شاه

---

(١) الكواكب اللامعة في دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص١٧

(٢) هو رابع شيوخ الحديث في جامعة هاتهزاري الشيخ مولانا عبد القيوم، وُلد عام ١٩١١م في محافظة شيتاغونغ، درسَ في جامعة هاتهزاري، ثم دخلَ في دار العلوم ديوبند وأخذ الحديث والعلوم الأخرى على أيدي العلماء الأعلام، على رأسهم الشيخ مولانا حسين أحمد المدني، والشيخ إبراهيم البلياوي وغيرهما، وتولّى التدريس في جامعة هاتهزاري عام ١٩٤٠م بأمر من الشيخ عبد الوهّاب مدير الجامعة في ذلك الوقت، وفي عام ١٩٥٧م تولّى منصب شيخ الحديث وصدر المدرّسين فيها، ودرّس البخاري طوال خمس وعشرين سنة، ومن أبرز تلامذته خلال هذه المدّة المديدة الشيخ مولانا تفضل الحق (السلهتي)، والشيخ مولانا إظهار الإسلام (مدير مدرسة لال خان بازار، شيتاغونغ)، والشيخ عبد القدوس (مدير جامعة فريدآباد) وغيرهم، بايع الشيخ ضمير الدين ونال منه الخلافة، وكان على صلة روحية قويّة مع المفتي الأعظم فيض الله، توفّي هذا العالم الجليل عام ١٩٨١م.

أحمد شفيع، المشرف العامّ لوفاق المدارس العربية ببنغلاديش ورئيس جامعة هاتهزاري حاليا، وقائد أكبر حركة إصلاحية ونهضة شاملة في تاريخ بنغلاديش «حركة حفاظت إسلام».

مكتبةٌ عامرةٌ تركها فخلفَ من بعده خلفٌ أضاعها

بالإضافة إلى التدريس، وإدارة المساجد والمدارس، وإلقاء الخطب والمواعظ، كانت له جبهةٌ مهمّة أخرى للدعوة، وهي جبهة الكتابة والتأليف، فقد كان فارس ميدان الكتابة، وبطل الإنشاء، وكان كاتبا مكثرا، بحرا واسع العطاء، قابضا على نواصي اللغات العربية والفارسية والأردية، مع ذلك اختار العربية على غيرها لتكون لغة قلمها، لأن الفارسية كادت تغيب عن المسرح، والأردية انحطّت من مكانها وأصبحت في غير وطنها، أما العربية فلا حظر عليها، ولا أفول لنجمها بين الأمة الإسلامية، ومن ثَمّ جاءت معظم كتبه باللغة العربية، قد يتعدّى عددها مئة كتاب، معظمها في الفقه والردّ على البدع، ومن أبرزها: ◊ فيض الكلام لسيد الأنام ◊ القول السديد في حكم الأحوال والمواجيد ◊ الفيصلة الجليلة لأحكام سجدة التحية ◊ رافع الإشكالات على حرمة الاستئجار على الطاعات ◊ إظهار الاختلال في رسالة الاعتدال في مسألة الهلال ◊ إرشاد الأمة إلى التفريق بين البدعة والسنة ◊ الكلام الفاصل بين أهل الحق والباطل ◊ الرسالة المنظومة على الفرقة الناصرية ◊ عمدة الأقوال في ردّ ما في أحسن المقال في الفلاح فيما يتعلّق بالنكاح ◊ تعليم المبتدئ للسان العربي ◊ الحق الصريح في المسلك الصريح ◊ إظهار المنكرات ◊ هداية العباد ◊ توضيح البيان، وغيرها كثير باللغة العربية والفارسية والأردية.(١)

إلا أن جهود هذا الإنسان العظيم ضاع جزءٌ كبيرٌ منها، فالأمة التي قضى حياته لصلاحها وصالحها، وألف هذه الكتب لتوجيهها، هي التي استهانتْ بها، وأضاعت جزءا كبيرا منها، وهذه حقيقة تاريخية تصدق على كل أمّة مسكينة شقيّة، فقد يبرز فيها من يريد إصلاحَها وإنهاضها، إلا أنها تخلد إلى الأرض وتتّبع الهوى، لذلك اختفت معظم هذه الكتب القيّمة للمفتي الأعظم من مكتبات بنغلاديش، فضلا عن مكتبات العالم العربي، فإنها لم تجد بعد وفاة مؤلفها من يحسن رعايتها، ويوفّيها حقّها من الحفظ والاحتفاظ، وينشرها بين الناس، إلا أن الفرصة ما زالت متاحة إلى حد ما، والباب ما زال بعضه مفتوحا، يا ليت أحدا ينهض ويتدارك الأمر قبل فوات الأوان، فيقدّم به خدمة جليلة إلى الأمة الإسلامية.

(١) انظر بالتفصيل تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص١٦١ و١٦٢

عبقريته في الفقه وموقفه من المذاهب

كان جبلا في العلم، وإماما في الفقه، برز فيه النبوغ ومواهب الفقه منذ سن باكرة، وقد مرّ بنا أنه ألف كتابا باللغة العربية في الرد على مبتدع وهو يدرُس في جامعة ديوبند، وهكذا الرحلة التي بدأت في أيام دراسته وتحصيله استمرّت طيلة الحياة، حتى أصبح موسوعة فقهية منفردة، وعرف حقّا بالمفتي الأعظم لبنغلاديش، وكان له منهجٌ قويم خاصّ في الفقه، واجتهادات فقهية مستندة إلى النصوص، فقد أهّلته ثقافته الموفورة ودراسته العريضة العميقة على الخروج- عند الحاجة- من الخلقات الضيقة التي وقف إزاءها معظم علماء هذه الدولة، فنراه يخالف في بعض فتاواه المذهب الحنفي وهو حنفي المذهب، وذلك لأنه كان مجتهدا يستوفي شروط الاجتهاد والإمامة، فلا يقلّد المذهب تقليدا مطلقا، بل ينهل من معين السنة مباشرة، ويستسقي من ينابيع الشريعة ذاتها.

قد يبدو أنه كان شديد التحفظ في آرائه حتى سمّاه البعض حنفيا متحنبلا، لشدّته في الرأي، واقتراب اجتهاداته من المذهب الحنبلي، لكننا نثق بأن ذلك كان بحكم البيئة التي نشأ فيها، والمحيط الذي عايشه، والمجتمع الذي قام فيه بالدعوة والإصلاح والإفتاء، لأن منطقة شيتاغونغ كانت آنذاك- ولا تزال للأسف- من أكثر المناطق غرقا في البدع، وأشدها اكتظاظا بأوكار الخرافات، وزوايا الصوفية الضالّة والطرق البدعية، فجاءَ هذا الإنسان كسهم سلّط الله على المبتدعة وأصحاب الأهواء، فاشتدّ في الرأي، وأخذ بالأحوط.

نذكر على سبيل المثال رأيه في مسألة «أخذ الأجرة على الطاعات»، فقد كان يصرّح بأن العوض الذي يُعطى مقابل القيام بعبادة من العبادات الشرعية لا يجوز أخذه، مع أنه ذكر أن هناك رأيا للمتأخرين يرى جوازه، وقد فصّل هذه المسألة تفصيلا دقيقا، وخصّص له كتابا أسماه "رافع الإشكالات على حرمة الاستئجار على الطاعات"، كما أنه كان يرى أن رفع الصوت بالذكر بدعةٌ، ويستدلّ بالحديث النبوي "إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا..." (١) مع الأحاديث الأخرى، وكان يمنع من الذكر الجماعي بالصوت الجهوري في المساجد، وكذلك رأيه في عدم وقوع الطلاق في حالة الغضب، فقد كان يرى أنه من يطلّق في حالة شدّة الغضب وغيبة الشعور والإحساس، حتى لا ينتبه إلى ما يقوله أو يفعله، لا يقع طلاقه، وهكذا كان يرى أن الدعاء الجماعي عقب المكتوبة بدعة، كما كان يقول بابتداع

(١) من حديث أبي موسى، صحيح البخاري، كتاب الدعوات، رقم ٦٠٢١

الاعتكاف لمدّة أربين يوما بالتحديد.[١]

مثالٌ حيّ للتوسط والاعتدال: مع الصوفية وضدّ الصوفية

رغم شدّته في الفقه والأخذ بالأحوط، وسياسة اتّباع سدّ الذرائع في العبادات والمعاملات، لم يهاجر المذهب الحنفي، ولم يدْعُ الناس إلى التخلي عن المذهب، ورغم جهاده ضدّ الصوفية وأهل الزوايا، وتبديع الطرق الضالّة المضلة، كان على علم وبيّنة من تاريخ الربّانيين والمصلحين في هذه الأمة، وما قاموا بدور بليغ في الدعوة والإصلاح، وما قدّموا من خدمات جليلة في تزكية النفوس، وتخليتها عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، وتوعية الضمائر، وتوجيه الأرواح الضائعة، وتطهير القلوب من زخارف المادّة ومطامع الحياة، فلذلك كان يؤمن بالربّانية، وبحاجة الناس إلى مرشد يوجّهه، وينير له الطرق، ويُساعده على الطاعة، حتى بايع بنفسه الشيخَ المصلح، المحدث الكبير، العلامة سعيد أحمد، خليفة شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي، واستفاد منه في السلوك والمعرفة، حتى نال الإجازة،[٢] كما استمرّ في الردّ على المبتدعة الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وفضح القبوريين، وبيان زيغ أصحاب الزوايا الصوفية الخرافية، والشطحات التي لا استناد لها إلى القرآن والسنة، ومن أبرز ما كتبه في الرد على الصوفية المبتدعة «إرشاد الحق»، و«الطريقة المثلى إلى إصلاح النفوس»، و«الحق الساري»، و«بين لذة العشق وحلاوة الإيمان» وغيرها، معظمها باللغة الأردية، وهكذا جمعَ بين الإفراط والتفريط، والغلوّ والجفاء، وسارَ في هذا الطريق الشائك مسيرة دليل بصيرٍ، وهادٍ خريت.

إلى رفيقه الأعلى

بعد أن قدّم نموذجا فريدا للدعوة والإصلاح والتأليف والتدريس في تاريخ بنغلاديش، انتقل هذا المصلح العظيم، والمجاهد الكبير، إلى رفيقه الأعلى، وكان ذلك عام ١٩٧٦ للميلاد، بعد أن سجّل نفسه في قائمة الخالدين، ليستمرّ أن يكون مصدر حماس للعمل، وأسوةً حسنة للحياة المثالية، لأبناء المسلمين في هذه الدولة، وفي العالم أجمع.

(١) انظر في تذكره عزيز، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي

(٢) حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، جـ١، ص٨-٩

مولانا محمد أكرم خان

(١٨٦٨-١٩٦٨)

أبو الصحافة البنغالية، رائد النهضة الإسلامية، العالم السياسي العبقري

العصر الذي جاء فيه

لم يكن هذا الإنسان عالما دينيا، ومصلحا شرعيا، ومؤلفا وسياسيا فحسب، إنما كان مدرسةً فكريةً كاملة، وعبقريًا من عباقرة الأمة المسلمة الهندية برمتّها، في عصور التدهور والانحطاط، وكان منبع نهضة كبيرة، ونواة حركة واسعة، ومصدر أمل لمستقبل باهر، ورائد انتفاضة شاملة، وحربا على الرجعية والجمود، والتخلّف والتنكّب، برزَ في عصرٍ كان الإسلام بحاجة إلى مثله، وكانت الأمة المسلمة البنغالية في أحطّ أدوار التاريخ، وكانت أشد الأمم إفلاسا على وجه الأرض، خسرت في نضال الحياة كل شيء، وخفت في الميزان، وفقدتْ إيمانَها بماضيها المجيد العريق الذي صنعه أجدادُها في هذه البقعة يوما من الأيام، وتأخرت في ميدان السياسة أمام الاستغلال والاحتلال، وضيّعت المكانةَ التي كانت لها بين الأمم، والقيادة التي تملك زمامها أكثر من ألف عام، برزَ هذا الإنسان في ذلك العصر، فكأنه جاءَ في أوانه ومكانه، وأدى الأمانة التي كانت على كاهله، وقام بمسؤوليته، وأدلى بدلوه، حتى أصبح من أفذاذ العلماء، ونوادر الزمان، ومن طليعة الأعلام الخالدين في تاريخ البنغال، فاقَ الأتراب والأقران، والأحزاب والاتجاهات، وقيود الأزمنة وحدود الأمكنة، وبلغ من العلم الغزير، والثقافة الواسعة المترامية الأطراف، والجمع بين الماضي التليد والحاضر الطريف مبلغا قلما يبلغه الرجال، وأثبت أنه بالحق فارسا مقداما في ميدان الحرب، لا فرق عنده بين السيف على عاتقه، والقلم بين أصابعه، القلم الذي أسقط به عروشا، وبنى به صروحا وحصونا، وأنار به عقولا، ونشر به دعوةً وانتفاضة، إنه الشيخ مولانا محمد أكرم خان رحمه الله.

لقد كان عصر الشيخ أكرم خان يتفرّد بمثلث الأخطار التي كانت تهدّد بالأمة الإسلامية الهندية، فكان المسلمون في مؤخّرة القافلة، اقتصاديا وثقافيا، وكانوا الرعايا المفلسة التي ليس لها حقّ في القيادة والسياسة، كما كانت الأمة مفلسفةً في الدين والأخلاق، وكانت روح الإسلام والعقيدة الصحيحة الصافية في ضياع، والبدع والخرافات على قدم وساق، والأساطير دون العقائد الصحيحة بضاعة نافقة في الأسواق، لا شكّ أن بعض العلماء والمصلحين والقادة اهتمّوا في هذه الفترة بالشعب المسلم، إلا أنهم كانوا في البنغال الغربية، وكانت جهودهم تتمحور حول عاصمتها كلكتا، أما الشعب البنغالي المسلم المنتشر في أرجاء البنغال المترامية الآفاق عموما، وفي الشرق خصوصا، فلم يكن لهم نصيبٌ من هذه العناية، ولذلك هذا المحيط المؤسف هو الذي كان أوّل دافع للشيخ أكرم خان على الانطلاق، ونفخ في روعه روح الجهاد والإقدام، والعمل والإصرار، والسعي الدؤوب، وتحمّل المصاعب، والمضيّ قدما في سبيل تحقيق الأحلام.

الميلاد والنشأة

فتحَ الشيخ عينيه في محافظة « ٢٤ برغنة» بالبنغال الغربية عام ١٨٦٨م[١] على أسرةٍ مسلمة شريفة، تتدفّق حياة وروحا، وتلتهب حميّة وأنفة، وحماسا غريبا لإعلاء كلمة الله، وإظهار دينه، بعد أن كانتْ قد حرمتْ منها عبر القرون، وتاهتْ في الظلام والضياع، فقد كانت هذه الأسرة تتحدّر من سلالة هندية وثنية، نفس السلالة التي ينتهي إليها نسب رابندرانات طاغور، إلا أن أجداد الشيخ أكرم خان أدركوا معنى الحياة، وعرفوا خالق الخلق، ودخلوا في دين الله، فأكرمهم الله في الدنيا والآخرة، وقد كان والده الشيخ مولانا عبد الباري خان مجاهدا باسلا، وعالما سلفيا،[٢] وتلميذ الشيخ المحدث العلامة نذير حسين الدهلوي، شاركَ في جهاد الشيخ السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي ضد السيخ والإنجليز، وله نظر وباع في علوم الدين والدنيا، فكان الشيخ أكرم وارثا لوالده، في روحه وفكره، وجهوده وجهاده.[٣]

(١) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف الشيخ مولانا أبو بكر الصديق، ص١٠١

(٢) مجلة التحريك الشهرية، الصادرة من مؤسسة الحديث براجشاهي، العدد ١، العام الثاني، أكتوبر ١٩٩٨م، ص٢٠

(٣) انظر للتفاصيل الحركة السلفية في البنغال، رسالة الماجستير للشيخ مصلح الدين، ص٣٤١ وما بعدها

عالم متفنّن موسوعي

إلا أن الشيخ فقد والدَيه في سن باكرة من حياته، فقدهما في يومٍ واحد، إثر طاعونٍ، وهو ابن أحد عشر عاما، فذاقَ مرارة اليتم، وعانىٰ من تجارب الحياة المرّة في طفولته وأيام مراهقته، ونشأ في حضن جدّه وأخيه الأكبر، ومن ثم للقارئ حقّ أن يظهر الدهشة والعجب، ويتساءل كيف أصبح هذا الطفل عبقريا من عباقرة الدهر، وكيف بلغَ ما بلغه من العلم والمعرفة، والريادة والقيادة، واللغة والأدب، والسياسة والدعوة، والمكانة والعظمة، هنا تبرز مرّة أخرىٰ معجزة الصبر والصرامة، وقوّة العزيمة والمثابرة، والتفرّغ والتفاني في سبيل الحلم، والثقة التي لا تزحزحها الجبال، بالرب ثم بالنفس، والسعي المطرد إلى الغاية العظمى، لذلك نرىٰ الشيخ يدرس الابتدائية في كتاب قريته، ثم يدخل في المدرسة العالية بكلكتا عام ١٨٩٦م، ويدرس فيها أربع سنوات، ويتخرّج في مرحلة الفاضل عام ١٩٠٠م، ويتقن اللغات، العربية والأردية، والفارسية، والبنغالية، والسنسكريتية، والإنجليزية! ويعدّ نفسه إعدادا كاملا قبل أن ينزل في الساحة.[١]

جاهد الشيخ في معظم جبهات الحياة، جبهات العلم والثقافة، والصحافة والإعلام، والتأليف والكتابة، والسياسة والقيادة، والدعوة والإصلاح، ونشر العقيدة الصحيحة، وإنقاذ المجتمع المسلم من البدع والخرافات، ودعم الأعمال الإنسانية، إلا أن عبقريته برزتْ في ثلاث جبهات على وجه خاص، وهي الصحافة والسياسة والدعوة، ولنا أن نتناول هذه الجبهات الثلاث بالتفصيل في السطور الآتية.

ريادته في الصحافة البنغالية والإسلامية

في عام ١٩١٠م[٢] بدأ الشيخ أكرم خان يُصدر صحيفة أسبوعية تحمل عنوان «المحمّدي الأسبوعي» بمساعدةٍ من تاجر مسلم، ميسور الحال، كريم في الإنفاق، الشيخ الحاج محمد ألطاف، فكانت نقطة انطلاق الرحلة، وباكورة الصحافة،[٣] كانتْ هذه الصحيفة تحاول إيقاظ الأمة المسلمة، وتوعية المجتمع على الواقع، وتثقيف المسلمين فيما يجري حولهم من الطوفان، في عصر كان المجتمع البنغالي المسلم مجتمعا أميّا لا يعرف الكتابة والقراءة، مع استثناء العدد المعدود منهم من الأوساط المثقفة

(١) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص٢٠٠

(٢) وقد ذكر البعض أن تاريخ صدور المحمدي لأول مرة كان ١٩٠٨م، انظر "الحركة السلفية في البنغال"، تأليف الشيخ مصلح الدين، ص٣٤٣

(٣) إلا أنه مارس الصحافة كموظف في بعض الصحف والمجلات، قبل أن يتولى بنفسه التحرير والإصدار.

الذين كانوا يهتمون بالإنجليزية، ويؤثرونها على اللغة الأم، كما كانتْ ترفض الاحتلال، وتؤيد حركة الخلافة العثمانية، وتدعو إليها، وتبارك لها، وتقوم بدور ريادي في حركة التحرير، والنفخ في روح المسلمين روح الجهاد، وروح التحرير من الاحتلال ومن ضياع المصير، والاستقلال ونقض القيود ورفع الأغلال، والردّ على التنصير والمنصّرين، الذين كان لهم –ولا يزال– نشاطٌ دعويّ في المنطقة البنغالية. كما كانت تهتمّ بالجدال والمناظرات بين الحنفية والسلفية، وفي الحقيقة أن اسم الصحيفة «المحمدي» هو الآخر يحمل أمارة ذلك التيار، فكانت السلفية مشهورة بـ«المحمدية» في ذلك العصر، هنا برز الشيخ خان في الميدان يحمل لواءها، وبرزت صحيفة «المحمدي» يتحدث باسمها.[١]

في غضون فترة يسيرة نالت الصحيفة القبول والإقبال من المسلمين، وأصبحتْ شوكةً في طريق الاحتلال، وقذى في عين الهندوس والإنجليز، فصدر أمرُ المصادرة، وتوقّفت عن الظهور، لكن رحلة الشيخ أكرم لم تكن لتتوقّف، ففكّر في تغيير سلاحه، وتبديل طريقه، ونشر صحيفة «الإسلام» عام ١٩١٥م، وأنشأ صحيفة «الخادم» عام ١٩٢٠م لتأييد حركة الخلافة، وكان يكتب فيها كبارُ العلماء والقادة أمثال مولانا أبي الكلام آزاد، ومولانا منير الزمان الإسلام آبادي، والشيخ مولانا عبد الله الباقي، ونشرَ صحية يومية باسم «الزمان» عام ١٩٢١م، كما أصدرَ في عام ١٩٢٢م مجلّة شهرية أخرى باسم «المحمّدي»، وكتبَ فترةً في صحيفة «أهل الحديث» وصحيفة «أخبار محمدي».

لكن عام ١٩٣٦م ظلّ نقطةً فريدةً في تاريخ البنغال عامة، وفي حياة الشيخ أكرم خان خاصّة، ففي هذا العام بدأ الشيخ ينشر «آزاد»،[٢] فكانتْ بداية عهد جديد، وقرنٍ فريد في تاريخ الصحافة الإسلامية في البنغال، وكانت ثانية اثنتين، صدرتْ قبلها جريدة «السلطان» عام ١٩٢٦م من كلكتا ثم توقّفت بعد فترة،[٣] ثم جاءتْ «آزاد» وأحدثت ضجّة كبيرة في الحكومة ومعسكر الأعداء، كما أحدثت صدى حميدة بين العلماء والطلبة وعوام المسلمين، وكان ذلك يوما مشهودا في تاريخ البنغال، وكان يوم عيد للمسلمين، احتفلوا برغبة عارمة، وشوق زائد، وتصافحوا وتعانقوا في إخلاص وحماس، وتبادلوا التهاني، وأقبل الوفود على الشيخ أكرم خان، بالترحيب والتفاؤل، والأزهار والأدعية![٤] في

(١) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص١٣٤

(٢) History of Indian Journalism, J. Natarajan (١٩٥٥)

(٣) دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله، ص٣٤

(٤) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص٢٠٤

حين كانت «آزاد» جريدةً وحيدةً تتحدّث باسم الشعب البنغالي المسلم في الهند، بينما كان المجتمع الهندوسي يعجّ بالصحف والمجلات، تبثّ السموم والكراهية للإسلام والمسلمين، وقد قامتْ هذه الجريدة بدورٍ ريادي في توعية المسلمين، وتثقيفهم، وتنبيههم، وفي الدعوة والإصلاح، وحركات التحرير، والانتفاضات ضدّ الاحتلال، إلا أن ركيزتها الأولى كانتْ إنشاء باكستان، تهتمّ بها غاية الاهتمام، وتؤيد فكرتها، وتجند لها الرأي العامّ، حتى جاءتْ بانقلاب شامل بين الناس، الصغار والكبار، الأطفال والشيوخ، وأصبحتْ "باكستان" شرابا حلالا، يريد الناس أن يرتوا به، ويشربوا منه ولو جرعةً! حتى قال بعض العلماء:" لولا مولانا محمد أكرم خان، ولولا صحيفته «آزاد»، لما كانتْ هناك باكستان الشرقية، ومن ثم لما كانتْ هناك بنغلاديش"، كما خرّجت هذه الجريدة كوكبةً منوّرة من الصحفيين، والعلماء الإعلاميين، ورجال الفكر والقيادة، كان لهم دورٌ بليغ في الدولة والأمة، وكانوا مدينين في ذلك للشيخ أكرم خان.[١]

لقد نشرَ الشيخ بعض هذه الصحف في أحرج وأدق لحظات حياته، عندما كان يعاني من تحديات اقتصادية، ويعيش في ضنك وضيق ذات يد، فلم يجد في جيبه إلا روبيات، مع ذلك نهضَ يشتري بها القرطاس، ويحمله على رأسه إلى مقرّ المجلة لنشرها، بدل سدّ الرمق وتقويم العود، وكان يقترض أحيانا، ويبسط يده السائلة إلى الأصدقاء والأقرباء، لا للبطن، وإنما للمبدأ والرسالة، وكانتْ هذه الصحف والمجلات تؤذن حربا ضدّ الصحف الهندوسية، وتضاربها حينا بعد حين، من أجل هذا كلّه لقّب الشيخ بكل جدارة وأمانة «رائد الصحافة الإسلامية البنغالية».

كما لعب دورا كبيرا في نشر العقيدة الصحيحة وإزالة الجاهلية والأمية من المجتمع البنغالي المسلم، فأسس «لجنة علماء البنغال» بشراكة مع العلماء الكبار، بمن فيهم الشيخ منير الزمان الإسلام آبادي،[٢] وكانت هذه الجمعية من أبرز الجمعيات الدينية في ذلك العصر المظلم، وفي تلك البيئة الحالكة، وأسس «وكالة المحمدي للكتب» لنشر الكتب والمؤلفات، وكان له دورٌ كبير في «النادي الأدبي لمسلمي البنغال».

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص ٥٢-٥٣

(٢) دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله، ص١٥٨

عالم سياسي نادر وآثاره في سياسة شبه القارة الهندية

كانت الصحافة في الحقيقة عونا له في السياسة، فقد حمل القلم، ونشر المقال، وأصدر الصحف والمجلّات، من أجل الدعوة إلى المبدأ الذي كان يؤمن به، والحركة التي كان يتحرّك ويسعى من أجل نجاحها، وكان سياسيا كبيرا، وقائدا مطبوعا مظفرا، ولذلك دخلَ في السياسة في وقتٍ مبكّر، أيام الإنجليز، وشارك في حركة تحرير الهند من براثن الاحتلال، كما شاركَ في «حركة الخلافة» و«حركة عدم التعاون»، وأيد هذه الحركات في الصحف والمجلّات التي كانت تصدر بتحريره أو تحت إشرافه، ولما نشرَ مقالا في صحيفته «الخادم» نهضَ الإنجليز، وصادروا الصحيفة، وزجّوا بالشيخ في السجن، وقضى فيه برهة من الزمن.

قضى الشيخ أكرم خان فترةً كبيرة من حياته يمشي في ركاب «المؤتمر الهندي»، إلا أنه مع الأيام لما كشفَ القادة الهندوس عن وجوههم الحقيقية، اتّسعت الفجوة بينه وبين المؤتمر، وخصوصا في قضية أغنية الشاعر الهندوسي البنغالي المتطرّف، بنكيم تشاندرا « بندے ماترم» التي هي عنوانٌ على الهندوسية، وفيها أمورٌ تصادم العقيدة الإسلامية،[١] وطالب الشعب الهندوسي- وعلى رأسهم القادة الهندوس والشخصيات الكبيرة أمثال طاغور وغاندي- أن تكون هذه الأغنية النشيد الوطني للهند، التي تحتضن الشعب المسلم كما تحتضن الهندوس، فثار العلماء والمسلمون، وثارَ على رأسهم مولانا محمد أكرم خان، واحتجوا عليها احتجاجا كبيرا، كما كانتْ هناك ثقافة عامّة في المسلمين، وهي إضافة لقب «سِرِيْ» الذي هو ثقافة وثنية خالصة في بداية أسمائهم، فثارَ الشيخ على هذه القضية هي الأخرى، وهكذا شعرَ مع الأيام بحاجة ماسّة إلى دولة مستقلة للشعب الهندي المسلم، وأن الحزب الهندوسي مثل «المؤتمر» لا يحمل في طيّه مستقبلا واعدا للمسلمين، فقطعَ صلتة بالمؤتمر عام ١٩٢٧م، ودخلَ في «الرابطة المسلمة»، وبدأ يرفع صوتَه لفكرة باكستان، فكانت نقلة تاريخية في حياته.[٢]

في عام ١٩٣٧م اختير مولانا رئيس المجلس الولائي البنغالي للرابطة،[٣] وظلّ يجاهد ويعمل من أجل تحقيق حلمه، ومنذ انفصال باكستان استمرّ في جهاده ودفاعه عن الإسلام، والدعوة إلى تحكيمه في شؤون الحياة، وإبراز سمو النظام الإسلامي، وظلّ مع «الرابطة» أكثر من ٥٦ عاما، لكن لما رأى

(١) فالعنوان «باندي ماترم» مثلا يعني «نحمدك يا أماه» أو «نعبدك يا أماه»، ويقصد بالأم هنا «دورغا» الإلهة الهندوسية الأسطورية.

(٢) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص ٢٠٣

(٣) Historical Dictionary of Bangladesh, Syedur Rahman, p. ١٦

خيبة أمله في قادتها قرأ عليها سلام الوداع، واعتزل ميدان السياسة، وقد شاركَ في أحزاب شتّى في مواطن مختلفة، إلا أنه في نهاية الحياة تركَ السياسة جملة وتفصيلا، وطوى كشحه عن غمارها عام ١٩٦٢م.[١]

آثاره في ميدان التأليف والكتابة

الجبهة الثالثة لجهاد الشيخ أكرم خان كانت الدعوة والإصلاح، فكان داعيا ومصلحا في صميمه، جنّد قلمه وثقافته ومشاعره من أجل الدعوة منذ فترة مبكّرة، واستخدم اللسان كسلاح ماضٍ في سبيل الإصلاح، وقد كان كاتبا مطبوعا، يملك سلامة الذوق، وتوقد الفكر والبصيرة، والأسلوب الرقيق الرفيع، فكتب كتبا كثيرة، خالدة في موضوعها، فريدة في بابها.

ومن أبرز ما كتبه: ◊ سيرة المصطفى ◊ تفسير القرآن الكريم، وهما من أعماله الخالدة (خمسة مجلدات) ◊ تحفة السجن ◊ المشاكل والحلول ◊ التاريخ الاجتماعي لمسلمي البنغال ◊ الإسلام والخلاص ◊ بين الإنجيل والنصرانية الحالية ◊ أركان الدستور الإسلامي، وغيرها.

من بين هذه المؤلفات كلها «سيرة المصطفى» و«التاريخ الاجتماعي لمسلمي البنغال» سفران خالدان في التاريخ، يشهدان على معرفة كاتبه، ونصاعة أسلوبه، وسعة اطلاعه، ورشاقة عرضه، والترسّل في العبارة، وعلوّ كعبه في الأدب، وجودة سبكه، روعة بيانه، وعمق دراسته، وبعد نظره، في كل سطر وفقرة.

تحدّث في الأول عن السيرة النبوية على صاحبها السلام، بأسلوب سهل سلسال، ورسم حياة الرسول ﷺ كقدوةٍ وحيدة تستحقّ أن يقتدي بها البشر في كل عصر ومصر، وهذا الكتاب لا يزال يعدّ من طليعة الأسفار الخالدة باللغة البنغالية في السيرة النبوية، وأعجب به العامة والخاصة، حتى ذكر البعض بأن «سيرة المصطفى» لمحمد أكرم خان أحسن من كتاب «سيرة النبيّ» للشيخ شبلي النعماني! وأثنى عليه أسطورة اللغة البنغالية الأستاذ الدكتور محمد شهيد الله ثناء بالغا.[٢]

أما كتابه الثاني «التاريخ الاجتماعي لمسلمي البنغالي» فقد تحدّث فيه عن تاريخ المسلمين في البنغال، وأدوار رقيهم ومجدهم، منذ التاريخ القديم إلى العصر المعاصر، وذكر الديانات القديمة السائدة

(١) حركة أهل الحديث: تاريخها وتطورها في جنوب آسيا، للشيخ محمد أسد الله الغالب ص٤٦٨

(٢) انظر خاتمة القرآن الشريف: ترجمة بنغالية وتفسير موسّع ج ٢، تاليف الشيخ أكرم خان، ص٣٤٠

في هذه المنطقة، من الهندوسية والبوذية والزرادشتية، ثم تحدث عن وصول الإسلام إليها، ودخول الناس فيه، ومع أنه سمّى الكتاب «التاريخ الاجتماعي لمسلمي البنغال» إلا أنه تحدّث فيه عن التاريخ الديني والعقدي والفكري جميعا، فذكرَ أهمية التوحيد وثمراته، ومضار البدع والخرافات وآثارها السلبية في المجتمع، وردّ على الصوفية المنحرفة والقبورية، ولم يفته الحديث عن مراحل ضعف المسلمين وانحطاطهم الديني والسياسي، وعواملها وأسبابها، ولخّص تلك الأسباب كلّها في ذوبان المجتمع المسلم في المجتمع الهندوسي، وفقدان الأمة المسلمة عقيدتها، وهويتّها، وثقافتها، وغفلتها عن تاريخها ومعنوياتها، وانحرافها عن محجتها البيضاء، وسبق الهندوس في ميدان التعليم والاقتصاد والسياسة، ولا تزال الأمة المسلمة في هذه الدولة رغم أغلبيتها تعاني من المشاكل نفسها، فأصيبت بكل ألوانٍ من الذل والخذلان، والاستكانة والاستسلام لدى الأقلية الهندوسية، أما آن للأمة أن تفيق من غفوتها؟

لقد كان حقّا فارسا شجاعا من فرسان ميدان الكتابة والتأليف، ورائد النهضة الإسلامية في الأدب البنغالي، اعتنى باللغات والآداب منذ طفولته، ودافعَ عنها، وحثّ المسلمين على استثمارها، وحسن استخدامها، وإعطائها حقّها الذي تستحقّه، ولما ثارتْ في البنغال قضية محيّرة للشعب البنغالي المسلم، وارتفعت الدعوات إلى أن لغة المسلم البنغالي هي الأردية وليست البنغالية، واحتار المسلمون في تلك الظروف المضطربة غاية الاضطراب، والجامدة غاية الجمود، هنا حضرَ الشيخ أكرم خان في مجمع كبير، وقال متأسّفا: "أغربُ سؤال واجهني في حياتي، وأسمعه ممن حولي، هو سؤالٌ عن لغة المسلمين في البنغال، هل ثمة سؤال في العالم أغرب من هذا؟ هل النخلة تُنبت إلا الرطب! فكيف تكون لغة الشعب البنغالي المسلم غير البنغالية!" وكان من روّاد حركات اللغة البنغالية في خمسينيات القرن الماضي،[1] كما كان في طليعة من فكّر في مجمع علمي للغة البنغالية، وأدى دورا رياديا في تأسيس «مجمع اللغة البنغالية»، وكان أول رئيس له،[2] ذلك المجمع الذي نسي الآن مؤسسه، وكثيرا من رواده الذين أسسوه بخلاصة حياتهم ودماء أكبادهم، فوقع في أيدي العلمانيين والمتطفلين، الغرباء عن الشعب والدين، وأصبح العلماء أبعد الناس عنه.

كذلك أعلن مرّة في مجمع كبير بصوته المجلجل المعروف: "أيها السادة! العلم باللغة البنغالية أعتبره علما لدنّيا، ومنّة ربانية، وُلدتُ في بيتٍ له تاريخٌ عبق فوّاح، يتأرّج بعبير العزة والحرية، والجهاد والبطولة،

(1) دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله، ص٨٢- ٨٣

(2) المرجع السابق، ص١٠٨

وقد أنجب هذا البيتُ كبيرا من الفوارس والمجاهدين، الذين حملوا السلاح في سبيل الله، وخاضوا في ساحة الوغى، فكنتُ أحلمُ بالجهاد منذ طفولته، وتدرّبت على الرمي وممارسة القضبان، إلا أن قدر الله كان مفعولا، فحملتُ القلم بدل السيف، وأخذتُ اللغة في مكان الجُنّة، ومع أن اللغة ليست هي غايتي، إلا أنها أكبر عونٍ وأمضى سلاح في جهادي".

هل من إعلان أفضل وأطهر وأنقى من هذا الإعلان! فقد كان إعلانا فريدا في تاريخنا، وتتجلّى قيمته وخطورته أكثر عندما يؤخذ في الاعتبار المحيط الذي قدّم فيه هذا الإعلان، والشعب الذي عُرض عليه، وهذا يكفي لأن يجلّي عبقرية هذا الإنسان، وعمق دراسته للأوضاع، وللماضي والمستقبل، وفراسته الإيمانية، وبعد نظره، ولذلك رغم تباين المذاهب والمشارب، والاختلاف في الآراء والأفكار، والمناهج والاتجاهات، لم يعترض أحدٌ على مكانته في اللغة والأدب، ولم يتردّد أحدٌ في الاعتراف بريادته في الصحافة والكتابة![1]

منهجه في الدعوة وآثاره في الإصلاح

كما أسلفنا أن الدعوة إلى الله كانت أهم جبهات حياة هذا الإنسان الكبير، وهي التي يدور حولها جميع جهوده وجهاده في جبهات شتّى، فقد شاركَ في السياسة لتحرير الوطن من الاحتلال، ثم لتطبيق النظام الإسلامي في دولةٍ قامتْ على عهود الدستور الإسلامي، كما شاركَ في الصحافة والكتابة، ونذرَ حياتَه للإعلام الإسلامي، كان الدافع الأول هو الدعوة والإصلاح، وكانت الركيزة في هذه الأعمال كلها الإيمان بالله، والتحكمّ إلى كتاب الله والسنّة الصحيحة، وقد تأثّر بالإمام ولي الله الدهلوي كثيرا، وكان معجبا بالإمام السيد أحمد بن عرفان البريلوي، كما تأثر بشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام المجدد أحمد السرهندي، والإمام محمد بن عبد الوهاب، والسير السيد أحمد خان، والشيخ جمال الدين الأفغاني، ومن هنا كانت شخصيته شخصية جامعة، فيها مرونةٌ ومحاولة التوفيق بين الدين والمدنية، تعرف لأهل الفضل فضلهم، ولا ترى في حبّهم والصلة بهم والاستفادة منهم نقصا أو تناقضا، إلا أنه كان يقول : لو يريد أحد أن ينسبه إلى مذهب أو مدرسة فكر أو يسمّيه باسم فليسمّه "وهابيا"[2]، كما تأثر في بداية حياته بالشيخ المجاهد الكبير المنشئ مهر الله، ووجد نشاطا وطموحا في

(1) انظر اعتراف العلماء والقادة والأوساط المثقفة بعبقريته وندرته ومكانته في تاريخ هذه الدولة السياسي والفكري، في مقال كتبه محمود يوسف، جريدة "سنغرام" (الكفاح) اليومية، يوم الجمعة، ١٨ أغسطس، ٢٠١٧م.

(2) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص١٤٧، إلا أن الشيخ محيي الدين خان ذكر في مقال له عن الشيخ خان: "أنه لم يكن

العمل للدين بعدما شاهدَ أعماله وإنجازاته الدعوية والإصلاحية،[١] ومن ثم جاهدَ طوالَ حياته ضد البدع والخرافات، وحذّر الشعب المسلم من الكفر، ومن الحروب التي كانت قائمة بين التوحيد والشرك والجمود والإصلاح، وفقدان الهويّة، والذوبان في الثقافات المعادية للدين ولشريعة الله، وكانت المجلة «المحمّدي» خير عون له وساعده الأيمن في جهاده، كما ساعدَه على ذلك تضلعه من اللغات، وشغفه بالآداب، وصلته بالقلم والكتاب.

لقد أدىٰ الشيخ خان دورا بليغا في مقاومة التنصير، وقد بدأ مهمته الدعوية في أيام دراسته، وزهرة شبابه، كطالب المدرسة العالية بكلكتا الطموح الثائر، وشاهد الحركات التنصيرية في إقبال وتقدّم، ورأى المنصرين منتشرين في قرىٰ البنغال وأريافها، فهنا ثارتْ ثائرته، وهاجتْ فيه الحمية، ونهض يطوف بأرجاء البنغال، يدعو ويحذر، وينشط ويعمل، ويكتب المقالات، وينشر المؤلفات.

لكل جواد كبوة

إلا أن الإنسان يصيب ويسهو، وأن الرأي الشخصي قد يصيب الحقيقة وقد يخطئها، وهذا من سنّة الله تعالىٰ في الكون، ومن هنا يؤخذ علىٰ مولانا محمد أكرم خان أنه كان علىٰ خطأ فاحش خطير في بعض مواقفه من القضايا الشرعية، من القرآن ومن السيرة النبوية، ونظرة الإسلام إلىٰ بعض الأمور الحساسة، وسيرىٰ القارئ أن محبتنا للشيخ خان لا تلوّن نظرتنا إلىٰ هذه الأخطاء، إلا أن الخطأ العلمي ينبغي أن يبقىٰ خطأ، ولا يعني ضلالا، منها أن الشيخ جنح في كتابه «سيرة المصطفىٰ» إلىٰ تفسير المعجزات وخوارق النبي ﷺ تفسيرا عقليا، مثلا قصّة شق الصدر فسّرها المؤلف تفسيرا بعيدا عن تجلية قدرات الله ومعجزات النبي ﷺ، تفسيرا أقرب إلىٰ المدرسة العقلانية منه إلىٰ مدرسة السلف الصالح، كما أوّله الشيخ شبلي النعماني وقال إن معناه شرح صدر النبي للحقائق الإلهية وإنارته بالنور السماوي،[٢] ولذلك عندما عرفها مولانا شمس الحق الفريدبوري طلب من الشاعر الإسلامي الكبير غلام مصطفىٰ أن يكتب كتابا في سيرة النبي ﷺ، وقدّم له توجيهات قيمة، حتىٰ جاءَ سفره الخالد «نبي العالمين»

يجب أن يسمىٰ «أهل الحديث»، وكان يقول إنه لو يصح أن يسمي أحد نفسه «أهل الحديث»، فما إشكال أن يسمي الآخر نفسه «أهل القرآن»؟ وكان يركّز على اتباع الحديث مباشرة، بدون تقليد واتباع، ويقول: "الحديث النبوي هو مذهبي، وهذا هو مذهب الإمام أبي حنيفة، فالأفضل أن يعرّف كل واحد نفسه بأنه «مسلم»، وليس «حنفيا» أو «أهل الحديث»، وهذا هو طريق أمثل لوحدة المسلمين..." انظر مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص١٧٨

(١) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص١٦٧

(٢) انظر سيرة النبي لشبلي النعماني، (الأردية) ج٣، ص٢٧٤-٢٧٦

واضمحلّ أمامه «سيرة المصطفىٰ».[١]

أما تفسيره للقرآن الكريم فقد جاء بطامات، نعم إنه من طليعة من ترجموا وفسّروا القرآن باللغة البنغالية، وترجمته تعدّ أعجوبة في تاريخ الأدب والبيان، أما من الناحية الدينية والعلمية ونظرة الشريعة، فقد وقعت فيه كثير من الإشكاليات والاعتراضات، وتجلت فيه روح عقلانية بأبرز ملامحها ومعالمها، وفسر القرآن تفسيرا بعيدا عن جمهور العلماء المفسرين من الأمة، حيث سمّاه البعض بجدارة تحريفا! فقد تأثر الشيخ بالنظريات العقلانية المعاصرة، خصوصا لا يخفىٰ تأثيره بـ«تفسير القرآن» للسير السيد أحمد خان و«تفسير المنار» لرشيد رضا، وهكذا سارَ الشيخ خان علىٰ منهج مخالف لأئمة التفاسير من الصحابة والسلف، ومشىٰ في ركاب المتأخرين.

من أبرز ما جاءَ به الشيخ في تفسيره أن قال بأن آدم لم يكن إنسانا بجسمه ولحمه ودمه، بل هو عبارةٌ عن الجنس البشري بكامله، وأن الشيطان عبارة عن القوة الخبيثة، وأن سجدة الملائكة لآدم لم تكن سجدة حقيقة، وإنما هي عبارة عن الخضوع له والإقرار بفضله عليهم، وأن الجنة التي أخرج منها آدم لم تكن إلا روضة من روضات الدينا،[٢] وأن المسيح عيسىٰ بن مريم بلّغ رسالته، ثم قضىٰ نحبَه، وأنه لم يُرفع إلىٰ السماء حيا، ومعراج النبي ﷺ كان رؤيا مجردة، ولم يكن بالجسم وفي اليقظة، وقد أنكره قبله السيد أحمد خان وقال إنه كان في الرؤيا، كما أنكر الجن، وقال إنه من نوع الإنسان، فالإنسان نوعان، نوعٌ معروفٌ فهو إنسانٌ، ونوعٌ مجهولٌ يسكن الكهوف والغابات، فهو جنّ.[٣]

كما اعترضَ علىٰ حد السرقة، وأنكر الربا المصرفية المعاصرة، ومسألة نسخ القرآن،[٤] وكذلك قصّة نبي الله موسىٰ وانشقاق البحر له، واستخراج الماء من الحجر،[٥] ورؤية الله يوم القيامة، ووضع الميزان، وحرمة الغناء، فقد تحدّث فيها بما يخالف جمهور العلماء وعقائد أهل السنة والجماعة، وكان مقلّدا للسير أحمد خان في معظم هذه القضايا الجدلية، بل منهجه العقلي ظاهر واضحٌ في ثنايا تفاسيره بحيث

(١) ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري، تحرير مولانا لياقت علي، ص٢٢٣

(٢) انظر القرآن الشريف :الترجمة البنغالية والتفسير الموسع (البنغالية)، تأليف محمد أكرم خان، ج١، ص٥٩ و٦٦

(٣) دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله، ص٣١١، وانظر كذلك مقال الشيخ محيي الدين خان، في مجلة "الرسالة الرحمانية"، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م ص٢٦

(٤) القرآن الشريف :الترجمة البنغالية والتفسير الموسع (البنغالية)، تأليف محمد أكرم خان، ج١، ص١٥٢

(٥) المرجع السابق، ص ٦٦و ٨٧ و٩٢

لا يخفى على ذوي عقولهم، ويثبت شبهه ببعض تفسيره بـ«رسالة القرآن» ترجمة العلامة محمد أسد للقرآن الكريم،(١) وقد نرى له كثيراً من التعديلات والتفسيرات تخص هويته،(٢) وأصدر رسائل ترد على هذه المقالة الخاطئة، وكذا على أسلوبه شيخ حديث علامة عزيز الحق، فقد نشر رسالة صغيرة باسم والتحرير ... تفسير الشيخ خان، على توجيهات مولانا الغزنوي،(٣) كما كفّره بعض العلماء، وهجموا عليه هجمات متتالية.(٤)

منهجه التفسيري الغريب، الجمع بين النقيضين!

من العجيب بل يحق للتاريخ أن يستغرب هنا في هذه الشخصية، عندما يرى مولانا محمد أكرم خان وهو يظهر -أو على الأقل يبدو لنا أنه يظهر- في صورة ازدواجية، فقد رأيناه في حياته يقود حركة أهل الحديث، وكان من زعماء الحركة، ويوجد من كبار العلماء السلفيين في هذه الدولة، وقد وُلد ونشأ في أسرة علمية لا تتمذهب بمذهب من المذاهب الأربعة، وتتلمذ على أيدي علماء أهل الحديث، ثم عاش حياة علمية مع علماء الأعلام معظمهم يسيرون على درب أهل الحديث، ثم كيف تأثر بالمدرسة العقلانية وجاء في تفسيره بهذه الطامات!

هنا يأتي التاريخ بسجلاته، ويقدّم لنا خلاصة حياة هذا الإنسان، والتغيرات التي حصلت في منهجه ومبدئه، وخط سيره، ودرب حياته، وأفكاره وآرائه، وعالمه الفكري، فقد وُلد في بيت سلفي، نشأ وقضى فترة كبيرة من حياته على المنهج السلفي، يدعو إليه، ويدافع عنه، ويصدر مجلة باسم «المحمّدي»، وهي الكلمة التي كانت يومئذ مترادفة للسلفية وعنوانا عليها، هكذا كانتْ حياته على المنهج السلفي، حتى بدأ يتعمّق في القضايا المعاصرة، ويدرس العصر الحاضر وظواهره، ومشاكله، والشبهات التي تثار حول الإسلام والنبي ﷺ، والغيبيات وبعض القضايا الشرعية، كما رأى قلة العلماء العاملين في هذا الميدان، وقلّة الزاد وعدم كفاءة الدعاة، وهبّ يشمّر لها عن ساق جدّه، ويعمل في هذا

(١) ملأ الشيخ خان تفسيره بالتأويلات العقلية، حيث يصعب حصرها هنا، وليس هناك ضرورة سوقها بكاملها، بل يكفي القارئ أن يعرف بأنه ما إن وجد فرصة التأويل العقلي لآية إلا وفعله، ونحيل القارئ للتوسّع الأكثر إلى تفسيره أو ينظر في كتاب Selections from Akram Khan's Tafsiurl Qur'an, (BIIT; ٢٠٠٩) Edit. Md. Mahmudul Hasan.

(٢) انظر للتفصيل: دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله، ص٣٠٣

(٣) التفسير باللغة البنغالية، وتفسير نور القرآن نموذجا، رسالة الدكتوراه في جامعة داكا، للأستاذ أبي الكلام آزاد ص١٩٢

(٤) مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص١٤٨

المجال، وهنا أدرك أن المنهج السلفي لا يجيب على كثير من الأسئلة، وأن منهج "إجراء النصوص على ظواهرها" يفضي إلى شيء من الجمود والتقيّد على العقل، ويؤدي إلى الضحالة في الفكر، والسطحية في الدراسة، فأحسّ بضعف المنهج، وعجزه عن مقاومة الفتن المعاصرة، ومواجهة تحديات العصر، وفهم علاقة الإسلام بالعلوم الحديثة فهما صحيحا، وهنا ظهر في صورة جديدة، وتأثر بأعلام المدرسة الفكرية المعاصرة، المعروفة بالمدرسة «العقلانية» و«العصرانية»، كما تأثر بالسير السيد أحمد خان والسيد أمير علي في الهند، والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا في مصر، وكان معجبا بتفسير القرآن للسير أحمد وتفسير المنار للشيخ رشيد رضا، فحاول الجمع بين النقيضين، وبرزَ سلفيا عقلانياً في ذات الوقت[1] وجاء بهذه الطامات، وحصل ما حصلَ، وهوجم من قبل العلماء على موقفه المضطرب من الغيبيات، والتعامل مع النقل في وجه العقل، كما تعرّض لأخطاء فادحة في نظرته إلى الوحي والشريعة، وخلود الرسالة المحمدية، وغناها عن الأديان جميعا.(٢)

كما أسلفنا أنه شاركَ في «جمعية أهل الحديث» وكان من قادتها لفترة كبيرة من حياته، وعلى صلة دائمة وطيدة مع كبار رجالها أمثال الشيخ مولانا عبد الله الباقي، والشيخ عبد الله الكافي وغيرهما، حتى خاضَ مناظرات كثيرة ضدّ علماء الحنفية، مثل مناظرته ضد العلامة الكبير روح الأمين البشيرهاتي في محافظة «سات خيرا» عام ١٩١٢م، وكانتْ هذه الجمعية -ولا تزال- منهجها يختلف عن منهج عامّة علماء البلد، ولا تزال ثمة جدالٌ ومناظرات بين أهل الحديث والحنفية في هذه الدولة، مناظراتٌ لا تنبت زرعا ولا تسقي ضرعا، وهي لا تزيد إلا البغض والشحناء، والهوّة بين هذين المعسكرين، وضياع الأمّة بينهما، هكذا نشأتْ فجوة بين جمهور العلماء وبين الشيخ مولانا أكرم خان.

إلا أنه غيّر موقفه في مساء عمره، واعتزلَ «جمعية أهل الحديث»،(٣) والتقى مع الجمهور على رصيف الوحدة والوفاق، وهذا هو ديدن الشيخ خان في مواقف حياته، فكان يؤثر وحدة الأمة على الطائفية والحزبية، ولذلك قامَ مع علماء ديوبند، وعامة المشايخ، وأصحاب الطرق والزوايا، في مواطن كثيرة، من أجل المصلحة الكبرى، وتحقيق الوحدة الإسلامية، وكان رحب الصدر، ومنفتح القلب، وواسع الأفق، يجلس مع كل واحد، ويتحدّث إلى كل جماعة، بوجه بشوش، ويرحّب بكل طارق،

(١) Modernist Islam ١٨٤٠-١٩٤٠ A Source Book, Edit, Charles Kurzman (Oxford ٢٠٠٢), p. ٣٣٤

(٢) انظر مقدمة كتاب دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله، ص٧-٨

(٣) حركة أهل الحديث: تاريخها وتطوّرها في جنوب آسيا، تأليف الشيخ محمد أسد الله الغالب ص٤٦٨

ويسلّم على كل واحد، ويضع الأمور في أنصبتها، ويعطي كل ذي حقّ حقّه، وكان متوسّطا بين الجمود والتجدد، وبين التقليد ورفض التقليد، فيجلس مع السلفيين، كما يجلس مع الديوبنديين، حتى كم ينصف إلى الذين لا يدينون بدينه، وقد كانتْ بينه وبين الأديب البنغالي الكبير شروت تشاند تشاتوبادهيايا مناوشات ومماحكات، لكن لما مات شروت أثنى عليه الشيخ ثناء بالغا، وأوفى بحقه ر الشكر والتقدير، والمكانة التي كانتْ له في حياته وبعد وفاته في الأدب البنغالي المعاصر.[1]

(١) انظر للتفصيل مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر، ص٢٣٢

مولانا شمس الحق الفريدبوري

(١٨٩٥- ١٩٦٩)

المجاهد الأعظم، الإنسان الكامل، صدر العلماء

إطلالة على حياة إنسان كامل

لو يقال إن هذا الرجل هو أعظم إنسان أنجبتْه هذه البقعة في تاريخها الديني، والدعوي، والإصلاحي، والسياسي، والجهادي، والقيادي، ولم تلد مثله الأمهات، قد لا يكون فيه شططٌ ولا مبالغة، ولو قرأ القارئ سير عظماء هذه الدولة، لوجد هذا الإنسان قد جمعَ العظمةَ من أطرافها، واجتمعتْ فيه عبقرية داعية حكيم، ومصلح جليل، ومربّ كريم، ومؤسس كبير، وسياسي عظيم، ومؤلف قدير، وقائد بلا نظير، وفوق كل ذلك عالم ربّاني، ومرشد مخلص، وشيخ تقيّ، ورجل صالح، وعابد زاهد، فقد كان آيةً من آيات الله في الإخلاص والاحتساب، وكان عارفا من العارفين، وسلطان العلماء، ومرجعهم في هذه البقعة، تشدّ إليه الرحال، ويغشاه الرجال من أقاصي البلاد وأدانيها، إنه الشيخ الكبير، والمجاهد الأعظم، وصدر العلماء، وأحد أعاجيب الرجال في تاريخ الإسلام، مولانا شمس الحق الفريدبوري، ذاك أمّة وحدَه.

عندما قلنا إن الأمهات البنغالية لم يلدن مثله، ما قلناها جزافا، قلناها بإيمان راسخ وبيقين أكيد، واتباعا لمنهج العلماء الربانيين، فلو جاءَ هذا الإنسان في القرن الثاني لكان إماما من الأئمة، ولو جاءَ في القرن الثامن الهجري لكان شيخ الإسلام في عصره، ولو جاءَ في العالم العربي لكان له شأن غير شأنه اليوم، إلا أنه وُلد في القرون المتأخرة، وفي دولةٍ لا تعرف قدر أبنائها، ولا تعترف بعبقرية فلذات كبدها، فلا تقدرهم بنفسها، ولا تقدّمهم إلى الدنيا، وبين شعبٍ يمتلأ قلبه غلا وحسدا، وغيرةً غير صحيحة، وصدًا لغيره عن سبيل المعالي، مع ذلك كلّه فقد نال هذا الإنسان من العظمة ومن المكانة في قلوب

العلماء والعوامّ ما لم ينله كثيرٌ من رجال العلم والمعرفة، وزعماء الإصلاح والتجديد، وتفوّقَ على معاصريه، وتغلّب على زملائه، وترفّع عن أقرانه، حتىٰ أصبح أثقل إنسان في ميزان الدين والدعوة في تاريخ هذه البقعة، ونال مجدا ما ينطح به السماء، وبلغ من العلم والمكانة والرئاسة والزعامة ما تتقطّع دونه الأعناق.

وحسبك ما قاله عنه بعد وفاته العلامة ظفر أحمد العثماني، صاحب «إعلاء السنن»: "لقد ترك اليوم الدنيا أعظم أبنائها، وأكبر علمائها، كان الفقيد من الثبات والعزيمة، والزهد والعبادة، والحب للإنسانية، والتفاني في سبيل الدين، ما لم يعد له الآن نظيرٌ على ظهر المعمورة، وأين أنا منه في العلم والربانية"! وما قاله الشيخ الرباني الخطيب الأعظم صديق أحمد: "مهما أقول عن هذا الإنسان لا يكفي، ولا يفي بحقّه، إلا أنني أؤمن إيمانا كاملا بأننا لو قدّمناه عند الله يوم القيامة، نيابة عن أهل هذه المنطقة، كنموذج للإيمان بالله، والاستسلام له، والتمسّك بكتابه، واتباع نبيّه، والتفاني في سبيله، فسوف يغفر الله به قومَه جميعا، وسوف يقبل فيهم شفاعته"!

طلوع شمس الحق في أفق البنغال

وُلد هذا الإنسان العظيم في نهاية القرن التاسع عشر عام ١٨٩٥ للميلاد،[1] في محافظة «غوبال غنج» (التابعة لفريدبور سابقا)، فكأن كان ميلاده إعلان عصر جديد فريد، والأذان بقدوم مجدّد لقرن جديد، وُلد في أسرةٍ شريفة تتحدّر من سلالة عربية رفيعة، تتوارث العلم والجهاد، والصلاح والتقوىٰ كابرا عن كابر، وبالأمس قام كبير هذه الأسرة بدور بليغ في جيش الإمام الشهيد أحمد بن عرفان البريلوي، الذي كان هدفه الأول والأخير إجلاء الإنجليز، وتحرير البلاد، وتطبيق النظام الإسلامي فيها، وإعلان فضل الإسلام على الهندوسية وعلى سائر الأديان، كما جاهد صغيرها في موكب الثورة الكبرىٰ ضد الاحتلال، فهذه الدماء التي ورثها الطفل شمس الحق كان لها أثر كبيرٌ في تكوين عقليته الصارمة، وشخصيته الجريئة الشجاعة، وقد تجلّى ذلك في كثير من مواقفه مع الحكام والرؤساء والوزراء، ورجال الحكومة، تلك المواقف التي اتسمت بالصدق والبسالة، والإخلاص لدين الله الحنيف، والحب للأمة والرغبة في الآخرة.

---

(١) اختلف أصحاب ترجمته في تاريخ ميلاده، فذكر الشيخ مولانا عبد الرزاق بأنه عام ١٨٩٨م، بينما جاء في «ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري» بتحرير مولانا لياقت علي، وكذلك في "المجاهد الأعظم" شمس الحق الفريدبوري، تأليف مولانا نسيم عرفات، بأنه وُلد عام ١٨٩٥م، لكن الجميع اتفقوا على اليوم والتقويم البنغالي بأنه يوم الجمعة ٢ فالغون عام ١٣٠٢ ب، وبهذا يكون ١٨٩٥م هو الأقرب، والله أعلم

الطفل في محراب العلم

بدأ الدراسة بكتاب الله تعالى عند أمه الحنون، ثم أدخله والده في كتّاب تحت إشراف معلّم هندوسي، لما أنه لم تكن ثمّة مدرسةٌ دينيةٌ في منطقته، وهكذا الطفل الذي بدأ مسيرتَه العلمية في ظلام معبد وثني، كان في المستقبل مزيل ذلك الظلام، وهكذا تتكرّر في هذه الأمة القصّة الإبراهيمية، وتتجدّد معالم التوحيد، وتتجلى قوّة الدين الحقّ، والقدرة الإلهية، ثم ذهب إلى «بريسال» ودخل في مدرسة حكومية، واجتاز الصفّ الرابع الابتدائي.[1]

بين الأب الصارم والابن البار

في هذا المكان ونحن بصدد الحياة العلمية والأيام التحصيلية لمولانا الفريدبوري لا بدّ أن نذكر قضيّة حسّاسة من حياته، قد تدهش القارئ وتثير عجبه، وقد تحيره، لكنها في ذات الوقت تملؤه حبّا للعلم والمعرفة، وتفانيا في سبيل العلم الشرعي، والتعرّف على الكتاب الله، ورغبةً صادقةً عارمة في التسلّح بالسلاح العلمي، وبذل الجهود الجبارة، والجهاد الدؤوب المستمرّ في سبيل العلم، وكان ذلك جهادا من النوع الغريب، ومعركة من النوع الفريد، معركة تدورُ بين أب وابنه، ووالد وفلذة كبده، فقد كان الشيخ عبد الله والد مولانا رجلا مثقّفا ومتدينا، يحمل دماء المجاهدين البواسل، والعلماء الكبار في شرايينه، وكان محافظا على الصلوات، ومتوقّفا عند حدود الله، إلا أن الاحتلال الغربي، وتسلّط الإنجليز على المجتمع الهندي والبنغالي المسلم، وانتصار الحضارة الغربية والثقافة الأوربية على ثقافة المسلمين، وأثرها في الحياة الأسرية والاجتماعية والمهنية والاقتصادية، كل ذلك ترك في قلب الشيخ عبد الله أثرا كبيرا، بعيد الغور والمدى، ورأى الشيخ – على أساس التطورات السياسية والثقافية– ضرورة الإلمام بالعلوم العصرية النافعة، وأن العلم الديني المجرّد لا مستقبل للطفل فيه، ولا يضمن له معيشة طيّبة، ومن هنا جاء التصميم، وعزمَ أن يثقّف ابنه بالثقافة الغربية المعاصرة، أما الطفل شمس الحق فقد وُلد في رعاية الله، ونشأ في كنف أمّ متديّنة حنونٍ، وقد شملته رحمة الله منذ لحظة مبكّرة من حياته، فكان شغوفا بالقرآن إلى حدّ الجنون، وولعا بالسنة النبوية، والعلوم الدينية الشرعية، ومؤمنا مخلصا منذ صغر سنّه، وكان يحلم دائما أن يدخل في المدرسة الدينية ويتعلّم القرآن، ويتسلّح بالأسلحة العلمية الشرعية، فيكون عالما من العلماء، وداعية من الدعاة، وكانتْ له كراهةٌ شديدةٌ وبغضٌ عنيفٌ على الغرب، وعلى التعليم الغربي،

---

(١) مذكرة الجامعة الإسلامية اليونسية بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها، تأليف العلامة المفتي مبارك الله، والمفتي عبد الله، ص٨٣

والثقافة الغربية، من هنا اصطدم الفكران، وتصارعَ التياران، وأصبح الأب والابن كالبحرين، يجريان جنبا إلى جنب وبينهما برزخٌ لا يبغيان، ولذلك نرى إصرار أبيه على التعليم المدني، وإصراره على التعليم الديني، ونرى قراءته الكتب الدينية خفيةً عن أبيه وعن أساتذته، كما نرى صلاته ومناجاته مع ربّه في الليالي لكي يرزقه العلم الشرعي، ونرى بكاءه بالقرآن في الغابات.

لا ندري بيقين أن والد شمس الحق الشيخ عبد الله كيف برّر ساحتَه، ومن أين وجد مستنده على موقفه الصارم من تعليم ابنه، وكيفَ ظلّ يصرّ على ابنه ويرغمه على التعليم المدني، الابن الذي كان فريدا في نوعه، وشغوفا بالقرآن والسنّة، حيث يستحق أن يعتزّ به الآباء، ويفتخر بمثل هذا الولد أولياء الأمور، كيف أجبره على دراسة الإنجليزية، وهو يريد العربية، وأرغمه على دراسة التاريخ والجغرافيا، وهو يهوى دراسة كتاب الله وسنّة نبيّه، هنا يأتي الشيخ عبد الرزّاق، خليفة مولانا الفريدبوري، ومؤلّف كتاب في سيرته القيمة «حياة المصلح الاجتماعي، العلامة الشيخ شمس الحق الفريدبوري»، فيبحث الشيخ عبد الرزّاق عن الدوافع التي دفعتْ والدَه على هذا الموقف الغريب، ويتلخّص بحثه في: "أن الشيخ عبد الله كان يريد العلوم المدنية قبل العلوم الشرعية، لكي يعرف الابن الثقافة الغربية، فيعرف مثالبَها ومعايبها، ونقاط الضعف فيها، ثم يدرس الدراسة الشرعية، ويردّ على الثقافة الغربية، ويشنّ عليها غارةً شعواء لا هوادة فيها، أما الابن شمس الحق فكان يريد العلوم الشرعية قبل العلوم المدنية، ويريد أن يعرف الإسلام أولا قبل أن يعرف الغرب، حتى لا تنبهر العين بلمعانه، ولا يندهش العقل، ولا يقع في المزلّة، ثم يتثقّف بالثقافة الغربية قدر الحاجة والضرورة، إذن الجهاد لم يكن بين العلوم المدنية والشرعية، وبين الغرب والإسلام، وبين الدنيا والدين، بل الجهاد كان بين التقديم والتأخير، والإقبال والإدبار".[١]

لكننا–مع الأسف–لا نوافق الشيخ عبد الرزاق في هذه النقطة، ولا يسمحنا البحث والدراسة، بالتروي والتأني، والتحقيق والتدقيق، بالقبول بأنه كان جهاد التقديم والتأخير المجرّد، وخصوصا عندما نرى بتوسّع في حياته الدراسية، وندقّق أيامه في المدارس الحكومية، نرى أن البكاء كان حليفا له في هذه المواطن كلها، فكان يحب العزلة، ويذهب إلى الغابات، ويبكي ويتضرّع إلى الله، يضمّ القرآن في صدره، ويدعو الله أن يرزقه علم هذا الكتاب! كما نرى أنه ينشغل عن المحاضرات في الصفّ، ويتهاون في الاختبارات، حرصا أن يفشل، وبالتالي فيدخله أبوه في المدارس الدينية! كما نشاهده يدرسُ العربية، ويذهبُ إلى مدرس عربي على مسافة

(١) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق، ص٣٦-٣٧، وذكر الكلام نفسه مولانا نسيم عرفات، في كتابه المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، ص٣٣ و٣٤ ولعله استفاد من الشيخ عبد الرزاق ولخص ما قاله بلغته.

ثلاثة أميال مشيا على الأقدام، ثم عندما يسمع عنه أبوه، تثور ثورته، وينصحه بأن يترك العربية ويركّز على الإنجليزية! وفي الأخير أثناء دراسته في المدرسة العالية، عندما التقى بالشيخ المرشد مولانا أشرف علي التهانوي، فسألَه التهانوي عن دراسته، وأخبره بأنه يدرس الإنجليزية، تعجّب منه، وقال له :"لماذا لا تدرس الشريعة"؟ فقال وهو يبكي وينتحب :"أنا مستعدّ منذ طفولتي، لكن الوالد هو الذي لا يسمح لي به"، هنا تأسّف التهانوي تأسفا كبيرا، فقال وهو يخاطب الناس:"وا أسفاه على العصر الذي نعيشه، يريد الابن علوم الشريعة، والأب يصدّه عنها"! وهل بعد ذلك نقول إن التصادم كان في التقديم والتأخير، وليس في الفكر والثقافة والاتجاهات؟! إلا أن والد الشيخ مادام كان متديّنا بدوره، فيمكن لنا أن نقول لعل جذوة التديّن كانت خافية تحت رماد التحضّر الغربي، والانبهار المدني، والشعور بالإحباط الثقافي والفكري.

نقطة تحول في حياة الشاب شمس الحق

لكن هذا التصادم الفكري لم يخلّ ببرّه بوالده، وتواضعه له وأدبه معه، وخشوعه بين يديه، ومن ثمّ رغم الشغف الديني، والطموحات إلى العلم الشرعي، ظلّ يدرسُ في المدارس الحكومية، ويستمرّ في التعاليم المدنية، والإنجليزية، بناء على رغبة والده، وبلغ الغاية في برّه وطاعته، ونال رضاه وأدعيته الوافرة، حتى سافرَ إلى كلكتا حاضرة البنغال الغربية، ودخلَ في المدرسة العالية بها، تلك المدرسة التي جذبت العلم والعلماء من شتى أقطار الأرض، حتى قصدها الناس من شرق الدنيا وغربها لارتشاف العلم، وهنا في المدرسة العالية، أثناء دراسته في الصف العاشر جاء تحوّل كبير في حياته، غيّر دربَه، وحدّد مصيره، ومكانته في التاريخ، وكان ذلك هو اللقاء مع مولانا التهانوي والتحدّث معه، الذي ذكرناه قبل قليل، فترك ذلك اللقاء وذلك النور أثرا كبيرا في قلبه، وأنارَ في داخله، وأصبح أكثر ولعا، وأشدّ طموحا، وأعظم عزيمةً على العلوم الدينية.

بعد أن تخرّج في الصف العاشر من المدرسة العالية، دخلَ في «كلية الرئاسة» (جامعة الرئاسة حاليا) بكلكتا، وهنا عام ١٩٢١م انفجر بركان السخط العام على الاحتلال الإنجليزي للهند، وتتابعت حركات التحرير، كما جاءت حركة «عدم التعاون» ومقاطعة البضائع الأجنبية، والمطالبة بالحكم الذاتي، تحت قيادة القائد الهندوسي الكبير غاندي، فأصبحت الدولة شذر ومذر، وأغلقت المدارس والدواوين، وتوقّفت الدراسة في الجامعات إلى أجل غير مسمّى، كما أغلقت «كلية الرئاسة»، لكنها جاءتْ تحمل في طيّاتها أكبر بشارة في حياة شمس الحق، لأنه تركَ الكلية في هذه الفرصة، وعادَ إلى مسقط رأسه، ولقي بأمّه خفية، ثم خرجَ في سبيله إلى الهند، يريد الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند.

أثناء طريقه إلى الهند رأى أن يكتب رسالةً لوالده، فكتبها، وعهدَ بها إلى صديق ليوصلها إلى والده، ونحن نذكر هنا تلك الرسالة لأهميتها في تاريخ العلم، والتفاني في سبيله، والهجرة من أجله، وكذلك لأهميتها في تاريخ الحبّ والكرامة، والإحسان والاحترام، والبرّ بالوالدين، فكانت رسالته تنص على: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سماحة الوالد المكرم! عساكم بصحّة وعافية، أما بعد، فأنا الآن في طريقي إلى ديوبند، رجائي منكم كبيرٌ، وأملي وطيدٌ بأن تدعوا لي دعوةً خالصةً لتحقيق هدفي، والوصول إلى غايتي، وقد تغضبكم فعلتي، ومن ثم قد لا ترسلون لي سكّة، وقد تحرمونني إرثا، لكنها لا تؤسفني، إلا أنني أتمنّى أن لا تنسوني في دعواتكم دبر كل صلاة، وهذا هو زادٌ على طريقي، ونورٌ أمشي في ضوئه، وأنا بدوري لن أعود إليكم إلا بعد تحقيق هدفي، والسلام عليكم وعلى الوالدة، ورحمة الله وبركاته".(١)

من «مظاهر العلوم» إلى «دار العلوم»

وصلَ شمس الحق إلى دار العلوم ديوبند في شهر رجب عام ١٩٢٢م، وقد انتهى العام الدراسي وبدأت الإجازة السنوية لمدّة شهرين تقريبا، ولا تستأنف الدراسة إلا في غرّة شوّال، فوجد فرصةً سانحةً ليعيش هذه الأيام مع شيخه ومرشده، وكتبَ إلى مولانا التهانوي رسالةً وأبدى فيها رغبتَه، وقد أذن له التهانوي، فخرجَ في النصف من رجب إلى «تهانه بهون»، وقطعَ إليها مسافة ١٨ ميلا مشيا على الأقدام! ودخلَ في زاوية مولانا التهانوي العامرة بالروحانية والربانية، وقضى فيها قرابة شهرين، ولماء جاء شوّال دخلَ في جامعة مظاهر العلوم بـ«سهارنبور» في الصف السادس، بإشارة من الشيخ المرشد التهانوي، وكان رئيسها آنذاك الشيخ الكبير العلامة خليل أحمد السهارنبوري.(٢)

بعد أن تخرّج في مرحلة «الفضيلة» ذهبَ إلى دار العلوم ديوبند، وظلّ فيها سنتين يدرسُ الحديث والفقه والأصول والطبّ، وعلم القراءة، ويركّز على الحديث وعلومه، ويأخذ الكتب الستّة من جهابذة العلماء، وكبار المحدثين الذين تنتهي إليهم رئاسة الحديث النبوي في ذلك العصر، وعلى رأسهم مولانا حسين أحمد المدني، ومحدّث العصر مولانا أنور شاه الكشميري، كما درسَ الهداية عند شيخ الأدب والفقه مولانا إعزاز علي، وكان من أصفى تلامذة المدني، حتى قال عنه: "لو ذهب جميع الطلاب،

(١) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق، ص٥٩-٦٠

(٢) المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف نسيم عرفات، ص٦١

وبقي شمس الحق، لبقيت في الجامعة وجلستُ لتدريسه".(١)

هكذا لما امتلأ هذا الإنسان علما ومعرفة، وسلوكا وعرفانا، ونارا ونورا، ولم يترك بابا من أبواب العلم والمعرفة إلا طرقه، وصارَ من نتيجة تلك الدراسة الواسعة التي أكب عليها منذ شبابه، وظلّ معتكفا فيها أثناء إقامته في الهند، أنه عندما أخذ الخطى إلى مسقط رأسه، كان بعض الناس يشيرون إليه قائلين: "هاهي سفينةٌ علميةٌ تشق طريقها إلى البنغال".

إلى هنا تحدثنا عن المراحل الدراسية من حياة هذا الإنسان، الحافلة بالمآثر والإنجازات الخالدة، وإن المساحة الضيّقة مثل هذا الكتاب، لا تسمح لنا أن نسهب في هذه الشخصية الموسوعية، ونبحث عن الجوانب العبقرية الفريدة فيها، لأن ذلك يحتاج إلى عمل موسوعي، أو كتابٍ ضخم عملاق، ليوفي هذا الإنسان حقه في العرض والتقديم، ومن أجل ذلك فنحن سنوجز الكلام، ونسجل خلاصة حياته التعليمية والتدريسية، والسياسية والقيادية، والدعوية والإصلاحية، في صفحات تالية.

على منبر التعليم والتربية

عادَ شمس الحق إلى الوطن، وتولّى الصدارة في التدريس بالجامعة اليونسية بـ«براهمن باريا»، وما هي إلا أيامٌ حتى علا نجمُهُ، واتسع أفقه، وانتشر اسمه، وطبّقت شهرته الآفاق، وبعد أيامٍ التقى معه في هذه الرحلة المباركة في ساحة الجامعة اليونسية عَلَمان كبيران من أعلام التاريخ العلمي في هذه الدولة، الشيخ الرباني مولانا محمد الله الحافظجي، والشيخ مولانا عبد الوهاب البيرجي، وقد كانوا على ميعاد، لأنه عندما كان الشيخ شمس الحق الفريدبوري في زاوية التهانوي، تعرّف على هذين الشيخين، فنشأتْ بينهم صلة الحبّ والمودّة، وما زادت الأيامُ إلا رسوخا في الحبّ، وقوّة في الرابطة، حتى صحتْ عزيمتهم على تقديم الخدمات المتّحدة، والوقف جنبا إلى جنب على منصّة واحدة، فلما اجتمعَ هذان الشيخان مع ثالثهما، والتقتْ في سماء الجامعة اليونسية هذه الكواكب الثلاثة، بهم انقلب الوضع، وتغيّرت حالة الجامعة ظهرا على عقب، وجاءَ فيها انقلابٌ شامل، وأصبح ذلك العصر من أزهى العصور وأحفلها بالخدمات، وأمجدها وأعزّها في تاريخ الجامعة، لأنهم شموعٌ تُضيء وسرجٌ تنير أينما حلّوا.(٢)

بعد فترةٍ ترك الشيخ الحافظجي والبيرجي الجامعة اليونسية، ولما كانوا على ميعادٍ مسبق تركَ الشيخ

(١) المرجع السابق، ص٦٧

(٢) مذكرة الجامعة الإسلامية اليونسية بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها، تأليف العلامة المفتي مبارك الله، والمفتي عبد الله، ص٨٦

شمس الحق هو الآخر، وخرجوا جميعا إلى محافظة «خولنا»، وأسّسوا مدرسة دينية في «غزاليا»، وظلّوا بها سنة كاملة، إلا أن البيئة لم تكن صاحة، ولم يكن ذلك المحيط القرويّ يعرف قيمة العلم والمعرفة، والحضارة والمدنية، والشريعة والديانة، كما لم يكن يقدّر هذه العباقرة الثلاث تقديرا كاملا، وظلّت جهودهم طوال عام كاملٍ صيحةً في وادٍ ونفخة في رماد، واستقرّ في نفوسهم أن حياتهم ستظلّ عبثا ومادة خامة، ومهجورة مهملةً، لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث، في هذه القرية المنعزلة عن الحياة وعن الحضارة، من ثمّ كانوا يبحثون عن مكانٍ يصلح للعلم والمدنية، ويقدّر جهودَهم، ويشكر جهادَهم، حتى وقعَ الاختيار على العاصمة داكا، فكان اختيارا موفّقا.

جاءت العصابة الصغيرة إلى داكا، وفي غضون فترة، وبعد جهود وجهاد، ومحاولات وسهر مستمرّ، تأسستْ مدرسة أشرف العلوم بـ«براكاترا»، في بيتٍ مهجورٍ لعبد ثري من عباد الله الصالحين كان يحبّ العلم والعلماء، ويغدق على المشاريع الدينية أموالا جزيلة، حتى وقعَ اختياره على هذه الزمرة، وجاء صرحٌ علمي منيفٌ في الوجود، تولّى الشيخ شمس الحق رئاسة المدرسة منذ انطلاق رحلتها، وجذبَ لها كوكبة درية من العلماء الأعلام، ورجال التعليم والتربية، والبحاثين والمؤلفين، والشيوخ البارزين، أمثال الشيخ ظفر أحمد العثماني، والشيخ مولانا هدايت الله، وشيخ الحديث العلامة عزيز الحق، بالإضافة إلى الشيخ محمد الله الحافظجي، والشيخ عبد الوهاب البيرجي، وهكذا كان ذلك العصر من أزهى وأعز عصور المدرسة، وفي خلال سنواتٍ أصبحتْ من طليعة الجامعات العربية في الدولة.

لم تزدد هذه الشخصية مع الأيام إلا سرعة في الحركة، وجدّية في العمل، ونشاطا في السعي، ورفعة في المنزلة، وزيادة في البركة، فلما جاءَ عام ١٩٥٠م قام الشيخ بتأسيس مدرسة عربية باسم الجامعة القرآنية العربية بـ«لال باغ» داكا، وبعد فترةٍ وضعَ حجر زاوية لمدرسة عربية أخرى، فتأسست الجامعة الإمدادية بـ«فريدآباد» داكا، ثم أسس الجامعة الإسلامية دار العلوم خادم الإسلام في مسقط رأسه «غوبال غنج»، وهذه المدارس العلمية كلها لا تزال تشهد على عبقرية هذا الإنسان، وتتغنّى بمجد العلم والمعرفة، وتنشر في الدولة ضوء العلوم الشرعية، ونور العرفان، أما من خرّجهم من كبار العلماء وربّاهم على يديه من زعماء الدعوة والإصلاح فهم آلاف مؤلفة، وناهيك عنهم بشيخ الحديث العلامة عزيز الحق، والسيد محمد فضل الكريم، والشيخ المفتي فضل الحق الأميني رحمهم الله جميعا.(١)

(١) مقال المفتي محمد عرفات، بجريدة "وقتنا" (أمادير شوموي) اليومية، ١٨ فبراير، ٢٠١٧م

جاء إصلاح شامل في تعليم المدارس الدينية

لقد كان إنسانا مباركا، كلما نزل بلدةً ترتجّ فرحا به، ويتهافت عليه العلماء والرؤساء وسراة الناس تهافت الفراش على النور، وتهافت الظماء على الماء، ويزدحم الناس على بابه، ويأتونه من كل فجّ عميق، وكلما سافرَ إلى مدينة أو قرية أو كلّما مكث فترةً في مكان قام فيها كتّاب أو مسجد، أو مدرسة علمية دينية ومركز شرعي، ولذلك نرى كثيرا من الجامعات العربية الكبرى في العاصمة تردّ فضلَ تأسيسها والإشراف عليها إلى هذا الإنسان، كما نرى آلافا من الكتاتيب والمدارس العربية في القرى والأرياف تنتمي إليه أو تحمل اسمه، إلا أن هذه المدارس والمراكز العلمية لوحدها لا تفسّر عبقرية هذا الإنسان، ولا تشرح عظمته، ولا تعكس دوره في التعليم، وإصلاح المجتمع، ولا تحدّد مكانتَه كإنسان عظيم في تاريخ العلم والفكر، والدعوة والإصلاح، ولذلك لا بد لنا إلا البحث عن جوهر هذا الإنسان، ومنبع تفرّده وريادته.

القرآن روح المجتمع المسلم، ومصدر رقيه وصفائه، ومنبع حياته، وهو نورٌ للإنسان في طريقه، ولذلك دلّت التجارب الاجتماعية والتاريخية أنه لو تمّ إدخال جزءٍ من كتاب الله أو بعض السور القرآنية في قلب صبي أو ناشئٍ، في مراحل التأسيس والبناء، قام ذلك بدور ربّان لسفينته في بحر الحياة، وأنار له الطريق، واكتسح الظلام، وأخذ بيده، ودافع عن إيمانه، وسط أمواج العلمانية واللادينية، وعواصف الإلحاد، وهنا برزتْ عبقرية مولانا شمس الحق في التأسيس، ففتحَ الكتاتيب القرآنية التي تتمركز حول المساجد، وجاءَ لها بمنهج ريادي جديد، منهج يجمع بين التأسيس والتثقيف، ويجمع بين تعليم القرآن بطريقة جديدة مجدية، وتثقيفهم بالبنغالية والإنجليزية والرياضيات وغيرها، المواد التي يحتاجها الناشئ في مراحل تكوين حياته، ومن هنا جاءت «الطريقة النورانية» للشيخ مولانا المقرئ ولايت حسين الذي تتلمذ على يده وتخرّج من مدرسته الفكرية، كما جاءتْ طريقة «نادية القرآن» لصديقه الحميم الشيخ عبد الوهّاب، وكان هناك منهجٌ ثالث لتعليم القرآن في الكتاتيب، منهج الشيخ القارئ إبراهيم المعروف بـ«مرشد أوجاني»، فاستخدم مولانا الفريدبوري هذه العبقريات أحسن استخدام، وأدخلها في حيّز التنفيذ، فكان دورا فريدا في تاريخ تعليم القرآن.

ضرورة الجمع بين الدين والدنيا

كما أدرك أن أكبر مصدر للفساد الذي تسلّل في صفوف الشعب البنغالي المسلم هو نظام التعليم

نشأت في الكليات والجامعات الحكومية من جانب، والمدارس الدينية من جانب آخر، حتى أصبحت تموت بين خنق وجمود، وتشتت وتقصير، فكان حتما أن يوضع نظام متزن شامل بين الإسلامية والمهنية، ويجمع بين العلوم النظرية والتجريبية وبين حقائق العلم الحديث وحلاوة الإيمان واليقين، ولا بد من رسم منهج جديد يطرح الطرح العصري للدين، وهنا قام مولانا الفريدبوري منادياً بعظيم بأسه بإصلاح منهج التعليم في المدارس العربية، وبث التفكير الحيوي بين الطلبة والعلماء، حتى اشتهرت عنه جملة خالدة تكتب بماء الذهب، ولا تزال تتكرر على لسان العلماء، فكان يقول دائما: "التعليم المدني المجرد عن الدين، والتعليم الديني المنعزل عن الحياة، كلاهما يبوء بالفشل، ويهدم نظام الحياة"، ومن هنا كان يركز على التعليم المدني، وتدريس المواد التي لا غنى عنها للمواطن المسلم، وللوعي النبيه، والدعوية المصلحة، في المدارس الدينية، مع الحفاظ على معالم المنهج الديني وأصالته، فجاء بإصلاح عظيم في منهج المدارس التي كان يؤسسها ويشرف عليها، رغم المخالفات والمعارضات الشديدة من قبل العقول المتحجرة، الجامدة العقيمة، الخالدة على الأرض، والعاضّة على الماضي المهجور بالنواجذ،[١] ولا تزال تلك المدارس تدين له بالفضل، وتشهد له بالتأثير.

وكان يردّد حديثا نبويا بشكل كبير وفي كل مكان: "لقي النبي ﷺ رجلا من أصحابه وصافحه، فوجد بكفه خشونة غير مألوفة، فسأله ﷺ: ما بال كفّيك، قد أمجلت؟ فأجابه الصحابي أثر العمل يا رسول الله، أضرب بالمر والمسحاة على نفقات عيالي، فقبّل النبي ﷺ يده، وقال هذه يدٌ لا تمسّها النار أبدا".[٢] ولا ندري لو كان ذلك حقّا في ذلك العصر، في خمسينيات القرن الماضي، فماذا سيقول العلماء عن مدى حاجة مدارسنا اليوم إلى الإصلاح، وتزويد مفردات المدارس بمطالب الدين والدنيا في ذات الوقت، لكن الصراع لا يزال قائما، ولا يزال ثمّة من يريد الإصلاح ومن يصدّ عن ذلك، وهل من سبيل إلى «الاتّحاد مع الاختلاف».

كما فتح معهدا جديدا فريدا في نوعه، باسم «معهد إدارة المعارف»، تحت مظلّة الجامعة الإمدادية بفريدآباد، وكان هذا المعهد يدرّب الطلاب المتخرّجين من المدارس العربية على اللغة والإنشاء، والتأليف

(١) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق، ص١١٧

(٢) جاء هذا الحديث بألفاظ مختلفة في كتب الأئمة، مثل المبسوط للسرخسي، وذكره الخطيب في تاريخه، لكنه لا يصح عن النبي ﷺ، قال الخطيب البغدادي ببطلانه، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، غير أن ذلك لا يمنع قيمة العمل والمهنة في نظر الإسلام، ولا يغيّر موقف النبي ﷺ من العمل، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة، تثني على العمل، وتحثّ الناس على كسب اليد، والاعتماد على النفس، وهون التساؤل والتكفّف.

والكتابة، وحلّ مشكلات العصر، والبحوث الدينية، والدراسات الإسلامية، والنظريات المعاصرة، وكان الأساتذة الكبار والعلماء المفكّرون أمثال الشيخ العلامة نور محمد الأعظمي والشيخ هارون الإسلام آبادي وغيرهما يشرفون على هذا المعهد، إلا أنه أغلق أثناء الاضطرابات في سبعينيات القرن الماضي، ولم يعد إلى الحياة حتى يومنا هذا! كما كان له دورٌ رياديّ في تأسيس «جامعة عربية إسلامية» في هذه الدولة، وكان عضوا في اللجنة العلمية المشرفة على الجامعة، بقيادة وزير التعليم الدكتور السيد معظم حسين.

مولانا في ميدان السياسة

أما السياسة فقد برزت في هذا الإنسان عبقرية القيادة أكثر من السياسة، ولذلك نراه يقود أكثر من أن يسوس، ويأمر ويشاور، وينصح، ويوجّه أكثر من أن يخرج في الشوارع، ويقود المظاهرات، ويدعو إلى الإضرابات، ويتزعّم الأحزاب، ويترأس المؤتمرات، ونراه يردّ على الحكام المستبدين، ويرفع الصوتَ ضدّ القهر والدكتاتورية، ويزجرهم ويهدّدهم، ويتوعّدهم، ويصارحهم، ويدلُّهم على مواطن الداء، ونافع الدواء، ونرى له مواقف تاريخية ضدّ الرئيس الباكستاني، القاهر البطّاش الجنرال أيوب خان، ولا نراه في طليعة الأحزاب السياسية المطردة، ولا نراه على كراسي المؤتمرات السياسية، إلا عندما تحتاج ذلك الدعوة والإصلاح، ومصالح الدين والشعب، هكذا تتجلى عبقريته القيادية، فكان قياديا أكثر من أن يكون سياسيا.[١]

لكن ذلك لم يمنع بتاتا من أنه كان عبقريا سياسيا عظيما، وقد بدأ رحلته السياسية منذ أيام طلبه، فسجّل اسمه في حركات التحرير في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، ثم انضوىٰ تحت لواء «جمعية علماء الإسلام» تحت قيادة الشيخ العلامة شبير أحمد العثماني، وجاهدَ لإنشاء باكستان من عام ١٩٤٦م إلى ١٩٤٧م جهادا كبيرا،[٢] كما ألقىٰ محاضرة تاريخية في «مؤتمر شيملا» عام ١٩٤٥م، وكانتْ له صدىٰ عميقة في الوزراء وقادة السياسة، وأعجب بها محمد علي جناح، قائد «الرابطة المسلمة»، بحيث اقترح عليه أن يكون رئيس الرابطة بعموم البنغال، فرفضه، إلا أنه أخذ عضوية المجلس البرلماني للرابطة عام ١٩٤٧م، وعمل لصالحها في الانتخاب التشريعي عام ١٩٥٤م، لكن لما أدرك خدعتهم، ومكرهم، واستغلالهم لاسم «النظام الإسلامي» لتحقيق مآربهم، طلّق الرابطة ثلاثا، وهاجرَها

(١) دوره في مجال السياسة والقيادة، مقال الشيخ ذي الفقر أحمد القسمتي، جريدة "الكفاح" اليومية، الخميس، ١٢ مايو، ٢٠١١م

(٢) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ٦٥

إلى غير رجعة،[١] كما تولّى رئاسة «جمعية علماء الإسلام بباكستان الشرقية» لفترة، وكان الأمين العام لها آنذاك الشيخ مولانا دين محمد خان، وكان له دورٌ كبير في انفصال منطقة «سلهت» عن الهند ودخولها في باكستان.[٢]

المجاهد الأعظم والمصلح الاجتماعي الأكبر

عُرف مولانا شمس الحق الفريدبوري بـ«المجاهد الأعظم» و«المصلح الاجتماعي» أكثر من معرفته بأوصاف أخرى، ومن هنا تدرَك مكانة هذا الإنسان في تاريخ الدعوة والإصلاح، ودوره في تغيير المجتمع للخير والصلاح، وإزالة الفساد، وعظمته في نشر القيم والمفاهيم الأخلاقية ومعنويات الحياة، وقد بدأ الإصلاح منذ فترة مبكّرة من الحياة، عندما كان طالبا في «كلية الرئاسة» بكلكتا، فزارها أبو القاسم فضل الحق المعروف بـ«أسد البنغال» رئيس الوزراء للبنغال آنذاك، على دعوةٍ من الكلية، وبدأ يلقي محاضرةً على ملأ آلاف الناس قبل صلاة العصر، حتى أوشكت الشمس على المغيب وهو لا يتوقّف، فنشأت الهمسات حول فوات الصلاة، وهنا نهضَ الشابّ شمس الحق وقال للرئيس بصوت مجلجل على الملأ: "الصلاة تكاد تنقضي، علينا أن نؤدي فريضة الله"، وصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة، فاحتار الرئيس وتوقفّ عن المحاضرة مباشرةً، وسكت محنقا، وقد بدتْ بوادر الغضب على محيّا الناس، وبدؤوا يتشدّقون عليه وينظرون إليه شزرا، وأين هذا الإنسان من هذه الشزرات واللمزات! ولا يسعنا المقام هنا أن نبسّط في مواقفه الكثيرة من الرئيس أيوب خان، فالكلام فيها ذو شجون.

كما ردّ على «اللجنة العلمية» التي قرّرها مجلس الوزراء لرابطة العوام عام ١٩٥٥م، وكانتْ هذه اللجنة قائمة على أساس العلمانية، ومجرّدة من المواد الدينية إلى الصفّ الثامن المتوسّط في المدارس الحكومية، وصل هذا الخبر إلى مسمع الفريدبوري، فاستشاط غيظا، وأبدى ألما وحزنا، ثم جمع الناس وخرج بهم في الشوارع، ورفع صوته قبل الجميع، واضطرمت النار في طول البلد وعرضه ضدّ هذه «اللجنة العلمية» المعادية للدين، حتى ألغيتْ، وألقيتْ في مزبلة التاريخ.[٣]

وهكذا استمرّت الردود والجهاد ضدّ الرؤساء وأصحاب المناصب وأركان الدولة طول حياته، لا يجامل ولا يتملق، ولا تخور أعصابه للتهديد والوعيد، وماذا سيفعلون مع إنسان أُوتي لسانا صادقا، وقلبا

---

(١) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦) ١٣٤

(٢) المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف نسيم عرفات، ص٩٩ و١٠١

(٣) انظر للتفصيل تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦)، ص١٣٣

مؤمنا جريئا، وروحا خفاقة، وتأثيرا دفاقا، يعمل ما لا يعمل الحسام.

في عام ١٩٦٦م قدّم دعوةً عامّة إلى جميع أئمة المساجد في المحافظات الخمس التابعة لمحافظة «خولنا»، وأنشأ «جمعية أئمة المساجد» لتكون مظلّة على رؤوس الأئمة، ومنصّة موحّدة لهم، ومركزا يُشرف عليهم، ويفصل بينهم، ويحلّ مشاكلهم، ويقف بعضهم مع البعض تحت رايتها، إن هذه الجمعية كانتْ فريدةً في نوعها، لم يعرف مثلها الأئمة من قبل، ثم عندما تجلّت ثمراتها وصلاحيتها، تتابعتْ الجمعيات، في معظم المحافظات البنغلاديشية، أما الفضل في ذلك فلا يزال يرجع قبل الجميع إلى هذا العبقري، الشيخ الفريدبوري.

دار السينما تتحول إلى الجمعية الخيرية: المبنى الذي يقوم فيه الآن مقرّ «جمعية شايستا خان الخيرية» على قرب من الجامعة القرآنية بـ«لال باغ»، بُني لهدف دار السينما، تحت إشراف حاكم باكستان الشرقية عبد المنعم خان، هنا وقفَ المجاهد الأعظم في طريقه وقال بصوت المؤمن الشجاع: "لو تجرأ عبد المنعم خان على افتتاح هذه القطعة من النار وأنا على قيد الحياة، سأنزع كل لبنة منها وأرمي بها في نهر «بوريغانغا»"، ووصلَ هذا القول إلى الحاكم، فجاءَ في اليوم الموعود لافتتاح الدار، لكنه لم يفتتحها كدار للسينما، بل افتتحها كـ«جمعية شايستا خان الخيرية».

مسرح يصير جامعا: كان ثمة مسرح في «هيلاتولا» بـ«خولنا» على قرب مينائها، ولم يكن في المنطقة المجاورة مسجدٌ يصلي فيه المسافرون، فهنا نهض مولانا الفريدبوري وحوّل المسرح إلى جامع كبير، لا يزال يصلّي فيه الناس، ويصل الأجر إلى ميزان حسنات هذا الإنسان، كما كان له دورٌ كبيرٌ في بناء الجامع الوطني «البيت المكرّم»، فكان صاحب التخطيط، والدفاع عن الجامع، وقد كان كل علاجه غاية في السداد، وكانت كل خططه الصالحة مقبولة موفقة.

وهذه كلها غيضٌ من فيض ما اضطلع به هذا العبقري من الإصلاح الشامل في تاريخ هذه الدولة، وكم من مسرحيات حوّلها إلى المساجد، وكم من مبان مهجورة وأرض خلاء حولّها إلى المدارس والمراكز العلمية، تأتي في طليعتها مدرسة أشرف العلوم بـ«براكاترا»، والجامعة الإمدادية بـ«فريدآباد»، وكان حيثما حلّ احتشد له الناس، وازدحمَ عليه طلبة العلم، وتسابق إلى إكرامه ودعوته الأمراء والكبراء.

دوره في نشر الدعوة والتبليغ

كما قام بدورٍ رياديّ في إعداد أرضية لـ«جماعة الدعوة والتبليغ» في هذه الدولة، وتمهيد طريق لسيرها، فالتقى بمولانا إلياس رَحِمَهُ اللهُ، مؤسس الجماعة في الهند في طريق عودته إلى الوطن، وهنا تحدّث

معه مولانا إلياس، فتفرّس فيه أمارات الذكاء والنبوغ، والإيمان والأمانة، وفوّض إليه تبليغ هذه الرسالة إلى سكّان وطنه، فلما عادَ إلى الوطن تزاحمت عليه الأشغال الدعوية والإصلاحية، ولم يجد فرصة للقيام بهذا الواجب بنفسه، فبدأ يبحث عن إنسان يفرّغ وقتَه للجماعة، وينذر حياتَه على الدعوة والتبليغ، حتى التقى مع الشيخ عبد العزيز، وبدأ العمل في قرية «أودايبور» بمحافظة «خولنا»، ثم تنقّل مركز الجماعة في أمكنة كثيرة، حتى توقّفت بهم الرحلة في مسجد بجوار «منتزه رامنا»، بالعاصمة داكا، وتأسّس فيه المركز السادس لجماعة الدعوة والتبليغ، ثم عُرف هذا المسجد باسم «كاكرائيل»، وانتشر نورُه في طول البلاد وعرضها، وأصبح مركزا للنور السماوي، والانقلاب الشامل في الآونة الأخيرة ووصلتْ صدى هذا المركز إلى أرجاء المعمورة![١]

مولانا في محراب التأليف

مع هذه الأعمال الشاقة، والمسؤوليات الكبرى، والجولات الدعوية والإصلاحية، وتأسيس المراكز الدينية، والمجامع العلمية، والقيادة والسيادة، برزتْ عبقريته في ميدان اللغة والأدب، والكتابة والتأليف، ولا غرو فالإنسان لا يكون عبقريا مع إهمال هذا الجانب الخطير في المتجمع الإنساني، ولذلك أتقن اللغات، وتدرّب على الأدب والإنشاء منذ فترة مبكرة من حياته، على غير ما جرت به العادة إذ ذاك، وظل يكتب ويؤلف في كل فرصة تسنح له، حتى أصبح عدد ما كتبه يزيد على ٢٠٠ كتاب ورسالة باللغة البنغالية في فنون مختلفة! لا تزال معظم هذه الكتب موجودة متداولة في الأسواق، تنفع الأمة، وتشهد على عبقرية هذا الإنسان، وتضلّعه في العلوم المختلفة، وتمكّنه من اللغة والإنشاء، وتعمّقه في الأدب البنغالي، وسلامته من التكلف، وبعده عن الفضول، وبراءته من التعقيد، مع تحليه بشمول الفكر، ودقة الملاحظة والمشاهدة، وحسن الابتداع والاختيار، حتى جاءت معظم كتبه ترتاح لها القلوب، وتهتز لها النفوس.

من أبرز ما كتبه في القرآن والتفسير: ◊ التفسير الحقاني ◊ تفسير سورة يس ◊ تفسير جزء عم، وفي الحديث وعلومه: ◊ مئة حديث ◊ أربعون حديثا ◊ وصايا النبي ﷺ في حجّة الوداع إلى الأمة المسلمة.

من أبرز كتبه في التزكية والسلوك والردّ على البدع والباطل: ◊ حقيقة التصوّف ◊ ترجمة قصد السبيل ◊ التوبة ◊ معرفة الله ◊ إصلاح النفس ◊ تعليم الدين ◊ معرفة التصوّف ◊ معرفة المرشد وواجب

(١) المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف نسيم عرفات، ص١٢٤ و١٢٥

المريد ◊ إصلاح الأغلاط ◊ علماء السوء ومشايخ السوء ◊ البدعة والاجتهاد ◊ العواقب الوخيمة للاحتلال البريطاني ◊ تحريف القرآن الكريم ◊ أين إنجيل الله؟ ◊ فضح المنصّرين، ومما كتبه في الجهاد: ◊ فضائل الجهاد ◊ نداء الجهاد ◊ واجب المسلمين عند القتال، ومن أبرز كتبه في الدعوة والإصلاح: ◊ المسجد الحيّ ◊ الطريق إلى الخلاص ◊ المسجد ◊ الحياة الجماعية ◊ قانون الأحوال الشخصية في ضوء الشريعة

ومما كتبَه في الفقه: ◊ ترجمة «حلية الجنة» (بهشتي زيور) لمولانا التهانوي، وقد نال هذا الكتاب قبولا كبيرا، ولم يكد يبق بيت من بيوت المسلمين في البنغال إلا ودخلَ فيه! ◊ مسائل الحج ◊ كتاب الفرائض ◊ خطبة الجمعة بالعربية ◊ فضائل التجارة ◊ تحديد النسل ◊ الاقتصاد الإسلامي ◊ الحلال والحرام، ومما كتبه في السياسة: ◊ مسؤوليات المصوِّت ◊ مسؤوليات القائد ◊ التوجيه الشرعي في التصويت ◊ هل النظام الإسلامي صالح لعصرنا؟[١]

كتابه «التفسير الحقاني» من الأعمال الخالدة في تاريخ حركات التفسير لديار البنغال، وهو يزيد على ستة عشر ألف صفحة! وهو من أبرز أعماله العلمية، نذرَ عليه السنوات الأخيرة القيمة من حياته، ولم يُكتب له أن ينشره بنفسه، فأوصى لمن حوله قبل الوفاة "التفسير الذي كتبته، من عصارة فكري، وخلاصة قلبي، انشروه بعدي كما كتبته، ولا تقصّروا فيه"، إلا أن التقصير-مع الأسف-وقعَ، وقد مضى على وفاته زهاء أربعين عاما ولم يصدر «التفسير الحقاني» بكامله، بل صدر جزء منه، وقد أثنى عليه كثير من العلماء، كما انتقده البعض،[٢] نسأل الله أن ييسّر الأمور لنشره، حتى يتحقّق حلم مولانا، وينتفع به الناس.

جهاده ضد التنصير

لم يكن لإمام وداعية ومصلح مثل الفريدبوري رَحِمَهُ اللهُ أن يعمل في التدريس، وفي التأليف، ويجاهد في ميدان السياسة، وإصلاح المجتمع، ثم ينسى طوفان التنصير الذي كان- ولا يزال- يجتاح الدولة البنغلاديشية من طولها إلى عرضها في أيامه، لذلك أولى مولانا عناية بالغة إلى هذه الساحة، وأنشأ جمعيات، على رأسها «لجنة تبليغ القرآن»، وألف مؤلفات، على رأسها «حذار من العدوّ» و«أين إنجيل

(١) انظر للقائمة المفصلة في ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري، تحرير مولانا لياقت علي، ص٢٥-٢٧

(٢) التفسير باللغة البنغالية، وتفسير نور القرآن نموذجا، رسالة الدكتوراه في جامعة داكا، للأستاذ أبي الكلام آزاد ص١٩٨

الله المنزّل» و«فضح المنصّرين» وغيرها، كما أرسل بعثات دعوية إلى القرى والأرياف البعيدة عن المجتمع وإلى أوكار التنصير، لتردّ المرتدين عن الإسلام إلى دينهم، وتدعو غير المسلمين إلى الإسلام.[1]

عبقريته في إنشاء «جماعة خادم الإسلام»

لعلّ من أبرز مآثر هذا الإنسان التي لا تزال تشهد على عبقريته، وشمول إصلاحه، وفكره في الحياة الإنسانية الكاملة، وتطبيق الشريعة في جميع خلايا المجتمع، والدفاع عن كيان الأمة، وإنقاذها من الذوبان في الثقافات الأخرى، وفوق كل ذلك بناء مجتمع إسلامي كامل، وجيل قرآني، هي تأسيس «جماعة خادم الإسلام»، التي هي عبارة عن جمعية خيرية، اجتماعية وإنسانية غير سياسية، لها فروع ومؤسسات، ورجالٌ وأنشطة، ولها أدوارٌ بارزةٌ في مستويات المجتمع، ولا تزال تعمل عملَها، وتؤدي دورَها، وكانتْ هذه الجمعية وتحقيق الأهداف التي خلقتْ من أجلها هي أعظم غاية في حياته، ومن أجلها أنشأ مدارسَ وجامعات وسمّاها باسمها، مثل الجامعة الإسلامية دار العلوم خادم الإسلام بجوهر دانغا» «غوبال غنج»، كما فتحَ مكتب صندوق البريد وسمّاه خادم الإسلام، وكتب مؤلفات كلها تدعو الناس إلى المجتمع المسلم القويم، وإلى الحياة القرآنية، والدولة القائمة على الشريعة، وبذل كل ما وصل إليه من المال والثروة، من المكتبات ودور النشر، بذلها في سبيل الجمعية، ولم يأخذ لنفسه قرشا، وأصبحتْ دور النشر التي تولّت طباعة ونشر كتبه ومؤلفاته، أصبحت من أغنى المكتبات، ومن طلبة دور النشر، فقد كانت مؤلفاته هي الأولى في ساحة الطلب والشراء، في معارض الكتب وعالم المؤلفات الإسلامية، لكن المؤلف ظلّ فقيرا طوال حياته، غني النفس![2]

كما فتحَ زهاء أربعين لجنةً فرعية تحتَ مظلّة «خادم الإسلام»، مثل لجنة الطلاب، ولجنة التجار، ولجنة المزارعين، ولجنة المحامين، ولجنة الخدمات الإنسانية، ولجنة تبليغ القرآن وغيرها، وهذه اللجنة الأخيرة «لجنة تبليغ القرآن» التي تعمل الآن باسم خادم الإسلام قامتْ بدور فريدٍ في الردّ على التنصير والإرساليات التنصيرية، في المناطق القروية المتأخرة، المنعزلة عن الحضارة والمدنية، وخصوصا في المناطق الجبلية في «مؤمن شاهي»، والمحافظات الشمالية وعلى رأسها «ديناجبور» و«رانغبور» وغيرها،[3] إلا أن سنّة التدهور والانحطاط أثبتت وجودَها في هذه الجماعة هي الأخرى، ففترت في نشاطها، وضعفت في

(١) انظر جهود مولانا ضد التنصير في ذكريات العلامة الفريدبوري، ص٥٠ و٢٨١ وما بعدها

(٢) ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري، تحرير مولانا لياقت علي، ص٢٧٣

(٣) حياة المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا محمد عبد الأول، ص٦٣

قوتها، رغم الإخلاص والجدّية من الذين تحمّلوا هذه المسؤولية الكبرى عن الشيخ الفريدبوري بعد وفاته.

إنسان واسع الأفق ورحب الصدر

لكن حياة هذا العبقري لا يعطيها كمالا، ولا يحدّد لها مكانةً في تاريخ الرجال العباقرة، إلا إذا ذكرنا جانبا آخر من حياته، لا يقلّ لمعانا وقيمة وأهمية من الجوانب الأخرى، وهو سعيه الدؤوب لوحدة الأمة، والبحث عن كلمة سواءٍ بين الأحزاب، والفرق، والمذاهب، والاتجاهات، التي تنتسب إلى الإسلام، مهما كانتْ حالة هذا الانتساب، مادام لا يكون ثمّة فارقٌ يمسّ صميم الدين، وروح الإيمان واليقين، فكان يكره الفرقة والتحزّب مما يؤدي إلى تفكّك المسلمين وذهاب هيبتهم، ويكره أصحاب الألوية والدعاة إليها، وكان يكرر دائما: "إن وحدة الأمة من أهمّ الفرائض، ولا تقلّ أهميتها عن أهمية الفرائض والواجبات الأخرى، ومن اخترق هذه الوحدة وأحدث فيها فجوةً، فكأنه جنى جناية كبرى، وحمل عبئا لا أثقل منه".

من هنا كان لا يركّز على الخلافات الجزئية، والقضايا الفرعية، ولا يفرّق بين مسلم وأخيه، على أساس الديوبندية، والبريلوية، والتبليغية، والحنفية، والصوفية، والسلفية، ولم يكن ضيّق الأفق، وقاصر النظر، ومتعصّبا متطرّفا، وإنما كان يقول: "إنما المؤمنون إخوة، والمسلمون كجسدٍ واحدٍ، فلماذا نقطع هذا الجسد ونفصله إربا إربا"؟ وذات مرّة بلغَه نبأُ مناظرة كبيرة في محافظة «كُمِلّا» حول حكم الاحتفال بمولد النبي ﷺ، بين المؤيدين والمخالفين، حضرَها آلافُ من العلماء من أرجاء الدولة، ففاجَأهم مولانا الفريدبوري، وحضرَ في المناظرة من دون إشعار سابق، وطلب من الجميع عشر دقائق ليلقي كلمةً مختصرةً، فألقى كلمةً بليغةً وموعظة تاريخية، ومما قاله في ذلك الحشد الغفير: "في البقعة التي لا تعرف الإسلام حقّ المعرفة، وبين الأمة التي تجهل أركان الإيمان وفرائض الدين، لا يجوز للعلماء أن يتخاصموا في النوافل والمكروهات، ويتناظروا في مثل هذه الأمور، ماذا فعلناه من أجل أمتنا؟ لا أرضا قطعنا ولا ظهرا أبقينا، علينا أن نستحيي من الله، ثم من الناس"، وهنا عاد إلى الناس الرشدُ، وأدركوا تفاهة ما فعلوا، وتفادوا جدالا بين أنفسهم قبل أن يلتهب، وذات مرّة أخرى سمع عن مناظرةٍ في محافظة «خولنا» بين الحنيفة وأهل الحديث، فحضر فيها الفريدبوري، وقال بإخلاص وبصوت المؤمن الجريء: "أيها الناس! انظروا إلى هذه الشجرة وهو يشير إلى شجرة المانجو، نرى ثمرات مختلفة في أشكالها وألوانها، لكنها متجانسة، وكلها مانجو، فليأكل كل واحد منا من أي غصنٍ يريده، بدون أن نتنازع ونكسر الأغصان"! فانتبه الناس على خطأ الموقف، وحسمت مادة الخلاف، وعادوا سالمين غانمين، متآخين ومتحابّين في الله.

من مؤلّفات مولانا الفريدبوري الأكثر انتشارا والأشدّ شهرة كتابه «إصلاح الأغلاط»، في نقد آراء السيد أبي الأعلى المودودي في كتابه «الخلافة والملوكية»، وما جاءَ هذا الكتاب ينتقد نقدا هادما للجماعة، كما ظنّه كثيرٌ من الناس، بل جاءَ منارة هدى، وذا فائدة كبيرة، يسدّ فراغا في المكتبات، كما جاء شاهدا على قلبٍ عزيز، متحابٌ في الله، ومتباغضٍ فيه، وعلامة على إنسانٍ لا يريد للسيد المودودي وجماعته إلا خيرا، فقد كان الشيخ في البداية يحبّ «الجماعة الإسلامية» ومؤسسها، من حيث أنها تجتهد وتجاهد بالجدّية والتفاني في سبيل تطبيق النظام الإسلامي،[١] وأنه ما كان يرى السيد المودودي عدوا أو خصما للصحابة، إلا أنه كان يرى أن السيد المودودي وقع في بعض كتبه ورسائله من الأخطاء ما قد يصدّ رسالته وحركته عن هدفها، ويحول دون الوصول إلى غايتها، وقد تسرّبت إليه هذه الطامات من مصادر الرافضة، وهنا نهضَ وأصدرَ كتابه «إصلاح الأغلاط»،[٢] إلا أنه مع الأسف لم يحمل أحدٌ من الطرفَين هذا الكتاب محمل الجدّ والعمل والعدل والإنصاف، ولم يفكّر في منطلقات وجوده وأهدافه، فظنّ الطرف الأول أن الكتاب جاءَ ليفضح الجماعة على الملأ، وليحذّر الناس منها، فما ازدادوا إلى بغضا لها، وبعدا عنها، وظنّ الطرف الثاني أن الكتاب جاءَ ليهدمَها، ولا ليبنيها وينصحها، فلم يستفيدوا منه شيئا![٣]

بينما تجاهل الطرفان أن الحكومة الباكستانية الغاشمة لما أصدرتْ حكم الإعدام على السيد أبي الأعلى المودودي، لدوره في الردّ على القاديانية، وموقفه الجليل من إطفاء نار هذه الفتنة، كان المجاهد الأعظم الفريدبوري من طليعة من ثارَ ضدّ هذا القرار، ولا يخفى على القارئ ما كان بين هذين العَلَمين، واستنفرَ الرأي العامّ ضدّه، حتى استسلمت الحكومة، وعادتْ إلى أدراجها، وأفرجَ عن قادة الجماعة بمن فيهم مؤسسها.[٤]

هذه الروح الخالصة، وهذه العقلية العميقة، والفراسة الإيمانية، والنظرات إلى الدين والأمة والعالم بعين فاحصة دقيقة، هي التي تحتاجها الأمة المسلمة اليوم، وكان يقول دائما: "أمرنا الله ﷻ في القرآن

(١) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، للشيخ عبد الرزاق ص١١٩

(٢) انظر مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٦، ص١٢٤

(٣) انظر "مشاهد من حياتي" للأستاذ غلام أعظم، ج ١ ص٦٥ وما بعدها، وج ٢، ص١٤٦ وما بعدها

(٤) لكن بدا لراقم هذه السطور- بعد الدراسات الطويلة العميقة لحياة مولانا- أنه بدأ في نهاية حياته يمشي على منهج صارم ضد الجماعة الإسلامية، بل أخذ مع الأيام ينتقد مؤسسها نقدا كبيرا، ويحذّر الناس منها، كما فعله بعده كل من الشيخ العلامة محمد الله الحافظجي، وشيخ الحديث مولانا عزيز الحق، والشيخ المرشد السيد فضل الكريم، رحمهم الله جميعا، ولعل هذا هو سرّ موقف جمهور علماء هذه الدولة من الجماعة الإسلامية.

الكريم أن نعتصم بحبله جميعا، ولا نتفرّق في دينه، ونتمسّك بالكليات، ونهمل الخلاف في الجزئيات، إلا أننا قلبنا الميزان رأسا على عقب، ونشتّت شمل الأمة للقضايا الهامشية، على حساب الأمور الحسّاسة، فلو خاضت الأمة المسلمة في الحروب الداخلية، من يرابط على الثغور، ومن يحمي حدودَها وظهورَها عن الأعداء في الليل والنهار، وفي القيظ والريح والبرد الشديد؟ اتفقت جميع الأديان السماوية والوضعية، وجميع المذاهب والنظريات، والتيارات والاتجاهات، على معاداة الأمة المسلمة، واستئصال شأفتها، وطمس آثارها عن البسيطة، والأمة المسلمة لا تزال تستهلك قوتَها، وتستنفد ثرواتها العقلية والإيمانية، والمادّية والمعنوية، في حروب داخلية، حروبٌ يقتل فيها الوالد ولدَه، والشقيق شقيقَه".[١]

أسرار إمامته ومفاتيح سعادته

كيفَ صنع هذا الإنسان تاريخا راقيا مهذّبا لن ينساه العالم أبدا؟ تاريخ يفيض بالحب والنبل، والتضحية والبطولة والإيمان، وبالمفاخر والمكارم، وكيف أنجز هذا الإنسان في عمرٍ قصيرٍ، قد لا يطول على أكثر من ٧٥ سنةٍ، مالا تنجزه جماعةٌ كبيرة أو أمّة كاملةٌ؟ وكيف جعلَ لنفسه مكانةً في أمّته، وتركَ ثغرةً في كيانها بعد وفاته قد لا تملؤها آلافُ السنين؟

لعلّ كل ذلك يرجعَ إلى شيءٍ يتغافل عنه كثيرٌ من الناس، ويتهاون فيه كثيرٌ من العلماء والدعاة، والمؤلفين والمجدّدين، والقادة والزعماء، وهو علاقته مع ربّه، وصلته بروحه وضميره، ونظرته إلى ما يحيط به حوله من العالم، وكان من أعبد العبّاد، وأزهد الزهاد، وقد اعتنى بالروح أكثر منه بالجسد منذ فترةٍ مبكّرة في حياته، فيبكي على فوات صلاة الفجر، وهو ابن خمس سنين! نعم خمس سنين، ثم يبكي في الغابات لكي يرزقه الله علم الدين، وفهم الشريعة، وقد أنشأَ صلةً متينة مع كبار العلماء، والشيوخ الربانيين، والمصلحين المجدّدين في ذلك العصر، بمن فيهم الشيخ المجدد مولانا أشرف علي التهانوي، ومولانا حسين أحمد المدني، ومولانا إلياس الكاندهلوي، كما بايع على يد مولانا التهانوي، ونالَ منه الإجازة في التزكية والسلوك،[٢] ولم يُرَ أثناء طلبه في «سهارنبور» و«ديوبند» إلا ومعه كتاب أو رسالة لمولانا التهانوي![٣]

(١) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق، ص١٢٠

(٢) انظر شهادة الشيخ العلامة ظفر أحمد العثماني بحصوله على إجازة مولانا التهانوي في «ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري» ص٤٣٠، ٤٣١ وانظر كذلك تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦)، ص١٣٢

(٣) انظر شهادة الشيخ محمد الله الحافظجي له، في ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري، تحرير مولانا لياقت علي، ص٣١ وما بعدها

أثناء دراسته في مظاهر العلوم بـ«سهارنبور» ودار العلوم ديوبند كان يذهبُ في كل الخميس إلى زاوية مولانا التهانوي، ويقطع زهاء ٣٥ ميلا مشيا على الأقدام، فيبقى في الزاوية إلى صلاة الجمعة، ثم يعود إلى المدرسة مشيا على الأقدام، ولم يفته أسبوعٌ طوال ستة أعوام، وقد حضرَ في زاوية التهانوي أثناء هذه الفترة ٣١٢ مرّة، وقطعَ ٩١٥٢ ميلا تقريبا مشيا على الأقدام! نعم مشيا على الأقدام يا ترى!![1] فهل من عجب بعد ذلك أن تراه عبقريا في عصره؟ ويتيم دهره؟ وصانع تاريخ ليس له نظير في دولته؟ وإماما في التزكية والسلوك؟[2]

لذلك لا يعجب التاريخ عندما يرى هذا الإنسان يرفض الإغراءات النادرة من الحكومة، ومن رجال السياسة، والتجّار، والأصدقاء والأحباب والأتباع، ويعيش في تعفّف وتصوّن، ونزاهة عن التزلّف إلى الملوك والرؤساء، والوقوف على بابهم، ويرضى ما يقيم عوده، ويقوّي ظهره، وجدَ مبنى كبيرا في «براكاترا» فأقامَ فيه مدرسةً، ولم تأخذ لنفسه ولأسرته فيلا! ولما وجدَ مساحةً كبيرة من الأرض في «فريد آباد» بنى فيها الجامعة الإمدادية، ولم يُبق لنفسه شبرا! ولما تأسست الجامعة القرآنية بـ«لال باغ»، وقامت المباني الكبيرة، وتزوّدت غرفُ الطلاب والمدرسين بالأثاث والأغراض الفاخرة، اختارَ لنفسه غرفةً قديمةً ضيّقة بجوار دورات المياه!

كلما يحضر في المجالس العامة، ويتحدّث فيها، ويجد الهدايا، يودع كل شيء في حساب المدرسة، وكان يشتري من السوق أرخص سمك، وأدنى شيء قد لا يشتريه كثير من الناس، وعندما كان يسافر في الحافلة أو السفينة يختار أدنى طبقة، وأبعد مكان عن الترف والبذخ، والرفاهية والكمالية، فزهده لم يكن مصطنعا، بل كان حقيقة ثابتة، وكان سيّد الزاهدين في حياته، من رآه أو عاشره عرف أن لله خلقا خلقهم للآخرة، وصدّق قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾

يقول عنه المفتي تقي العثماني وهو يتحدّث عن إحدى زياراته لداكا :"مع أشغالي وأعمالي المزدحمة، وصلتُ فجأةً إلى الجامعة القرآنية، وحضرت في غرفته، فإذا بي أمام غرفة صغيرة شبه مظلمة لا ينيرها إلا الضوء الخافت، والشيخ جالس على الحصير، يتناول الغداء وهو عبارة عن خبز وعدس، وشيء من الإدام مع المرق، وقد التقيتُ به أكثر من مرّة في مكتب رئاسة المدرسة، وصالة اللقاء، وغرف الضيوف، فوجدتها مرتّبة وموسعة وفاخرةً، وهاهي أوّل مرة لقيتُه في غرفته، إنسانٌ بنى هذا البيت

(١) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق، ص ٦٦

(٢) انظر دليل إمامته في السلوك، مقال الشيخ فيض الرحمن، في ذكريات العلامة الفريدبوري ص٧٦

الكبير، وشيّد هذا الصرح المنيف لدين الله، وأعدّ للطلاب والمدرسين الغرف الفاخرة، ثم اختارَ لنفسه غرفةً ضيّقة مظلمةً! إنسانٌ رفضَ الملايين على وجه الرؤساء والوزراء، ثم اختارَ لنفسه خبزا وعدسا! هنا دارت بخلدي كلمةٌ خالدةٌ من الصادق المصدوق الحبيب ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل»، فقرّت عيني بمثال حيّ فريد، ماثل أمامَي".[1]

من وصايا مولانا للعلماء وطلاب العلم

وقد اختاره الله ٢١ من يناير عام ١٩٦٩م، إلا أنه قد شعرَ في آخر حياته بدنوّ الأجل، وقرب موعد اللقاء بربّه، فجمع أهله وأقاربه، وأصدقاءه وأحباءه، وأساتذة جامعة خادم الإسلام وطلابها، ونظر إليهم بعينين ملؤهما حب وإخلاص، وترك لهم وصايا قمّة في أهميتها، وقيمتها في حياة الأمة، وهنا نختار بعضا منها:

◊ لا تسمع إلى من ينتقد الصحابة ﷺ، ويذكر أحدَهم بالسوء، فإنهم حملة الدين، وحماة الشريعة، فإن ذهبوا ذهب الدين ◊ أنا أؤمن بالتقليد، كما أؤمن بالاجتهاد، إلا أن التقليد لا يعني إقفال باب الاجتهاد وإيثار الاتّباع "الأعمى" والمضي فيه، والانجرار وراء أحد بلا حجّة ولا برهان، وليس في الإسلام كهانة ◊ أنا أعترف بالتصوّف والطريقة، فالتصوّف هو إصلاح الظاهر والباطن، وتعميرهما بالله وبذكره واتباع دينه، وهو يربي في المسلم الإخلاص والتقوى، وليس التصوّف علم الغيب، والشطحات الخرافية، فالتصوف الذي يخالف الشريعة لا مكان له عند الله، وليس معنى التصوّف توارث الولاية والعروش بين السلالة والنسل، فيكون ابن المرشد مرشدا بعد وفاته، وخليفة له في زاويته، فاحذروا من مثله تحذيرا كاملا ◊ أنا حنفي، ومقلّد للإمام أبي حنيفة في الفقه، إلا أن المذاهب والمدارس الفقهية الأخرى التي تسير على الأدلة، وتعتمد على الحجج الشرعية، من الشافعية والمالكية والحنبلية، وحتى أهل الحديث، نجلهم ونحترمهم، فإن الجميع يتبّع الوحي، ولا يتبّع الهوى، وإن هذا الاختلاف لا يسبّب في الشقاق، ولا يحدث الشرخ بين الصفوف، لذلك إن وجد الحنفي حديثا صحيحا وعمل به خلافا لمذهبه، فإنه لا يخرج بذلك عن دائرة الحنفية، ولا تزول عنه حنفيّتُهُ ◊ أقول للإخوان العلماء! لا تتّخذوا الدين مطيّة للدنيا، ولا تأخذوه سلّما إلى المال والثروة، وتجارةً رابحةً للغنى والرفاهية، فلا جريمة أشدّ وأخبث من الاتّجار بالدين، وتوظيفه لتحقيق مآرب الدنيا، وهي تجارةٌ تبور ولن تربح![2]

(١) المرجع السابق، ص١٤٠ و١٤١

(٢) حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق، ص ١٦٥-١٨١ (باختصار)

مولانا محمد مشاهد البيومبوري

(١٩٠٨- ١٩٦٩)

العالم الرباني، المؤلف الحكيم، رجل العلم والإصلاح

يستلفت هذا الإنسان الجليل أنظار الباحثين، ويستهوي قلوب القرّاء والدارسين، من بين مئات العلماء العاملين، وشيوخ الحديث، والدعاة والقياديين، والأئمة المصلحين، والمجتهدين والمجددين، بشخصيّة فريدة مميزة، وعملاقة خالدة، يتميّز بها بين أقرانه وأترابه، وبين كثير من معاصريه، كلما يزداد المرء بها علما، يزداد لها إكبارا، وهي شخصيّة العلم والإتقان، والسلوك والإحسان، والدعوة والتوجيه، والتأسيس والتأليف، والنبل والسيادة، والاجتماعية القوية، والزعامة العامة، إنه العالم الرباني، ومحدّث العصر، وشيخ الحديث، العلامة محمد مشاهد البيومبوري رَحِمَهُ اللهُ، إنسانٌ قضى معظم حياته في تدريس الحديث النبويّ، وسبحَ ليلَه ونهاره في محيط السنّة، في نشرها وشرحها، وتحليلها وتفسيرها، وتنشئة الجيل الصالح القائم على الشريعة الغرّاء السمحة.

نشأته ودراسته

في يوم مبارك من أيام الجمعة عام ١٩٠٨ للميلاد،[1] وُلد هذا الإنسان في قرية «بيومبور» بمحافظة «سلهت» من بطن أمّ صالحة تقيّة، حافظة للقرآن الكريم، وأديبة مثقّفة، ولوالد صالح ديّن، إلا أن الطفل فقدَ والدَه في طفولته، فكانت الأم هي التي تولّت تنشئته وتعليمه، وتربيتَه ورعايته، وإليها

(١) حصل خلاف في تحديد سنة ميلاده، فذكر البعض أنها ١٩٠٧م، كما ذكرَ البعض أنها ١٩١٠م، وقد ذكر الأستاذ محب الرحمن في كتابه «العلامة مشاهد البيومبوري: حياته ومنهجه الفكري» بأنه وُلد في محرم عام ١٣٢٧هـ، وهو ما يقارب نهاية ١٩٠٨ أو بداية ١٩٠٩م، ولعل من هنا ذكر صاحب الترجمة البنغالية لكتابه «الفرقان» أنه وُلد عام ١٩٠٨م، وهو الأرجح عندنا.

يرجع فضل نبوغه ونباهته، وصنع حياته.

بعدَ أن تعلّم الصبيّ القرآن وأتقن الأردية والبنغالية في مدرسة أمّه، دخلَ في المدرسة الإسلامية بـ«كنايغات» وظلّ فيها سبع سنوات، يدرس ويحصّل، ويفكّر ويضطرب، ويسهر لياليَ متتالية دون العدد في الدراسة والعبادة، والمطالعة والمناجاة، حتىٰ تخرّجَ منها، وتولّى التدريس في مدرسة ابتدائية، إلا أن الشابّ الطموح مثل مشاهد لم يكن ليقتنع بهذا القدر من العلم، فبدأ يتقالّه، ويراه بضاعة زهيدة مزجاة، لا تكفي وحدها لحياته، فضلا عن القيام بالدعوة والإصلاح في الأمة، ولذلك بعد فترة يسيرة ترك التدريس وسافرَ إلى الهند، يطلب المزيد، ويبحث عن الجديد.

ذهبَ إلى «أترابراديش» بالهند ودخلَ في المدرسة العالية بـ«رامبور»، وتخصص في المنطق والكلام والعلم والفلسفة، لفترةٍ تزيد علىٰ خمسة أعوام، حتىٰ بلغَ في ذلك مبلغا قلما يبلغه الرجال، ثم ذهبَ إلى «ميروت» وأخذ الحديث من الشيخ المحدّث العلامة مشيت الله الديوبندي، صاحبَه عامين وكتبَ أثناء ذلك شرحًا لـ«كافية ابن الحاجب»، وانتشر هذا الشرح فيما بعد باسم أستاذه يحمل عنوان «إيضاح المطالب في شرح كافية ابن الحاجب»، ونال قبولا واستحسانا، فكان الشيخ مؤلفه الحقيقي، إذا لم يعرفه الناس فالله عرفَه وكتبَ أجره،[1] ثم عادَ الشيخ إلى الوطن، وبدأ التدريس في المدرسة الرحمانية بـ«كنايغات»، وقد أصابه الأرَق الشديد، والاضطراب في الصحّة والنوم، للسهر المستمرّ وكثرة النظر في الكتب.

في عام ١٩٣٦م ترك التدريس، وسافرَ إلى الهند مرّة أخرىٰ، لأن السفر الأول رغم طوله وعرضه، ورغم التفرّغ الطويل المستمرّ للدراسة، لم تكن فيها دار العلوم ديوبند، فكان يحسّ بفراغ كبير في ميدان العلم، ولذلك جاء هذا السفر، ودخلَ في رحاب ديوبند، وأخذ العلوم علىٰ أيدي العلماء الأعلام أمثال الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ العلامة إبراهيم البلياوي، والشيخ المفتي محمد شفيع رحمهم الله، وبقي في رحاب ديوبند زهاء عامين، ثم عادَ إلى مسقط رأسه.

في سبيل السلوك والكمال

أثناء إقامته في المحيط الطاهر الزكي بحرم دار العلوم ديوبند، وبجانب العلوم الظاهرة، وحفظ المتون، والنظر في صفحات الكتب والمؤلفات، أحسّ بخلل كبير في النفس، وفراغ في القلب، فنهض لسد

(1) العلامة مشاهد البيومبوري: حياته ومنهجه الفكري، تأليف الأستاذ مولانا محب الرحمن، ص١٥

الخلل، ولملء الفراغ، واستفاد من الشيخ أشرف علي التهانوي في العلوم التي لا توجد في صفحات الكتب، ولا في المحاضرات داخل الصفوف، استفادَ منه في السلوك والعرفان، والجهاد في التزكية والربانية، كما استفاد من الشيخ المدني، ثم بايع الشيخ يعقوب البدربوري، خليفة الشيخ الحافظ أحمد الجونبوري، ونالَ منه الخلافة والإجازة.

طرق تدريسه وأساليب دعوته

عادَ الشابّ مشاهد إلى الوطن، وهو قرير العين، هادئ القلب، مطمئن البال، متشبّع الروح بالعلم والعرفان، فبدأ يدرّس الحديث، وفي فترةٍ يسيرة سطع نوره، ولمع نجمه، فأقبل عليه العلماء والطلاب، وأخذ يدرّس في كثير من الجامعات والمدارس والمراكز العلمية في «آسام» و«سلهت».

كان يدرّس الحديث، ولا تسأل عن روعة أسلوبه، وطريقة تدريسه الخارقة، وعرضه المعجز، وشرحه الدقيق العميق، فهو لا يخرج الكلام من فمه، وإنما ينتزعه من قلبه، فكان يأخذ حديثا من أحاديث النبي ﷺ، ويشرحه في ضوء أقوال الأئمة والسلف الصالح، ثم يسهب في شرحه، مع ربط النصوص بالحياة اليومية المعاشة، فيستدلّ علىٰ واقعها وموضوعيتها ودقّتها بالتاريخ والجغرافيا، وقوانين الاقتصاد والحضارة والمدنية، وعلم السياسة والاجتماع، فكان محدّثا اقتصاديا، ومحدّثا مؤرخا، ومحدّثا من كبار علماء الاجتماع وقادة السياسة!

وكان شيخا للحديث في عشرات المؤسسات، بما فيها الجامعة الإسلامية بـ«رامبور» الهند، ومدرسة بدربوبر» بـ«آسام»، والمدرسة الحكومية بـ«سلهت»، والجامعة الإسلامية دار العلوم «كنايغات»، البيت الذي رفعَ قواعدَه عام ١٩٥٤م،[1] فأصبح بيتا عامرا من بيوت العلم والمعرفة، وظلّ يديرها ويوجّهها إلى آخر عهده بالدنيا، كما كان خطيبا مفوّها، وصاحب لسان بارع ذرب، وعقل رجيح رزين، وكان مناظرا لا يُشقّ له غبارٌ، حيث آتاه الله من قوىٰ الحجج والمنطق السليم المقنع ما يدمغ به حجج الخصوم، ويفحم المخالفين بسرعة عجيبة، حتىٰ قال عنه الشيخ عبد الكريم (شيخ كوريا): "لو جُمعت علوم علماء سلهت جميعا، لما بلغت ركبته"! وقد خاضَ في كثير من المناظرات، مع جماعة أهل الحديث ومع الفرق الصوفية المبتدعة.[2]

(1) في الأصل بذرت أول بذرة هذه المؤسسة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عام ١٨٨٩م، ثم ظلّت تترعرع وتمشي في مسيرتها البطيئة الرتيبة، حتىٰ جاء الشيخ البيومبوري، ونفخ فيها روحا جديدة، وأعاد بناءها عام ١٩٥٤م وأوصلها إلى القمة، انظر " جلال آباد المعاصرة: أبطال النهضة الإسلامية"، تأليف الشيخ تاج الإسلام، ص٥١٦-٥١٧

(2) العلامة مشاهد البيومبوري: حياته ومنهجه الفكري، تأليف الأستاذ مولانا محب الرحمن، ص١٨

عبقريته في ميدان التأليف ووقفات مع بعض كتبه

الناظر في حياته وآثاره يندهش ويرى العجب العجابَ حين يقرأ أن الشيخ مع تدريسه للحديث في عشرات الجامعات والمدارس، واشتغاله بالعلم والدعوة والإصلاح، وولعه بإقراء الطلبة وإحياء المعرفة، والإشراف على المحافل والمجامع، والمناسبات والاحتفالات، والمشاريع الدينية، وجهاده في ميدان السياسة والقيادة، أخرج وقتا كبيرا للكتابة والتأليف، فهو حين يكون بطل جهاد، يكون حليف محراب، حامل القلمَ وألّف عددا كبيرا من الكتب القيّمة التي تدل على كثرة علمه، وسعة أفقه، وتفقّهه بالواقع ومعرفته بمستجدات العصر، ومطالب الزمان والمكان، وانفتاح قلبه، وحسرته على أوضاع الأمة الراهنة، والبحث الدؤوب عن سبيل المجد التليد الذي فقدته الأمة المسلمة، والنهوض من هذا الانحطاط الذي أصابها في القرون المتأخرة، إلا أنه كان مقتصرا على تأليف الكتب وحده، ولم يكن كبير اهتمام بنشرها وإطلاع الناس عليها.

من أبرز مؤلفاته «فتح الكريم في سياسة النبي الأمين»، كتابٌ خالدٌ يستحقّ أن يكون في طليعة الكتب الإسلامية، حتى قال بعض العلماء بأنه لم يُكتب مثله بعد «حجة الله البالغة» في شبه القارة الهندية،[1] طُبع هذا الكتاب من «رامبور» بالهند باللغة الأردية، ثم نقله إلى البنغالية- وهي لغة المؤلف الأم- العلامة أبو سعيد محمد عمر علي، ونشره من المؤسسة الإسلامية بنغلاديش باسم «التراث السياسي والاقتصادي في الإسلام»، حكى فيها المؤلف قصّة الخلافة، وعلاقتها بالسياسة الإسلامية، ورسم معالم "الدولة الإسلامية" القائمة على دستور السماء، ردّ فيه المؤلف جميع ما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم من الاضطرابات السياسة، والحروب الداخلية، والبلاء العام، والفساد العظيم، في أنظمة الحياة وفي أجهزة الحكم، وفي أفكار الشعب، والشر المستطير، والتوتّرات والتفرقات، والعلاقة بين الرعاة والرعية، وبين الحكومة والمواطنين، كالعلاقة بين النار والماء، وبين الأسود والأرانب، ردّ جميع المشاكل السياسية والقيادية إلى غياب الخلافة، وانهيار صرحها، واندراس معالمها من العالم الإسلامي منذ فترة طويلة.

كما ردَّ فيه على السياسة الراهنة وأساليب الانتخاب المعاصرة، وأفكارها ونظرياتها وفلسفاتها، البعيدة كل البعد عن الخلافة الإسلامية، وكتبَ أن السياسة القائمة على الديمقراطية تتصادم مع الخلافة

(١) المرجع السابق ص ٣٨

الإسلامية في صميمها، فالخلافة أساسها الحكومة الربّانية، والحكم لله، وتحكيم الشريعة، ومصدرها الوحي، وركائزها الشورى والتقوى والخوف من الله، والحسبة، أما سياستنا اليوم فلا مكان للربانية فيها، والناس هم الذين يشرّعون ويقنّنون، ويحرّمون ويحلّلون، والتقوى والخوف من الله أمرٌ قد طارتْ به العنقاءُ في عالم الديمقراطية.

هذا الكتاب خير شاهد على دقّة علمه، وسعة اطّلاعه، وتفقهه للواقع وظروف الأمة، وبعد نظره، وعمق تفكيره، كما يفسّر نظرته إلى السياسة الراهنة وموقفه منها، وكان يرى: السياسة عبارةٌ عن عهدة بين الحاكم والمحكوم، وصلة بين الراعي والرعية، صلةٌ تقوم على العدل والإنصاف، ووضع موازين القسط للجميع، وبناء مجتمع مثاليّ قائم على الحكم العادل، والمساواة والمواساة، والتعاون على البرّ والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، فالسياسة هي الإنصاف، والإنصاف هو السياسة، هما صنوان لا يفترقان، ولذلك كان يرى السياسة المجرّدة عن نور الوحي الذي هو مصدر العدل والإنصاف هي سياسة قاتلة للوقت، ومضيعة للجهد، ومسببة للشغب، لا طائل تحتَها، وليس لها معنى ذو بال، ويظنّ البعض أن هذا الكتاب كان تجلية لموقفه من إنشاء باكستان، وصفعةً قوية على أنصارها.

الكتاب الثاني الذي يستحقّ أن يذكر هنا للقارئ هو كتابه «الفرقان بين الحق والباطل في التصوف والإحسان»، نُشر هذا الكتاب من الهند باللغة الأردية،[1] وجاءَ بحقّ وجدارة خطّا فاصلا بين الحقّ والباطل، والنور والظلمات، والحقيقة والخرافة، والشريعة والشيطانية، فقدّ ردّ الشيخ في هذا الكتاب على الصوفيّة الضالة الذين في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، وأهل زوايا الفساد وأئمة الضلال الذين اتخذوا الدين لهوا ولعبا، واتّخذوا سبل السلوك والربانية قنطرة إلى المادّة وملء البطون، والتهافت على فتات أهل الغنى والثروة، ثم بيّن أهمية التزكية، والجهاد ضد الهوى والنفس الأمارة، والطريق الصحيح إلى المعرفة والعرفان.

كذلك كتابه «نور الحق» سفرٌ خالدٌ يدلّ على نباهة مؤلفه، ووعيه بمخاطر العصر الحاضر وميوله ومطالبه، ودراسته لعقلية الإنسان العصريّ واتجاهاته دراسةً عميقة، وقراءة موقف الجيل الجديد من الغيبيات والديانات، والعقائد والإيمان، والمذاهب والفلسفات، كما يدلّ على علمه بمقارنة الأديان، واطّلاعه على العلاقات بينها، ومواطن التشابه والتضادّ في أصولها وقواعدها، فقد عرضَ فيه المؤلف

(١) وقد ترجمه إلى البنغالية السيد محمود الحسن ونشره، فليراجع القارئ إليه للحاجة

ملامح عامة عن سيرة النبي ﷺ، ثم بيّن علاقة الإسلام بالعلم، وكيف يتجلى صدقه وأصالته في ضوء العلم الحديث، ثم بيّن رجاحة كفة الإسلام في ميزان الأديان، وجدارته في عالم الديانات الوضعية والشرائع السماوية، كما حكى فيه تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية، لكي يقارن القارئ المسلم بين ماضيه وحاضره، وبين ما ضاعَ منه وما بقي، فيعمل على استرداد ذلك الماضي المجيد، والعهد السعيد، وذلك العزّ الشامخ الذي ضاعَ بين الغفلة والجهالة، والوهن والاضمحلال، والتفكك والخذلان.

لا غرو إذا ظهرَت هذه الكتب وما كانت على شاكلتها–وهي كثيرة–من عالم جليل مثل الشيخ مشاهد البيومبوري الذي كان سمة عزّ وفخار لشعبه ولدولته، الشابّ الذي عندما تخرّج من جامعة دار العلوم ديوبند وخرجَ ليعود إلى مسقط رأسه «سلهت»، قال شيخه ومرشده مولانا حسين أحمد المدني: "ها أخذ العلم الآن طريقَه إلى «سلهت»."

فارس السياسة الإسلامية ونابغة القيادة

شاهدنا موقف هذا الرجل من السياسة والحكومة من خلاله كتابه «فتح الكريم»، الكتاب الذي وضعَ فيه عصارة فكره وخلاصة موقفه من السياسة، فكان رجل العلم والإصلاح، والخلافة الإلهية، بعيدا عن السياسة الراهنة الموسومة بالديمقراطية، لكن إنسانا واعيا مثله لم يكن يصحّ له أن يكون بعيدا عن هذا المضمار كل البعد، وغافلا عنه غفلة تامّة، ويدع شعبه يتخبّط في هذا الطريق العويص خبط عشواء، وقد تأثر بأفكار شيخه المجاهد العظيم مولانا حسين أحمد المدني، فشاركَ في حركته «جمعية علماء الهند»، وشارك في نشاطها وأعمالها منذ نشأتها، وخالفَ فكرة تقسيم الهند وإنشاء باكستان، لأنه كان يرى أنه لا ينبغي تقسيم المسلمين على أساس الدولة، فيكون هذا المسلم هنديا، وأخوه المسلم باكستانيا، فيتشتّت شملُهم، وتتوزّع قوّتهم، وتذهب ريحُهم،[١] بالإضافة إلى أنه أدرك خطورة هذه الفكرة، وعرفَ أن قيادتها لم تكن صحيحة سليمة، فـ«الرابطة المسلمة» لم تكن تستحقّ أن تقود هذا الموكب الإسلامي العظيم باسم إقامة دولة إسلامية، ولم يكن قادتها أهلا لقيادة المسلمين، وأن يكونوا خلفاء الله في الأرض، فهم لم يكونوا إسلاميين في صميمهم، ولم يكن كثير منهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وما كانوا يركعون مع الراكعين، فكيف تقوم دولةٌ إسلامية على كواهل رجالٍ لم يكونوا مؤمنين بإسلامية الدولة، وبدستورية الشريعة، إلا أنهم كانوا تجّارا، يريدون الربح مهما كلّف ذلك من الثمن!

(١) مجلة الكوثر الشهرية، الصادرة من مركز الدعوة الإسلامية بداكا، فبراير ٢٠١٦ م، مقال للأستاذ عبد الله بن سعيد الجلال آبادي الأزهري

اختيار الطرق والوسائل، صحيحة كانت أو سقيمة، عادلة كانت أو ظالمة، بالرضاء والقناعة، أو بالقوّة والإكراه، وضرب السياط على الظهور!

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝﴾ [البقرة: ٤١-٤٤]

لذلك رغمَ أنه كان يرى– كما ينبغي أن يراه كل مسلم– أن الخلافة على منهاج النبوة أروع مثال وأكمل قالب ليتحقق استخلاف الله للإنسان في الأرض، ويكمل دوره كخليفة لربّه ﷻ في الخلق، إلا أن الخلافة ما دامتْ قد اندرستْ معالمها من الوجود، وغابتْ عن الميدان، وقُضي عليها بالزوال، فلا بدّ من الأخذ بطريق– وليس كبديل عن الخلافة– يشدّ أزر المسلمين، ويكون عونا للأمة على الدفاع عن كيانهم، ودولتهم، وحضارتهم وثقافتهم، والاحتفاظ بحريتهم واستقلالهم، وينقذهم من عدوان المعتدين وظلم الظالمين، فلذلك خاض غمار السياسة، واكتفى بقدر الضرورة، مضطرا غير متجانف لإثم، حتى باركَ الله في جهده المتواضع، بحكم الإخلاص، وعظمة الهدف الذي يسعى من أجله، وفازَ في الانتخاب الوطني عام ١٩٦٣، في عهد الدكتاتور المتغطرس أيوب خان، واختير عضوا في المجلس الوطني الباكستاني، ودخلَ في البرلمان، وقامَ بالإصلاح في داخل البرلمان،[١] وهكذا فإن الله صنع للكون والإنسان سننا، وقدّر لكل شيء سببا، فإذا كان الإنسان عظيما في هدفه، وجادّا في جهاده، حقّق الله له هدفَه، وكلل جهادَه بالنصرة والنجاح.

آية الآيات في الزهد والعبادة

كان عالما عاملا، ومصلحا صادقا مع ربه، وصالحا في نفسه، عفيفا متعففا، قانعا باليسير، وزاهدا في الكثير، وطارحا للتكلّف، ومتقشفا في حياته الشخصية، ومقتصدا في معيشته، يلبس الخشنَ وينام على الخشن، ويرضى بما يجده، وكان كريم النفس، طيب الأخلاق، وإنسانا رحيما، متواضعا، ومن ثم محبّبا إلى الله، ومحبّبا إلى خلق الله، وخاشعا في الصلاة، وكان واعظا ناصحا، خصوصا في رمضان كان

(١) مجلة الكوثر الشهرية، الصادرة من مركز الدعوة الإسلامية بداكا، فبراير ٢٠١٦ م، مقال للأستاذ عبد الله بن سعيد الجلال آبادي الأزهري

يشدّ أزره ويجدّ جهده، فيحيي لياليه كلّها بالصلاة والذكر والعبادة، والوعظ والنصائح. وكان يجمع ويفسّر القرآن، ويشرح الحديث، بدءا من صلاة التراويح إلى السحور، ويتدفّق الناس على هذه المجالس من كل حدب وصوب، فيتحول الجامع إلى جامعة مفتوحة خلال هذا الشهر المبارك، وكانت هذه المجالس تذكّر بالله، وتبعث في القلوب الحنان والإيمان، تلين فيها القلوب، وتهتزّ لها النفوس.[1]

قضى حياته كلّها في بيت مصنوع من خشب والصفائح، لو أراد له مجرد الإرادة، لكان قادرا على شراء أرض وعقار، وبناء قصر مكيّ منيف، فقد فتحت له الدنيا أبوابها، إلا أنه ركل بها، واختار ما عند الله على ما عند الناس، ولم يرد إلا وجه الله والدار الآخرة، فأعزه الله في الدنيا، ووضع حبّه في القلوب، ورفع مكانته في الناس، حتى اجتمع على حبه جموع الناس وأشتاتهم، واحتار العلماء في كشف سرّ تمكّنه في قلوب الناس، وكان الناس يدعونه "الدرّة السوداء"، لكونه أسودَ البشرة ومنوّر السريرة.[2]

مسودات تركها... هل من ناشر ينشرها؟

وقد اختار الله هذا الإنسان في ليلة من ليالي عام ١٩٧٠ للميلاد، ليحدث فراغا لا يزال ينتظر من يسدّه، وليترك مسؤولية كبيرة وأمانة عظيمة، تنتظر من ينهض لأدائها، وهي عددٌ من المسودات التي تركها الشيخ ولم يقدر له أن يطبعها وينشرها، ومن أبرزها ◊ مشكلات القرآن والحديث (العربية) ◊ تحقيق رؤية الهلال (العربية) ◊ القراءة خلف الإمام (العربية) ◊ تفسير سورة الفاتحة (العربية) ◊ محمد ﷺ رسول العالمين (أربعة مجلدات باللغة البنغالية)، لو طُبعت هذه الكتب ونُشرت في هذه الدولة، وفي العالم العربي كذلك، مادام الشيخ اختار العربية لتكون لغةً لها، وكأنه أراد أن يخاطب بها العجم والعرب، لكان ذلك عملا عظيما، ووفاءً بحقّ عظيم تركه المؤلف على أصحابه وورثته وشعبه.[3]

---

(١) العلامة مشاهد البيومبوري: حياته ومنهجه الفكري، تأليف الأستاذ مولانا محب الرحمن، ص٥٨-٦٦

(٢) المرجع السابق ٥٩

(٣) انظر ترجمة كتاب الفرقان بين الحق والباطل في علم التصوف والإحسان، للسيد محمود الحسن، ص١٩

الدكتور محمد شهيد الله

(١٨٨٥ - ١٩٦٩)

عبقري اللغة البنغالية، رائد النهضة، الكاتب الحكيم

من الناس من يأتي إلى هذه الدنيا فلا يحس به التاريخ، ومنهم من يأتي لا ليسجل التاريخ، وإنما ليصنع التاريخ بنفسه، إن بطل قصتنا هذه كان من هؤلاء الناس، من أعظم المثقفين المعاصرين في تاريخ هذه الدولة، وأعلم الناس بعلم اللغات وآدابها، وتاريخها ومراحل تطورها، وأوّل مسلم بنغالي ينال شهادة الدكتوراه من فرنسا، وأتقن أكثر من عشرين لغةً إتقان أبنائها لها، تحدّث فيها، وكتبَ بها، وعاشَ في رحابها، ودفعَ حياته كلها في دراستها وتدريسها، وتحليل أسرارها والكشف عن معادنها، وأشرف على مراكز لغوية، وأندية أدبية، ودرّس في جامعات كبرى، وكتبَ بحوثا قيمة، وألف مؤلفات، هذه كلها مع التزامه بالدين الحنيف، والتشبث بالكتاب والسنة، والمحافظة على الصلوات، والوقوف عند حدود الشريعة، فدينه لم يمنعه قط من دنياه، ودنياه لم تحُل قط دون آخرته، إنه عبقري اللغة البنغالية، والموسوعة الحية، الشيخ الصوفي، الأستاذ الدكتور محمد شهيد الله المجددي رحمه الله.

ميلاده ونشأته ودراسته

وُلد محمد شهيد الله في غرب البنغال عام ١٨٨٥م، في أسرة مسلمة شريفة يرجع أصلها إلى السلالة العربية النقية، فكان لها تأثير حاسم نفاذ في مستقبله، بل في كل مرحلة من مراحل حياته، فالعرق دساس، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، أخذ الدراسة الابتدائية في قريته، والمتوسّطة في محافظة «هاورا» (Haora)، ثم تخرّج في الثانوية من «كلية الرئاسة» بكلكتا عام ١٩٠٦م، وأكمل البكالوريوس في قسم السنسكريتية من «كلية المدينة» (City College) بكلكتا عام ١٩١٠م، وحصلَ على شهادة الماجستير في علم اللغة المقارن عام ١٩١٢م من جامعة كلكتا، وقد سافرَ إلى فرنسا عام

١٩٢٦م، ونالَ شهادة الدكتوراه كأول مسلم بنغالي من جامعة سوربون عام ١٩٢٨م.[1]

ومضاتٌ من حياته العملية

بدأَ الدكتور شهيد الله التدريس منذ أيام طلبه، وقبل تخرّجه في الدكتوراه، فدرّس في «جسر»، ثم عمل كباحث في جامعة كلكتا، ومارس المحاماة لفترة، وفي عام ١٩٢١م دخلَ في رحاب جامعة داكا محاضرا في قسم السنسكريتية والبنغالية، واستقرّ في شرق البنغال واستوطنها، وأصبح ابنا أمينا لها، ولم يرجع إلى مسقط رأسه غرب البنغال، وفي عام ١٩٣٧م أصبح رئيس قسم البنغالية فيها، كما عمل في أقسام مختلفة إلى عام ١٩٥٥م، حيث انتقل إلى جامعة راجشاهي رئيسا لقسم البنغالية، وتقاعدَ عنها عام ١٩٥٨م، ثم دخلَ في «مجمع اللغة البنغالية» وعملَ فيه لفترات طويلة، وقد كان له دورٌ بارزٌ في تاريخ حركة اللغة البنغالية، وأنكر عل فضل الرحمن وزير التعليم لباكستان وقتذاك إنكارا شديدا، عندما حاولَ وضع قانون لكتابة اللغة البنغالية بالأحرف العربية، إلا أنه أيد- ولو لفترة ولمنطلقات- فكرة اختيار العربية كلغة رسمية لدولة باكستان![2] هكذا ظل طوال حياته يشتغل بالدراسة والتدريس، والأستاذية في المدارس والكليات والجامعات، وإدارة المجامع والمراكز، إلى أن توفاه الله عام ١٩٦٩م.

أسباب نجاحه ومفتاح سعادته

كيف وصلَ طالب متواضع من البنغال إلى فرنسا، وحصلَ أعلى شهادة جامعية من أكبر وأعرق جامعاتها؟ وكيفَ تملّك بنغاليٌّ ناصية أكثر من عشرين لغة؟ وتبحّر في لغته الأم البنغالية وعلومها وتاريخها، حتى أصبح أعلم الناس بها، وعبقريا من عباقرتها، يُشار إليه بالبنان؟

إنها قصة الصبر والمثابرة، والجهود والجهاد، والثبات عند المحنة، وتحمل الشدائد في سبيل تحقيق الأحلام، والسعي الدؤوب وراء الهدف، مهما كلّف ذلك من الثمن الباهظ، وجشم من المعاناة، إنها قصة الثقة بالنفس، وعدم الاستسلام لقسوة الظروف، وعدم الانخذال أمام العقبات، إنها قصة نجاح الدكتور محمد شهيد الله ومفتاح سعادته بكل إيجاز واختصار، فقد نشأ منذ صغره صابرا مثابرا، واثقا بالنفس، ومتفائلا بالمستقبل، حتى لما تخرّج في مرحلة البكالوريوس، ونجحَ في اختبار القبول لمرحلة الماجستير في قسم السنسكريتية في جامعة كلكتا، لكن مُنع من القبول بسبب التناقض بين دينه وبين

(١) العبقري محمد شهيد الله، تأليف أنو محمد، ص٥٥-٥٧

(٢) انظر مقال السيد علي أحسن، في ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية، ص٧١ وكذلك مقال عبد الحق ١٠٨

تخصصه، فهو مسلم وتخصص السنسكريتية معظمه يدور حول الكتب المقدسة في الهندوسية، مع ذلك لم يكن شهيد الله ليستسلم أمام هذه العنصرية، والتعصّب الديني، والنظام الغاشم، ورفعَ قضية في المحكمة، حتى اضطرت الجامعة إلى فتح قسم جديد يتخصص في "علم اللغة المقارن"، ودرسَ فيه شهيد الله ونالَ شهادة الماجستير![1]

كانت لديه وهو صغير رغبة عارمة في تعلم اللغات، بل كان ذلك هوايته ومعشوقه، يعشق اللغات كما يعشق الصغار الألعاب! فدرسَ مبادئ الأردية والفارسية والعربية والبنغالية في بيته، حتى تعلم سبع لغاتٍ قبل تجاوز المتوسطة![2] ثم لما ذهبَ إلى فرنسا الفاتنة بجمالها وتقدمها، وروعتها وحضارتها، وثروتها وتراثها، لم يفتتن بها شهيد الله، ولم يدعْ نفسه تنجرف وراء التيار، وتتماشى مع المد حيث مشى، بل قصرَ طرفَه على صفحات الكتب، وحصرَ نفسه في حدود المكتبات، حتى أتقن في فرنسا لغة الفيدا، والسنسكريتية، والتبتية، والفارسية القديمة، ثم ذهبَ إلى ألمانيا، ودخلَ في جامعة فرايبورغ، وتعلم عدة لغات هندية قديمة، هكذا تنقل شهيد الله في عواصم أوربا وحواضرها، واستفادَ بعلومها وجامعاتها، لا تفتنه الجمال، ولا أغواه المال، وعادَ إلى الوطن ثقيلا بالعلم، مرفوع الهامة، نادرة من نوادر العصر.

ثم لما دخلَ في حياته العملية، بقي طوالَ حياته يعمل ويجتهد، ويسعى ويجاهد، لا يمل ولا يكل، ولا يفتر ولا يتكاسل، حتى لما ثقل به العمر، وأصابه الهرم، وبلغ به الكِبَرُ كل مبلغ، وضعف جسمه، لم يضعف قلبه وروحه، ولم يفتر نشاطه، ولم يجزع ولم يتراجع! بل استمرّ في سيره، وجرأته ونشاطه، وحرارة قلبه، وهمة نفسه، ومضاء عزمه، وقوة بأسه، شابا متدفقا في ريع شبابه، ولذلك كان الناس حوله يتعجبون منه، ويلقبونه بـ"الشيخ الشابّ"!

وقد كان منذ أيامه الأولى معنيا عناية فائقة بجسده، ومحافظا على نظام صحي دقيق في معيشته ومأكله ومشربه، وحريصا على اتباع نصائح الأطباء قدر جهده، وعارفا بأهمية الصحة للقيام بالأعمال والواجبات، حتى جنى ثمارها الطيبة طوال الحياة، وعاشَ موفور الصحة، وقوي البنية، ومفتول الجسد، ومتين الأعصاب، ولم يعانِ من السقم وتدهور الصحة إلا قليلا ونادرا، فاستثمره في الخير، وظل مكبا على أعماله، ومعتكفا على تحقيق أحلامه، ومحبا للاستزادة من العلم والمعرفة، وإجادة اللغات، والإحاطة بمختلف العلوم والفنون، حتى بلغَ ما لم يبلغه إلا قليل من الناس، كانت في بيته مكتبة غنية

(١) العبقري محمد شهيد الله، تأليف أنو محمد، ص١٥ و١٦ و١٩٠

(٢) انظر مقال الدكتور حيات محمود، في ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية، ص٣٥ و٣٦

عامرة، تضم مآت الكتب في عشرات الفنون، مستوردة من العواصم الكبرى، بدءا من برلين وباريس حتى القاهرة، وكان يقول: "من لا يملك مكتبة شخصية، لا يحق له أن يكون كاتبا وباحثا"![1]

مآثره في ميدان البحث والكتابة

منذ صغره بدأ محمد شهيد الله يهتمّ باللغات والآداب، وحمل القلم، والكتابة، حتى شاركَ في أكبر موكب علمي وأدبي في البنغال آنذاك بل قاده، وأسس «النادي الأدبي لمسلمي البنغال» مع الأدباء المسلمين الكبار عام ١٩١١م، واختير أول أمين عام له، ثم بفضل دراسته في الجامعات الأوربية العريقة، وتدريسه في الجامعات البنغالية الكبرى، وإشرافه على المجامع اللغوية والأندية الأدبية، كان همه الأكبر وشغله الشاغل هو القراءة والكتابة، والبحث والدراسة، والكشف عن أسرار اللغة، وإبراز عجائبها وغرائبها، وحل ألغاز لغوية معقدة، وفك طلاسمها، وترجمة المؤلفات القيمة من لغات شتى، فتركَ بحوثا ودراسات، وكتبا ومؤلفات نادرة، ذات قيمة كبيرة في تاريخ اللغة البنغالية وآدابها، لا تزال تثير عجب الباحث وإعجابه، وتعطي تصورا تاما لمدى عبقرية هذا الإنسان ونبوغه، وتبحّره في العلوم والفنون.

من أبرز ما تركه من البحوث والكتب: ٥ اللغة والأدب (١٩٣١م) ٥ قواعد اللغة البنغالية (١٩٣٧م) ٥ ترجمة ديوان حافظ (١٩٣٨م) ٥ ترجمة الشكوى وجواب الشكوى لإقبال (١٩٤٢م) ٥ ترجمة رباعيات الخيام (١٩٤٢م) ٥ حديث حول الأدب البنغالي (مجلدان– ١٩٥٣م و١٩٦٢م) ٥ تاريخ الأدب البنغالي (١٩٥٧م) ٥ تاريخ اللغة البنغالية (١٩٥٩م) ٥ ترجمة القرآن الكريم (١٩٦٣م) ٥ تحرير «قاموس اللغة البنغالية العامية» وغيرها.

كما تولى تحرير عدد كبير من الصحف والمجلات في مراحل مختلفة، من بينها مجلة «الإسلام» (١٩٢٥م)، ومجلة النادي الأدبي لمسلمي البنغال (١٩١٨–١٩٢١م)، ومجلة «السلام» الشهرية الإنجليزية (١٩٢٣م)، ومجلة «أرض البنغال» (١٩٣٧م) الشهرية، ومجلة «التكبير» نصف الشهرية (١٩٤٧م)، وكان له اهتمام كبير بأدب الأطفال، فكتبَ لهم كتبا، من بينها «رسول الله للناشئين» (١٩٦٢م)، ومجلة «العنب» (١٩٢٠م) لعرض تعاليم القرآن ودروس السنة، وقصص الأنبياء عليهم السلام على الأطفال المسلمين بأسلوبهم ولغاتهم، وإنقاذ الجيل الناشئ المسلم من خرافات الكتب الهندوسية وخزعبلات آلهتهم السائدة

(١) الدكتور محمد شهيد الله في صميمه، تأليف الدكتور غلام ثقلين، ص٢٥ و٣٠

في البنغال آنذاك، فكانت «العنب» أول مجلة شهرية للأطفال في أرض البنغال.[1]

تحديد مكانته في تاريخنا

كان يكرر دائما أن "الوطن الذي لا يقدر الكبير لا ينجب الكبير"، وهذا الذي– للأسف– وقعَ في حياته، وصدقَ له بعد وفاته، ومن ثم رغم مكانته في اللغات والآداب، ولا سيما في اللغة البنغالية وأدبها، وعلومها وتاريخها، وتوليه مناصب حساسة وكراسي جامعية، وإدارته لمراكز علمية ولغوية، ومآثره الخالدة في التأليف والترجمة، وعبقريته في التاريخ والفلسفة، وريادته للبحوث والدراسات، وقدم سبق في حركة اللغة البنغالية، والنهوض بالمجتمع المثقف المسلم، رغم ذلك كله لم يقدره شعبه حق قدره، ولم يكافئه وطنه، نعم لقد منحه وطنه عدة جوائز في حياته وبعد وفاته، إلا أنه لا يعد شيئا إذا قورن بمكانته ومآثره، ولا جديد عليه، فإن كثيرا من الدول بما فيها الهند وباكستان وفرنسا منحته جوائز قيمة، وخلعتْ عليه ألقابا تشريفية، فإنه كان يستحق أن يكون خير نموذج للمثقف البنغالي المسلم، وأيقونة الجيل الحاضر والقادم، وأسوة للباحثين، والكتاب والمؤلفين، والأساتذة والمربين في هذا الوطن، إلا أنه لم يكن، بل بالعكس ظهرتْ هناك محاولات لتهميش هذا الإنسان الكبير من التاريخ، وطمس معالمه، وإخفاء مآثره، ومحو آيات عبقريته ونبوغه، وإبعاده من الضوء، وقطع صلة الشعب عنه، بحيث لو تسأل اليوم الجيل الناشئ عن هذا الإنسان العملاق، لتجدن عددا كبيرا منهم لا يعرفونه، بل لم يسمعوا عنه قط!

كما ظلَ الدكتور مطمورا مغمورا في الأوساط الدينية هي الأخرى، وفي المدارس والجامعات العربية، ومحيط العلماء والدعاة، ونتأ برزخٌ بينه وبين مشايخ هذه الأمة، حتى أصبح لا يعرفه كبار العلماء، والشيوخ والدعاة، ولا يُذكر اسمه في الحلقات، ولا يسجل في قائمة «الأكابر والأسلاف»، بل لا يعرفه إلا عدد من الناس، وقليل ما هم!

لماذا هذا البخل على ابن من أعز أبناء هذا الوطن؟ ولماذا هذا التجاهل والتغافل عنه في الجامعات والهيئات وفي الأوساط المثقفة؟ ولماذا هذه "اللامبالاة" به في المدارس العربية، وفي محيط الدعاة والمشايخ؟ إنها مشكلة التدين، وطريقة التفكر، ووجهة النظر، وقضية المسلك والمنهج، والتعصّب والتحيز،

(١) العبقري محمد شهيد الله، تأليف أبو محمد ص٢٦–٣٤، وانظر كذلك مقال الدكتور حيات محمود في ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية، ص١٦

وضيق الأفق، فقد تجاهلَ الفريق الأول حياته وأعماله، وخافَ تدينه وعقيدته، وذلك أنه لم يكن لهؤلاء الناس– حملة لواء الشيوعية والغربية، والشكاكين، والمعترضين على الدين، والزنادقة والملحدين– أن يصبروا على مسلم متدين، ويعملوا تحت إنسان يلبس لباس التقوى في ظاهره وباطنه، ويلتزم بالطاقية وملابس العلماء في منزله ومكان عمله، ويحافظ على الصلوات، ويغض بصره، ويحفظ نفسه من الفواحش، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ثم يدير أقسام الجامعات العلمانية، ويُشرف على مراكز وهيئات لغوية وأدبية، فخشوا أن تكسد سوقهم، وتغلق أبواب شرهم وفسادهم، ومتعهم ومتاعهم، وتلاعبهم بعقول الشباب والشابات، وعبثهم بالدين وسخريتهم بشعائره، في رحاب الجامعات، باسم الحرية والتطور، فهبوا ودبوا، وجاهدوا من كل سبيل لوضع حاجز بينه وبين الجيل الناشئ، حتى لا يكون له أثر في أبناء هذا الوطن، فضلا أن يكون قدوة لهم، واتهموه بأنه قليل الفراسة، وضحل النظر، ومتخلف عقليا، ومضطرب فكريا، وعاجز عن الجمع بين معرفته وحياته، وعلمه وعمله، عندما لم يستطيعوا إنكار علمه ومعرفته وعبقريته! فالدين عندهم لا يعني إلا التخلف والغباوة، والتمسك به يعني الفشل في الحياة.[1]

بينما تجاهلَ الفريق الثاني إيمانه وعقيدته، وصلته بالله وبدينه، فعرفوا أن الدكتور محمد شهيد الله لم يدخل قط في مدرسة دينية، ولم يدرس على يد عالم أو داعٍ، بل درسَ منذ صغره في مدارس وجامعات مدنية، وتعلم علوما هندوسية، ولغات بوذية، وثقافات غربية، ثم عملَ طوال حياته في الجامعات العلمانية، وتولى رئاسة أقسام "البنغالية"– اللغة المهجورة في أوساطهم آنذاك–، والسنسكريتية الهندوسية، والبالية البوذية، فلا يستحق أن ينال شكرا أو تقديرا منهم، أو عناية في أوساطهم، ولم يعرفوا أن هذا الإنسان من صميمهم، وأهل بيتهم، وعضو من أعضاء أسرتهم، مثله في ذلك مثل الأستاذ الدكتور مهر علي، والأستاذ الدكتور السيد علي أشرف وغيرهما،[2] لو قدر العلماء قدرهم، وقدموهم

(١) انظر ما كتبه حيات محمود عنه، ثم ما صرّح به الكاتب الملحد أحمد شريف في ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية، ص٧٥ و٧٦ وما ذكره عبد الحق في ص١٠٩

(٢) إنه الأستاذ الدكتور أبو نصر علي أشرف، شقيق الأستاذ الوطني علي أحسن، من العظماء المثقفين في بلاد البنغال، أنجز بوحده ما لم ينجزه إلا قليل من الناس في تاريخنا، وُلد السيد في العاصمة داكا عام ١٩٢٥م في بيت مسلم نبيل، ونال شهادة الماجستير في الإنجليزية من جامعة داكا، ثم أكمل الدكتوراه في الإنجليزية من «كلية فيتز ويليام» التابعة لجامعة كمبردج، درّس الأستاذ طوال حياته اللغة الإنجليزية، وتنقل في جامعات الدول الشتى، فدرّس في جامعة داكا، ثم في جامعة راجشاهي، ثم ذهب إلى باكستان عام ١٩٥٤م، ودخل في قسم الإنجليزية بجامعة كراتشي رئيسا له، ثم حضرَ في المملكة العربية السعودية وأصبح رئيس قسم الإنجليزية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ثم عمل أستاذا زائرا في هارفارد وجامعة نيو برونزويك! كان كاتبا قديرا في اللغة

إلى الوطن والعالم، لكانوا ثروة للإسلام وقوة للمسلمين، وجندا من جنود الله، وأروع مثال لحيوية الإسلام، وسماحة هذا الدين، وقدرته على بناء النوابغ والعظماء، وقد كان الإسلام أهم عناصر هؤلاء الرجال.

مع الله ومع الناس

إذن كيف كانت صلته بالله؟ إنها صلة عميقة فريدةٌ، فقد درسَ الدكتور طوال حياته في المدارس والكليات المدنية، والجامعات الهندوسية والنصرانية واللادينية، ودرسَ تحت الأساتذة الوثنيين والملحدين، وعمل في المراكز العلمانية، ولم يسنح يوما من الأيام أن يدخلَ في مدرسة دينية، ولم يوفق أن يأخذ درسا من الكتاب والسنة في حلقات العلماء والفقهاء وكبار المشايخ، مع ذلك كله كان موفقا حقا، وكان معدنه معدنا طيبا، فقد وُلد في بيت شريف نبيل، بيت علم وتقوى، وتاريخ مجيد عريق في الدعوة والإصلاح، كان أسلاف ذلك البيت من كبار الدعاة والمصلحين، هجروا وطنهم وأسرهم للدعوة، وقضوا حياتهم في بقعة نائية عن العالم العربي، فكان شهيد الله حامل هذا الدم الزكي، ونشأ نشأة دينية كريمة، ثم استفاد من الشيخ أبي بكر الصديقي في التزكية والسلوك، واستفاد من العلامة منير الزمان الإسلام آبادي ومولانا محمد أكرم خان وغيرهما في الأفكار والاتجاهات، فكان لهم أعمق الأثر في تكوين حياته، وصنع عقليته،[1] وكان يقرأ ويكتب في مجلة «ترجمان الحديث» الشهرية، الأمر الذي يدل على صلته بعلماء أهل الحديث، إلا أن الحق كان أحب إليه من الرجال، فأنكر على محمد أكرم خان عندما وضعَ تفسيره الشهير للقرآن الكريم، وملأه بالآراء، وخالفَ الجمهور، وسارَ على منهج الاعتزال والعقلانية.[2]

لذلك رغم قضائه معظم حياته في البيئة المعادية للدين والتدين، سبحَ ضد التيار، وحافظَ على عقيدته وأعماله محافظة تامة لا يشوبها نقصٌ أو تهاون، حتى لما كان يعيش في العواصم الأوربية عدة سنوات في خضم الألوان، والفتن والإغراء، والاختبار والابتلاء، وموجات الفحشاء العاتية، كان أشد صلابة في دينه، وأكثر عناية بصلواته، وأغض لبصره، وأحفظ لفرجه، حتى خرجَ منه بعد أن حقق

الإنجليزية، فكتب ما يزيد على عشرين كتابا، يركّز في معظمها على ضرورة التوافق بين العلم والدين، والتربية والشريعة، وضرورة إيجاد منهج تعليمي يقوم على دين الله! وقد كان إنشاء «جامعة دار الإحسان» في الأصل تطبيقا عمليا لما كتبه، ودعا إليه، وسعى من أجله طوال حياته، وقد توفي هذا العَلَم عام ١٩٩٨م.

(١) الدليل الهادي محمد شهيد الله، تأليف نجله أ. ج. م. تقي الله، ص٣٢

(٢) مقال السيد علي أحسن، في ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية، ص٧٤

الهدف وأخذ العلم والشهادة كما يخرج الشعر من العجين!

ثم لما عمل في جامعات هذه الدولة، ومراكزها العلمية والأدبية، ظل طوال حياته متمسكا بدينه، ووقافا عند حدوده، يلبس لبوس العلماء، ويحافظ على الصلوات في أوقاتها وفي المسجد مع الجماعة، وعلى متن الطائرة، حتى لما بلغ من الكبر عتيا، وفترت منه القوى، وثقل الجسم، مع ذلك لم يكن يصلي في البيت، بل يمشي إلى المسجد ليصلي مع الجماعة، وكان قد اختار بيته قريبا من المسجد لئلا تفوته الجماعة!

ملكَ عليه حب النبي ﷺ كل جوانحه، وأخذ بمجامع لبه، وران على قلبه وقالبه، فأطال شعره وأعفى لحيته اقتداء بحبيبه، ثم كان يتتبع سنن النبي في أعماله كلها، ويحتفل بالمولد، ويحضر في مثل هذه المناسبات بكل رغبة وحماس، وكان دائما على الوضوء، ويصوم تطوعا، ويعيش عيشة الدراويش،[١] ويأمر أولاده بالصلاة وهم أبناء سبع أو ثماني سنين، وقد مالَ في شبابه إلى شيء الاشتراكية، إلا أنه سرعان ما اكتشفَ خواءها ولاذَ بالكتاب والسنة،[٢] كما كانت له نظرة في الفوائد المصرفية ولا يراها ربا! إلا أنه في الحياة التطبيقية كان أبعد الناس منها.[٣]

كذلك مع كونه في البيئات الجامعية العلمانية التي قليلا ما فيها يبالي الناس بالدين والتدين، والحلال والحرام، كان متصلّبا في دينه، ثابتا على إيمانه، مع الانفتاح المسموح والحكمة في الدعوة، ودون التحفّظ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكره الأغاني والتصوير، والأصنام باسم التماثيل، وينكر على الاحتفالات المخالفة للشريعة والمروءة أشد الإنكار، ويحذر من الفحشاء، والتبرج والسفور، والاختلاط والخلوة![٤]

وقد لعب دورا كبيرا في نشر الدعوة الإسلامية ومحاربة التنصير والهندوسية تحت راية «جمعية الدعوة الإسلامية» مع الشيخ منير الزمان الإسلام آبادي، في عشرينيات القرن الماضي، ثم أسس جمعية مستقلة باسم «أنجمن إشاعت إسلام» عام ١٩٢٣م، لمقاومة حركة «شُدهي» الهندوسية التي أسسها الهندوسي

---

(١) العبقري محمد شهيد الله، تأليف أنو محمد، ص٤٢ و٤٣ و١٨٨

(٢) انظر مقدمة كتاب الدليل الهادي محمد شهيد الله، تأليف نجله أ.ج.م. تقي الله، ص١٤ و١٥، إلا أننا لو دققنا النظر في كلامه، وفيما أرادَ بقوله "الاشتراكية الإسلامية"، لوجدنا أنه لم يرد الاشتراكية في صميمها، وإنما أراد بذلك النظام الاقتصادي في الإسلام القائم على العدل والإنصاف، انظر ٣٨-٣٩

(٣) الدكتور محمد شهيد الله في صميمه، تأليف الدكتور غلام ثقلين، ص١٢٦

(٤) العبقري محمد شهيد الله، تأليف أنو محمد، ص٢٢٧ وما بعد ذلك وكذلك ٣٠٦ و٣٤٣

المتعصب شرداننداً في ذلك الوقت لتهنيد المسلمين، فأدت الجمعية دورا كبيرا في الدفاع عن إيمان الأمة المسلمة وعقيدتها، والرد على الحركة الهندوسية، وقد أسلم على يديه آنذاك عدد من الهندوس![١] وكان مبايعا للشيخ الكبير أبي بكر الصديقي مؤسس زاوية «فرفرا» في السلوك والتزكية، فعرَف الشيخ مكانته، وإخلاصه لله ولدينه، وتمسكه بالشريعة، حتى خلعَ عليه «الإجازة» وكفى بها دليلا على إخلاصه لله والدعوة إلى دين الله، وعلى ولايته وكماله.[٢]

---

(١) ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية، ص ٥٥، وكذلك العبقري محمد شهيد الله، تأليف أنو محمد، ص٤٢ و٤٣

(٢) الدكتور محمد شهيد الله في صميمه: تأليف الدكتور غلام ثقلين، ص٢٩ و٣٦ و٣٧ و١٢٠ و١٢١

مولانا عبد الودود السنديبي

(١٨٨٥-١٩٧٠)

المربّي الرباني، صانع الأعلام والعباقرة، أول شيخ الحديث بجامعة جيري

بنى هذا الرجل أمّة كاملة من الرجال، وأعدّ جيلا فريدا من الدعاة والمصلحين، والقادة العباقرة للدين، وخرّج جماعةً كبيرةً من العلماء الأعلام، وأصحاب الدرس والتخريج، وزعماء الفكر، وروّاد الحركات والنهضات، والمؤسسين للجامعات والكليات، والمبشّرين بالدين القديم للعصر الجديد، والشارحين للشريعة الإسلامية بلغة يفهمها أهل العصر، والذين لهم صولةٌ وجولة في الدعوة والإصلاح، والسياسة والقيادة، والذين أصبحوا بعده أعلام الدنيا، وعباقرة الإنسانية، فهو صانع باب مجيد من أبواب تاريخ الإسلام في هذه الدولة، ومنشئ جيل قرآني، وأمّة نبويّة كاملة، إنه أول شيخ الحديث في جامعة جيري، الشيخ الرباني، العارف بالله، مولانا عبد الودود السنديبي رَحِمَهُ اللهُ.

أضواء على ميلاده ونشأته وحياته العملية

ولد عبد الودود في محافظة شيتاغونغ عام ١٨٨٨ للميلاد، في أسرة مسلمة شريفة، أخذ الدراسة الابتدائية في قريته، ثم دخلَ في رحاب دار العلوم هاتهزاري عام ١٩٠١م، وهي في أيامها الأولى، ويتولّى التدريس فيها جماعةٌ من العلماء الأعلام الذين صنعوا تاريخا جديدا في العلم والمعرفة لهذه الدولة، وعلى رأسهم الشيخ ضمير الدين أحمد، والشيخ حبيب الله القرشي، والعلامة سعيد أحمد السنديبي وغيرهم، ثم سافرَ إلى الهند للدراسات العليا، ودخلَ في دار العلوم ديوبند، ظلّ فيها خمس سنوات يدرس التفسير والحديث، والفقه والفلسفة، وعلم القراءة، على أيدي الأساتذة الأعلام، بمن فيهم شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، ومولانا أنور شاه الكشميري، والشيخ المفتي عزيز الرحمن العثماني وغيرهم،[1] وبجانب

(١) شيخ الحديث العلامة عبد الودود السنديبي: حياته وعطاؤه، تحرير المفتي كفايت الله، ص٢٩

العلوم الظاهرة، جاهدَ في سبيل العلوم الباطنة، فذهبَ إلى الشيخ أشرف علي التهانوي، وظلّ في زاويته لمدّة ستة أشهر، استفادَ أثناءَها من الشيخ التهانوي في السلوك والتزكية، ثم عادَ إلى وطنه.[١]

في عام ١٩٠٩م تولّى التدريس في جامعة جيري، بعد تأسيسها بفترة قليلة، وفي غضون سنوات طارت شهرته، وعلا نجمه، واشتهر في الأوساط العلمية كمحدّث فريد في أسلوبه، ونادر في علمه وسعة اطلاعه، حتى تدفّق الطلاب الموهوبون على جامعة جيري من كل حدب وصوب، وتقاطروا عليها من شتى الأقطار، والتقى فيها جماعة كبيرة من الأذكياء والعباقرة، ليستفيدوا من غزارة علمه، واتساع معارفه، وكان المستقبل في انتظارهم، فشمّر الشيخ عبد الودود عن ساعده، ونذرَ حياتَه للعلم والمعرفة، والتعليم والتربية، وجاهدَ واجتهدَ، ودرّس في جامعة جيري إلى آخر عهده بالدنيا، كما درّس البخاري والترمذي أكثر من خمسين عاما، وبدّل مسير التاريخ.[٢]

أوقف حياته على بناء الرجال

رغم علمه وسعة اطلاعه، لم يتفرّغ للتأليف والكتابة، ولم يترك مسوّدات أو مؤلفات منشورة، كما لم يتفرّغ للخطب والمحاضرات، رغم رصيد ثريّ من القرآن والحديث، والسنّة والتاريخ، ولعل كل ذلك يرجع إلى سبب واحد يحلّ هذا اللغز، وهو أن الرجل أوقفَ حياته على التعليم والتدريس، وتربية الطلّاب، وإعداد الدعاة، وبذل جهوده وجهاده وحياته كلّها في سبيل العلم والمعرفة، ومن ثم لم يتح له أن يؤلف كتابا، لكنه أصبح أستاذ الكتاب والمؤلفين، ولم يتح له أن يتحدّث في المحافل والمجامع كثيرا، مع ذلك أصبح معلم الخطباء، ومدرّب المحاضرين، كما لم ينشئ مدارس ومؤسسات كثيرة، لكنه أصبح شيخ المؤسسين، ومرشد الرؤساء والقياديين، وهذا هو أبرز جوانب حياة هذا الإنسان، وهذا الذي خلّد ذكره في التاريخ، وجعل له مكانةً سامية في أوساط العلماء الأعلام، ولا تزال ألسنة العلماء الكبار تلهج بالثناء عليه، والشكر على جهده، وعطائه وتضحياته في سبيل إعدادهم، فلو يصحّ أن التلامذة والأصحاب هم الذين يخلدون الناس أو يضيعون، كما خلّد أصحاب أبي حنيفة النعمان مرشدَهم، وكما ضيّع أصحاب ليث بن سعد شيخَهم، فقد جاءَ أصحاب الشيخ عبد الودود وخلّدوه في التاريخ.

وقد تتلمذ لهذه الخصية، ونشأ تحت ظلال هذه الدوحة الباسقة، ونهلَ من هذا المنهل العذب

(١) انظر مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص٢٦٨

(٢) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص١٩

الصافي النمير، كثيرٌ من علماء هذه الدولة، وكان له فضل السبق على كثير من الذين عاصروه أو جاؤوا بعده، وفضل الأستاذية على الشيخ المفتي عزيز الحق، مؤسس جامعة فتية ورئيسها، فحسبه ذلك فضلا، وكان من خيرة تلامذته وأحب أصحابه، والشيخ نور الحق المفتي في مدرسة جيري ورئيسها السابق،[١] والشيخ العلامة علي أحمد البوالوي رئيس جامعة فتية الأسبق،[٢] والشيخ العلامة إسحاق الغازي شيخ الحديث بجامعة فتية، ونجله الشيخ العلامة إحسان الحق شيخ الحديث بالجامعة دار المعارف الإسلامية، والشيخ رضاء الكريم الإسلام آبادي شيخ الحديث بالجامعة الحسينية «عرض آباد» بداكا، والشيخ نور الإسلام المعروف بـ«أديب صاحب» شيخ الحديث بـ«علماء بازار» «فيني»، والشيخ العلامة المفتي عبد السلام الشاتغامي مفتي جامعة هاتهزاري، والشيخ العلامة المفتي أحمد الله شيخ الحديث بجامعة فتية، والمؤلف الكبير الشيخ المفتي إبراهيم[٣] وغيرهم كثيرون.

(١) إنه الشيخ مولانا المفتي نور الحق، رئيس جامعة جيري، ولد عام ١٩١٨م في شيتاغونغ، وأخذ الدراسة الابتدائية في بيته، ثم دخلَ في جامعة جيري وتخرج في مرحلة التكميل، وفي عام ١٣٥٥هـ دخلَ في دار العلوم ديوبند، ودرسَ التفسير والحديث، والمنطق والأدب، وكان شاعرا مطبوعا، طيع القريحة باللغات الثلاث، العربية والأردية والفارسية، وكان ينظم القصائد عفو الخاطر، وقد كتبَ أشعارا كثيرة إلا أن معظمها ضاعتْ، وكان من أصفى تلامذة الشيخ عبد الودود، الذي كان يقول عن تلميذه البارّ: "عزيزي نور الحق لو غالبَ الحريري في نظمه ونثره لغلبَه"، تولّى التدريس في جامعة جيري عام ١٣٥٨هـ، وفي عام ١٣٥٩هـ تولى منصب المفتي فيها، ولما توفّي الشيخ أحمد حسن الرئيس المؤسس للجامعة عام ١٣٨٦هـ، استُندت إلى الشيخ نور الحق رئاسة الجامعة، وظلّ فيها إلى آخر عهده بالدنيا، وكانت له صلةٌ قويّة بالمشايخ الكبار أمثال الشيخ عبد الودود، والشيخ معظم حسين خان، والخطيب الأعظم صديق أحمد، وقد نال الخلافة في التزكية من كلّ من هؤلاء الثلاثة، وقد توفّي عام ١٤٠٨هـ الموافق ١٩٨٧م، وصلى عليه الشيخ الحاج محمد يونس، ودفن في مقبرة الجامعة.

(٢) هو الشيخ الرباني العلامة علي أحمد بن صناعت علي البوالوي، وُلد عام ١٩١١م في محافظة شيتاغونغ، درسَ في كتاب قريته، ثم دخلَ في جامعة جيري، وتخرّج في مرحلة التكميل، وأخذ الحديث على أيدي الأساتذة الكبار، على رأسهم الشيخ عبد الودود السنديبي، والشيخ العلامة أحمد حسن والمفتي عزيز الحق وغيرهم، لقد عانى الشيخ البوالوي معانات كثيرة في حياته، ومنذ صغره، فقد ذاقَ مرارة اليتم في طفولته، ثم تعرّض للضغوط الاقتصادية في يفاعته وشبابه، حتى أجبر على هجر الدراسة والمدرسة، وممارسة التجارة لفترة، لكنه بفعل ثباته واستقامته، وإخلاصه للأهداف، ذلّل كل العقبات، وتسنّم الصعود في سلم المعالي، فقد تولّى التدريس في جامعة فتية، ودرّس الحديث أكثر من ٦٣ سنة، بايع الشيخ ضمير الدين، وبعد وفاته بايع الشيخ المفتي عزيز الحق، ونالَ منه الخلافة، كان ناصحا أمينا ربانيا، وليس واعظا تجاريا، وصاحب كرامات، وقد توفّي عام ٢٠٠٤م، وجمعَ أقواله المختارة المفتي الكبير عبد السلام الشاتغامي في كتاب «ملفوظات البوالوي» بالأردية، ثم ترجمه ونشره محمد حبيب الله، انظر تفاصيل حياته في كتاب ترجمة الشيخ شاه علي أحمد البوالوي، تأليف العلامة محمد سلطان ذوق الندوي.

(٣) إنه المؤلف الكبير، العالم البحر، الشيخ إبراهيم رحمه الله، مفتي جامعة فتية، وُلد عام ١٩١٥م في شيتاغونغ، ودرسَ في جامعة جيري، على أيدي الأساتذة الكبار، وعلى رأسهم الشيخ العلامة عبد الودود، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في دار العلوم ديوبند، عند الشيخ مولانا المدني، والشيخ إبراهيم البلياوي، والشيخ مولانا إعزاز علي، وفي عام ١٣٧٦هـ تولّى التدريس في جامعة فتية، وظلّ في منصب المفتي لها حتى عام ١٣٩٩هـ، طوال ثلاثة وعشرين عاما، قدّم خلال هذه الفترة الكبيرة أكثر من ستة آلاف فتيا، كما أشرف على «اتّحاد المدارس العربية» لفترة كبيرة، ومن أبرز جوانب هذا الإنسان هو

كيف كانت صلته بالله

فوق هذا وذاك، كان عارفا من العارفين، وطرازا نادرا في العابدين، ونموذجا صادقا لسيرة السلف الصالح، وصورة أمينة لحياة التقي المتخشع، وغارقا في بحر العشق الإلهي، والطاعة له، والخشوع [illegible] والعبادة والتلاوة، فكان لا يترك الصلاة مع الجماعة في الحل والترحال، وفي البيت وفي السوق، [illegible] حضرت الصلاة، كانت تعتريه حالة غريبة، ويكاد أن ينسى كل شيء حوله، يقول الشيخ العلامة [illegible] أحمد حسن في «مشايخ شاتغام»: "بعد أن توليت التدريس في جامعة جيري، ما رأيته تفوته حتى [illegible] الفجر، وما رأيته يصلي منفردا، وعندما ينتهي من صلاة الفجر، يمضي قليلا إلى حجرته، [illegible] بالذكر والتسبيح، ثم يصلي صلاة الإشراق، وبعد ذلك يقرأ جزءا من القرآن".(١)

كان متواضعا إلى حد كبير للدهشة، ومن ثم فلا يصبر على الثناء عليه بين يديه، وكان [illegible] ويتغير [illegible] إذا وقع شيء من المنكر أمامه، وكان يحب دائما في الصلاة ويستاك عند كل وضوء، [illegible] في السوق، كما كان لا يحضر في مأدبة تارك الصلاة.

مرة قدمت له دعوة مناسبة العقيقة، وسمع أن الرجل [illegible] حول نفسه فما استجاب له، وقال: "إن هذه العبادة [illegible]، فلا أدري [illegible] رضا لله أم رضا للناس"! وكذلك [illegible] له دعوة مناسبة [illegible] في الثاني عشر من ربيع الأول، فقال الشيخ: "هذا حفلة تأتي عند [illegible] ربيع الأول، هذه بدعة تكثر فيه البدع والخرافات، فيشبه الاحتفال بتلك الأشياء"، فقيل له بأن [illegible] خيرا للمدرسة [illegible] بين الناس، فقال الشيخ بكل جرأة المؤمن: "إن البدعة لا تحمل في طيها إلا الخسارة والضياع"! ولم يشارك فيه، هكذا كانت حياة هذا الشيخ نموذجا حيا رائعا للحفاظ على السنن والفوائد، والبعد عن مواطن الشبهات، والسير على درب المصطفى ﷺ في كل حركات وسكنات، وقد ظل طوال حياته حريصا على الاتباع، وناقدا للابتداع.

كلما كان يسمع صوت الأذان، يتوقف عن عمله، حتى عن تلاوة القرآن، ويجيب المؤذن، ومن أجل هذا مرة سأله ابنه الشيخ إحسان الحق عن هذه الفعلة، وبيّن له أن تلاوة القرآن لا بأس أن يستمر فيها القارئ حتى أثناء الأذان! فقال له الشيخ: يا بني! يمكنك أن تقرأ القرآن حيثما تشاء، فتحصل

جهاده في ميدان التأليف والكتابة، فكان قلمه [illegible]، ألف كتبا كثيرة، معظمها باللغة العربية والأردية، تشمل الشروح والتعليقات على مقررات منهج المدارس العربية في بنغلاديش، وقد توفي الشيخ عام ١٤٠٠هـ.

(١) انظر مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله، ج١، ص٢٧٢ و٢٧٣

على أجر التلاوة، أما أجر الردّ على الأذان، فلن تجده إلا في حينه!

مرّة اصطاد له بعض أبنائه الأسماك، ففاتهم الصلاة مع الجماعة، ولما رجعَ الشيخ إلى البيت، ورأى الأسماك، قال للأسرة: من أين هذا؟ فذُكر اسم أبنائه، قال الشيخ: ما رأيتُهم في الجماعة، أهم الذين يتركون الجماعة ويصطادون الأسماك! فلن آكلها أبدا، ولما جاء الأبناء بكوا بكاء شديدا، ووعدوا بألا يعودوا إليه أبدا، فقال لهم الشيخ بكل ثقة واطمئنان: "إني ربّيتُكم-وهم سبعة أبناء- على أن تعبدوا الله تعالى وتكونوا له عبادا شكورين، خاضعين لأمره، وقافين عند حدوده، لا على أن آكل من كسبكم، إني لا أسألكم رزقا، فالله ربي، وهو الذي يرزقني، وإذا كنتُم لا تبالون بهدفي وأمنيتي، فلا حاجة بي إلى الأبناء أمثالكم"!

وكان يحافظ على السنن والرواتب من الصلاة، حتى في السفر، ولا تفوته الجماعة حتى في المرض، كما كان يحيي الليل بالعبادة والتلاوة، ولا يحبّ رفع الصوت في المسجد، فإذا حدث أي صوتٍ في المسجد كان يقول: "يا عباد الله، هذا بيتُ الله، وليس بيوتنا، فلا يحسن فيها شيء من كلام الناس، ورفع الصوت أمام الله"! وإذا رأى في المسجد شيئا من القذر، هرولَ إلى إزالته بيده، وكان بكّاء في الصلاة، يبكي وينتحب، ويكاد أن يُغمى عليه أحيانا.

كان مبايعا للشيخ أشرف علي التهانوي، ثم استمرّ في التدريس والتربية، حتى توفّي الشيخ التهانوي، وفي فترةٍ من الفترات زار الشيخ القاضي معظم حسين خان خليفة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي جامعةَ جيري، فأجازَ الشيخَ السنديبي بعد أن شاهدَ منه ورعه وصلاحه، وخشوعه وعبادته،(١) إلا أنه لم يخض غمار الطريقة والرياضة كثيرا، بل ظلّ في التدريس والتربية، وأخذ البيعة من عدد قليل من الرجال، فزادُ طريقِه ورأس ماله تلامذتُه، وليس أتباعه، وقد اختاره الله ٢٩ أكتوبر عام ١٩٦٨م،(٢) فانتقلَ إلى رفيقه الأعلى، وخلف جيشا عرمرما من العلماء والدعاة، جنّدهم على حساب حياته ووقته، وسيكونون له عونا بإذن منه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٦

(٢) شيخ الحديث العلامة عبد الودود السنديبي: حياته وعطاؤه، تحرير المفتي كفايت الله، ص١١

مولانا فيض الرحمن

(١٨٩٤-١٩٧٠)

الشيخ الرباني، ورجل الدعوة والسياسة

بعد وفاة الشيخ العبقري العلامة أطهر علي أصبح هذا الإنسان موضع ثقة وأمانة، واحترام ووجاهة، واعتماد وإيمان، لملايين الناس، ولآلاف العلماء والطلاب، ومئات المدارس والجامعات، في المناطق الشمالية، وفي المحافظات التابعة لـ«مؤمن شاهي» قديما، فكان إماما للجامع الكبير بـ«مؤمن شاهي»، إلا أن إمامته لم تكن قاصرةً على الجامع، وإنما كان إمام المسلمين في عصره، وحامل لواء الإصلاح تعليما وتشريعا وتنفيذا ومراجعة، فكان إماما لهم في الصلاة والسياسة، والدعوة والإصلاح، وقائدا من أبرع القوّاد في الشوارع والمظاهرات، وممثّلا أمينا في البرلمان، إنه الشيخ الرباني الكبير، العالم الموسوعي، والسياسي المثالي، مولانا السيد فضل الرحمن رَحِمَهُ اللهُ.

الميلاد والنشأة

ولد فضل الرحمن في «فولبور» بمحافظة «مؤمن شاهي» عام ١٨٩٤م، في أسرة مسلمة،[1] وفي وقتٍ كانت هذه المنطقة على فترةٍ من العلماء والمراكز العلمية، وكانت في عمىً عن العلوم الشرعية، وغارقة في ظلام البدع والخرافات إلى القاع، لذلك أخذ الدراسة الابتدائية في المدارس الحكومية، ودرسَ شيئا من الأردية والعربية والفارسية عند ملّمي كتّاب القرية، ثم تولّى تربيته الشيخ مولانا عبد الهادي، خال أمه، الذي كان عالما ربانيا، ومبايعا للشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، فأرسل حفيدَه إلى زاويته ، وبقي فيها فترةً من الزمن، ودرس بعض الكتب المهمّة في المنهج النظامي، ثم أرادَ الدخول في جامعة ديوبند، إلا أن

(١) مؤمن شاهي الكبرى: علماؤها وأسلافها، تحرير الشيخ أبي الفتح محمد يحيى، ص١٥٢

مولانا التهانوي أشارَه على الدخول في مظاهر العلوم بـ«سهارنبور»، فدخل فيها ودرسَ على الأساتذة الكبار، على رأسهم ريحانة الهند، شيخ الحديث، العلامة زكريا الكاندهلوي، حتى تخرّج في الدراسات العليا وعادَ إلى وطنه عام ١٩٢٩م.[١]

تأسيس «جامعة باليا»

عادَ إلى مسقط رأسه «مؤمن شاهي» وهو يتأسف على ظروفها الدينية، ويتحسّر على أمّية الأمة، ويتحرّق على انطلاق الرحلة في سبيل الدعوة والإصلاح، فبدأً يجاهد ويجتهد، بلا معين ولا صاحب، وأخذ التدريس في كتاب قريته، كما ظلّ يدعو الله ﷻ ويتضرّع إليه في هزيع الليالي، وهنا جاءَ الفرج، وانفتح الأفق، وذهبَ إلى بيت عمّته بـ«باليا» «مؤمن شاهي»، وتعرّف على بعض العلماء والصالحين في تلك القرية، وفاتحهم في قضية تأسيس مركز علمي، فوافقوه وسرّوا بهذه الخطوة المباركة، حتى تم وضع حجر الزاوية لمدرسة دينية في كوخ صغير عام ١٩٢٨م، وهذه المدرسة كانت نواة لجامعة كبيرة، وما هي إلا أيام حتى تحوّلت إلى «الجامعة العربية أشرف العلوم باليا»، وكان بطلها هو الشيخ فضل الرحمن.[٢]

بعد فترةٍ تولّى الشيخ الخطابة في الجامع الكبير بمؤمن شاهي، وإمامة الناس في الصلاة، فكان هذا الجامع مقرّ عمله، وساحة جهاده، ومركز نشاطه، وكانت هذه الإمامة لأن تتحوّل إلى إمامة كبرى، إمامة الناس في حياتهم السياسية والاجتماعية، وقيادتهم في مصالحهم المادية والمعنوية في ذات الوقت، فظلّ في هذا الجامع بقية حياته، تمتدّ على نصف قرنٍ كامل،[٣] كما أسس مساجد ومدارس، وأشرف على مؤسسات، وفسّر كتاب الله، ودرّس الحديث النبوي، وكان عضوا في المجلس الاستشاري الأعلى لمراكز علمية كبرى، مثل جامعة مخزن العلوم بـ«تالتولا»، والجامعة الإسلامية بـ«تشاربارا»، والجامعة الإمدادية بـ«كشورغنج».

من روّاد السياسة الإسلامية

انفصلتْ باكستان بشقّيها عن الهند عام ١٩٤٧م، بعد اضطرابات ومفاوضات، وسلسلة من الأخذ والعطاء، وظهرتْ دولةٌ إسلامية جديدةٌ في خريطة العالم، واستبشر الناس بالعهد الجديد، إلا أن

(١) المرجع السابق، ص١٥٦

(٢) المرجع السابق، ص١٥٨

(٣) انظر مقال علي إرشاد حسين آزاد، في جريدة الانقلاب اليومية، ٢٥ مايو، ٢٠١٦م

هذه الدولة قامتْ على مواعيد عرقوب منذ أول يومها، فقد تسلّمت زمام السلطة في باكستان طبقة متفرنجة، كانوا يدعون الناس إلى دولةٍ تقوم على الإسلام، وعلى تحكيم القرآن والسنة، وهم لا يمثّلون الإسلام في شيء، بل هم أجهل الناس بالقرآن والسنة، وما هم من العقيدة الصحيحة، والإيمان واليقين، والعلم بالنصوص والشريعة، والاهتمام بإقامة العدل، ووضع موازين القسط بين الناس، نصيبٌ إلا كنصيب المفلس، مع أنها هي الأهداف الأساسية التي يجب أن تلتزم بها الدولة الإسلامية، بل هي مبرّرات وجودها، وسرّ تميزها عن غيرها من الدول، فكان حلم دولةٍ إسلامية في باكستان على يد هؤلاء الناس الممثلين في «الرابطة المسلمة» حلما أشبه بأضغاث الأحلام، ولما أفاق الناس من غفوتهم، وصحوا من سكرتهم، كان الأمر قد قُضي، ووقعت الواقعة، وطارت الطيور بأرزاقها.[١]

هنالك نهض العلماء في باكستان الشرقية، مع من نهضوا في شقها الغربي، وأفاقوا قبل كل واحد، وأدركوا ما وقعَ على المسلمين، فاجتمعوا عام ١٩٥٠م، بعد الانفصال بفترة يسيرة لا تزيد على ثلاث سنوات، وهذا يدلّ على دقّة حساب العلماء، وسرعة انتباههم، واهتمامهم بمستقبل الشعب والدولة، بمستقبل الدين على أيدي القيادة الراهنة، فاجتمعَ العلماء في شهر فبراير عام ١٩٥٠م، في بيت الشيخ السيد مصلح الدين، تحت مظلّة «جمعية علماء الإسلام»، بمناسبة مؤتمر ولائي للجمعية، وقد كان لهذا المؤتمر دورٌ كبير في السياسية الإسلامية في هذه الدولة، وكان نواة الحركات الدينية، وأول خطوة في طريق العلماء إلى السياسة في هذه البقعة الجديدة، وكان الشيخ فضل الرحمن أحد أبطال هذا التاريخ.

في عام ١٩٥٤م عندما دخل «نظام الإسلام» بقيادة الشيخ الرباني العلامة أطهر علي في انتخاب المجلس الولائي، تحت مظلّة «الجبهة المتّحدة»، شاركَ الشيخ فضل الرحمن في هذا الانتخاب من منطقة «فولبور» و«حلواغات»، كمرشّح لـ«نظام الإسلام»، ففازَ وأصبح عضوا برلمانيا، ثم شاركَ في انتخاب عام ١٩٧٠م، وفازَ في الواقع، إلا أن السلطة حاكت الدسائس، وتطرّقت سبيل الغشّ والخدعة، فانهزَم الشيخ بفارقٍ ضئيل، قد لا يزيد على أكثر من عشرين صوتا![٢]

(١) انظر دولتي بنغلاديش، تأليف الأستاذ غلام أعظم، ص١٧

(٢) مؤمن شاهي الكبرى: علماؤها وأسلافها، تحرير الشيخ أبي الفتح محمد يحيى، ص ١٦٨

المعاناة تستمر والصبر يزيد

رغم أنه قضى معظم حياته في ميدان السياسة، مع الشيخ الرباني مولانا أطهر علي، تحت ظلال «نظام الإسلام»، إلا أنه بعد انفصال باكستان عام ١٩٧١م وظهور بنغلاديش، لما بدأت الحكومة الجديدة المستبدّة القهر على العلماء، وظلم رجال الدين والدعوة، وتضييق الخناق على المراكز العلمية، والأحزاب الدينية، وزجّت بالعلماء في السجن، زجّت به هو الآخر في السجن، وبقي فيه طوال عامين، بلا جريمة ولا محاكمة، فلما خرجَ من السجن، أنفَ هذه السياسة الكريهة الدميمة، وابتعد عن ميدانها، ونأىٰ عن حدودها نأيا كليا.(١)

إلا أن الحياة التي صيغت في قالب الجهاد للدين، وإعلاء كلمة الله، ورفع الصوت ضدّ القهر والاستبداد، لم تكن لتطمئن إلى الفراش والسجّاد، ولتقتصر على حدود المساجد، وتغرق في صفحات الكتب والمؤلفات، وتترك الأمة تهيم في متاهات السياسة، ومجاهيل الاحتكار والاستبداد، وتتجاهل الأخطار التي تحدق بمستقبل الدين والوطن، وتكتفي بالآيات والأحاديث على منابر المساجد، ومنصات المحافل والمناسبات، وقد كانت- ولا تزال- هي حالة معظم العلماء، والفقهاء والقراء في هذه الدولة، حالة الصمت والسبات، والغفلة وسقوط الهمم، التي جعلت من النسور زرازير، ومن الأسود قططا، وهم أولى بهذه الدولة التي قامت على أساس الدين، وأحق بزمامها وإدارة دفتها! ولذلك عندما برزَ الشيخ الرباني العلامة المجاهد محمد الله الحافظجي في عالم السياسة، وجاءَ بدعوة جديدة في أفق سياسي وقيادي لهذه الدولة، عُرفت في التاريخ بـ«سياسة التوبة»، وشارَكَ في الانتخاب الرئاسي عام ١٩٨١م، نهضَ الشيخ فيض الرحمن، وشاركَ بحماس جديد شديد، وقام بدورٍ بليغ في هذا الانتخاب لصالح حزب «حركة الخلافة» تحت إشراف الشيخ الحافظجي.

في محراب العبادة

كان قمة في العبادة والزهد، والبعد عن زخارف المادة، ولم تغلب عليه صفة من صفات عباد الدنيا، فكان شيخا ربانيا من الطراز الأول، اهتمّ بالتزكية والسلوك منذ فترة مبكرة من الحياة، وأنشأ صلة بالشيخ التهانوي أثناء دراسته في مظاهر العلوم بـ«سهارنبور»، ثم بايع على يده، وكان يذهب كل يوم الخميس إلى زاوية مولانا التهانوي بـ«تَهانَه بَهَوَن» التي تبعد عن «سهارنبور» بأكثر من ثلاثين

(١) أعلام علماء بنغلاديش، تأليف صلاح الدين جهانغير، ج ٢، ص ٢٢٠

كيلومترا)، فيقطع معظم هذه المسافة مشيا على قدميه، حتى أصبحت له مكانةٌ كبيرةٌ عند مولانا التهانوي، وبعد وفاته أنشأ الصلة بخليفته الشيخ الرباني مولانا عبد الوهاب، رئيس جامعة هاتهزاري الأسبق، ونال منه الخلافة، كما كان الشيخ من أبرز خلفاء الشيخ الحافظجي، رحمة الله عليهم أجمعين.

سر قبوله وإعجاب الناس به

كان مربوع القامة، ومتناسب الأعضاء، وصدعا من الرجال، ألقى الله في قلوب الناس هيبته، فلما كان يمشي في الطريق، بقامته الفارعة، والقدّ الأبيض الناصع، واللحية الكثّة الكثيفة، يُفيض على المحيط هالةً من العجب والمهابة، ولا يراه أحد إلا كان محلّ الإجلال والإكرام، ويتمتّع بوجاهة كبيرة واحترام ديني عامّ، وها هي هيبة العلماء، وورثة الأنبياء، إلا أنه مع جلاله وهيبته، ووقاره ورزانته، كان بشوشا بساما، وخفيف الروح، ورقيق الشعور، وعذب النكتة، ومتواضعا أمينا، ولين الجانب، ورحب الأفق، وكان سليم الفطرة، وحليم الطبع، لا يغضب على أحد، ولا يستكبر عن أحد، جليل القدر، وكبير المنزلة، وأثيرا عند الجميع، مقبولا بين الناس.

من أجل هذه الصفات الغالية والمزايا الفريدة، تجمعت حوله القلوب، وأحبه عامة أهل «مؤمن شاهي»، وأعجب به علماؤها وطلابها، على صورة لم تسبق لأحد قبله، فنالَ الشيخ أذنا صاغية، وقبولا عاما، وأصبح موضع الثقة والاعتماد، والمكانة الرفيعة في الأوساط الدينية، وكان سلطان علماء «مؤمن شاهي» في عصره، وقد بايع على يده آلافٌ من الناس، بمن فيهم طلاب المدارس والعلماء، والعامة والخاصة، فكان لهم ملجأ وموطنا آمنا، وكان لهم محكمةً تصلح ذات البين، وتفصل في القضايا والمشاكل، ولما دخلَ في السجن بعد الاستقلال، وظلّ فيه سنتين، كان يقرأ كل يومٍ خمسة عشر جزءا من القرآن، ويعظ أصحاب السجن، وينصحهم، وينذرهم ويبشرهم، حتى تحوّل السجن إلى مدرسة، وتاب العصاة، وأناب البغاة، وغدا الغافلون مصلين، والخونةُ أمناءَ.

الشيخ في ذمة الله تعالى

وقد اختاره الله عام ١٩٩٧م، بعد أن قضى حياةً حافلةً بالإنجازات والأدوار القيّمة الفذّة، في عصر وبيئة أصبح العلماء فيها أهون الناس على ظهر البسيطة، وأخفّهم وزنا في المجتمع، فترك لهم قدوة حيّة للسلف الصالح، وعرّفهم بمكانة العلماء في المجتمع والدولة.

مولانا نور محمد الأعظمي

(١٩٠٠-١٩٧٢)

الكاتب القدير، مترجم «مشكاة المصابيح»، رائد إصلاح التعليم المدرسي

إنه رجلٌ عظيمٌ، عملَ عملا عظيما، فريدا في تاريخ اللغة البنغالية، خالدا في تاريخ الإسلام والعلم في هذه البقعة، لا يضرّه لو لم يعمل بعده، إلا أنه عمل أعمالا عظاما، وتفرّد بصفات لم يعطها الله إلا القليل من عباده، واستمرّ في البذل والعطاء طوال الحياة، عطاء من لا يخاف الفقر، وقدّم لبلده وبني قومه إنجازاتٍ تُخلده في التاريخ، وترك مكتبة غنية من الكتب والمؤلفات القيمة، تشهد على مواهبه وعبقريته، وتجعل له ألسنةً ستلهج بالشكر والدعاء، مادام الخلق يقوم، وما دامت عجلة التاريخ تدور.

هذا الرجل العظيم هو الذي ترجمَ مشكاة المصابيح إلى اللغة البنغالية لأوّل مرّة في التاريخ، فكان عملا من الطراز النادر، ومن ينظر في ترجمته للمشكاة، والشروح والتعليقات المختصرة التي أضافَها في الحاشية، يعرف مدى معرفته بالحديث، وسعة اطّلاعه على كنوز السنة النبوية، وسيرة صاحبها ﷺ، وقدر إحاطته بفقه السيرة، والحكم على الأحاديث، وأسلوب الترجمة الذي اختاره، فقد جاءت الترجمة موفّقة، وجاءتْ مفيدة نافعة، وجاءَ الكتاب قطعةً ذهبيةً في عالم الأدب البنغالي، ترتاح له القلوب وتهتز له النفوس، وقد كتب الله له الخلود والانتشار ما لم يكتب لغيره، وجعله إنجازا خالدا في تاريخ هذه اللغة، وليس الخبر كالمعاينة، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

وقد ظلّ الرجل حياته كلها يُجاهد في نشر العلم والثقافة، والتأليف والكتابة، وبناء الجيل الحاضر، وإصلاح التعليم المدرسي، وتطوير مناهجه، وتربية الطلاب والمتخرّجين تربية صحيحة صالحةً ربانية، وكان يرى أن الإنسان ليس جسدا يأكل ويتناسل فقط، بل يعمل ويتحرّك، حتى بارك الله في عطائه وجهوده، وأصبح من العلماء الأعلام، والمصلحين العظام، ومن رواد الصحافة والإعلام، والكتابة

والإنشاء، والدعوة والإصلاح في هذه الدولة، إنه العالم الرباني، والمؤلف المصلح، الشيخ مولانا نور محمد الأعظمي رحمه الله.

ميلاده ونشأته

وُلد نور محمد في قرية «نيازبور» بمحافظة «فيني» نهاية عام ١٩٠٠م، وفتح عينيه على الدنيا في أسرة صالحة غنية كريمة، وبدأ الدراسة في بيته، وقرأ القرآن الكريم على والده الشيخ علي الأعظم، وجدّه المنشئ حاتم، وتعلم شيئا من البنغالية والفارسية، ثم درسَ في عدة مدارس دينية، وأخيرا دخلَ في مدرسة دار العلوم بشيتاغونغ، واجتازَ مرحلة الفاضل (البكالوريوس) عام ١٩٢٥م، وبهذا انتهت الدراسة، وانتهتْ مرحلة التحصيل، ليدخل الشابّ نور محمد في مرحلةٍ جديدةٍ من الحياة، وهي مرحلة التعليم والتدريس![1]

نعم! طالب متخرّج في البكالوريوس، وقد انتهتْ الدراسة والتحصيل، ودخلَ في التدريس! فماذا يتوقّع القارئ من طالب يحمل شهادة البكالوريوس، أول مرحلة جامعية، ولم يدخل في الدراسات العليا! وانتهتْ حياته الدراسية قبل أن يعرف الماجستير والدكتوراه!

هنا حصلت المعجزة، وظهرت الكرامة، وتجلّت قدرة الإرادة والتصميم، والهمة العالية، والعزيمة الصادقة، وقوّة السعي الحثيث وراء الغاية، والجهاد المستمرّ في سبيل تحقيق الأحلام، تجلّى ذلك بكل لمعانٍ وضياء، فالرجل الذي لم يجتز عتبة البكالوريوس، ولم يدخل في الدراسات العليا، أصبح يخرّج الدكاترة، ويصنع الأعلام، ويبني الأجيال، يفتخر الشعب بعلومهم وإنجازاتهم، ويعتزّ بهم الدين! الرجل الذي لم يتح له أن يكتب رسالةً في الماجستير، أصبح الآن تكتب عليه رسائل الماجستير، وأصبحتْ حياته موضوع البحث في أطروحات الدكتوراه، وفي مراكز البحوث والدراسات! ووصل إلى ما لم يصل إليه كثير من أصحاب أرقى شهادات الدنيا، وحملة الألقاب الثقيلة، فكيف كانتْ هذه المعجزة؟ وماذا حصل في تاريخ هذ الإنسان العظيم، وكيف وصلَ إلى ما وصل إليه من العلم والمعرفة، والإنجاز والمكانة، والإمامة في الترجمة والإنشاء؟ هذه هي موضوع قصّتنا في الصفحات التالية.

جلده على القراءة وصبره على التحصيل

بعد أن تخرّج في مرحلة «الفاضل» كان يطمح إلى أن يدخل في جامعة أو معهد علمي كبير،

(١) علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص١١٤ - ١١٥

ويستمرّ في الدراسة، إلا أنه لم يقدّر له ذلك، فأنهى مرحلة الدراسة، وبدأ مرحلة جديدة في الحياة، ودخلَ في مدرسة «بالوا» بـ«تشاوموهاني (Chawmuhani)» مدرسا عام ١٩٢٦م، وبعد فترةٍ انتقل إلى المدرسة العالية بـ«فيني»، وظلّ فيها أكثر من عشرة أعوام.

هنا برزتْ عبقريته، وتجلّت آياتُ نبوغه وخلوده، فمع توليه التدريس في المدرسة، كان متفرّغا للبحث والدراسة، وغارقا في القراءة والمطالعة، ومنغمسا في عالم الكتب والمؤلفات، فتعلّم التفسير والحديث، والفقه، وأتقن العربية والأردية والفارسية والبنغالية والإنجليزية، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، وازداد كل يوم علما على علم، ومعرفة على معرفة، تعلّمها بنفسه، وبجهده الشخصي، ثم كان معلّمها! وكان مولانا محمد أكرم خان يلقّبه بـ«الموسوعة الحية للاستشراق»، لتبحّره في قضية الاستشراق وتمكّنه من أخبار المستشرقين.[1]

في عام ١٩٤٤م سافرَ إلى كلكتا، وبقي فيها سنتين، غارقا في الكتب والمؤلفات، قائما وجالسا في المكتبة الإمبراطورية» بكلكتا (المكتبة الهندية الوطنية حاليا)، ومكتبة المدرسة العالية، قرأ التفسير والحديث، والفقه وأصوله، والقصص، والروايات، والتاريخ، والمسرحية، كما قرأ للمؤلفين في الداخل والخارج، والمسلمين وغير المسلمين، وبالبنغالية والعربية والإنجليزية، وهنا تعرّف على الإمام شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله، وتأثر بشخصيته وإنجازاته، وجهوده وجهاده، وقرأ الكتب والمؤلفات التي تتحدث عنه، حتى أصبح من أشدّ المعجبين به، وأصبح «حجّة الله البالغة» أفضل كتاب عنده بعد كتاب الله ودواوين سنّة رسوله ﷺ، ويتجلّى شغفه بالكتب والمؤلفات، وعشقه بالقراءة والدراسة، من خلال ما ذكره في سيرته الذاتية : "منذ عام ١٩٢٦م إلى عام ١٩٤٤م، طوال ثمانية عشر عاما، ما قرأتُ أقل من ٥٠ صفحة، على معدل يوميّ"![2]

صاحب قلم معطاء

بدأ الشيخ جهادَه بالقلم واللسان في ثلاثينيات القرن الماضي، عندما كان مدرّسا في مدرسةٍ صغيرة خاملة، في قريةٍ نائية متخلّفة بمحافظة «فيني»، ونشرَ بحوثَه ومقالاته عن الإسلام والمسلمين، والدعوة والإصلاح، وحضارة المسلمين وثقافتهم، وآدابهم ومدنياتهم، في صحف ومجلّات شهيرة في ذلك العصر،

(١) انظر أعلام علماء البنغال، تأليف صلاح الدين جهانغير، جـ١، ص٢٤٦

(٢) مولانا نور محمد الأعظمي، للأستاذ أ.س.م. عزيز الحق الأنصاري ص ٣

مثل «العهد الجديد»، و«آزاد»، و«المحمدي»، و«نظام الإسلام»، و«الإنصاف»، و«الاتّحاد» وغيرها، حتى أصبحَ من روّاد الصحافة الإسلامية باللغة البنغالية، ومن طليعة العلماء الذين قاموا بدورٍ كبير في الأدب البنغالي، عندما كان مسلمو البنغال- عوامهم وعلماؤهم- أبعد الناس عن اللغة البنغالية، لكونها تحمل على رأسها تهمةً فظيعة، بأنها لغةٌ هندوسية، ولغةٌ لا تتناغم مع الثقافة الإسلامية وحضارة الإسلام والمسلمين، فنهض هذا الرجل مع من نهضوا في ذلك العصر، وعلى رأسهم الشيخ منير الزمان الإسلام آبادي، والشيخ مولانا محمد أكرم خان، والشيخ عبد الله الكافي، والدكتور محمد شهيد الله، والشيخ مولانا محيي الدين خان وأمثالهم، فقدّموا خدمةً تاريخية إلى هذه اللغة، وإلى الشعب البنغالي المسلم، وأصبحوا من الخالدين في تاريخ هذه الدولة.

كتبَ مولانا الأعظمي كتبا كثيرة، ورسائل مفيدة، من أبرزها ◊ علوم الحديث وتاريخه ◊ ترجمة مشكاة المصابيح وشرحه المختصر (البنغالية) ◊ الخلفاء الراشدون كقدوة ◊ النظام الاجتماعي في الإسلام ◊ النظام الاقتصادي في الإسلام ◊ النظام العقاري في الإسلام ◊ بين الإسلام والغرب ◊ دور العلماء السياسي في القرن التاسع عشر ◊ نظام التعليم في المدارس العربية (الأردية) ◊ آداب التربية ◊ تاريخ علم التفسير (العربية).

أبرز آثار نبوغه وعبقريته

«علوم الحديث وتاريخه» من أعظم ما قامَ به هذا الإنسان في مسيرته العلمية، ويعدّ تحفةً نفيسة في مكتبة علم الحديث، وقد جاءَ هذا الكتاب في أوانه ومكانه، جديد في طرحه، عندما كان الشعب البنغالي المسلم في عزلة تامّة عن الحديث، وجهالة مطبقة بالسنة النبوية، فكانت آراء الفقهاء وأقوال العلماء المتأخرين ومذاهب المجتهدين من جانب، وشطحات أهل البدع والخرافات من جانب آخر، مخيّمة على هذا الشعب، ومتسلّطة على فكره ودينه، ومنهج علمه وحياته، وقد ذكرها المؤلف في بداية الكتاب، وبيّن حاجة الشعب في ذلك الوقت إلى مثله، حتى جاءت الخطّة موفّقة، ولقي الكتاب قبولا عاما، وأقبل عليه الناس إقبالا نادرا، ولهذا الكتاب قصّة رائعة، يحكيها المؤلف في مقدّمته.

يقول المؤلف: "لا تخفى على مسلم مثقّف أهمية الحديث النبويّ، ومكانته في الشريعة الإسلامية، إلا أنه من الأسف الشديد أن الشعب البنغالي لم يبرز اهتمامه بالحديث النبويّ، ولم يقدر قدره، ورغم أن كتاب «مشكاة المصابيح» كان كتابا سائدا في هذه الدولة آنذاك، ومتداولا في أوساط الطلاب والعلماء، وكانتْ بعض الترجمة لها طُبعتْ ونشرتْ من البنغال، إلا أنها لم تكن تفي بحقّه، ولم تقض

الحاجة، لعدم تناولها مشكلات الحديث، ولعدم تقديم الشرح للقضايا العويصة المستصعبة على ذهن القارئ، ولعدم استيعاب المادة بشكل كامل، فلذلك فكّرتُ كثيرا، ثم بدأتُ مهمّة ترجمة المشكاة إلى البنغالية عام ١٩٥٦م".

"إلا أنني فوجئتُ بعد أيام بحوادث خطيرة ما كنتُ أتوقّعها في بلدنا، وشاهدت طوفانا جارفا يأتي ويريد القضاء على السنة من قواعدها، طوفان إنكار حجّية السنّة، وإثارة الشكوك والشبهات في تاريخ تدوينها، فرأيتُ أنه لا بدّ من الوقوف في وجه هذا الطوفان، ولا مندوحة من وقفه، لأنها إذا سقطتْ حجّية السنة عند الناس، لن تبقى عندهم أية قيمة للأحاديث النبوية ولا لترجمتها، فالواجب أن نعدّ طليعة، ونرسل مقدّمة، تقدّم السنة إلى الناس، وتعرّفها بهم، وتبين لهم تاريخ التدوين، ومدى الاهتمام، والدقة، والحذر، والورع، والوعي، التي بها احتفظتْ الأحاديث النبوية، كما تبيّن لهم أنواع الأحاديث النبوية، وأحوال الرواة، ومكانة السنّة في الشريعة، وأقوال السلف ومذاهب العلماء فيها، كما تتحدّث عن أمهات الكتب ودواوين السنّة المهمّة، وتراجم أئمتها، وتسلّط ضوءا على الموضوعات، وكيف نشأتْ تلك في المجتمع الإسلامي، وأسباب نشأتها، وموقف الأئمة والحفّاظ منها، ثم تبيّن لهم تاريخ الحديث النبوي في شبه القارة الهندية، وتترجم لبعض العلماء الكبار وشيوخ الحديث في الهند والبنغال، حتى يعرف الناس كيف وصلَ الحديث من النبي ﷺ إليهم، في سلسلة متينة، وثقة تامّة، وفي حفظ كامل، لا يحمل شكّا ولا ريبةً، ولذلك توقّفتُ عن ترجمة مشكاة المصابيح، وبدأتُ أكتب في علوم الحديث، حتى جاء هذا الكتاب وافيا بالهدف، ورزقه الله قبولا عاما شاملا، ونفع به كثيرا من المسلمين".[1]

ثم استأنف الشيخ مشروعه القيم مرّة أخرى، وواصلَ ترجمة المشكاة إلى البنغالية، مع شرح وتعليقات تحل الغموض، وتساعد القارئ على فهم ما قد يعصب عليه، وكان السيرُ على الدرب مستمرا، إلا أنه أثناء ذلك وافاهُ الأجل المحتوم، وانتقل إلى رفيقه الأعلى عام ١٩٧٢م، قُبيلَ ما يبلغ الملف، وقد أصبح هذا الكتاب مرجعا للعلماء والطلاب، ومفتاحا نافعا لفهم مشكاة المصابيح، بلغة بني جلدته.

(1) انظر مقدمة كتاب علوم الحديث وتاريخه، للشيخ الأعظمي.

رائد التعليم ومنشئ الجيل

كان مصلحا عظيما في طبيعته وصميمه، يُصلح التعليم والتربية، ويعمل في أوساط العلماء والمثقّفين، وطلاب المدارس والمراكز الدينية، لأنه كان يرى أن هذه المدارس هي معقل الدين، وحصن الشريعة، وأن الطلاب والمدرّسين هم حماة هذا الحصن، وجنود هذا المعسكر العظيم، فلا بدّ من إعدادهم على مستوى أفضل، ولا بدّ من تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم على منهج أصح وأقوم، وكان يحلم دائما أن يكون العلماء ومتخرجو المدارس الدينية أكفاء لحمل أعباء الدين والشريعة، والمسؤولية التي تأتي على كواهلهم نحو شعبٍ مقبل على خطر عظيم، وواقف في حيرة وضياع، وفي وجه التحدّيات من المادية، والحضارة الغربية، ومتذبذب بين الدين واللادينية، وبين العلم والإيمان، وأن يكونوا قادرين على قيادة شعبهم، وإدارة دفّة دولتهم، ويتفوّقوا على غيرهم في ميدان الدين والشريعة، والعلوم العصرية.

لقد نهض الشيخ الأعظمي للتجديد في المنهج التعليمي الديني، وفي ذلك الوقت كان في البنغال عددٌ من كبار العلماء وقادة المصلحين، الذين يجاهدون في سبيل إصلاح التعليم المدرسي، وتطوير المستوى الدراسي، ومساعدة المدرّسين المتواضعين في هذه المدارس، الذين لم يستوفهم شعبُهم حقوقَهم، ولم يعرف منزلتهم، ولم يقدرهم حق قدرهم، وكان من أبرزهم مولانا شمس الحق الفريدبوري، والدكتور محمد شهيد الله، والخطيب العلامة عبيد الحق الجلال آبادي، فالتقى بهم الشيخ الأعظمي، وفكّروا وأخذوا المشاريع، حتى جاءتْ «جمعية المدرّسين» عام ١٩٣٠م،[1] وكان له دورٌ كبيرٌ في تأسيسها، ولما بدأت الجمعية تصدر مجلّة أسبوعية باسم «التعليم»، كان الشيخ الأعظمي رئيس التحرير لها، كما أسس «جمعية طلاب العربية»، وقاد الحركات والمظاهرات في ستينيات القرن الماضي التي كانتْ تطالب الحكومة بإنشاء جامعة عربية إسلامية في هذه الدولة، وبذلك أصبح من روّاد المصلحين.

إصلاحه العظيم لمناهج التعليم

لم يكتفِ بتأسيس الجمعيات والإشراف عليها، بل ظلّ يعمل في داخل الجمعية وخارجها، ويكتب الكتبَ، ويلقي الكلمات، ويتواصل مع الرؤساء والوزراء، وقادة السياسية، ورجال التعليم والتربية، فكتبَ كتابه المشهور «نظام التعليم في المدارس العربية» باللغة الأردية، وكان لهذا الكتاب صدى جميلة في أوساط المثقفين، ونالَ ثناء وإشادةً من أصحاب الفكر، والعلماء والموجّهين والمربّين، وهو كتابٌ

(١) مولانا نور محمد الأعظمي، للأستاذ أ.س.م. عزيز الحق الأنصاري ص د

عجيب جليل، غزير المادة في هذا الموضوع، وخلاصة دراسات وخبرات طويلة واسعة دقيقة، لا يكاد يوجد له نظيرٌ في شموله وكثرة فوائده.

وقد كان لهذا الكتاب قصّة، وهي أنه في عام ١٩٤٥م تكوّنت لجنةٌ تعليمية في البنغال، تحت رئاسة وزير التعليم آنذاك السيد معظم الدين حسين، تهدف إلى الإصلاح في التعليم المدرسي، فنهضَ الشيخ نور محمد الأعظمي، كما نهضَ الخطيب عبيد الحق، وقدّما إلى اللجنة الاقتراحات والتوصيات في نَباهة وحكمة، وكتبَ الشيخ هذا الكتابَ، وكان لهما دورٌ فعال في تلك اللجنة، كما كان لهذا الكتاب دورٌ في تقديم الخطة المتكاملة لمنهج جديد في هذه المدارس، حتى جاءتْ بعض التوصيات في حيّز التنفيذ، وجاء إصلاحٌ عظيم، ودخلت في المدارس الدينية العلوم العصرية، مثل الأدب والتاريخ، والجغرافيا والعلم، والرياضيات والإنجليزية وغيرها.

إلا أن أمواجا طاغية عاتية من الإصلاح، وطوفانا من التغيير والتطوير، التي جرفتْ المدارس الحكومية (العالية) في هذه الدولة، وأتت على مناهجها في الآونة الأخيرة، وبعد ذهاب المصلحين، وغياب الحماة الغيورين، حتى طاشتْ كفّة العلوم الشرعية، وهي رأس مال هذه المدارس، بل من أجلها خُلقتْ، ورجحتْ كفة العلوم العصرية، ودخل في المنهج التعليمي التاريخ والجغرافيا، والكيمياء والفيزياء، على حساب التفسير والحديث، والعلوم الشرعية، نحن على يقين أن الشيخ الأعظمي رَحِمَهُ اللهُ لم يكن يُريد هذا الإصلاح، وما جاهدَ لهذه التحريفات باسم التطوّرات، إنما أراد ذلك الإصلاح الذي كان هو بنفسه قدوةً عملية ومثالا حيّا له، وهو الجمع بين العلم والربانية، والوعي والورع، والقديم الصالح والجديد النافع، والفصل بين الغالي والجافي، والجامد والجاحد.

فما حصلَ في هذه المدارس في الأيام الأخيرة، لم يرجع فضله- إن كان له فضل- إلى هؤلاء الأعلام والمصلحين الخالدين، أمثال الشيخ نور محمد الأعظمي، والخطيب عبيد الحق، والشيخ مولانا محيي الدين خان رَحِمَهُمُ اللهُ وغيرهم، وإنما هو قضاءٌ قضى الله عليها، وغياب رجل غيورٍ على دينه وإيمانه في هذه الساحة، حتى جاءت هذه الكارثة، وفعلتْ فعلتها، وقد قضى الشيخ أيامه الأخيرة في «إدارة المعارف» التي كانت تعدّ من طليعة مراكز البحوث والدراسات الإسلامية في ذلك العصر، والتي نشأَت تحت مظلّة الجامعة الإمدادية بـ«فريدآباد» بإشراف الشيخ الفريدبوري، إلا أنها بعد فترةٍ توقّف عملها، وأُغلق بابها، وبقيت كثير من أحلام الشيخ الأعظمي لم تتحقّق بعد.

عنايته بإصلاح النفس وصلته بالله

بجانب هذه الأشغال الشاقّة، وهذا الجهاد المستمرّ في سبيل التأليف والإصلاح، كانت له جبهة أخرىٰ في الحياة، وهي جبهة العبادة والرياضة، والسلوك والربّانية، فقد كان الشيخ عالما عابدا، مُصلحا مُحسنا، ولذلك منذ اللحظة الأولىٰ، ومنذ بداية السير علىٰ درب الحياة، أنشأَ علاقة بالعلماء الربانيين وراضَ نفسَه علىٰ الزهد والتقوىٰ، والورع والصلاح، وبايع الشيخ ضمير الدين، خليفة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، ولما توفي الشيخ، أنشأَ صلة بالشيخ القاضي معظم خان النظامبوري، ونالَ منه الإجازة، ثم استفاد من الشيخ ظفر أحمد العثماني، كما تدرّب علىٰ الإحسان والسلوك تحت ظلال الشيخ محمد الله الحافظجي.(١)

كان الشيخ عابدا وزاهدا في الدنيا، محافظا علىٰ الصلوات مع الجماعة، كما كان يلتزم بقيام الليل حتىٰ في أيام مرضه الأخير الذي مات فيه، وكثيرا ما كان مريضا، ضعيفا هزيلا، يعيش علىٰ الفقر والفاقة، تزوّج وظلّ في حياته الزوجية سنين، ثم تركَها وعاش وحيدا فريدا، وقد اختاره الله ١٦ أغسطس عام ١٩٧٢م، ولم يترك خلفا من نسله ودمه، ولم يترك عقارا ولا أملاكا، إلا أنه ترك تراثا علميا كبيرا ومؤلفات، ومكتبة غنية عامرة، يتوارثها الناس إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذكرا حسنا، رحم الله الشيخ الأعظمي، وقيّض من ينوب عنه في هذا الميدان، ويحقّق أحلامه ويؤدّي أمانته، ويأتي بذلك الإصلاح النافع الذي أرادَه.

---

(١) المرجع السابق، ص١٣

السيد محمد عميم الإحسان المجددي البركتي الحنفي

(١٩١١-١٩٧٤)

المفتي الأعظم، سلطان العلماء، معجزة الفقهاء

بداية مرحلة جديدة في تاريخ البنغال العلمي

في ٢٤ من يناير عام ١٩١١ للميلاد، قرية «باتشنا» بمحافظة «مونجر» من ولاية «بيهار» الهندية، أنجبت كوكبا عظيما، وإنسانا فريدا في التاريخ، وعبقريا من عباقرة الدهر، وعلما من أعلام الدنيا في القرون المتأخرة، وآية من آيات الله في العلم والفقه، والكتابة والتأليف، ومعجزةً من معجزات السلالة المحمدية في القرن الرابع عشر الهجري، بلغَ من العلوم والمعارف شأوا بعيدا، بل أصبح في بعضها إماما ومرجعا، وألف مؤلفات لتنوء بها عصبة من العلماء وصناديد الرجال، وقد لا نبالغ عندما نقول: إنه لو عرفه قومه، لكان له شأنٌ لا يقلّ عن شأن العلماء الأعلام في التاريخ، أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، ولو عرفَه العالم العربي حق المعرفة، ورأىٰ ما كتبَه، لعكفَ عليه، ولكان له شأن مثل شأن الأمير صديق حسن خان القنوجي رحمه الله، إلا أنه ظلّ في أطمار النسيان، ومنطويا علىٰ نفسه، وظلّت مآثره العلمية الخالدة علىٰ طريق الضياع، بعضها قد ضاعتْ، وبعضها تنتظر الضياعَ، إنه بطل قصّتنا في هذه الصفحات، إنه المفتي الأعظم، وصدر المدرّسين، وسلطان العلماء، ومعجزة الفقهاء والمجتهدين في القرن الماضي، الشيخ الرباني، العلامة السيد محمد عميم الإحسان المجدّدي النقشبندي البركتي الحنفي رحمه الله.(١)

---

(١) ينتهي نسبه إلى النبي ﷺ، فهو غصن من شجرة آل بيت المصطفى، ولذلك عُرف بـ"نجيب الطرفين"، وكان يستخدم كلمة "السيد" قبل اسمه، مقال محمد سخاوت حسين، جريدة "الانقلاب" اليومية، ٢٨ أكتوبر، ٢٠١٦م.

فماذا كانت قصّة هذا الإنسان؟ وماذا وجه الغفلة أو الجهالة، التي نالها من قبل قومه؟ هلمّ بنا ننظر في حياته بجوانبها المتعددة، في السطور التالية:

نبتة صغيرة تنبت في ظل عناية كبيرة

بدأ عميم الإحسان دراسته بالقرآن الكريم عند والده الشيخ المولوي السيد عبد المنان، وعمّه السيد عبد الديّان، ثم تعلّم اللغات، وهي مفتاح العلوم، والنافذة إلى عالم الكتب والمؤلفات، فتعلّم الأردية والفارسية والعربية والإنجليزية، واستفادَ من عمّه كثيرا الذي كان معروفا بالعلم والثقافة، وقرأ على الشيخ السيد بركت علي شاه ترجمة القرآن الكريم، والنحو والصرف، والتفسير والحديث، والتصوّف، والأدب الفارسي، وهو ابن عشر سنين، ثم أتقن العربية على يد الشيخ عبد المجيد المرادآبادي، وهكذا قوّم هؤلاء لسانه، وأمدوه بثروة لغوية هائلة كانت خير عون له في دعوته وإصلاحه.[1]

ثم بدأ رحلته إلى خارج المدارس الشخصية، ومجالس الشيوخ، وحلقات العلماء، فوصلَ إلى كلكتا، ودخلَ في رحاب المدرسة العالية عام ١٩٢٦م، وظلّ فيها زهاء سبع سنواتٍ، يدرس التفسير والحديث، ويكمل الكتب الستة دراسة وفهما، كما يقرأ الفقه وأصوله، والسير والتاريخ، ويواصل ليله بنهاره وصباحه بمسائه، ويدرس إلى ساعة متأخرة من الليل في مكتبة المدرسة العالية، حتى تخرّج منها عام ١٩٣٣م، ونالَ لقب «ممتاز المحدّثين»، وكان له إلمامٌ كبير بعلم الفلك، والحساب والرياضيات، وعلم المواقيت، ساعده ذلك على إنجاز مهمّة كبيرة في تاريخ وطنه، سنذكرها في موطنها بإذن الله، كما أخذ الفقه من الشيخ المفتي مشتاق أحمد الكانبوري، ونال منه الإجازةَ.[2]

ومضات من حياته العلمية والعملية

بعدَ أن أخذ العلم واستكمل الدراسة هبّ ينشره ويبثّه، فأقام حلقات علمية في بيته، وأقبل عليه الطلّاب، حتى تحوّل البيت إلى مدرسة، ومركز علمي كبير، ثم بعد فترةٍ تولّى التدريس في مدرسة تابعة لـ«جامع ناخدا» بكلكتا، كما تولّى الإمامة والخطابة والإفتاء في الجامع، فبدأ يدرّس ويخطب، ويلقي المحاضرات وينصح، ويفتي ويؤلف، ويكتب ويجيب على كل مسألة، ويحلّ كل عقدة، حتى انبهر الناس

(١) انظر مقدمة كتاب ميزان الأخبار في مصطلح أهل الأثر، ص٢١-٢٢

(٢) انظر عيد ميلاد النبي والاحتفال به: حفلة نورانية في ضوء الكتاب والسنة، تأليف السيد محمد صفوان النعماني والسيد محمد نعيم الإحسان البركتي (الطبعة الثانية ٢٠١٢م) ص١٨٣

بسحر كلامه، وقوّة حججه، وروعة بيانه، وندرة أسلوبه في الإفتاء والإجابة، فطار صيته، وطبّقت شهرته الآفاق، وتحوّل إلى محطّة الطلاب، وملتقى الناس، ومجمع اللغات والآداب، ومركز البحوث والدراسات، ومجلس الفقه والإفتاء، ولُقّب «بالمفتي الأعظم»،[1] وقد بلغ عدد الفتاوى التي أصدرها في هذه الفترة أربعين ألفا! كما أعدّ فيها واحدا من أروع مؤلفاته الخالدة «فقه السنن والآثار»، وعمل كداعية للإسلام بين غير المسلمين، حتى أسلم على يديه أكثر من أربعة آلاف.[2]

ظلّ في مقرّه بـ«ناخدا» حتى جاءَ عام ١٩٤٣م، فتولّى التدريس في المدرسة العالية–المدرسة التي نشأ الشيخ في أحضانها، ورضع بلبانها، حتى تكوّنت شخصيته، ونضجتْ عقليته–فجاءها الآن مدرِّسا، يكافئها الإحسان بالإحسان، وظلّ يدرّس في المدرسة العالية حتى عام ١٩٤٧م، عندما توزّعت الهند، وظهرتْ باكستان بشقيها الشرقي والغربي، وانتقلت المدرسة العالية إلى داكا، عاصمة باكستان الشرقية (بنغلاديش حاليا)، فانتقلَ معها الشيخ، وتوطّن في هذه الدولة الجديدة، وعاشَ حياته كلّها في حضنها.[3]

عندما استقال الشيخ مولانا ظفر أحمد العثماني من رئاسة المدرسة العالية بداكا عام ١٩٥٥م، تولّى الشيخ السيد عميم الإحسان رئاستها، وظلّ في هذا المنصب أربعة عشر عاما تقريبا، ووزّع وقته أثناء هذه الفترة الكبيرة بين التدريس والتأليف، والخطابة في جامع البيت المكرم، المسجد الوطني لبنغلاديش الذي تولّى خطابته عام ١٩٦٤م على طلب ملحّ من مجلس الإدارة، وظل في منصبه إلى عام ١٩٧٤م،[4] فكان يدرّس صحيح البخاري في المدرسة، ويخطب في الجامع الوطني، ويكتب ويؤلّف بقية الأوقات، حتى جاء عام ١٩٦٩م، فتركَ الشيخ المدرسةَ، ودخلَ في البيت، وأغلق عليه الباب، وتفرّغ للتأليف والكتابة.

قلم لا يكاد يمل من الإملاء

نعم تفرّغ للكتابة، وقد خُلقَ عليها، وجُبل على العيش مع الكتب، والاستخراج منها، وجمعها وشرحها، والتعليق عليها، واستمداد فوائدها، وقد تأثّر كثيرا بمجدد الألف الثاني الإمام أحمد

(١) انظر ترجمته في مقدمة كتاب أدب المفتي، بتحقيق وتعليق محمد عادل أيوب

(٢) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ.ف.م أمين الحق ص٦٦-٦٧

(٣) فقه السنن والآثار، ج١، ص٢٤-٢٥ (مطبوع دار الكتب العلمية)

(٤) السراج المنير (البنغالية)، ترجمة الشيخ السيد محمد نعيم الإحسان البركتي (٢٠١٢) ص٨٧

السرهندي، والإمام شاه ولي الله الدهلوي، فسارَ على منهجهما في الدعوة والإصلاح، واستمرّ في الرحلة العلمية التي بدأها منذ مقتبل عمره إلى آخر عهده بالدنيا، وكان كاتبا مترسلا، سائل القلم في العربية والأردية، حتى أصبح عدد كتبه ورسائله يزيد على ٢٥٠ كتابا، معظمها بالعربية، التي لم ينطق بها أبوه وأمّه، ولم تنطق بها بيئته التي عاشَ فيها، لكنه أتقنها أحسن من إتقان أبنائها لها، فكان يخطب في الجامع الوطني «البيت المكرّم» بالعربية الفصحى، بعيدا عن ألفاظ السوقة، يخطب بها عفوا واستطرادا من دون أن يحفظ ويكتب، وكانت العربية تجري على لسانه وقلمه بكل سلاسة وطلاقة، تثير دهشة المستمعين، وسفراء الدول العربية المقيمين في داكا، وتترك الألسنة تمدحه وتذكره بالإعجاب والإكبار. وهو من أولئك الكتاب والمؤلفين المعدودين في العربية الذين نبغوا في هذه الدولة، النائية عن الشرق الأوسط، وعواصم العربية وحواضرها، مع ذلك سارَ قلمهم على المحجّة البيضاء من العربية، وتجرّد من الآثار العجمية والسبك الهندي إلى حدّ بعيد.

كان يكتب كل يوم مئة صفحة، ولا يقلّ ذلك عن خمسين صفحةً،[١] إلا أنه مع الأسف، معظم هذه الكتب لم تطبع، ولم تنشر منها إلا ما يقرب من ٢٧ كتابا![٢] كتبَ في التفسير والحديث، والفقه وقواعده وأصوله، والتاريخ والجغرافيا، واللغة والأدب، حتى قد لا يسع المكان للكلام فيها وذكر أسمائها بالتفصيل، إلا أننا سنقف عندها وقفات عابرة.

فمن أبرز ما كتبَ في علم التفسير وأصوله: ◊ التنوير في أصول التفسير ◊ الإتحاف بحاشية الكشّاف ◊ الإحسان الساري بتوضيح تفاسير صحيح البخاري، ومن أبرز كتبه في الحديث وعلومه وأصوله: ◊ فقه السنن والآثار (أدلة السادات الأحناف) ◊ الأربعين في الصلاة ◊ الأربعين في مواقيت الصلاة ◊ الأربعين في الصلاة على سيد المرسلين ◊ عمدة المجاني بتخريج أحاديث مكتوبات مجدد الألف الثاني ◊ تعليقات البركتي على مقدمة الدهلوي ◊ ميزان الأخبار في مصطلح أهل الأثر (كتبه كمقدّمة لفقه السنن والآثار) ◊ تحفة الأخيار بشرح ميزان الأخبار ◊ تاريخ علم الحديث ◊ حواشي السعدي على مقدمة الدهلوي ◊ تلخيص مراسيل ابن أبي حاتم ◊ فهرس أسماء المدلسين والمختلطين ◊ فهرست كنز العمال وغيرها.

أما من أبرز كتبه في الفقه وأصوله فهي: ◊ قواعد الفقه، وهو عبارة عن مجموعة خمس رسائل في

(١) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ،ف،م أمين الحق ص ٤٢٩

(٢) المرجع السابق، ص٩٧

أصول الفقه، والتي صدرت فيما بعد بشكل خمسة كتب مستقلة: (١) أصول الإمام الكرخي (٢) أصول المسائل الخلافية (٣) القواعد الفقهية (٤) التعريفات الفقهية (٥) أدب المفتي ◊ التنبيه للفقيه ◊ ما لا بدّ للفقيه ◊ الفتاوى البركتية (٢٧ مجلّدا؛ وقد ذكرها بعض المصادر في ٢٠ مجلدا) ◊ لب الأصول وغيرها، ومن كتبه في السير والتراجم: ◊ أوجز السير ◊ أنفع السير ◊ سيرة حبيب الإله (الأردية) ◊ السراج المنير (الأردية) وغيرها.

كما كتبَ في التاريخ، وأبرز اهتمامه بالتاريخ وسعة اطّلاعه عليه، فمن أبرز ما كتبه في التاريخ: ◊ تواريخ أنبياء (الأردية) ◊ تاريخ إسلام (الأردية) ◊ تاريخ علم فقه (الأردية) ◊ تاريخ علم حديث (الأردية) ◊ الحاوي في ذكر الطحاوي ◊ تعريف الفنون وحالات المصنفين ◊ النفع العميم وغيرها، كما كانت له عدة كتب في التصوّف، منها ◊ علم التصوف ◊ رساله طريقت (الأردية) ◊ التشرّف لآداب التصوّف.[١]

مؤلفاته في الميزان

تتجلى قيمة هذه الكتب ومكانتها في الأوساط العلمية من خلال أن كثيرا منها ظهر عليها أثر القبول، وقرّر تدريسها في الكليات والجامعات الحكومية، والمدارس الدينية، ومراكز العلم، داخل الدولة وخارجها، فكتبه مثلا «فقه السنن والآثار»، و«قواعد الفقه»، و«تاريخ علم الحديث»، و«التنوير في أصول التفسير»، و«تاريخ علم الفقه»، و«تاريخ علم الحديث» من أبرز إنجازات حياته، وكل منها تدرّس في الجامعات والمراكز العلمية.[٢]

كتابه «فقه السنن والآثار أدلة السادات الأحناف» من تلك الأعمال الخالدة في الفقه الحنفي التي أنجبته العقلية المسلمة في القرون المتأخرة، حتى قال عنه الشيخ حسين أحمد المدني: "لم أر مثله قبله، إنه سفر بلا نظير"،[٣] وقد عرّفه الشيخ البركتي بنفسه، فذكر في المقدمة: "فقه السنن والآثار كتاب جامع في السنن للنبي المختار ﷺ، جمعت فيه من الأدلة الحديثية على أصول الدين وفروع الأحكام، والترغيب والترهيب، والإحسان والربانية، والأذكار والاستغفار وغيرها، وهو يشتمل على الكتب

(١) فقه السنن والآثار، ج ١، ص٢٤-٢٨ (مطبوع دار الكتب العلمية)

(٢) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ،ف،م أمين الحق ص٨

(٣) عيد ميلاد النبي والاحتفال به: حفلة نورانية في ضوء الكتاب والسنة، تأليف السيد محمد صفوان النعماني والسيد محمد نعيم الإحسان البركتي (الطبعة الثانية ٢٠١٢م) ص١٨٤

والفصول..."،(١) فجاء الكتاب سجّلا قيما- بالإضافة إلى أحاديث الترغيب والترهيب- لأحاديث الأحكام التي ينبني عليها المذهب الحنفي، حتى ذكر بعض العلماء النقاد أن هذا الكتاب يعدّ أفضل كتاب للفقه الحنفي، وأوثق مرجع لإثبات صلته بالسنة النبوية، ذكر فيه أدلة الفقه الحنفي من دواوين السنة المشهورة، مع توثيقها وتخريجها، وذكر أقوال المحدثين فيها، ويعدّ بذلك «الطحاوي الثاني» في الفقه الحنفي، إلا أن الكتاب اكتفى ببيان المذهب الحنفي، ولم يتحدّث عن المذاهب الأخرى، ويتجلى ذلك من خلال عنوان الكتاب أيضا، فكلما ذكرا مسألة، أثبتها بالآثار على المذهب الحنفي، ولم يذكر المذاهب الأخرى وأدلّتها من السنة النبوية،(٢) كما قدّم هذا الكتاب بمقدّمة قيمة، غزيرة الفائدة، عظيمة النفع، في أصول الحديث، وسمّاها «ميزان الأخبار»، وقد صدرت هذه المقدمة في شكل سفر مستقل لغزارة مادتها، وعظيم نفعها.(٣)

أما كتاب «قواعد الفقه» والذي هو مجموعة خمس رسائل فقهية مفيدة للغاية، فقد كتب عنه شيخنا العلامة المفتي تقي العثماني: "إن هذه المجموعة القيمة من أنفع ما ألّف في هذا الموضوع، يوجد فيها من الفوائد المجموعة على صعيد واحد ما لا يحصل للطالب إلا بعد نخل وغربة وتنقير، وأرى أن هذا الكتاب بأن يوضع في مقررات الفقه الإسلامي في المدارس والجامعات الدينية، ويقتنيه كل من يشتغل بالفقه والإفتاء"،(٤) وقد طبعت بعض هذه الرسائل في شكل كتب مستقلة من كراتشي والقاهرة وبيروت ودمشق، ونُشرت في العالم العربي والعالم الإسلامي، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على قيمتها ومكانتها عند أهل العلم.

أكبر لغز في تاريخ العلم والعلماء

القارئ لحياة هذا الإنسان العظيم قد يعتريه القلق والاضطراب، وتتملّكه الحيرة، عندما يرى كثرة مؤلفاته، وتنوّع موضوعاتها، وتشعّب طرقها وأساليبها، وتعدّد لغاتها، فقد كتب الشيخ بالعربية، كما كتب بالفارسية والأردية، وكتبَ في أكثر الموضوعات الدينية، وجاهدَ في معظم الحلبات العلمية، من التفسير والحديث، والفقه والأصول، والسير والتراجم، والتاريخ والجغرافيا، واللغات والآداب، والتصوّف

(١) فقه السنن والآثار، ج ١، ص٣٠ (مطبوع دار الكتب العلمية)

(٢) انظر مثلا في فقه السنن والآثار، ج ١، كتاب الصلاة، ص١٨٥-١٩٢

(٣) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ.ف.م أمين الحق ص١٦٣

(٤) نقلا من مقدمة كتاب التعريفات الفقهية، للشيخ عميم الإحسان المجددي البركتي، مطبوع دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣-٤

والفلسفة، حتى أصبح درّة نفيسة في الأمة الإسلامية، وأسطورة في تاريخ شبه القارة الهندية، ثم كيف جهلَه قومُه أو تجاهلَه، ولم يعرفه وطنه، ولم يعثر كثير من الناس على هذه الأعجوبة، فضلا عن أن يدرك ثمينها، ثم يعرضها على العالم! وكيف ظلّت هذه الأسطورةُ في كهوف الضياع، وأطمار النسيان؟

إن الحق أحقّ أن يُقال، وهو أنه رغم علمه وإنجازاته، ومواهبه العلمية النادرة، قد غلب عليه القناعة والتواضع، وحب الخمول والانطواء، فلم ينل حقّه من الشهرة والتقدير، والتعظيم والتعزيز، وقد لا يقارن بالضرورة، عندما يعتزّ الشعب البنغالي خصوصا، والشعب الهندي عموما، بهذا الإنسان العظيم، بجانب الشيخ الأمير صدّيق حسن خان، ولا يضعهما في كفّتي الميزان ليزن ثقلَهما ووزنَهما، إلا أننا نكاد نكون على يقين بأنهما لو عاشا في وقتٍ واحدٍ، وفي دولة واحدة، لكانا كفرسي رهانٍ، وفي حلبة سباقٍ لا يخبو لها لهيبٌ، ولا يتوقّف فيها صهيلٌ، ولا يكلّ جوادٌ، أحدهما في معسكر أهل الحديث، والآخر في معسكر السادات الأحناف.

أسباب أثرت في غربته وحالت دون انتشاره

ليس بوسعنا في هذه المكان الضيّق أن نبحث عن الأمور التي كانت سببا في إنزال هذه الفاجعة بأهل الإسلام وبيوت العلم في هذه الدولة وخارجها، وأن نحلّل الدوافع التي كانتْ لها يدٌ وراء هذه المأساة، إلا أنه لا بدّ لنا من الإشارة إليها، ونحن في صدد بيان هذا الإنسان العظيم، وتحليل إنجازاته ومآثره العلمية الخالدة، فالسبب الأول الذي من أجله جهله وطنه، وتجاهلهُ أبناء وطنه وعلماء بلده، قد يرجع إلى اختلاف المواقف والاتجاهات، وتباين المشارب ووجهات النظر، فرغم حنفيته الخالصة في الفقه، واشتغاله بالكتب التي عليها اعتماد المذهب دراسة وتدريسا، لم يهتمّ جمهور علماء هذه الدولة- وهم في جبهة المذهب الحنفي- بهذه الدرّة النفيسة، وقد يكون السبب في ذلك هو مجرّد تباين المنبع والمنبت، واختلاف البيئة التي نشأ فيها الشيخ السيد المجددي، فقد نشأ ودرسَ في المدرسة العالية بكلكتا، ثم قضى معظم حياته في التدريس ورئاسة المدرسة العالية بداكا، على حين معظم العلماء الأعلام، وقادة الأمة في هذه الدولة يسيرون على درب دار العلوم ديوبند، ويقلدون علماءَها فكريا وعقديا، وقدوةً حسنةً في طريقهم إلى الشريعة والدعوة والإصلاح، فأصبح هذا الخلاف في الفكر والرأي حاجزا بينهم وبين بطلنا، وتوزّع الفريقان في معسكرين.

إلا أن ذلك لا يبرّر ساحتَه، ولا يحمّل العلماء وخصوصا علماء ديوبند ما لم يحملوه، فقد رأينا في تاريخ هذه الأمة مرارا وتكرار أن هذا الفارق الضئيل اضمحل أمام المصالح الدينية الكبرى، وأن العلماء

المتخرجين من المدارس العالية أصبحوا من قادة المدارس الديوبندية وأساتذتها، وأكبر مثال على ذلك خطيب الملة الشيخ عبيد الحق الجلال آبادي، والشيخ نور محمد الأعظمي، والشيخ فضل الكريم، والشيخ محيي الدين خان وغيرهم، وهم كثيرون، فالفرق على أساس المدارس والمركز العلمية، العالية والديوبندية، لم يكن سببا رئيسيا في هذه الحادثة المريرة! إذن ماذا يا ترى؟

قد يحلّ هذا اللغز العويص عندما نتعرّض لطبيعة هذا الإنسان والجبلة التي كان عليها، فالشيخ السيد المجددي رَحِمَهُ اللَّهُ كان إنسانا منطويا على نفسه، إذا صحّ التعبير، ولم يكن قياديا ورياديا، وكان يتفرّغ في معظم أوقاته للتأليف والكتابة، ويؤثر البقاء في بيته على الحضور في المجامع والمحافل، والمؤتمرات والندوات، فكانت دنياه رحاب المدرسة العالية بداكا، وحدود الجامع الوطنيّ «البيت المكرم»، ودائرة بيته.

هذا بالإضافة إلى لغته الأم، فكان الشيخ من منطقة «بيهار»، ينطق بالأردية كاللغة الأم، ولما هاجرَ إلى باكستان الشرقية (بنغلاديش) في ربيع عمره، عندما كان شابًا ناهضا، ومؤلفا قديرا، ورئيسا حكيما، إلا أنه أصبح في داكا بين قومٍ ينطقون بالبنغالية، وكان يخطب في جامع البيت المكرّم بالعربية، فكانت خطبته تُترجم قبل إلقائها إلى البنغالية في كل جمعة، وكان يفهم البنغالية فحسب، ولا يجيد نطقها، إلا أن الشيخ كان يتحسّر على ذلك، ويتمنّى لو ينطق البنغالية بالطلاقة![1] وهكذا أصبحت اللغة أكبر حاجز بينه وبين أبناء وطنه الثاني، وقد ترك وطنَه الأوّل، فنسيه ذلك الوطنُ هو الآخر، ولذلك رغم أنه خرّج عددا من العلماء الأعلام، وقبس منه بعض أعيان هذه الدولة نور العلم والمعرفة، أمثال الشيخ مولانا محمد أمين الإسلام، والشيخ مولانا محمد محيي الدين خان، والشيخ الدكتور محمد مجيب الرحمن، والشيخ الدكتور مستفيض الرحمن، والشيخ عبد المنان وغيرهم، نسيه الناس، ونسيه وطنه.

فلما جهلَه قومه، وتجاهله أبناء وطنه، كانت النتيجة الطبيعية أن يجهله العالم، ويجهله العرب، ولم ينل هذا الإنسان من عناية علماء العرب ما كان يستحقّ، وقد يحصل ذلك لبعد الديار، وحيلولة البحار وانقطاع الأخبار، إلا أن ثمة أسبابا أخرى قد عملتْ عملَها وأدّت دورَها، فاحتجبتْ مؤلفاته عن أعين علماء العرب، وظلّت بمعزل عن الجادة العربية الإسلامية التي تمرّ عليها قوافل العلم والتأليف والحركات الفكرية، وبقي هذا الإنسان منطويا على نفسه، ومن أبرزها اختلاف المذاهب الفقهية

(١) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ.ف.م أمين الحق ص ٩١

والفكرية والسلوكية، فقد كان الشيخ حنفيًا، يتقيّد بالمذهب حرفا ولفظا، يدافع عنه دراسة وتدريسا، وتأليفا وتصنيفا.

بين الشيخ المجددي وبين الأمير القنوجي

كما قلنا إن هناك خلافا كبيرا بين منهجه السلوكي وبين اتجاهات العلماء العرب، فقد كان الشيخ المجددي صوفيًا، متصلبا في التصوّف، وعلى نهج طريقة نقشبندية مجّددية، يؤمن بأسرار التصوف، ويحتفل بالمناسبات الصوفية التي قد يبتعد بها عن مناهج جمهور العلماء، وحدث عن موقف العلماء العرب من التصوف ولا حرج.

ثم إنه لم يكن أميرا من الأمراء، ولا ثريا من الأثرياء، فلم تمكنه ظروفه من نشر كتبه في وطنه أو في العالم العربي، ولا أُتيح له أن يوزّع مؤلفاته على المدارس والمؤسسات والمكتبات، بينما كان الشيخ الأمير صديق حسن خان صاحب حظّ كبير ونصيب وافر من جميع النواحي، فكان حرّا لا يتقيّد بمذهب، كما كان رجلا من بيت حاكم، ومنصب كبير، سخرها للعلم والنفع، فكانت علاقات حميمة بينه وبين علماء العرب، وكانت له جولاتٌ في الحجاز واليمن، كما كان مرفّه الحال، وصاحب أملاك وعقار، وذا ثروة هائلة، وأموال طائلة، ساعدتْه على نشر كتبه، وتوزيعها في مكتبات الهند والعالم العربي بدون أجرة ولا مقابل، حتى برزَ نجمُهُ، وعلت شهرتُهُ، وشاهد مآثره العالم وشهدَ له بالخير والصلاح، بينما ظلّت هذه الأعجوبة تحت أطلال النسيان، لا يعبأ بها أحدٌ، ولا يُرفع إليها رأس، وقد كان يستحقّ بجدارة أن يقدّم إلى العالم وأن يُفرد له كتاب، وأن يعرفه أهل العلم في العالم العربي الذين خصّ الشيخ لغتهم بتأليفه طوال حياته، وآثرها على لغات بلاده، والجزاء ينبغي أن يكون من جنس العمل.

مهما كان السبب، ظلّ هذا الإنسان مطمورا ومغمورا،[1] وقد حان الآن أوانُ تجليته وإظهاره، وعرضه أولا على قومه، وأبناء وطنه، ثم على العالم العربي، وهو يستحقّ ذلك بكل جدارةٍ، وهذا الذي كل ما نستطيعه الآن، بل نراه واجبا محتوما علينا، وكل تأخير في أداء هذا الواجب لهو تقصير في حق هذا الإنسان العَلَم العملاق، الذي وهبَ حياته للدين والأمة، والعلم والمعرفة، فقد كان عالما عابدا، ومؤلفا ربّانيا، وصاحب مكانة كبيرة بين الأعلام المحسنين، والمشايخ الصالحين، وخليفةً مُجازا من عمه

(١) لا يعني ذلك أبدا أنه لم ينل شيئا من الاعتراف والتقدير في حياته أو بعد وفاته، فقد تحدّث عنه العلماء بعد وفاته، وانتشرت بحوثٌ ودراساتٌ ومقالات حول حياته وإنجازاته، باللغة البنغالية والأردية والعربية، كما أعلنت جوائز في حقه، إلا أن ذلك لم يوفه حقّه، ولم ينل ما يناله مثله في العالم العربي أو الأوربي، من الشكر والتقدير، والتقويم والتقديم.

الشيخ السيد شاه عبد الديان البركتي، خليفة الشيخ السيد بركت علي شاه، في التزكية والسلوك، حتى عُرف بـ«البركتي»،[1] وكان محافظا على الصلوات الخمس بالجماعة، ومهتما بالنوافل، فلا يفوته قيام الليل، والأوراد المأثورة عقب الصلاة، وتلاوة القرآن يوميا، وحدّث ولا حرج عن علمه وسعة اطلاعه، وتضلّعه من العلوم الإسلامية في حلباتها المختلفة، وقدرته النادرة على الكتابة والتأليف، رحم الله الشيخ السيد المجددي، وقيّض من يقوم بواجب تعريفه بأبناء وطنه، وأبناء المسلمين في العالم الإسلامي بوجه عام، وفي العالم العربي بوجه خاصّ.

موقفه من السياسة والدولة

كتب الشيخ عميم الإحسان التاريخ، تاريخ الحكم والسياسة، وتاريخ السلطة والقيادة، والخلافة الإسلامية، والملوك والسلاطين، وشاهدَ بأم عينيه الاضطرابات السياسية، والتقلّبات في تاريخ شبه القارة الهندية، وحوادث المحن، ووقائع المصائب، بدءا من عهد الإنجليز، وحركات التحرير، وظهور باكستان، ثم انفصال شرقها عن غربها، وظهور دولة جديدة باسم بنغلاديش، شاهد كل ذلك بعينيه، إلا أنه لم يخض غمارها، ولم ينزل في الساحة، ولم يعمل عملا في هذا الميدان، مع استثناء بسيط لا يكاد يُذكر: فقد روى البعض أن الشيخ أيّد فكرة إنشاء باكستان، وأصدر الفتاوى لصالح محمد علي جناح رئيس «الرابطة المسلمة»، عندما أفتى الشيخ المفتي كفايت الله بأنه شيعيّ، فلا يجوز لأهل السنة الانضمام تحت لوائه، هنا نهض الشيخ عميم الإحسان وردّ على الشيخ كفايت الله، وأجازَ قيادة جناح وإطاعته، ولما نشبت الحرب بين باكستان وبنغلاديش ظلّ محايدا، وفوق جميع النقاش والإثارات والشبهات.

لعل سبب انطوائه على النفس وانزوائه داخل البيت يرجع إلى فطرته، فقد كان رجلا هادئا في طبيعته، وأخذ الكتابة والتأليف وسيلة من وسائل الدعوة والإصلاح، والشهادة والأمانة، فاكتفى به ولم يقبل على السياسة، ولم يتحيّز إلى فئة، ولم يتعصّب لجماعة، بل ظل يؤدي الأمانة إلى أهلها، ويأتي بالشهادة على وجهها، في صمت وهدوء، وعزلة وانطواء، وقد ساعده ذلك على إنتاجه العلمي، وبحثه ودراسته، وأعماله الفكرية، إلا أنه في ذات الوقت أحدث خللا كبيرا في هذه الشخصية الكبيرة، فالإسلام دين كامل، وشريعة شاملة، فيه عبادة وسياسة، وإحسان وقيادة، وصلاة وجهاد، فلم يستفد منه شعبه كثيرا في مشاكله السياسية والقيادية، ولم يستفد من توجيهاته في الظروف الحرجة، ومن هنا

(١) انظر مقدمة كتاب ميزان الأخبار في مصطلح أهل الأثر، للشيخ عميم الإحسان المجددي، ص٢٥

اقتصرت أكثر خدماته على الكتابة والتأليف، وفي مجال الكفاح العقلي والمعرفي، ولم تبرز في عالم الواقع.

لعل ذلك كان منهجا وخريطة عمل أخذها الشيخ في حياته، وكان يرى أن أئمة المساجد والعلماء ينبغي لهم أن يكونوا فوق الخلافات السياسية، والفكرية، والانتماء إلى المذاهب والمدارس العقلانية، حتى يكون عملهم حرّا طليقا، وتكون خدماتهم تجاه شعبهم ودينهم عامّة مفتوحة،[1] مع ذلك أنشأ مؤسسات، وبنى مساجد ومراكز علمية، وزوايا السلوك والإحسان، بجانب أعماله الكتابية وجهوده التأليفية، وهذه كلها إن دلت على شيء فهي تدل على عبقرية هذا الإنسان ودوره التجديدي في تاريخ الإسلام عموما، وتاريخ هذه الدولة خصوصا.

بين العالم الفقيه والعابد الصوفي

كان قليل الكلام، عابدا وزاهدا، لا يدرّس الحديث إلا وهو على الوضوء، وكان لا يفشي سر من عاداه، ويعفو ويصفح عمن ظلمه، فلا يذمّ أحدا ولا يغتاب، ولا ينتقد نقدا لاذعا، ولا يذكر أحدا بالسوء، وكان مثالا حيّا لقول الله تعالى ﴿وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، وكان له رأي فقهي خاصّ به، لعله تأثر فيه بطريقته الصوفية، فكان يرى الاحتفال بالمولد النبوي، وببعض المناسبات التي اختلف العلماء فيها، ونص الكثير على إنكارها والتحذير منها على أنها بدع، لكن الشيخ كان يجيزها، ويدعو إليها، ويدافع -مثلا- عن الاحتفال بالمولد، في الكتب والمحاضرات، ويشارك بنفسه في مثل هذه الاحتفالات، ويقوم أثناء الصلاة على النبيّ ﷺ تكريما له، وفق طريقة صوفية،[2] ويلتزم بالعمامة، ولا يحبّ الغلوّ والتنطّع في الدين، وكانت فطرته السليمة بعيدة عن الإفراط والتفريط، وقد عاش طيلة حياته على مذاهب السادات الصوفية، ومشاربهم ومصطلحاتهم، وأذواقهم وتعابيرهم، مطالعة وممارسةً.

(١) المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ،ف،م أمين الحق ص٣٥٧

(٢) انظر كتابه السراج المنير في الاحتفال بميلادي النبي(البنغالية)، (وهو مجموعة من الدلائل التي استدل بها الشيخ البركتي على جواز الاحتفال بالمولد، بمجموعة من الأبيات والقصائد التي تُتلى في احتفالات المولد، كتبها بنفسه) ومقدمة المترجم له، وهو يتحدّث عن حب الشيخ البركتي للاحتفال بمولد النبي ﷺ والصلاة الجماعية عليه في مناسبات شتى.

مولانا عبد الحميد خان البهاشاني

(١٨٨٥-١٩٧٦)

العالم المجاهد الباسل، رائد السياسة الإنسانية

"لولا هذا الإنسان، لما كانت هذه الدولة، ولما كانتْ رايتها خفّاقة ترفرف على أرضها، وتتغنّى بمجد حريتها واستقلالها في الدنيا كلها، فلن يكون تاريخ هذه الدولة تاريخا مكتملا بدون هذا البطل، فهو جزءٌ من تاريخها، بل هو أهمّ عناصرها وأركانها، و"كان هذا الإنسان لبنغلاديش، كما كان المهاتما غاندي للهند"- هكذا عرّف المؤرخون هذا الإنسان العظيم بقراء هذه الدولة، وبأجيالها الناشئة الحديثة، التي لا تعرف ماضيها، ولا الأبطال الحقيقيين لتاريخها، حتى كادتْ تنقطع صلتها عن جذورها، إنه العالم المجاهد، والسياسي الكبير، ومؤسس «رابطة العوام»، الحزب الحاكم اليوم للدولة، ومربّي قادة التحرير، وأعلام الحكم، ورائد السياسة الإنسانية، والمناضل الأسطوري لحركة المزارعين، ومتحدّث باسم الفقراء والعوامّ، وأوّل مؤسس لهذه الدولة، الشيخ مولانا عبد الحميد خان البهاشاني، المعروف بـ«القائد المظلوم».

لقد صدق المؤرخون الذين عرّفوا هذا الإنسان بالمجتمع المعاصر، وعرضوه على الشعب الحاضر بهذه الجرأة الصادقة والتعبير الأمين، بلا مبالغة ولا إجحاف، في حين كاد أن يضيع هذا الإنسان بين دسائس الحكومة وخدعات الأوساط المثقّفة العلمانية، وإهمال الأوساط الدينية، فقد كان هذا الرجل أوّل من رفعَ صوته ضدّ باكستان الغربية، وقرأ عليها "سلام الوداع" في خمسينيات القرن الماضي، بعد نشوء باكستان بسنوات، في شبابها وعزّها، كما قام بدورٍ رياديّ في حركة اللغة البنغالية، وهو الذي كوّن أحزابا أدّت دورا كبيرا في تحرير هذا البلد، وهو الذي ربّى أعلام السياسية وقادة الرجال، الذين استغلوه وفاقوه فيما بعد في القوّة والانتشار، وأصبحوا أهمّ عناصر الحرية، واضمحل دوره.

ميلاده المتواضع

وُلد عبد الحميد في محافظة «سراج غنج» عام ١٨٨٥م[1] في أسرة زراعية، رقيقة الحال، فقد كان أبوه مزارعًا، فشاهد محن المزارعين، ومعاناة الناس، وهم جمهور الشعب الذين يعيشون على حاشية الحياة، وعلى هامش المجتمع، وقد كان لهذه البيئة أثر كبير في حياته وتكوين عقليته ومستقبله، وتحديد مجال عمله ومصيره السياسي والقيادي.[2]

في رحاب دار العلوم ديوبند

فقد والدَيه وإخوانه في طفولته، ونشأ تحت ظلّ عمه، ودخلَ في مدرسة بـ«سراج غنج»، ثم تعرّف على الشيخ المرشد ناصر الدين شاه البغدادي، وقضى معه فترةً من حياته، ونشأ على يده وعلمه وربانيته، ثم سافرَ إلى الهند، ودخلَ في دار العلوم ديوبند عام ١٩٠٧م، وتربّى تحت رعاية أساتذة العلم وأساطين السياسة والقيادة طوال عامين، وكان على رأسهم شيخ الهند محمود حسن الديوبندي والشيخ حسين أحمد المدني وغيرهما، وفي أثناء إقامته في رحاب ديوبند، مقرّ عمل العلماء، وساحة جهادهم، شاهد الشابّ عبد الحميد حركات التحرير، واكتوى بنارها، وأحسّ بحرارتها في قلبه، فكانتْ جامعة ديوبند نقطة انطلاقه في عالم السياسة والحركة والقيادة.[3]

نزل في ساحة السياسة منذ وقت مبكر

بدأ حياته بالتدريس في بعض المدارس الدينية، إلا أن الروح التي نشأت على الحركات والجهاد، وشاهدتْ معاناة الناس، لم تكن لتستقرّ في الدائرة المدرسية الضيّقة، ولتطمئنّ إلى تدريس بعض الطلاب، لا تعرف مصيرهم وهدفَهم، ثم تتغافل عما يجري حولها، وما يخفي لها مستقبلها، من هنا هاجر هذا الميدان لغيره، ونزلَ في ساحة النزال، فشارك في «المؤتمر الهندي» عام ١٩١٩م، كما شاركَ في «حركة الخلافة» عام ١٩٢١م، وكانت الهند آنذاك تهتزّ بحركة الخلافة، وترفع صوتَها للدفاع عن الخلافة

(١) ذكر أ.ن.م. عبد السبحان في قائد القرن: مولانا البهاشاني ص١٥ أن المشهور من تاريخ ميلاده هو ١٨٨٠م، بينما ذكر مؤلف مولانا البهاشاني براثا جسيم أن معظم الباحثين يرون تاريخ ميلاده عام ١٨٨٥م، لكن هناك من يذكره ١٨٨٠م، وهو على أساس ما سجّل في جواز سفره، ص٩

(٢) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٧٩

(٣) محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري ص٨٥، ودور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص ٧٩، وانظر دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله ص١٧٩، وكذلك مولانا البهاشاني: القائد المظلوم، تأليف أبو جعفر مصطفى صادق، ص١٠

الإسلامية في تركيا، وتردّ على موقف بريطانيا من الخلافة، فتعرّف عبد الحميد على الشيخ محمّد علي، قائد حركة الخلافة، وعملَ معه جنبا إلى جنب، حتى هاجت الحكومة ضد عبد الحميد، وزجّت به مع أصحابه في السجن.[1]

لما فترت حركة الخلافة منذ ١٩٢٣م، أعارَ الشيخ اهتمامَه بعوام الناس في منطقة آسام والبنغال، وأهل الزراعة والمهنة، وفي عام ١٩٢٤م أطلق «حركة المزارعين» من خلال مؤتمر تاريخي لمزارعي البنغال وآسام، وبدأ يوقظ الناس على حقوقهم، ويواسيهم، وينعشهم من جديد، ويجمعهم على رصيف واحد، وعلى قاعدة صامدة، ليدافعوا عن كيانهم ضدّ الاحتلال والاستبداد، وليحافظوا على وجودهم، وليستردّوا حقوقَهم من الإقطاعيين وملاك الأراضي الهندوس، ويمنعهم من أن يتلاشوا في المجتمع الوثني العنيد، فظلّ يجلس معهم، ويتحدّث إليهم، ويدافع عنهم، حتى إلى ظهور باكستان.[2]

مع «الرابطة المسلمة»، ودوره في إنشاء باكستان

في عام ١٩٣٠م ترك البهاشاني «المؤتمر»، ودخلَ في «الرابطة المسلمة» على طلب وإصرار من زعيم الرابطة محمد علي جناح، المعروف بالقائد الأعظم،[3] ولا أدري أين تكمن عظمته، وقام عبد الحميد بدوري ريادي في الرابطة،[4] حتى أصبح رئيس الرابطة في منطقة آسام عام ١٩٣٧م،[5] ولما جاء عام ١٩٤٧م وانفصلتْ باكستان بشقّيها عن الهند، وظلّت «سلهت» في البنغال على اضطراب وتذبذب بين الحركات والدعوات، قام البهاشاني بدور كبير في تلك الفترة الدقيقة، ودعا الناس إلى تأييد إنشاء باكستان والانضواء تحت لوائها، وبيّن لهم فوائد دولة إسلامية مستقلّة، ووعدَ لهم بتحقيق مستقبل حالم تحت ظلّ دولةٍ تقوم على الكتاب والسنّة، وعمل مَعه من عمل مِن العلماء الكبار في الجبهة نفسها، حتى ذهب الرأي العام إلى باكستان، وانفصلتْ «سلهت» عن الهند.[6]

في عام ١٩٤٨م اختير البهاشاني عضوا في المجلس التشريعي بباكستان الشرقية من منطقة

(١) سيرة وسياسة مولانا البهاشاني، تأليف أمجاد حسين، ص١٥

(٢) المرجع السابق، ص١٦ وما بعدها

(٣) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٨٣

(٤) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص ١١٠

(٥) مولانا البهاشاني، تأليف شاه جهان ساجو، ص٢١

(٦) قائد القرن مولانا البهاشاني، تأليف أ.ن.م. عبد السبحان، ص٥٣ وما بعدها

«تانغائيل»، وبدأ يعمل ويدلي بدلوه تحت مظلّة الرابطة، لكن بعد فترةٍ اكتشف الشيخ أن الرابطة أخلفتْ في عهودها، بل كانت أخلف من عرقوب، وخانت سكّان البنغال التي انضوتْ تحت لوائها بصدق وإخلاص، وارتضتْ لنفسها أن تكون جزءا من دولة جديدة، فتتنعّم بكل ما تنعم به غربُها، إلا أنه انكشف بعد فترة أن السلطة الحاكمة بدأت تمدّ يد الظالم إلى الشرق، وتبخسه حقّه في العلم والمعرفة، والثقافة والمدنية، والسياسة والقيادة، والمصالح العامة ومرافق الدولة، فنهضَ الشيخ على خيبة الأمل، وقطعَ جميع صلته بالرابطة، لأن السياسة والكرسي لم تكن هدفه، وإنما هدفه هو الإنسان، ووطنه وأبناؤه.

قصة ميلاد «رابطة العوام» والمصير الذي صارتْ إليه اليوم

لما جاءَ عام ١٩٤٩م جاءتْ نقطة تحوّل في تاريخ هذه الدولة السياسي، ففي هذا العام نشأ على يد عالم ديوبندي، وقائد إسلامي، حزبٌ قام بأبرز دور في تاريخ هذه الدولة، وفي سبيل تحريرها واستقلالها، وهي لا تزال أكبر وأقوى حزب سياسي في بنغلاديش، وهي التي بيدها الآن زمام الحكومة، ومقاليد الحكم، وهي قصة ميلاد «رابطة العوام المسلمة».(١)

إلا أن الحزبَ انحرفَ عن جادّته، وحادَ عن دربه، على مرّ الأيام، وفي مراحل مختلفة من حياته وتاريخه، ومن هنا الحزب الذي وُلد على يد عالم ديني، ومتخرّج من مدرسة ديوبند، ونشأ تحت ظل قائد إسلامي، أصبحَ مع الأيام يفقد لمعانَه وضوءَه، ويقطع الإسلام من جسمه، حتى أصبح «رابطة العوام» بلا إسلام ولا إيمان، بل أصبح من ألدّ أعداء الدين، والخصم الأول للعلماء، وحجر عثرة في سبيل الإسلام والمسلمين، وأصبح عرين العلمانية، وحصنا حصينا للإلحاد، والشيوعية والاشتراكية، حتى وجدَت جميع المذاهب والتيارات المخالفة للإسلام، وجدتْ في هذا الحزب أمنَها وأمانَها، واطمئنانها واستقرارَها، وهذه كلها حصلتْ عندما انقطعتْ صلتها بالغاية التي خُلقت من أجلها، وهي الدفاع عن حقوق المسلمين السياسية في هذه الدولة، وتلطّخت في وحل العلمانية، فكان انقطاعا عن أصلها، ونوعا من العقوق ونكران الجميل، والجزاء من جنس الأفعال، كما أن الشيخ البهاشاني نفسه وعقليته "العلمانية الاشتراكية"– إن صح التعبير– هي الأخرى مسؤولة عن حذف كلمة «الإسلام» من اسم «الرابطة»، وإسقاط الدين من صميمها، وعن هذا المصير المؤسف الذي صارتْ إليه الرابطة.

ثم حصل الخلاف بين البهاشاني وقادة الرابطة، فتركَ الشيخ «رابطة العوام» التي أسّسها وكان

(١) انظر مقدمة ٢٠١٢ Moulana Bhashani Leader of the Toiling Masses, Edit. Anisuzzaman Chowdhury

رئيسها منذ ولادتها، وأنشأ حزبا جديدا يحمل اسم «الحزب الوطني لرابطة العوام» عام ١٩٥٧م، لكن لما جاءَ عام ١٩٦٧م، توزّع حزبه الوطني على جبهتين، جبهة توالي الصين وقائدها الشيخ البهاشاني بنفسه، وجبهة توالي روسيا تحت قيادة مظفر أحمد، وظلّ يجتهد ويجاهد تحت مظلّة الحزب الوطني المعروف «بالجبهة الصينية»، حتى توزعت الجبهتان على جبهات، وذهب قادتها طرائق قددا.

تحديد مكانته في تاريخنا

لقد أدّى هذا الإنسان دورا أسطوريا في تاريخ شبه القارة الهندية بعمومها، حتى أصبح رمزا فريدا في الحركات الدينية، والسياسية والثقافية، والجهاد من أجل سواد الأمة، والناس من الطبقات الدنيا، وأصحاب الحرف والمهن، الذين أهملتهم معظم الأحزاب والقادة، فكان موضع أمل، ومصدر حلم للعوام، وخاصة للمزارعين، لأول مرّة في التاريخ، وأحبّه الناس، وكانوا يدعونه بـ«حضور البهاشاني»، كما كان منبع الجهاد من أجل التحرير والاستقلال، خاض غمار حركات التحرير في عهد الاحتلال وهو طالبٌ مدرسيّ، ودخلَ في السجن، ثم شاركَ في المؤتمر الهندي، وقاد حركاته، ودخلَ في السجن مرة أخرى، ثم بدأ حركة المزارعين، ورفعَ صوتَه ضدّ الإقطاعين، حتى تعرّض لمحاولات الاغتيال مرارا، ووقفَ في نهاية ستينيات القرن الماضي بجانب «الشّيْخ» مجيب الرحمن، وأيّده في السرّ والعلانية، كما قام بدور ريادي في حركة اللغة، ودخلَ في السجن لمدة ستة عشر شهرا، وكان له دورٌ كبير في إنشاء «مجمع اللغة البنغالية».(١)

كان الشيخ البهاشاني أول من يعلن تحرير بنغلاديش، قبل الرئيس مجيب الرحمن بسنوات طويلة،(٢) فكان أوّل من قرأَ سلام الوداع على الحكومة الباكستانية الغربية، وأشارَ إلى تحرير بنغلاديش في مدّة قريبة، في مؤتمر «كاغ ماري» التاريخي عام ١٩٥٧م، أمام قادة العالم،(٣) ثم لما نشبت حرب التحرير، رغم أنه لم يحمل السلام على كتفه، لكبر سنّه، وضعف جسمه، وفتور قوّته، إلا أنه قامَ بدورٍ ريادي في تشكيل الحكومة المؤقتة أثناء الحرب، بل كان رئيس المجلس الاستشاري لها، واتصّل برؤساء الدول الكبرى، وراسلَ قادتَها، وجلبَ تأييدهم واعترافَهم بدولة جديدة.(٤)

ولا يزال السادس عشر من مايو يذكّرنا بدور هذا البطل الإنساني عام ١٩٧٦م، عندما قادَ مسيرةً تاريخية فريدةً إلى سدّ «فاركّا»، دفاعا عن الوطن، وردّا على العدوان الهندي على مياهه، وهو

(١) صفحات من حياة مولانا البهاشاني: معلومة ومجهولة، تأليف عبد الحي سيكدار، ص٩٢ وما بعدها

(٢) صفحات من حياة مولانا البهاشاني: معلومة ومجهولة، تأليف عبد الحي سيكدار، ص٢٣ وما بعدها، وكذلك مولانا البهاشاني، تأليف براتيا جسيم، ص٤٣

(٣) مولانا البهاشاني: القائد المظلوم، تأليف أبو جعفر مصطفى صادق، ص٣١

(٤) اقرأ تفاصيلها في البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٦٥ وما بعدها

شيخٌ مسنّ، لا يكاد جسمه تحمله قدماه.

فلا غرو أنه لو وُلد هذا الإنسان في أمريكا لكان أبا الأمريكان، ولو ولد في تركيا لكان أبا الأتراك، ولو وُلد في الهند لكان غاندي، إلا أنه وُلد لسوء حظّه في البنغال، ولا تسأل عن طبيعة المنطقة البنغالية في التعامل مع أبنائها، ومن ثَمّ فلم يعرفه وطنه، ولم يعترف به أبناء وطنه، الإنسان الذي وهب حياته لخدمة بلاده وأمته، وقضى ليلَه ونهارَه كلَّها في سبيل تحرير الوطن واستقلاله، وطافَ في القرى والأرياف ليتحسّس أحوال الناس ويصلح شؤونَهم، ويحل مشكلاتهم، ويعيش حياتهم وقضاياهم، ورفع صوتَه ضد الطواغيت الظلمة في مواطن كثيرة، ودخلَ في السجن مرارا وتكرارا.

وهو الذي ربّى قادة هذه البلاد، ونشّأَ سادتَها، وجعل لهم مكانا في السيادة والقيادة، ولم يبنِ لنفسه بيتا، ولم يرفع قصرا، بل ظلّ طوال حياته يلبس ثوبا رقيقا وإزارا رخيصا، ويسافرَ بها إلى أوربا وإلى الصين، ويلتقي مع الرؤساء الكبار، كم من الفقير أصبح غنيا مستغلا اسمه، أما هو فقد ظلّ فقيرا، ومن هنا من يدرس شخصيته، يجدها نموذجا إنسانيا ساميا، رقيق الشعور، وقوي العاطفة، وعالما يستوفي شروط عالم مثالي، ووارث الأنبياء.

بصمته في التعليم والعمل الإنساني

بالإضافة إلى تفرّغه للسياسة وميدان القيادة، كتبَ عدة كتب في السياسة والاجتماع، ومحاربة الفساد والظلم، والحث على الإصلاح، ونشر دعوته الاجتماعية والسياسية، ومن أبرزها: ٥ تاريخ من الأيام الخالية (١٩٧٠م) ٥ في بلاد ماو تسي تونغ (١٩٦٣م) ٥ لماذا الجامعة الإسلامية (١٩٧٠م) ٥ مثال لنقض رابطة العوام عهودها (١٩٧٢م) ٥ الربانية: تعريفها وأهدافها (١٩٧٤م) ٥ كونوا ربانيين (١٩٧٥م)، كما أصدر صحيفة «كلمة الحق» الأسبوعية السياسية والدينية والاجتماعية عام ١٩٧٢م،[1] وكانت نواة جريدة «الاتفاق» اليومية الشهيرة على يده عام ١٩٤٩م.[2]

جاهدَ في الإصلاح ونشر المعرفة والثقافة، فأنشأَ مدارس وكليات، ومؤسسات علمية وإنسانية في

(١) إلا أن بدايتها كانت في مستهل أربعينيات القرن الماضي من منطقة آسام، فمنع نشرها الاستعمار، ثم ظهرتْ مرة أخرى في العصر الباكستاني، ومنعتها حكومة أيوب خان، ثم استؤنف نشرها بعد استقلال بنغلاديش، فمنعتها حكومة مجيب الرحمن! انظر مقدمة المجموعة الكاملة لصحيفة حق كوتها (كلمة الحق) الأسبوعية، جمع وترتيب أبو سالك (٢٠٠٦م)

(٢) مولانا البهاشاني: القائد المظلوم، تأليف أبو جعفر مصطفى صادق، ص٢٥، وقد ظهرت على يده صحف ومجلات أخرى في مراحل مختلفة، انظر قائمة لها في كتاب مولانا البهاشاني، تأليف شاه جهان ساجو ص٦٠ و٦١

كثير من مناطق البنغال وآسام، وقد أنشأَ في آسام زهاء ثلاثين مركزا علميا، كما أنشأَ في منطقته كلية للتعليم المهني، ودورا للأيتام والأطفال، وأسّس «الجامعة الإسلامية» بـ«سانتوش» وأنشأَ تبعا لها كثيرا من الكليات والمؤسسات، وقد تحوّلت الجامعة الإسلامية للأسف إلى «جامعة سانتوش للعلوم والتكنولوجيا»، وكان له اهتمام كبير بتعليم المرأة.

في نهاية الحياة لما بدأ الشيخ تصفية حسابه، أحس بأن جهوده السياسية عبر خمسين عاما لم تعطه ثمارها، وأن تقلباته بين الأحزاب، وتغييره للطرق والأسباب، والعناوين والألوية، لم تمنحه شيئا يُذكر، وأن السياسة الراهنة بكل طرقها العلمانية والديمقراطية والاشتراكية أو الجمع بينها كلها، لن تحقق أحلامه، فرأ عليها سلام الوداع، ونفضَ يده عن السياسة تماما، وبدأ يفكّر في تحقيق حلمه — وهو العمل من أجل العوام- عن طريق غير سياسي، فكوّن جمعية اجتماعية إنسانية باسم «خدائي خدمتغار» (خدمة الخلق للخالق) عام ١٩٧٦م، وقد جاهدَ طوال حياته للناس ولخدمة الخلق، وبعد فترةٍ يسيرة اختاره الله تعالى إليه في نفس العام.[1]

كيف كافأه شعبه؟

لم يشكره شعبه، ولم يقدّر جهودَه، ولم تبال بها الحكومات، ولم تعره السلطات اهتماما، ولم تحتفظ بحياته ومآثره، ولم تقدّم عنه شيئا إلى الأجيال الناشئة، لكي تعرفه وتعدّه من كبار الأبطال في تاريخها، ولم يفكّر أصحاب هذه السلطات قطّ أن هذا الإنسان هو الذي مهّد لهم الطريق إلى القيادة وعرش القوة، ووقفَ حياتَه كلّها على مصالحهم، كما تجاهله رجال السياسة الذين نشؤوا يوما من الأيام في حضنه وتحت إشرافه، وتعلّموا السياسة والقيادة على يده، ومن هذا كله لا ترى أبناء هذا الوطن اليوم يعرفون هذا الإنسان إلا قليلا وضئيلا، ولا تكاد ترى اسمَه على لسانهم، بل ترى الدسائس والمكايد تحاك ضدّه في كل ليل ونهار، لكي يمحو من تاريخ هذه البلاد، ولا يوجد ثمة رجلٌ اسمه البهاشاني في قائمة البطولات البنغالية، فضلا عن أن يكون له شكرٌ واعترافٌ، وفضلا عن أن يكون أبا البنغاليين، ثم بالإضافة إلى ترك الحكومة ورجال السياسة له، تركَه العلماء وأهملوه، أو على الأقل لم يرفعوا إليه رأسا، ولم يعيروه عناية وانتباها، ولم يقدروه حق قدره، لئلا يثور ثائر ضد فسادهم، ولا ينهض بهاشانيٌّ ثانٍ ضد طغيانهم واستبدادهم.[2]

(١) انظر البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٩٧

(٢) انظر هيبته على حكومة عصره في البحث عن علماء مقاتلي التحرير تأليف شاكر حسين الشبلي، ص١٠١

أسبابٌ أدت إلى ضياعه

هكذا لقد ضاعَ هذا الإنسان أو كاد أن يضيع بين الجبهتين المتصادمتين، جبهة تتغنّى بمجد العلمانية والإلحاد، وثنوية الحياة، وأسطورة فصل الدين عن الدولة، فلم ترد هذه الجبهة في يوم من الأيام أن يكون قائدها رجلٌ أخذ العلوم الدينية، وتربّى على أيدي العلماء والمشايخ، ونشأ على الالتزام بالدين ظاهرا وباطنا، فلم يرد هؤلاء الناس الذين لا يهتمّون بأحكام الشريعة والفرائض والشعائر الدينية، ولا يهمّهم الدين كما يهمّهم الدنيا، ولا تهمّهم الآخرة والنصيحة، وحلقات العلم ومجالس العلماء، كما تهمّهم الكراسي والمناصب، وتجذبهم حفلات اللهو ومجالس الطرب، ومخادع الغرام، والجبانة عن المكارم والجرأة على المعاصي، بل ما كانوا يحترمون العلماء ويجلون الفقهاء من صميم قلوبهم، ولا يتقبلون سماع النصح والإرشاد، والمحاسبة والإنكار، ولم يرضوا يوما من الأيام أن يمشوا خلف رجلٍ يتحلّى بزيّ إسلامي كامل، وصاحب لحية كثيفة، وطاقية كبيرة، كما كان لصراحة البهاشاني، ومحاربته للفساد والاستبداد، وفساد الحكام، وخيانة الخائنين، دورٌ كبير في عدواتهم له، فعاداه الحكام الذين وصلوا إلى عرش الحكومة على كتفه! وعاداه الاشتراكيون أنفسهم الذين تربوا يوما تحت إشرافه، ونشؤوا تحت ظلاله![1]

كما ضاعَ عند العلماء، والأوساط الدينية والعلمية، بل ضياعه عند العلماء أكثر من ضياعه عند العلمانيين، فقد تحدث هؤلاء عنه كثيرا، وألفوا مؤلفات، وأقاموا حفلات، أما العلماء فلم يرفعوا إليه رأسا، ولم يثيروا له ذكرا، في مجالسهم وحلقاتهم، دينية كانت أو اجتماعية، كأن الشيخ البهاشاني صفحة مطوية أو محذوفة من تاريخ علماء هذه الدولة، لكن لماذا؟

ضاعَ عند إهمالهم له، وازدرائهم به، وعدم استطلاعهم عليه ورغبتهم فيه، وسوء فهمهم له أحيانا، فقد شاركَ الشيخ في السياسة وخاض غمارها مع رجالٍ لم يكونوا من الدين في شيء، كما تحزبوا وتكاتفوا مع العلمانيين، ووقفوا مع الشيوعيين والاشتراكيين على منصّة واحدة، فظنّ به العلماء ظنونا، ووقفوا منه موقف الشك والريبة، وزعموا أنه خرجَ من دائرة العلم والعلماء، بل من دائرة الاتباع للنبي والإسلام، وأصبح تبعا لـ«ماو تسي تونغ»، الزعيم الشيوعي الصيني، فرفعَ لواء الشيوعية، وأصبح «العالم

---

(١) انظر المجموعة الكاملة لحق كوتها (كلمة الحق)، جمع وتحرير أبو سالك، في جميع الأعداد، ٣٠٩، ٣٦٢، ٤٧٢ على سبيل المثال، وانظر كذلك مولانا البهاشاني، تأليف شاه جهاد ساجو، ص١١ وما بعدها

الأحمر»، وأصبحتْ قبلته «موسكو» و«بكين»، دون مكّة المكرّمة، ولم يفهموا حالته وظروفه، ولم يقرؤوا بيئته ومحيطه والصعوبة التي كانت تواجهه قراءة صحيحة عميقة، وهكذا لم يعرفوا أن هذا الإنسان من صميمهم، وتاريخ عزّهم ومجدهم، وقد جاهدَ من أجلهم، وعانى ما عانى من الظلم والجور، وربما قد جارى التيار وساير الموجة حينا من الدهر، إلا أنه في خاتمة المطاف عادَ السيف إلى قرابه، وحلّ الليث منبع غابه.

لكننا ليس لنا هنا أن نحمّل العلماء وحدَهم هذا الخلل الكبير، والبون العظيم الذي حصلَ بينهم وبين هذا الإنسان، بل لا بدّ أن نحمّله مسؤولية هذا الضياع، وهذا المصير المؤسف الذي صارَ إليه اليوم، بل له نصيب الأسد في ذلك، فقد عاشَ الشيخ البهاشاني فترة من الدهر كانت من أشد فترات التاريخ اضطرابا سياسيا واقتصاديا وقياديا، وذاقَ حرها ومرّها، حتى أصبح الشيخ -ونحن نقول هذا بكل جرأة وصراحة- مضطرب الحال، ومتقلب البال، وحصلَ فيه تذبذب كبير، ولم يثبت قطّ على أساس متين، كما كان نوع من اللامبالاة جزءا من فطرته، فلم يبالِ بتشهير العدو الخائن، ولا بنصيحة الناصح الأمين.

الجمع الغريب بين الإسلام والاشتراكية، والصوفية والعلمانية

لقد حاول حياته كلها الجمع بين الدين والدنيا، والإسلام والاشتراكية، والصوفية والعلمانية، بل لعل صوفيته هي التي أدت به إلى العلمانية، وكان اتّجاهه السياسي وخريطة طريقه التي سار عليها منذ تأسيس الحزب الوطني لرابطة العوام عام ١٩٥٧م اتجاها شيوعيا حينا، واشتراكيا أحيانا، ويساريا دائما، إلا أنه أخذ أول درس له ضد الطغاة والبغاة في رحاب دار العلوم ديوبند، فلم يكن اشتراكيا في صميمه،[1] وكان قائد المزارعين أكثر منه قائد الاشتراكيين، نعم كان يقول بـ«الاشتراكية الإسلامية»،[2] وكان معجبا بأبي ذر الغفاري ﷺ، ذاكم الصحابي الجليل، وأستاذ مدرسة الزهد في تاريخ الإسلام، والمؤسس الأول لها، تحت إشراف سيد الزهاد ﷺ، وقدّ أثرتْ فيه حياة أبي ذر أثرا كبيرا، وفعلتْ قصص حياته ومواقفه من الدنيا فعل السحر، فكان يكرّر اسمه دائما، ويأخذه قدوةً حسنة له، وأساسا لزهده

---

(١) انظر Moulana Bhashani: His Creed and Politics, Edit. Anisuzzaman Chowdhury, p. ٦٣، ٦٤ وكذلك مقدمة المؤلف في سيرة وسياسة مولانا البهاشاني، تأليف أمجاد حسين، وكذلك ص١٢ وانظر كذلك البحث عن علماء مقاتلي التحرير، شاكر حسين الشبلي، ص٦١، ٦٢ و٦٣

(٢) دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله، ص١٩٠

وتقشّفه الذي لم يسبق له نظير في التاريخ السياسي لهذه الدولة، ولما أنشأ- مع غيره- كلية في العاصمة، سمّاه «كلية أبي ذر الغفاري»،[1] فكأنه كانت حياة هذا الصحابي الجليل مصدر اشتراكية عبد الحميد، وسياسته مع الأحزاب العلمانية والشيوعية والاشتراكية واليسارية.[2]

لكن أين الإسلام من الاشتراكية؟ وأين الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري من أن يكون اشتراكيا! هذا كذب وفرية عظمى، وأغلوطة تاريخية فادحة، وخطأٌ في فهم الإسلام، ونظرته لحياة الإنسان على الأرض، لعلّ الشيخ عبد الحميد أخطأ في هذه النقطة، فظنّ أن الاشتراكية من الإسلام، وهي التي تصلح أن تحلّ معظم مشاكل العالم المعاصر، إذا كانتْ في قالب الإسلام، ومن هنا خلطَ الإسلام بالاشتراكية، ودعا إليه الناس على الملأ، وفي رابعة النهار، وأدىٰ به فهم خاطئ إلى حياة كاملة قائمة على الخطأ![3]

وقد ظهرتْ يساريته بشكل واضح بعد تأسيس الحزب الوطنيّ، وكان معظم قادته ومقدّمة جيشه الاشتراكيون، ولما توزّع الحزب الوطني عام ١٩٦٧م، تولّى عبد الحميد قيادة جبهةٍ موالية للصين، وقد سافرَ إلى الصين، والتقى مع كبار قادتها، وأصدرَ عن هذه الرحلة كتابا، ولما رجعَ من الصين، دعا إلى الاشتراكية الإسلامية![4]

وأفضل مثال باقٍ على اشتراكية البهاشاني، الاشتراكية الإسلامية، صحيفته الأسبوعية «كلمة الحق»، فقد كانت هذه الصحيفة تدافع عن الإسلام والاشتراكية في ذات الوقت، وتذكر رسول الله ﷺ وصحابته من جانب، و«لينين» وأتباعه من جانب آخر، في صفحة واحدة![5] ولما أصبح مرشدا صوفيا وتجمع حوله عدد كبير من المريدين، كان يدعوهم إلى ذكر الله، والتمسك بالشريعة، والردّ على البدعة، والتمسّك بالاشتراكية، والدفاع عنها في ذات الوقت! وكان يرىٰ أن الاشتراكية هي الطريقة الوحيدة لصلاح الناس![6] فالمال ملك لله وحده، ولا بدّ من تقسيمه على الناس بحد سواء، وبواسطة

(١) Searching for Bhashani Citizen of the World, Dr. Abid Bahar p. ٧٧ وكذلك صفحات من حياة مولانا البهاشاني: معلومة ومجهولة، تأليف عبد الحي سيكدار، انظر مقدمة الناشر

(٢) انظر للتفصيل سيرة وسياسة مولانا البهاشاني، تأليف أمجاد حسين، ص٧٥ وما بعدها

(٣) انظر المجموعة الكاملة لحق كوتها (كلمة الحق)، جمع وتحرير أبو سالك، ص٦١

(٤) مولانا البهاشاني: القائد المظلوم، تأليف أبو جعفر مصطفى صادق، ص٣٦ و٤٠، وكذلك محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري، ص٥٦

(٥) انظر "المجموعة الكاملة لحق كوتها (كلمة الحق)، جمع وتحرير أبو سالك، ص٦، ٢٨ على سبيل المثال

(٦) قائد القرن مولانا البهاشاني، تأليف أ.ن.م. عبد السبحان، ص٢٢٦

الاشتراكية.[1]

هكذا حاولَ الشيخ البهاشاني الجمع بين النقيضين، ووضع القدم على القاربين، فبينما كان مسلما متدينا، مرشدا صوفيا له أتباع، يحتفل بمناسبات دينية، ويحبّ السماعَ ويحنّ إليه،[2] هذا الإنسان عندما كان يخرج في الساحة السياسية، ينسى "الدينية" تماما! فكان يرىٰ الدين في المحراب، والاشتراكية في السياسة، ويمسك بكليهما في ذات الوقت! حتىٰ برزَ أغرب إنسان في التاريخ لا يزال الناس متحيّرين فيه![3]

حتىٰ في نهاية حياته، عندما أحس بفشله في الاشتراكية، ورجعَ إلى الإسلام والمسلمين، وحاول الاقتراب من العلماء والمصطلحات الإسلامية، وسعىٰ لجذب العلماء ودعمهم في تحقيق هدفه، مع ذلك بقي فيه ميل إلى الاشتراكية والداء الماضي، فجاء بمصطلحات ليست إسلامية خالصة، وليست خارجة من دائرة الإسلام تماما، بل وضع لها معاني في قلبه يعمل في ضوئها، مثلا دعا إلى «الربوبية»، وقصد بها صفة الله التي تشمل المسلم والملحد، والموحد والمشرك جميعا! كما جاءَ بمصطلح «الحكومة الربانية» التي تشمل الجميع وتعطي حقوق الجميع! وقد أصبحت هذه الفكرة غريبة في عالم الأفكار، فلا هي اشتراكية، ولا هي إسلامية، وانتقدها الاشتراكيون والعلماء المسلمون في وقت واحد،[4] وكان البهاشاني يرىٰ أن العلماء لم يفهموه، والحق أنه أخطأَ فهمه للإسلام رغم إخلاصه لدينه وصدقه مع ربه، فقد كان هدفه معصوما، وهو إقامة حكومة إسلامية قائمة على الكتاب والسنة، وهي «الخلافة الإسلامية»، إلا أنه أرادَ ذلك عن طريق الاشتراكية![5]

لعلّ هذه هي التي أنشأَت فجوة بينه وبين العلماء والمشايخ، وقادة السياسة الإسلامية في البلد، ثم لم تزدها الأيام إلا توسّعا وانتشارا، حتىٰ أصبحتْ الهوة بينه وبين العلماء بحيث لا يقوم عليها جسرٌ، ولا يعبرها إنسانٌ، وأصبح من أبعد الناس عنهم، رغمَ كونه درسَ في المدارس الدينية، وأخذ العلم من جامعة

(١) انظر المجموعة الكاملة لحق كوتها (كلمة الحق)، جمع وتحرير أبو سالك ص٣٠ و٧٧ و٢٧٧ و٤٠٧

(٢) محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري، ص٣٥ و٣٩

(٣) كيف جمعَ الشيخ البهاشاني هذه النقائض كلها؟ اقرأ حديثا رائعا في كتاب The religious and philosophical basis of Bhashanis political leadership, Abid S. Bahar (٢٠٠٣)

(٤) سيرة وسياسة مولانا البهاشاني، تأليف أمجاد حسين، ص٦٧

(٥) انظر للتفصيل محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري، ص١١٢ وما بعدها

ديوبند، ووقفَ حياتَه كلّها على الحركات والجهاد من أجل العامّة، ومن أجل مصالح الوطن وأبنائه، وهذا هو مصدر إهمال العلماء للشيخ عبد الحميد، أو عدم الاعتناء به، وكان الشيخ هو الآخر، لم يعر بدوره اهتماما كبيرا إلى أوساط العلماء، ولم يفكّر في توطيد الصلة بينهم وبينه، وعُني بظاهر المسلمين وخارجهم أكثر بكثير من العناية باللب والجوهر، واعتنى بالرقي المادي، والتحرر السياسي، والعناوين لا المضامين، وطوى عن الدعوة والإصلاح وأمور الدين والشريعة كشحا، ومن أجل هذا، نجد في حياته أنه جلسَ مع الرؤساء والوزراء، ومع القادة ورجال السياسة، والهندوس والعلمانيين، ولم نجده يجلس مع العلماء، ومع أعلام الدعوة، والمصلحين والمجدّدين، بل كان ينتقدهم من حين لآخر، وخصوصا كان لا يرى «السياسة الدينية»، فينتقد العلماء العاملين في مجال السياسة![1] والصلة بينه وبين العلماء كانت عدائية انتقادية، حتى اتهمه البعض بالكفر والإلحاد، واعترض الآخرون على تدينه وعقيدته! وشك البعض في أنه يصلي أم لا؟ وبذلك يتصوّر البعد الهائل الذي كان بينه وبين العلماء.[2]

أساليب الدعوة والسياسة: وقفات مع البهاشاني وسر قبوله لدى العوام

مع ذلك لا نجد مبررا كاملا لموقف العلماء من هذا الشيخ الكبير، وعدم الاهتمام به، والاستفادة منه، وعدّه واحدا منهم، وعضوا من أعضاء أسرتهم، فقد شاهد الشيخ بعينيه معاناة الناس ومحنهم، وخصوصا الناس من الطبقات المخلّفة، كما رأى الحركات العلمية على قدمها وساقها، ورأى تهاون العلماء في ميدان السياسة، وموقفهم السلبي منها مع الاستثناء اليسير، ومن هنا رسمَ الشيخ لنفسه خريطة طريق جديد، وتركَ العلم والمؤسسات العلمية والدعوة والإصلاح للعلماء الربانيين، وأدخل نفسه في غمار السياسة، وحركات المعدة والمادّة، وخلطَه مع التراب ومع الطبقات السفلى، ونذرَ حياتَه وماله لسواد الناس وجمهرة الشعب، ولرقيهم المادي والسياسي، ولوضع الأغلال عنهم، وتحريرهم من الاستعباد والاستبداد، حتى أصبح الناس يعدّونه أقرب البشر إليهم، وأرحمهم عليهم، وهذا الذي جعلَ له مكانةً خالدة في التاريخ حتى عُرف بالقائد المظلوم، لكونه وقفَ طوال حياته بجانب المظلومين، واسترد مظالمهم من الظالمين، وسعى من أجل الإصلاح، وإحداث ثورة اجتماعية سياسية، ولم يطمع قطّ في القرش والعرش، ولم يرد أن يرى نفسه رئيس الدولة، ومن هنا كانتْ هذه النقطة مصدر دراسة كبيرة

(١) مولانا البهاشاني: القائد المظلوم، تأليف أبو جعفر مصطفى صادق، ص٤٠ و٦٤-٦٥

(٢) محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري، ص١٢٧

للعلماء، ليعرفوا أن هذه هي الطريقة المثلى لكسب الناس، ولتأليف القلوب.[1]

فالداعية لا بدّ أن يتكلّم بما يفهمه الناس، وبما يخاطب قلوبهم قبل أن يخاطب عقولهم، ويترك أعمق الأثر في الضمائر، ويحلّ مشكلات الواقع الحاضر الماثل بين أيديهم، لأن الرجل الذي لا يجد لأسرته سقفا يلجأ إليه، ولا يجد لقمةً يضعها في أفواه أبنائه، ولا يجد قطعةً من القماش يستر بها عرض أهله، يعيش دائما تحت ضغوط القحط والمجاعة، لا يؤثر في ذهنه الحديث عن نعيم الجنّة وفواكهها، وحورها وأنهارها، وحريرها وذهبها، وهذا الفقر هو الذي قد يؤدّي بالناس إلى الفسق والفجور، والجرائم الفادحة، وإلى الكفر أحيانا، «كاد الفقر أن يكون كفرا»، فلا يؤثّر فيه التحذير من النار، ومن عذاب الله، ولا يتصوّر منافع الخلافة الإسلامية، والنظام القرآني، وثمار الحكومة الشرعية عندما تقوم على هذه الأرض، فيعمّ الأمن والأمان طول البسيطة وعرضها، ويزول الفقر والفاقة بجميع أنواعها، وهو لا يزال مخيّما على بيوتهم، وفي تلك الأحوال الحرجة الدقيقة لا يدرك العامة– وهم سواد الناس– بواطن الأمور، ولا يفهمون إلا لسان الماء والكلأ، والبيت والقماش، ومن يجدون عنده هذا الحلّ الواقع المباشر للحياة، والاهتمام بحاجات المواطنين ومطالبهم قبل أن يصرخوا، والسعي لنجدتهم قبل أن يستنجدوا، يضعونه على الرأس والعين، ثم يقبلون منه الغث والسمين، والنور والنار، والخبيث والطيب، وكل ما يقدّم إليهم من العقائد والإيمان، والمذاهب والنظريات.

هذا الذي فعلَه المنصّرون في كل عصر ومصر، وسبقوا إليه جميع الأديان والمذاهب، وهذا الذي تهاونَ فيه علماء هذه الدولة، وظلّوا في مؤخرة الموكب، وعظوا الناس مواعظ، وقد عافها الناس لتكرارها، ولبعدها عن واقع حياتهم وأحاسيسهم، فلم تثر عجبا، ولم تحرّك ساكنا، ومن أجل هذا، مع إخلاص العلماء لشعبهم، وبذل أقصى الجهد ومنتهاه في سبيل تعليمهم وتربية أولادهم، وجلب الخير لهم، ونصحهم وإظهار الحبّ لهم، لم يؤثروا في ضمير الشعب العامّ، ولم يجعلوا لهم فيها مكانةً مرموقة في القلوب، حتى نشأت جفوة كبيرة بين علماء هذه الدولة وعامتّها، وظلّوا في عزلة سياسية وقيادية تامّة، رغم الحركات الدعوية والإصلاحية، وتموّج البلاد بكثرة المدارس العربية والمؤسسات الشرعية، والمجامع والمحافل الدينية، والمؤتمرات العلمية، وتُرك مستقبل الوطن والشعب تحت إحسان بعض النساء! «ألا نكسو الكعبة بالحرير– فقال بطون المسلمين أولى».

(١) الفصول المجهولة من حياة البهاشاني، تأليف ديوان غلام مرتضى، ص٨٧، ٨٩، ٩٣

يعوَل عليهم الناس في آخرتهم ولا يعولون في دنياهم

لذلك مع أن الناس أحبّوا العلماء وأكرموهم، وشكروا لهم جهودَهم، وأثنوا عليهم، إلا أنهم لم يضعوا فيهم ثقتَهم، ولم يفوّضوا إليهم مقاليد أمورهم، ولم يجعلوهم في مكان قيادتهم، وإدارة دفّة حياتهم، وكانوا كما يكونون في كل عصر، قلوبهم مع علماء الحق، ولكن سيوفهم مع أمراء الباطل، ومن ثم فلم تأت تلك السياسات الإسلامية بثمارها المرجوّة، ولم تصل تلك الأحزاب الإسلامية السياسية، في أكثر من نصف قرنٍ، رغم عَددها وعُددها، وجهودها وجهادها، وإخلاصها وتفانيها، إلى ما وصلَ إليه هذا الإنسان بمفرده، حبّا في قلوب العامّة، وتأثيرا في الخاصّة، لأنه خاطبَ الناس بلغتهم، وحلّ مشاكلهم الواقعة، ورفعَ صوتَهم إلى الحكّام، ودخل من أجلهم السجن مرارا وتكرارا، ولم ير قطّ الحكمة في السكوت عن الجرائم.

واجبنا تجاه هذا القائد الأمين

نحن لا ننكر هنا ما أخطأه الشيخ البهاشاني في خريطة طريقه، وسياسته مع الأحزاب اليسارية، وتنقلاته المستمرّة، التي عبّر عنها بعض المؤرخون بـ«الازدواجية» و«الحيرة»،[1] وهي في الحقيقة ليست إلا تجلية قلقه على تحقيق حلمه، وسعيه وراء غايته بأي سبيل كان، وهذا الطموح للعمل هو الذي يفسر لنا دعواته السافرة إلى الاشتراكية الإسلامية، وصلته الوثيقة بالهند والغرب والصين وروسيا وقادتها، وعداوته– أو على الأقل غير اهتمامه– بالعلماء وقادة الدعوات والحركات الدينية، إلا أنه يكفينا أنه كان مؤمنا مسلما، عالما بالدين والشريعة، ومتخرجّ ديوبند، على يد الشيخ محمود حسن الديوبندي والشيخ حسين أحمد المدني،[2] كما كان مبايعا على يد الشيخ الصوفي نصير الدين البغدادي،[3] ثم أصبح بنفسه مرشدا صوفيا له أتباع ومريدون،[4] وكان مصليا ومحافظا على الصلوات حتى في الشوارع، ويكرّر دائما في مجالسه السياسية الحافلة بالعلمانيين، والشيوعيين الملحدين، كان يكرّر استسلامه لربّ العالمين، وخضوعه لدينه، وتواضعه بين يدي كتابه وسنّة رسوله، وكان يقول — مع منهجه السياسي

---

(١) انظر احتلاف الناس حوله حتى سمّته بعض الصحف بعد وفاته "أصعب لغز في التاريخ"، في كتاب مولانا البهاشاني، تاليف شاه جهان ساجو، ص١١ و١٢

(٢) انظر للتفصيل Citizen of the World, Dr. Abid Bahar p. ٤٩ وكذلك Searching for Bhashani The religious and philosophical basis of Bhashani's political leadership, Abid S. Bahar (٢٠٠٣) p. ٤٩ وما بعدها

(٣) قائد القرن: مولانا البهاشاني، تأليف أ.ن.م عبد السبحان، ص١٧

(٤) محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري، ص٢٧

الاشتراكي- إن دستور الجمهورية البنغلاديشية لا بد أن يكون مؤسسا على الكتاب والسنة! وأن الحكومة القائمة على الكتاب والسنة وحدها تضمن الديمقراطية والتطور وحقوق الإنسان![1] وأن الصين مع تطورها الهائل تفقد شيئا كبيرا محوريا، وهو الإيمان بالله تعالى![2]

كما كان مهتما بقضايا المسلمين، والدين، والشريعة، والعناية بالمراكز الإسلامية، والمدارس العربية،[3] وأفضل مثال على ذلك «الجامعة الإسلامية» بـ«سانتوش»، التي تعرّضت للدسائس بعد وفاته وتحرّفت، أما زهده فهو يذكّرك بزهد أبي ذر الغفاري ﷺ،[4] أحب الناس إليه، أما إخلاصه للوطن، والعمل من أجل عوام الناس في الخفاء، والبعد عن الضوء،[5] بلا طمع ولا خوف، ونذر الحياة لهم، فلن نجد قائدا أفضل منه في تاريخ هذه الدولة، ثم إعلانه عن تأسيس جمعية «خدمة الخلق» قبل وفاته بقليل كان في الحقيقة إعلان توبته، ونفض يده عن الحركات السياسية، العلمانية والاشتراكية جميعها، حتى أرادَ أن تكون هذه الجمعية على منهج أهل الصفة، ولا يدخل فيها إلا المؤمن بالله تعالى! لا الهندوسي، ولا الاشتراكي.

من هنا كان يحقّ بالعلماء أن يهتمّوا بهذا الإنسان، ويأخذوا من حياته درسا سياسيا وقياديا، ويقدّموه إلى الوطن وإلى العالم من جديد، حتى يكون الشيخ البهاشاني جسرا بين العلماء والعامّة، ونكون حياته ومآثره ردّا على كثير من الأباطيل، حول موقف العلماء من السياسة والقيادة، وحركات التحرير وحرب الاستقلال، ودورهم في سياسة العباد وقيادة البلاد.

---

(١) المرجع السابق، ص١١١

(٢) انظر مقدمة المحرر في كتاب Moulana Bhashani Leader of the Toiling Masses, Edit. Anisuzzaman Chowdhury ٢٠١٢

(٣) انظر المجموعة الكاملة لحق كوتها (كلمة الحق)، جمع وتحرير أبو سالك ص٣٨٩ و٥١٧ و٥١٨

(٤) محبوبي مولانا البهاشاني، السيد عرفان الباري، ص١٣٨ و١٤٥

(٥) المرجع السابق، ص١٥

مولانا تاج الإسلام

(١٨٩٦ - ١٩٧٦)

فخر البنغال، العالم المجاهد، رائد الحركات ضدّ القاديانية

لولا هذا الإنسان لكانتْ محافظة «براهمن باريا» «قاديان» ثانيةً بعد الهند، أو «ربوةً» أخرىٰ بعد باكستان، ولكانتْ هذه المنطقة أكبر مركز قادياني في هذه الدولة، ولكانت للقياديين مرتعا خصبا، يدسون فيه دسائسهم، ويقومون فيه بخبثهم ومكرهم، وينشرون منه سموم الكفر والعدوان للمجتمع البنغالي المسلم، بدل الكهوف والغابات والمناطق الجبلية، التي أخذوها الآن ميدانا لعملهم وساحة نشاطهم، في غفلة من الحكومة، وفي جهل من معظم العلماء والأمة، إلا أن الله لما تكفّل بحفظ هذا الدين صافيا ناصعا، ونقيا من الشوائب، واضح المعالم، قيّض هذا الإنسان العظيم لمقاومة ذلك الفساد العريض، وسدّ الباب أمام ذلك الشر المستطير الذي كان علىٰ وشك الانتشار في هذه الدولة المسلمة، وهكذا جاء هذا الإنسان بمهمة عظيمة، وجاهدَ طوالَ حياته ضدّ هذه الفتنة، حتىٰ كاد أن يستأصل جذورَها من هذه المنطقة، وكفىٰ الله به الأمةَ شرّها، إنه الشيخ الرباني الكبير، والمصلح العظيم، ورئيس الجامعة اليونسية الأسبق، ومناظر الملة، العلامة تاج الإسلام، المعروف بـ«فخر البنغال».

ميلاده ونشأته

ولد تاج الإسلام في «ناصرنغر» «براهمن باريا» عام ١٨٩٦م، ودرسَ في مدرسة «سريغر»، ثم درسَ في مدرسة «باهوبل» عدّة أعوام، ثم دخلَ في المدرسة العالية بـ«سلهت» التي كانتْ معروفةً بالعلم والمعرفة في ذلك الوقت، وتخرّج منها في مرحلة الفاضل عام ١٩١٩م.[1]

---

(١) انظر التفصيل في فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، تأليف نسيم عرفات، ص٢١ وما بعدها

ثم سافرَ إلى الهند، ودخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وظلّ فيها أربع سنوات، يدرس التفسير والحديث، والفقه والعقائد، واللغات والآداب، والتاريخ والفلسفة، على أيدي جهابذة العلم أعلام المحدثين البارزين، أمثال الشيخ أنور شاه الكشميري، والشيخ العلامة شبير أحمد العثماني، والشيخ إبراهيم البلياوي، والشيخ العلامة عزيز الرحمن، وشيخ الأدب العلامة إعزاز علي وغيرهم، وقد برز نبوغ العلم منذ فترةٍ مبكّرة من حياته عندما كان طالبا مدرسيا في قريته، فكان سريع البديهة، حاضر الخاطر، قويّ الملاحظة، متّقد الذهن، رقيق الشعور، وصاحب ذاكرة فذّة، وشديد الإقبال على التحصيل، والشغوف به، وكان يحفظ المقررات الدراسية عن ظهر قلبه، قبل أن يأخذها عند المدرسين في الصف، وما زادتْ الأيام إلا قوّة ونموّا في هذه المواهب، فحفظ كتاب الهداية للشيخ برهان الدين المرغيناني، كما حفظ آلاف الأحاديث النبوية التي كانت تجري على لسانه ماءً سلسبيلا، حتى أدركَ فيه الأساتذة عبقرية أمّة في المستقبل، وأعاروا إليه اهتماما خاصا، وكان من أحب تلامذة الشيخ الكشميري وأصفى طلابه، درسَ عنده صحيح البخاري، كما استفادَ من الشيخ حسين أحمد المدني في التزكية والسلوك، وتخرّج من دار العلوم عام ١٣٤٢هـ، وعادَ إلى وطنه.[1]

هاهو معنى الثبات في الحياة

عادَ الشاب تاج الإسلام إلى وطنه، وكأن سفينة علمية عادتْ، فكان يتدفّق حيوية ونشاطا، وعلما ومعرفة، وإتقانا للعلوم الشرعية، واللغة والعربية وآدابها، وقد كتبَ فيها قصائد نادرة المثال، تشهد على نبوغه ومواهبه، أحسّ بذلك كله أساتذته في دار العلوم ديوبند، كما أحس به أقرباؤه ومعارفه وأساتذته في الوطن، فجاءَ وزير التعليم عبد الحميد، وقدّم إليه منصب صدر المدرّسين في المدرسة العالية بداكا، والأستاذية في قسم اللغة العربية بجامعة داكا، كما جاءتْ دعوة من المدرسة العالية بكلكتا، إلا أن الشيخ ثبت على المبدأ، والهدف الذي كان يسعى إليه دائما، وهو نشر العلوم الشرعية، وبث نور القرآن والسنّة، وبناء جيل ديني وتقيّ قائم على تقوى الله واتباع سنّة رسوله، في تلك المراكز العلمية التي تضمن ذلك البناء، والتي نشأت وكوّنت شخصيته وعقليته في يوم من الأيام، فاختار التدريس في المدارس الديوبندية، على الصدارة والأستاذية في المدارس العالية أو الجامعات العلمانية الكبرى، وكان

(١) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥ - ١٤٣٦) ص١٤٢

ذلك اختيارا موفّقا، آتى ثمَرَه في أوانه، وخلّد هذا الإنسان في التاريخ.[1]

في رحاب الجامعة اليونسية

بدأ تاج الإسلام مرحلة جديدة في مدرسة بداكا، وبعد فترة ذهبَ إلى محافظة «كُملّا»، ودخلَ في مدرسة قاسم العلوم أستاذا، ثم جاءَ إلى مسقط رأسه «براهمن باريا»، ودخلَ في الجامعة اليونسية، على طلبٍ ملحّ من مؤسسها الشيخ مولانا يونس، وكانت في ذلك الوقت- ولا تزال- من طليعة الجامعات العربية الإسلامية، درّس فيها كوكبة من العلماء الخالدين في تاريخ العلم بهذا البلد، وقد يتساءل القارئ، كيف التقت في هذا الفلك هؤلاء الكواكب الدرّية في سماء العلم والمعرفة، لا في هذه الدولة وحدَها، بل في تاريخ شبه القارة الهندية بعمومها، فهي الجامعة التي كان العلامة شمس الحق الفريدبوري في رئاستها، وهي التي كان يدرّس فيها الشيخ الرباني مولانا محمّد الله الحافظجي، والشيخ مولانا عبد الوهّاب البيرجي، والشيخ المفسر الكبير العلامة سراج الإسلام وغيرهم، ثم ذهبَ الشيخ الفريدبوري، ومعه الشيخ الحافظجي والشيخ البيرجي إلى داكا، وأسّس مدرسة أشرف العلوم «براكاترا»، وخلا منصب رئاسة الجامعة اليونسية، وهنا برزَ العالم الشابّ تاج الإسلام، ونزلَ في الميدان، وأخذ هذا العبء الثقيل على كاهله، تلبية بدعوة الشيخ المؤسس محمد يونس، فكانت دعوة مباركةً، وكانت تلبية موفّقة، ودخلَ الشيخ في الجامعة اليونسية عام ١٣٤٥م، ولم يخرج منها إلى على أكتاف الناس، وظلّ فيها يرأس ويوجّه، ويدرّس ويلقّن، ويتخذها مقرّ عمله، وساحة جهاده، ويبني وينشّئ، ويخرّج رجالا ودعاة، ويردّ على الباطل والمنكر، وأهل البدع والخرافات، والفرق الضالّة مثل القبورية والقاديانية، أكثر من ٤٢ عاما.[2]

آثاره في ميدان السياسة

لعلّ من أبرز جوانب حياة هذا الإنسان هو دوره في السياسة، فكان سياسيا، وفارس ميدان الحركة والجهاد بفطرته، لمس خطورة السياسة والقيادة منذ أيام دراسته وتحصيله، وعندما نشبتْ حركة الخلافة في الهند، واضطرمت نيران الجهاد في طولها وعرضها، نهضَ الشابّ تاج الإسلام وشاركَ فيها وهو

(١) حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ الحافظ محمد نور الزمان ص٤١ و٤٢

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣

طالبٌ صغير في المدرسة العالية بـ«سلهت». ثم الفترة التي كان فيها الشيخ في جامعة ديوبند كانت من أخطر فترات حياته وأهمها شأنًا، وهي فترة تكوين شخصيته، وعقليته، وبناء جرأته ورجولته، فقد كانت الهند آنذاك على فوهة بركان تثور هائج مائج، وكانت جامعة ديوبند في عنفوانها وعزّها، وكان أساتذتها قادة الجهاد وزعماء الحركات، فشهد الشاب تاج الإسلام كل ذلك بعينه، واكتوى بنارها وتلقى من الشيخ حسين أحمد المدني دروسًا قيمة في الإيثار والتضحية، والجهود والجهاد، والتفاني في سبيل التحرير والاستقلال، والردّ على الخصم.[٢]

لذلك لما عاد إلى الوطن، خاض في حركات التحرير من جديد تحت مظلّة «جمعية علماء الهند»، ثم لما جرّبته الأيام، وحنكته الأعمال والتجارب، غيّر وجهته، وأدرك أهمية دولة إسلامية مستقلة، فسارع وانضوى تحت لواء «جمعية علماء الإسلام»، وبدأ يجاهد في جبهة جديدة، جبهة تحرير البلاد من جانب، وتكوين دولة باكستان من جانب آخر، ثم شارك مع الشيخ أطهر علي في تأسيس «نظام الإسلام»، واختير نائب الرئيس له، وكان من رفقائه في ساحة الجهاد العلماء السياسيون الكبار، وزعماء الدعوة والإصلاح في هذه الدولة، أمثال الشيخ مولانا عبد الكريم، المعروف بـ«شيخ كوريا»، والشيخ الكبير العلامة أطهر علي، والخطيب الأعظم صدّيق أحمد، والشيخ مولانا السيد مصلح الدين، والشيخ مولانا أشرف علي الدرمندلي.

لا تزال منطقة سلهت مدينة له ولأمثاله

لما قامتْ حركة باكستان على قدم وساقٍ، وانضمّت البنغال الشرقية إلى صفّ باكستان بجميع مناطقها، استثنيت هنا منطقة «سلهت»، ووجدتْ نفسها بين تدافع مدّ وجزر، وإقدام وإحجام، وبدأت تتذبذب بين الهند وباكستان، كلما أضاء لها الأمل مشت فيه، وإذا أظلم عليها قامت، هنا نهض العلماء الكبار لتوعية الناس على أهمية دولة إسلامية، وخطر البقاء مع الدولة الوثنية الكبرى، كما بيّنوا للناس فوائد الانضمام إلى باكستان، والسعادة الكبرى التي تنتظرهم فيها، فنهضَ فخر البنغال، وتحدّث مع الناس، وألقى خطبا ومواعظ قيّمة في المجالس والمحافل العامة، حتى أجمع الناس على التصويت لصالح باكستان، وشاركت «سلهتْ» في تلك الرحلة الجديدة التاريخية، ولولا دور العلماء في

(١) فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، تأليف نسيم عرفات، ص٢٦

(٢) مذكرة الجامعة الإسلامية اليونسية بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها، تأليف العلامة المفتي مبارك الله، والمفتي عبد الله، ص٩٩

ذلك الحين، ولولا مشاركة «سلهتْ» في تلك الرحلة، لبقيت هذه المنطقة الثرية المباركة، الحافلة بالعلم والعلماء، والغنية بالمراكز العلمية، جزءاً من الدولة الوثنية.

بين سياسة العلماء وسياسة الجهلاء

هذا الجهاد في ميدان السياسة لم يكن هواية ولا مهنة قطّ للشيخ تاج الإسلام، ولأولئك العلماء الذين قضوا حياتهم وكرّسوا جهودَهم وأعمارَهم على السياسة والقيادة، وكان كلّهم يسعون إلى غايات عظمى، ويجاهدون لتحقيق أهداف كبرى، وقد تجلّت هذه الغايات على لسان تاج الإسلام، عندما جاءَ حسين شهيد السهراوردي، رئيس وزراء باكستان، إلى «براهمن باريا»، وفي أثناء الحديث قال الرئيس لتاج الإسلام :"أنتم العلماء والأئمة، ورجال الدين، واجبكم أن تعتكفوا في المساجد والمدارس فتذكروا الله وتشكروه، فلماذا تخرجون منها وتدخلون في غمار السياسة"؟ ففاجأه الشيخ تاج الإسلام بسرعة انتباهه، وحاضر بديهته، وردّ عليه قائلا: "أين سياستُكم من سياستنا! سياستكم تمتدّ على ثلاثة أذرع،[١] أما سياستنا، فهي تمتدّ من الدنيا إلى الآخرة، فنحن الذين أحقّ الناس بالسياسة، ولستم أنتم"![٢]

نذر حياته لمحاربة القاديانية

في بداية القرن العشرين انتشرت فتنة القاديانية في البنغال انتشار النار في الهشيم، وانتشر دعاتها ونشطاؤها في كل قرية من قرى البنغال مثل الجراد المنتشر، وكانت محافظة «براهمن باريا» من مقدمة المناطق التي تعرّضت لهذا الطوفان، وأصيب بهذا الطاعون، حتى أصبحتْ لها صولةٌ وجولة فيها، وفي تلك الفترة التاريخية الدقيقة نهضَ الشيخ الرباني العلامة محمد يونس، ورفعَ قواعد «الجامعة اليونسية»، التي أسّست على التقوى من أول يومها، وعلى الدفاع عن إيمان الأمة المسلمة، وطرد القاديانية من المجتمع الإسلامي، ثم لما جاءَ فخر البنغال إلى «براهمن باريا»، وتولّى رئاسة الجامعة اليونسية، وأخذ منها مقرّ عمله، وساحة جهاده، كان ذلك صدمة عنيفةً على مملكة القاديانية، فقد واجه الشيخ تاج الإسلام هذه الفتنة من أيام دراسته وتحصيله، ودرسَها عن كثب لا عن كتب، حتى عرفَ كنهَها، واكتشفَ عوارها، وعثر على مواضع ضعفها وزيغها، وأدرك وترها الحساسَ ليضرب عليه في حين

(١) أي إلى الدنيا والمادة.

(٢) حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ حافظ محمد نور الزمان ص٧١

الفرصة.

وقد نازلَ جماعة كبيرة من القاديانية في رحاب دار العلوم ديوبند، عندما كان طالبا في مرحلة الفضيلة، ثم لما عادَ إلى الوطن ودخلَ في «براهمن باريا»، وجدَها أصلح مكان لمثله، فنزلَ في الساحة من أول يومه، وظلّ يناظر ويردّ على القاديانية إلى نهاية حياته، وقد خاضَ معهم في كثير من المجالس والمناظرات، وألجم كثيرا من الطبول الجوفاء، وردّ عليهم ردودا علمية مفحمة، كانتْ سببا في عودة كثير منهم إلى الإسلام، والإنابة إلى الله ﷻ.(1)

الحبّ في الله والبغض في الله

كان يرى جهادَه ضدّ القاديانية أكبر هدف وأعظم غاية في الحياة، تتصاغر وتضمحل بين يديه جميع الفروقات الفكرية والتباين في الاتجاهات، ولذلك لما انفجرت ثورة استنكارية عارمة ضد القاديانية في باكستان الغربية، تحت قيادة السيد أبي الأعلى المودودي رحمه الله، مؤسس الجماعة الإسلامية، وتحوّلت الثورة إلى شغب دمويّ في «لاهور»، قامت السلطة الباكستانية للاصطياد في الماء العكر، واتخذتها [illegible] لشفاء غليلها، ولإلقاء القبض على السيد والزجّ به في السجن، والحكم عليه بالإعدام شنقا، هنا نهض فخر البنغال في باكستان الشرقية، ووقفَ موقفا لا يقوى عليه إلا صناديد الرجال، وثارت ثائرته ضد السلطة، وأعلن بكل إيمان وإخلاص بأنه: "لا شكّ أن هناك كثيرا من الخلاف في الآراء والأفكار، وتصادم المواقف والاتجاهات، بيننا وبين الشيخ المودودي، إلا أن القضية التي جاهدَ من أجلها ونزلَ في الشوارع، نحن مجمعون معه على رصيف واحد، وقائمون في صف واحد، ومن ثم فإن ألقت السلطة الآن القبض على الشيخ المودودي، لدوره ولموقفه من القاديانية، وحكمتْ عليه بالإعدام، لا يمكن لنا أن نجلس ساكتين، ولن نقف موقف المتفرّجين! ثم نهض الشيخ، والتقى مع الوزراء والقادة، وتحدّث معهم في شأن الشيخ المودودي، وبرّز ساحته من التهم.(2)

هكذا شاهدت أرض البنغال قصّة غريبة نادرة في تاريخها، وهل أعجب من ذلك في هذه المنطقة يا ترى أن عالما ديوبنديا يثور ويغضب للسيد أبي الأعلى المودودي، قائد الجماعة الإسلامية، ولا خفاء ما بين علماء ديوبند والجماعة الإسلامية من شجار ونزاع، وجفوة في الأفكار والاتجاهات، ثم يسافر

(1) حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ الحافظ محمد نور الزمان ص ١٣١

(2) فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، تأليف نسيم عرفات، ص١٠٣

من أجله إلى باكستان، ويشفع له عند رئيس الوزراء! وهكذا كان علماؤنا وأجدادنا أصحاب القلوب الكبيرة، والروح المخلصة، فكانوا ينسون الخلافات الجزئية أمام القواعد الكلية والقضايا الكبرى، ولهذا الجهاد المستمرّ الفريد ضدّ القاديانية، قال كثير من العلماء إنه لولا فخر البنغال لكانتْ منطقة «براهمن باريا» مدينة «قاديان» في الهند، أو مدينة «ربوة» في باكستان، وهما من أكبر المراكز لهذا الشرّ العظيم على الأمة المسلمة، وكان فخر البنغال في البنغال على القاديانية، كما كان الشيخ مولانا عطاء الله شاه البخاري والشيخ ثناء الله الأمرتسري عليها في الهند وباكستان، وما دام على الأرض جهادٌ ضدّ هذه الفتنة، سيظلّ اسم فخر البنغال جزءا خالدا، ومنبع أمل ونجاح في ذاك الجهاد.

جهوده في الإصلاح وظهور «حفاظت إسلام»

واستمرارا لهذا الجهاد ضدّ الفرق الضالّة، لقد كرّس فخر البنغال كثيرا من جهوده على الدعوة، وإصلاح الناس، وإزالة الفساد والفحشاء من المجتمع، والدفاع عن كيان الثقافة الإسلامية، والهوية الدينية، والنضال دون إيمان الناس وعقيدتهم، وإحياء تعاليم الإسلام كما كانت في أيام الرسول، قبل أن تشوبها شائبة، وتعكّر صفوَها أفكار وافدة، ومن هنا جاءتْ فكرة إنشاء جمعية إصلاحية ودعوية اجتماعية غير سياسية، وجاءتْ حركة «حفاظت إسلام» في الوجود لأول مرة في التاريخ، على الدين الخالص، النقي من الشوائب، وعلى أيدي فخر البنغال، والشيخ لطف الرحمن البرنوي، وكان لهذه الحركة دورٌ كبيرٌ في بثّ العلم والمعرفة، والفضائل والأخلاق الفاضلة في المجتمع، وإزالة الرذائل منه،(1) كما أنشأ الشيخ [illegible] من الكتاتيب، والمدارس الدينية، والمساجد، والمؤسسات الإسلامية داخل «براهمن باريا» وخارجها، وأسّس «الإدارة التعليمية» لتكون جمعية مشرفةً على تلك المؤسسات، وتعمل من أجل تطويرها، ورفع مستواها الدراسي والعلمي والعملي.(2)

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

كان رجلا إنسانيا في صميمه، قدّم لقومه خدمات إنسانية جليلة، وكانتْ هذه الخدمات على جهتين، فقد كان يرى الدعوة والإصلاح من أكبر الخدمات للإنسان، ولشعبه ولمجتمعه، لذلك نذرَ حياته على دعوة الناس إلى سبيل الخير، وإصلاح ما فسدَ فيهم من الظاهر والباطن، وقد كان يجوب

(1) حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ الحافظ محمد نور الزمان ص ٩٩

(2) فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، تأليف نسيم عرفات، ص١٢٦

أقطار البلاد، ويطوف بالقرى والأرياف، ويواصل أيامه بلياليه، ويتحدّث في المجامع الدينية، ويبشّر الناس، ويحذّرهم من البدع، والقبورية، والاحتفالات باسم الدين التي لا تستند إليه بصلة، ولا تعدّ من مجالس ذكر وعبادة، ولا مقام طاعة وتبتّل.

وكان يرى أن التحذير من البدع والخرافات عن طريق الخطب والمحاضرات لا يكفي وحده أن يكون سدّا منيعا في وجهها، بل لا بدّ من اختيار طريقٍ فعليّ واقعي للردّ عليها، ومن ثم أنشأ مراكز علمية ومدارس دينية، لكي تكون معاقل الدين، وحصون الأمة من كل شرّ وبدع، وفرقٍ ضالّة، وكان حينما يتحدّث إلى الناس، تعتريه حالة غريبةٌ من شدّة الإخلاص، والخوف من الله، ولا يأتي بقصص وحكايات خرافية في حديثه، بل كان كثيرا ما يتغنّى بالقرآن، وكان حسن الصوت، فعندما يتلو القرآن تفيض أعين السامعين من الدموع!

ثمار الجمع بين الدعوة الإيمانية والخدمة الإنسانية

لكنه لم يكن أن يكتفي بهذه الجبهة عن جبهة أكثر إنسانية، وأكثر جدوى، وهي تقديم الخدمات المادّية والمباشرة إلى الناس، وتأليف قلوبهم للإسلام، وللقرآن، وللمؤسسات الإسلامية، ولكل ما له صلة بالدين والأمة، ومن هنا خدمَ الشيخ جميع الناس، على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، وقابله الناس بالحسن، حتى بكاه الهندوس بعد وفاته أمرّ بكاء، كما كان يخدم طلاب المدارس، ويطعم كثيرا منهم في بيته، كريم النفس، يعطي عطاءً بلا حدود.

من أبرز مآثره الإنسانية هي مبادرته الريادية في حفر قناة طويلة في شرق «براهمن باريا» التي لا تزال تعرف بـ«قناة كروليا»، فكان الشيخ فخر البنغال أوّل من أخذ المعول لحفر هذه القناة، وأوّل من حمل ترابها، ثم تدفّق الناس من كل مكان متطوّعين، وشاركَ في حفرها الجهلة والمثقفون، والعوام والخواص، والتجار والنجّار، والمعلمون والطلاب، والأغنياء والفقراء، حتى تم حفر قناةٍ تطول زهاء أربعة أميال، بدون صرف سكة واحدة، ولا تزال هذه القناة تخدم أهل هذه المنطقة، وتشهد على أصحاب الخير الذين شاركوا في حفرها، وكان بطل هذا التاريخ فخر البنغال.[١]

لهذه المزايا الدينية الرفيعة الرائعة، والعبقريات القيادية الفريدة، والروح الإنسانية الخالدة، أحبّه الناس، وجعل له عرشا فاخرا في سويداء قلوبهم، وكان كلامه يصل من الناس ما لا يصل إليه كلام

(١) حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ الحافظ محمد نور الزمان ص ٩٠

الملوك والسلاطين، مع أنه لم يكن ملكا، ولم يكن يلبس الحرير، ولا تلوح عليه شارات الملك، ولا يتألق على جبينه التاج، إلا أنه كان عبدا لله متواضعا، فرفع الله مكانه، وأصبح ملكا بلا عرش، وسلطانا بلا تاج، عند سكّان «براهمن باريا»، ومنارة هدى، لا يزال يستمدّ الناس نورا من مشكاتها.

كيف كانت صلته بالله؟

فوق كل ذلك كان شيخا ربانيا، وعابدا وزاهدا، ومرشدا حقيقيا، اهتمّ بالسلوك والربانية منذ مرحلة مبكّرة من حياته، فبايع الشيخ حسين أحمد المدني أثناء دراسته في دار العلوم ديوبند،[١] ورغم المسؤوليات الكبرى، والأعباء الثقيلة، والارتباطات المزدحمة، كان يحافظ على السنن والنوافل، ويلتزم بصلوات الليل والنهار، وكان لا يفوته القيام في نهاية الليل، إذا كان ظلامه كثيفا، والناس نياما، بالمناجاة مع ربّه، والبكاء والنحيب حتى صلاة الفجر، وكان عندما يحضر صلاة الفجر، كان الناس يعرفون ليلته بعينٍ حمراء، دامية دامعة، بكتْ بكاء شديدا خوفا من الله، وخشية له، ومغفرة منه.

وكان رطب اللسان بكتاب الله تعالى، ومقبلا على القرآن سماعا وتلاوة، وتفسيرا وتدبيرا، واقفا عند حدوده عاملا بمطالبه، وقد كانت تلاوته تسحر الألباب، وتفتح القلوب، وتخشع لها الجوارح، ويقصد إليها الناس من بعيد،[٢] وكان صاحب كراماتٌ يطول وصفُها، وليست الحاجة كبيرة إلى ذكرها، ومتواضعا، بشوشا، ودائم الابتسامة، لكنه كان غيورا على عز دينه، وقيمة إيمانه، فيكره التوسّل والاستجداء لأجل المدارس الدينية، ويكره فقدان ماء الوجه باسم تعليم الإسلام.[٣]

لقد اختار الله تعالى هذا الإنسان العظيم عام ١٩٦٧م،[٤] بعد هذه الحياة الحافلة بالسياسة والقيادة، والرئاسة والريادة، والتوجيه والتمكين، وتركَ الدنيا وهو لم يبنِ لنفسه بيتا، ليجد عند ربّه بيتا بني له في الجنّة بإذن الله.

(١) انظر مقال الشيخ تفضل الحق الحبي غنجي، مجلة الكوثر الشهرية، مايو، ٢٠١٥م

(٢) حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ الحافظ محمد نور الزمان ص ١٧٧-١٧٩

(٣) فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، تأليف نسيم عرفات، ص٩٣

(٤) مقال المفتي محمد إنعام الحسن، جريدة الانقلاب اليومية، ٢٠ أبريل، ٢٠١٧م

مولانا أطهر علي

(١٨٩١- ١٩٧٦)

المؤمن المجاهد، رائد السياسية الإسلامية، مؤسس «نظام الإسلام»

عبقريّ وُلد في البنغال الشرقية

في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي عام ١٨٩١م، ولدتْ امرأةٌ قروية مغمورة في محافظة «سِلْهِت» إنسانا عظيما، لم تلد مثله نساءُ قريتها أو محافظتها، بل نساء وطنها، إلا بعدد قليل ضئيل يعدّ على الأنامل، لقد كان هذا المولود إنسانا عظيما منذ طفولته، عظيما في سلوكه ونشأته، ودراسته وتحصيله، وعلاقته بربّه وبأساتذته، ثم ما زادت الأيام إلا عظمته ورفعته، حتى أصبح من أعظم الناس في تاريخ هذه الدولة على الإطلاق، في تاريخها العلمي والثقافي، والسياسي والقيادي، والدعوي والإصلاحي، وأصبح موسوعة علمية، ومدرسةً فكرية كاملة، خرّجت آلاف الدعاة والمصلحين، وربّت تحت ظلّها أعلام العلماء وكبار القادة الإسلاميين، وبنت أجيالا قرآنية وموكبا دينيا شاملا، كما أصبح نموذجا حيّا ماثلا لسلف الأمة، وقدوةً حسنة أمينةً للشخصية الإسلامية الإنسانية، وصاحب القدح المعلى في الجمع بين الربانية والسياسة، والدين والدنيا، والجهاد ضدّ الظلمة والخونة، والطواغيت والمستبدين، ورفع كلمة الحق عند سلطان جائر، مع رسوخ في العقيدة واستقامة في الدين، وتضلّع في العلوم القديمة والحديثة، وسعة آفاق الفكر، ولا تزال هذه المنارة تشعّ نورَها، وتبثّ عرفانها، وتمحو الظلام، وتنير الطريق، ومن ثم ينطبق عليه- بجدارة- ما قيل عن المتنبي قديما- بلا جدارة- بأنه "إنسان ملأ الدنيا وشغل الناس"، إنه العالم المجاهد الباسل، ورائد السياسة الإسلامية الربانية في تاريخ هذه الدولة، وقائد العلماء والمرشدين، وموجّه الدعاة والمصلحين، ومؤسس الجامعة الإمدادية بـ«كشورغنج»، ومنشئ أحد

أكبر الأحزاب السياسية الإسلامية في البلد، حزب «نظام الإسلام»، الشيخ العارف بالله، مولانا أطهر علي رحمه الله.

لقد قام هذا العالم المجاهد بدورٍ فريد في حركة التحرير الهندي، وفي إنشاء دولة باكستان، ثم استمرّ بأدواره في العصر الباكستاني كله، أما الدور الذي أداه قبل ظهور بنغلاديش وبعدها، ولولا دوره، لا ندري لعل تاريخ العالم كان يمضي قدما في طريقه، غير أننا نكاد نقول بيقين بأنه لولا هذا الإنسان ولولا دوره، ربما كان تاريخ هذا البلد غير تاريخه اليوم، إلا أن الناس ظلموه، وأجحفوه، ولم يوفوه حقّه، بل اتّهموه بتهم شنيعة، وألصقوا به افتراءات فظيعة، حتى أقاموه ضدّ الحرية والاستقلال، وضدّ المجتمع والإنسانية، وهذا الذي يصرّ علينا أن نبحث عن حياة هذا الإنسان، وننظر في تاريخ تكوينه العقلي والديني والسياسي، ونشاهد مراحل حياته عن كثب، حتى يمكث في أرض التاريخ ما ينفع الناس ويرشدهم، وينصف هذا الإنسان، وأما الزبد فيذهب جفاءً.

نشأته وطلبه للعلم

بدأ الشيخ أطهر علي الدراسة في كتاب قريته، وتعلّم القرآن على والده، ثم دخلَ في المدرسة العالية بـ«جهينغاباري»، ودرسَ فيها فترةً، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في الجامعة القاسمية مدرسة شاهي بـ«مرادآباد»، ثم درسَ في جامعة مظاهر العلوم بـ«سهارنبور»، كما دخلَ في المدرسة العالية بـ«رامبور»، وهكذا تنقلّ في المراكز العلمية الكبرى، وأخذ العلوم على أيدي أساطينها، وفي نهاية المطاف ألقى عصا الترحال في رحاب دار العلوم ديوبند، وهنا وجدَ بغيتَه، وتخصّص في التفسير والحديث، تحت ظلال العلماء الكبار في ذلك العصر، المشهود لهم بالعلم والعمق، والربانية، والفراسة والقيادة، في داخل الهند وخارجها، ممن فيهم الشيخ أنور شاه الكشميري، والشيخ شبيرأحمد العثماني، والشيخ العلامة إبراهيم البلياوي، وشيخ المعقولات مولانا رسول خان، وشيخ الأدب مولانا إعزاز علي، ثم ذهبَ الشابُ أطهر علي إلى «تهانه بَهَون (Thana Bhawan)» ودخلَ في زاوية مجدّد العصر الشيخ أشرف علي التهانوي، وبايعه، وبدأ جهاده وجهودَه في التربية الروحية، وتعضيد الصلة بالله، طوال ثلاث سنوات، حتى أكمل الشوط، ووصلَ إلى سلّم الكمال، ودرجة الأولياء، وامتلأ بالمعرفة والعرفان، فنال من الشيخ الإجازة، وعادَ إلى مسقط رأسه.[1]

(١) حياة أطهر، تأليف الشيخ مولانا شفيق الرحمن جلال آبادي، ص٤٢-٤٤

في محراب التدريس

بعد أن عادَ إلى الوطن بدأ مرحلة جديدة في حياته، وتولّى التدريس في عدّة مراكز علمية، ومدارس دينية، بما فيها مدرسة «جهينغاباري» بـ«سلهت»، ومدرسة قاسم العلوم بـ«كُمِلّا»، لكنه لم يكن يجد قراره، وكان مضطرب البال طوال تلك الفترة، ثم راسلَ شيخه التهانوي وأخبره عن حاله، فأشاره الشيخ على الهجرة إلى محافظة كشورغنج والاستيطان بها، وجعلها مكانا لعمله، وساحة جهاده، وميدان نشاطه، فجاءَ الشاب أطهر إلى «كشورغنج»، وتولّى الإمامة في مسجد قديم، كان في سرير الاحتضار، وعلى وشك الانهيار!

من كان يظنّ في ذلك الوقت أن هذا المسجد الصغير شبه المهجور، في قرية منعزلة عن تيار الحضارة، وبعيدة عن حواضر التجارة والمدنية، عما قليل سيكون شاهدا على أروع مرحلة في تاريخ الحضارة والمدنية، وستكون ساحته المثلمة الضيّقة ساحة أكبر جهاد، ومقرّ أكبر مجاهد، وثكنة الأبطال الخالدين في تاريخ هذه الدولة، ومنارة تشعّ منها أنوار الإيمان والعقيدة في أرجائها، وبهذا يكون جزءا من التاريخ، ويلعب دورا فريدا في سياسة البلاد، وقيادة الشعب والأمة.

جهاده تحت مظلة «جمعية علماء الإسلام»

لما بدأتْ حركة «جمعية علماء الإسلام» عملها لصالح دولة إسلامية مستقلّة قائمة على الدستور الشرعي، والنظام الإسلامي، على أيدي العلماء الأعلام، والشيوخ الربانيين، الذين كانت لهم صولة وجولة في ميدان السياسة، والقيادة الروحية، وكلمة مسموعة عند جماهير الناس ورجال الدولة، وكانوا يتمتعون بثقة وأمانة عند جميع المواطنين، أمثال العلامة أشرف علي التهانوي والشيخ شبير أحمد العثماني وغيرهما، أقبل الناس وفي مقدمتهم العلماء على هذه الحركة إقبالا عظيما، ورفعوا أصواتَهم لصالحها، حتى نالت الحركة قبولا واستحسانا عاما في طول الهند وعرضها، وأصبحتْ «باكستان» موضع الآمال، ومنبع الأحلام، وأصبح إنشاؤها مجرّد قضية الأوان!

وقد نشأ الشيخ أطهر تحت ظلال هؤلاء الأعلام نشأة مباشرةً، وتربّى تحت أعينهم، فشاهد حياتَهم وجهادَهم، وإخلاصَهم للدين والوطن، وتفانيهم في سبيل الدفاع عن الأمة، شاهدَ كلّ ذلك بأم عينيه، منذ ذلك الحين أخذ على نفسه عهدا بأن يكون واحدا في ذلك الموكب النوراني العظيم، وجنديا في ذلك الجيش الإيماني الفريد، ها قد حان الآن أوانُه، وسنحتْ الفرصة، فنهضَ الشابُ أطهر، ونزلَ في

المساحة، وخاض غمار الحركة تحت مظلّة «جمعية علماء الإسلام»، وكان ذلك المسجد نقطة انطلاق رحلته، ثم في غضون عدّة أيام قامتْ حركة «جمعية علماء الإسلام» على قدم وساق، وأصبحت يقظة تميد، كما تحوّل ذلك المسجد إلى مقرّ هذه الحركة في شرق البنغال، وقاعة المؤتمرات، وصالة التخطيط والترتيب، ولولاه، ومعه قادة «جمعية علماء الإسلام»، لما كانت منطقة «سلهت» جزءا من باكستان آنذاك، ولما كانت اليوم جزءا من بنغلاديش![1]

هذا الجهد الذي بدأه الشيخ في نهاية أربعينيات القرن الماضي، عندما هبّت «جمعية علماء الإسلام» لعملها عند تأخذ مسيرتها عام ١٩٤٥م، لم تتوقّف طول حياته، وظلّ في الشارع إلى آخر عهده بالدنيا عام ١٩٧٦م، إلا أن المسار تغيّر، والدرب تبدّل، مع الثبات على المبدأ، والسعي الحثيث المستمرّ إلى الغاية العظمى، وكانت هذه الغاية هي إقامة دين الله في دنياه، وتطبيق الشريعة في واقع الحياة، وتنفيذ نظام الإسلام في أرض رب العالمين، حتى يكون الدين لله، وحتى لا تكون فتنة، في دولة ما كانتْ لتأتي في الوجود أصلا، ولم تبرز في خريطة العالم إطلاقا، لولا الإسلام، ولولا هذا الدين، فكان ذلك المجاهد الباسل، والحارس لتلك الغاية، يجاهد لتذكير العوامّ والخواصّ، والرعاة والرعايا بهذه الحقيقة، وبهذه الغاية التي خلقتْ هذه الدولة من أجلها، وهنا برزتْ عبقرية **هذا الإنسان**، وتميّزه عن كثير من معاصريه، وتفوّقه على كثير من قادة الدنيا ورجال السياسة والديمقراطية المزعومة.

لذلك نرى أن الشيخ يجاهد في النصف الثاني من أربعينيات القرن الميلادي الماضي تحت مظلة «جمعية علماء الإسلام»، وكان الهدف الأول والأخير لتلك الجمعية ولذلك الجهاد، وجهود جمّ غفير من العلماء والمرشدين، وعملهم مع قادة «الرابطة المسلمة»، هو إنشاء دولة إسلامية قرآنية باسم جمهورية باكستان الإسلامية،[2] وقد جاءتْ الجمعية في الوجود تحقيقا لتلك الغاية، وتجنيد الرأي العام لصالحها، وتلقين الناس بفوائد دولة مستقلة للمسلمين، ومستقبلهم الواعد في أرضها، والنعيم المنتظر في تلك الجنّة الخضراء.

الخدعة الكبرى في التاريخ السياسي للإسلام

إلا أن العلماء والمجاهدين الإسلاميين، والمصلحين الربانيين، المخلصين في جهادهم وجهودهم،

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف ذي الفقار أحمد القسمي، ص٦٥

(٢) مقال أ.ب.م. سيف الإسلام الصديقي، من الموسوعة البنغالية، عنوان "أطهر علي"

وقادة «جمعية علماء الإسلام» سرعان ما بعد الانفصال، وقيام الدولة الجديدة، اكتشفوا أنهم وقعوا في أكبر فخّ للخدعة والنفاق، وأن قادة الرابطة المسلمة الذين كان زمام الدولة الجديدة بأيديهم، كانوا أخلف من عرقوب، وكانت مواعيدهم أكذب من مواعيد عرقوب، تُرسل رعدها ولا تسيل ودقها، فلم يكونوا ممثّلين حقيقيين للإسلام، ولا كانوا يستسيغون الحكم الإسلامي، بل لم يكونوا مؤمنين بقدرة هذا الدين وقوّته الخارقة، وصلاحيته للعصر الحاضر ومطالبها، ولم يكونوا على ثقة بفضل الشريعة الإسلامية على النظريات السياسية الجديدة والقوانين الوضعية، فكيف بهم يطبّقون الشريعة ويجعلون هذا الدين دستورا للدولة! لذلك لم يكن منهم إلا أن أخذوا طريق الخدعة، وسلكوا سياسة المراوغة والتسويف، وحاكوا الدسائس ضد العلماء وحماة الشريعة.

هكذا تمّت أكبر خدعة في تاريخ الإسلام والمسلمين، لعلها كانت أكبر مساحة، وأبعد أثرا بعد انخداعهم في الأندلس، فانخدع ملايين المسلمين على أيدي لفيف من المسلمين أو المتظاهرين بالإسلام، وتقطّعت آخر صلة بين العلماء والقادة، وآخر ربطة بين «جمعية علماء الإسلام» و«الرابطة المسلمة»، وهكذا انتهتْ المرحلة الأولى في تاريخ الجمعيّة، إلا أن العلماء والزعماء المسلمين لم يتسرّب إليهم اليأس والقنوط، ولم ييأسوا من روح الله، ولم يرفعوا الراية البيضاء، بل عاودوا مطالبتهم، واستأنفوا جهادهم في جبهة جديدة، جبهة إجبارية وإقدامية، واستخدام القوّة، وكسب الرأي العامّ، وممارسة الضغوط، بدل الطريقة السلمية، والاعتماد على المواعيد السياسية الجوفاء.

استمرار الجهاد وظهور «نظام الإسلام»

بدأ العلماء في غرب باكستان وشرقها جهادا جديدا، جهاد تطبيق النظام الإسلامي في هذه البقعة، وكان على رأسهم الشيخ مولانا أطهر علي كقائد «جمعية علماء الإسلام» التي كانت حينذاك ممثلة للعلماء والمسلمين، ومتحدّثة رسمية باسمهم، ومنصّة وحيدة لاجتماعهم عليها، وقد كانت الجمعيّة في شرق باكستان أقوى منها في غربها، إذ ثار الشيخ أطهر علي، وقاد المظاهرات، وترأّس المؤتمرات والندوات، وجالس مع الرؤساء والوزراء، وقدّم نصائح ومطالب، وتطرّق معهم سبيل التأليف والتهديد، وردّ على خيانتهم ومظالمهم، وقد امتدّ الجهاد في هذه الجبهة من عام ١٩٤٧م إلى بداية عام ١٩٥٢م، وكان من أبرز ثمرات الجهاد في هذه الفترة دورُ «جمعية علماء الإسلام» وعلى رأسهم الشيخ أطهر علي في الردّ على نفاق حكومة باكستان الجديدة، واستنفار الرأي العامّ وثورة الجماهير على قادتها، عندما رفضوا تطبيق الدستور الإسلامي عام ١٩٥٠م بعد مماطلة شديدة وطويلة، إلا أن الحركة ضاعتْ قوّتها

الساحة، وخاض غمار الحركة تحت مظلّة «جمعية علماء الإسلام»، وكان ذللك المسجد نقطة انطلاق رحلته، ثم في غضون عدّة أيام قامتْ حركة «جمعية علماء الإسلام» على قدم وساقٍ، وأصبحتْ بيضة البلد، كما تحوّل ذلك المسجد إلى مقرّ هذه الحركة في شرق البنغال، وقاعة المؤتمرات، وصالة التخطيط والترتيب، ولولاه، ومعه قادة «جمعية علماء الإسلام»، لما كانت منطقة «سلهت» جزءا من باكستان آنذاك، ولما كانت اليوم جزءا من بنغلاديش![1]

هذا الجهاد الذي بدأه الشيخ في نهاية أربعينيات القرن الماضي، عندما هبّت «جمعية علماء الإسلام» لعموم الهند تأخذ مسيرتها عام ١٩٤٥م، لم تتوقّف طوال حياته، وظلّ في الشارع إلى آخر عهده بالدنيا عام ١٩٧٦م، إلا أن المسارَ تغيّر، والدرب تبدّل، مع الثبات على المبدأ، والسعي الحثيث المستمرّ إلى الغاية العظمى، وكانتْ هذه الغاية هي إقامة دين الله في دنياه، وتطبيق الشريعة في واقع الحياة، وتنفيذ نظام الإسلام في أرض رب العالمين، حتى يكون الدين لله، وحتى لا تكون فتنة، في دولة ما كانتْ لتأتي في الوجود أصلا، ولم تبرز في خريطة العالم إطلاقا، لولا الإسلام، ولولا هذا الدين، فكان ذلك المجاهد الباسل، والحارس لتلك الغاية، يجاهد لتذكير العوامّ والخواصّ، والرعاة والرعايا بهذه الحقيقة، وبهذه الغاية التي خلقتْ هذه الدولة من أجلها، وهنا برزتْ عبقرية هذا الإنسان، وتميّزه عن كثير من معاصريه، وتفوّقه على كثير من قادة الدنيا ورجال السياسة والديمقراطية المزعومة.

لذلك نرى أن الشيخ يجاهد في النصف الثاني من أربعينيات القرن الميلادي الماضي تحت مظلة «جمعية علماء الإسلام»، وكان الهدف الأول والأخير لتلك الجمعية ولذلك الجهاد، وجهود جمّ غفير من العلماء والمرشدين، وعملهم مع قادة «الرابطة المسلمة»، هو إنشاء دولة إسلامية قرآنية باسم جمهورية باكستان الإسلامية،[2] وقد جاءتْ الجمعية في الوجود تحقيقا لتلك الغاية، وتجنيد الرأي العام لصالحها، وتلقين الناس بفوائد دولة مستقلة للمسلمين، ومستقبلهم الواعد في أرضها، والنعيم المنتظر في تلك الجنّة الخضراء.

الخدعة الكبرى في التاريخ السياسي للإسلام

إلا أن العلماء والمجاهدين الإسلاميين، والمصلحين الربانيين، المخلصين في جهادهم وجهودهم،

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف ذي الفقر أحمد القسمتي، ص٦٥

(٢) مقال أ.ب.م. سيف الإسلام الصديقي، من الموسوعة البنغالية، عنوان "أطهر علي"

وقادة «جمعية علماء الإسلام» سرعان ما بعد الانفصال، وقيام الدولة الجديدة، اكتشفوا أنهم وقعوا في أكبر فخّ للخدعة والنفاق، وأن قادة الرابطة المسلمة الذين كان زمام الدولة الجديدة بأيديهم، كانوا أخلف من عرقوب، وكانت مواعيدهم أكذب من مواعيد عرقوب، تُرسل رعدها ولا تسيل ودقها، فلم يكونوا ممثّلين حقيقيين للإسلام، ولا كانوا يستسيغون الحكم الإسلامي، بل لم يكونوا مؤمنين بقدرة هذا الدين وقوّته الخارقة، وصلاحيته للعصر الحاضر ومطالبها، ولم يكونوا على ثقة بفضل الشريعة الإسلامية على النظريات السياسية الجديدة والقوانين الوضعية، فكيف بهم يطبّقون الشريعة ويجعلون هذا الدين دستورا للدولة! لذلك لم يكن منهم إلا أن أخذوا طريق الخدعة، وسلكوا سياسة المراوغة والتسويف، وحاكوا الدسائس ضد العلماء وحماة الشريعة.

هكذا تمّت أكبر خدعة في تاريخ الإسلام والمسلمين، لعلها كانت أكبر مساحة، وأبعد أثرا بعد انخداعهم في الأندلس، فانخدع ملايين المسلمين على أيدي لفيف من المسلمين أو المتظاهرين بالإسلام، وتقطّعت آخر صلة بين العلماء والقادة، وآخر ربطة بين «جمعية علماء الإسلام» و«الرابطة المسلمة»، وهكذا انتهتْ المرحلة الأولى في تاريخ الجمعيّة، إلا أن العلماء والزعماء المسلمين لم يتسرّب إليهم اليأس والقنوط، ولم ييأسوا من روح الله، ولم يرفعوا الراية البيضاء، بل عاودوا مطالبتهم، واستأنفوا جهادهم في جبهة جديدة، جبهة إجبارية وإقدامية، واستخدام القوّة، وكسب الرأي العامّ، وممارسة الضغوط، بدل الطريقة السلمية، والاعتماد على المواعيد السياسية الجوفاء.

استمرار الجهاد وظهور «نظام الإسلام»

بدأ العلماء في غرب باكستان وشرقها جهادا جديدا، جهاد تطبيق النظام الإسلامي في هذه البقعة، وكان على رأسهم الشيخ مولانا أطهر علي كقائد «جمعية علماء الإسلام» التي كانت حينذاك ممثلة للعلماء والمسلمين، ومتحدّثة رسمية باسمهم، ومنصّة وحيدة لاجتماعهم عليها، وقد كانت الجمعيّة في شرق باكستان أقوى منها في غربها، إذ ثار الشيخ أطهر علي، وقاد المظاهرات، وترأّس المؤتمرات والندوات، وجالس مع الرؤساء والوزراء، وقدّم نصائح ومطالب، وتطرّق معهم سبيل التأليف والتهديد، وردّ على خيانتهم ومظالمهم، وقد امتّد الجهاد في هذه الجبهة من عام ١٩٤٧م إلى بداية عام ١٩٥٢م، وكان من أبرز ثمرات الجهاد في هذه الفترة دورُ «جمعية علماء الإسلام» وعلى رأسهم الشيخ أطهر علي في الردّ على نفاق حكومة باكستان الجديدة، واستنفار الرأي العامّ وثورة الجماهير على قادتها، عندما رفضوا تطبيق الدستور الإسلامي عام ١٩٥٠م بعد مماطلة شديدة وطويلة، إلا أن الحركة ضاعتْ قوّتها

في هذه السنين الأخيرة، وفترتْ حدّتها، خصوصا في باكستان الغربية، وظلّ العلماء في الشرق يعملون على إحيائها وتقويتها، والإعادة إليها ماء الحياة!

لما جاء عام ١٩٥٢م أدرك الشيخ أطهر علي أن الجمعية أصبحتْ في سرير الاحتضار، وغلبها الفتور من كل جانب، وذهبتْ قوّتها إلى غير رجعة، ولا أمل في مستقبلها، فلا بدّ من أخذ طريق جديد، ورسم خريطة عمل جديدة، وتغيير درب، وتحدّث مع العلماء الأعلام وزعماء السياسة، ودعا مؤتمرا وطنيا لثلاثة أيام، ١٨، ١٩، ٢٠ من مارس عام ١٩٥٢م في محافظة «كشورغنج»، تحت رئاسة الشيخ القائد مولانا احتشام الحق التهانوي، فاستعرضوا ماضي الجمعية ومستقبلها، وناقشوا ظروف الشعب ومطالب العصر حتى تأخذ الحركة الإسلامية طورا آخر في مواجهة الاعتراضات والعقبات، بعد صحّت العزيمة على إنشاء حزب جديد، يكون وارثا لجمعية علماء الإسلام في فكرها ومنهجها ومنطلقاتها وغاياتها، فظهر حزب «نظام الإسلام»، وكان الشيخ أطهر علي رئيسه المؤسس، واختير الشيخ السيد مصلح الدين أمينا عاما له.[1]

آثاره في ميدان السياسة والقيادة

من يوم ميلاده بدأ «نظام الإسلام» يستفرغ كل جهوده لتحقيق غايته التي خُلق من أجلها وسُمي بها! وهي تطبيق نظام الإسلام، وإقامة حكم القرآن في أرض باكستان، فاستعدّ الشيخ أطهر علي لهذه الغاية الصعبة المنال، وأخذ لها طرقا ووسائل، ومن أجل تحقيقها كوّن عام ١٩٥٣م رابطةً مع الأحزاب المخالفة للرابطة المسلمة، التي استظلّ بلوائها العلماء في يوم من الأيام من أجل الإسلام، وهاهم الآن يكوّنون جبهة متّحدة لمخالفتها، وينصبون الشراك لهزيمتها من أجل الإسلام هو الآخر، وكانت من تلك الأحزاب «رابطة العوام المسلمة» تحت قيادة مولانا عبد الحميد خان البهاشاني، وحسين شهيد السهراوردي، و«حزب الرعية المزارعين» تحت قيادة أبي القاسم فضل الحق المعروف بأسد البنغال، وهكذا تكوّنت «الجبهة المتحدة»، وكان من أصولها "أن لا يكون ثمّة قانونٌ مخالف للإسلام في هذه الدولة".[2]

قد يرد هنا بعض الإشكاليات لدى القارئ حول هذا الموقف من «نظام الإسلام»، فالحزب الذي وُلد من أجل تحقيق النظام الإسلامي كيف يتحالف مع الأحزاب العلمانية؟ وهل يقوم أمر المسلمين

(١) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦) ص١١٥

(٢) المرجع السابق، ص١٢٢، ١٢٣

بتعاون من الاشتراكيين، وبتكوين جبهة متحدة مع الملحدين والوثنيين؟ إلا أنه لما ينظر القارئ في منطلقات هذه الجبهة وغاياتها يدرك أهميتها، واستراتيجيتها، وضرورة وجودها، وبراءة الشيخ أطهر علي من كل ما يمسّ نيّته، ويشوب هدفَه، فالأحزاب التي كانتْ في هذه الجبهة كان هدفها الأول والأخير هو المنافع السياسية، والوصول إلى عرش السلطة، أما الشيخ أطهر فكان لا يستهدف من مثل هذه الجبهة إلا نفع الأمة، وتطبيق النظام الإسلامي في هذه الأرض، ولنا أن نسأل القارئ أنه هل كان هناك بديلا من ذلك إذا لم تتكوّن جبهة مع هذه الأحزاب لكونها علمانية واشتراكية؟ وهل يمكن أن يؤتى بالانقلاب المسلّح بدل السير على درب الديمقراطية السائدة في هذه الدولة؟ وإلا ما الحلّ للأحزاب الإسلامية أن تبلغ القمة وتحقق أهدافها في مرحلة ضعفها، إلى أن يبعث الله في الأمة من ينهض بها مرة أخرى، ويسير على درب أمثل شرع لنا، درب الجهاد والقتال، دون السير في موكب الديمقراطية الغربية الفاسدة؟

مع كل ذلك لا يفوتنا أن نذكر هنا أن الشيخ شمس الحق الفريدبوري خالفَ هذه الفكرة، ولم يشارك في هذه الجبهة، ولم يؤيدها، وكان يرى أنه لا يتحد الإسلام مع الاشتراكية، كما لا يتحد الزيت مع الماء! وأن مستقبل السياسة الإسلامية لا يُعلّق على أحزاب لا تمثل الإسلام في شيء، ولا تؤمن بصلاحيته، ولا تثق بقيادته الرشيدة السعيدة.[1]

في عام ١٩٥٤م أُعلن الانتخاب التشريعي العامّ في عموم باكستان، فنهض نظام الإسلام وشاركَ في الانتخاب تحت مظلّة «الجبهة المتّحدة»، وجاءَ بالعجب، وسطر بجهاده وإيمانه تاريخ السياسة الإسلامية من جديد، انتصرت الجبهة المتّحدة في الانتخاب بفارق كبير، وغرقت «الرابطة المسلمة» وانهزمت شر هزيمة، وأصبح من «نظام الإسلام» ١٩ عضوا في المجلس الولائي،[2] وكان منهم الوزراء والقادة، وكان الشيخ أطهر علي من زعماء الحزب الحاكم في المجلس الوطني الباكستاني! إلا أن الخدعة كانت مستمرة، ووقعَ ما خافه الشيخ الفريدبوري بفراسته، وثبتت أن أحزاب «الجبهة» لم تكن أفضل

(١) المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف نسيم عرفات، ص١١٦ و١١٧

(٢) انظر سيرة وسياسة مولانا البهاشاني، تأليف أمجاد حسين، ص١٤٣، وكذلك Political Parties in South Asia, Edit. by Subrata K. Mitra & Others, (٢٠٠٤) p. ٢١٨ أما الموسوعة البنغالية فقد ذكرت أن النظام الإسلامي حاز ٤ مقعدا في المجلس الولائي و٣٦ مقعدا في المجلس الوطني، انظر مقال أ.ب.م. سيف الإسلام الصديقي، بعنوان "مولانا أطهر علي، الموسوعة البنغالية، وانظر كذلك فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الحافظ محمد نور الزمان، ص٧١

من «الرابطة المسلمة»، وأن قادها لم يكونوا أكثر إسلاما من قادة «الرابطة»، أما النقطة التي يتفق عليها الجميع هي الدنيا، فتوتّرت العلاقة، وانشقت العصا.[١]

هكذا ظلّ هذا الابن الأمين للإسلام يعمل لصالح الإسلام، ويعيش للإسلام وبالإسلام طوال حياته، وكأن الإسلام نسيج حياته كلها، لحمةً وسدى، ويسعى لهدف وحيد وهو إقامة دولة إسلامية يجد فيها المسلمون الأمن والسلام، وتعمّها ريح وريحانة من العهد الإسلامي الأول، عصر الخلافة الراشدة، أزهر عهد من عهود الحضارة الإنسانية، والدور الذهبي في تاريخها، وقد جاهدَ من أجلها في أربعينيات القرن الماضي حتى ظهرتْ باكستان، فلما ظهرتْ باكستان على جسر من الدماء والدموع والصلاة والتسبيح، والدعاء والمناجاة في جوف الليل، والجهاد والجهود في الشوارع والساحات، بدأ الجهادَ لتطبيق النظام الإسلامي في باكستان، إلا أنه رغم قيام منطقة كبيرة في غرب الهند، ومنطقة أخرى في شرقها، ورغم وقوفهما جنبا إلى جنب، والتقائهما على منصّة دين واحد وإيمان واحد، وتبنّ روحية وفكرية موحدة، ومستقبل واحد، وبالتالي ظهورهما كدولة واحدةٍ تطير بجناحيها، رغم ذلك كانتْ ثمة هوّة كبيرة بين هذين الشقّين، هوّة لم تزد الأيام إلا عرضها وعمقها، وكانت من أكبرها هذه القوميّة، والتعصب اللغوي والثقافي، والشعور بالفوقيّة والتفضل من جانب، والإحباط والتسفّل والظلم والاستبداد من جانب آخر، وهذا الشعور هو الذي ضربَ على الوتر الحسّاس، وقطعَ آخر صلة بينهما، وجاءتْ فكرة دولة جديدة في باكستان الشرقية، وارتفعتْ النعرات والدعوات إليها، وحمي الوطيس.

بنى بيتا فلم يرد هدمه

لا عجبَ أن العلماء الذين بذلوا كل ما كان لهم من النفس والنفيس والغالي والرخيص، للانفصال عن الدولة الوثنية الكبرى وإنشاء دولة إسلامية مستقلّة، دولة للمسلمين وحدَهم، ومن ثم نهض الناس في هاتين المنطقتين، ونسوا الهوّة القومية واللغوية، والعنصرية العرقية، من أجل الرابطة الدينية الكبرى، ثم جاهدوا فيها لتحقيق الغاية التي خلقتْ من أجلها، وكانوا على وشك النجاح، وعلى مقربة من تحقيق الأحلام، هنا جاءتْ دعوةٌ جديدةٌ، دعوة الانفصال مرّة أخرى، انفصال الشق الشرقيّ الذي لم يكن ليخلق إلا بفضل الشق الغربي وعلى كتفه، فجاءتْ دعوة الانفصال لعوامل شتّى، وهنا توزّعتْ آراء

(١) انظر M Bhaskaran Nair (١٩٩٠) p. Politics in Bangladesh, A study of Awami League ١٩٤٩-١٩٥٨, ١٥٧ وما بعدها

العلماء، وتنوّعت مواقفهم من هذه الدعوة الجديدة، وتفرّقوا على معسكرات، مثل ما حدثَ بعينه عام ١٩٤٧م عند انفصال باكستان عن الهند، باسم «جمعية علماء الهند» و«جمعية علماء الإسلام».

رأى الشيخ أطهر علي أن هذا الانفصال لا يحمل في طيّاته خيرا لهذه المنطقة، ولا مستقبلا واعدا فيها للمسلمين، ولا يحلّ مشكلات البلاد، ولا يلبّي بحوائجها، بل بالعكس سيجلب لها خسائر فادحة، ويؤزّم أمورها، ويحمّلها عبئا أثقل، وظلما أشدّ وأعنف، وليلا أبهمَ وأظلمَ، وسيتركها تحت جار لا يريد لها خيرا، وسيتحول هذا الانفصال إلى جناية كبرى على مستقبل هذه الدولة، ومستقبل الأمة المسلمة فيها، فكان من الطبيعي جدا أن لا يريد الشيخ أن يكون أوّل من يحمل المعول لهدم بيتٍ بناهُ يوما من الأيام بعصارة قلبه، وحبات كبده، فخالفَ الانفصال، وخالفَه معه حزبه، إلا أنهم لم يقترفوا المحرمات، ولم يقتربوا مما يخالف الشرع، من القتل وسفك الدماء، وخيانة الوطن والأمة، بل كتبَ الشيخ أطهر أثناء حرب الانفصال إلى قادة باكستان رسائل، ينصحهم فيها بالامتناع عن سفك دماء الناس، والسير على طريق الصُلح، لحل المشاكل التي حصلتْ بين جناحي الوطن، لكنهم أصغوا إلى نصائحه بمسامع صماء، فأنشأ الشيخ جمعيةً باسم «مجاهدو الإسلام» لإنقاذ الناس من غطرسة الجيش الباكستاني واعتدائه، إذن التهم التي وجّهت إليه وإلى حزبه هم منها براء كبراءة الذئب من دم يوسف.[١]

لكن الأقدار لم تساير هواه وأمله، فظهرتْ بنغلاديش، وجاءت الحكومة العلمانية التي كان ينذر بها، وزجّت بالشيخ في السجن لمدة ثلاث سنوات! وتعرّضت جامعته- الجامعة الإمدادية- أثناءها للنهب والإفساد، والإحراق والإطاحة، وسُرقتْ كثير من ممتلكاتها القيمة، وأحرقتْ من الكتب القديمة والمخطوطات النادرة ما أبكى ملايين البشر، وبعد فترةٍ قد لا تمتدّ على أكثر من عامين، ثبتت براءته في موقفه من الحرب، وخرج من السجن، لكن أثناء ذلك ضاع جزء كبير من التراث العلمي الذي كانت تحمله هذه المؤسسة التاريخية بين ضيق الصدر وضحالة النظر، ولم يعد هناك سبيل إلى استرجاعه.[٢]

يقرأ السلام على السياسة التي فسدت

لما خرج الشيخ من السجن وقد دخلَ فيه مرّة أخرى في العهد الباكستاني، وشاهدَ ظروفا بئيسة

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٧٩

(٢) حياة أطهر، تأليف الشيخ مولانا شفيق الرحمن جلال آبادي، ص٢٨٨

للدولة التي بناها يوما بيده، ورفعَ قواعدَها على أكتافه، ثم هي التي تتنكّر عنه الآن، وتعاديه في مواقفه وآرائه، ومنهجه وخريطة طريقه، أصابه الملل، والشعور بالإحباط، والتبرّم والاستياء، فترك مستقبل الدولة بيدها، وألقى حبلها على غاربها، وقرأ على السياسة سلام الوداع، وأخلص للعلم، حتى جعل منه والعيش معه أكبر غاياته، وغاية حياته، وتفرّغ للدراسة والتدريس في دوائر الجامعات والمدارس الدينية بعد أن قام بدورٍ لن يُنسى في تاريخ سياسي لشبه القارة الهندية بعمومها، ومهّد طريقًا للعلماء والإسلاميين إلى الخوض في غمار السياسة، وأداء الواجب في قيادة الشعب والدولة، ومن ثم ... الشيخ لم ينجح في تحقيق حلمه بشكل كامل، ولم يأت جهادُه طوال الحياة بانتفاضة إسلامية عارمة وتطبيق النظام الإسلامي في الدولة، إلا أنه خلف حقيقةً بيّنة، وأثبتَ بيقين لا يدع مجالا للشك أن الدولة التي وُلدتْ على اسم الإسلام لا تنحلّ مشاكلها السياسية إلا بالإسلام، ولا بدّ لها أن ترجع إلى جذورها من أجل الوصول إلى غاياتها المرجوّة، أما حزبه «نظام الإسلام» فلا يزال في الميدان، إلا أنه ليس له أثرٌ ملموس في السياسة ولا في حياة الأمة.

نابغة الدعوة والتعليم والإصلاح

رغم هذا الجهاد الدؤوب، والسعي الحثيث، والقيام بدور الزعامة في ميدان السياسة والقيادة، بذل الشيخ أطهر علي وقتا كبيرا من حياته على الدعوة، وإصلاح الناس والمجتمع، ونشر التعاليم الدينية الصحيحة، وتنشئتهم على العقائد السليمة، وتخريج جيل قرآني يكون حارس الأمة، وحامي الشريعة. من أجل ذلك نراه يؤسس الجامعات العربية، وينشئ المدارس الدينية، والمراكز العلمية، ويبني المساجد والكتاتيب، وكان من أبرز مآثره العلمية والثقافية تأسيس مركز علمي شامل، لا يزال يعدّ من صفوة المؤسسات الإسلامية في الدولة، الجامعة الإمدادية بمحافظة «كشورغنج»، أسسها عام ١٩٤٥م، وقد منح هذه الجامعة عصارة قلبه، وخلاصة جهوده وجهاده، وجلب لها كوكبةً مضيئة من العلماء ورجال الثقافة، حتى -في حياته- بلغتْ قمّتها، ووصلتْ إلى أوج مجدها، وخرجّت جماعة من الأعلام والدعاة قلّ أن يوجد لهم نظيرٌ في تاريخ هذه الدولة، وعلى رأسهم الشيخ الكبير مولانا عطاء الرحمن خان والشيخ مولانا أنور شاه، نجل الشيخ أطهر ورئيس الجامعة الإمدادية حاليا وغيرهما.[١]

برزتْ عبقريته في الدعوة والإصلاح، وبناء الرجال، إلى حدّ يثير العجب، وعُرف بفراسته الإيمانية

(١) المرجع السابق، ص٨٣

وبعد نظره، وسعة اطلاعه، وعلوّ همته، حتى اشتهر عنه بأنه كان يلحظ شيئا قبل وجوده بخمسين عاما، وأنه كان يتنبأ بمستقبل يتحقق بعد نصف قرن، ويعدّ للكارثة التي ستأتي بعد عقود، ولذلك قامَ في مجال الإصلاح والتعليم خلال حياته بما لم يقم به أصحاب المدارس ورجال التربية إلا بعد خمسين عاما، ولم تبرز أهميته إلا في الآونة الأخيرة، ففتحَ في الجامعة الإمدادية قسم اللغات والآداب، ليتدرّب الطلاب على الكتابة والتأليف، والترجمة والإنشاء بلغتهم الأمّ، وهل أعجب من ذلك يا ترى أن مدرسة دينية في خمسينيات القرن الماضي تدرّب طلابَها على اللغة الآداب، في عصر كانت معظم المدارس الدينية تراها شيئا مهجورا ليس له دورٌ في الحياة، وأصدر رسائل ومجلات بالأردية والبنغالية، وليس ذلك غريبا على الشيخ أطهر علي، فقد كان من روّاد حركة اللغة البنغالية.[١]

كما فتح قسم الدعوة والتبليغ، وقسم التدريب المهني، وقسم الطبّ، ليتدرّب الطلاب على الدعوة والإصلاح من جانب، وعلى الحياكة والخياطة والطب الأوليّ من جانب آخر، كما كانت فيها برامج التدريب على مساحة الأراضي، والتعامل مع البرقيات، والآلة الكاتبة (بما أن الحاسوب لم يصل إلى تلك المنطقة آنذاك)، كما أنشأ مكتبة كبيرة، وأغنتْه بالكتب القديمة، والمخطوطات النادرة، والرسائل القيمة، وهكذا أصبحت هذه المدرسة «جامعة عربية إسلامية» بمعنى الكلمة، وكان لها دورٌ مشكورٌ في نشر العلم والمعرفة، وتخريج رجال كانوا قادة الأمة، وحماة الشريعة، ودعاة الإيمان، وبناة المجد والحضارة والعمران.

آثاره في ميدان التأليف والخدمات الإنسانية

كتب الشيخ أطهر علي بعض الكتب والرسائل لتكون سلاحا له في ميدان جهاده، وساحة سياسته، فكان «لماذا نطالب بالنظام الإسلامي» باكورة أعماله الفكرية، وكان في الواقع أوّل كتاب من طرازه باللغة البنغالية، ثم كتب «في ظلال النظام الإسلامي» و«فلسفة الحياة الإسلامية» و«الطريق إلى فهم القرآن»، كما ترك بعض المسودات القيمة باللغة العربية والأردية، إلا أنها تآكلتْ ودخلت في بطون الديدان بدل أن تدخل في المكتبات، ولم تعد تصلح للطباعة والنشر، وأصدر مجلة «النظام الإسلامي»، وصحيفة «النجاة»، وكان لهما دورٌ كبير في إعداد الدعاة، وتجنيد الرجال.

كما قامَ بدور إنساني كبير تجاه شعبه، حتى أعاد تأسيس محافظة «كشورغنج»، وزوّدها بالماء

(١) انظر مقال خمشير هارون الرشيد، جريدة شنغرام (الكفاح) اليومية، السبت، ٢ نوفمبر، ٢٠١٣م

والكهرباء، والتقنية ووسائل المواصلات الحديثة، والمرافق المدنية العامة، فتنمت الزراعة، وتفننت الصناعة، وازدهر العمران، حتى أصبحتْ «كشورغنج» محافظةً زاهرة ومدينة زاهية معاصرة، عاشت عهدَه كله متنعّمة باستقرار وهدوء ورخاء، وشهدت نهضة عمرانية وتجارية وصناعية كبيرة.

السياسي المؤمن والمصلح المتقي

أما في العبادة والربانية، والسلوك والإحسان، والزهد والورع، والصلابة في الحق، والوقوف عند حدود الشرع، فكان الشيخ أطهر على القمّة، وكان محافظا على النوافل والمستحبات، فضلا عن الرواتب والواجبات، ويؤدي الصلاة بالجماعة في حله وترحاله، وكان الوقت أثمن وأنفس عنده من الألماس، فكان لا يضيع منه ثانية إلا فيما ينفعه، وقد بايع الشيخ أشرف علي التهانوي ونال منه الخلافة، بل كان من أبرز خلفائه في هذه الدولة، ثم أخذ البيعة من الناس وساعدهم على السلوك، وقد نال منه الخلافة عددٌ من كبار علماء هذه الدولة، بمن فيهم الشيخ مولانا أحمد علي خان، والشيخ القارئ نثار علي السلهتي وغيرهما.

كيف كانت أيامه الأخيرة في الدنيا؟

كانتْ أيامه الأخيرة مسرحا للتحديات، ومرتعا خصبا للمأساات، فقد هجرَ محافظة «كشورغنج» وغادر الجامعة الإمدادية، موطن عمله، وساحة جهاده، ومصدر أمله ومركز حلمه، بفعل الاضطرابات السياسية اللامتناهية، والمكائد والدسائس، وأمواج الحقد والطعن، والتهم والافتراءات من المخالفين هكذا انقطعَ عن الجامعة الإمدادية مؤسسها الأول، وصاحب فكرتها الأولى، والذي يرجع إليه الفضل في نشوئها ونضجها، بعد أن غرسها بيده، وسقاها بدمه، وتعهدّها برعاية قلبه وروحه.

كم عالم متفضل قد سبه ... من لا يساوي غرزة في نعله

البحر تعلو فوقه جيف الفلا ... والدر مطمور بأسفل رمله

وقد اختاره الله ٦ أكتوبر عام ١٩٧٦م، بعد أن ترك «كشورغنج» واستوطن في محافظة «مؤمن شاهي»، وبدأ يبذل جهوده الجبارة في بناء مدرسة دينية فيها، وهذه المدرسة هي التي اشتهرتْ بالجامعة الإسلامية بـ«مؤمن شاهي» في التاريخ، وكان عمل الإنشاء على قدم وساقٍ، إذ تم أجل الشيخ قبل أن

يتمّ المشروع، وذهب إلى رفيقه الأعلى، ودُفن في ساحة المدرسة، ثم اكتملَ المشروع على أيدي خلفائه، وتحقق حلمه، وهذه المدرسة لا تزال تعمل عملها وتؤدي دورَها، وتشهد على عبقرية هذا الإنسان وعظمته، وقد توفي الشيخ أطهر علي في اليوم الذي توفّي فيه الشيخ المفتي محمد شفيع العثماني الباكستاني، الذي كان من أصفى زملائه، وأقرب الأحباب إليه، وكان كلاهما خرّيج دار العلوم ديوبند، وثمرة الدوحة الأشرفية بـ«تهانه بهون».

مولانا صدّيق أحمد

(١٩٠٣ - ١٩٨٧)

الخطيب الأعظم، العلامة الكبير، المصلح السياسي العظيم

بنغاليّ ذهبَ من شرق باكستان إلى غربها، وألقى سلسلة من المحاضرات والخطب النارية في «لاهور» و«كراتشي» و«بيشاور» و«ملتان»، تتناول العلم والتربية، والحياة والسياسة، والدين والاجتماع، والحكومة والخلافة من عمقها وصميمها، وتحلّلها تحليلا علميا رصينا، حتى أحدثت ضجة هائلة، قامت لها الحكومة الباكستانية وقعدت، واهتزت الخلايا العلمانية هزا عنيفا، وتفاجأ العلماء بهذا العبقري البنغالي الذي يتقن الأردية إتقان أبنائها لها، بل إتقان المتخصصين فيها، ويتحدّث في السياسة والخلافة، كأنه من طليعة القادة السياسيين، والأبطال الفاتحين، فقدّروا هذا الخطيب النابغة، وخلعوا عليه لقب "الخطيب الأعظم"، فاشتهر بهذا اللقب في وطنه، وبين أبناء دولته.(١)

رجل جمع بين العلم والعمل، والمعرفة والربانية، والتدريس والتأليف، والخطابة والسياسة، والتواضع والمناظرة، والتطورّ والتحفّظ، والدراسة والقيادة، والعلوم الإسلامية والعصرية، وكان رمزا للاتّحاد والاتفاق، وأنموذجا رائعا للوحدة والوفاق، وتوحيد صفوف العلماء والتقريب بينهم، وجمع كلمة المسلمين، والعمل في السياسة من أجل الدين وليس العكس، إنه الشيخ المصلح، المرشد الرباني، الخطيب الأعظم، مولانا صدّيق أحمد رحمه الله.

---

(١) إلا أن الكاتب المشهور الشيخ نور محمد الأعظمي ذكر أن لقب "الخطيب الأعظم" ناله الشيخ في اجتماع عامّ في ساحة المدرسة العالية بمحافظة فيني عام ١٩٦٥

ميلاده ونشأته

وُلد هذا الإنسان العظيم عام ١٩٠٣ للميلاد(١) بمحافظة «كوكس بازار»،(٢) في بيت [illegible] والربانية، معروفٍ بالصلاح والتقوى، والشرف والجاه، فحثّه ذلك على العلم والاستزادة [illegible] ارتقاء الذهن والعقل، بدأ الطفل الدراسة في كتّاب قريته، ثم التحق بمدرسة حكومية. [illegible] العلوم الشرعية والعصرية، ثم ذهب إلى الجامعة الإسلامية معين الإسلام بهاتهزاري، ودخل في [illegible] الشريعة من أوسع بابها.

ظلّ أربع سنوات يدرس في جامعة هاتهزاري،(٣) ويستفيد من كبار أساتذتها، [illegible] الأعظم فيض الله، والشيخ سعيد أحمد، والشيخ عبد الوهاب،(٤) في العصر الذي كانت الجامعة [illegible] عزّها وازدهارها، وأزهى عصورها وأقواها، وشبابها وفتوّتها، وكان من أصفى تلامذة المفتي الأعظم [illegible] ومن أحب الناس إليه، يستفيد منه داخل الصف وخارجه، وفي الخلوة والجلوة، وفي [illegible] وحتى في الزورق وهو يجلس على صفحة الماء، وفي الطريق وهما يمشيان إلى البيت.(٥) وكان [illegible] حلقات المفتي الأعظم، ويطلع على خزائن كتبه في بيته.(٦)

لما أنهى مرحلة الفضيلة فكّر الأساتذة الكبار في حمله على السفر إلى الهند والدراسة في [illegible] ديوبند، لكنه علم أن جامعة ديوبند قد قام فيها شيءٌ من الخلافات ونوع من الاضطرابات، [illegible] الأساتذة الكبار أمثال الشيخ الكشميري والشيخ شبير أحمد العثماني وغيرهم قد تركوا الجامعة [illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

إلى مراكز علمية أخرى، فاستشار الشيخ الرباني حبيب الله وهو مستشار مؤتمن، ففرح الشيخ واستبشر به، وأشاره على الدخول في جامعة مظاهر العلوم بـ«سهارنبور».

في الطريق إلى الهند

سافر الشابّ صدّيق أحمد إلى الهند وهو يتدفّق حياةً ونشاطا، وحماسا شديدا لينهل من مناهل العلماء الأفذاذ، والأساتذة النوابغ في مظاهر العلوم، المعروفين في الشرق والغرب بعلمهم في الكتاب والسنة، وخدمتهم للدين والأمة، وعلى رأسهم ريحانة الهند، شيخ الحديث العلامة زكريا الكاندهلوي، والشيخ العلامة عبد الرحمن الكاملبوري،(١) فدخلَ في جامعة مظاهر العلوم، وتخرّج في مرحلة التكميل عام ١٩٢٦ للميلاد.

ثم دخلَ في رحاب جامعة ديوبند وقد زالت النزاعات، وتبخّرت الخلافات، وعادت المياه إلى مجاريها، ونشأ بين الأساتذة تفاهمٌ والتقاءٌ على غاية النهوض بالجامعة، فبدأ ركب العمل يسير نحو الأمام مرّة أخرى بحماس مزيد، هنا لقي الشيخ بالعلماء الأفذاذ، وأخذ العلم من عباقرة العلم والمعرفة، أمثال الشيخ القارئ محمد طيب رئيس دار العلوم ديوبند، والفقيه النابغة العلامة المفتي محمد شفيع، وشيخ الأدب مولانا إعزاز علي،(٢) كما لازم الشيخ أشرف علي التهانوي لفترة، وأخذ منه فيوضا روحية، ودروسا قيّمة في التزكية والربانية، كان لها أثرٌ كبيرٌ في حياته.(٣)

حياته في المراكز العلمية الكبرى

في عام ١٩٣٠م عاد إلى الوطن، وبدأ مرحلة جديدة في الحياة تحت ظلال أساتذته، في رحاب مقرّ حلمه ودراسته، وبناء شخصيته، جامعة هاتهزاري، حتى علا نجمه، وانتشرت شهرته بين الأوساط العلمية، والطلاب والعلماء، وظلّ فيها عدّة سنوات حتى جاءتْ دعوة ملحة من المجلس الأعلى لجامعة فتية، وعلى رأسهم تلميذه العلامة الحاج محمد يونس، تطلب منه أن يتكرّم بالتدريس في جامعة فتية ويتقلد منصب شيخ الحديث فيها، فلم يكن من الشيخ إلا أن وافقَ على هذا الطلب وجاء إلى جامعة فتية عام ١٩٦٦م، وظلّ فيها بقيّة حياته، أشرفت على زهاء ربع قرنٍ، حتى وافته المنية، وانتقلَ إلى

(١) ذكر البعض اسمه "عبد الرحمن الكانفوري"، وما عثرنا على ذلك.

(٢) الخطيب الأعظم صديق أحمد: مصدر انقلاب شامل للدكتور أ.ف.م خالد حسين ص٥

(٣) مقال ريحان آزاد، جريدة "نيا ديغانتا" (الأفق الجديد) اليومية، الخميس، ٢١ مايو، ٢٠١٥م

جوار ربه عن عمر يناهز ٨٠ سنة، عام [illegible] الميلادي.

أثناء هذه السنوات تدريس وتوجيه في جامعتين كبيرتين على [illegible] أعلام الدعوة والفكر، وكوكبة نيّرة من [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] الأرض [illegible] [illegible] رئيس الجامعة [illegible] والشيخ العلامة [illegible] [illegible] الشيخ [illegible] [illegible] في شرح [illegible] [illegible] والشيخ العلامة [illegible] الإسلام [illegible] والشيخ العلامة [illegible] رئيس الجامعة [illegible]

يرفع لواء التوحيد والسنة فوق أنقاض الشرك والبدعة

[illegible]

[illegible] لا [illegible] ولا [illegible]

[illegible]

باللغة الأم ولغة المواطنين، فقد كان معظم العلماء والمتخرّجين في دار العلوم ديوبند ومظاهر العلوم بسهارنبور» يتقنون اللغة الأردية والفارسية أكثر من اللغة البنغالية، لتعوّدهم عليها، والعيش في بيئتها، ولكونها لغة الكتابة والتأليف، والفكر والحديث، لفترةٍ طويلةٍ في حياتهم، وكان لهذا التيار أثرٌ سلبيّ ضخمٌ عميقٌ في مجتمعات هذه الدولة بجانب محاسنها وإيجابياتها، وكانت لغة التدريس في جامعات هذه الدولة ومدارسها هي غير لغة الوطن والمواطنين، وكذلك غير لغة الدين، ولا تزال هذه الظاهرة حيّة تُرزق، في بعض المحيط الديني في بنغلاديش.

ضرورة إتقان اللغة الأم وثمارها في الميدان

أدركَ الشيخ خطورةَ هذه الظاهرة الفتاكة، وعواقب هذه العزلة القاتلة، وأدركَ أن هذا التيّار خطأٌ في ظاهره وباطنه، وأن الحالة لا بدّ أن تتغيّر، وأن الصوتَ لا بدّ أن يُرفع، فأتقن البنغالية بحكمها اللغة الأم، ولسان المواطنين، ثم أتقن الإنجليزية بحكمها لغة الدعوة، والتأثير في الأوساط المثقّفة، ثم امتطى صهوة جواده ونزلَ في الميدان، ووقفَ سدّا منيعا أمام الطوفان، وخاضَ مناظرات ضدّ القبوريين المبتدعة، وكان المولوي عزيز الحق المعروف بـ«أسد البنغال» رأس البدع، وجماع الخرافات، وقرن الشيطان في هذه المنطقة، فبارزه الخطيب الأعظم في مواطن كثيرة، وردّ عليه ردّا بليغا مفحما، وبدأ الناس يفتحون أعينهم على الحقيقة، ويعودون إلى دين الله الخالص أفواجا وأرسالا، ولما رأى العلماء هذا النجاح الباهر الذي أحرزه الخطيب الأعظم في ميدان الخطب والمناظرات، وأثر كلماته في المحافل والمناسبات، تشجّعوا ونهضوا، وجاءتْ انتفاضة عامّة في أوساط المدارس الدينية، ولقيت اللغة الأمّ فيها رواجا كبيرا.

كاتب مصلح يكتب للإصلاح

كان الخطيب الأعظم رجل علم وفكر بلحمه وسداه، ومصلحا في صميمه، ومؤلفا قديرا، وصاحب قلم رشيق سيّال، ويراع فيّاض، يُريد الإصلاح عن طريق الكتابة والتأليف قدر ما يستطيع، فجمع إلى ثقافته الدينية الخالصة العميقة الذوقَ الأدبي والتاريخي، والرغبة العارمة في التأليف والإنشاء والتحرير، وهي الخصائص التي تعتبر غريبة نادرة عند معظم العلماء المتخرّجين في المدارس العربية، وفي المحيط الديني الذي عاشه، ومن ثم نراه مع **اشتغاله الشاقّ في التدريس**، ورحلاته الدعوية والإصلاحية، وسعيه الحثيث، وجهاده المستمرّ في ميدان السياسة، وإلقاء الخطب والمحاضرات، فرّغ وقتا كبيرا للكتابة،

حتى أصبح عدد ما كتبه يزيد على خمسة عشر كتابا! معظمها باللغة البنغالية، ومن أشهرها وأولاها: تعليم المدارس الدينية وتاريخ تطورها ○ واجبات العلماء ومسؤولياتهم ○ ختم النبوة ○ مكانة السنة [illegible] (ثمانية مجددين، كتبها في السجن) ○ معراج النبي ○ مواعظ الخطيب الأعظم مجموعة مواعظه وخطبه ○ دحض إشكالات اللجنة التعليمية ○ النقاء الصحفي ○ الدعوة إلى الحق ○ دور العلماء في حركة الإسلامية ○ إصلاح تعليم المدارس ○ الوقفية، وغيرها.

هذا وقد أنشأ مركز البحوث والنشر باسم «هيئة تحفظ الإسلام» مع الشيخ [illegible]، وأصدر هذا المركز كتبا كثيرة وبحوثا قيمة في الرد على الباطل وأهل البدع، وتشجيع السياسة الإسلامية في هذه البقعة، وتكوين الحكومة وفق «الخلافة على منهاج النبوة».

موقفه من منهج التعليم في المدارس الدينية

كتاب الأول الذي ذكرناه هنا «تعليم المدارس الدينية وتاريخ تطورها» يعد كتابا فريدا في موضوعه، ونادرا في بابه، خصوصا في الوقت الذي كتبه، فقد كان العلماء حينئذ يعيشون [illegible] [illegible] العصر الحاضر ومعطياته ومستوياته. وقد جاء الكتاب. [illegible] والتناقض بين مناهج الجامعة ومقررات المدرسة، وبين واقع الحياة ومستجدات المجتمع [illegible] وانتقد فيه المؤلف عزلة العلماء وأصحاب المدارس الدينية عن المجتمع [illegible] الحياة، وإعراضهم عن مجاراة الزمن، [illegible] في صفحات الكتب [illegible] [illegible]

[illegible]

ويستنكفون عن دعوات الإصلاح والتجديد، ومقيدين بماضيهم المألوف، ورأوا أن هذا المنهج لا بديل له ولا محيص عنه، كأنه وحي لا يقبل الإصلاح، أو على الأقل تراثٌ مقدّس غني عن النسخ والتغيير والتحرير، ويرون العدول عنه ضربا من التحريف، ونوعا من الابتداع.

هكذا كانت الأوضاع التي وُلد فيها ونشأ، ودرسَ وشبّ، فكانت خيبة أمل، لكنه مع ذلك لم يستسلم للأوضاع، ولم يرفع للظروف الراية البيضاء، ولم يذب في المجتمع، بل غير الاستراتيجية، وظل يعمل عمله.

إن أريدُ إلا الإصلاح ما استطعتُ

بالفعل لقد كان هذا النقد جرأةً كبيرةً تحتاج إلى الإيمان الكامل، واليقين الصادق بما يقوله الرجل وينتقده، ولا سيما عندما يكون الإنسان في داخل البيت فينتقد أهله ويعدّ عليهم معايبَهم، وقد برزَ موقفُه من المنهج الدراسي السائد في الجامعات والمدارس في وقته، مما كتبه الدكتور محمد رشيد زاهد أثناء ذكرياته مع الخطيب الأعظم، في مجلة «الداعية» الصادرة من دار العلوم ديوبند، فقد كتب الدكتور على لسان الخطيب الأعظم: "إن الوضع الحالي للتعليم العربي وآدابه مهدّد، وغير مرض؛ لذلك يحتاج إلى تعديل وإصلاح وتجديد في المناهج الدراسية حسب الظروف الراهنة".

ومن أهمّ ما قاله الخطيب الأعظم في هذا الصدد: "إن المنهج المدرسي مسؤول قبل كل شيء عن الضعف الذي نراه في الجيل الناشئ، وفي خرّيجي المدارس، فالطالب الذي قضى عشر سنوات من عمره في هذه المدارس لا يقدر على اللغة العربية، كما لا يرى لنفسه مكانا في المجتمع الذي يعيشه، إلا الإمامة في المساجد والتدريس في المدارس، فلا يجد مكانا في المجتمع، ولا في السياسة، بل يعيش على هامش الحياة، فلا بدّ من الإصلاح الشامل لمنهج هذه المدارس، الذي يُزيل من مقرراتها كتب الفلسفة اليونانية القديمة والمنطق البالي التي ضعفت الحاجة إليها في هذا العصر، والمسائل التي لا علاقة لها بالحياة إطلاقا، مع الحفاظ التام على الروح والجوهر، والتركيز الكلي على التفسير والحديث والفقه، ويعطي القرآن حقه من العناية، ويوجّه اهتمامه إلى تعليم اللغة العربية كلغة من لغات المجتمع الإنساني المعاصر، وكلغة حيّة تكتب وتنطق، لا كلغة أثرية ميتة".(١)

نحن نتعجب حينما نقرأ هذه السطور، كيف تحدّث الخطيب الأعظم قبل أكثر من نصف قرن، ما

(١) لعل القارئ ينظر بتفصيل في كتاب الخطيب الأعظم صديق أحمد، للدكتور أ.ف.م خالد حسين، من صفحة ٥٧ إلى ٩٧.

لا يزال يصلح لعصرنا، كأنه تحدّث بها أمس أو قبل أمس، ورغم ذلك لم يلتفت إليه شعبه، ولم يعر بها رأسه، ولم يهتمّ بهذه النصائح الخالدة بنو قومه، فظلوا في ضعفهم، وما زادت الأيام إلا ضعفا، ولا يزالون يقرؤون المنطق والكلام في عصر العلوم، ويقرؤون القواعد العربية بالفارسية والأردية!

وقد كتب عن الاقتراحات التي قدمّها الخطيب الأعظم حول مقررات للمدارس العربية الشيخ عبد الرحمن خان، فقال: "الاقتراحات التي تركها العلامة محمد يوسف البنوري، والشيخ العلامة نور محمد الأعظمي، والشيخ الخطيب الأعظم لإصلاح تعليم المدارس العربية، كانت اقتراحات عظيمة، غير أنه مع الأسف لم تحقّق آمالهم، ولم تأت بتلك الاقتراحات في حيّز التنفيذ، كان هؤلاء الأعلام أعمق وأكثر اطلاعا على تاريخ علماء ديوبند، وأهدافهم، وغاياتهم من تأسيس مدرسة ديوبند، فلو نفذنا رآه هؤلاء العلماء– وهم نخبة علماء هذه البلاد وخلاصتهم– ونفّذنا الاقتراحات التي قدّموها، لاستفدنا كثيرا، إلا أنه كما يشهد التاريخ ديدن هذا الشعب هو الاستخفاف بتراث الكبار، والوقوف من الأفكار الجديدة موقف الشك والإعراض.

صولاته في ميدان السياسة

الرجل الذي عُرِف منذ طفولته بالوعي والنباهة، وعلوّ الهمة والفراسة، وسعة النظر، ورحابة الصدر، والخطّة الطويلة المدى وبعيدة الأثر للدعوة والإصلاح، لم يكن يجوز له أن يعيش في عزلة عن الاضطرابات السياسية، والحركات التحريرية، والدعوات إلى الانتفاضات، والمناوشات بين الشعب والحكومة، ومعاناة العلماء على أيدي الإنجليز، ومأساة المسلمين من قبل طواغيت الهندوس، فقد كانت الهند في فوهة بركان منذ حركة التحرير الكبرى إلى نهاية طرد الاحتلال، واستقلال الهند ثم نشوء باكستان، فلذلك من عاش تلك الفترة الدقيقة في تاريخ شبه القارة الهندية بقلب نابض، غيور على الدين والأمة، وقلق على مستقبلهم، اضطرّ إلى النزول في الساحة، واضطرّ بطبيعة الحال على خوض في غمار السياسة.

دخل الخطيب الأعظم في السياسة منذ اللحظة الأولى، وتطوّع العمل في «حركة الخلافة»، بعدما سقطت الدولة العثمانية محتضنة الخلافة ورمز الجامعة الإسلامية، وشعار عز المسلمين وكرامتهم، على يد كمال. وأيّدت بريطانيا سقوطها، ثار العلماء في الهند، وثار المسلمون معهم، وثار الخطيب الأعظم، ثم باشر العمل في «حركة عدم التعاون» التي قادها غاندي. فأيّد العلماء وقادة المسلمين هذه الحركة والشعب في أوسع نطاق، وما بدأ العلماء وعامة المسلمين حركة سياسية قوية بقيادة الشيخ حسين أحمد

المدني، وبدأت «جمعية علماء الهند» مسيرتها نحو الأمام، أصبح الخطيب الأعظم عضوا نشيطا لها، وبدأ يسعى في سبيل نجاحها وتحقيق أهدافها، وتحرير الهند من الاحتلال.[1]

انفصل العلماء تجاه تحرير الهند من براثن الاحتلال وتوزّعوا على فئتين، وصار لكل منهما نظام إداري مستقل، ومنهاج للعمل منفصل، لتقوم كل واحد منهما بالمسؤوليات التي أنيطت بها، فئةٌ تؤيّد وحدة الأرض الهندية والحفاظ على كيانها كما هي موجودة منذ انطلاق التاريخ، واستئناف المسيرة بعد طرد الإنجليز كما سارتْ من الأزل، بينما فئة أخرى تؤيد فكرة دولة جديدة للمسلمين وحدَهم، قائمة على القرآن والسنّة، والدستور الإسلامي، حتى يظل المجتمع الإسلامي يعيش في ظل تعاليم السماء، ويقوم فيها المسلمون بشعائر الله، وينفّذون حدود الله على أرضه، لا يخافون فيها سلطانا جائرا، ولا حاكما جبارا، ولا شعبا مستكبرا، فبقيتْ «جمعية علماء الهند» تمثل الفئة الأولى تحت قيادة الشيخ حسين أحمد المدني، وبرزتْ «جمعية علماء الإسلام» تحمل لواء الفئة الثانية تحت زعامة الشيخ شبير أحمد العثماني.

ثم برزتْ في الوقت المتأخر حركةٌ سياسية ثالثة، نابعة عن جمعية علماء الإسلام، عندما ضعفتْ وشاختْ، وضاعتْ قوتها وذهبت ريحها في باكستان الشرقية، تحت قيادة العالم السياسي المجاهد، العلامة أطهر علي، باسم «حركة نظام الإسلام»، فانضوى الخطيب الأعظم تحت لوائها، وبعد فترة يسيرة تولّى رئاستَها، واشترك في الانتخاب البرلماني الباكستاني تحت مظلتها عام ١٩٥٤م، مع «الجبهة المتحدة»، ففاز في الانتخاب، وصارَ عضوا في المجلس الولائي لباكستان الشرقية، ودخلَ في البرلمان يرفع لواء السياسة الإسلامية خفّاقة رفرافة، وقام بالإصلاح الكبيرة داخل البرلمان وخارجَه، وجاهدَ لإقامة حكومة إسلامية في باكستان بشقّيها التي خلقتْ من أجلها،[2] ثم تغافل وتشاغل عنها الرؤساء والقادة، فنسيها العامّة أو تناسوها، وطوتها السنون، لكن الخطيب الأعظم بحركته «نظام الإسلام» ظلّ يجاهد، ويقاوم، ويصاول، ويمثل أمام المحكمة، ويدخل في السجن لتلك الغاية العظمى.

لما وقعت حرب ١٩٧١م، وانفصلت بنغلاديش عن باكستان، ما كان الخطيب يريد أن يهدم بيته الذي من أجله سعى طوال حياته، وجاهدَ وسهرَ منذ شبابه، حتى ظنّت به الحكومة ظنونا، وزجّت بهذا الابن الأمين للدين والوطن في السجن! لكن هل مثله يهاب البحر أن يخوضه؟ والأسد أن يروضه؟

---

(١) الخطيب الأعظم صديق أحمد: مصدر انقلاب شامل للدكتور أ.ف.م خالد حسين ص١٩

(٢) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص٢٥

فاستمرّ في جهوده وجهاده تحت مظلة «الكتلة الديمقراطية الإسلامية».(1)

إلى الإسلام ننتمي!

لقد كانت شخصية الخطيب الأعظم صديق أحمد شخصية جامعة بين الشخصيات المتعددة والأبعاد المتنوّعة، والمتضادّة أحيانا، فكان رجل الدعوة والتبليغ، والعلم واليقين، والتدريس والتأليف والسياسة والقيادة، والدعوة الملحة المطردة إلى توحيد الصفوف، وجمع الكلمة، وتقريب التيارات والمذاهب، والوقوف بهم على مسرح واحدٍ لهدف أكبر، ولغاية عظمى، وقد كان يحلم ويتمنى دائما أن تقوم في باكستان خلافة إسلامية تحكم وفق شرع الله، وفي ضوء القرآن والسنّة، وأدرك أن الطريق الوحيد المناسب حاليا إلى ذلك هو دخول العلماء في غمار السياسة، فقد ظلّت السياسة الإسلامية والخلافة على منهاج النبوّة على مرّ التاريخ أداةً قويّة نافذة لتمكين الدين، وتأييد كلمته، وتحقيق أهدافه، وإقامة شعائره، ولم يأت الدين للسياسة.

لكن هذه السياسة لن تعطي ثمارها ولن تؤدي دورَها أمام طوفان العلمانية، وعواصف اللادينية ودسائس الخلايا المعادية للإسلام، إلا إذا توحّدت كلمة المسلمين، وقام العلماء على رصيفٍ واحد يعملون عملا موحّدا للهدف المشترك، إيمانا بوحدة الدعوة الإسلامية ووحدة مصير الأمة، ليجعلوا [illegible] الفشل الذي حاق بهم نصرا مبينا، وليعيدوا إلى الأمة الإسلامية مجدها وكرامتها، فلذلك ظلّ حياته كلها يدعو العلماء والمسلمين إلى الوحدة والوفاق، وقد لقيت هذه الدعوة المخلصة نجاحا بعد انفصال شرقي باكستان عن غربها، وبعد ظهور بنغلاديش كدولة جديدة، وبرزتْ كتلةٌ متكوّنة من ستة أحزاب سياسية إسلامية عاملة في بنغلاديش آنذاك، بما فيها «حركة نظام الإسلام»، و«الجماعة الإسلامية»، و«جمعية علماء الإسلام» وغيرها، تحمل اسم «الكتلة الديمقراطية الإسلامية»، وبذلك التأم الجرحُ، وشفي الوجع وحصل الوفاق، وتمّ الوئام، وهبّ ركب العمل يسير نحو الغاية المنشودة.

ليس المهمّ أن نبحث عن تاريخ هذه الكتلة، وأثرها في مجرى السياسة، ودورها في توجيه الدولة والشعب، وإنما يهمّنا أن نرى الجهد كيف يتوّج بالنجاح، وأن الخطّة كيف تأتي بالثمرات، وأن الدعوة كيف تتلقّى أرواحا تستجيب لها، وتقوم على رصيف واحدٍ، رغم تنوع الأفكار والاتجاهات، والخلاف في المناهج والمشارب، إذا نبعتْ من صميم القلب، ومن دافع الدين والإيمان، والإخلاص والاحتساب،

(1) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦) ص ١٢٧ و١٢٨

والعمل لله وحدَه، فالنقطة التي كانت تجمع بينهم هي الانتماء إلى الإسلام وحده، ثم إنهاض المسلمين من كبوتهم، ونفخ روح جديدة في قالب السياسة الإسلامية والحركات الدينية التي سرى فيها الوهن، ودبّ إليها الهرمُ.

وقد شاهدَ التاريخ بأم عينيه نماذج حيّة لهذا الإخلاص في حياة هذا البطل السياسي، والعالم المجاهد، عندما دُعي إلى مجلس الوزراء ليكون وزيرا في الحكومة، فرأى هذه الدعوة لا تتّفق مع حركته وجهاده، ولا تنسجم بمنهجه، ولا تكون عونا على تحقيق هدفه، رفضها، وردّ على الرئيس ردّ الكرام،(1) هذه هي السياسة الإسلامية، وهؤلاء هم السياسيون الذين يخوضون معتركها لأجل الدين، لا لأجل البطن، رحم الله تعالى الخطيبَ الأعظم، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء.

مع الله ومع الناس

كان نموذجا حيا للسلف الصالح في عبادته وبذاذته، وزهده وورعه، وتعلق قلبه بالله، وحنينه إلى الجنة، وكان على صلة روحية عميقة مع شيخه المفتي الأعظم فيض الله، فكان لها أثر قوي في حياته، حتى نال منه الخلافة،(2) وكان قمة في التواضع، بلا ذل ولا استكبار، وآية على السذاجة والبساطة في صلته مع الناس، ولم يكن مختالا فخورا، وكان سخيا كريما، "وما قال لا قط إلا في تشهده، ولولا التشهد لكانت لاؤه نعم"، رحيما بخلق الله، نافعا لهم، تركَ الدنيا ولم يترك حسابا مصرفيا ولا عقارا،(3) لا تلد النساء أمثاله إلا قليلا، ولن تُملأ الثغرة التي حصلتْ في الإسلام بوفاته بسهولة.

(1) مجلة الداعية، من مقال الدكتور محمد رشيد زاهد، رئيس قسم القرآن بالجامعة الإسلامية العالمية بشيتاغونغ، بنغلاديش

(2) حيات مفتي أعظم (بالفارسية مع الترجمة الأردية)، جمع وترتيب المفتي محمد إظهار الإسلام، جـ١، ص٢١٩

(3) أعلام علماء البنغال، تأليف صلاح الدين جهانغير، ج ٢، ص٢٢

مولانا محمد عبد الرحيم

(١٩١٨- ١٩٧٨)

العالم الكبير، صاحب مئات المؤلفات، قائد الحركات

صورة السلف في الخلف

المدرسة التي أنشأها شيخ الإسلام الإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الدمشقي، ثم سقاها ونمّاها الإمامان المجددان في تاريخ الإسلام المعاصر، الإمام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي، والإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي، ظلّت أكبر مدرسة تجديدية في تاريخ الإسلام على امتداد القرون، وأدّت دورا لن ينساه البشر في الإصلاح، والتجديد، وبثّ التوحيد، وإحياء السنن، وإماتة البدع، والجهاد بالسيف والسنان، واللسان والقلم، وتوجيه الأمة في العواصف والكوارث، وتثبيتها في البأساء والضراء وحين البأس، والأخذ بيدها إلى المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، وقد كان العبقري الموهوب، والكاتب العصامي، والأديب الأريب، والعالم المصلح، والناقد البصير، والمفكر الإسلامي الكبير، والسياسي الخبير، والكاتب القدير، وواحد من رواد الأدب البنغالي الإسلامي في شبه القارة الهندية، وفارسه المغوار، مولانا محمد عبد الرحيم أبرز خريجي تلك المدرسة في هذه البقعة، وحامل لوائها، والمدافع عنها بلسانه وقلمه، منذ مقتبل شبابه إلى آخر عهده بالحياة، حتى لقّبه البعض بـ«شيخ الإسلام» لتنوّعه في مجالات العلم، وجمعه للعلوم البشرية من جميع مناحيها.

حقًا كان مجاهدا حكيما، حمل قلما من نار منذ شبابه، وطوّعه ليثير المشاعر، ويذكي العواطف، ويبثّ نور التوحيد، ويدافع عن الأمة المسلمة، ويقف سدّا منيعا كلما وجّه إلى كيانها سهمٌ من السهوم المسمومة الفكرية، والعقدية، والدينية، والحضارية، والأدبية، والعلمية، فما كان مؤلفا يكتب لهوايته، أو

لتحقيق حلم يحتضنه في صميم قلبه، أو لحاجة في نفسه يريد أن يقضيها، أو يروّج فكرةً يرتئيها، الدين هو الذي كان هدفه الوحيد، وغاياته العظمى، يريد أن يناضل عن حوزته، وينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويتجلّى ذلك بوضوح لا غبار عليه ويقين لا يدع مجالا للشك بنظرة عابرة في مراحل حياته، وطريقة كتابته وتأليفه، كلّما نشأت الحاجة كان أول من يبرز إلى الميدان، ويجدّ جدّه، ويشدّ أزره، ويأخذ قلمه فيكتب، بأسلوب يتسم بالموضوعية، ومقارعة الحجة بالحجة، وقد كتبَ طيلة نصف قرنٍ كامل، وكتبَ ما يزيد على مئة وخمسين كتابا، ولعلنا سنرى ذلك في السطور التالية.

كيفَ نشأ نشأته الأولى؟

وُلد محمد عبد الرحيم عام ١٩١٨ للميلاد بمحافظة «فيروزبور»، في بيتٍ من بيوت الإيمان، له جاه ومكانة في القرية، وإرثٌ غنيّ ثريّ في العلم والثقافة، ولأب خبير نبيه، متيقّظ مجرّب، الحاج خير ... فقد أنجب ستة من الأولاد وربّاهم تربية حسنة، حتى أصبحوا من العلماء والمثقفين، والنشطاء والموجهين، بدأ الصبي عبد الرحيم دراستَه في كتّاب قريته وتحت رعاية والده، وبعد فترة دخلَ في «سرسينا» دار السنّة» بـ«سرسينا»، وكان ذلك عام ١٩٣٥ للميلاد.[1]

عندما دخلَ الشابّ عبد الرحيم في رحاب مدرسة «سرسينا»، كانت حينذاك في أيام شبابها ومتقبل عمرها، وكانت تعدّ أزهر البنغال الشرقية في أوساط العلماء والمثقفين، لكونها تجمع بين ... والأصالة، وبين الثقافتين الشرعية والمدنية، على الرغم من كل ذلك لغة التعليم والتدريس كانت الأردية والفارسية، لغة باكستان الغربية ولغة الديوان والتدوين طول الحكم الإسلامي في الهند، بينما كانت لغة الأم -البنغالية- لغةً مهجورةً، متّهمة باللغة الهندوسية والوثنية، ومتروكة تحت رعاية المؤلفين الهندوس، وهنا برزَ نبوغ هذا الشابّ النبيه، وآلمه ما كانت عليه لغته الأم من ظروف بئيسة، وما كان موقف العلماء والمسلمين بشكل عام من هذه اللغة، موقف غير حميد، موقف ملؤه ازدراءٌ بها، وتهوين لشأنها، وحطّ من مكانتها، مع استثناء يسير لجماعة من العلماء الذين كانوا يسبحون عكس التيار ويجاهدون في سبيل الدعوة.

(١) روّاد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ج ١، ص ٣٠

تباشير الصبح تلوح في أفق الحياة

فشدّ الشابّ عبد الرحيم أزره، وعكفَ على تعلّم اللغة البنغالية وآدابها، وقد كان دافعه الأول ومربيه الأكبر أخوه عبد الواحد، الذي كان عالما نبيها، ومتخرّجا من المدرسة العالية بكلكتا، وبتشجيع منه بدأ يتعلم الكتابة والإنشاء، ويبعث بها إلى الجرائد والمجلات والدوريات بين فينةٍ وأخرى، وقد طُبع أول مقال له في دورية مدرسية بـ«باتواخالي»، عندما كان الشيخ في الثاني عشر عمره، وهذا كله كان بجانب اشتغاله بالدراسة، واهتمامه بالمقررات الدراسية، وتفوّقه فيها على أقرانه وزملائه، وكان من زملائه الشيخ مولانا أبو جعفر محمد الصالح، نجل الشيخ المرحوم نثار الدين أحمد، والشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي رَحِمَهُمُاللهُ، فكانت زمالة هؤلاء النوابغ تزيد في نشاطه وتنافسه، وحبه للتحصيل وبزوغه في حلبة العلم والمعرفة، وكان لا يحبّ اللعب واللهو، ولا يقتل الوقت في الهوايات التافهة، إنما كانت هوايته الوحيدة هي السباحة ضدّ التيار، فكانت هواية موفّقة ومناسبة له، وقد سبحَ ضدّ التيّار حياته كلّها.

قضى في «سرسينا» خمس سنوات وأنهى الثانوية (مرحلة الفاضل) بامتياز وتفوق عام ١٩٣٨م، ثم طمحَ إلى الدراسة في مركز علمي أكبر، فكانت المدرسة العالية بكلكتا الخيار الأول، فسافرَ ودخلَ فيها، وتخرّج منها في مرحلة «الكامل» بالمرتبة الأولى، ولقّب بممتاز المحدّثين، وكان ذلك عام ١٩٤٢م.

أثناء الإقامة في رحاب المدرسة العالية قضى معظم أوقاته في مكتبتها الغنيّة، التي كانتْ تضم بين جدرانها مصادر العلوم والفنون، وتزخر وتعتزّ بالكتب القديمة، والمخطوطات النادرة، وأمهات المؤلفات في الإسلام، وفي العرب، وفي الغرب، فعكفَ الشابّ عبد الرحيم على هذه المكتبة، وغرقَ في كتبها ومؤلفاتها، يدرسُ ويبحث في البنغالية والأدرية والعربية والإنجليزية، فيجمع المعلومات، ويعدّ المسودات، ويرسم الخطوط للمستقبل، ويكتب وينشئ، ويترجم ويؤلّف، ويبعث المقال إلى أشهر الجرائد والمجلات والدوريات التي كانت لها شهرة وقبول، فكتبَ في جريدة «كريشوك» اليومية التي كانت تصدر بتحرير أبي المنصور أحمد، وفي جريدة «آزاد» اليومية لمولانا محمد أكرم خان، كما كان يطوف بشوارع كلكتا، ويشتري الكتب المستخدمة، وكذلك الجديدة، في الفنون المختلفة.

في موكب الدعاة وأئمة الإسلام

في هذه الفترة تعرّف على شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية[1] وحكيم الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي، والإمام المجدّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب،[2] فتعمّقَ في دراسة حياتهم ومآثرهم و... وإصلاحهم، وتتلمذ على كتبهم، وتأثر بهم إلى حد كبير، وفي الفترة نفسها عرفَ شاعر الإسلام د... إقبال، وتأثر بفكرته، واستفاد من فلسفته وخلاصة تجاربه لحياة الأمة المسلمة والحياة الغربية، فظهر... هؤلاء الرجال فيه بوضوحٍ وجليّ في الأيام اللاحقة؛ فكتبَ في مجلة «المحمدي» التي كان شاعر إ... البنغالي فرّوخ أحمد رئيس تحريرها، كتبَ فيها عام ١٩٤٦م مقالا طويلا عن ترجمة الشيخ محمد بن... الوهاب ودوره في الدعوة والإصلاح، كما قرأ كتاب تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي فراقه، وتر... اللغة البنغالية؛ وكان ذلك باكورة ترجمته، فكان مترجما موفّقا، كما أعدّ مسودة كتابه المشهور «... الطيبة" في هذه الفترة، وهكذا على مرّ الأيام ظل يبرز نبوغُه، وينتشر اسمه، ويُذكر بالثناء الحس... في أوساط الكتّاب والمثقّفين.[3]

كانت الهند في تلك الفترة الحرجة الدقيقة مائجة بالاضطرابات السياسية، وبالتوترات الد... والتحديات التي لم يسبق لها نظير، وبحركات تحرير الهند من الاحتلال، كما رأى خلاف العلما... طريقة هذا التحرير، وكيف توزّع العلماء على معسكرين متناقضين، بين تأييد فكرة إنشاء باكستان... مخالفتها، وتحت مظلّة «جمعية علماء الهند» و«جمعية علماء الإسلام»، ورأى اضطراب نحوه إلى... الحالة الدقيقة، مغلوبين على أمورهم، متوكّلين على القضاء والقدر، فكان يشاهد كل ذلك بع... وبنظرة فاحصة دقيقة ليوجد لهذه المشاكل حلّا، وليكتشف لهذه الأمراض كلها ترياقا، وأدرك أن... المشاكل هو الخلاف في تحديد الطريق إلى التحرير، وطريقة إقامة الحكومة الإسلامية، فالجماعة... الهند» ترى أن الحكومة الإسلامية يمكن أن تقوم مرة أخرى على أرض الهند رغم أغلبية الهندوس...

(١) لقد كان من أشد معجبي شيخ الإسلام ابن تيمية المتحمسين له. وكان لشيخ الإسلام أثر كبير في حياته وتكوين عقليته ... قيمة على حياته وعزمه على ... [illegible]

(٢) كان الشيخ عبد الرحيم معجبا بالشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب معجبا فترة حياته. إلا أنه في مرحلة أخرى من عمره ... الشيخ ابن عبد الوهاب، وشك في حركته ومدى نجاحه. ... الإنسان التي يقف حياته كلها على ... وحث على إقامة الحكومة الإسلامية. ونظام الإسلام في أرض ... مولانا عبد الرحيم حياة حركية، تأليف ... [illegible]

(٣) مولانا عبد الرحيم: حياة حركية، تأليف الأستاذ ... ص ٤٣

أن الخصوم يزيدون بأضعاف مضاعفة على المسلمين، كما ظلّت قائمة طوال ثمانية قرونٍ، على حين كانت «جمعية علماء الإسلام» ترى أنه لا شكّ في موضوعية هذا التاريخ المجيد وواقعيته، وأنه تاريخٌ صحيح السند، ومضبوط الرواية، إلا أنه تاريخ راحلٌ لا يُعتمد عليه، وماضٍ عريقٌ لا يجوز الاقتناع به وبناء الحلم والمستقبل على أساسه، بل لا بدّ من صنع تاريخ جديد، وتسطير مجد طريف، وفتح طريق بديل، وهنا تعرّف على هؤلاء الأئمة الكبار وجهادهم وإنجازاتهم في الدعوة إلى الله، وإصلاح الأمّة وإنهاضها، فكان ذلك حميّة على حميّة، ونشاطا على نشاط، أقلقَ قلبَه، وأقضّ مضاجعه ليبدأ العمل للإسلام والمسلمين، ولكن كيف بذلك يا تُرى!

هنا وقعَ في يد الشيخ محمد عبد الرحيم كتابٌ بالأردية يحمل عنوانا "كيف تُقام الحكومة الإسلامية" للشيخ السيد أبي الأعلى المودودي، ولم يكن هو يعرف المؤلف جيّدا، فقد كان السيد المودودي يكتب باللغة الأردية، ولذلك كانت كتبه ورسائله متداولة في الأوساط الأردية، ولم تكن تصل إلى البنغال بشكل كبير، قرأ الشيخ هذا الكتاب فكان نقطة تحوّل في حياته، وجدَ فيه بغيتَه، وعثرَ على ضالّته التي طالما كان يبحث عنها، فاشتاق إلى المزيد، وبحث عن حياة المؤلف وأفكاره وجهاده، وتعرّف عنه كثيرا، فإذا هو صاحب حركة سياسية كبيرة، ومؤسس مدرسة فكرية تاريخية، لها منهجٌ خاصّ وخريطة طريق، ورسالة ومبدأ، ولها رجالٌ يستميتون في تحقيق مشاريعها، وفي سبيل إيصالها إلى غايتها العظمى، كما رأى في حياة المؤلف السياسية وحركته القيادية وسعيه وجهاده من أجل إقامة الدولة الإسلامية صورة صادقة لفكره، ورأى في حركته تحقيقا لأهدافه، وهنا لقي بالسيد المودودي، وشاركَ في الجماعة الإسلامية بالهند على يده عام ١٩٤٦م،[1] ثم عادَ إلى وطنه حامل لواء هذه الحركة الجديدة وممثلا لها، ومبلّغا لدعوتها ورسالتها إلى أهل البنغال الشرقية، وكان دعامة أساسية للجماعة الإسلامية في هذه الدولة، وساهم مساهمة علمية عظيمة في نمو الجماعة وازدهارها، وألف كتبا كثيرة ذات شهرة عالمية، وذات قيمة كبيرة.

آثارقلمه الفريد في حياة الشعب البنغالي المسلم

لا شكّ أن القارئ لحياة الشيخ مولانا محمد عبد الرحيم يقف أمام حياةٍ حافلة بالمآثر والإنجازات الخالدة، ونموذج رائعٍ للشخصية الإسلامية الكبيرة، متعدّدة الأبعاد، ومتنوّعة النواحي، إلا أن هناك

(١) المرجع السابق، ص٤٧

جبهتين أكثر بروزا ولمعانا في حياته، وأوفر حظًّا ونصيبا من وقته وفكره وعمله، وأشدّ أهمية في جهاده وهما جبهة الكتابة وجبهة السياسة، وقد جاهدَ هذا الإنسان في هاتين الجبهتين في وقت واحد وبشكل مستمرّ، فكلما دعتْ الحاجة، كتبَ ونشرَ، وكلّما حان الوقتُ، برزَ في الساحة وخاض المظاهرات، وأشعل الدنيا حمية وحماسا.

بعد الانفصال وظهور باكستان عام ١٩٤٧م، ركّز الشيخ عبد الرحيم على جهوده لتكوين وتوعية الناس على الحقيقة الواقعة، فالناس كانوا يعرفون أن باكستان أنشئت لأن تقوم فيها حكومة إسلامية، وما الحكومة الإسلامية يا ترى؟ هل الرابطة المسلمة كانت ممثلة لها؟ وهل قادتها يستحقون أن يكونوا خلفاء الله في الأرض، وقادة الشعب المسلم الباكستاني؟ لم يكن أكثر الناس على بيّنة من هذه الأمور الحساسة، بل لم يكن أكثرهم يشعرون بأية حاجةٍ إلى معرفتها بدقة، فبرزَ الشيخ عبد الرحيم يكتب مقالات، ويصدر كتبا ورسائل، ويترجم مؤلفات السيد المودودي التي تتناول قضية الحكومة الإسلامية، وتبين كيفية إقامتها.

في عام ١٩٥٠م ألّف أول كتاب له «الكلمة الطيبة»، بيّن فيه التوحيد وأهميته، والصراع بين أهل التوحيد وأهل الكفر والشرك، ثم بيّن رسالة النبي ﷺ وحاجة البشر إلى النبوّة والرسالة، كما تحدث عن الشرك وجذوره وتاريخه، ووجوده في المجتمعات الإسلامية، وبهذا الكتاب كأنه وضعَ أول ركيزة لـ... الدعوة والجهاد، وبدأ الإصلاح كما بدأ به جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام.

ثم نشرَ كتابا آخر قيّما باسم «دور السياسة الإسلامية وثمارها» عام ١٩٥٢م وضع الشيخ في هذا الكتاب خطًّا فاصلا بين الإسلام والأديان، وفصّل مزايا الإسلام عن غيره وفضله على سائر الأديان والمذاهب، فالهندوسية مثلا – وكذا البوذية – ليست إلا مجموعة من المناسبات والحفلات والأساطير والخرافات، ليست لها أثر في الحياة وفي تحديد المصير وبناء المستقبل، أما الإسلام فهو دستور حياة من المهد إلى اللحد، وليس للمسلم غنى عنه في لحظة من لحظات الحياة، فكيف يستغني عنه في مجالات الحياة وأدقّها وأحرجها، ويتحاكم إلى الناس دون الله عز وجل؟ وكان لهذا الكتاب صدى كبير في الأوساط المثقفة.

وفي عام ١٩٥٤م رأى عاصفة الشيوعية تعصف بباكستان، وتفاجئ أهلها كالسيل الجارف وسيل عرم، ورأى الشيخ أن الشباب المسلم وقف من هذا الطوفان موقف المغلوب ... تسييد الطاغي، فكان البعض لا يرى الشيوعية خصما للإسلام، وأنها نظرية اقتصادية بحتة لا

وضعها في وجه الإسلام، فالمسلم لا يضرّه أن يكون مسلما وشيوعيا في ذات الوقت! كما حدثَ في كثير منهم اضطرابٌ في العقيدة، واستخفافٌ بالدين، وانحلالٌ في الأخلاق، وخضوعٌ زائد لهذه النظرية الوافدة، وبدأ الجيل الناشئ الباكستاني يعيش أزمة فكرية كبرى، هنا وقفَ الشيخ سدًّا منيعا أمام هذا الطوفان، وكتبَ «الشيوعية والإسلام» (١٩٥٤م) و«حقّ الأجير في المجتمع الإسلامي» (١٩٥٤م)، وبين أن الشيوعية نزلتْ في الميدان كخصم جديد شديد وكعدوّ لدود للإسلام، وهو أولى منها وأقوم سبيلا، لأنها نظرية إلحادية ترى الإسلام غير صالح لهذا العصر، وغير قادر على حل المشكلات الاقتصادية، والتغلّب على التوتّرات الاجتماعية، وتوزيع المال والثورة توزيعا عادلا منصفا! فالشيوعي– بهذه العقيدة– لن يكون مسلما، والمسلم– بعقيدته– لن يكون شيوعيا، فلا يجتمعان ولا يلتقيان.

كان الشيخ مصلحا حكيما من الطراز الأول، فما كان ينكر على المنكر، ثم يترك المجتمع المسلم بدون بديل ولا دليل، لذلك عندما ردّ على الشيوعية بأسلوب قويّ ملتهب وهجمَ على قواعدها، قدّم للشباب المسلم المثقف بديلا أحسن وأجمل وأفضل، فكتبَ كتابه القيّم «الاقتصاد في الإسلام» عام ١٩٥٦م، وكان لهذا الكتاب أثر عميق في نفوس الشباب والنشء الجديد، وكان أكبر ردّ على الشيوعية.

هكذا استمرّ الجهاد في ميدان الكتابة والتأليف إلى نهاية حياته، نهاية بيضاء مضيئة، كلما عانت الأمة من مشكلة أو نشأت الحاجة إلى قضية، نزل هذا الفارس المغوار في الميدان، يحلّلها ويفصّلها، ويأتي لها حلولا ومفاتيح، فكتبَ «الشرك والتوحيد في ضوء القرآن» و«النبوّة والرسالة في القرآن» في بيان التوحيد وتأييده، وكتبَ «تاريخ تدوين الحديث» في الردّ على المنكرين للحديث، كما كتبَ «الأسرة والحياة الأسرية» في الردّ على أهل السفور والدعاة إلى الفحشاء والمنكر.

كتبَ في مناصرة السنّة والردّ على البدعة، وعلى الإلحاد وإثبات وجود الله، عدة كتب قيّمة، مدعّمة بالمنطق والدلائل العليمة، ومسلّحة بالوثائق والشواهد والتجارب، منها كتابه «البحث عن الحق»، و«الإسلام ورسوله في ميزان العلم»، و«قصّة الخلق والتطوّر».

إلى جانب التأليف ترجمَ عددا كبيرا من الكتب القيمة، من أبرزها «تفهيم القرآن» للسيد المودودي في تسعة عشر مجلدا، بالإضافة إلى عدد كبير من كتبه في مجالات مختلفة، وترجم جزءا كبيرا

من أحكام القرآن للإمام أبي بكر الجصاص،[١] وأنشأ «مركز البحوث الإسلامي» ونشرَ تحت ...
كتبا ورسائل قيمة، حتى وصلَت مجموعة ما كتبَ وترجمَ إلى أكثر من مئة وخمسين كتابا! وقد ...
التحرير والإشراف على عشرات المجلات والدوريات الإسلامية، ومئات البحوث والمقالات التي كتبها ...
التفسير، والحديث، والسياسة، والتاريخ، والرد على البدع، والحضارات الغربية، والنظريات الحديثة ...
والقضايا المعاصرة، وتأييد التوحيد والجهاد، وحاجة تطبيق النظام الإسلامي، وتنفيذ الحدود، وتحقيق
العدل والإنصاف في المجتمع، هكذا أصبحت مؤلفاته وحده تكوّن مكتبة كبيرة قائمة بنفسها.

وإلى القارئ قائمة صغيرة من أبرز كتبه، ليتعرّف على مدى عبقرية هذا الإنسان: ٥ ...
(١٩٥٠م) ٥ الإمام ابن تيمية (١٩٥٣م) ٥ الشيوعية والإسلام (١٩٥٤م) ٥ حق الأجر في ...
الإسلامي (١٩٥٤م) ٥ الاقتصاد في الإسلام (١٩٥٦م) ٥ الاشتراكية والإسلام (١٩٦٢م) ...
إقبال السياسية (١٩٦٠م) ٥ علوم التوحيد (١٩٦٧م) ٥ السنة والبدعة (١٩٦٧م) ٥ تاريخ تدوين
الحديث (١٩٦٩م) ٥ الحضارة الغربية والمجتمع الإسلامي (١٩٦٩م) ٥ العدل الاقتصادي ...
(١٩٧٠م) ٥ الخلافة الراشدة (١٩٧٤م) ٥ الإسلام ورسوله في ميزان العلم (١٩٧٦م) ٥ ...
الحق (١٩٧٧م) ٥ قصة الخلق والتطور (١٩٧٧م) ٥ المرأة (١٩٧٨م) ٥ مفهوم الجهاد وأهميته (١٩٧٨م)
٥ العلم في ميزان الإسلام (١٩٧٩م) ٥ الأسرة والحياة الأسرية (١٩٨٣م) ٥ النظام الاقتصادي ...
(١٩٨٦م) ٥ الجهاد في الإسلام (١٩٨٦م) ٥ الشرك والتوحيد في القرآن الكريم (١٩٨٨م) ...
المساجد في بناء المجتمع (١٩٨٩م) ٥ الإسلام في مكافحة الجرائم (١٩٩١م) ٥ مصادر ...
الإسلامية (١٩٩٤م) ٥ الإسلام والرق وغيرها كثير.[٢]

حكمته وفراسته في ميدان السياسة

بالنسبة لنحديث عن الجبهة الثانية لحياة هذا الإنسان الكبير، وهي جبهة السياسة والحركة
والجهاد من أجل إقامة الحكومة الإسلامية، لقد أسلفنا أن الشيخ تعرّف على السيد المودودي ...
إقامته في المدرسة العالية بكلكتا، فدخل في الجماعة الإسلامية، ثم رجع إلى وطنه ممثلا لها وداعيا ...
ومناضلا عنها، وأقام مدّة في مسقط رأسه «بريسال»، وفي عام ١٩٥٠ جاء إلى العاصمة، وبدأ يرحل ...

(١) [illegible] الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ [illegible] ج ١، ص ...

(٢) انظر [illegible] في مرجع السابق، ص ٣٣ وما بعدها

قاعدة للحركة، وهنا اختير الأمين العام للجماعة الإسلامية بباكستان الشرقية عام ١٩٥٦م، وبدأ يرحل
يجوب في أقطارها وأرجائها، يدعو ويجنّد للحركة، وهكذا ظلّ يواصل ليله بنهاره ونهاره بليله يسعى
ويجاهد، سنين طوالا.

كان داعية ومجاهدا مخلصا، صادقا مع الله ومع نفسه، فكما أنه لا يكتب شيئا إلا عندما تشتدّ
إليه الحاجة، ويحين الأوان، كذلك لا يسعى ولا يجاهد في ميدان السياسة إلا عندما تأكد أنه جهادٌ
موافق للإيمان والمبدأ، وأن فيه نفعا للأمة وخدمة للدين، ورفعا لكلمة الله، ومن أجل ذلك نراه ينفر من
الحركة التي استنفدَ في سبيلها حياتَه، وقضى في نشرها وتقويتها وتطويرها ليله ونهارَه، حتى تولّى إمارتَها
ورئاستَها، وأعلى كرسيّ لها في هذه البقعة، ثم يولّي إليها ظهرا عندما رآها تنحرف عن المبدأ، وتحيد عن
المحجّة!

عندما انقطعت صلته بالجماعة الإسلامية

استقال الشيخ عبد الرحيم عن منصب الأمير للجماعة الإسلامية عام ١٩٦٩م،[١] عندما حصلَ
خلاف فكري بينه وبين قادة الجماعة، وهذا الخلاف لم يكن أسبابها طارئةً، بل كانتْ من صميم هذه
الحركة ومن أركانها منذ ولادتها، وهي طريقة تكوين الرجال، واختيار القادة، وانتخاب الموجّهين
للجماعة، فقد كانت الجماعة الإسلامية قادرة –ولا تزال– على تنشئة جيل قويّ من النشطاء والأتباع،
إلا أنها لم تكن قادرة على تكوين الأئمة والقادة، والزعماء والموجهين، وذلك لأن نظام الديمقراطية
يطغى على نظام الشورى في صميم دستور الحركة، فكانت الركيزة هي الأغلبية، وليست رجاحة العقل،
وقوّة العلم والإحاطة، والوعي والاجتهاد، وهي في الحقيقة من تلك المبادئ البراقة التي يخدع بها الغرب
الأطفال الكبار من الشرقيين، ومن هنا الحركة التي خرجتْ يوما من أجل الإسلام، أصبح همّها الوحيد
هو السياسة، وأصبحت الديمقراطية على رأس قائمة القضايا التي تهمّها كجماعة إسلامية، وتجرّدت من
كثير من مزاياها ومحاسنها، وأصبح الرجال المثقّفون بالثقافة المدنية قادتها وزعماءها، بينما تخلّفت مكانة
العلماء والأئمة، وأصبحوا في مؤخرة السفينة، كما أصبحتْ الجمهورية دون الخلافة الإسلامية أهم ركائز
جهادها، وقصارى غاياتها.[٢]

(١) لكن ظل في نيابة أمير الجماعة حتى ١٩٧١م، انظر مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٤، ص١٦١

(٢) مولانا عبد الرحيم: حياة حركية، تأليف الأستاذ نور حسين المجيدي ص٩٩–١٠٠

وفي نهاية ستينيات القرن الماضي لما اضطرب حبل الأمن، وعمّ القلق، وطغى في باكستان [illegible] الخلافات السياسية بين شقيها، دبّ الخلافُ مرّة أخرى في صفوف العاملين للجماعة الإسلامية [illegible] الشيخ مولانا محمد عبد الرحيم من جانب، وبين قادة الجماعة في باكستان الغربية والشرقية من جانب آخر، بحكم اختلاف البيئة والنشأة، فقد سار الشيخ المرحوم هنا ضدّ التيار، وانحاز [illegible] [illegible]، ورأى أن الأخذ بيد المظلوم في وجه الظالم أهمّ وأوجب من رفع لواء الوحدة للدولة الباكستانية [illegible] الكلمة التي أصبحتْ مع الأيام جوفاء، ومن كلمات الحماسة الفوارة، لا تحمل في طياتها معنى [illegible] ولا إيمانا ولا يقينا، بينما كان قادة الجماعة مصرّين على هذه الوحدة، حتى جاء عام ١٩٧١م، [illegible] الحرب بين جناحي باكستان على قدم وساق، وهنا نهض الشيخ المرحوم، وأيّد حرب بنغلاديش وتحريرها في وجه قادة الحركة جميعا، وكان يقول لهم: "إن باكستان على وشك الانهيار، وبنغلاديش [illegible] دولتنا ومسقط رأسنا، وهي ملجؤنا وموطننا، فلا بدّ أن نقف بجانبها".

هذا الموقف من الشيخ المرحوم أثار الشكوك والشبهات في أناس يوما كانوا أقرب الناس [illegible] وأشدهم ثقة به، واعتمادا عليه، فتوسّعت هوّة الخلاف مع الأيام، وأصبح الشيخ بعيدا عن حركة [illegible] البعد،[1] وقد استقال عن إمارتها من قبل، وبدأ الآن يقطع جميع صلته مع الجماعة، كما كان [illegible] الثاني يحاول للنيل من شأنه، ويتهمه بضحالة النظر، وقلّة التجربة في الميدان السياسي، حتى [illegible] الشيخ عن الجماعة، ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له، وأصبح في معزل عن [illegible] الدنيا، وبدأ يعكف على الدعوة وجرّد لها قلمه ولسانه،[2] ولا شكّ أن هذا الانتقال والتحول [illegible] فكره ومنهاج عمله يعدّ حدثا تاريخيا لافتا للنظر ومستوقفا للباحث، يستحقّ الدراسة، والتعرف [illegible] دواعيه ودوافعه، وتحليل أسبابه، فإنه من أجله احتدم حول هذا الإنسان الجدال، وكثر عنه [illegible] والقال، وتعرّض للهجمات العنيفة والانتقادات المريرة، وإن ذلك لم يتمّ بين عشية وضحاها، بل [illegible] مسبوقا بإرهاصات، عبّدت له طريقه ومهّدت سبيله.

جهاده في سبيل الوحدة الإسلامية

ثم نراه يشترك مع جمهور علماء هذه الدولة، علماء ديوبند، وقادة السياسيين والمصلحين [illegible]

(١) مولانا محمد عبد الرحيم في السياسة الإسلامية، مقال محمد سخاوت حسين، جريدة "الانقلاب" اليومية، [illegible] أكتوبر ٢٠١٦م.

(٢) مولانا عبد الرحيم، حياة حركة، تأليف الأستاذ نور حسين [illegible] ص ١٥٠

معهم كتلة إسلامية مشتركة، ويشارك في الانتخابات البرلمانية، ويدخل في البرلمان، وفي المرّة الأخيرة، قبل وفاته بفترة يسيرة نراه يقوم مع العلماء على منصّة واحدة، ويعلن تكوين حزب إسلامي جديد باسم «حركة الدستور الإسلامي»، ولا يخفى على القارئ ما بين الجماعة الإسلامية وما بين علماء ديوبند من الخلاف في الموقف، والفكر، والنظرة إلى الدين والإيمان، والأنبياء والصحابة، والعبادة والسياسة، وقد قاد الرجل تلك الحركة طيلة حياته، ودخلَ في السجن، ثم الآن يقف مع المخالفين على مسرح واحد، ويرفع صوته، فهذا كله إن دل على شيء فإنه يدلّ على قلب مخلص كامل الإخلاص، وفؤاد مؤمن راسخ الإيمان، وعقل مستنير بنور العلم والعرفان، يصبو إلى إقامة دين الله، ورفع كلمة الله، ويحدو أن لا يرى الحكم إلا لله، مهما كلّف ذلك من الثمن، وتطلب تغيير الطرق والوسائل.

ضياع عبقرية بين حاسد وحاقد، وجاهل وجاحد

لكن للأسف الشديد لقد ضاعتْ أو كادت تضيع هذه الموهبة الإنسانية الفذّة المؤمنة والمخلصة بين الإهمال والإهدار، والحقد الدفين، والعمى عن الحقيقة، بين معسكرين متضادّين متناحرين، معسكرٌ تعمّد إهماله وإغفالَه، بعدما احتضنه وأحبه، عندما رأى أنه لا يخدم هدفه، ولا يتبع هواه، ولا يعطيه زمامه ليذهب به حيثما يشاء! ومعسكرٌ جهلَ عن هذا الكنز المكنون أو تجاهل، أو شكّ فيه، وظن به ظنونا، فزعم أنه ليس من أهله، وأنه عينٌ عليه من قبل خصومه، بينما هو مهاجرٌ إليه.

والحق بأن هذا الإنسان سبقَ عصره ومصره، فظهر في وقت وفي بيئة وفي قوم لم يصل مستوى عقليتها إلى مستوى عقله وفكره، فلم تعرف لغته، ولم تدرك أسلوبه، ولم تفقه كثيرا مما قاله، ومن هنا فرغم ضخامة إنتاجه العلمي، وكثرة كتبه ومؤلفاته، ثم قيمتها العلمية والبحثية، ورصانة أسلوبها ورزانة منهجها، وأصالة طرحها وعصريتها، لم تلق قبولا عاما شاملا، بل ظلت معظمها محدودة في إطار ضيق، وفي مستوى المعارف العليا، لا تتعدى الأوساط المثقفة، ولا تدخل في أذهان العامة، ومن ثم فلو جاءَ بعد قرن من قرنه، وفي وطن غير وطنه، لكان له شأن غير شأنه اليوم.

الشيخ على مسرح العالم

هذا هو السبب الذي نراه من أجله أن العالم العربي عرفَ هذا الإنسان، ووضعه في ميزانه، فوجدَ فيه درّة ثمينةً، وكنزا مكنونا، وقيادةً رشيدة للأمة الإسلامية، فاختارته «رابطة العالم الإسلامي» عضوا لها (١٩٧٧م)، كما كان عضوا وحيدا في منطقة شرق آسيا لـ«مجمع الفقه الإسلامي الدولي» التابع لـ«منظمة

التعاون الإسلامي»، وقد دُعي هذا الإنسان إلى أنحاء العالم وإلى مختلف القارات في لقاءات مع ... والدعاة، والحضور في المؤتمرات الدولية، والندوات العلمية، وفي الجولات الدعوية، فسافر إليها ... وألقى الكلمة، وأدّى الأمانة.(١)

سر نجاحه وسبب ضياعه

لقد سئل مرّة: كيف كتبتَ هذا العدد الكبير من الكتب والمؤلفات في هذه الفترة القليلة؟ فأجاب سماحته: إن الزاد الوحيد في طريقي ورأس المال في تجارتي هو الوقت، فقد استثمرتُه على أحسن ... فجئتُ بذلك كلّه.

مع ذلك لو يصحّ قول الإمام الشافعي عن الإمام الليث بأن "الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه ضيّعوه"، فيكون أصحّ من ذلك أن مولانا محمد عبد الرحيم كان أفضل وأحكم وأقدر من ... من الأدباء والمؤلفين المعاصرين له، إلا أن أصحابه وأصدقاءه ضيّعوه، ولذلك رغم أنه كتب ... الكتب، وأنشأ مكتبةً كبيرةً بمؤلفاته، وأثرى الأدب الإسلامي باللغة البنغالية، فهم لم ينشروا ... وأفكاره، بل بعضهم عادوه، وأخفوا مؤلفاته، وضيعوا حصاد حياته، حتى طارتْ بمعظمها العنقاء ... منها قليل في المكتبات، تتزيّن بها الرفوف، ولا يستفيد منها البشر إلا قليلا.

لو تفرّغ هذا الإنسان قليلا لبناء الرجال، وتربية جيلٍ على فكره ومنهجه، وتنشئة جماعة ... وتكتب، وتصدر وتنشر، ولو قدّر جهد هذا الإنسان حق التقدير، ولو تُرجم بعض ما كتبه ... وقدّمه إلى العرب، لكان لهذا الرجل شأن آخر، ولكان ذلك إضافةً نفيسةً إلى مكتبات الأمة ... الإسلامية.

إلا أنه ظلّ مغمورا مضمورا، وبقي معظم عطائه مدفونا في المكتبات، لأسباب قد أشرنا إليها إشارة، بالإضافة إلى منهجه في السياسة، ومكانته في الجماعة الإسلامية التي كان حامل ... وصاحب الحل والعقد فيها، ثم موقفه من جمهور العلماء ومناهجهم الفكرية والعقدية والعلمية في ... الدولة، وقد يتجلّى ذلك من خلال كتابه «السنة والبدعة» الذي تحدث فيه الشيخ عن كثير من ... الحساسة، لم يسبقه إلى الحديث فيها بجرأته وبصراحته إلا قليل من العلماء! ولاسيما عندما تحدث عن التصوف حديثا أطلق له العنان، وهجم على نظام الطرق الصوفية جهارا ونهارا، وانتقدها ...

(١) رواد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ج ١، ص ٣٦

على الملأ، وسماها «بدعة» في الإسلام، وانحرافا عن المحجة البيضاء، تحتاج إلى كثير من الإصلاح والتجديد.(١)

لكنه كان صاحب دين وأمانة، ورجل عقل وحكمة، يرجع عن خطئه إذا استبان له وجه الحق، سواء نبّهه أحد أو تنبّه بنفسه، وقد نبّهه على هذا الكتاب كثيرٌ من العلماء، وعلى رأسهم الشيخ مولانا محمد فضل الكريم، مرشد زاوية «تشرموناي»، فوعد بالرجوع عن كثير من الأشياء التي أودعها هذا الكتاب.

الشيخ عبد الرحيم في ذمة الله

وقد اختاره الله إلى جواره في ١ أكتوبر عام ١٩٨٧م، عندما كانت الحركة الإسلامية في هذه الدولة في مسيس الحاجة إليه، ولم تزل تلك الثغرة التي حصلتْ بوفاته في كيان الأمة البنغالية المسلمة تنتظر من يسدها، فقد ترك الدنيا قبل ثلاثين عاما، ولم يظهر في اللغة البنغالية عالمٌ يدانيه في حجم عطائه، وعمق فكره، وقيمة أعماله وإنجازاته،(٢) رحم الله هذا المجاهد الجليل، ويجزي عن الأمة خير الجزاء، ويعوّضها عنه من هو خير منه.

(١) انظر كتاب السنة والبدعة، لمولانا محمد عبد الرحيم، ص ١٣٣-١٧٠

(٢) انظر أيامي وأفكاري، تأليف الشاه عبد الحنان، ص١٢٦

مولانا لطف الرحمن البرنوي

(١٩١٦-١٩٧٩)

الشيخ الرباني، مؤسس المدارس والجمعيات، المجاهد الباسل

نحن الآن أمام رجل عظيم في التاريخ، يطلّ علينا من بين أولئك العلماء الأعلام، والعظماء الأبطال، وأفذاذ الرجال، وزعماء الإصلاح، ورجال الفكر والدعوة، الذين أنجبتْهم منطقة «سلهتْ» في القرن العشرين، رجل جمعَ بين العلم والربانية، والسلوك والسياسة، والتدريس والجهاد جنبا إلى جنب، فكان فارسا في النهار، وراهبا في الليل، ذليلا للحق، عزيزا على الباطل، ومجاهدا باسلا ضدّ الطواغيت، وناصحا للحكام، ومصارحا للجبابرة، وقويّ الحمية للإسلام، ومقدّرا للجهاد، وحريصا على المشاركة فيه، إنه العالم الرباني، الشيخ مولانا لطف الرحمن البرنوي، المعروف بـ«شيخ برونا».

ميلاده ونشأته ودراسته

ولد لطف الرحمن في قرية «برونا» بمحافظة «مولوي بازار» عام ١٩١٦م، في بيتٍ شريف، ولوالد صالحٍ تقيّ، الشيخ محمد حميد الله، بدأ الدراسةَ على يد والده، ثم دخلَ في مدرسة «غاصباري»، وبعد فترة سافرَ إلى الهند عام ١٩٣٦م، ودخلَ في جامعة ديوبند، وقضى في رحابها ستّ سنوات غارقا في بحار العلم والعرفان، ومنغمسا في صفحات الكتب والسنّة، والتفسير والحديث، والكلام والفكر والفلسفة، تحت ظلال الأساتذة الكبار، على رأسهم الشيخ حسين أحمد المدني، درسَ عنده البخاري والترمذي، كما درسَ المسلم عند الشيخ إبراهيم البلياوي، وأخذ سنن أبي داود من الشيخ الصوفي السيد أصغر حسين، وشمائل الترمذي من الشيخ العلامة إعزاز علي، ثم بايع الشيخ المدني ونالَ منه الإجازةَ في السلوك والتربية.[1]

(١) حياة البرنوي، تأليف دلروبا رحمن الحميدي، ص٢٦ و٢٧

في محراب التعليم

في عام ١٩٤١م عادَ الشابّ لطف الرحمن إلى وطنه، وتولّى التدريس في الجامعة الإسلامية بـ«مولوي بازار»، وظلّ فيها عشرة أعوامٍ يدرّس ويوجّه، ويرشد وينصح، وهنا أثناء إقامته وتدريسه في الجامعة الإسلامية برزَت عبقريته القيادية، ومواهبه الدعوية والإصلاحية، وشهدت هذه الدولة مرحلة جديدةً في تاريخ الإصلاح، ونموذجا رائعا للسلف الصالح في الجهاد، وهو وضع حجر الأساس لجمعية دعوية وإصلاحية واجتماعية ظهرت باسم «أنجمن حفاظت إسلام».

البيئة التي ظهرت فيها «حفاظت إسلام» والغاية التي من أجلها خلقت

عندما كان القصر البريطاني في الهند على حافة الانهيار، وكان الاحتلال الإنجليزي في سرير الاحتضار في أربعينيات القرن الماضي، كان المجتمع الإسلامي في البنغال هو الآخر في ليلٍ مظلم مكتنفٍ من التدهور والانحطاط، بل كان في أحطّ أدوار التاريخ، وكانت منطقة البنغال ساحة واسعةً لطواغيت الهندوس والإنجليز، ليجرّبوا فيها قوّة سواعدهم، ومدى طغيانهم، وهيبتهم في القلوب، وتأثير حضارته ودياناتهم، وكان المجتمع المسلم يتخبّط في خرافة الهندوسية وأساطيرها من جانب، ويئنّ تحت سياط الجلاد الوافد، وينبهر بحضارة الغرب البراقة ومدنيته الفضفاضة، ويؤمن بالعلوم الغربية بالغيب، وبعصمته وإمامته في كل شيء من جانب آخر، وكان المسلمون موزّعين على معسكرات متناحرة، لا تربطهم رابطة الدين إلا بالاسم والانتساب، فهم مسلمون بالقيد الرسمي وبالإحصاء الجغرافي، ومفلسون في حضارتهم وثقافتهم، ومتطفلون على الحضارة الوثنية ومناسباتها السفيهة التافهة.

شاهد الشيخ لطف الرحمن كل ذلك بأم عينيه، ورأى في قومه انحطاطا في الدين، وتفسخا في الأخلاق، وأنات في الصدور، وانحلالا في المجتمع، إذا قورن حاضره بماضيه المجيد، كما رأى انحراف الجيل المسلم الناشئ عن دربهم، وتخبّطهم في مسيرة الحياة خبط عشواء، بعد أن مثلوا دورا قياديا وإصلاحيا وتوجيهيا فريدا في الماضي القريب، وهكذا ذاقَ الشيخ أمرّ تجربة في حياته، ففكرّ ودبّر، وهبّ يبحث عن ثغرةٍ ينبثّ منها بصيصُ الأمل إلى المجتمع الإسلامي الغارق في هذا الظلام الدامس، وينقذ الجيل الحاضر من الردة الفكرية، والانحراف الخلقي، ويستعدّ لصبح صادق وفجر مشرق يأتي بعد هذا الليل المكفهر، حتى نال بغيته، ودعا قلوبا لا تزال تنبض بالإيمان والدين، وتتوقّد فيه شعلةٌ خافتةٌ من التاريخ المجيد لهذه الأمة، وأيام عزّها ومجدها، فاجتمعَ عددٌ من الناس، وكوّن «أنجمن حفاظت

إسلام» مع الشيخ الكبير، فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، وكان ذلك عام ١٩٤٦م، قبل ظهور باكستان بأقلّ من عامٍ، أما نواة هذه الحركة فقد ظهرت قبلها بسنوات عام ١٩٤٤م.[1]

كان الهدف الأول والأخير من تكوين «حفاظت إسلام» هو الحفاظ على كيان الأمّة المسلمة وسط الأمواج الطاغية من الهندوسية والحضارة الغربية، والدفاع عن الإسلام، وتنزيه ساحته من الشكوك والشبهات التي كانت يُثيرها الهندوس والإنجليز في قلوب المسلمين البسطاء السذج، من خلال كتبهم ومؤلفاتهم، ومقالهم وحوارهم، والقيام بالعمل الإنساني الجماعي، وتقديم المساعدات إلى الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجة، والأخذ بأيدي المقهورين والمنكوبين على اختلاف دينهم، فلم يطلب الشيخ من خلال هذه الجمعية السياسةَ والقيادة، ولا العرش والحكومة، وإنما أرادَ الإصلاح ما استطاعَ، وقد أدّت دورا كبيرا في الدعوة وإصلاح الأمة، ورفع معنوياتها، والكفاح عن حرمها، وحماية الثقافة الإسلامية، وردّ الثقة إلى المسلمين بدينهم وإيمانهم، وإقامة مجتمع إسلامي قائم على التقوى والصلاح، وإنشاء جيل يخاف الله ﷻ ويتقي المحارم، ولا تزال هذه الجمعية قائمة تعمل عملها، وكان لها أثرٌ كبير في ظهور جمعيات أخرى، سياسية وغير سياسية، تعمل لدين الله.

عبقريته السياسية والإصلاحية وفراسته الايمانية

نشأ على الحب العميق للدين، والجهاد ضد الطواغيت، ورفع الصوت ضدّ الظلم والجور، وشدّة الغيرة على لب الدين وعلى صميم شرع الله، ولذلك عندما أصدرَ الرئيس الباكستاني أيوب خان عام ١٩٦٠م مرسوما عن تحديد النسل، ثارَ العلماء والمسلمون في باكستان ثورةً عارمةً، في غربها وشرقها، وهاجت البلاد وماجتْ، وانطلقتْ موجاتٌ عاتية من الإضرابات والاضطرابات، ودُعي في ساحة «بلْتن» بداكا اجتماعٌ احتجاجيّ على هذا القرار المعادي لقرار الدين، ونهضَ الشيخ لطف الرحمن، وتولّى رئاسة هذا الاجتماع التاريخي في فترةٍ حرجة دقيقة، لا يعبأ بتهديدات القتل والاعتقال، ولا المحكمة ولا السجن، وقد صدرَ بعد الاجتماع مرسومٌ لاعتقال الشيخ، إلا أن الرئيس أيوب خان أحجم عن ذلك بحكم شعبيّة هذا الإنسان، وإقبال الناس عليه إقبالا نادرا، ومخافة قيام ثورة كبرى لو تجرّأ على اعتقاله، ثم جرّب معه طرق الإغراء والاستمالة، وسلك سُبل المطامع، لكنه عجز- بما أوتي من دهاء-

(١) نصائح الشيخ البرنوي ووصاياه، جمع وتأليف الشيخ مولانا أبدال حسين خان ص٨، وكذلك مقال الشاه نذر الإسلام، جريدة "جاناتا" (الشعب) اليومية، الأربعاء ٢٧ فبراير، ٢٠١٣م

أن يجرّه إلى صفوفه، وأنى له ذلك فقد قضى هذا الإنسان حياته في العلم والجهاد، ونذرَ كل ما يملك على دين الله، فلا غرو ألا يغترّ بالإغراءات، ولا ينحرف عن المبدأ قيد شعرةٍ!

رغم أنه لم يكن رجل السياسة والحكومة، ولم يخض غمار الاضطرابات السياسية التي استمرّت قبل تحرير الهند وانفصال باكستان عنها، في نهاية أربعينيات القرن الماضي، وكذلك ما حصلَ بعد الانفصال وظهور باكستان، بين شقّيها الشرقي والغربي، حتى أدّت تلك الاضطرابات إلى ظهور بنغلاديش كدولة مستقلة، رغم أنه لم يخض غمارها، إلا كان له موقف سياسيّ حكيم يبرز علوّ كعبه في السياسة، وتفقّه الظروف، وإدراك الواقع، والفراسة والتنبؤ بالمستقبل في ضوء الحاضر الحاصل.

لذلك عندما حصل خلافٌ كبير بين العلماء والعوامّ حول بقاء منطقة «سلهتْ» مع الهند أو دخولها في دولة باكستان الجديدة، كان رأي أغلبية العلماء– ولا سيما في «سلهت» رضي الله عنه رحمه الله» هو البقاء مع الهند، ومخالفة فكرة الانفصال، تحت مظلّة «جمعية علماء الهند»، إلا أن عددا قليلا من علماء «سلهتْ» سبحوا عكس التيّار، وعلى رأسهم الشيخ لطف الرحمن البرنوي، فقد أيّد فكرة دولة باكستان الإسلامية ومشاركة «سلهتْ» في هذا الموكب الإسلامي الجديد.

موقفه الحكيم من حرب التحرير وثمراته

هذا الموقف الحكيم ظهرَ مرّة أخرى في حرب التحرير عام ١٩٧١م، فكان كثير من العلماء ضدّها، وآثروا الاحتفاظ بوحدة باكستان على تقسيم الأمة الواحدة إلى معسكرين، إلا أن الشيخ البرنوي بسياسته الحكيمة، وبفراسته الإيمانية، وتجاربه في الحياة، ودراسته واطلاعه على التاريخ والشعوب عرفَ أن حكومة باكستان لا تمثّل الإسلام والحكومة الإسلامية، وهي وقفتْ على وشك الانهيار، وظهور بنغلاديش أصبح قضيّة الوقت وليس غيره، فوقفَ موقفا غريبا في عالم المواقف وسط العلماء والإسلاميين وكثير من الأحزاب الإسلامية، وأيد حرب التحرير، وتحوّل بيته أثناء الحرب ملجأ لجيش التحرير، وموئلا للعوامّ والنساء والأطفال، وأصبح الشيخ مصرفا، جاءَ الناس– وفيهم الهندوس- يودعونه أماناتَهم وهم في حالة الحرب، في ثقةٍ، فكان أمينا من الطراز النادر، وكان يدعو لنصرة جيش التحرير في محافله ومجامعه، حتى حصل التحرير، وظهرتْ بنغلاديش.(١)

كان لهذا الموقف الإيجابي من الشيخ البرنوي من حرب التحرير قيمة كبيرة في المجتمع ولدى رجال

(١) حياة البرنوي، تأليف دلروبا رحمن الحميدي، ص٣٥

السياسة والقيادة، ودورٌ كبيرٌ في حل بعض المشاكل التي طرأتْ على المدارس الدينية ورجالها وسادات العلماء، فقد أغلقتْ كثيرٌ من المدارس بعد الحرب إلى أجل غير مسمى، لمواقف أصحابها التي وقفوها من الحرب، وتعرّض العلماء للمطاردة والملاحقة، والشرط والطرد، والاعتقال والسجن، ووقعوا تحت المراقبة، ووقعت أموالهم تحت المصادرة، حتى خارت الهمم، وأصبح العلماء أجانب في الوطن، هنا نهض الشيخ وشمّر عن ساق الجد، وسعى سعيا بليغا لرد الاعتبار إلى العلماء، وإزالة سوء التفاهم من بينهم وبين السلطة، وجالسَ القادة والأقطاب مجالس كثيرة، وحاول تبرير ساحتهم، وتحليل موقفهم في ضوء الدين والسياسة، وإبراء ذمتهم عن التهم والافتراء، وقد أخذوا بكلامه، وصدعوا لرأيه، بما وقف من موقف كريم عظيم للدفاع عن قومه وشعبه، حتى فتحت أبواب تلك المدارس مرّة أخرى، كما أسدى خدمةً جليلةً إلى العلماء، فقد اعتقل عدد كبيرٌ منهم الذين وقفوا ذلك الموقف وخالفوا فكرة بنغلاديش، ودخلوا في السجن، واضطُهدوا، وامتُحنوا، حتى نهض الشيخ البرنوي مرّة أخرى، وأدى دورا كبيرا في الإفراج عنهم، وفكّ أسرهم، وكانت الرابطة هي الدين، فكل منهم وقفَ ذلك الموقفَ من أجل الله، ومن أجل دينه، ومن أجل رسوله.

آثاره في ميدان الصحافة والإعلام

كما جاهدَ في جبهة اللغة، والصحافة والأدب، ونشر الصحف والمجلات، دفاعا عن الدين، وكفاحا عن الأمة، ونشر العقيدة الصحيحة، ونفخ روح التوحيد واليقين في الأمة، والحفاظ على ثقافتها وحضارتها، ومدنيتها واستقلالها، لأن القلم لا يُقارعه إلا القلم، ولا يفل الحديد إلا الحديد، فأصدرَ مجلّة شهرية باسم «حفاظت إسلام» رغم المعاناة الاقتصادية والمطبعية، والسياسية والثقافية، وكان لهذه المجلة دورٌ كبيرٌ في الدعوة والإصلاح، وبث العقائد الصحيحة في منطقة «سلهت».(١)

إنشاء «الجامعة اللطفية»

لعل من أبرز مآثره الخالدة التي لا تزال تؤدي دورها، وتشهد على عبقرية هذا الإنسان العظيم وخدماته لدينه وأمته، هي الجامعة اللطفية أنوار العلوم بـ«حميد نغر»، المدرسة الدينية من نوعها الفريد التي أسّسها الشيخ في قريته عام ١٩٤١م،(٢) وقد ظلّ يدرّس في هذه المدرسة الحديث النبويّ، ويديرها

(١) نصائح الشيخ البرنوي ووصاياه، جمع وتأليف الشيخ مولانا أبدال حسين خان، ص٩

(٢) هذا ما ذكره المشرفون على المدرسة، وذكره كذلك مولانا تاج الإسلام في كتابه جلال آباد المعاصرة: أبطال النهضة الإسلامية، ص٥٠٠

ويوجهها إلى آخر عهده بالدنيا عام ١٩٧٧ للميلاد،[1] ثم رغم غيابه عن الساحة، وذهابه إلى لقاء ربّه، مازالت هذه المدرسة قائمةً، وتعمل عملها، تحت إشراف نجله الشيخ خليل الرحمن الحميدي، وقد خرّجت هذه المؤسسة جما غفيرا من العلماء العاملين في مختلف نواحي المجتمع، داخل الدولة وخارجها، وستظل هكذا تخرّج وتنشر نور العلم والإيمان على مشيئة الله، وتُضيف حسناتٍ إلى ميزان مؤسسها وواضع نبتتها.

صلته بربّه

وأما صلته بربّه فحدّث عنها ولا حرج، كان عالما ربانيا، وعابدا تقيا، وزاهدا قنوعا، وعفيفا دينا، كان يتحدّث في المحافل بعد نصف الليل وقبيل الفجر، حين كانت الدنيا نائمةً في نوم عميق، في ذلك الوقت كان صوته يجيش بالآيات والأحاديث النبوية، فيصافح جنبات القلوب ويمسّ سويداءها، ويتمثّل في كلامه تاريخ السلف الصالح وأئمة المسلمين، تاريخ الجهاد والفداء، والعبادة والتضرّع، فيطول البكاء والنحيب في المجمع، ويبكي الناس بأصوات رفيعةٍ توقظ الدنيا النائمة الغافلة، ولا تسأل عن عدد أتباعه، فهم لا يُحصون، وهم لا يزالون يجتمعون للمؤتمر السنوي في رحاب «مدرسة برونا»، فتتحوّل ساحة المدرسة إلى بحرٍ هائج مائج، يتدفّق عليها ملايين الناس من داخل الدولة وخارجها، فيكون من أكبر مجمع ديني في هذه المنطقة، وكان من أبرز خلفائه شيخ الحديث مولانا عبد الله الهاريبوري.[2]

(١) مقال إحسان بن مجاهر، جريدة "الوكيتو بنغلاديش" (بنغلاديش المضيئة) اليومية، الجمعة، ١٩ فبراير، ٢٠١٦م

(٢) هو الشيخ عبد الله بن الحاج بركت الله الهاريبوري، شيخ الحديث ورئيس مدرسة «هاريبور»، وُلد عام ١٩٣٥م في محافظة «سلهت»، ودرس في دار العلوم «كنايغات»، والجامعة الإمدادية بـ«كشورغنج»، على الأساتذة الكبار أمثال الشيخ مشاهد البيومبوري، ثم تولّى التدريس في مدارس كثيرة، وفي عام ١٩٨٠م أسس مدرسة «هاريبور»، وظل يدرّس فيها الحديث ويرأسها إلى آخر عهده بالدنيا، وقد بايع الشيخ لطف الرحمن البرنوي، ونال منه الخلافة، وكان داعية مصلحا، قام بأعمال دينية كبيرة في منطقته، كما دخل في غمار السياسة تحت مظلّة «جمعية علماء الإسلام»، وكان يحفظ معظم أجزاء صحيح البخاري، وقد توفي عام ١٩٩٨م، وخلف عددا كبيرا من الأتباع والمريدين.

مولانا عبد الرشيد تركوباغيش

(١٩٠٠-١٩٨٦)

العالم المجاهد، السياسي الكبير، رائد حركة اللغة

في اليوم الذي قادَ شابٌ عشرينيّ ثورةً عارمة ضدّ الاحتلال، وتزعم حركة مقاطعة الإنجليز، والبضائع الأجنبية، وأخرج خمسين ألف شخصٍ من بيوتهم، وأقامهم في الشوارع والأسواق ضدّ الحكومة القائمة، وتفجرت ثورة عظيمة دامية كادت تطيح بالسلطة، حتى قام الإنجليز، وصبّوا عليهم جام المحن، وانتقموا منهم انتقاما شديدا، وبطشوا بهم بطشة جبار، لا يعرف الرحمة، ولا يعرف الإنسانية، وقتلوا منهم عشرة آلاف ولا بواكي لهم، واعتقلوا الآلاف الآخرين، وهزّت هذه الانتفاضة قوّة الاحتلال هزة كبيرة، في ذلك اليوم عرفَ سكّان «بابنا» هذا الشابّ العظيم، ورأوا فيه قيادة المستقبل، وزعامة الشعب إلى الرقي والصعود، فوضعوا فيه ثقتَهم، ولبّوا بدعوته في جميع المواطن، وحلموا به أحلاما، وقد جاءت الأيام تصدق تلك الأحلام، وتحقّق تلك الأمنيات، فتجعل من ذلك الشاب عالما مجاهدا، وسياسيا كبيرا، وزعيما إنسانيا، وقائدا من أعظم قوّاد التاريخ، إنه الشيخ مولانا عبد الرشيد تركوباغيش.

لقد كان الشيخ عبد الرشيد من هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين ترفّعوا على الحدود، وتغلّبوا على الفروق، وتباين المذاهب والآراء، والأحزاب والاتجاهات، مع الثبات على المبدأ والتمسّك بالجذور، ومن هنا أحبّه الناس في كل حزب، وأثنى عليه الناس ومجّدوه كإنسان قبل كل شيء، وكان من هؤلاء العلماء المعدودين الذين نشؤوا في البيئة الدينية، ودرسوا الشريعة، وأخذوا العلم من المشايخ والأئمة، ثم جعلوا لأنفسهم مكانا في قيادة الشعب، وإدارة دفّة البلاد، وزعامة ملايين البشر، ورئاسة الأحزاب والانتفاضات، والمؤتمرات والندوات، التي تتّسم بالعلمانية والإلحاد، والشيوعية والاشتراكية، وجميع النظريات المعادية للدين، والبغض للشريعة، والتشدّد بحملتها، إذن كيف نزلوا على إرادتهم؟ وخضعوا

لزعامتهم؟ ومثلوا بين أيديهم كتلامذة وأتباع؟ واعترفوا بقيادتهم؟ وانضووا تحت راياتهم؟ هذه هي نخبة الذكاء والنبوغ، وحُسن الفهم، وقوّة الإدراك، ونفاذ البصيرة، والذكاء الشديد، وتجليات الفراسة والعبقرية، والإحاطة الواسعة، وتاريخ البطولة، والآراء الحصيفة، ولم تنجب هذه الدولة أمثالهم إلا قليلا، وكان على رأسهم الشيخ مولانا عبد الحميد خان البهاشاني، ثم يأتي بطل هذه القصّة، مولانا عبد الرشيد تركوباغيش.

الميلاد والنشأة

ولد عبد الرشيد في محافظة «سراج غنج» عام ١٩٠٠م، في أسرة صوفية تتحدّر من قبيلة عربية عراقية، أخذ الدراسة الابتدائية في قريته، ثم دخلَ في «مدرسة اليوبيل الألماسي الثانوية»، ودرس فيها فترةً، وهنا اعتقلته السلطة لزعامته في «انقلاب سالونغا»، وزجّت به في السجن لمدّة ستة أشهر، ثم سافرَ إلى الهند، ودخلَ في مظاهر العلوم بـ«سهارنبور»، ثم دخلَ في دار العلوم ديوبند، كما دخل بعد ذلك في «كلية إشاعة الإسلام» بـ«لاهور»، وأخذ العلم من فطاحل العلماء والأساتذة الكبار، إلا أن دراسته لم تستمر طويلا، وخاض غمار السياسة والقيادة، وظلّ فيها إلى آخر عهده بالدنيا.[1]

لقد جُبل عبد الرشيد ونشأ على الصراحة والجرأة، ورفع الصوت ضد الظلم والطغيان منذ فترة مبكرة من حياته، ونشأ رجلا قياديا، وفارسا سياسيا في صميمه وبطبيعته، وقد برزَ فيه نبوغ القيادة منذ شبابه، ففي عام ١٩١٤م عندما كان عبد الرشيد في الرابع عشر من عمره، قادَ حركةً دينية قويّة ضدّ الفحشاء والمنكر، وأزالَ بؤرة كبيرةً معروفةً للدعارة من حيّه، وفي عام ١٩١٩م شاركَ في «حركة الخلافة» بقيادة العلماء، وفي«حركة عدم التعاون» بقيادة غاندي وبتأييد العلماء والمسلمين معهم ضدّ الاحتلال، وهو طالب الصف العاشر في مدرسة قريته!

إرهاصات النبوغ القيادي المبكر

لما جاءَ عام ١٩٢٢م، قادَ انقلابا كبيرا في تاريخ البنغال الشرقية عُرف بـ«انقلاب سالونغا»، الذي كان تجلية من تجليات الكراهة والبغض، والعداوة والازدراء، وردّة الفعل البنغالي القويّ ضدّ الاحتلال والاستغلال، وكان حبّة لسلسلة طويلة من حركات التحرير، إلا أنها كانت حبّة فريدةً في نوعها، فقد أجمعَ سكّان «سالونغا» على مقاطعة الإنجليز، وعدم البيع والشراء معهم، وترك السلع التي كانت تأتي

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص١٠٦

من بريطانيا، وكان هذا الانقلاب بزعامة عبد الرشيد وأصحابه، فألقت الشرطة عليهم القبض، وأجبرت الناس على البيع والشراء معهم، وهنا هاج الناس وماجوا، وقاموا وقعدوا، وخرجَ ألوفٌ مؤلفة من العوامّ، يزيدون على خمسين ألفا، واشتبكوا مع الشرطة وقوّات الاحتلال، حتى كشف الاحتلال عن وجهه الحقيقي، وكشر عن أنيابه الكاسرة، وألقى النار على الشعب الثائر، وقتلَ أكثر من عشرة آلاف شخص! لكن هذه الدماء لم تذهب هدرا، وإنما تحوّلت إلى بحرٍ هائج مائج غرقَ فيه الإنجليز وضاعَ للأبد.[1]

إنسان نذرَ حياته على السياسة

وقفَ عبد الرشيد حياتَه على السياسة، وأخذها وسيلةً لخدمة الدين والأمة، وصالَ وجالَ في ميدانها إلى آخر عهده بالدنيا، وآثر أن يظل أسيرا سجينا ورهين الظلام على أن يدب في الأرض محني الرأس، وملجم اللسان، ومربوط الفكر، ومكبل الاعتقاد، ففي عام ١٩٣٦م شاركَ في «الرابطة المسلمة» لكي يجاهد ويعمل على إنشاء دولةٍ مستقلّة للأمة المسلمة، واختير عضوا في المجلس التشريعي البنغالي عام ١٩٣٧م، ثم تركَ الرابطة المسلمة ودخلَ في «رابطة العوام المسلمة» التي أسسها الشيخ الكبير، العالم الديوبندي، مولانا عبد الحميد خان البهاشاني، وفي عام ١٩٥٤م اختير عضوا في المجلس الولائي تحت مظلّة «الجبهة المتّحدة»، وفي عام ١٩٥٦م اختيرا عضوا في المجلس الوطني الباكستاني تحت مظلّة «رابطة العوامّ»، ثم أنيطت به المسؤولية الكبرى للرابطة، وظلّ يعمل رئيسا لرابطة العوام في باكستان الشرقية حتى عام ١٩٦٦م،[2] وهل أعجب من ذلك يا ترى أن عالما ديوبنديا يقود أكبر وأقوى حزب باكستاني، ويرأسه زهاء عشرة أعوام، ثم يقوم هذا الحزب ضدّ العلماء، ويحتضن الإلحاد والعلمانية، ويكون ألدّ أعداء للإسلام والمسلمين! ومن لا يدري أن الشيخ تركوباغيش عندما كان رئيس الرابطة، كان «الشّيخ» مجيب الرحمن يعمل تحته! وكان للشيخ رشيد أثر كبير في تكوين عقليته!![3] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]

في عام ١٩٧٠م أصبح عبد الرشيد عضوا في المجلس الوطني من منطقة «بابنا» تحت مظلّة الرابطة، وفي عام ١٩٧٢م ترأسَ أولى دورةٍ برلمانية في تاريخ بنغلاديش، وفي عام ١٩٧٣م أصبحَ عضوا

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمي ص ١٢٣

(٢) الموسوعة البنغالية، عنوان "عبد الرشيد تركوباغيش"، مقال روزينا القادر

(٣) مقال مولانا قاسم شريف، في جريدة "صوت العصر" (كالير كانتو) اليومية، ١١ أغسطس، ٢٠١٧م

في البرلمان، وفي عام ١٩٧٦م حصلَ خلافٌ بينه وبين «الشَّيْخ» مجيب الرحمن في بعض القضايا الحسّاسة، وخالفَ الشَّيخ فكرة «الشَّيْخ» مجيب الرحمن الدكتاتورية، فتوسّع الخرق بينهما، وترك الرابطة وكوّن حزبا باسم «الرابطة التحريرية العامة» واختير رئيسا له.[١]

تنقّله بين الأحزاب وثباته على المبادئ

بمجرّد النظرة العابرة في حياة الشيخ عبد الرشيد يتجلّى للقارئ أن الشيخ طوال حياته تنقّل في الأحزاب السياسية، فتاركَ وشاركَ، وخرجَ ودخلَ، حتى أصبح في أيامه الأخيرة يكوّن بنفسه حزبا جديدا، يجتهد ويعمل تحت مظلّته، إلا أن القارئ لتلك الفترة الدقيقة الحرجة في تاريخ هذه الدولة، وتلك المراحل المضطربة ولا سيما المراحل الباكستانية التي لا تزال أخطر وأدقّ وأشدّ اضطرابا وفداحة في تاريخ هذه البلاد، وما نشأ فيها من الأخذ والعطاء، والخدعة والأمانة، والابتزاز والتضحية، والمد والجزر، سيرى أن الشيخ كان يسير على مبدأ خاصّ لا ينحرف عنه، ويستقيم على دربٍ وخريطة طريق رسمها لنفسه في ضوء إيمانه وعقيدته، وعلمه وتجاربه، ودراسته للحياة والمجتمع، فهو الذي خاض غمار الحركات التحريرية ضدّ الاحتلال، ودفاعا عن وطنه وأمّته، ثم لما رأى السياسة أصبحتْ من حاجة الأمة، ومطالب العصر، ولا خلاصَ لهذا الشعب إلا أن تعود القيادة إلى الأمناء والقادة المثاليين، الذي يخشون ربّهم في رعيتهم، ورأى أن السياسة هي الطريقة المثلى لتحقيق تلك الأحلام، لكن لما رأى الانحراف في الأحزاب السياسية، لم يكن منه إلا أن يغيّر طريقه، ويبدّل السلاح والآلة لتحقيق الغايات العظمى، وهذا هو تاريخٌ مجيد للعلماء والأئمة، فالسياسة أو الحزب السياسي ليس هدفا وغايةً، وإنما الغاية هي تحقيق مصالح الوطن والأمة والدين على حدّ سواء.

من أجل ذلك نراه عندما رمت الحكومة الباكستانية أبطالَ حركة اللغة البنغالية بالرصاص يوم ٢١ من فبراير عام ١٩٥٢م، وكان زمام الحكم بيد «الرابطة المسلمة» التي هو زعيمٌ من زعمائها، إلا أنه لما رأى مخالفة الرابطة في عهودها، وعدوانها على حقوق الناس، والمدنيين الأبرياء في باكستان الشرقية، واستمرارها في الوقاحة والرقاعة، وغلبة طباعها الذئبية على إنسانيتها المصطنعة، وتكلّفها في احترام وتقدير العلماء التي كانت «الرابطة» فيه بارعة، آن لابي حنيفة أن يمد رجليه، وثار استياء، وأعلن براءته من الرابطة في ٢٣ فبراير، وكذلك بعد ظهور بنغلاديش عندما شاهدَ بأم عينيه ما فعلته السلطة

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار احمد القسمتي ص ١٢٥

الحاكمة «رابطة العوام»، هجرَها بعد أن مشى في ركابها معظم حياته، وبلغ بها إلى مكانتها الآن، وكوّن حزبا جديدا لتحقيق حلمه، هذا هو المبدأ، وهذا هو المعنى الحقيقي للسياسة، فالسياسية للناس، وليس الناس للسياسة.[١]

آثاره في حركة اللغة

أما دوره القيادي خارج عالم السياسة، فلا يقلّ عن دوره في السياسة، فاللغة البنغالية التي يتحدّث بها مئة وستون مليون نسمة في بنغلاديش كلغة رسمية لهذه الدولة، لها تاريخ مجيد فريد، تاريخ الدماء والدموع، والبكاء والنهوض، والمظاهرات والمفاوضات، والحركات الدؤوبة، هنا تتميّز اللغة البنغالية عن جميع لغات العالم، وهنا يتجلّى نبوغ سكّان هذه الدولة، وقيمة هذه اللغة، إذن اللغة البنغالية لم تأت إليهم عفوا واتفاقا، وإنما جاءت عبر جسرٍ من الدماء والأرواح، وهذا التاريخ صنعه سكّان بنغلاديش ٢١ فبراير عام ١٩٥٢م، واعترفَ بتضحياتهم وفدائهم العالم كله، وقدّر جهودَهم، حتى أصبح ٢١ فبراير اليوم العالمي للغة الأمّ، تخليدا لتلك الذكريات الفريدة، يرجعُ فضلها قبل الجميع إلى هذا العالم الجليل، فهو الذي قاد المظاهرات والحركات لصالحها في ذلك الوقت، وتركَ من أجلها حزبَه «الرابطة المسلمة» التي قضى معها سنين طوالا.[٢]

ثم هو الذي خطبَ في المجلس الوطني الباكستاني ١٢ أغسطس عام ١٩٥٤م باللغة البنغالية، لأول مرّة في تاريخ باكستان، وهكذا قدّم إليهم رسالة سكّان باكستان الشرقية ومطالبهم،[٣] وفي ٢٠ سبتمبر من العام نفسه طالب من السلطة أن تحوّل عاصمة باكستان من كراتشي إلى داكا، وهو الذي خالفَ اسم «باكستان الشرقية» لهذه المنطقة، وطالبَ أن يكون اسمها «البنغال الشرقية» عام ١٩٥٦م.[٤]

دوره في حرب الاستقلال

وكان له دورٌ كبيرٌ في حرب التحرير عام ١٩٧١م، وقد ندّد مواقف بعض العلماء من هذه الحرب

(١) حركة اللغة، تأليف أحمد رفيق، ص٥٢

(٢) انظر دوره وجرأته في كتاب تاريخ حركة اللغة، تأليف بشير الهلال، ص٣٧٨ وما بعدها بالتفصيل

(٣) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ١٣٨

(٤) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص١١٥

ومخالفتهم لها، ومناصرتهم لما يسمّونه «الحفاظ على وحدة الأمة»، فانتقد الشيخ ذلك الموقفَ، وقال إنه لا صلة لذلك الموقف بالإسلام، ولا يجوز حمل السلاح ضدّ أبناء الوطن وأعضاء الأسرة، وقام الشيخ بدوره بتأسيس «حزب العلماء»، واستنفر الناس على الدخول في هذه الحرب، ودعا العلماء للانضمام إلى صفوف الجيش البنغالي الذي كان يعمل للدفاع عن الوطن والأمة،[1] كما كان له دورٌ رياديٌ في رفع صوت ضدّ الحكم العرفي للدكتاتور الجبار حسين محمد إرشاد في ثمانينيات القرن الماضي.

بصماته في ميدان التعليم

قدّم الشيخ تركوباغيش خدمات جليلة في ميدان العلم والمعرفة، والدين والأمة، وكان له دورٌ كبيرٌ في تأسيس «المؤسسة الإسلامية بنغلاديش»، كما قام بدورٍ ريادي في تأسيس «مجمع اللغة البنغالية»،[1] وسعى سعيا دؤوبا لفتح كثير من المدارس الدينية، والمراكز العلمية، التي أغلقتْ أثناء حرب الاستقلال وبعدها، وكان رائد الإصلاح المدرسيّ، وأول رئيس «مجلس التعليم لمدارس بنغلاديش» (العالية) بعد التحرير،[2] وقام بإصلاح كبير، وتحدّث في مواطن كثيرة عن ضرورة الإصلاح في مناهج التعليم، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وفضائل الدين والدنيا، ومحاسن القديم والجديد، وإضافة المواد العلمية والمهنية إلى العلوم الشرعية، وإلا لا تقوم هذه المؤسسات بدورها، ولا تؤتي ثمارها المرجوّة، ولا تجاري روح العصر، ولا تواكب التطوّر الحديث.

قائد مؤمن يسعى من أجل إيمانه

كما سافر الشيخ إلى أرض الحرمين، وجلسَ مع الوزراء وكبار رجال الدولة عام ١٩٧٢م، ورأى كثيرا من الشكوك والشبهات التي كانتْ مخيّمة على العرب حول بنغلاديش وحركات تحريرها، وحسرتهم على دولةٍ قامتْ على السيف وحدَه، فلما صدئ السيف والتوى، تصدّعت وانهارت، وصارتْ أحاديث التاريخ، فأزمع العكوف على إزالة تلك الشكوك، والعمل على نشر صورة صادقة لدولة بنغلاديش بين العرب، لذلك لما رجعَ إلى الوطن تحدّث مع «الشّيْخ» مجيب الرحمن وأكّد على أهمية

(١) دور علماء البنغال في السياسة: تأليف الدكتور محمد عبد الله ص٢٠١، وانظر كذلك البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص١٢٣ وما بعدها

(٢) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ١٢٤

(٣) المرجع السابق ص ١٢٤

تقديم بنغلاديش إلى العالم العربي بلغتهم، ومن هنا فتحَ برنامجا في إذاعة بنغلاديش باللغة العربية، وتولّى تنفيذه الشيخ الكبير مولانا علاء الدين الأزهري،[1] وكان له دورٌ كبيرٌ في تعريف العالم العربي بهذه الدولة، ولا يزال هذا البرنامج يبثّ في إذاعة بنغلاديش، وسافرَ إلى روسيا عام ١٩٧٤م، وعرّف الأوساط المثقّفة ببنغلاديش وركّز على هويتها الإسلامية.[2]

في ميدان التأليف

مع هذه الأشغال والارتباطات، والجهاد الدؤوب في السياسة والقيادة، تجلّت عبقريته في الكتابة والتأليف، واللغة والأدب، فكتب عدّة مؤلفات قيمة في السيرة والتاريخ، والتجارب والأدب، ومن بينها: ◊ النبي الخاتم ◊ حياة إسماعيل حسين السراجي ◊ على شاطئ الذكريات ◊ لمحات من العصر الإسلامي الذهبي ◊ نظراتٌ في الحياة المعاصرة.[3]

كيف كافاه بنو قومه على وفائه؟

بعد هذه الحياة الفخمة الحافلة انتقلَ الشيخ عبد الرشيد إلى رفيقه الأعلى عام ١٩٨٦م، وقد قام وطنه الذي جاهدَ من أجله طوال حياته بوفاء بعض الحقوق التي كانت له عليه، فكرّم مكانتَه وقدّر جهوده بمنحه «جائزة عيد الاستقلال» بعد الوفاة عام ٢٠٠٠م، كما تأسست عدّة كليات ومدارس ومؤسسات علمية وإنسانية تحمل اسمه وفاءً بدوره، منها «كلية نور النهار تركوباغيش الجامعية»، و«مدرسة مولانا عبد الرشيد للعلوم»، و«مدرسة مولانا عبد الرشيد العالية»، و«مكتبة مولانا عبد الرشيد تركوباغيش»، و«مؤسسة مولانا عبد الرشيد تركوباغيش» وغيرها، لا شكّ إن هذه كلها تعدّ لمسة وفاء للفقيد الغالي من قبل وطنه وشعبه.

(١) إنه الأديب العربي الكبير، والمؤلف القدير الشيخ مولانا علاء الدين بن عبد الكريم الأزهري، وُلد في محافظة «مداريبور» عام ١٩٣٠م، في أسرة دينية وعلمية شريفة، درس في قريته، ثم ذهبَ إلى «تشاندبور» ودخلَ في «المدرسة العالية العثمانية» حتى تخرّج منها في مرحلة «الكامل في الحديث» عام ١٩٥١م، ثم سافرَ إلى مصر، ودخلَ في قسم أصول الدين بجامعة الأزهر، وأكمل البكالوريوس والماجستير، بعد ذلك دخلَ في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ونالَ شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، ثم عادَ إلى الدولة عام ١٩٥٧م، ودخلَ في المدرسة العالية بداكا، وظلّ فيها طوالَ حياته يدرّس ويحاضر، ويوجّه ويربي الطلاب، كان الشيخ الأزهري من عباقرة اللغات والآداب، حتى أتقن ما يُقال سبع عشرة لغة! وعملَ حياته كلها لخدمة اللغة العربية وآدابها، فدخلَ في «مجمع اللغة البنغالية» بداكا واشتغل به فترة، كما عملَ في الإذاعة، وألّف مؤلفات كثيرة باللغة العربية ما يزيد على ٥٠٠٠ صفحة! دخلَت بعضها في مقررات المدارس والجامعات، وبعضها ظلت غير مطبوعة، وقد توفي هذا الأديب العملاق عام ١٩٧٨م ودُفن في داكا.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٨ - ١٤٩

(٣) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ١٥٠

إلا أن كل ذلك لا يعدّ شيئا إذا قورن بهذا الإنسان العظيم، ودوره الريادي في السياسة والقيادة ولا سيما إذا رأيناه يكاد يضيع مع الأيام بين مكائد أعداء الإسلام وإهمال العلماء، ويمحو أثره من التاريخ، فقد جاءتْ في سلطة هذه الدولة أحزابٌ هي أقرب إلى الإلحاد والعلمانية والوثنية منها إلى الإيمان، وأجيالٌ بلا جذورٍ، فجاءت محاولات لطمس آثار هذا العبقري من التاريخ، ومحو جماله ورونقه وتصفية قائمة الأبطال البنغالية من العلماء والدعاة، والشخصيات الإسلامية، لتكون هذه البلد وتاريخها تقوم على أساس علماني مجرّد، أو على هامش من الدين والتديّن.

كما كاد يضيع هذا الإنسان في إهمال العلماء وتجاهلهم، ومواقفهم غير الكريمة تجاه هذا الإنسان العظيم، وهو لم يرتكب جريمةً إلا أنه ساسَ البلاد مع العلمانيين، إن كان هذا هو الحقّ فالأحق ب ذلك أن الشيخ ثبتَ على المبدأ، واستقام على المنهج الديني القويم، ولم ينس مصدره وغايته للحظة من لحظات حياته، ألا يزكيه ذلك ويبرّر ساحتَه؟ ويجعله "مقبولا" لدى علمائنا، وقدوة حسنة في السياسة في محيط علماني مثل هذه الدولة؟ إن الشيخ عبد الرشيد تركوباغيش -ومن كان على شاكلته في تاريخنا- يستحقّ الترحيب من العلماء قبل التنديد، والاحترام قبل الازدراء، لما قدّمه في تاريخ الوطن والأمة، وخصوصا في العصر المعاصر، حينما أصبحتْ كلمة "الإسلام" وكلّ ما له صلة بالإسلام تثير في أعين العلمانية والإلحاد والقوى المعادية لدين الله الحنيف، وانحصر العلماء في حدود مراكز التعليم وزوايا الذكر، وكاد الدين يضيع بين الجاحدين والجامدين.

مولانا محمد الله الحافظجي

(١٨٩٥- ١٩٨٧)

«أمير الشريعة»، رائد السياسة الإسلامية، سلطان العارفين

قصة نادرة في تاريخ السياسة

في عام ١٩٨١م شاهدَ العالم قصّة من أغرب القصص في تاريخ السياسة، وشاهد الناس أن شيخا مسنًا بعد أن بلغَ من الكبر عتيا وقضى معظم حياته في المدرسة والزاوية، وفي الدراسة والتدريس، خالفَ طبعه مخالفة صريحة، وفاجأ العالم مفاجأة مدهشة، ونزلَ في معمعة السياسة، وشاركَ في انتخاب الرئاسة، وهبّ يتنقل في شتى ربوع الدولة، ليوقد جذوة الإيمان واليقين تشتعل في القلوب، ويدعو الناس إلى إقامة شريعة الله في أرض الله، وتطبيق الإسلام في الحياة وفي الدولة، حتى يكون هو النظام الأوحد في الرقعة التي يسودها، والتي خلقت وجاءتْ في الوجود من أجله يوما من الأيام، فاستطاع بذلك أن يبعث أول صيحة مدوية ترجّ الدولة في كافة أرجائها رجّا، وهنا ثارتْ ثورة العلمانية، واهتزّت أوكار الإلحاد والاشتراكية، وأصيبتْ الخلايا اليسارية بذهول، وتملكها الهزع والهلع، فأحسّوا بأن الدولة تكاد تدول عليهم، وشاهدوا الموت الزؤام ينتظرهم، وهنا نهض الجميع، واتّحدوا على رصيف واحد، وضربوا على هذه الدعوة ضربة رجلٍ واحدٍ، وحاكوا ضدّها الدسائس، ونصبوا لها الشراك والفخوخَ، حتى غَلبوا على أمرهم، وارتفعتْ أصواتُ الشياطين، وخفتت أمامَها أصواتُ المؤمنين.

إلا أن الله له رجال، وأن الدين له أنصار، فمع أن الشيخ انهزم في بادئ الأمر، لكن الانتصار الحقيقي كان حليفا له، فقد صنع تاريخا رياديا لعلماء هذه الدولة، ورسمَ خريطة طريق للسياسة الإسلامية من أفق جديد، وقدّم نموذجا حيا ماثلا أمامهم للسياسة الإسلامية الخالصة، وأثبت للعالم

وللعلماء مرّة أخرى أن السياسة حقا من صميم الإسلام، وأنها جزءٌ لا يتجزّأ من الدين، وأنها لمسلمي هذه الدولة الرازحة تحت وطأة العمثانية منذ ولادتها كالماء للسمك. فلا قومة لهم فيها إلا على أساس الثورة السياسية الإسلامية الخالصة، أو تحويل السياسيين إلى المسلمين المخلصين للدين، إنه ذلكم الشيخ الرباني، ورائد السياسة الإسلامية في هذه الدولة، وقائد الجهاد، ومؤسس «حركة الخلافة»، وأمير الشريعة، مولانا محمّد الله الحافظجي.

هذه الواقعة الفريدة في تاريخ السياسة الإسلامية لهذه الدولة التي وقعتْ على يد هذا الشيخ المربي والعالم الرباني، الذي وقفَ حياته على التعليم والتدريس، وتربية الطلاب، وبناء المساجد والمدارس والجهاد في السلوك والإحسان، والمجاهدة في زاوية المشايخ، لم تكن واقعةً غريبةً وغير متوقّعة، ولم تكن مصادفة الزمان، فالدم الذي يرثه هذا الإنسان ويحمله في عروقه وشرايينه هو دم المجاهدين، والمدارس التي تخرّج منها هي حصون الشريعة، ومعاقل الدفاع عن الأمة، والأساتذة الذين تربّى على أيديهم هم حماة الدين في شبه القارة الهندية، فهل بعد ذلك من عجبٍ أن ينهض هذا الإنسان، ويصنع التاريخ!

ميلاده ونشأته ودراسته

ولد محمد الله في محافظة «لاكشميبور» عام ١٨٩٥ م، في أسرة ذات جاه ومكانة، وشرف كبير في المجتمع، أسرة تتوارث العلم والجهاد، والسلوك والإحسان كابرا عن كابر، وقد كان كبير هذه الأسرة مولانا أكرم الدين الميانجي من أصفى تلامذة وأبرز خلفاء الشيخ مولانا إمام الدين الغازي البنغالي، خليفة الإمام المجاهد أحمد بن عرفان البريلوي،[١] وُلد في هذا البيت العلمي الصالح، ونشأ في حضن الأم العابدة الصالحة، وتربّى في حجر الدين والعلم، ونشأ على أيدي العلماء العارفين، فكان له أثر كبيرٌ في تكوين حياته ومستقبله، وبرزتْ فيه رغبةٌ عارمةٌ في العلم والإحسان، ونشأ نشوءً كريم.

أخذ الدراسة الابتدائية في كتاب قريته، ثم تنقّل في مدارس كثيرة، إلا أنه لم يكن يجد له قرارا، ولم يجد له بغيةً، وهنا سمعَ عن معهد تحفيظ القرآن في «باني بت» بالهند، فخرجَ الصبيّ محمد الله في غفلة من الجميع، مخافة أن يمنعوه من هذه الرحلة البعيدة النائية عن الوطن وحيدا فريدا، فعانى معاناة في طريقه، وجرّب وعثاء السفر، وضيق الحال، حتى وصلَ إلى «باني بت»، ودخلَ في معهد التحفيظ، هنا حفظ القرآن كاملا عن ظهر قلبه، ثم تدرّج في مدارج العلوم والمعارف، وحضرَ في مظاهر العلوم

(١) ذكريات الشيخ الحافظجي، مطبوع مجلس الشيخ الحافظجي، ص٢٣

«سهارنبور» عام ١٩١٥م، وظلّ فيها سبعة أعوام، يدرسُ التفسير والحديث، والفقه والأصول، والمنطق والفلسفة، ثم دخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وتخرّج منها في مرحلة التكميل عام ١٩٢٤م، وأخذ العلم والحديث على أيدي أساطين العلماء، وعلى رأسهم مولانا أنور شاه الكشميري، ومولانا حسين أحمد المدني، والشيخ بدر عالم الميروتي، والشيخ مولانا رسول خان، والشيخ مولانا إعزاز علي وغيرهم، ثم حضرَ في زاوية مولانا أشرف علي التهانوي، وبايع على يده، وظلّ في صحبته طوال ستة أشهر، يتلو ويذكر، ويجاهد في التزكية والتغلّب على الهوى، وعادَ إلى مسقط رأسه.[١]

دوره في التعليم والتربية

تولّى التدريس في الجامعة اليونسية، وكانت حينئذ من طليعة المدارس العربية في الدولة، تعتزّ بزمرة مختارة من العلماء البارزين، والأساتذة الأعلام، أمثال المجاهد الأعظم مولانا شمس الحق الفريدبوري، والشيخ عبد الوهاب البيرجي، وكان هذه الثلاثة على عهد بأن يمكثوا في مكان واحدٍ، ويقفوا على منصّة واحدة للعمل، ويجاهدوا في سبيل الله متضامنين متكاتفين، فظلّوا خمس سنواتٍ في الجامعة اليونسية، وكانت تلك السنون من أعز الأيام في تاريخها، ثم ذهبوا إلى محافظة «باغرهات»، وأسسوا فيها مدرسة عُرفتْ في التاريخ بمدرسة «غزاليا»، وبعد فترةٍ عرفوا أن العاصمة داكا أصلح بقعةٍ في الدولة، وهي مدينة تعدل أي مدينة كبرى ذات شهرة عالمية في السعة والنظام، وعامرة بالسكان، وزاهرة بالموارد والثروة، فتستحقّ أن تكون مركز العلم، وحاضرة المعرفة، ومرجع العلماء والطلاب، وأن لها مستقبلا في النهضة العلمية، مع مرجعيتها في التجارة والمدنية، وأهميتها الاستراتيجية والإقليمية الكبيرة، فذهبوا إلى داكا، وأسسوا الجامعة الحسينية أشرف العلوم بـ«براكاترا» عام ١٩٣٦م، وكان له مشاركة حميدة في تأسيس الجامعة القرآنية بـ«لال باغ» عام ١٩٥٠م، والجامعة العربية إمداد العلوم بـ«فريدآباد» عام ١٩٥٦م، مع المجاهد الأعظم مولانا الفريدبوري.[٢]

كما أسس بوحده المدرسة النورية بـ«كامرانغي تشار»، التي غيّر اسمَها إلى «أشرف آباد» على اسم شيخه مولانا أشرف علي التهانوي عام ١٩٦٥م،[٣] وتولّى الخطبة في «جامع شاهي» بـ«لال باغ»، واستمرّ في المنصب طوال أكثر من ثلاثة وعشرين عاما، وقد درّس الحديث والتفسير في مدارس كثيرة،

(١) أمير الشريعة مولانا محمد الله الحافظجي، تأليف مولانا صلاح الدين زيغل، ص١٧ و١٨

(٢) ذكريات الشيخ الحافظجي، مطبوع مجلس الشيخ الحافظجي، ص٧٣-٧٦

(٣) أمير الشريعة مولانا محمد الله الحافظجي، تأليف مولانا صلاح الدين زيغل، ص٢٦

زهاء سبعين عاما، خرّج من خلالها آلاف العلماء البارزين، ورجال الفكر الدعوة، وقادة السياسة، والكتّاب والمؤلفين، والمشايخ والمرشدين، وعلى رأسهم شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، والشيخ السيد فضل الكريم، والشيخ مولانا هدايت الله، والشيخ سراج الإسلام، والمفتي فضل الحق الأميني، والشيخ عبد الحي البهاربوري وغيرهم.

معاناة الأمة المسلمة السياسية في البنغال

الجهادُ الذي رفعَ لواءَه الإمام شاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، ثم أخذ منه الراية نجله الشيخ عبد العزيز الدهلوي، ثم سارَ على هذه المحجّة البيضاء من العلم والتعليم، والحركة والجهاد، الشيخ إسماعيل الدهلوي، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي، وأخيرا شاركَ في هذا الموكب مولانا محمد قاسم النانوتوي، وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعلامة السيد حسين أحمد المدني، حتى جاء التحرير، واستقلّت الهند عن براثن الاحتلال، لم يكن هذا الجهادُ مصادفةً تاريخيةً، أو حلقةً من مسلسلات التاريخ، بل كان واقع الحياة، وضرورة الدفاع عن الدين، والغيرة على الشعب والوطن، والاعتزاز بالتاريخ والتراث والأمجاد جميعا، وأعزّ مرحلة في تاريخ البشر، كُتبت بالدماء والدموع، أكثر مما كتب بالمداد والدواة.

تحرّرت الهند من الاحتلال، ولم تتحرّر من الاستغلال، كما أنشئتْ دولةٌ "مسلمة" جديدة على أساس الخدعة، والخيانة، والمكر، والمطل، ومخالفة العهود والوعود من قبل المنافقين، وتحقّق حلم "جمهورية باكستان الإسلامية"، ولم يتحقّق "الإسلام"، فولدتْ باكستان ولكن بلا إسلام، وهنالك أفاقَ العلماء الذين حملوا دماء الجهاد وتوارثوا الحمية والغيرة من الآباء والأجداد، وتربّوا على أيديهم، ثم ساروا في ركابهم، وبرزوا في ميدان السياسة، ونزلوا في معترك الانتخاب والقيادة، والمظاهرات والمحاضرات، أفاقوا على أكبر خدعةٍ في التاريخ، وعرفوا أن هذه المرحلة كانت ملؤها الخدعة، ومواعيد عرقوب، فقطعوا صلتهم بالمنافقين ومن لفّ لفّهم ودار في فلكهم، وهجروهم جملةً وتفصيلا، لكن هل قطع الصلة يستدرك ما فاتَ؟ وهل هجر الخصوم يؤمّن الإنسان من جانبهم؟ لا ندري الإجابة بالدقّة، إلا أن الواقع لهذه الدولة أثبت لنا أنه لم ينفع الإسلام، ولم يمنح المسلمين شيئا.

إن البقر تشابه علينا

اعتزل معظم العلماء عن ميدان السياسة، وقرؤوا عليها سلام الوداع، ظنّا منهم أنها لم تقدّم شيئا

للإسلام والمسلمين، وليس بوسعها أن تقدّم شيئا، وبقي منهم العدد الضئيل يجاهد ويقاوم، ويصول ويجول، ويقوم ويقعد، ويتردّد ويتذبذب، ويعلو ويصعد، وينزل ويهبط، ويتهدّد ويتوعّد، أضف إليه أن كل ذلك كان على هامش الحياة، وعلى شاطئ محيط السياسة دون وسطه، وبعيدا كل البعد عن موطن القيادة، وإدارة دفّة السفينة، وتملّك الزمام، فيركب في هذه السفينة مرّة، ثم يتركها لسفينة أخرى، ويقف على الشطّ الشرقي تارةً، ثم يهاجره للشطّ الغربيّ تارة أخرى، والأمة لا تزال في عواصفهم وكوارثهم، ومصائبهم ومحنهم، والقادة لا يزالون في خيانتهم وخدعتهم، واستغلالهم وابتلاعهم لموارد الدولة، وإهمال تطوير الأوضاع الاقتصادية والصناعية والاجتماعية.

نزول الحافظجي في الميدان وعبقريته السياسية

هنا برزتْ عبقرية محمد الله الحافظجي، وقد حمل دم الجهاد والبطولة من جدّه الشيخ أكرم الدين نيابجي، خليفة الشيخ إمام الدين البنغالي، كما شاهدَ جهاد مرشده مولانا أشرف علي التهانوي، والشيخ شبير أحمد العثماني، والشيخ ظفر أحمد العثماني، ثم التقى بمولانا شمس الحق الفريدبوري، والشيخ أطهر علي، فكان لهؤلاء الناس كلهم أثرٌ كبيرٌ في حياة هذا الإنسان السياسية، وهكذا دخلَ في ميدان السياسة من أوسع بابها، وفتحَ للسياسة الإسلامية أوسع أفقها، وقدّم للأحزاب السياسية العاملة تحت لواء الإسلام درسا جديدا، بأن الطرق القديمة الرتيبة للسياسة والقيادة فقدتْ صلاحيتها، وباءت بالفشل في تحقيق غاياتها، ورسبتْ في الحلبة، فلا بدّ من تغيير الطريقة، ورسم الخريطة من جديد، ولا بدّ من أخذ الاستراتيجية الجديدة، والتعامل معها من نافذة جديدة، ولا بدّ من أخذ الثأر من الطغاة والمتجبّرين، واسترداد مظالم الناس من الظالمين، ولا بدّ من التوبة العامّة عن جرائم الماضي، وعن جميع الخيانات، والنظرة إلى المستقبل بعدسةٍ جديدةٍ صحيحةٍ سليمةٍ، فكان ذلك «سياسة التوبة»، وكانت التوبة هي هجر الخائنين، واختيار رجال الله كقادة المسلمين.

نزلَ الشيخ الحافظجي في غمار السياسة، وخاضَ في حلبتها الكبرى من دون أن يكتوي بنارها، ويتدرّب على طرقها وأساليبها، ويجربها في مراحلها المختلفة، وأصبح مرشّحا في انتخاب الرئاسة عام ١٩٨١م، وهكذا خرجَ قائد الزاوية في الشارع، ونزلَ المرشد الروحاني في معمعة السياسة العلمانية، ليقود الدين والدنيا معا، وليرشد الأمة في متاهات حياتها، وروحها، وواقعها ومعنوياتها في ذات الوقت، وبدأ يصول ويجول في الشوارع، ويلقي الكلمات في المجامع والمحافل، ويطوف بالقرى والمدن، ويتجوّل في أرجاء الدولة، ويجلس مع الناس، ويتحدّث إلى العوام والخواصّ، ويعدهم، ويحثّهم على تغيير قيادتهم،

ومن ثم تبديل حضَهم، ووضعه في أيادي جديدة، ويجعلهم يحلمون مرة أخرى بحياة هادئة آمنة في رحاب الشريعة وتحت ظلال كتاب الله، بعد العواصف والكوارث التي لا تزال تعاقبهم منذ ميلاد دولتهم.

كلمات غيّرت مجرى التاريخ

في ٢٩ يوليو عام ١٩٨١م، دعا مجلسا عاما للعلماء في رحاب المدرسة النورية، مقرّ عمله، وساحة جهاده، وتحدثَ معهم عن الأوضاع، وخريطة العمل في طريق السياسة، وألقى الشيخ بدوره في ذلك المجلس خطبةً بليغةً تشهد على عبقريته، ودراسته العميقة للواقع، والتاريخ السياسي والحركي للدولة، وحسن تصرفه للزمام، وطول باعه في مخاطبة العامة والخاصة، فقال الشيخ:

"بينما كانتْ حركة إنشاء باكستان بين تذبذبٍ، وبينما كان الناس في تأرجح بين القبول والرفض، والقيام والقعود، واليمين والشمال، في تلك الفترة الحرجة الدقيقة نهضَ علماؤنا وسلفنا الصالح، وقاموا بدورٍ قياديٍّ في إنشاء دولةٍ مسلمة جديدة، فجاءت الدولة، وقامت باكستان، لكن الأحلام لم تتحقق، واكتُشفتْ خدعة الحكّام، وخيانة القادة المستبدّين، فاعتزل العلماء عن السياسة، إلا أنهم استمرّوا في الجهاد والعمل على تطبيق النظام الإسلامي."

"ثم لما عمّ الخطبُ وطمّ، وطغى الظلم على العدل، وطفحتْ كأس الاستبداد، وبلغت المظالم أوجها، هبّت البنغال عن بكرة أبيها في ثورة صاخبة، وانتفاضة عارمة، وانشقت باكستان فلقتين، وانفصل شرقها عن غربها، وتجلت في خريطة العالم دولة بنغلاديش، وكانت هذه الدولة ردّا على الظلم، ورفضا للاستبداد، وجوابا عمليا على العدوان، وتحقيقا للحرية السياسية، والاستقلال الفكري والاقتصادي والثقافي، وعهدا جديدا للشعب البنغالي في دولتهم الجديدة، لكن هل جاءَ الاستقلال؟ وهل تحرّر شعبنا حقا؟ وهل انتهتْ أيام الظلم والاستبداد؟ وهل جاء العهد الجديد؟ وهل عاد الأمن والسلام إلى حياة الناس؟"

"لم يجئ شيء من ذلك، ولم يتحقّق حلم الشعب، لأن زمامه لا يزال بتلك الأيادي السوداء التي قبضتْ على خناق هذه الدولة منذ ميلادها، ولا تزال القيادة في تلك الشرذمة القليلة الذين هم جماع الشرور، ومصدر الظلم والاستبداد، وقادة الاستغلال، وهم الذين كتبوا صفحات سوداء في تاريخنا يندى لها الجبين، وهم الذين تقع عليهم التبعة الكبرى في ظهور كل فساد في هذه الدولة، فما زادت الأيام إلا سوءا، وما جاء في زيّ الاستقلال إلا الاستعباد، وصار الداء عضالا، والمرض مزمنا".

"ولذلك لا بدّ أن ننهض نحن العلماء مرّة أخرى كما نهض آباؤنا وأجدادنا، ولا بدّ أن نقوم بدور حماية الشعب وحراسة الوطن، ودفع ظلم الظالمين واستبداد المستبدين بهم، بالإضافة إلى ذلك أن الجهاد لتطبيق النظام الإسلامي هو جهادٌ أبدي سرمديّ، فرض على المسلمين عموما، وعلى علمائهم وقادتهم خصوصا، والمحاولة المشتّتة والأحزاب الإسلامية المختلفة لم تأت بثمارها طوال هذه السنين، ولم تثبت صلاحيتها، كل هذا وذاك يفرض علينا أن نقف صفا واحدا على منصّة جديدة، ونرسم خريطة العمل الموحّدة، ونعمل على تحرير الشعب والأمة من جديد."

عملتْ هذه الكلمات اليسيرة عمل السحر في النفوس، وأخذت بمجامع القلوب، وقد ألقاها الشيخ بأسلوب قويّ ملتهب، أسلوب له قيمة في إيقاظ الشعور، وتحريك النفوس والعقول، ومصاولة مركّب النقص، وإعادة الثقة بالدين وصلاحيته، وحيوية الشعب والأمة، فأخذت مأخذ الجدّ من العلماء، وضربَت على الوتر الحسّاس من الأحزاب الإسلامية العاملة في الميدان، حتى تجمعت حوله القلوب التي كانت متنافرة، والعقول التي كانت متصارعة، ووقفَ قادة جميع الأحزاب الإسلامية على منصة واحدة لم يسبق له مثال في التاريخ، وحبّذ العلماء والشيوخ والزعماء هذه الحركة السعيدة، وصمّموا على عمل موحّد لانتخاب الرئاسة عام ١٩٨١م، وجرى النقاش حول ترشيح رجلٍ قادر على قيادة العلماء والعوام والدين والدولة في ذات الوقت، حتى جاء يوم الجمعة، ٢٨ أغسطس عام ١٩٨١م، وجاءَ الإعلان من «جامع شاهي» بـ«لال باغ "بأن العلماء سيدخلون في انتخاب الرئاسة كجهادٍ ديني ووطني، تحت ظلال الإسلام وحدَه، ولا تحت مظلة الأحزاب السياسية العلمانية الكبرى، وسيكون قائد هذا الموكب الفريد وأمير هذا الجهاد العظيم الشيخ الرباني، مولانا محمّد الله الحافظجي".[1]

ما إن انتشرَ هذا الإعلان حتى عمّ طول الدولة وعرضها، وذاعَ على الألسن اسم "الشيخ الحافظجي"، ونشأت انتفاضةٌ جديدةٌ فريدةٌ لصالحه، وشوهدتْ يقظةٌ سياسية ما شوهدتْ مثلها قطّ، وقامت الدولة وقعدتْ، ووصلَ مدّ هذه الانتفاضة إلى كل مدينة، وإلى كل ريف وقرية، وتخطّى حدود الدولة إلى العالم الإسلامي الكبير، وعرف العالم بأن الأمة المسلمة البنغالية نهضت لتصنع تاريخها، وتسطر أمجادها بيدها!

---

(1) تاريخ العلماء الأبطال، من شيخ الهند إلى شيخ الحديث، مذكرة الجامعة الرحمانية العربية، محمدبور داكا، ص١٦٧

نادت الأوكار العلمانية بالويل والثبور

كانت هذه النهضة الدينية الكبيرة، وعودة الأمة المسلمة إلى دربها لطمةً عنيفة بأعداء الإسلام، وخلايا العلمانية والوثنية، فأقضّت مضاجعها، ونغّصت عليها عيشها، وهنا اهتزّت أوكارها، وأصيبتْ معسكرات الأعداء بذهولٍ، وخافوا أن دولتهم عما قليل ستدول عليهم، فأطارَ الفزعُ ألبابَهم، وصدع الذعرُ قلوبَهم، وبدأت المطامع والإغراءات، ثم تلتها التهديدات، لأنهم كانوا في وجل دائم أن يزاحمهم الشيخ على الملك والعرش.

إلا أن الشيخ كان بين يديه كلام حبيبه ﷺ: «ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»، فلا يخشى شرّهم وضرّهم، ولا يعبأ بتهديداتهم وإغراءاتهم، لأنه يعرف أن هؤلاء الناس يكرهون للعلماء السياسة لكي يستأثروا دونهم بمتعها، وأن ينفردوا بخيراتها، فيثبت ثبات الطود الشامخ، ويستقيم على المبدأ والمنهج استقامة المؤمن القويّ الصادق، لا يضعف ولا يتزحزح، ويستمرّ في جولاته، وجلساته مع الشعب، ويقود المظاهرات، ويرأس المؤتمرات، ويتحدّث في المجامع والندوات، ويوقظ الناس بعد سباتهم الطويل وغفوتهم العميقة على خسارة فادحة لحقتْ بهم حين غفوتهم، ويجعلهم يحلمون بقوّة الإسلام، وبمستقبلهم تحت ظلال القرآن، وقيادة المؤمنين المخلصين، واستيقن الناس بهذا الشيخ المسنّ الرباني المخلص، طاهر الدين، ونقي الأردان، فوضعوا فيه ثقتَهم، وكادتْ أحلامهم تتحقق، وأصبحت الحكومة الإسلامية لأول مرّة في تاريخ الدولة تحت قيادة عالم ديني، ومرشد رباني، الشيخ الحافظجي، قضية الوقت، وليس إلا.[1]

الخيانة الكبرى في التاريخ

في ١٥ نوفمبر عام ١٩٨١، تلاقى الجيشان، الجيش الإسلامي تحت قيادة الشيخ الحافظجي من جانب، وبقية الجيوش كلها تحت راية العلمانية من جانب آخر، وانتهى التصويتُ، وكان العالم كلّه مع الشعب البنغالي يحبس الأنفاس، ليرى تاريخا جديدا ينطلق في هذه البقعة، ولتقوم أول حكومة إسلامية في هذه الدولة، بعدَ أن وُلدتْ على أساسها قبل أكثر من ثلاثين عاما، وليكون القرآن أوّل مرّة دستور دولةٍ يؤمن أغلبية أبنائها بدستوريته وصلاحيته، حتى جاءَ الموعد المنتظر، وظهرتْ النتيجة، فما هي يا ترى؟

(١) المرجع السابق، ص١٧٣

ذُهل العالم بخيانة من أكبر الخيانات السياسية التي تتكرّر على مسرح هذه الدولة منذ ميلادها، وشاهدَ أن العلماء غُلبوا أمام العلمانيين، وأن السياسة الإسلامية انهزمتْ أمام العلمانية، فحصل الشيخ محمد الله الحافظجي على المركز الثالث في الانتخاب، الذي كان بعيدا كلّ البعد عن المركز الأول، وعن الانتصار، إلا أن الحقيقة كانتْ تخالف هذه النتيجة، وأن الواقع كان يقول غيره، فالتصويت الذي جاءَ لصالح الشيخ الحافظجي وهو ما يقارب أربع مئة ألف صوتٍ كان مجرد عدد الحاضرين في بعض مؤتمراته، والمشاركين في بعض جولاته، لكن خيانة الحكومة ورجال الشرطة، وأراجيف الخصوم، وصدّهم الناس عن التصويت في صالح الشيخ، وإحياء الثقافة القديمة والصورة المكرّرة في انتخابات هذه الدولة من التزوير والتلفيق، كلها عملت عملها، فكان من طبيعة الأمور أن لم يتحقق حلم الشعب، ولم ينتصر الشيخ الحافظجي على خصومه، ولم تقم الحكومة الإسلامية في هذه الدولة بعد أن كانتْ قضية الأوان، ولولا الخيانات، ولا التزوير في التصويت والإحصاء، ولولا تخويف الناس من تأييده، ولولا الإغراءات والتهديدات، وسياسة الجشع والنهامة، والتكالب المسعور على الجثّة، لتمّ الانتصار للشيخ الحافظجي، ولكان انتخاب ١٩٨١م مرحلةً جديدة في تاريخنا، ولكان لهذه الدولة شأنٌ غير شأنها اليوم.[1]

دروسٌ تلقى العلماء من انتخاب ١٩٨١م

لما تضعضع المعسكر الإسلامي أمام المعسكر العلماني غداة ١٥ نوفمبر عام ١٩٨١م، وانكسرت شوكته في معمعة الانتخاب، لم يعن ذلك قط أن قائد الجيش الإسلامي تزعزع في عزيمته وتصميمه، وانحسر الإسلام وظهر الإلحاد، ولجأ الفلّ إلى اقتحام الجبال والتلال، وطاش الدين أمام الدنيا، وباءت القوّة الإسلامية بالفشل أمام القوّة العلمانية والوثنية، بل بالعكس إنها قصة حقيقية عن قوة الضعيف الكامنة عندما يستعين بالله، وينذر حياته على تحقيق أحلامه وآماله، فقد أثبت هذا الانتخاب حقا قوّة الإسلام، وقدرته على إحياء القلوب، وتوعية الضمائر، وصلاحيته لهذا العصر، وإيمان هذا الشعب بالإسلام، وحبّهم للقرآن، ورغبتهم في العيش تحت دستور السماء، كما أثبت أثر العلماء ورجال الدين في الناس، ومكانتهم في قلوب الشعب، وخذلان الجبابرة أمام الصادعين بالحق، لو يخرجون من دائرتهم الضيّقة، ويتركون عزلتهم في الزاوية وحياتهم وراء الجدران، وينزلون في الساحة، ويختلطون مع الناس، ويستمعون إلى مشاكلهم، ويشاهدون واقع حياتهم، ثم يقدّمون لهم حلّا مباشرا، ويعالجون مشاكلهم

(١) ذكريات الشيخ الحافظجي، مطبوع مجلس الشيخ الحافظجي، ص٢٠٦

المادية والمدنية، مع علاج القلب والضمير، والعقل والروح، ليكون ذلك أقدر وأنجع، فالروح لا تكون إلا في الجسم!

كما أثبت للعالم مرّة أخرى أن العلماء في هذه الدولة لا يزالون مصدر الأمل، ومنبع الحلم، وموضع الثقة والإيمان، وأن الشعب لا يزال يؤمن بهم، ويعتمد عليهم، ويعتقد بأمانتهم وورعهم، وتقواهم وإخلاصهم، والصدق في عهودهم ووعودهم، وهذه الهزيمة البادية التي لحقت بهم ليست بشيء كبير، فالظفر ليس مكتوبا لأحد دائما، وأن الحرب سجال، يوم لهم ويوم عليهم، لكن الانتصار سوف يكلل جهودَهم، وأن القيادة سوف تقبّل رؤوسهم، وأن الزمام سوف يقع في أيديهم، إذا كانوا صادقين مع الله، وصادقين مع الشعب، وإذا كانتْ الصلة بينهم وبين ربهم متينةً، ومع شعبهم قوّية وثيقةً، وإذا جاءت جهودهم في أوانها ومكانها، وإذا كانت الاستراتيجية موفقة.

وقفاتٌ مع عبقريته السياسية

قد يبدو للقارئ أنه كان لمن الغرارة والبساطة، وقلّة التجربة بالعالم وواقع الحياة، أن يخرج رجلٌ من دائرة المدرسة، والتعليم والتدريس، وزاوية السلوك والرياضة القلبية، ثم يدخلُ مباشرةً في المسابقة السياسية الكبرى، ويسجّل اسمه في انتخاب الرئاسة، ويحلم أن يكون رئيسا للدولة، ولم يدخل قط في مدرسة السياسة، ولم يتدرب يوما على حيلها وأساليبها، وطريقة التعامل مع العوام ومع الخصوم، ولم يكوّن جماعة أو جمعية، ولم ينشئ حزبا سياسيا، ولم يقد المظاهرات، ولم ينشر الإعلانات، ولم يعرَف أو يشتهر كسياسي محنّك، وقيادي حكيم، ولم يُسمع أنه دخلَ حروبا، وحمل أسلحةً، لكن هذه النظرة تفتقد العمق، ودراسة الواقع، وتجارب العصور التي سبقت ذلك الانتخاب ولحقتها، وحتى كلام الشيخ محمد الله الحافظجي يرفضها، ولذلك عندما وصلت إلى داكا أنباء هزيمته، قامت داكا وقعدت، وعم الاستياء، وثارت ثورة أتباع الشيخ ومحبيه، وعلت وجوه أصدقائه المجربين في ميدان السياسة علامات الحزن والأسف، ومعالم الحسرة، إلا أن الشيخ المؤمن في تلك الفترة الحرجة الدقيقة كان مثالا حيا للصبر والاحتساب، فكان يتحدّث بوجه بشوش دائم، وبهدوءٍ كامل، ويُطَمّئِن من كان حوله، ويقول لهم: "لم ننهزم نحن! هم الذين انهزموا"، وقد شاهد العالم تفسير هذا القول في بضعة أشهر، فقد نُزعتْ السلطة من الحكومة القائمة على الخيانة، وذهبَ زمام الأمر إلى الجهة الثالثة، وجاءَ في الدولة الحكم العرفي لأول مرّة في تاريخها.

لم ينهض الشيخ الحافظجي بلا روية، بعد أن قضى معظم حياته في المدرسة والزاوية، وعلى المنابر وعروش التدريس، ولم يخض غمار السياسة ارتجالا، ولم تمسّه مسّة من النشوة السياسية، والإدمان بالسلطة، فحلم في النهار أضغاث الأحلام، وتمنّى أن يجني من دون أن يزرعَ، ويحصد من دون أن يحرث ويفلح، وأراد الوصول إلى الغاية بدون مقدّمة، لم يكن هذا وذاك قطّ، بل كان ذلك منه ومن العلماء رأيا موفّقا، وقرارا سليما في صميمه، وفي أوانه ومكانه، وكان ذلك من فراسته الإيمانية، وبعد الاستخارة من الله تعالى، وقد تجلّى ذلك في أروع مظاهره من خلال الشعبية العامّة التي شوهدتْ في تاريخ هذه الدولة لمرشح عالمٍ، والمدّ العارم لصالح قائد ديني.

كما تجلّى صواب هذه الخطّة من خلال مواقف الخصوم، ومن قادة الأحزاب السياسية من الشيخ الجليل، ففي بادئ الأمر ظنّ هؤلاء الناس بأنه قرار شاذٌ جاءَ من علماء المدارس الدينية، ورجال الدين، ولا يحمل في طياته شيئا من التجارب والدراسة العميقة للواقع ولضمير الشعب وميوله، فلم يقيموا له وزنا، بل نظروا إليه بعين الازدراء والاحتقار، وأصبح أضحوكة في تاريخ السياسة، إلا أنها في غضون الأيام تجلّت الحقائق عندهم، وشاهدوا بأم أعينهم أن الظروف تقلبت رأسا على عقب لصالح ذلك العالم، وأن الدولة ستدول عليهم، وأن الزمام سيفلت من أيديهم، وهنا نهضَ الجميع، واستخدموا سياسة الإغراءات والتهديدات، وجاءت العهود والوفود، حتى جاءَ رئيس الوزراء شاه عزيز الرحمن إلى كوخ الشيخ، وقال له: "إنك شيخٌ مسنّ، فلا يحسن بك أن تجتهد وتتعب نفسكَ، وتدخل في غمار السياسة، بل إنه لا حاجة بك إلى كل ذلك ونحن رجالٌ أكفاء، ثق بنا، وفوّضْ إلينا الأمرَ، نحن الذين نطبق النظام الإسلامي في هذه الدولة، لا نحتاج منك إلا الدعاء"! فجلجل الصوتُ المؤمن: "لقد طال بنا الأمدُ ونحن نستمع إلى هذه الكلمات المعسولة، ولم نعد نثق بها، وقد حان الآن أن نفعل بأنفسنا شيئا".

ثم لم يكن الشيخ أميا فلا يقرأ في المستجدات، ولم يكن ضريرا فلا يرى الطوفان الذي يجتاح، والأمواج التي تلتحم وتتلاطم حول مجتمعه وشعبه، بل كان عالما خبيرا، صاحب فراسة وكرامة، وتجربة طويلة، راقبَ التاريخ السياسي لوطنه عن كثب، وتابعَ سير الأحداث بدقة وملاحظة، فرأى تحرير الهند وانفصال البنغال عنها مرّة عام ١٩٤٧م، ثم استقلال البنغال عن باكستان عام ١٩٧١م، وشاهدَ بأم عينيه معاناة كثير من العلماء والدعاة، وقادة الأحزاب السياسية الإسلامية، والمدارس الدينية، والمراكز الشرعية، بعد الاستقلال مباشرة، لأسباب يأتي في طليعتها موقفهم من حرب الاستقلال عام ١٩٧١م، بينما كان ذيل الشيخ نقيا صافيا، بعيدا عن كل الاتهامات، فقد أيّد حرب الاستقلال تأييدا، ودعا

لصلاح بني جلدته، وتفاءل بالمظلوم ضد الظالم خيرا،[١] والمؤمن كيس فطن حذر، لا يلدغ من جحر مرتين، فرأى أنها فرصة سانحة ليفعل للدين فعلا، وليقدّم إلى الأمة المسلمة شيئا، وليحسن إلى الأجيال المسلمة القادمة إحسانا، وقد فعل، والحق أنه لولم ينهض الشيخ الحافظجي في تلك الفترة، ولو لم يمهّد الطريق أمام العلماء، ولم يقدم مثالا حيا للنهضة الإسلامية البحتة، لكانت صورة السياسة الإسلامية في هذه الدولة غير صورتها اليوم، ولكانت محبوسة في بطون التاريخ، لا ناشطة فعالة مؤثرة على أرض الواقع المعاش.

ثم إذا قلنا بأن الشيخ الحافظجي نزلَ في ميدان السياسة فجأةً، لا يعني ذلك أنه لم يكن يعرف السياسة، وليست له سابقة علم وتجربة بها، فقد ورثَ العلم والتزكية والقيادة من مولانا التهانوي، الذي لم يخض قط غمار السياسة بجسده ثم أصبحَ سيد القادة السياسيين في شبه القارة الهندية ومربيهم، وهذا الذي حصلَ للشيخ الحافظجي هو الآخر، فأصبح إمام السياسيين في هذه الدولة![٢]

ظهور «حركة الخلافة»

انتهى انتخاب ١٩٨١م، فانتهى به كل شيء، وعاد الجميع إلى بيوتهم، أما رحلة هذا الشيخ المسنّ التي بدأها في نهاية حياته، لم تنتهِ إلى آخر عهده بالدنيا، ولم يعدْ إلى بيته؛ لأنه عرفَ هذا الجهاد لن ينتهي بانتهاء الانتخاب، ولن يتمّ هذا المشروع إلا بانتصار الإسلام في هذه الدولة المسلمة، فلا بدّ من مواصلة الجهاد، والاستمرار في الحرب، وأن مستقبل هذه الدولة مربوط بالإسلام، وأن مستقبل العلماء والمدارس والدين بشكل عام على تحدّيات في عقر ديارهم، لو يبقى العلماء في حدودهم الضيّقة، والدوائر العلمية، والزوايا الصوفية، فلا بدّ ممن يخرج ويبقى في الميدان حتى يتمّ النصر أو يكتب له الشهادة، ومن هنا رأى أن الانتفاضة العامة التي جاءتْ لصالح الإسلام لا يجوز أن يضيّعها، ويخسر حصادها، بل يجب أن يدخرها وينميها، ثم يستخدمها في المستقبل، ومن هنا جمع العلماء والأتباع، وكوّن حزبا إسلاميا يحمل رسالة الدين والإيمان، ويرفع لواء القرآن، وأعلن في أوّل يومه: "إن الشعب يريد الإسلام، ويحبّ العلماء، ولكننا قصّرنا في مسؤولياتنا نحوَهم، فلا بدّ أن ننهض الآن، ونقوم بواجبنا، وننسى المشاكل الجزئية لتحقيق المصالح الكبرى"، فكان ذلك إنشاء «حركة الخلافة»، ترفع لواء "ألا له الخلق والأمر"، وكان الشيخ قائد الحركة و«أمير الشريعة».[٣]

---

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٣؛

(٢) حركة الخلافة: تعريفها وأهدافها، مطبوع دار الأشرف للنشر، داكا ص١٩

(٣) ذكريات الشيخ الحافظجي، مطبوع مجلس الشيخ الحافظجي، ص٢١١

الغاية العظمى من جهاد العلماء

ثم استمرّ الشيخ في جهاده في حلبات السياسة مع جهاده في ميدان الدعوة والإصلاح، والتزكية والسلوك، والتدريس والتعليم، ورفعَ صوتَه ضدّ الرئيس حسين محمد إرشاد، واتّهمه بعدم شرعية حكمه، وقاد المظاهرات، وعقد المؤتمرات، واستنفرَ الرأي العام، وشاركَ في انتخاب الرئاسة عام ١٩٨٦، وحصلَ على المركز الثاني، بعد الرئيس حسين محمد إرشاد، ولا يخفى على القارئ حقيقة الانتخاب تحت السلطة العسكرية الدكتاتورية، لكن جهاد الشيخ محمد الله وإخلاصه للوطن والشعب، وحلمه ببناء المستقبل هو الذي دخلَ به في الانتخاب، بعدَ أن جرّب حقائقه، وذاقَ مراراتَه عام ١٩٨١م، وهذا هو ديدن سلفنا، فهم لا يجاهدون للثمرة العاجلة، والنتيجة المحقّقة، بل جهادهم في سبيل الله، والإخلاص لدينه، قد تتأخّر النتيجة، وقد تأتي ثمارها بعد قرونٍ، وكان يقول "الرحلة السياسية التي بدأتها في نهاية حياتي، هي جهاد لإعلاء كلمة الله، ولإعزاز دينه ورفع لوائه، ولا يجوز الفرار من الزحف، فلذلك سأستمرّ في جهادي هذا ما دمتُ حيّا بإذن الله"، وقد فعله ذلك، وكان يقول : "الدين بلا سياسة جسد مشلول، والسياسة بلا دين كفر وإلحاد"، وكان يرى نزول العلماء في ميدان السياسة واجبا، لقيادة العلماء، ودفع الظلم، والرد على الباطل، فيقول: "لو كان التهانوي حيا، لحثّ العلماء على السياسة"،[١] هكذا أصبح الجهاد من أجل إقامة الخلافة الإسلامية وقيادة العلماء الرشيدة شغله الشاغل، وشعاره ودثاره.

الشيخ الحافظجي على مسرح العالم

لما خرجَ مرشدُ الزاوية إلى ميدان السياسة والقيادة، لم تقتصر عبقريّته السياسية على حدود الوطن وحدَها، بل تعدّتها إلى العالم بأسره، فقد سافرَ إلى بلدان شتىٰ من العرب والغرب، وخصوصا قامَ بدورٍ كبيرٍ في إطفاء نار الحرب التي كانت تدور بين شقيقين مسلمين، حرب الخليج الأولى التي استمرّت أكثر من ثمانية أعوام، وخلّفت خسائر فادحةً إلى الإسلام والمسلمين، يتجاوز قتيلُها أكثر من مليون نسمة، وسعى سعيا حثيثا لإيقافها، فسافرَ إلى إيران عام ١٩٨٢م مع وفد «حركة الخلافة»، كان على رأسهم شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، والشيخ المفتي فضل الحق الأميني، والأستاذ مولانا أختر

---

(١) أمير الشريعة مولانا محمد الله الحافظجي، تأليف مولانا صلاح الدين زيغل، ص ٣٧ و٤٢ و٤٣ و٦٦

فاروق،[1] والشيخ محيي الدين خان، والشيخ أبو طاهر المصباح، على دعوة رسمية منها وبمرتبة وزير، وجلسَ مع القادة الكبار أمثال آية الله الخميني، وأكبر هاشمي رافسنجاني، ومحمد رضا مهدوي كني، وأحمد جنتي، وحسين علي المنتظري، وشهاب الدين المرعشي النجفي وغيرهم مجالس كثيرة، وتحدّث في الإذاعة الإيرانية ووسائل إعلامها، ثم سافرَ إلى السعودية، وقد سافرَ إليها قبل ذلك مرارا وتكرارا، وأدّى مناسك الحجّ، ثم استضافَه هو والوفد معه الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار علمائها آنذاك، فقبلَ الشيخ الضيافةَ، وجلس معه، وناقشَ قضايا الأمة الإسلامية، بما يخصّ المناوشات بين أهل المذاهب وأهل الحديث في الدول الإسلامية، وبيّنَ للشيخ ابن باز استراتيجيته السياسية، وحركاته في أرض الوطن، ثم ركبَ الطائرة إلى العراق، وجلسَ مع رجال السلطة وعظماء الدولة، وعلى رأسهم الرئيس العراقي صدام حسين، والشيخ عبد الله فاضل وزير شؤون الأوقاف، وناقشَ مع الرئيس القضايا الثنائية بين العراق وإيران، وركزّ على حربه مع إيران، وذكّره بالأخوة الإيمانية، وضرورة الوحدة الإسلامية للدفاع عن الدين والأمة، ثم عادَ إلى وطنه، وكان هذا السفر صدىً كبيرة بين الأوساط الدبلوماسية على الصعيد العالمي.[2]

آثاره في الإصلاح ونشر كتاب الله

كان داعية في صميمه، قضى معظم حياته قبل الدخول في ميدان السياسة، قضاها في رحاب الدعوة، يُسافر، ويدعو، وينصح ويوجّه، ويتحدّث ويعظ في المحافل العامة، لكنه لم يأخذ المواعظ مطيّة للدنيا، ولم يكن واعظا محترفا وطائرا موسميا، وقد خالفَ كثيرا من البدع والمخالفات الشرعية التي تحصل في المحافل الدينية، وعلى رأسها استمرارها إلى الجزء الأخير من الليل قبيل الفجر، الذي يسبّب في فوات

(١) إنه الأديب البنغالي الكبير، والكاتب القدير، والسياسي الشهير، الأستاذ مولانا أختر فاروق رحمه الله، إنسانٌ جمع بين العلم الشرعي والعلم المدني، وبين الأصالة والعصرية، وبين الدين والسياسة، وبين الدنيا والآخرة، وُلد الأستاذ عام ١٩٢٩م في محافظة «باتواخالي» جنوب بنغلاديش، ودرسَ في مدرسة دار السنة بـ«سرسينا»، وتخرّج من المدرسة العالية بداكا في مرحلة الكامل في الدراسات الإسلامية، كما حصلَ على شهادة الماجستير في الأدب البنغالي من جامعة داكا، ثم تولّى التدريس في كليات ومدارس كثيرة، ولقد أُوتي قلما سيالا رشيقا، مطواعا لبنانه، لا يعرف عصيانا ولا تمرّدا، فظل طوال حياته يكتب ويؤلف، ويترجم ويحلل، ويراجع ويصحح، حتى خلف مكتبة عامرة من كتبه ومؤلفاته، ما بين الأصل والترجمة، وفي طليعتها خالد بن الوليد، والخيرانية والرأسمالية والاشتراكية، والشيخ الحافظجي في الشرق الأوسط، ونقل بعض الكتب القيمة إلى البنغالية، منها زاد المعاد، ومنهاج العابدين، وحجة الله البالغة وغيرها، ونشرها من داره التي أنشأها باسم "دار ذي القرنين للنشر"، وفي عام ١٩٨١ دخل في غمار السياسة مع الشيخ العلامة محمد الله الحافظجي تحت راية "حركة الخلافة"، وأدى دورا بليغا في تقوية الحركات الإسلامية السياسية والدفاع عن كيان الأمة المسلمة في الديار البنغلاديشية، وقد توفي عام ٢٠٠٦م في داكا.

(٢) انظر تفاصيل هذه الرحلة في كتاب الشيخ الحافظجي في الشرق الأوسط، تأليف الأستاذ أختر فاروق ص١٢، و٢٨ و٣٨ و٤٧ و٦٦ و١٣٤ وما بعدها

صلاة الفجر لكثير من الناس، فردّ على هذه الظاهرة ردّا كبيرا، ويثير عجبه من غرابة تديّن الإنسان، كيف يقضي أول ليله في المواعظ، ثم ينام آخره ولا يصلي الفجر!

وقد أسس مدارس كثيرة لتعليم العقيدة الصحيحة، وبث نور القرآن والسنة، ومحو البدع، وأشرف على مؤسسات دينية، وكان مولعا بكتاب الله ﷻ، فيحلم أن ينشره في طول الدولة وعرضها، وبدأ هذه المسيرة المباركة بتأسيس «المدرسة النورية»، ثم أناط بالشيخ ولايت حسين والشيخ عبد الوهاب هذه المسؤولية الكبرى، وأيدهما بالنصيحة والوصية، والتوجيه والإرشاد، والمال والعقار، حتى أصبح هذان العالمان عَلَمين في تاريخ الإسلام في هذه الدولة، وانتشر القرآن في معظم أرجائها.[1]

صورة حية من السلف الصالح

لو ينظر القارئ في هذا الإنسان الكبير، وفي هذا السياسي العبقري، من داخله وصميمه، وينظر في عبادته وزهده، ليرى العجب العُجابَ، ويرى مثالا حيا وقدوةً صالحة للجمع بين الدين والدنيا، والتقوى والقيادة، والزهد والسياسة، والجهاد والإحسان، فقد كان رطب اللسان بذكر الله، حتى اشتهر عنه أن لسانه كان يتحرّك أثناء نومه كأنه يذكر الله ﷻ، وقد شهدَ عليه كبار العلماء، وقضى معظم حياته يقرأ من القرآن عشرة أجزاء في كل يوم، ولما دخلَ في ميدان السياسة، وتزاحمت الأشغال، حافظَ على تلك العبادة، وقد كانت تفوته بعض الأيام، فيتأسّف ويتحسّر، وكان ينام مبكّرا ويستيقظ مبكّرا، ويقوم في آخر الليل، وقد داومَ عليه منذ صغر سنّه، ويركع ويسجد، ويبكي وينتحب، ويتضرع إلى الله، وكانتْ صلاته طويلة، قد يقرأ أكثر من خمسة أجزاء في ركعة واحدة، ولما جاءَ انتخاب الرئاسة عام ١٩٨١م، وبدأ الشيخ يطوف بأرجاء الدولة على متن سيّارة من نوع ميكروباص، ويقضي يومه وليلتَه في تلك السيارة، ويخاطب في المؤتمرات والندوات، ويتحدّث مع الناس، ويتجوّل في الشوارع، لم يفته قيام الليل، فكلما كان ينتصف الليل يقف في الطريق، ويصلّي التهجد، ويستأنف الرحلة، وكيف لا وقد جعلت قرة عينه في الصلاة![2]

كان آية من آيات الله في التواضع، وغايةً في البساطة والسذاجة، في سلوكه وشيمه، ومأكله وملبسه، حتى لو يراه أحدٌ لأوّل مرّة لن يعرف أنه ذلك الشيخ الكبير، والطود الشامخ، وكان مضرب المثل في النزاهة والوداعة، والاهتمام بخاصة النفس، والشغف بالعزلة، يحبّ النظافة ويهتمّ بها في كل

(١) مقال مولانا القارئ محمد عطاء الله، نجل الشيخ الحافظجي، في جريدة الاتفاق اليومية، الجمعة، ٨ أغسطس، ٢٠١٤م.

(٢) انظر جريدة الانقلاب اليومية، مقال الشيخ محمد ظفر الله خان، ١٤ يونيو، ٢٠١٧م

مكان وفي كل حين، وغاضا للبصر في مشيه، وكان قليل الكلام، طويل الصمت، وعفيف اللسان، ومحموم القلب، يجيب السفيه بالصمت عنه، والعالم بالقبول منه، دائم الفكرة، ومتواصل البحث عن الحقائق، ولم يكن مهذارا ولا ثرثارا، وكان لا يأمر أحدا، صغيرا كان أو كبيرا، بل يطلب بتواضع، وكان لا يردّ موجودا، ولا يطلب مفقودا.

وكان بيتُه عالما كلّه سذاجة، وكله زهدٌ، وكلّه تقشّف، وعسر وضيقٌ، رغم كونه من قادة السياسة، ومؤسسي المدارس، ومرشد الأغنياء والأثرياء، هكذا الرجل حفظ الرأس وما وعى، والبطنَ وما حوى، لو أراد– نعم بمجرّد أنه لو أراد– بنى له الناس بيتا من الذهب والفضّة، لكنه لم يكن من عباد المال، ولا من الذين يبيعون دينهم بدنياهم، ففضل الآجلة على العاجلة، والآخرة على الدنيا، وكان يعمل، ويحمل الأمتعة، ويمشي في الأسواق، وربما يقضي نهاره على الطوى، وهكذا لقد دخلَ هذا الإنسان في الدنيا وعاشرَ أهلها وحكامها، ثم خرجَ منها وهو زاهد فيها، راغبٌ فيما عند الله.[١]

ماذا ترك لنا شيخنا على إثره؟

لقد اختار الله هذا العبد الصالح، وهذا المجاهد العظيم، ٧ من مايو عام ١٩٨٧م، وصلى عليه نجله الشيخ أحمد الله أشرف رحمه الله، الذي خلفه في حركته، فكان خير خلف لخير سلف، وكان على منهج والده في العبادة والقيادة، والزهد والربانية،[٢] وقد خلّف الشيخ وراءَه كثيرا من المساجد والمدارس، والطلاب والعلماء، والدعاة والمصلحين، والخدمات الاجتماعية والدينية، وأكبر أثر على جهوده وجهاده «حركة الخلافة»، وقد كانتْ أثناء حياته، وتحت ظلّه، في عزّها ونشاطها، وعنفوانها وقوّتها، إلا أنها لو كانتْ سنّة الله حقيقةً واقعةً، وظاهرةً صادقةً في كل شيء، من دون استثناء، فقد أُصيبتْ هذه الحركة هي الأخرى بتلك السنّة الكونية السرمدية، وضعفتْ في نشاطها، ثم تفرّقتْ وتشتّتتْ، وانفصلتْ عنها أحزابٌ، وكلما كبرتْ في السنّ ازدادتْ عجزا ووهنا، ولا غرو فقد كانوا الأطباء، وجاء بعدهم الصيادلة، ثم بدأت الطامّات الكبرى في الآونة الأخيرة، وحصلت المنافساتُ بين ورثة الشيخ الرباني الزاهد وحملة دمه، رحم الله الشيخ الحافظجي وجعل الجنّة مثواه، ووفّق ورثته لما فيه خيرٌ وصلاحٌ لهم ولدينهم، ولوطنهم، ولشعبهم، وما ذلك عليه بعزيز.

---

(١) مقال الشيخ محمد ظفر الله خان، جريدة الانقلاب اليومية، ١٤ يونيو، ٢٠١٧م

(٢) وقد توفي الشيخ أحمد الله أشرف ٢٣ فبراير عام ٢٠١٨م، رحمه الله تعالى.

مولانا محمد شمس الهدى الباتشباغي

(١٨٩٠- ١٩٨٨)

العالم المجاهد الباسل. القائد السياسي الحكيم

كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله

كلما تضطرب هذه البقعة، وتئن وتترنح تحت سنابك شعب وجبروته يعدّون المسلمين غرباء فيها، والأجانب متطفلين على مائدتها، الذين لا حق لهم في ماء هذه الدولة وكلئها، وزرعها وضرعها، فضلا عن قيادتها، وإدارة دفة حكمها، فإما أن يعيشوا على فتاتهم وفضلات موائدهم، وعبيدا خاضعين متواضعين لهم، ومتطأطئين على عتباتهم، وإما أن يغادروا وطنهم، وينزحوا إلى الدولة التي هم يدينون بديانتها، ويعنون بلمّ أرض حرمين، ولا يألون المسلمين إلا خبالا!

كلما تضطرب هذه البقعة تجد الشعب المتطرف المعروف في تاريخ [illegible] والفساد بالشعب [illegible])، وكلما يريد هذا الشعب– حكاما ومدنيين– أن يكرر قصة الأندلس مع المسلمين في هذه البقعة، حتى يعودوا فيها أثرا بعد عين، [illegible]

الباتشباغي.

مولده ونشأته

ولد شمس الهدى في فترةٍ تاريخية خطيرةٍ للمجتمع البنغالي المسلم من فترات نهاية القرن السابع عشر الميلادي عام ١٨٩٠ م، في بيتٍ مسلمٍ شريف، غيورٍ على دينيه وإيمانه، وحضارته وثقافته، ووارث للشجاعة والجهاد والاستماتة في سبيل الحرية والكرامة، والردّ على الظلم والجور، كابرا عن كابرٍ، من بيوت قرية «باتشباغ (Pachbag)» بمحافظة «مؤمن شاهي»، ولوالد مجاهد باسلٍ ومصلح عظيم، وحرب على البدع والخرافات، الشيخ مولانا رياض الدين أحمد، تلميذ مدرسة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي الفكرية والجهادية والروحية، فكان لهذا كله أثرٌ جليل في حياته، ودورٌ كبير في تكوين شخصيته وعقليته، وكانت نشأته على يد أبيه طلائع حركته وجهاده.(١)

طلبه للعلم

أخذَ شمس الهدى الدراسة الابتدائية في كتّاب القرية، ثم دخلَ في المدرسة المحسنية بداكا، وأكمل مرحلة الفاضل (البكالوريوس) بالدرجة الأولى، ثم سافرَ إلى الهند والتحقَ بالمدرسة الإسلامية بـ«رامبور» وتخرّج في الدراسات العليا في التفسير والحديث،(٢) ولما أكمل الدراسات الإسلامية، وتضلّع من العلوم الشريعة، طمحَ الشابّ شمس الهدى أن يدرس الغرب الذي حاربَ الهند ليحتل بلادها، ويملك أعناقها باسم الاستعمار، وباسم التاج البريطاني، فدخلَ في كلية الاستشراق بـ«لاهور»، وبدأ يدرس الغرب بحضارته وثقافته، ومدنيته وتاريخه، إلا أنه بعد فترةٍ تركَ الكلية، وعادَ إلى مسقط رأسه حزينا منكسف البال، تنازلا عن ذوقه عند رغبة والده، وبدأ التدريس في مدرسة قريته.

جهاده ضد طغاة الهندوس

الجهاد ضدّ الإقطاعيين، والهندوس المتطرّفين الجائرين، والإنجليز الغاشمين، الذي رفعَ لواءه المجاهد الباسل الحاج شريعت الله في البنغال الشرقية، والسيد نثار علي تيتومير في البنغال الغربية، في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، رغم فشل تلك الحركات في الساحة لم تكن ضياعا كليا لحياة وجهود هؤلاء الأعلام، فقد تركت تلك الحركات دويّا كبيرا في التاريخ، وأثرا عميقا في قلوب المسلمين في البنغال

(١) البطل الأسطوري: مولانا شمس الهدى الباتشباغي، تأليف نسيم عرفات، ص٣١ و٣٢

(٢) المرجع السابق، ص٤٢

بشكل عامّ، حتى برزتْ معالم تلك الآثار مرّة أخرى بعد قرنٍ كامل، في بداية العشرين الميلادي، وارتفعتْ في «مؤمن شاهي» وحولها أصواتٌ ضدّ ظلم الهندوس وجورهم، وكان صاحب لواء هذا الجهاد الشيخ شمس الهدى الباتشباغي.

كان المسلمون في محافظة مؤمن شاهي الكبرى (مع محافظات متجاورة قبل التقسيم) مظلومين في بيوتهم، ومقهورين في أسواقهم، وكانت ثائرة الهندوس عليهم تنتهي دائما بالحبس أو السب أو الضرب المبرح، وكان الحرّاث والمزارعون من أشدّ الناس بؤسا وشقاء، وتعرّضا لهجوم هؤلاء المتطرّفين الذين يشترون منهم سلعهم، ثم لا يدفعونهم القيمة بتاتا، أو يبخسونهم حقوقهم، وما كان لهم إلا أن يصمتوا أمام هذه كلها صمت القبور، ويدفنوا الصعداء داخل الصدور، فالهندوس هم الذين كانوا أصحاب الأمر والنهي، وأولي الحلّ والعقد، وكان الجميع في نوع من الإجماع السكوتي على ظلم المسلمين والنيل منهم حينما تواتي الفرصة، وبقدر المستطاع.

في هذه الفترة الدقيقة للغاية برز المجاهد شمس الهدى إلى الميدان، وجمعَ المسلمين، ونصحَهم، وأيقظَ فيهم الإيمان واليقين، والثقة والاعتماد، وذكّرهم بتاريخهم المجيد في الهند عبر قرونٍ، وبأن لهم كان عهدا في الهند، وكانت السلطة والسلطان في أيديهم، وكانت التجارة والمراكز التجارية تبعا لهم، ثم كيف فاجأهم الاستعمار الوافد الجبار، واستولى الأجانب على ممتلكاتهم، وانسحب العلماء عن الميدان، وانعزلوا في زواياهم، وآلت إلى ما آلت إليه أحوالهم، وما انتشرت أنباء هذه الدعوة الجديدة حتى انضوى جمهرة كبيرة من المسلمين تحت لواء هذا المجاهد، وبدؤوا يأخذون المظالم من الظالم ويردّونها إلى المظلوم، واضطرب المجتمع الهندوسي، واستيقظوا من سباتهم الحالم، وحسبوا لهذه القوّة الناهضة ألف حساب، وانتهتْ أيامُ الظلم، وبدأ المسلمون يقابلونهم بالمثل، سلما كان أو حربا.

فارس السياسة المغوار

في ثلاثينيات القرن الماضي أدرك الشيخ أهمية دخول العلماء في السياسة، والمشاركة في القوّة والقيادة، لتكون كلمتهم مسموعة، ولتكون لهم هيبةٌ وعظمةٌ تُساعدهم على تحقيق أهدافهم، ورفع معنويات المسلمين، الذين كانوا في عصر الانحطاط، وقطعوا آمالَهم من مستقبلهم، وسدّوا منافذ الأمنيات والتفاؤلات، لكنه كان لا يؤمن برجال السياسة والقياديين، ويراهم الخونة والمستغلّين، والآكلين أموال الناس بالباطل، مع ذلك لم يكن له بدّ من الصلة بهم للدخول في غمار السياسة، وهو حديث العهد بهذه الدنيا، فلذلك أنشأ علاقةً مع القائد السياسي البارز أبي القاسم فضل الحق المعروف بأسد

البنغال، والعالم السياسي الحكيم الشيخ مولانا عبد الحميد خان البهاشاني، ودخلَ في الانتخاب البرلماني عام ١٩٣٧م تحت مظلة «حزب الرعية المزارعين Agriculturalist Tenant Party»،[١] وفاز في الانتخاب لشعبيته الكبيرة، ولاعتماد العوام عليه، وأصبح عضوا في المجلس التشريعي لولاية البنغال، وقد فاز في انتخاب المجلس التشريعي ثلاث مرات متتالية، إلا أنها بعد فترة بدأت المناوشات الداخلية والخلاف الشديد بين أعضاء الحزب، فعادَ إليه بإيمانه ويقينه الماضي، وموقفه من السياسة والسياسيين ورأىٰ أن مثل هذا الحزب لا يناسب سياسيا عالما ربانيا يدخلُ في السياسة من أجل الدين وصالح المسلمين، فقرأ عليه سلام الوداع.

وكان لا يثق بزعماء «الرابطة المسلمة»، ويرىٰ فيهم أشباح الخونة والمنافقين، فلذلك سبح ضد التيار، وخالفَ فكرة إنشاء باكستان،[٢] وأسّس حزبا سياسيا جديدا باسم «حزب التعمير لولاية البنغال»، ورفع لواء دولة مستقلة متكوّنة من البنغال وآسام، الفكرة التي جاءتْ ردّا على فكرة باكستان،[٣] وبهذا كان قد أعلن تحرير بنغلاديش قبل غيره بعقود من السنين! وبهذا كانت فكرته فكرة غريبة، لم يسبقه إليها إلا القليل من العلماء والقادة المسلمين، وقد استمرّ في مطالبته بتحرير البنغال بشقيها مع آسام حتى بعد ظهور باكستان، ولما انفصلت بنغلاديش (البنغال الشرقية قديما)، تمنىٰ أن تتّحد البنغال- غربها وشرقها- مرّة أخرىٰ! وقد دخل السجن مرارا لصراحته، ومحاربته للفساد، ورفع صوته ضد الظلمة المستبدين.[٤]

اهتمامه باللغة الأم وإصلاحه للمدارس الدينية

رغم أن اللغة الأردية كانت سائدةً في الجامعات العربية والمدارس الدينية في ذلك الوقت، وكانت هي لغة التعليم والتدريس في المعاهد الشرعية، ولغة التأليف والكتابة في أوساط العلماء، وبالتالي حدثَ بذلك فصلٌ كبيرٌ بين العلماء والعوامّ، وأصبحتْ هذه المراكز والمدارس في عزلة عن المجتمع ومطالب الحياة، وواقع الأمة، إلا أن بعض العلماء كانوا منار نورٍ في ذللك الوقت، يستمدّون النور من الشريعة ثم يبثونه بين الشعب بلغتهم وبأسلوبهم، وبما يفهمون ويعون، وكان الشيخ الباتشباغي من تلك الزمرة

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ١١٨

(٢) المرجع السابق، ص ١١٦

(٣) البطل الأسطوري: مولانا شمس الهدىٰ الباتشباغي، تأليف نسيم عرفات ص ١٠١، وكذلك دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ١١٩

(٤) البطل الأسطوري: مولانا شمس الهدىٰ الباتشباغي، تأليف نسيم عرفات، ص١٦٧

النواعية المختارة، ومن بين أولئك الأعلام المميزين من بين أقرانهم بالصراحة، والجرأة الإيمانية، وبعد النظر، وصدق الفراسة، وعمق الدراسة للمجتمع، والخبرة بالرجال.

لذلك عندما انفجرت الثورات في البنغال الشرقية، واكتسحت الحركاتُ السياسية طول البلاد وعرضها ضد الحكومة الباكستانية، التي أرادتْ أن تفرض اللغة الأردية علىٰ أهل باكستان الشرقية الناطقين باللغة البنغالية كاللغة الأم، وارتفعت الأصواتُ ضد هذه السياسة السفيهة، وهذه الفكرة الغبية المشتّتة لشمل الأمة والقضاء علىٰ وحدتها، وتُطالب الحكومة بالتنازل عن هذه الفكرة في مثل هذا العصر المتذبذب بالاضطراب والقلق، والفوضىٰ من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية، هنا برز الشيخ شمس الهدىٰ كمجاهد باسل في الميدان، وبدأ يجمع الناس في محافظة «مؤمن شاهي» وما حولها ويحثّهم علىٰ المشاركة في الحركات للدفاع عن اللغة الأم،[١] وألغىٰ التدريس باللغة الأردية في مدرسته، وأصبحت اللغة البنغالية هي لغة التعليم والتدريس فيها.

هذا إن دلّ علىٰ شيء فيدل علىٰ فراسة هذا الرجل المؤمن، وبعد نظره، وتجارب حياته، ومدىٰ إدراكه للمستقبل، وسياسته الحكيمة، والأمر الذي يؤكّد لنا أن هذه الحادثة لم تكن مصادفةً أو مفاجأةً مؤقتة، بل كانت من ثمار سياسته الحكيمة، هو الدور الذي قامَ به هذا العالم أثناء حرب تحرير بنغلاديش ضدّ باكستان، فقد أيّدَ فكرة انفصال شرق باكستان عن غربها، وأدّىٰ دورا فعّالا في حرب التحرير والجهاد ضدّ الجيوش المعتدية.[٢]

ريادته في الصحافة والإعلام

رغم اشتغاله بالحركات، والجهاد ضدّ الهندوس والإنجليز، ثم المشاركة في السياسة، والدخول في المجلس التشريعي، وإدارة المساجد والإشراف علىٰ دورٍ للأيتام، ورئاسة الجامعات والمدارس، كان مجاهدا رائدا في عالم الصحافة والإعلام، وعدّ العمل في هذا الميدان في حين خلوّه عن العلماء والكتّاب الربانيين أكبر جهاد، وأجلّ خدمةٍ يمكن لرجل أن يقدّمها إلىٰ دينه وقومه، وكان يتقن العربية والفارسية والأردية والبنغالية والإنجليزية، فأصدرَ مجلات، ونشر صحفا ودوريات، فقد أصدر مجلة «الدين والدنيا» عام ١٩٢٩م من داكا، وأصدر مجلّة «ترجمان الدين»، كما أصدرَ مجلة عربية باسم «حجّة الإسلام» عام

(١) دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي ص ١٢٠ وكذلك جريدة "نيا ديغانتا" (الأفق الجديد) اليومية، الأحد، ٢٤ سبتمبر، ٢٠١٧م

(٢) البطل الأسطوري: مولانا شمس الهدىٰ الباتشباغي، تأليف نسيم عرفات، ص١٥٣ و١٥٤

١٩٨٢م من كلكتا.(١)

صلته بالدنيا وعلاقته مع الله

كان رجلا عظيما وإنسانا كريما، كامل الرجولة، طُبع على حبّ الناس والرحمة بهم والجهاد من أجلهم، فقد جاهدَ حياتَه كلّها دفاعا عن حقوق المسلمين، لا سيما أهل القرى والأرياف، ومن أجل هذا الحبّ وهذه الإنسانية لم يسكن في داكا العاصمة رغم توافر الفرص واستمرار الدعوات، فقد آثر العيش في القرية دون العاصمة ليرى حياتَهم بأم عينيه، وليعيش سعادتَهم ومعاناتهم، ثم يقف بجانبهم كمرشد خبير، ثاقب النظر، وذكي الفؤاد وصادق الفراسة، وعظيم الخبرة بالرجال، وقائد مجرّب حكيم، وكان بيتُهُ دار الضيافة للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وأبوابه مفتوحة لكل طارق، ومائدته واسعة مبسوطة ليل نهار، وحقا كان إنسانا لا ينزل الدهر قِدره.

ثم حدّث ولا حرج عن عبادته وورعه، وزهده في الدنيا، وصلته بالله تعالى، فكان منذ مقتبل شبابه مبايعا للشيخ الرباني مولانا عنايت الله الغجراتي الرامبوري، ثم نالَ منه الإجازةَ،(٢) وظلّ ينصح ويُصلح طوال حياته، وكان له عددٌ هائل من الأتباع والمحبين في المناطق الشمالية من بنغلاديش، ومن أبرز من نشأ تحت إشرافه وتتلمذ عليه، وتلقى منه التربية الروحية والتزكية، وتأثر بفكره وشخصيته، الشيخ الكبير مولانا برهان الدين المؤمن شاهوي،(٣) وكان زاهدا من النوع الفريد، أقبلت عليه الدنيا وهو يضرب عنها صفحا.

وقد اختار الله هذا المصلح العظيم والعالم المجاهد ٢٤ سبتمبر عام ١٩٨٨م، بعد أن قضى حياةً حافلة بالخدمات الجليلة، والمآثر الخالدة، تذكر به الأمّة، وتجلب له الدعوات الصالحة المخلصة إلى الأبد.

---

(١) جريدة الاتفاق اليومية، ٢٤ سبتمبر، ٢٠١٦م

(٢) البطل الأسطوري: مولانا شمس الهدى الباتشباغي، تأليف نسيم عرفات، ص٤٥

(٣) إنه الشيخ برهان الدين، العالم الكبير في محافظة «مؤمن شاهي»، وخليفة الشيخ لطف الرحمن البرتوي، وخريج مدرسة الشيخ شمس الهدى الباتشباغي في السياسية، ولد عام ١٩١٣م، ودرسَ في مدرسة «باتشباغ» تحت إشراف الشيخ الباتشباغي، ثم درسَ في دار العلوم ديوبند على الأساتذة الكبار أمثال الشيخ المدني، والشيخ إبراهيم البلياوي، والشيخ مولانا أحمد علي اللاهوري، تجلّت عبقريته في السياسة والخدمات الإنسانية، فشارك في «حزب النظام» الذي أسسه الشيخ الباتشباغي، ثم شاركَ في «جمعية علماء الإسلام»، وظل يقوم بدور بليغ فيه، وفي عام ١٩٨٢م عندما جاءت «حركة الخلافة» تحت قيادة الشيخ محمد الله الحافظجي في الوجود، شاركَ الشيخ في حركة الخلافة وأصبح من طليعة قادتها، كما أنشأ مدارس ومساجد كثيرة، وأشرف على المراكز العلمية، وقاد المظاهرات والجهاد ضدّ البدع والخرافات، والفحش والمنكرات في قومه، وكان حربا على دور السينما ومجامع الرقص والغناء، ونشر القرآن في المساجد وفي المجالس العامة، وقد توفي الشيخ عام ١٩٩٥م.

مولانا عبد الرحمن الفاروقي

(١٩٦٢- ١٩٨٩)

القائد المؤمن، شهيد الأفغان، أمير المجاهدين في البنغال

في ثمانينيات القرن الماضي، لما بدأ المجاهدون الأفغان جهادَهم ضد الاحتلال الروسي المتعجرف، خرجَ شابٌ بنغلاديشي من حدود هذه الدولة ووصلَ إلى أفغانستان، وأبلى في المعركة بلاء حسنا، وأظهر فيها من البطولة والبسالة والشجاعة والنخوة ما حير الناس، وأذهل العقول، وجعله قائد المجاهدين، ومرجع الأبطال المؤمنين، ثم ما زادت الأيام إلا قوة إيمانه، ورباطة جأشه، وحماسه للجهاد، وغيرته على الوطن الإسلامي والأمة المسلمة، وشدته على الاحتلال، وحرصَه على الشهادة، حتى جاء الأجل المحتوم، وتفجّر اللغمُ، فتطايرت أشلاؤه في الهواء، وأصبح في قائمة الشهداء! ما دامت أرض الأفغان تتغنى بمجد الإسلام والحرية، ستظل هي مدينة لهذا الابن البنغالي المسلم، ومادامت راية الجهاد الإسلامي ترفرف بعز وشموخ في سماء الدنيا، سيظل هذا الإنسان في سجل الخالدين، وكوكبة منيرة تهدي الناس في الظلمات، وترشدهم إلى المحجة، إنه القائد المؤمن الشهيد، و«أسامة» عصره، ووارث خالد وصلاح الدين، وأمير المجاهدين في البنغال، مولانا عبد الرحمن الفاروقي رَحِمَهُ اللهُ.

قصة ميلاده ونشأته الأولى

في ١٦ أكتوبر عام ١٩٦٢م وُلد هذا الإنسان العظيم في محافظة «جسر»، في بيت مسلم متواضع، بلا جاه وبلا مال، ولما وصلَ إلى الشهر العاشر من العمر، توفّيت أمّه الحنون، وبدأ الطفل يترعرع في حضن عمته، لكن إن هي إلا أيام حتى ماتتْ عنه عمته وذهبت إلى رفيقها الأعلى!

بعد فترة فكر الحاج شريعت الله والد عبد الرحمن في تعليمه وتربيته، وأدخله في كتاب قريته، فكان ذلك بداية دراسته، وافتتاح صلته بكتاب الله ﷻ، ربيع قلبه، ورفيق حياته وموته، ثم دخلَ في مدرسة

«غانغوليا» بـ«خِداباراَ»، ثم في مدرسة «جالباراَ»، ودرسَ فيها فترة.

من بنغلاديش إلى الهند

منذ نعومة أظفاره كان الأمير يشعر في قلبه بحنين كبير ورغبة عامرة جامحة إلى الدراسة في الهند، ولما شب عن الطوق، وقوي عوده، واكتملت رجولته، رأى أن الفرصة قد سنحت، وأن الأوان قد حان، فخرجَ من مسقط رأسه إلى طريق لا يعرفه، وإلى عالم كبير يجهله تماما، ولا يرى فيه صديقا أو قريبا، هكذا خرجَ عبد الرحمن من بيته ووصلَ إلى الهند، وحيدا فريدا، وبدأ يتنقل في المدن الهندية الكبرى، من غرب البنغال إلى شمال الهند، من «لكناؤ»، و«أغرا»، و«إله آباد» وغيرها، يبحث عن ملجأ يلجأ إليه، ومدرسةٍ يأخذ فيها العلم، حتى وجدَ بغيته في «أترابراديش»، ودخلَ في مظاهر الهند بـ«سهارنبور»، ودرسَ فيها فترة وجيزة، ثم تركها ودخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وبه كأن عبد الرحمن دخلَ في التاريخ من أوسع بابه، وأعلن على الملأ بداية فصل جديد من حياته، فهنا طلعت نجمة سعادته الكبرى، ووجدَ ضالته، وتبين الغاية بوضوح التي استعد لها منذ صغره.

من الهند إلى باكستان

عام ١٩٧٩م فاجأ الجيش الروسي الجبار أرضا آمنة نائمة مطمئنة من أراضي المسلمين في آسيا الوسطى، وشن غارة على أفغانستان بقضه وقضيضه، واحتل معظم مناطقها، وارتكب فيها أكبر المجازر الإنسانية، وقتل من الرجال، واغتصب من النساء، وأمات من الأجنة والأطفال، ودمّر من البيوت، وخرّب من المساجد والمدارس ما لا يحصيه إلا الله، حتى سوّى دولة عامرة بالأرض، وحوّل من جنة خضراء إلى بيداء قاحلة، وسرقَ من ثرواتها وخيراتها حيث وقعت بها المجاعة، وهكذا حدثت أكبر مأساة إنسانية في القرن العشرين على أرض أفغانستان مقابل صمت رهيب من العالم!

كان عبد الرحمن طوال هذه الأيام غارقا في بحر الكتب والمؤلفات، ومعتكفا على الدراسة والقراءة، لا يعبأ بما يزمجر حوله من الطوفان، حتى جاءَ مساء يوم بصباح جديد في حياته، في ذاك المساء كان عبد الرحمن في مكتبة دار العلوم يبحث عن مقرر دراسي، وهنا وقعتْ في يده مجلة للمجاهدين الأفغان، ففتحَها وبدأ يقرأ فيها وعيناه تذرفان من الدمع، يبكي بكاء شديدا على مأساة الأمة الأفغانية المسلمة، ويتفجّر حماسا للدفاع عنها، ولأخذ الثأر من المعتدين عليها، وقد وعى قول نبيه الحبيب: «مَثَلُ المؤمنين في تَوَادهم وتراحُمهم وتعاطُفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائرُ الجسد

بالسَّهَر والحُمّى»، وهذه كانت نقطة تحول في حياة عبد الرحمن، وأخذ قرارا صارما للدخول في أرض أفغانستان، والانخراط في سلك المجاهدين، فباعَ كل ما كان عنده من الأموال والأغراض، وحضرَ في دار العلوم «كراتشي» بباكستان.

من باكستان إلى ساحة أفغانستان

لم تكن حياة عبد الرحمن في باكستان حياة رغد وهناء، بل عانى معاناة طويلة، وتحمل مشاق شديدة، ونفد زاده، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، حتى ابتسم قدره يوما من الأيام، وفُتحت الأبواب، والتقى بأمير المجاهدين الشهيد إرشاد أحمد رَحِمَهُ اللهُ، وفاتحَه في أحلامه وأهدافه، ففرح به الشيخ فرحا كبيرا، وبشّره، فكان ذلك يوما أغر في حياته.

في بداية الثمانينيات وصلَ عبد الرحمن إلى أفغانستان، وانضم إلى صفوف المجاهدين، وصبَ قلبه وقالبه، وروحه، وعقله، وحماسه وحميته على الجهاد، والتدريب، والرياضة، والتمرين، حتى في غضون فترةٍ قصيرة برزَ بين زملائه مقاتلا فريدا من نوعه، وأبدى من الحكمة، والشجاعة والبسالة، والخبرة والحنكة، بدقة النظر، والفراسة، والتخطيط الدقيق، والسبق إلى الساحة، ما جعلَ له مكانة كبيرة في قلوب المجاهدين، وذاعَ صيته، وانتشر اسمه في الناس، وأصبح قاعدة من قواعد القتال، واختير نائب الأمير لحركة الجهاد الإسلامي».

إلى الجنة إن شاء الله يا أمير المجاهدين

عام ١٩٨٥م جُرح الأمير عبد الرحمن الفاروقي في إحدى المناوشات جرحا ثخينا، ذهبت جراءه إحدى حبيبتيه، فبُعث إلى ألمانيا، وشُفي بفضل الله ﷻ، ولما عادَ إلى ساحة الجهاد واستأنف القتال أبدى بسالة أكبر، وبطولة أكثر، وقهرَ الاحتلال في كل ساحة، ودحرهم في كل موطن، وظلّ يعمل ليله ونهاره لصالح الجهاد والمجاهدين، لا يعرف الراحة والإجازة، يجهز الجيش، ويعد الزاد، وينصح ويوجه، ويحث ويحرّض، ويدرّب ويخطط، ويبعث البعثات، ويرسل الإمدادات، ويستقبل الغزاة، ويعود المرضى، ويعالج الجرحى، ويدفن الشهداء، ويسبق إلى الساحة، ويخرج الألغام وكان خبيرها، فينزل في حقول ألغام الأعداء، وينبشها نبش المجرب الحكيم.

حتى جاءَ ١٠ مايو عام ١٩٨٩م، وذهبَ الأمير عبد الرحمن الفاروقي مع كتيبة من المجاهدين إلى منطقة «خوست» في شرق أفغانستان، يبحث عن ألغام الأعداء، وهنا تفجّر لغم بصوت مجلجل،

وأصابَ الأمير مباشرة، ومزّق جسده الطاهر، وجرحَ جرح الموت، وما هي إلا لحظات حتى تحرّكت شفتاه بكلمات أخيرة، وفاضتْ روحه الطيبة إلى بارئها، لتحلّق في سماء الفردوس الأعلى وفي حدائقها الخضراء، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

رسالات تركها الأمير لشباب الإسلام

لو ذهبنا نسأل أين وُلد الأمير عبد الرحمن الفاروقي؟ ليجابُ بسرعة بأنه وُلد في قرية من قرى بنغلاديش، ولو سألنا فأين استشهد؟ ليجاب بالسرعة نفسها بأنه استشهد في صحراء من صحاري أفغانستان، لكن لو سألنا هنا كيف وصلَ رجل بنغلاديشي إلى أرض أفغانستان؟ وماذا أخرجَ شابا متدفقا في مقتبل شبابه من حياته الهادئة الوادعة إلى حياة مهدد بالانتهاء في كل لحظة؟ وماذا أجج الحماس في قلب طالبٍ معتكف على الكتب، غارق في بحر العلوم والمعارف في رحاب دار العلوم ديوبند، فهزه هزا عنيفا، ودفع به من الدار إلى الغار، ومن المنزل إلى الميدان، ومن المكتبة إلى المعركة، ومن الجامعة إلى الساحة، وتركه تحت القذائف وفوق الألغام، وداخل الأوغال والأدغال؟ لو كان الأمير أفغانيا من الأفغان لقلنا إنه جاهدَ في سبيل وطنه، وتحرير أمته من براثن الاحتلال، ولو كانت الحرب في بنغلاديش لقلنا إنه قدّم روحه فداء لمسقط رأسه، وأظهرَ بسالته كما يظهر ملايين أبطال الدولة وجنودها البواسل، لكن لما يذهب إنسان بنغالي إلى أرض الأفغان، ويترك بيتَه وأسرته، وزوجته المسكينة التي لم يمر على زفافها أكثر من أسبوع! ويؤثر حرارة القتال على حرارة أعطافها، ثم يسكب آخر قطرة من قطرات دمه، ويفدي بروحه، لن نستطيع أن نزن هذه القصة بموازين العالم المادي المعاصر الذي يزن كل شيء بميزان الربح والخسارة، ويظن قصص العقيدة واليقين مثل هذه صفقات في أسواق التجارة، فيجحف ويستخف ويتجاهل، إنها من معجزات هذا الدين وسوانح الأمة المسلمة، وكرامة أبنائها وأبطالها، لا يقدر عليها أهل ديانات العالم، ولا أصحاب المذاهب والفلسفات.

فالإسلام لا يقتصر على حدود، ولا ينحصر في أطر ضيقة، ولا يعترف بشعائر ونعرات جاهلية مثل الوطنية والقومية، إذ إنه دين عالمي شامل للبشرية جميعا، فالعالم كله مجاله ووطنه، والمسلمون في كل بقعة من بقاع العالم على اختلاف الدول والأعراق والألوان أبناؤه وأهل بيته، وأعضاء أسرته، حيث لو أُصيب مسلم في شرق الدنيا لقام المسلمون وقعدوا في غربها، ولو تعرضت مسلمة في أقصى الهند والصين لهبّ جنود الله في أقصى العراق والشام، هذا هو الإسلام، وهذا الذي عرفه تاريخ العالم عبر ثلاثة عشر قرنا، ثم جاءَ الانحطاط، وزالت دولة الإسلام، ومات أبطال المسلمين، وذهبت ريحهم،

وظهرت الحدود، وبرزت الأسوار الشائكة بين دولة وأخرى، وانتشرت القومية والفوارق الجغرافية المصطنعة بين الأمة المسلمة مثل النار في الهشيم، حتى تمزقت أمة واحدة إلى أمم كثيرة، وصارت شماتة الأعداء، ورانت على قلوب المسلمين الجاهلية القديمة، وبدأت الأفكار الغريبة تتسرب في قلوبهم: "لماذا نهبّ وننهض في الهند إذا عذب المسلمون في الشيشان، لماذا يخرج الشاميون إلى الساحة إذا قتل المسلمون في كشمير؟ فدولتهم ليست دولتنا، وجنسيتهم ليست جنسيتنا! وليست لنا في حربهم ناقة ولا جمل!" ومنذ اليوم الذي ظهرتْ فيه هذه الفكرة الفظيعة في الأمة المسلمة ذهب تاريخها، وزال مجدها، وأصبحت هذه الأمة أضعف الأمم على ظهر البسيطة، ولا أمل في نهوضها، والاستيقاظ من سباتها، وعودة ماضيها وعزها وسؤددها، إلا إذا عاد الأمير عبد الرحمن الفاروقي مرة أخرى! وما أحوج أمتنا إلى مثله!!

نهضة الأمة تتطلب التضحية

ذاقَ الأمير مرارة اليتم منذ صغره، حيث فقد أمه في الشهر العاشر من عمره! ثم لما بدأ يترعرع في حضن عمته وتحت ظلالها فُجع بها، وحرم من الحنان مرة أخرى، ثم لما دخلَ في المدرسة ليدرس فيها ويأخذ العلم، لم يستطع الاستمرار لضيق اقتصادي، ولم يسمح له وضع والده أن يستمرّ في دراسته، فاضطر إلى هجر المدرسة، وهذه كلها ظهرت كعناصر قوية في تكوين الأمير وصياغة عقليته ونفسيته، لذلك لما سمع عن معاناة المسلمين في أفغانستان، ورأى كيف تغتصب النساء فيها وترمل، وكيف تيتّم الأطفال، وكيف يموت المسلمون جوعا، ويُطردون من بيوتهم، وقد ذاقَ مرارة اليتم وعانى صنوف المعاناة في كل مرحلة من مراحل حياته، والمعاناة تصقل الرجال، حتى أدركَ حجم مأساة الشعب الأفغاني تمام الإدراك، وأثر ذلك في نفسه أثرا كبيرا، فلم يكن منه إلا أن هبّ ودب، وجاهدَ وقاتَلَ، وفدى بحياته الغالية لتحرير هذا الشعب المسلم الغالي، والعودة بحريته وأمنه واطمئنانه التي كان يتمتع بها منذ قرون!

هل رجعَ الأمير إلى وطنه بعد أن وصلَ إلى الساحة؟ وهل تزوج وأنجب؟ وهل كوّن أسرة؟ لقد كان الأمير عبد الرحمن الفاروقي أسوة حسنة من المجاهدين الأبطال، وهل يسمح الجهاد بمثله لا سيما في عصر الانحطاط وخلو الميدان عن الأبطال أن يعرف الراحة والإجازة، والعودة إلى الوطن، وتكوين الأسرة، والعيش بين أعطاف الزوجة ووسط الأولاد؟ والوطن الأفغاني تحت نير الاحتلال الروسي، والأمة المسلمة الأفغانية في جحيم الصليبيين؟ فلم يعد إلى وطنه إلا مرتين أو ثلاث مرات، لا ليستريح وينام حالما بالبساتين والأزهار في حضن الزوجة، ويكوّن الأسرة، وإنما ليجنّد الجنود في سبيل الله، ويجهز

الجيوش، ويصدر المجلة، ويعقد المجالس، ويكوّن جبهة جديدة للجهاد في وطنه الأثير، وينهض بالشباب البنغلاديشيين المسلمين الذين كانوا في نومة أو غفلة عن الجهاد الإسلامي، فبعث بجيل من الشباب الغيورين إلى أفغانستان، وأرسل إمدادات للمجاهدين، ووضعَ حجر زاوية «حركة الجهاد» في أرض الوطن، لتنقيتها من شوائب الإلحاد والعلمانية، وأرجاس الكفر والوثنية، وبراثن الطواغيت!

نعم أثناء بقائه في غرب البنغال عام ١٩٨٨م زوّجه بعض أقاربه بفتاة بنغالية صالحة، لكنه لم يعش معها إلا أياما معدودة، وكيف بمجاهد أن يبقى مع الأسرة أكثر من ذلك والساحة تناديه صباح مساء؟ فودّع عليها سلام الوداع، وذهبَ شهيدا إلى الجنة الخضراء، تاركا «ماجدة» المسكينة تصبر وتحتسب وترجو من الله عوضا خيرا.

إن حياة الأمير عبد الرحمن الفاروقي خير مثال على صلاحية هذا الدين لهذا القرن، وصلاحية الأمة المسلمة للعالم المعاصر، والقوة الكامنة في صمميها، لو تخرج وتبرز تأتي بالعجائب، وإن حياته كانت صورة حية من سلفنا الصالح، والمجاهدين الأبطال في تاريخ الإسلام، ولولاه وأصحابه لكان يحق لقارئ التاريخ أن يظن الأمة المسلمة البنغالية أمة عقيمة، تنجب السياسيين، وتنجب المؤلفين، وتنجب الدعاة والمصلحين، ولا تنجب المجاهدين، وهو ذروة سنام الإسلام وعنوان المسلمين، لكن الأمير أثبت أن هذه الأمة أمة ودود ولود، تصنع التاريخ لو تواتي الفرصة، وتوافق شن طبقا، وأن الشباب المسلمين في هذه الدولة ليسوا أمواتا، وليسوا جبناء، إلا أنهم في حاجة إلى من ينبههم، ويضع اليد الحارة على صدورهم، وينفخ فيهم روح الحمية والغيرة، والقتال في سبيل الله، ولا ينوّمهم بحبوب الليبرالية و"الإسلام المسالم".[1]

(١) مستفادٌ من جانباز مجاهد ج ٢، تأليف الشيخ المفتي رفيع العثماني (الأردية)، وترجمة أبي أسامة (البنغالية)، وكتاب من لاهور إلى قندهار، تأليف السيد مبنو، ومقال الشيخ المجاهد محمد عبد الغني في مجلة جاغو مجاهد (هلموا أيها المجاهدون) الشهرية، عدد خاص في ذكرى الأمير الفاروقي، سبتمبر ١٩٨٩م.

الحاجّ محمد يونس

(١٩٠٦- ١٩٩٢)

القائد المصلح، محارب التنصير، رائد الأعمال الإنسانية

هو "شيخ العرب والعجم"- كما كان يدعوه سماحة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل، إمام وخطيب الحرم المكي،- والرئيس بل المؤسس الثاني لجامعة فتية، ورائد الأعمال الإنسانية، والمجاهد الباسل، ومحارب التنصير، الحاج محمد يونس بن عبد الجبار رَحِمَهُ اللهُ، رجلٌ أفنى حياتَه في خدمة العلم، ونذر نفسه لتربية الدعاة، وتولّى رئاسة جامعة فتية بعد مؤسسها ورئيسها الأول العلامة الشيخ المفتي عزيز الحق، فجاء بتطويرات تاريخية جذرية، حتى دخلتْ جامعة فتية في التاريخ من أوسع بابها، وأصبحتْ ثانية أكبر جامعات عربية إسلامية داخل الدولة، فالمحاسن والمزايا التي تتميز بها جامعة فتية عن غيرها اليوم، والنجاح الباهر الذي سجّلته في مسيرها، في إعلاء كلمة الله وبث الدعوة، ونشر نور العلم والمعرفة، وتخريج العلماء والدعاة، والمصلحين والمؤلفين، يرجع الفضل في ذلك- بعد مؤسسها- إلى "حاجي صاحب"، كما أدى دور الريادة في الأعمال الإنسانية، وخدمة الخلق، ومساعدة الفقراء والمساكين، وإغاثة المنكوبين، وإنقاذ الأمة المسلمة المتخلفة الوضيعة، وانتشالهم من فكي الأسد- القاديانية من جانب، والنصرانية من جانب آخر، في أدغال شيتاغونغ وغاباتها، وجبالها وكهوفها، في أحلك فترات تاريخها، عندما كان هو الصوت الإسلامي الوحيد في تلك المنطقة، يجأر بالدعوة إلى الله وسط أمواج التنصير، وكان هو الشمعة الهادية وسط ظلمات الجهل والفقر والأمية، فعمل بوحده ما لم تعمله جماعات وجمعيات، وما لم تعمله حكومة! حتى جازَ أن يُقال إن الشيخ الحاج محمد يونس كان لأهل شيتاغونغ كما كان الدكتور عبد الرحمن السميط لأهل قارة أفريقيا.

النشأة الأولى

ولد يونس عام ١٣٢٧ للهجرة المصادف لعام ١٩٠٦ للميلاد بمحافظة شيتاغونغ، في أسرة دينية جليلة تنحدر من سلالة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي بيت عُرف بالنبل والثراء، والشرف والمكانة، فعاش في بحبوحة من العيش وهناءة، وشبّ في دعة وراحة، وتربى في رغد ودلال، لكن هذه السعادة لم تطل له فترةً بعيدةً، ورماه الدهر بالنكبة، فقد ذاق مرارة اليتم، وفقد والدَه الكريم في العام الرابع من عمره، ونشأ يتيما في حضن أمّه وفي ظل حنانها، ولما بلغ الصبي العام الخامس، ألحقته أمّه في مدرسة ابتدائية بقريته، ووضعتْ عند معلّم يلقّنه القرآن والتجويد.(١)

بعد إنهاء الدراسة الابتدائية الحكومية غلب عليه الشوق إلى الدراسة الشرعية، والتفقّه في الدين والتضلع من الكتاب والسنّة، وكان ذلك نقطة تحوّل في حياته، فدخلَ في جامعة هاتهزاري، وهبّ يأخذ العلم، ويشفي الغليل من منهل العلماء الصافي الزلال، وظلّ سنواتٍ حتى أكمل المرحلة الثانوية على أيدي الأساتذة الكبار والشيوخ البارزين، وعلى رأسهم المفتي الأعظم فيض الله، وعلامة الصوفية الشيخ ضمير الدين أحمد، والشيخ المؤسس العلامة حبيب الله القرشي، وبايع على يد الشيخ ضمير الدين خليفة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، واجتهد في سبيل التزكية والسلوك، ورياضة النفس والمجاهدة، حتى فتح الله عليه أسرار الدين، ومعارف الوجدان، وحصل على الإجازة من شيخه، وهو لا يزال فتى ناهضا يدرس في الصفّ الثانويّ.(٢)

من محراب العلم إلى ميدان العمل

سافرَ الشيخ يونس إلى الهند عام ١٩٣٢م، ودخلَ في دار العلوم ديوبند، وظلّ فيها خمس سنوات يدرس الحديث، والتفسير، والفلسفة، وعلم الكلام والمنطق، لدى أقطاب العلم، وجهابذة الفقه والنظر الذين انتهت إليهم رئاسة التدريس في ذلك العصر، أمثال مولانا حسين أحمد المدني، فقد درسَ عليه البخاري والترمذي، والشيخ المفتي محمد شفيع، والشيخ العلامة إبراهيم البلياوي، وشيخ الأدب مولانا إعزاز علي، وبدأ يحفظ القرآن الكريم عند المقرئ الشيخ عتيق الرحمن، لكن الرحلة في رحاب القرآن التي بدأها الشيخ في ديوبند أكملها في الحرم المكّي عندما سافرَ إليها حاجّا، ونزل ضيفا على بيت الرحمن،

(١) قطب الزمان، شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس، حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله ص٧٧ و٧٨

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥

وأثناء إقامته في دار العلوم ذهبَ إلى الشيخ أشرف علي التهانوي، ومكثَ في زاويته وفي كنفه مدّة يسيرةً، محبا ومحبوبا، راضيا ومرضيا، واعتكفَ معه أياما، كلها التربية والاستفادة والصحبة، والسعي إلى كمال الإيمان، والحصول على درجة الإحسان، حتى تشبّع بنور علمه وعرفانه، ثم عادَ إلى الوطن.(١)

هنا بدأ مرحلةً جديدة من الحياة، لكن بدايتها كانت متواضعة خافتة، ولم تكن فيها أشعة وهاجة تلمح إلى مستقبل باهر مستنير، فقد تولّى التدريس في مدرسة قريته التي كان فيها افتتاح دراسته وبداية رحلته العلمية، إلا أن قلبه كان في قلق دائم واضطراب قائم، لا يستأنس إلى بيئة، ولا يطمئن إلى وظيفة، ولا يرتاح إلى عمل أو مهمّة، كأنه يشعر بهوّة كبيرة حدثتْ في قلبه، وجرح غائر ثخين يحتاج إلى بلسم.

يونس في الطريق إلى بيت الله

بعد فترةٍ طرق مسامعَه أن شيخه ومرشده العلامة الضمير الدين قد أزعم على السفر إلى أرض الحجاز، لأداء المناسك وزيارة الحبيب، وأحدث هذا النبأ موجة من الحماس في قلبه، وأحس بفرحةٍ تغمره، وتطاير ضميره حبورا، وتجدد حنينه إلى بيت الله الحرام، وهنا وجدَ بلسما طالما تفقّده وبحث عنه، وأحسّ أنه جرحه بدأ يلتئم، وأن داءه أخذ يزول قبل أن يلقى طبيبا ويأخذ دواءً، وهذا هو مرض العارفين، وداء قلوب الربانيين.

وصلَ الشيخ يونس إلى بيت الله، وأكمل مناسك الحجّ، وزارَ روضة الحبيب، ثم بدأ يمكث في البلد الطيب، وفي رحاب الكعبة، يقوم ويصلي، ويتلو ويدعو، ويدرسُ ويستفيد، وهنا وقعَت عليه نظرةُ الشيخ العلامة المفتي عزيز الحق، المدير المؤسس للجامعة الإسلامية فتية، وكان رفيقا في هذه القافلة المباركة للحجّاج، تحت قيادة الشيخ ضمير الدين، ورأى فيه شابّا ناهضا، وعالما ضليعا، وقلبا ربّانيا عارفا، حاد الذاكرة، مستقيم العقل، ومتقيظ الفكر، فحبّب ذلك إليه هذا الإنسان، وذهبَ إلى مرشده الشيخ ضمير الدين، وطلبَ منه أن يسمح لهذا الشابّ أن يدخل في جامعة فتية كمدرّس، فلم يكن من الشيخ ضمير الدين إلا أن وافقَ على هذا الطلب، لكن الشيخ يونس فضل البقاء على مقربة من الحرم وفي ضيافة الرحمن لمدّة مزيدة، ووعدَ بوفاء العهد بعد العودة إلى الوطن.

(١) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص٢٩

في رحاب جامعة فتية

بقي الشابّ يونس في حضن الحرم، وفي مهبط الوحي والأنوار، ومعقل الإيمان لمدة سنتين، وقضاها في الدرس والاستفادة من فحول العلماء وأساطين الدعاة، وأعيان المحدثين، وتشرّب قلبه بالعبادة والزيارة، وعمرت سرائره بالحب والعرفان واليقين، ثم أخذ الخطى عائدا إلى الوطن، ودخل في جامعة فتية عام ١٣٦٤ للهجرة الموافق ١٩٤٥ للميلاد، وقد برزَ فيه النبوغ منذ أول يوم، ولم يكن في الجامعة من سبقَ له الحجّ في بيت الله سوى الشيخ المفتي عزيز الحق نفسه والشابّ يونس، فلقّبه سماحة المفتي بـ"حاجي صاحب" (فضيلة الحاجّ) وبدأ يدعوه به، ثم اشتهرَ بهذا الاسم، وكان موضع ثقة كبيرة من رئيس الجامعة الشيخ المفتي عزيز الحق، يحبّه ويكرمه، ويضع عليه الاعتماد، ويشاوره في الأمور الإدارية، والقضايا الحساسة الخطيرة التي تتعلق بالجامعة، ولما توفّي الشيخ المفتي عزيز الحق عام ١٩٥٨م، لم يكن هناك أحد أولى من الحاجّ بحمل هذا العبء الثقيل، فوُلّي رئاسة الجامعة.(١)

بداية مرحلة جديدة في تاريخ فتية

ما كاد العلامة يونس يضع قدمه في ساحة فتية رئيسا لها، حتى بدأَت مرحلةٌ جديدةٌ في تاريخها، ولا تزال تلك المرحلة من أخطر مراحل هذه الجامعة وأجلها شأنا، فقد برزَ الشيخ نابغةً من نوابغ الدنيا في الإدارة والقيادة، والإصلاح والمبادرة، وحصلت للجامعة تطوّرات تاريخية، وارتفعت المباني، وقامت العمارات، وارتقى المستوى التعليمي، وفُتحت المشروعات، فانتشرت شهرتها في الآفاق، وأصبح اسمها على كل لسان، وبدأ الطلّاب يتدفّقون عليها كما يتدفّق الفَراش على النار، حتى أصبحت جامعة فتية مركز المدرّسين الأكفاء، وملتقى الطلّاب المتفوّقين، على الصعيدين المحلي والعالمي، يقصده كل من يريد القديم الصالح مع الجديد النافع، وأن يجمع بين التأصيل العلمي والوعي العقلي، من داخل الوطن وأقصى العالم الإسلامي، إذ درس فيها عددٌ كبيرٌ من طلاب الهند، وباكستان، وميانمار، وإندونيسيا، وتايلاند، وبعض الدول العربية والإفريقية،(٢) وهو الذي فتحَ للمتخرّجين من جامعة فتية بابًا إلى العالم الأوسع، وأنشأ علاقة "التبادل الطلابي" بين جامعة فتية وجامعات العالم العربي، بما فيها كلية الدعوة الإسلامية بليبيا والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ولا يزال طلّاب جامعة فتية يتمتّعون بثمار جهوده ويذكرونه في دعائهم لدوره الخالد في مجال التعليم والتربية.(٣)

---

(١) صفحات من حياتي(البنغالية)، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي، ص٦٣

(٢) مئة من عظماء البنغال: أشرف علي النظاميوري ص١٩٤

(٣) انظر تفاصيل هذا التاريخ في قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته، تأليف مولانا محمد حبيب الله ص١٦٦ وما بعدها و٢١٢

أهمية اللغة الأم وضرورة إتقانها

كانت دعوات النهضة العلمية والمدنية والانتفاضة المعرفية آنذاك تقرع أبواب المدارس بعنف وبقوة في الديار البنغلاديشية، فنهض الشيخ ليلحق بركبها ويشارك في موكبها، وبدأ العمل بافتتاح قسم اللغة البنغالية وآدابها في جامعة عربية إسلامية مثل فتية لأول مرّة في التاريخ، ليتولّى العلماء قيادة هذه اللغة، ويتملّكوا ناصيتها، وليكونوا هم فرسان الأدب وفحول البلاغة وأمراء البيان، ولتكون لهم فيها صولة وجولة، على حين كانت اللغة البنغالية تعاني من إهمال شديد وازدراء كبير من قبل طلاب المدارس الدينية وعلماء المسلمين، وغفلة الدعاة عن العناية بها، لكونها- في نظرهم- لغة هندوسية وثنية لا يجوز الاشتغال بها، بل يجب الابتعاد عنها قدر المستطاع! فجاءت هذه الخطوة الجريئة صاعقة عنيفةً وقذيفة قوية على المراكز العلمية وأوساط العلماء، وواجهت عواصف من الانتقادات والاتهامات، لكن هذه المحن كلها لم تثبّطه عن مواصلة سيره ولم تثنه عن طريقه، ولم يكن لمثله أن يعبأ لمثلها، فواصل السير وأمضى قدما، رابط الجأش، وهادئ النفس، ومطمئن البال، حتى كان له أثر مبارك لا نزال نلحظه في يومنا هذا، وقد أصدرَ مجلات ودوريات، تأتي في طليعتها مجلة «التوحيد» و«المرآة» بالبنغالية، و«الصبح الجديد» بالعربية.(١)

جاء إصلاح عظيم في المدارس الدينية

كانت معظم المدارس الدينية في ذاك الوقت متمسكة بعروة تراثها القديم، وعاضة عليه بالنواجذ، حتى اندثرت فيها نزعة الإصلاح والتجديد، وركن علماؤها إلى إيثار التقليد، وكانت جل عنايتهم بحفظ المتون القديمة، وشرحها والتأليف فيها، والاسترسال في المماحكات اللفظية، والتلذذ بالحدود المنطقية والتعريفات الكلامية، والعلوم التي بليت وخلقت ودالتْ دولتها، ورأوا في حماية التراث القديم نجاة للأمة، حتى ظل المنهج الدراسي في المدارس العربية متغاضيا عن متطلبات العصر، وضروريات الدين، ومقاصد الشريعة.

هنا جاءَ العلامة محمد يونس ونظر في المناهج الدراسية من منطلق جديد، ورأى فيها التغيير، واستأنس الإصلاح والانفتاح، وما أراد الإسلام الجامد المتمثل آنذاك في المدارس العربية ورجالها، بل استحسن أن يكون المنهج جامعة بين الأصالة والمعاصرة، وملتقى العلوم الدينية بالعلوم العصرية، وأن

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٣-١٩٥

تُدخل فيه شيء من الإنجليزية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا، لئلا يضيع العلماء في معارك جديدة حاسمة ولا يضلوا الطريق، ثم جاهدَ لتحقيق هذا الهدف، وتحويله من حيز التخطيط إلى حيز التنفيذ، وقد أصدرَ مجلّة دينية شهرية باللغة البنغالية عام ١٩٧٠م، على حين كان ذلك ضربا من الخيال، وهكذا تحوّل الخيالُ إلى الواقع، وبرزت شخصية الحاج محمد يونس شخصية فريدةً في تاريخ علماء هذه الدولة.

لم يكن الشيخ الحاج محمد يونس أن يطوّر الجامعة التي يُديرها ويهمل الجامعات الشقيقات والمدارس العربية، والمراكز العلمية الإسلامية الأخرى، بل كان يرى أن كل مدرسة دينية بيته، وساحة جهاده، وميدان عمله، وكانت بنغلاديش آنذاك تحتضن آلاف المدارس الدينية، والمراكز العلمية، والكتاتيب القرآنية، إلا أنها كانت مبعثرةً مشتّتة، لا تجمعها جامعة ولا تربط بينها رابطة، فكانت جهود العلماء موزّعة، وأقل نفعا وتأثيرا، هنا غلب على الشيخ محمد يونس شوق الإصلاح، فتقدم وبرز إلى الميدان، ودعا العلماء ورؤساء الجامعات وقادة المدارس أن يقوموا في صفّ واحد، وعلى منصّة واحدة، وأن تكون جهودهم متّحدة، لتكون أكثر جدوى وأبعد أثرا، فانشرحت الصدور لهذه الدعوة المباركة، واستجاب لها عددٌ كبير من كبار العلماء وجهابذة الأساتذة، وقادة المدارس والمراكز، وتشكلت لجنة عامّة لتشرف على هذه المؤسسات، وبرزتْ باسم «وفاق المدارس العربية ببنغلاديش» عام ١٩٧٨م، وتولّى الشيخ الحاج محمد يونس إشرافَها، وقد كان لكل من مولانا شمس الحق الفريدبوري، والشيخ أطهر علي، والشيخ عبد الكريم (شيخ كوريا) وغيرهم دورٌ ريادي في ظهور «الوفاق».

وكانت هناك لجنةٌ أخرى ظهرتْ على يد الشيخ الحاج محمد يونس عام ١٩٥٩م وتحت إشراف الشيخ المفتي عزيز الحق باسم «أنجمن اتحاد المدارس» (هيئة اتحاد المدارس العربية الأهلية)، إلا أن تلك اللجنة لم تقم بدورها، ولم تؤت أكلها لأسباب يطول بيانُها، فدعت الحاجة إلى إنشاء لجنة ثانية ومبادرة أخرى لتحقيق الغاية نفسها، وكانت «الوفاق» نتيجة تلك الحاجة، وكان من إنجازه الآخر إنشاء هيئة عامّة للإشراف على تحفيظ القرآن ومعاهد التحفيظ، وإرشاد الحفّاظ، والقيام بهم على رصيف واحد، وظهرتْ هذه الهيئة باسم «جمعية تحفيظ القرآن الكريم بنغلاديش»، إضافة إلى ذلك أنشأ الشيخ عددا هائلا من المساجد والمدارس، ذكرت بعض الإحصائيات أنها تزيد على أكثر من ألف وخمس مئة مسجد ومدرسة، وكان مديرا للجامعات، وظلّ عضوا مهمّا في المجلس الاستشاري الأعلى لجامعة هاتهزاري على مدى الحياة، كما كان رئيس المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية قاسم العلوم المعروفة بـ«مدرسة جميل»، والتي هي أكبر جامعة عربية إسلامية في شمال بنغلاديش، وهو الذي جاء بالشيخ

يوسف النظامي إليها،[1] وأناط به رئاستَها، فكان ذلك مرحلة فريدة في تاريخها.[2]

رائد الأعمال الإنسانية

من أبرز جوانب حياة هذا الإنسان وأروع سمات وشعار هذه الشخصية الكبيرة هو العمل للناس، والسعي في خدمة الخلق، والريادة في رعاية الفقراء ومساعدة الضعفاء، وإغاثة المنكوبين، فهذه الدولة التي كثيرا ما تُصيبها الأمطار والفيضانات، وتعتريها العواصف والكوارث الطبيعية، كانت تحتاج إلى إنسان مثله يكون أسمى مثال على إنسانية الثري المسلم، والسخي العالم، العارف بالله، الموصول به قلبا وروحا، فجاء هو الكريم الذي قدّم نموذجا فريدا في المبادرة المحمودة لإغاثة المنكوبين، كلما داهمت أهل هذه الدولة داهية، ونزلت بها نازلة.

ومن ثم لما فاجأت هذه الدولة فيضاناتٌ وأعاصير متتالية عام ١٩٦٠م و١٩٦٣م و١٩٧٠م وأخيرا ١٩٩١م، وأصاب الناس الفزع الأكبر، واصطكت الأسنان، وضاقت الأرزاق، وعمت المجاعات، هاجر الحاج المدرسة، وترك عروش التدريس، وكراسي المحاضرات، وخرج من محراب العلم إلى ميدان العمل، وهرع إلى المناطق المنكوبة، ووقفَ بجانب الإنسانية المضطربة الملهوفة، وأطال إليهم أكف العطاء كأقرب الناس إليهم، وأشدّهم شفقة وحنانا عليهم، ورحمةً بهم.

المكان الذي كان يتوجه فيه الشيخ محمد يونس سرعان ما يتحوّل إلى المكتب الخيري للمساعدة، أو مركز الإغاثة، لكثرة ازدحام الناس حوله، والاستئناس به، وعرض الحاجات عليه، وقد أسس عددا من المستشفيات، وفتح مستوصفات في مناطق متخلّفة لتقديم خدمات الرعاية الصحية المجانية و

---

(1) إنه عالم شهير في مناطق شمالية ببنغلاديش، ومن مقدمة الدعاة والمحدثين وأعلام [illegible] الشيخ مولانا يوسف [illegible] ١٩١١م [illegible] في مدرسة [illegible] ثم درس في «مدرسة جميل» [illegible] ١٩٧١م [illegible] ١٩٧٧م [illegible] «مدرسة جميل» [illegible] بنغلاديش [illegible] توفي عام ٢٠٠٩م.

(2) [illegible] الحاج محمد يونس حياته وأعماله [illegible] ص ٢٢٢ [illegible]

بكلفة زهيدة، للفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وهكذا استمرّت جهوده من البذل والعطاء في حياته كلها ما لا يصدّق، ثم ماذا كانت مصادر مساعداته يا ترى وهو ليس مليكا أو ابن المليك؟ جزء منها يأتي من جيبه، أما البقية فمن طرق أبواب الأثرياء، والتردد إلى الملوك والأمراء، لا من أجل نفسه، بل من أجل الخلائق! حتى أصبح أسطورة، لم يُنس حيا ولا ميتا، وقد كان له دورٌ بليغ في حل مشكلات المسلمين الروهينغا اللاجئين في بنغلاديش، وبذلك كله كان تطبيقا حيا لأخلاق النبي ﷺ ما جاء على لسان خديجة ﵂: كلا! والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.[1]

ومضات على تاريخ التنصير في جبال بنغلاديش

حركة التنصير ونشاط المنصرين في هذه البقعة ترجع إلى قرونٍ، وكانت بدايتها في فجر القرن السابع عشر الميلادي عندما جاء المنصّر الإنجليزي الشهير «وليام كيري» إلى الهند، وبدأت أكبر حركة دعوية ونشاط تنصيري في تاريخ الإرساليات للكنيسة البريطانية، وقد قضى كيري حياته كلّها في هذه المنطقة، بعيدا عن رفاهية العيش البريطاني وكماليات قصور لندن، ومنذ ذلك الحين ونظرا إلى هذه التضحية الكبيرة، وهذا النموذج الفريد الريادي في هذه الحركة، تنشّط المنصّرون في هذه المنطقة، وظلّ يعملون عملهم عبر قرونٍ، وقد تخلّل هذه الحركةَ المستمرّة مدٌّ وجزرٌ، ونشاطٌ وخمولٌ في فترات مختلفة ولأسباب شتّى، إلا أن القرن العشرين شاهد مدّا كبيرا وطوفانا جارفا لحركة التنصير في هذه المنطقة، عندما اشتغل عنها المسلمون بالاضطرابات السياسية، والضغوط الاقتصادية، وران على قلوبهم التعصب المذهبي المقيت، وانشغلوا بفروع الأمور عن أصولها، وصغائر المسائل عن عظائمها، فاستغلّ النصارى هذه الظروف، واشتدّ نشاطهم وغلواؤهم، وشمّروا عن ساعد الجدّ للاصطياد في الماء العكر، ولتحقيق غاية عظمى يعملون لها منذ قرونٍ.

وكانت المناطق الجبلية من أكثر مناطق بنغلاديش خصوبة وجذبا للإرساليات التنصيرية، وأكبرها أهمّية وأشدّها خطورةً عند المنصرين، وذلك لمواقعها الاستراتيجية، وثرواتها الطبيعية، وحالاتها الديمغرافية، وظروفها الاقتصادية والدينية، لأن معظم السكّان في هذه المناطق ينتمون إلى أعراق غير بنغالية،

---

(١) انظر شهادة فقيه الملة عبد الرحمن بذلك في كتاب قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله ص٢٨ وانظر تفاصيل خدماته الإنسانية ص٢٩٥ وما بعدها

ويدينون بأديان غير الإسلام، مما تزخر به أسواق الأفكار، وحظائر الاعتقاد، يعبدون للشمس والقمر، والشجر والحجر، ويعيشون حياةً ساذجة بسيطةً معتزلة تشبه حياة الكهوف والغابات في العالم البدائي القديم، فأدرك المنصّرون أن عملهم في هذه المناطق وبين هؤلاء الأقوام سيكون أبعد أثرا، وأكثر إنتاجا، [illegible]

ينهض الحاج يونس لمحاربة التنصير

[illegible] عصفة هوجاء من التنصير، واجتاحت جبال بنغلاديش وما جاورها في الشرق، [illegible] من البوذيين والوثنيين، وقامت الكنائس والمدارس التنصيرية في أدغال شيتاغونغ، حتى [illegible] من الإسلام ودخلوا في النصرانية، ثم هبوا يدعون أهلهم وأقاربهم إليها! شاهد [illegible] محمد يونس كل ذلك بعقل واعٍ، وقلب مستنير، وإيمان عميق، ودرس الظروف بعين فاحصة [illegible] تخفي هذه العاصفة وراءها من مآس وطامات، وكوارث وأهوال، كما [illegible] عن ذلك كلّه، واعتزالهم عن المجتمع، وانقطاعهم إلى زواياهم، وانحصارهم في [illegible] وهمتهم ما يموج حولهم من الطوفان، وما يحاك من الدسائس والمكائد، [illegible] وضعفهم في الإصلاح، وعجزهم عن مقاومة هذه الحركة القوية عجزا [illegible] في قرارة نفسه بحاجة ملحة لسدّ هذا الباب، ووقف هذا [illegible]

[illegible] ولم يستعن بحكومة أو جماعة؟

[illegible] هذه [illegible] من العلماء، [illegible] من الحكومة، [illegible] وسهوا عما كان [illegible] أحوال الشعب، والتحقق [illegible] حكومة [illegible] حرة السلطة، [illegible] وتكلموا على عمائهم وقواد [illegible] الأمة المسلمة في عقر [illegible]

[illegible] ولا العلماء سواد

[illegible]

بكلفة زهيدة، للفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وهكذا استمرّت جهوده من البذل والعطاء في حياته كلها ما لا يصدّق، ثم ماذا كانت مصادر مساعداته يا ترى وهو ليس مليكا أو ابن المليك؟ جزء منها يأتي من جيبه، أما البقية فمن طرق أبواب الأثرياء، والتردد إلى الملوك والأمراء، لا من أجل نفسه، بل من أجل الخلائق! حتى أصبح أسطورة، لم يُنس حيا ولا ميتا، وقد كان له دورٌ بليغ في حل مشكلات المسلمين الروهينغا اللاجئين في بنغلاديش، وبذلك كله كان تطبيقا حيا لأخلاق النبي ﷺ ما جاء على لسان خديجة رضي الله عنها: كلا! والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.[1]

ومضات على تاريخ التنصير في جبال بنغلاديش

حركة التنصير ونشاط المنصرين في هذه البقعة ترجع إلى قرونٍ، وكانت بدايتها في فجر القرن السابع عشر الميلادي عندما جاءَ المنصّر الإنجليزي الشهير «وليام كيري» إلى الهند، وبدأت أكبر حركة دعوية ونشاط تنصيري في تاريخ الإرساليات للكنيسة البريطانية، وقد قضى كيري حياتَه كلَّها في هذه المنطقة، بعيدا عن رفاهية العيش البريطاني وكماليات قصور لندن، ومنذ ذلك الحين ونظرا إلى هذه التضحية الكبيرة، وهذا النموذج الفريد الريادي في هذه الحركة، تنشّط المنصّرون في هذه المنطقة، وظلّ يعملون عملَهم عبر قرونٍ، وقد تخلّلَ هذه الحركةَ المستمرّة مدٌّ وجزرٌ، ونشاطٌ وخمولٌ في فترات مختلفة ولأسباب شتّى، إلا أن القرن العشرين شاهد مدّا كبيرا وطوفانا جارفا لحركة التنصير في هذه المنطقة، عندما اشتغل عنها المسلمون بالاضطرابات السياسية، والضغوط الاقتصادية، وران على قلوبهم التعصب المذهبي المقيت، وانشغلوا بفروع الأمور عن أصولها، وصغائر المسائل عن عظائمها، فاستغلّ النصارى هذه الظروف، واشتدّ نشاطُهم وغلواؤهم، وشمّروا عن ساعد الجدّ للاصطياد في الماء العكر، ولتحقيق غاية عظمى يعملون لها منذ قرونٍ.

وكانت المناطق الجبلية من أكثر مناطق بنغلاديش خصوبة وجذبا للإرساليات التنصيرية، وأكبرها أهمّية وأشدّها خطورةً عند المنصرين، وذلك لمواقعها الاستراتيجية، وثرواتها الطبيعية، وحالاتها الديمغرافية، وظروفها الاقتصادية والدينية، لأن معظم السكّان في هذه المناطق ينتمون إلى أعراق غير بنغالية،

(١) انظر شهادة فقيه الملة عبد الرحمن بذلك في كتاب قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله ص٢٨ وانظر تفاصيل خدماته الإنسانية ص٢٩٥ وما بعدها

ويدينون بأديان غير الإسلام، مما تزخر به أسواق الأفكار، وحظائر الاعتقاد، يعبدون للشمس والقمر، والشجر والحجر، ويعيشون حياةً ساذجة بسيطةً معتزلة تشبه حياة الكهوف والغابات في العالم البدائي القديم، فأدرك المنصّرون أن عملهم في هذه المناطق وبين هؤلاء الأقوام سيكون أبعد أثرا، وأكثر إنتاجا، وأعمّ نفعا.

ينهض الحاج يونس لمحاربة التنصير

هنا جاءت عاصفة هوجاء من التنصير، واجتاحت جبال بنغلاديش وما جاورها في الشرق، وتنصّر عددٌ هائل من البوذيين والوثنيين، وقامت الكنائس والمدارس التنصيرية في أدغال شيتاغونغ، حتى انسلخ آلاف المسلمين من الإسلام ودخلوا في النصرانية، ثم هبوا يدعون أهلهم وأقاربهم إليها! شاهد الحاج محمد يونس كلّ ذلك بعقل واعٍ، وقلب مستنير، وإيمان عميق، ودرسَ الظروف بعين فاحصة دقيقة، وأدرك ببصيرة نافذة ماذا تخفي هذه العاصفة وراءها من مآس وطامات، وكوارث وأهوال، كما شاهد انقباض العلماء عن ذلك كلّه، واعتزالَهم عن المجتمع، وانقطاعهم إلى زواياهم، وانحصارهم في حدود المدارس والمساجد، وإهمالَهم لما يموج حولهم من الطوفان، وما يُحاك من الدسائس والمكائد، وتقصيرهم في جنب الدعوة، وضعفَهم في الإصلاح، وعجزَهم عن مقاومة هذه الحركة القويّة عجزا اقتصاديا وفكريا، رأى كل شيء، فأحس في قرارة نفسه بحاجة ملحة لسدّ هذا الباب، ووقف هذا الطوفان قبل أن يعمّ ويطمّ.

لماذا نزلَ وحده في الميدان ولم يستعن بحكومة أو جماعة؟

أدرك الحاج يونس أن هذه الكارثة جاءت على حين غفلة من العلماء، وغرور من الحكومة، وانغماس من الأمة في حب الذات، والتعلق بالأثرة، عندما غفلَ العلماء عن واجبهم، وسهوا عما كان عليهم من العناية بالناس، ومخالطة الأمة، والعيش بين وسط المجتمع، وتفقد أحوال الشعب، والتحقق من ضربات قلبه، ونبضات خاطره، وعندما استعبد الحكمُ الحكومةَ ورجالَها، وأسكرتهم خمرة السلطة، وأخذتهم نشوة السيادة، وعندما غرق جمهور المسلمين في الأنانية، واتّكؤوا على زعمائهم وقواد سياستهم، حتى ذاق الجميع وبال غفلتهم. وجاءت جحافل النصارى، وغزت الأمة المسلمة في عقر دارها! واقتحمت بيوتَها ومخادعَها!!

من أجل ذلك كله لم ينتظر الحاج يونس نهوض العلماء، ولا عناية الحكماء، ولا اهتمام سواد

الأمة، ورأى أن الحق هو أن يقوم بوحده ويبدأ في عمله! فقامَ ونزل في الساحة، وركّز اهتمامه على المناطق الجبلية في شرق بنغلاديش، وعاشَ طيلة حياته مدافعا عنها، ساهرا حول حريمها وحدودها، وصبَّ عليها عصارة فكره، وسقاها برحيق روحه، وجاهد في سبيلها جهاد المستميت، حتى فترت حدة التنصير، وخفّت وطأة المنصرين، وتحرّكت عجلة الدعوة الإسلامية في هذه المناطق من جديد، وبحماس مزيد.[1]

آثار جهاده في جبال بنغلاديش

أسس الشيخ يونس في هذه المنطقة مدارس ومساجد كثيرة، وفتح مستشفيات ومستوصفات، وحفر الآبار، وأنشأ مزارع، ومراكز إعادة التأهيل وإيواء المهتدين، ودعا المسلمين في العالم الإسلامي ليشاركوا في موكبه الدعوي المبارك، وجابَ العالم العربي طولا وعرضا، حتى جاءت استجابة كبيرة.

في عام ١٩٨٤ للميلاد أنشأ الشيخ مركزا للدعوة الإسلامية في قرية «سُوخ بِلَاس» التابعة لمنطقة «رانغونيا» بمحافظة شيتاغونغ، وكانت هذه المنطقة الجبلية أرضا غنية خصبة للحركات التنصيرية والأنشطة البوذية، والتيارات المنحرفة المنتمية إلى الإسلام مثل القاديانية، لم تكن فيها مدرسةٌ أو مركزٌ ديني علميّ، كانت بعض المساجد القديمة قائمةً، إلا أنها كانت مهجورةً أو شبه مهجورة منذ فترة بعيدةٍ، وبدأ الناس يخطّون إلى النصرانية رويدا رويدا، فهرع الشيخ إليها، وأنشأ فيها هذا المركز، وسمّاها «مركز التعليم والدعوة الإسلامية»، وفتحَ تبعا لهذا المركز مستشفى، ومركزا لتأهيل المهتدين، ومدرسة للبنات، ومعهدا لتحفيظ القرآن الكريم على منهج دار العلوم ديوبند، ليكون مجمعة إسلامية كاملة، وبالفعل كان لها دورٌ كبيرٌ في إنارة هذه المنطقة، وإنقاذها من شراك التنصير، وتبصيرها بحقائق الإسلام ومعجزات هذا الدين.[2]

وفي عام ١٩٨٩ أنشأ الشيخ «مركز التعليم والدعوة الإسلامية» في محافظة «بندربان»، وبنى تحته

(١) وقد عرف واعترف بجهوده الجبارة في محاربة التنصير كبار علماء العرب والعجم، فوقفوا بجانبه بالدعم المادي والمعنوي، وزادوا من قوّته الروحية للسعي وراء إنجاح مشروعه وتحقيق حلمه، انظر ماذا كتب عنه مجلة البعث الإسلامي الشهيرة، الصادرة من ندوة العلماء بالهند، في عددها الرابع، يونيو ١٩٩٢ ص٩٩ و١٠٠

(٢) وقد زارَ كاتب هذه السطور تلك المنطقة في رحلة دعوية لمدّة عشرة أيام، قبل اعوام، فرأى ان مركز الدعوة الذي أنشاه هذا الإنسان، والذي أنارَ هذه المنطقة منذ فترة مديدة، بدأ يسير الآن في طريق الانحطاط، فقلّ نشاطه، وضاق افقه، وبدأت المدرسة تمشي بخطى ثقيلة، وبطء شديد، لأسباب أهمها أنه لم يلق بعده من يحسن قيادته ورعايته، ويتعهّده بين الفينة والأخرى، ولعلّ هذا أبرز مواطن لتقدير قيمة العظماء، فهم عندما يموتون لا يرثهم الأكفاء، حتى خفت فيها صوتُ الحق، وعادَت حركة التنصير بنشاطها وعنفوانها، وجيوشها الجرارة، فهل من يونس جديد ينهض ويقف في وجهها؟

مسجدا، ومعهدا لتحفيظ القرآن، ومدرسةً، وناديا ثقافيا، ومكتبةً غنية، ودارا للأيتام، ومركزا للتدريب المهني، وفتحَ مستشفى، مع هذه الأعمال الشاقة الجليلة كان لا يرى فيها كفاية، حتى كان يحلم في نهاية حياته بإنشاء مركز إسلامي كبير في قلب شيتاغونغ لمحاربة التنصير ودعوة غير المسلمين، لكن المنية عاجلته قبل بلوغ الأمنية.[1]

فارس السياسة وبطل القيادة

كما أنه كان فارسا شجاعا في ميدان السياسة لا يشق له غبار، وقامَ بدورٍ كبير في السياسة الإسلامية منذ عهد الاحتلال، ثم في عهد باكستان، حتى بعد الانفصال وظهور بنغلاديش، تحت مظلة «حركة نظام الإسلام»، فقد كان يرى أن الدين والسياسة توأمان، لا يجوز الفرقُ بينهما، ورأى عواقب اعتزال العلماء عن السياسة والحكومة بأم عينه، ولذلك كان يشجّع العلماء، ويرغّبهم للخوض في السياسة، ويريد أن يكون للعلماء دورٌ كبير فيها، ويردّد قولَه المشهور: "لو أردنا أن نحمي هذا الدين، ونحافظ على هذه المدارس والمراكز العلمية، لا بدّ أن تقدّم كل مدرسة مبلّغا مجاهدا في ميدان السياسة، ليكون رواتبهم على مدارسهم".

وقد عاشَ في السياسة طوالَ حياته جهرةً ومباشرة حينا، ومن بُعدٍ أحيانا، وقد كان المصلح العظيم العالم السياسي المجاهد، الشيخ أطهر علي، والخطيب الأعظم مولانا صدّيق أحمد، والشيخ مصلح الدين[2] من أبرز أساتذته في السياسة الذين تشجّع بهم، وتلقّى عنهم، وتبع منهجَهم في الحياة السياسية.[3]

كيف يبتعد هذا الإنسان عن السياسة ويعتزل الحركة؟ وقد قضى خمس سنواتٍ من أيام شبابه في

(١) قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله ص٢٤٧ وما بعدها

(٢) إنه الشيخ السيد مصلح الدين، المعروف في التاريخ بشيخ «مسيحتا»، ولد عام ١٩٠٦م في محافظة «براهمن باريا»، في سلالة نبوية طاهرة، وسلالة العلماء والمصلحين في هذه الدولة عبر القرون، درسَ في الجامعة اليونسية، ثم دخلَ في دار العلوم ديوبند وأخذ العلم على أساطينه أمثال الشيخ الكشميري، ومولانا شبير أحمد العثماني، والشيخ حفظ الرحمن، وكان من أصفى تلامذة الكشميري، فذهبَ معه إلى مدرسة «دابيل» عندما ذهبَ إليها الكشميري، ثم تولّى التدريس في المدرسة العالية بـ«نارسينغدي»، ومن أبرز مآثره تأسيس مدرسة أنوار العلوم بـ«حضرت نغر»، فكانت من طليعة المدارس العربية في «مايمن شاهي»، وقد كان إماما في "مصلى سولاكيا" المشهور طوال ٤٢ عاما، وكان عالما سياسيا كبيرا، له دورٌ كبير في السياسة الإسلامية في هذه الدولة في مراحلها التاريخية المختلفة، كما كان عالما ربانيا، ومرشدا عارفا، وقد توفّي الشيخ مصلح الدين عام ١٩٨٣م.

(٣) قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله ص٢٤٥

رحاب دار العلوم ديوبند، في عصر كانت الهند فيها على فوّهة بركان، وقامت فيها حركات دينية وسياسية أقامت الدولة وأقعدتها، ودرسَ على الشيخ حسين أحمد المدني، وشاهد جهادَه ضدّ الاحتلال وكفاحه للتحرير، فكان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته وتوجيه عقليته، وتحديد ميوله واتجاهاته، وخاض غمار السياسة، واكتوى بنارها، وشارك في حركة «جمعية علماء الهند» لطرد الاحتلال، ولتحرير الهند، وبعد انفصال باكستان ظلّ يجاهد لإقامة الحكومة الإسلامية ولتحكيم الشريعة تحت راية «جمعية علماء الإسلام» ثم راية «نظام الإسلام»، وسافرَ عدّة مرات إلى باكستان، يشارك في المؤتمرات، ويلقي المحاضرات، وكان له دورٌ كبيرٌ في إنشاء جبهة طلّابية لجمعية علماء الإسلام في باكستان الشرقية، لتجنيد طلاب المدارس الإسلامية كأعضاء أكفاء للسياسة الإسلامية، ولقيادة الشعب والدولة.

مآثر جامعة فتية في حرب التحرير

في عهد رئاسته لجامعة فتية، نشبت حرب تحرير بنغلاديش عام ١٩٧١م، وقد قامت الجامعة بدور كبير في ظهور بنغلاديش والحفاظ عليها، حينما كانت هذه الدولة نبتة صغيرةً لم تتفتّح ولم تقم على ساقها بعد، فلما قرأَ اللواء ضياء الرحمن الرئيس البنغلاديشي السابق إعلانا تاريخيا عن استقلال بنغلاديش، وبداية حرب التحرير، ونهاية نفوذ المعتدين، من محطّة الإذاعة بـ«كالورغات»، على الهواء مباشرةً، ٢٧ مارس ١٩٧١م، هب الجيش الباكستاني ودبّ، وبدأَ يبحث عنه ليرديه، وهرع ضياء الرحمن في تلك الفترة الرهيبة الدقيقة إلى كل مكان يلجأ فيه، وكان الشيخ يونس آنذاك في مكة لأداء الحج، هنا جاءَت جامعته فتية، وجعلت له ولأصحابه مأوى في صدرها، وداخل حدودها، فكان ذلك حفظا لاستقلال الدولة، وحماية مستقبلها، بعد أن دفعت لها أثمانا باهظة، وأرواحا طيبة،[1] وقد ظل المرحوم ضياء الرحمن يذكر هذه اليد البيضاء الحنون حتى بعد أن تولّى رئاسة الدولة، فجاءَ جامعة فتية ليزورها وليطلب الدعاء من الشيخ الحاج محمد يونس، واغتنم الشيخ هذه الفرصة على عادة السلف، ونصحَ الرئيسَ، وقدّم له توجيهاتٍ بليغة.

الحاج يونس على مسرح العالم وشهادة العلماء له

هذا الإنسان العظيم لم يعرفه وطنه فحسب، بل عرفه العالم، وقدّر أعماله وجهودَه ودورَه في الدعوة والإصلاح تقديرا كبيرا، فقد كان واسع الاطلاع على شؤون العالم الإسلامي، وشديد التعلّق بالعالم

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسن الشبلي، ص٢٤٨-٢٥٧

العربي، وعميق الحبّ للعرب، يسوؤه ذمّهم وانتقاص حقهم، وإنكار فضلهم ودورهم في تاريخ الإسلام، نسافرَ إلى دول كثيرة من العالم العربي، في جولات دعوية وفكرية، وشاركَ في الندوات والمؤتمرات، وأصبح عضوا في الجمعيات الدعوية والإنسانية، والهيئات العالمية العاملة في مجال الدعوة والإرشاد، والتوجيه والقيادة، وتعرّف على العلماء والشيوخ، وقادة الدعوة، وأعلام الفكر في العالم العربي، وكان حسن الاعتقاد وشديد الإجلال لهم، حتى قامتْ معهم علاقة طيّبة وصلة قويّة عميقة، فقد كانت صلته بالشيخ محمد بن عبد الله السبيل (١٩٢٤- ٢٠١٢) نائب الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، إمام وخطيب الحرم المكيّ طوال أربعة وأربعين عاما، صلة الأخوّة والمحبّة، وكان الشيخ السبيل يحبّ ويبجل الحاج يونس كثيرا، ويدعوه "شيخ العرب والعجم"، وكان يقول عنه "لسانه ميت وقلبه حي"! وقد سافر الشيخ السيل إلى بنغلاديش مرّتين على دعوة من الشيخ يونس، وقد بايعَ على يده بيعة السلوك والإحسان عدد من العلماء العرب، بمن فيهم الشيخ بشير صفقة من العين، والشيخ عبد الكريم طنطا من دبي، رحمهم الله جميعا،[1] وكانت له صلة وطيدة مع الشيخ عبد الله بن زاحم، إمام وخطيب المسجد النبوي، ورئيس محاكم المدينة المنورة، أما علاقته بشيخنا ومولانا أبي الحسن علي الندوي، فكانت علاقة الشقيق بالشقيق، والخليل وبالخليل، يتحابان في الله، ويتواصلان لله، ويتزاوران للدين الله، كما كان له تواصلٌ بالملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله، وكان للملك يدٌ بيضاء في تعاون الشعب البنغلاديشي عن طريق الحاج يونس.

كان عضوا في لجنة «رسالة المسجد» التابعة لرابطة العالم الإسلامي، وقد حضرَ مؤتمر رسالة المسجد للرابطة، المنعقد في مكّة عام ١٩٧٥ للميلاد، ممثّلا لدولته بنغلاديش، وفي عام ١٩٧٨م شاركَ في مؤتمر دولي للرابطة في العاصمة الباكستانية كراتشي، وألقى فيه محاضرةً قيّمة، وفي عام ١٩٧٩م شاركَ في مؤتمر السيرة النبوية العالمي بقطر، وكان مؤتمرا تاريخيا، اجتمعَ فيه عددٌ كبير من أقطاب العالم الإسلامي، وفحول العلماء والأدباء، وأعلام الدين وأعيان الدعاة والمصلحين، من معظم بقاع العالم الإسلامي، أمثال سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي، والشيخ مصطفى الزرقاء، والشيخ عبد الفتاح أبي غدة، والشيخ عبد المحسن العباد، والشيخ سعيد رمضان البوطي، والشيخ مولانا سالم القاسمي، والشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، والشيخ المفتي تقي العثماني وغيرهم، فتعرّف علماء الإسلام

(١) من حديث الشيخ سلطان ذوق الندوي، في لقاء خاص أجراه معه مولانا سعيد حسين بتاريخ ١٦ أغسطس، ٢٠١٧م

على شيخنا، واعترفوا بفضله ومكانته.

في هذا المؤتمر تعرّف الشيخ يوسف القرضاوي على شيخنا الحاج يونس، وأدرك قيمته وإخلاصه، ودورَه في الدولة، ثم أخذ هذا التعارف البسيط طورا آخر، وتحوّل إلى حبّ عميق، وصداقة إيمانية قوية خالصة، كان ثمارها أن الشيخ القرضاوي سافرَ إلى بنغلاديش للمرّة الأولى في حياته، وحضرَ في احتفال سنويّ لجامعة فتية، وأقامَ فيها عدّة أيام، يدرّس وينصح، ويذكّر ويُصلح، ويلقي المواعظ للعامة، والنصائح البليغة للعلماء والطلّاب، وقد ذكر الشيخ القرضاوي هذه الرحلة بالتفصيل في الجزء الرابع من كتابه "ابن القرية والكتّاب".

كيف كانت صلته بربِّه؟

أما عبادته وزهده، وعلاقته مع الله، فحدّث بما تشاء، وقد نشأ على الصلاح والورع والعبادة منذ صغر سنه، حتى أصبح من أولي العزم من الأولياء، وعظيما من العظماء، محفوظا، بعيدا عن مواطن الزلة، ناطقا بالحق، ما عصى الله في أمر، وكان كثير العبادة، قلبه معلق بالمساجد، ومحافظا على الفرائض، ومهتما بالنوافل، وكانت له أكبر عناية بالتهجّد، والذكر والاستغفار بالأسحار، فلم يكد يفته قطّ مهما كثرت الأشغال، وتزاحمت الأعمال، ومهما تأخر في الذهاب إلى الفراش كان يستيقظ للتهجّد في وقته! فيصلي ويستغفر، ويذكر الله كثيرا، ويدعوه كأنه يراه![١] وكان على صلة متينة بمولانا التهانوي، ومبايعا على يد الشيخ ضمير الدين أحمد الإسلام آبادي، خليفة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي،[٢] كما كان له جلدٌ كبير على الزهد والتقشف، قد أقبلت عليها الدنيا فزهد بنفسه فيها، ووزّعها على الناس، وكان خير مثال لذلك الخلق العظيم الذي قال: " ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا، تمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار!"

شيخ العرب والعجم في ذمة الله

عندما أدّى دورَه وأنهى مهمّته على أكمل وجه، وأفضل طريق، جاءَ اليوم الموعود، فودّع هذا الإنسان العظيم عالمه، وذهبَ للقاء ربّه، وكان ذلك عام ١٩٩٢ للميلاد، وصلى عليه جمع حاشدٌ من البشر قلّما شُوهد في تاريخ هذه البقعة في ساحة جامعة فتية، ورثته الصحف والمجلات، وكتبت في

---

(١) المرجع السابق

(٢) قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله ص١١٩-١٢٧

تأبينه مقالات مؤثرة، وانهالتْ على أسرته التعازي من أنحاء العالم الإسلامي.

وإلى القارئ ما كتبَ عنه الشاعر السعودي الدكتور عطية بن عتيق الزهراني، أستاذ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة:

الشيخ يونس بنى للعلم مـــدرسة ... تـسمو بطـلابها فـي قـمة الجبــل

لم تثنه شاهـــقات عـــن مـــأربه ... دستوره الصبر والإخلاص في العمل

دعا إلى نهج رب لا شـريـك لـــه ... منهاج من هو معصوم عن الـخلـل

وأدخل في الدين من كانت عقيدته ... عبادة النار والأحـــجار والـــفيـل

يسعى بجهد حثيث غير مقتصـد ... في جهـــده فهـو جهـد غير مفـتعل

يرعى اليتامى ويسهر لأجل راحتهم ... وينـفق الـمال لا يخشى من العـطـل

الفراغ الكبير الذي تركتْ وفاتُه في كيان الأمة المسلمة في بنغلاديش، لا يزال ينتظر من يسدّه، فالحركة التنصيرية في معظم أنحاء بنغلاديش بعموم، وفي المناطق الجبلية بخصوص التي قضى الشيخ يونس حياته كلها في مقاومتها، تقوم الآن على قدم وساق، وها نحن نسجل هذه السطور وبابا الفاتيكان فرانسيس في داكا مع آلاف المنصرين! يخطّط تنصير الدولة بشكل جديد! هل من يونس يقف في وجه المنصرين؟ ويردّ كيدَهم على نحورهم؟

مولانا أبو الحسن

(١٩١٨- ١٩٩٢)

المحدث الكبير، العالم الشهير، صاحب «تنظيم الأشتات في شرح المشكاة»

في عام ١٩١٨م أنجبتْ قرية «دهورانغ» بمحافظة شيتاغونغ رجلا عظيما في التاريخ، وشيخا ضليعا في التفسير، وعَلما من أعلام الحديث، ومؤلفا جليلا لكتاب قيم في السّنة، لو قدّر لعلمه أن يتخطى حدود وطنه إلى الوطن الإسلامي الكبير، ولو قدّر لكتابه أن ينتشر بين العالم العربي، لعرف العالم عبقريّة هذا الإنسان، ولكان له شأن غير شأنه اليوم، إلا أن جهوده انحصرتْ في حدودٍ ضيّقة، ودُفنت إنجازاته تحت أطمار الإهمال، أو الغفلة على الأقل، فلم يعرفه وطنه، ولم يعرفه أبناء وطنه، فضلا عن العرب، وفضلا عن العالم، هو شيخ التفسير، والمحدّث النابغة، العلامة الحافظ أبو الحسن، صاحب كتاب «تنظيم الأشتات في حلّ عويصات المشكاة».

ميلاده ونشأته

وُلد أبو الحسن في أسرة مسلمة شريفة معروفة بالصلاح والتقوى، إلا أنه فقد والديه في طفولته، ونشأ في كنف شيخ ربّاني، ومدير مدرسة عربية، الشيخ مولانا نور أحمد، فدخلَ الصبي في مدرسته، واستظهر القرآن وهو لم يبلغ الثانية عشرة من عمره، فكانت هذه النشأة خير عوضٍ عن يتمه، وكان لها أثر كبيرٌ في حياته، وتكوين شخصيته وعقليته، وبناء مستقبله، وهذا هو سنّة الله مع الناس، إلا أن الناس بعقولهم الضعيفة، ونظراتهم القاصرة، وآفاقهم الضيقة، يعجزون عن إدراكها، وهذا هو القدر، سرّ الله في الكون.

دراسته وطلبه للعلم

تلقى الصبي أبو الحسن الدراسة الابتدائية في مدرسة الشيخ نور أحمد في قريته، ثم ذهب إلى جامعة هاتهزاري عام ١٩٣٩م، ودرسَ فيها لمدّة سنة، إلا أنه لم يجد فيها قرارَه، وأحس بقلب طموح يطمح إلى ما هو أكبر، وأحسن، وأكمل، وهنا ألقى الله في روعه شوقا كبيرا إلى دار العلوم ديوبند، فخرجَ إلى الهند عام ١٩٤١م، ودخلَ في رحاب جامعة ديوبند، وبذلك انضمّ إلى أكبر وأعزّ موكب علمي عرفَه تاريخ الهند المعاصر خصوصا، وتاريخ العالم عموما، فدرسَ فيها سبع سنواتٍ، التفسير والحديث، والفقه، واللغات والآداب، وعلم الكلام والمنطق، على أيدي العلماء الأفذاذ، والأساتذة البارزين في عالم العلوم والمعارف، أمثال العلامة حسين أحمد المدني، والشيخ شبير أحمد العثماني، والعلامة إبراهيم البلياوي، والشيخ إدريس الكاندهلوي، والشيخ إعزاز علي رَحِمَهُمُاللهُ.[١]

عادَ أبو الحسن إلى الوطن، وبدأ مرحلة جديدة في الحياة، فتولى التدريس في المدرسة التي كانت فيها بداية دراسته، وبعد فترةٍ ذهبَ إلى جامعة فتية، وبدأ العمل كمحدّث على طلب من مؤسسها الشيخ المفتي عزيز الحق، وبقي فيها ثلاث سنوات، يدرّس التفسير والحديث والكتب الأخرى، وهنا جاءَ الشيخ العلامة عبد الوهّاب رئيس جامعة هاتهزاري، وخليفة مولانا أشرف علي التهانوي، وقد كان من أحب الأساتذة إليه، وأرحمهم به، وأقربهم منه، فدعاهُ الشيخ إلى جامعة هاتهزاري، ولم يكن من أبي الحسن إلا أن ينقاد له، ويستجيب لدعوته، وهكذا انخرطَ في سلك أعضاء هيئة التدريس بجامعة هاتهزاري ليضيف أعزّ وأفخر ريشة إلى تاجه.[٢]

في محراب التدريس بجامعة هاتهزاري

منذ ذلك الحين ظلّ معظم حياته في جامعة هاتهزاري، يدرّس التفسير، والحديث، والفقه، والمنطق، والفلسفة، والأدب العربي، وكان كل لذّته في الدراسة والتدريس، والإنشاء والتأليف، يرى فيها متعةً وكرامة، فكان إنسانا علميّ الاتجاه بصفته الغالبة، يفضل العمل في هدوء وصمت، ويحبّ الأعمال العلمية البنّاءة، وقد درّس الصحيحين، وسنن أبي داود، والنسائي، والتفسير للبيضاوي، والهداية لعلي بن أبي بكر المرغيناني سنين طويلة، وقد كانت له دروسٌ في بعض الكتب التي تعدّ من الأمهات في

(١) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين، ص١٩٣

(٢) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري، ص٣٩

المنطق والكلام، مثل سلّم العلوم للعلامة محب الله بن عبد الشكور، وشرحه للقاضي مبارك، وشرح حمد الله السنديلي وغيرها، وظلّ من الأساتذة المعدودين في جامعة هاتهزاري، الذين كان لهم أسلوب فريدٌ في التدريس، وكانت لهم مكانةٌ رفيعة وعليهم إقبال كبير من الطلاّب، ومن أبرز تلامذته الذين تربّوا على يديه وتلقوا منه، ثم قاموا بدورٍ كبير في الدعوة والإصلاح، وقيادة الشعب والدولة، الشيخ مولانا ضمير الدين النانوبوري رئيس الجامعة العبيدية بـ«نانوبور» الأسبق،[١] والشيخ المفتي عبد الرحمن المعروف بفقيه الملّة، والشيخ العلامة شاه أحمد شفيع رئيس جامعة هاتهزاري، وشيخ الحديث تفضل الحق، والمفتي إظهار الإسلام الرئيس المؤسس لجامعة «لال خان بازار» والأمير الحالي لـ«حركة نظام الإسلام»، والشيخ عبد القدّوس رئيس الجامعة الإمدادية بـ«فريدآباد» داكا والأمين العام لـ«الوفاق» وغيرهم.

عمله الخالد: تنظيم الأشتات في شرح المشكاة

من أهمّ مآثر هذا الإنسان العظيم، وأبرز شاهد على جهاده وجهوده التي بذلَها طيلة حياته في سبيل الدراسة والكتابة، والتدريس والتأليف، كتابه الخالد «تنظيم الأشتات في شرح المشكاة» الذي صبّ فيه عصارة فكره، وخلاصة قلبه، ودموع عينيه، كتبَه الشيخ في ثلاثة مجلدات ضخمة باللغة الأردية، لكونها لغة الدراسة والتدريس، ولغة الحديث والمحاضرة، واللغة السائدة في أوساط العلماء في ذلك العصر، وقد اختارَ اللغة الأردية، دون العربية أو البنغالية، ليعمّ النفع، وليكون أقرب إلى ذهن القارئ وأسهل عليه فهما وتلقّيا، فالعربية مثلا كانت فيها أكثر من شرح، ومن أبرزه كتاب الشيخ الملا علي القاري «مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح»، وكان هذا الكتاب يستغني القارئ عن غيره، فلا داعي أن يبرز كتابٌ جديد باللغة العربية، ثم هذا الكتاب بلغته وأسلوبه وإحاطته وتوسعه الكبير، لم يكن يتناسب مع مستوى الطلاب، أما البنغالية فكانت منحصرة في مناطق البنغال، وكانت الفائدة

(١) هو الشيخ الكبير العلامة ضمير الدين بن عبد الغفور النانوبوري، وُلد عام ١٩٣٧م بمحافظة شيتاغونغ، درسَ المراحل الابتدائية في مدرسة قريته، ثم دخلَ في دار العلوم هاتهزاري، وتخرج منها في مرحلة التكميل على أيدي الأساتذة الكبار، أمثال المفتي الأعظم فيض الله، والشيخ عبد القيوم، والشيخ العلامة أبو الحسن رَحِمَهُاللهُ، وفي عام ١٩٦٥ تولى التدريس في الجامعة العبيدية بـ«نانوبور»، تحت رعاية شيخه ومرشده سلطان أحمد النانوبوري، ثم تولى رئاستها في حياة شيخه عام ١٩٨٥م، كان عارفا من العارفين، وعابدا من الطراز الأول، وقد بايع الشيخ سلطان أحمد النانوبوري ونالَ منه الخلافة، وكان داعية كبيرا ومصلحا عظيما، وقد اهتدى به كثيرٌ من غير المسلمين، وتأسست مدارس دينية كثيرة على يده، وتحت إشرافه، وكان نموذجا رائعا في مكارم الأخلاق، وغاية في التواضع، ومحبّا لمرشده إلى حدّ الإعجاب، فكان يكرر ذكره دائما ويشكره فضله عليه، وتوفي عام ٢٠١١م، ودُفن بجوار مرشده في مقبرة الجامعة العبيدية.

تقتصر على علماء وطلّاب هذه المنطقة، بينما كانت الأردية في طور الانتقال والتطوّر، ولم يقرّر مصيرها بعد في الأوساط العلمية.

وقد نال هذا الكتاب قبولا واستحسانا، وتلقّى رواجا عظيما، وإعجابا كبيرا في الأوساط العلمية داخل شبه القارة الهندية وخارجها، وكان آية في الإفادة، فاستمرّت طبعاته، وصدرتْ عليه عدّة تعليقات وحواش، من أهمها «التعليقات على تنظيم الأشتات» للشيخ غلام النبي القاسمي، أستاذ الحديث بدار العلوم ديوبند (الوقف)، وأثنى على الكتاب عددٌ من كبار العلماء في الهند وباكستان، بمن فيهم الشيخ أنظر شاه الكشميري، نجل العلامة أنور شاه الكشميري، والشيخ العلامة سليم الله خان، والعلامة المفتي محمد تقي العثماني وغيرهم، لا شكّ أن هذا مفخرةٌ عظيمةٌ لدولة بنغلاديش خصوصا، لأن بهذا الكتاب تدخل هذه الدولة ولأوّل مرّة في تاريخ جديد، وهو تاريخ لخدمة الحديث النبوي، فالهند أنجبتْ في هذا المجال عددا هائلا من العظماء الذين كانوا منارا وأعلاما في تاريخ السنة، دراسة وتدريسا، شرحا وترجمة وتعليقا، وجمعا وتأليفا، وتاريخ الهند زاخرٌ وغنيّ بأمثال هؤلاء الأعلام، أما بنغلاديش رغم وجود بعض الإنجازات، وبذل بعض الجهود، وتسجيل بعض الفصول، إلا أن جهدا بهذا النطاق الأوسع وبهذا النوع الأروع كان لأول مرّة يحدث في تاريخها، وكفى به ذلك فخرا واعتزازا.

مؤلفٌ لم يوف حقّه من الشكر والاعتراف

إلا أن الأرض التي اشتهرتْ بعقمها وعقرتها، وإهمالها لإنجازات أبنائها، وإهدارها للجهود الضخمة العظيمة التي بذلها أفلاذ كبدها على مسير التاريخ، عادَت تلك الظاهرة لهذا الإنسان على شاكلتها القديمة، فأهمل علماؤها هذا الجهد العظيم، وأصبحت مكتباتها تكاد تخلو عن هذا السفر القيّم، وجاء جيلٌ من طلاّب المدارس الدينية، والمراكز العلمية الشرعية، لا يعرفون هذا المؤلّف، ولا يعرفون كتابَه، بل ولا يعرفون اسمه، ولا يجدون من يعرّفهم به، ويعرض عليهم كتابَه، هكذا جاء الانحطاط والاضمحلال، وظلّ يقلّ إقبال الناس، واستمرّت الحالة على هذا المنوال، حتى أصبح لا تتكرّر طبعاته، وبقيت بعض الطبعات القديمة والنسخ البالية مبعثرةً نخرةً في بعض المكتبات، نسجت عليها العنكبوت، وأكل عليها الدهر وشرب! وقد كان هذا الكتاب، لو قدّره علماء هذا البلد، واعتنوا به عناية يستحقّها، ولو نهض بعض الأرواح القويّة، والضمائر اليقظة الواعية، وجمعوا شتاتَها، وترجموا هذا السفر القيّم إلى اللغة العربية، لكان ذلك خدمةً جليلةً، وإنجازا خالدا، وتاريخا عظيما، لا للمؤلف وحدَه، بل لهذه الدولة بكاملها، وإبراز دور علمائها في تاريخ الحديث والسنّة النبوية.

أعماله العلمية الأخرى

كان الشيخ العلامة أبو الحسن صاحب قلم سيّال فياض، فقد كتبَ بجانب كتابه القيم مؤلفات كثيرة، بعضها بالأردية، وأخرى بالبنغالية، من أبرزها: ◊ تفسير سورة الفاتحة (البنغالية) ◊ تنظيم الدراية في شرح الهداية (بالاشتراك) ◊ الفتوحات الإلهية (الأردية) وغيرها.(١)

صلته بالله

رغم الاشتغال بالتدريس والتأليف، كان رجلا روحانيا في صميمه، وعابدا زاهدا، قانتا لله، وعارفا من العارفين، وقد اعتنى بالتزكية والسير على درب السلوك منذ أيام دراسته، فبايعَ الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله خليفة الشيخ التهانوي رحمه الله، ثم بايعَ الشيخ عبد الوهّاب رحمه الله، وعندما توفي الشيخ جدّد بيعته لدى الشيخ محمد الله الحافظجي رحمه الله، ونال منه الإجازة في السلوك.(٢)

إلى رفيقه الأعلى

في عام ١٩٩٢ للميلاد أكمل هذا الإنسان رحلتَه في الدنيا، وانتقلَ إلى رفيقه الأعلى، وخلّف وراءه كوكبةً من الأبناء والأحفاد هم خير خلف لخير سلف، فقد تخض من ذريته كثيرٌ من أئمة العلم والمعرفة، وقادة الجهاد والدعوة، وزعماء الإصلاح، والأساتذة البارزين، والكتّاب والمؤلفين، ورؤساء المدارس، ومؤسسي المراكز العلمية والعربية، وعلى رأسهم العلامة جنيد البابونغري، الأمين العامة لحركة «حفاظت إسلام»، كما خلف كتابَه الخالد «تنظيم الأشتات» الذي ينتظر الباحث المخلص الذي يحيط به، والقلم البليغ الذي يترجمه وينقحه، والقلب الجريء الذي يقدّمه إلى العالم العربي.

---

(١) تاريخ دار العلوم هاتهزاري، تأليف مفتي حبيب الله، ص٦٦٣

(٢) الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة حبيب الله الجهري، ص٤٠

مولانا علي أكبر

(١٩٠٨-١٩٩٣)

العالم الرباني، والداعية إلى الله على بصيرة

البيت الذي بناه مولانا محمد إلياس الكاندهلوي في «ميوات» عام ١٩٢٦م للميلاد، كان بيتا مباركا، ممتلئا بالنور والإيمان، والربانية والنيّة الصادقة الصالحة، فامتدّ نورُه إلى معظم بقاع الدنيا، وأنار البلاد والعباد، وجاءَ انقلابٌ فريدٌ في الإخلاص والإيثار، وبدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ في تاريخ الدعوة والإصلاح، وقد وصلَ شعاعٌ من هذا النور وقبسٌ من هذه النار إلى داكا عام ١٩٥٠م، على يد زمرة نورانية من أعلام هذه الدولة، هيأهم الله ليتحمّلوا أعباء هذه التبعة الكبرى، والأمانة العظمى، وكان على رأسهم المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، والشيخ مولانا محمد عبد العزيز[1] وغيرهما رحمهم الله، ومن هنا رحلة الإيمان التي بدأتْ قبل أكثر من ثمانية وستين عاما ونحن نكتب هذه السطور في عام ٢٠١٨م، لا تزال في مسيرها، وتواصل سيرَها، وقد كان واحدٌ من ذلك الموكب الإيماني المبارك، بطل هذه القصّة الشيخ مولانا علي أكبر رحمه الله.

إنسانٌ نذرَ وقتَه وحياتَه على الدعوة والتبليغ، وقضى حياتَه في الطرق والشوارع، والقرى والأرياف،

---

[1] هو الشيخ الرباني مولانا محمد عبد العزيز بن الشيخ مصاحب الدين، أول من اختير أميرا لجماعة الدعوة والتبليغ في دولة بنغلاديش، ولد عام ١٩١٠م في محافظة «خولنا»، ودرسَ الابتدائية في قريته، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في المدرسة العالية بكلكتا، وتخرّج في مرحلة الكامل عام ١٩٣٥م، ثم عادَ إلى وطنه وبدأ التدريس في كتاب قريته، ثم درّس في مدارس أخرى، إلا أنه بعد فترةٍ تعرّف على «جماعة الدعوة والتبليغ»، فلدرسَها عن كثب، وأعجب بهذا الأسلوب الفريد في تاريخ الدعوة المعاصر، فخاضَ غمارها، ووقفَ حياتَه كلّها على الدعوة والإصلاح، وكان المجاهد الأعظم مولانا الفريدبوري خير عون له في هذه المهمّة، بل كان ينبوع هذا الخير، وقد اختير الشيخ عبد العزيز أول أمير لهذه الحركة في بنغلاديش، وأدى خدمة جليلة لن تنسى إلى هذه الجماعة، ثم إلى البلد بأسرهم، وسافرَ إلى بلدان شتى لهذه الدعوة، وبلّغ رسالتها إلى شعوب العالم، وقد توفي عام ١٩٨٨م، رحمة الله عليه.

والجبال والكهوف، ماشيا على الأقدام، حافيا جائعا طاويا، منذ ذلك اليوم الذي عرفَ فيه الشيخ إلياس الكاندهلوي، ورآه وجها لوجهٍ، والتقى قلبٌ مع قلب، فالشعلة التي أخذها في متقبل عمره ظلّ تتوقّد في روح هذا الإنسان إيمانا وشجاعة، وإصلاحا واحتسابا، حتى بذلَ حياتَه في الله، وفي الدعوة إلى الله، وأصبح من كبار الدعاة في تاريخ هذه الدولة، ومن قادة المربّين والموجّهين في «جماعة الدعوة والتبليغ».

الميلاد والنشأة

ولد علي أكبر في قرية «شام باري» بمحافظة «براهمن باريا» عام ١٩٠٨م للميلاد، في أسرة مسلمة متواضعة، رقيقة الحال، تتخذ من الزراعة مهنة لها، لكن غنية القلب، حافلة بالإيمان واليقين، والصلاح والتقوى، فقد كان أبوه الغازي المنشئ إسكندر علي التشودري مزارعا بسيطا، وإماما في المسجد، لكن كانت له أواصر متينة مع العلماء الكبار، فكان بيته ملتقى الأولياء، وروضة الصالحين، ولم يكن ملتقى الأثرياء ومسرح المترفين.

بدأ الدراسة عند أبيه، ثم درسَ في مدارس كثيرة، بما فيها الجامعة الإسلامية دار العلوم بـ«برورا»، وكان من أصفى وأبرز تلامذة الشيخ مولانا ياسين[1] في جامعة برورا، كما درسَ فترةً في الجامعة الإسلامية اليونسية بـ«براهمن باريا»، وتزوّج أثناء دراسته وأيام تحصيله، وبدأ مهمّة الدعوة والتبليغ من بيت هذا القريب الجديد، وأقام مجالس التعليم والتربية، فكان أول ساحة لجهاده، ومنطلق حركاته.

ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في دار العلوم ديوبند مضطرب البال، ومشتت الفكر، ومنهوك القوى، لا يقرّ له قرارٌ، يفكّر في حال الأمة، ويبحث عن طريق أمثل للقيام بواجب الدعوة، وإصلاح ما فسدَ من الإيمان والعقائد، حتى حصلت المعجزة، وجاءَ الفرج من الله، واطمأن القلب، واستقرّ البال، فقد جاءَ

(١) الشيخ مولانا ياسين بن دانش محمد الميانجي، الرئيس الرابع لـ«دار العلوم برورا»، وُلد عام ١٨٨٢م في «برورا» بـ«كُميلّا»، درسَ في المدرسة الإسلامية بـ«نواخالي»، ثم درسَ في دار العلوم ديوبند، وبعد التخرج تولّى التدريس في دار العلوم برورا عام ١٩٢٧م، فاجتهدَ، وجاهدَ، وأصبح موضع الثقة والأمانة عند الجميع، حتى أنيطت به الأمانة الكبرى، وتولّى رئاسة الجامعة عام ١٩٤٤م، وظلّ في هذا المنصب حتى نهاية عهده بالحياة، وقد خرّج علماء ودعاة كبارا في هذه الفترة الكبيرة الممتدّة على أربعين عاما، وكان من أبرزهم الشيخ علي أكبر بطل هذه القصة، والشيخ نور حسين القاسمي، العالم المجاهد، والسياسي الكبير، والمتخرّج في مدرسة الشيخ حسين أحمد المدني الفكرية والسياسية، ورئيس الجامعة المدنية بـ«بريدارا» داكا وغيرهما، كما كان رجلا إنسانيا، وكان عبقريا في القضاء، وإصلاح ذات البين، حتى كان المفتي الأعظم فيض الله يقول: "لو قامتْ في هذه الدولة حكومة إسلامية، لكان الشيخ ياسين قاضي القضاة لها"، وكان مبايعا لدى الشيخ المدني، وبعد وفاة المدني بايع الشيخ الرباني سلطان أحمد النانوبوري، ونال منه الخلافة، وقد توفي الشيخ عام ١٩٦٨م.

يومٌ من الأيام ببشارة قدوم العلامة يوسف الكاندهلوي في رحاب ديوبند، ففرعَ إليه الشاب علي أكبر، وفاتحه في أمر قلقه واضطرابه، فهدّأ الشيخ من روعه، وصحبه في أسفاره وجولاته، وخرَج في سبيل الدعوة إلى الله مع هذا الداعية المجاهد، وسافرَ معه من ديوبند إلى «مُلتان»، مسافةً طويلةً، وبقاعا ممتدّة واسعة، كان له أثرٌ كبيرٌ في حياة أكبر علي، ثم بقي في «ملتان» أياما يقوم بالدعوة والتبليغ، وبعد فترة عادَ إلى مسقط رأسه، حافلا بالعلم والإيمان، ونابض القلب بالدعوة والإصلاح، وعامر الفؤاد بالربانية والإحسان.

في موكب الدعوة إلى الله

هبّ الشيخ علي أكبر يعمل عمله الدعوي، ويحثّ الناس على المشاركة في هذا الموكب المبارك، حتى نهض بعض الناس، وفيهم علمٌ من الأعلام العلامة تاج الإسلام المعروف بفخر البنغال، وتكوّنت جماعةٌ صغيرةٌ، إلا أن فئة قليلة في عددها وقوية في نظامها ومنهجها ومرصوصة في صفها قد تتفوّق الفئات الكبيرة، وتأتي بالعجائب، فكانوا يجتمعون في اليوم التاسع من كل شهر هجري في رحاب الجامعة اليونسية، ويتتبّعون مسير الدعوة، ويتناقلون قصص البطولة والتضحية، ويتناقشون المهمّة التي يجهدون في سبيل تحقيقها.

في الوقت الذي كان الشيخ علي أكبر وأصحابه يجاهدون، ويعملون أعمالَهم الدعوية في محافظة «براهمن باريا»، في زمرة صغيرةٍ متواضعة، كانت ثمّة جماعةٌ مؤمنة كبيرة تعمل عملَها وتؤدي دورَها في حي «كاكرائيل» بداكا العاصمة، تحت رعاية المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، والداعية الكبير والمصلح الرباني الشيخ مولانا عبد العزيز رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، فما إن سمعَ الشيخ علي أكبر هذه البشارة الكبرى إلا سُرّ بها، وتملّكه الحماس للعمل والجهاد، وأنشأ بهم صلةً وطيدة، وظلّ يعمل في «براهمن باريا» بجانب التدريس في مدرسةٍ من مدارسها الدينية.

بعد فترةٍ تركَ المدرسة وقرأ السلام على التدريس، ونزلَ في ساحة التربية الكبرى، وتعليم الناس الإيمان واليقين، فمضى قدما إلى مسجد «كاكرائيل»، المقر الرئيسي للدعوة والتبليغ في هذه الدولة، وظلّ يمضي أيامَه ويواصل ليله بنهاره في الدعوة، والإصلاح، والتعليم والتربية، وترتيب الجماعات، والإرسال واستقبال الوفود، حتى فتح الله على هذا القلب المؤمن، وأصبح مع الأيام ركنا من أركان الدعوة في هذه الديار.

المعاناة في سبيل الدعوة

إن سلسلة من البلاء والمصائب اللامتناهية التي تجرّعها هذا الإنسان العظيم، والمعاناة التي ذاق مرارتَها في سبيل الدعوة والإصلاح طوال حياته، يحتاج إلى سفرٍ كامل طويل لو يقوم أحدٌ بتسجيلها، وليعدّ ذلك العمل تحفةً نفيسة في تاريخ الدعوة، وأدب الرحلة، إلا أننا نستطيع في هذا المكان أن نقدّر جزءا من جهوده وجهاده بنظرة عابرة في أول رحلة دعوية له، لنرى من خلالها حجم المعاناة وثقل المهمّات التي تجشّمها في تلك الرحلة، فكانت الرحلة من مسقط رأسه «براهمن باريا» إلى «شيتاغونغ» وبينهما مسافةٌ تبلغ أكثر من ٢٠٠ كيلومتر، قطع الشيخ هذه المسافة الطويلة كلها مشيا على الأقدام، ولم يمرّ بقرية إلا مكثَ فيها، ودعا الناس إلى الله، وأصلح الإيمان والعقيدة، وبثّ نور التوحيد والرجوع بهم إلى الدرب الذي سلكه الأولون، وقد مضت عليه عدّة أيام في هذه الرحلة لم يجد فيها إلا ماءً فاكتفى به عن مسألة الناس، لأن الدعوة من عناصرها الأساسية وأركانها الركينة أن لا تُقابل بالجزاء والشكر، وهذا من سنّة الأنبياء والمرسلين ﷺ، فإن الدعوة إذا اختلط معها شيءٌ من المادّة والمقابلة تخفّف من أثرها، وتحطّ من ثقلها وعظمتها، وتوسوس في قلوب الناس حول إخلاصها، واحتساب القائمين بها، لذلك أخذ الشيخ بهذه السنّة السرمدية وهو يعتزّ ويتشرّف بالانتساب إلى هؤلاء العظام، ويظنّ نفسه وارثا لهم في جهادهم وجهودهم، ومعاناتهم ومحنهم، وشرفهم وكرامتهم، وقيمتهم عند أهل السماء ومكانتهم من الله، وهكذا انتهت الرحلة الدعوية الأولى لهذا الداعية المجاهد، فكانت رحلة مباركةً في تاريخ الدعوة والتبليغ في هذه البقعة.

صلته بربه وجهوده في إصلاح نفسه

كان الشيخ مثالا حيّا رائعا في العبادة والزهد، والتقوى والصلاح، والتفاني في سبيل الدعوة والاستماتة في إصلاح الأمة، واختيار ما عند الله على ما عند الناس، وكان مبايعا عند الشيخ مولانا سعيد أحمد رحمه الله في السلوك والربانية، ثم جدد بيعته على يد الشيخ مولانا دلاور حسين، خليفة الشيخ حسين أحمد المدني، ونالَ منه الإجازة، وكان محافظا على الفرائض مع الجماعة، ومعتنيا بالتطوعات والمستحبّات، بل جُعلت الصلاة قرة عينه، وكلما يقرع مسامَعه صوتُ الأذان تعتريه حالةٌ غريبةٌ، ينسى كل شيء، ويتجاهل ما حوله، حتى لا يكاد يعرف أعرف الناس إليه، وأقربهم في مجالسه، وكان يقرأ القرآن دائما، غضا طريا، ويذكر الله كثيرا، لا يختلف ذلك في حلّه وترحاله، وكان يقوم الليل على نهج

رسول الله ﷺ؛ فلا ينام بكامله، بل يوزّعه على الصلاة والسبات، يغفو ويصحو، ويصلي ويدعو، حتى ينبثق الفجر، وكان ذلك ديدنه طوال حياته.

وكان مؤثرا للصمت، ومحتسبا، منصرفا عما لا يعنيه، فلا يتحدّث إلا فيما يعنيه، ويكتفي بقدر ما يعنيه، وعندما كان يتحدّث يصبح محطة أنظار الناس، وموطن إقبالهم، يستمعون إليه كأن على رؤوسهم الطير، ويكرر "أحبائي! إخواني! أعزائي!" بصوتٍ ملؤه الحب الخالص، والمودّة العميقة الجذور، يجيش به صدر المستمعين، ولا يكاد يتمالك أحدٌ على البكاء والدموع، كما كان دائم الفكر عن الجماعات والبعثات، وأحوال الدعاة ومصالحهم، ويبرز ذلك في شهر رمضان بوضوح وجلاء، فكان يدور ويجوب في مخيمات الصائمين قبل الإفطار، ويشرف على حوائجهم، وينسى نفسَه.

وقد اتّخذ مسجد «كاكرائيل» ومركز الجماعة منزل حياته، ومقرّ عمله، فكان يسكن في حجرة صغيرة في المركز، ويشرف على البعثات الدعوية الصادرة أو العائدة، ويراقب سير العمل، والتطورات، والمعاناة، ويخطّط، ويدعو الله لنشر دينه في طول الدنيا وعرضها، حتى لما انتابه المرض الذي ماتَ فيه، لم يترك مركز الدعوة، بل بقي فيه إلى وفاته عام ١٩٩٣م، حتى جاءَه الأجل المحتوم وانتقل إلى رفيقه الأعلى.[1]

---

(١) استفدنا في إعداد هذه الترجمة من كتاب الذين ورثناهم: حياة وأعمال مئة من العلماء والمشايخ، للشيخ مولانا حبيب الرحمن، ص٢٩٣، وتراجم كبار علماء براهمن باريا، تأليف مولانا جاويد حسين، ج ١ ص٢٤٤

مولانا أبو الحسن الجسري

(١٩١٨-١٩٩٣)

العالم المجاهد، المقاوم للطغاة، والمدافع عن الأمة

لا تزال أرض «جسر» تعتزّ- وحق لها أن تعتز- بهذا الإنسان الفريد، وتفتخر بمآثره الخالدة، وخدماته الجليلة إليها وإلى أهلها، وتتغنى بمجد ابنها النبيل، وعزّه، وكرامته وجلالته، وتشكره على جهوده وجهاده، وتضحياته وفدائه، ودموعه ودمائه، التي صبّها في سبيل تحريرها وتطويرها، وإصلاحها وإخصابها، وتعميرها وبنائها، تعميرا عقديا، وبناء دينيا وإيمانيا، ولقد عاشَ في عصر يعدّ من أدق عصور هذه البلاد، وأكثرها اضطرابا فكريا وسياسيا، واجتماعيا، فنشأ في هذه الوضعية المضطربة، وشاهد تقلبات الدهر وتداول الأيام بعينيه، إلا أنه تغلّب على الاضطرابات والصعوبات، ومشكلات العصر، واتجاهات المجتمع، وخرجَ في النهاية فارسا مجليا، هو الشيخ الجليل، والمجاهد الباسل، العالم المثالي، حامل تراث الشهيد السيد تيتومير والحاج شريعت الله، العلامة أبو الحسن الجسري رَحِمَهُ اللهُ.

ميلاده ونشأته

في العهد الذي أنجبته قرية «بهَوَنِيبور (Bhabanipur)» بمحافظة «جهينايده (Jhenaidah)» عام ١٩١٨ للميلاد، كانتْ تئن في ليلة مكفهرّة من الظلم والطغيان، ليلة لا تنتظر الصبح الصادق، ولا الفجر المنير، وكان المجتمع المسلم في أحطّ أدوار التاريخ، يعيشون تحت سطوة الهندوس وسياطهم، ويأكلون من فتاتهم، وكانوا لا يستطيعون القيام بشعائر دينهم والاحتفال بمناسباتهم، فكان ذبح البقر- وهي أمّ لهؤلاء البشر- ممنوعا في هذه المنطقة، وجناية كبرى تكلف الإنسان ثمنا باهظا، وقد تكلف الحياة! حتى وُلد هذا الطفل، فكان ميلاده بشارةً كبرى لهم، كأن المؤذن جاءَ وبدأ يؤذن لصبح قريب،

وبمستقبل مشرق منير، وقد وُلد الطفل لوالدٍ مجاهد غيور على دينه، ومدافع عن عقيدته وشريعته، الشيخ مولوي محمد علي، الذي جاهد جهادا كبيرا ضدّ الهندوس المتطرفين في مواطن كثيرة، وكانت له مكانةٌ كبيرة في قلوب المسلمين،[1] فتوارث الطفل هذا الدم الحارّ المتدفّق، وتوارث جرأة مجاهد، وشجاعته وبطولته، وكانت الأيام تنتظر دورَه.

تحصيله للعلوم المدنية

بدأَ أبو الحسن الدراسةَ عند والده، ثم درسَ في كتّاب قريته، وبعد التخرّج من المدرسة الابتدائية الحكومية دخلَ في مدرسة ثانوية، واجتازَ مرحلة الثانوية بتفوّق وامتياز، وكان معروفا بفرط ذكائه، وقوة ذاكرته، وسرعة بديهته، ودقة حفظه منذ صغر سنّه، فلما كان في الصف السادس من المتوسّط أتقن الإنجليزية، وكان يجيدها كتابةً وتحدّثا، ثم دخلَ في «كلية ماغورا».

لا ندري الدافع الذي من أجله وضعه والده في مدرسة حكومية دون مدرسة دينية، رغم علمه وربانيته، وجهوده وجهاده للدين والأمة، فكان من المتوقّع أن يدخل ابنَه في المدرسة الدينية، ويربّيه على القرآن والسنّة، ويعدّه للجهاد الذي جاهدَه طوال حياته، مع ذلك قدر الله كان مفعولا، وكان الله غالبا على أمره، وتم دخول أبي الحسن في التعليم المدني.

من «كلية ماغورا» إلى دار العلوم ديوبند

أثناء الدراسة في «كلية ماغورا» جاءت نقطة تحوّل في حياة أبي الحسن، وفجأة أحسّ بشوقٍ كبير إلى العلوم الدينية، والتعرّف على القرآن والسنّة، وفي يومٍ من الأيام خرجَ من بيته خفية، وبلا علم أحد من أعضاء أسرته، وسافرَ إلى الهند، ودخلَ في مدرسة بمنطقة «فتح بور (Fatehpur)» في دهلي، بعد جهود مستمرّة ومعاناة متتالية، لأنه لم يكن يضع قدمه في رحاب مدرسة دينية يوما من أيام حياته، فكان لا يجيد الأردية وهي لغة التعليم والتدريس في المدارس الدينية، وفي الأخير تبوّأ مكانا في المدرسة ودرسَ فيها ست سنوات، ثم ذهبَ إلى دار العلوم ديوبند، وظلّ ثلاث سنوات في هذه البيئة المباركة التي تفوح علما وذكرا وتسبيحا، درسَ فيها على أيدي الأساتذة الأعلام، أمثال الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ إبراهيم البلياوي، والمفتي محمد شفيع العثماني، والشيخ إعزاز علي، والشيخ حفظ الرحمن، والشيخ فخر الحسن، والشيخ السيد ميان أصغر حسين، والشيخ عبد الحق الحقاني، والشيخ

(١) العلامة أبو الحسن الجسري: حياته وأسوته، تاليف المفتي عبد الله الفاروق، ص ١٣-١٤

القارئ محمد طيب رَحِمَهُمُ اللهُ، ومكثَ تحت رعاية الشيخ المدني مدّة، وبايع على يده، واستفاد من سلوكه وعرفانه، وصعدَ إلى سلّم المعالي.

في محراب التعليم والتربية

كان الشيخ مقيما في دار العلوم ديوبند فإذا به وصلت إلى الشيخ المدني رسالة من بنغلاديش، يطلب فيها المجاهدُ الأعظم شمس الحق الفريدبوري أستاذا ليتولى تدريس الحديث في مدرسة خادم الإسلام بـ«جوهردانغا» التي أسسها العلامة الفريدبوري بنفسه، ووقع اختيار الشيخ المدني على الشيخ الجسري،[1] وعادَ إلى الوطن، وتولّى تدريس البخاري في «خادم الإسلام»، وظلّ فيها على منصب شيخ الحديث إلى عام ١٩٥٩م، ثم ذهبَ إلى دار العلوم المدرسة الإعزازية المعروفة بـ«مدرسة محطة القطار بـجسر»، وظلّ يُديرها إلى آخر عهده بالدنيا.

يُعتدّ العلامة الجسري المؤسس الثاني لدار العلوم المدرسة الإعزازية، فكان مؤسسها الأول الشيخ مولانا محمد فاروق، والد الشيخ الكبير حبيب الله القرشي، أحد مؤسسي جامعة هاتهزاري، إلا أن المدرسة كانت تمشي على الطريق المرسومة التقليدية، وخلت عن الطلابِ الجادين، وساءت الامتحانات، وقل الإنتاج، فلما جاءَ الشيخ أبو الحسن كان فتحا لمرحلة جديدة في تاريخها، فارتفع المستوى الدراسي، وفي غضون فترةٍ يسيرة تقلّبت حالُها ظهرا على عقب، ومن سوء إلى خير، حتى أصبحت من طليعة المدارس العربية والمراكز العلمية في هذه الديار، واعتبر الشيخ حقا المؤسس الثاني لها، ومجددها، ومحييها، ونافخ في صُوَرها، وهو الذي سمّى هذه المدرسة من جديد باسم "المدرسة الإعزازية"، باسم شيخه وأحب أساتذته في دار العلوم ديوبند، شيخ الأدب والفقه العلامة إعزاز علي! يا لمعجزات الحب!!

في موكب «جمعية علماء الإسلام»

برزتْ عبقرية هذا العالم المجاهد في ميدان السياسة، وتسيير دفّة الدولة، وقيادة الأمة، وتوجيه الشعب إلى ما فيه خير له وصلاح، فكانتْ له صلة وودّ حميم مع كبار العلماء، والقادة البارزين في ميدان السياسة، أمثال الشيخ المرشد محسن الدين أحمد دودو ميان، والشيخ مولانا عبد الكريم «شيخ

(١) المرجع السابق، ص ٤١

كوريا»،[١] والشيخ شمس الدين القاسمي، والشيخ مولانا محيي الدين خان، ومولانا القاضي معتصم بالله،[٢] وتولّى نائب الرئاسة لـ«جمعية علماء الإسلام» على امتداد فترةٍ كبيرة، وفي العهد الباكستاني قام بدورٍ قياديّ في مواطن كثيرة، يحاسب الحكام، وينكر عليهم سوء أفعالهم، وفساد أقوالهم، ويذكرهم، وينصحهم، فكانوا يخافون بأسه ويتحاشونه، وكلّما جاء على الإسلام هجومٌ من الحكومة أو من رجال السياسة الزنادقة أو الملاحدة، كان في طليعة من يبارز في الساحة، ويصاول الغارة بالصدور العارية.

وقفاتٌ مع حرب التحرير ١٩٧١م

عندما نشبت المعركة بين شرق باكستان وغربها، ونهضَ الشعب البنغالي ليفتح بابا لصبح صادق، وفجر منير، بعد أن طالت عليهم ليلة بهيمة مكفهرة من الظلم والطغيان، وصبرَ على ذلك أكثر من عشرين عاما، حتى طفحت الكأس، وجاءَ الانقلاب، ونادئ قادة الشعب بضرورة الحرية وحماية الحقوق، وإعطاء باكستان الشرقية حكما ذاتيا، وإنقاذها من الاستعباد السياسي والاحتكار الملكي، لاقتْ دعوتهم في صفوف العوام والخواص ترحيبا وتأييدا، وتلقّاها الناس بحماس وحفاوة، حتى بدأت الأزمة تتصاعد، وفشلت المفاوضات، واشتعلت الحرب، فكانت هي حرب الاستقلال، وحرب التحرير،

---

(١) هو الشيخ الرباني السيد عبد الكريم بن عباس علي، المعروف بـ«شيخ كوريا»، وُلد عام ١٩٠١م في محافظة «سلهت»، لوالد عالم مجاهد، أخذ الدراسة الابتدائية في عدّة مدارس بـ«سلهت»، ثم سافر إلى الهند، ودخلَ في الجامعة الإسلامية بمدينة «أمروها»، وبعد فترة دخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وأخذ العلم على أساطينه، على رأسهم الشيخ حسين أحمد المدني، كما استفادَ من الشيخ المدني في السلوك والإحسان، حتى نالَ منه الإجازة، وكانت بينهما صلةٌ لا تفي بحقّها الكلمات، ومن أبرز مآثره العلمية والدعوية هي تأسيس مدرسة إسلامية كبيرة معروفة بـ«جامعة كوريا»، كما تولّى رئاسة «إدارة التعليم الديني الحرّة»، وهي مجلس تعليم المدارس العربية بمنطقة «سلهت»، وكان من الكبار السياسيين الإسلاميين في تاريخ هذه البلاد، ومن طليعة قادة «جمعية علماء الإسلام»، وقد اختير رئيسا لها أكثر من مرة، ودخلَ في السجن مرارا، وكان عابدا زاهدا، عارفا من كبار العارفين، خرّج جماعةً كبيرةً من العلماء السالكين من مدرسته السلوكية، ومن أبرز خلفائه الشيخ رياست علي المعروف بـ«شيخ تشوْغري»، ومولانا أشرف علي البيسواناتي وغيرهما، وقد توفّي عام ٢٠٠١م بعد حياةٍ حافلة تمتدّ على قرنٍ كاملٍ.

(٢) إنه الشيخ الرباني العلامة القاضي معتصم بالله، يعدّ من طليعة العلماء المعاصرين، ومدير الجامعة الشرعية بـ«مالي باغ» التي هي من مقدّمة الجامعات العربية الإسلامية في بنغلاديش، ولد عام ١٩٣٣م في محافظة «جهينايده»، ودرسَ في دار العلوم ديوبند، وترقّى تحت ظلال الشيخ حسين أحمد المدني، وبايع على يده، كان رجلا عبقريا، جمع المواهب من أطرافها، وكان عالما موسوعيا، وسياسيا بارزا، وقائدا كبيرا، ومؤلفا حكيما، وأديبا أريبا، تولّى التدريس في مدارس كثيرة، وفي نهاية المطاف تولّى رئاسة عدّة جامعات، وكانت الجامعة الشرعية مسك الختام، تولّى رئاستها عام ١٩٩٧م وظلّ فيها إلى ما قبل وفاته، ومن أبرز كتبه «تحديد النسل في ضوء الإسلام»، و«الاتحاد مع الاختلاف» (مجلدان) وغيرهما، كما ترجم بعض الكتب القيّمة، وترك بعض المسودات التي لا تزال تنتظر من ينقحها وينشرها، وكان رجلا إنسانيا، قدم خدمات إنسانية جليلة إلى قومه، وقد قام بدورٍ بليغ في حرب الاستقلال عام ١٩٧١م، وتوفّي عام ٢٠١٣م.

والانتفاضة للحرية، ولم تكن حربا بين باكستان والهند، ولا يصحّ أن تسمّى الحرب الهندية والباكستانية عام ١٩٧١، وإنما هي حرب غير متكافئة بين القويّ والضعيف، والقاهر والمقهور، والغالب على أمره والمغلوب على أمره، وهي ردّ على الظلم، ورفع الصوت ضدّ الاستبداد، وطلب الحقوق الإنسانية اللازمة.

إلا أنها مادامت الحرب كانت بين المسلمين في دولة واحدةٍ، دولة قامتْ قبل فترةٍ قريبة على أساس الإسلام، فالدين هو قاعدة هذه الدولة وحجر زاويتها، ومصدر فكرة إنشائها، ولولا الإسلام لما كانت ثمة باكستان، لا شرقها ولا غربها، فكان العلماء لا يريدون تقسيم دولة مسلمة في دولتين، وتمزيق جسد واحد إلى قطعتين، قطعة ستقوم بدينها مهددة منهارة، وقطعة ستدخل تحت جناح الإمبراطورية الوثنية العظمى، فكان عددٌ من العلماء والأحزاب الإسلامية خلاف هذه الحرب، أو كانوا محايدين، كما كان هو موقف العالم العربي بأسره.

غير أن النظرة الدقيقة الموضوعية في تلك الفترة اليسيرة الممتدّة على عقدين من تاريخ باكستان يؤكد لنا أن الحرب كانت لا محالة، فالدولة التي قامتْ على اسم الإسلام، لم تكن دولة إسلامية في صميمها، ولم يكن حكامها وقادتها ممثلين لدينهم، ولم يكونوا كما ينبغي أن يكون الحكام في حكومة مسلمة، إنهم كانوا حكّاما صغار النفوس، وكبار المطامع والأهواء، يمتصّون دماء الشعب، ويتخمون بجوعهم، فلماذا الصبرُ على الظلم والبلاء، والحالة المخزية الشديدة للغاية؟ ولماذا تحمّل المشاقّ في سبيل لا جدوى فيه، والحلم بمستقبل هوائيّ لا وجود له في عالم الحقيقة؟ فكانت الحرب هي الخطّ الفاصل، والانتفاضة لا بدّ أن تأتي، ولذلك أيّد معظم العلماء حرب الاستقلال، ونظروا إليها على أنها ثورة المظلوم على الظالم، ودفع الجور والاستبداد، وليست حرب المسلمين فيما بينهم، وليست انشقاق جسد واحد في شقين، فباكستان الغربية والبنغال الشرقية لم تكونا جسدا واحدا وروحا واحدة قطّ، رغم التقائهما على المنطلقات والغايات، ورغم تكوين دولة لحين من الدهر، فخاضوا فيها، وجاهدوا في سبيل حرية الشعب بكل ما كانوا يملكون، وضحّوا بكل نفس ونفيس، وغال ورخيص، حتى جاء الفرجُ، وانتهت الحربُ، وأسفرت المجزرة العامّة والقتل الجماعي والنهب والسرقة والغصب والاغتصاب التي امتدّت على فترة تسعة أشهر أو تزيد، أسفرتْ عن انتصار المظلوم على الظالم، وظهرتْ بنغلاديش في خريطة العالم، فكانت وسام فخر واعتزاز للشعب البنغالي، ووصمة عار على جبين الجيش الباكستاني.

بطولة الشيخ الجسري ودور جامعته في الحرب

قام الشيخ العلامة أبو الحسن الجسري بدورٍ أثناء الحرب لا يزال يعتزّ به تاريخ هذه الدولة، وتتغنى بمجده وعزّه أرض «جسر» وأهلها، فكان مجاهدا قياديا في ميدان الحرب، وكانتْ مدرسته معقلا لجيش التحرير البنغالي، وحصنا حصينا للنساء والأطفال والشيوخ، وثكنةً للجنود المتطوّعين، وكان طلّاب مدرسته وأساتذتها شاركوا في الحرب وأصبحوا جزءا مهما من جيش التحرير في «جسر»، حتى تنامى الخبرُ إلى الجيش الباكستاني، وهنا حصلت الكارثة، أكبر كارثة ومأساة إنسانية لا تزال تحز في الشعب الجسري.

صبيحة ٤ أبريل عام ١٩٧١م، انقض الجيش الباكستاني المسلم على مدرسةٍ عربية إسلامية ليفني أهلها عن آخرهم! مدرسة تدرس كتاب الله، وسنّة رسوله، وتبني دعاةً ومصلحين، وتخرّج حماة الإسلام وبناة المجتمع المسلم، فبدؤوا بأعمال القمع والإرهاب، وفتكوا بكل من وقع في أيديهم فتكا ذريعا، وقتلوا كل من لقيهم قتلا جماعيا، حتى حصلت المجزرة، وارتكبوا جناية إنسانية كبرى لا يزال يبوء بها الجيش الباكستاني وعليه وزرها، وكانت المدرسة في أيام الإجازة، فُقتل ٢١ رجلا، بين الأساتذة وطلاب الحديث النبوي، والجنود المتطوّعين للحرب، وأُصيب الشيخ العلامة أبو الحسن برصاص، إلا أن قدره كان حليفا له، فاختفى في دورة المياه، ونجا من الموت، بعد أن جرح جرحا ثخينا، وقد دُفن هؤلاء الشهداء الواحد والعشرون في ساحة المدرسة، ولا تزال هذه المقبرة تشهد على جهاد علماء هذه الدولة ودور مدارسها الدينية وعلمائها في حرب الاستقلال،(١) كما تشهد على مأساة إنسانية ارتكبها الجيش الباكستاني عام ١٩٧١م ضد الشعب البنغالي، فقد صبّوا على هذا الشعب جام الغضب، وبطشوا بهم بطشة جبار لا يعرف الرحمة، ولا يعرف العدل، ولا يعرف الحدود، وتجاسروا على قتل الأبرياء، وهتك أعراضهم، والفتك بالشيوخ والأطفال والعجزة، ما لا يعلّل إلا بالجنون والضراوة، وإهدار الدم الإنساني، ولا يليق بجيش مسلم مثقّف ضد شعب مسلم، ولقد قتلوا من الرجال واغتصبوا من المحصنات من النساء ما لا يحصيه إلا الله، ودمروا هذه البقعة بكاملها، وحولوا من روضة خضراء إلى بيداء قاحلة، ليست فيها إلا روائح الأشلاء المحرقة، والجثث المتعفنة، وحطام البيوت، وعويل الأحياء، وكانت مجزرة هائلة تجدّد ذكرى مذابح هولاكو وجنكيز خان.

(١) انظر تفاصيلها في البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٥٨-٣٦١

إلا أن أعباء هذه الجريمة الفادحة لا تعود على كاهل الشعب الباكستاني العامّ، فإنهم إخوةٌ في الدين، أما الحكومة المستبدّة المتغطرسة، والجيش الطاغي الجبار المحتلّ، القتال السفاك، فلا أخوّة معهم، ولا حسن الظنّ بهم!

صولاته في السياسة والدعوة والإصلاح

ظلّ الشيخ أبو الحسن يستمرّ في جهاده، والدفاع عن الدين وعن الشعب المسلم طوال حياته، ولم تصرفه عن ذلك المعاناة والمحن، والانتقادات والتهديدات، وقد استعد لها وتحمل نارها بجلد وجرأة، وصابر على شدة بأسها بإخلاص واحتساب، حتى عندما نهضَ الشيخ العلامة محمد الله الحافظجي وبرزَ في ميدان السياسة، ودخلَ في انتخاب الرئاسة عام ١٩٨١م، نهضَ الشيخ الجسري وتولّى منصب نائب الأمير لـ«حركة الخلافة»، وساعدَ الشيخ الحافظجي مساعدةً كبيرة.(١)

لما تعرّض «المسجد البابري» في الهند للهجوم، وهدمه الهندوس المتطرّفون، ثار الشعب المسلم في كل بقعة من بقاع الدنيا، وأخذتهم عزّة الدين وشعائره، وقيمة بيت من بيوت الله، فثار الشعب البنغالي المسلم بدعوة العلماء وتحت قيادتهم، وخرجت المسيرة الطويلة التاريخية إلى الهند، برئاسة المجاهد العظيم شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، احتجاجا على ما اقترفه الهندوس من جريمة كبرى، مسيرة هزّت الهند هزًا، كما هزّت الهندوس في كل مكانٍ، وكان للشيخ العلامة الجسري دورٌ كبيرٌ في هذه المسيرة، في ترتيبها وقيادتها، وتجنيد المتطوّعين لها من مناطق «جسر» و«خولنا» و«فريدبور» و«كوستيا».

موقفه من جهاد أفغانستان

هكذا ظلّ هذا العالم يؤدّي دوره ويبلغ رسالته في مسيرة حياته كلها، وكان قبل كل شيء مصلحا عظيما، ومجاهدا باسلا مستميتا، كلما تعرّض الدين لهجوم، أو تعرّضت الأمة لأزمة، وطعنت من أمام أو خلف، وضربت في خاصرة وتحت حزام، أو وقعتْ عليها مأساة أو نزلت بها نازلة، كان الشيخ الجسري أول من يبادر إليها وينزل في الميدان، وكان هذا مبدأه ودستوره في الحياة، ولذلك عندما نشبتْ حرب الأفغان ضدّ الروس المحتلّين، شعر في نفوسه بحنين زائد إلى الجهاد، وجذبتْه ساحة أفغانستان، إلا أنه صرفته صوارف عن ذلك، فأرسلَ ابنا شابًا له كان سرًا لأبيه، تخرّجَ من دار العلوم ديوبند، وكان متدفقا بالحياة والنشاط، فبعث به الشيخ إلى ساحة أفغانستان، واستقبل بشارة شهادته بصدرٍ رحب، وقلب شاكر محتسب.

(١) العلامة أبو الحسن الجسري: حياته وأسوته، تأليف المفتي عبد الله الفاروقي، ص ٦٢-٦٣

مع الله ومع الناس

كلما داهمت أهل «جسر» كوارث طبيعية سابقَ الشيخ الجسري إلى المصابين، ووقفَ بجانب المنكوبين، وكل يومٍ كان الناس أمام بابه، يفاتحه البعض الشكوى، والبعضُ الدَّين، والآخرون الحاجة، وهو يقوم بسدّ حاجتهم قدر المستطاع، ويدير المدرسة، ويشرف على المؤسسات والجمعيات، وبعد هذه الأشغال الشاقّة، والارتباطات المستمرّة، والصولات في المدرسة وفي السياسة، عندما كان يستيقظ في النصف الأخير من الليل البهيم، ويسجد لله، ويذكر ويبكي، وينحب ويتضرّع، لا تسأل عن جما ذلك المنظر وروعته، وحسن عبادته وخشوعه، وابتهاله وتضرّعه، والشوق إلى لقاء ربه، لو كنتَ في غرفته لرأيت أعجب العجب، ولخيّل إليك أنه راهبٌ من الرهبان، وعابد من العبّاد، وغارقٌ في المعارف والإحسان، ومنعزل عن الدنيا، وغافل عما يجري حوله! فإذا هو خبيرٌ بالدنيا، وقائدٌ في السياسة والاجتماع! وكان مبايعا لدى الشيخ المدني، ثم لدى الشيخ المفتي عزيز الحق مؤسس جامعة فتية، رحمهم الله جميعا.

الشيخ الجسري في ذمة الله

بعد الجهاد الدؤوب، والسعي الحثيث للدين والأمة، فتر جسد هذا المجاهد العظيم وإن لم يفتر قلبه وهمته، حتى جاءَ يوم الخميس ٨ من يوليو عام ١٩٩٣ للميلاد، اليوم الذي فقدَ الشعب البنغالي المسلم درّة نفسية في تاجه، ولبنةً مهمّة في صرحه، وفجع بابن من أشد أبنائه شجاعة وبسالة، وأقواهم شكيمة، وأكثرهم غيرةً على كيانه، وأشدهم عناية بمصالحه في الدنيا والآخرة، رحم الله الشيخ الجسري وجزاه عن شعبه خيرا، وعوّض عنه شعبَه خيرا.

مولانا محمد عبد الوهاب

(١٩١٧-١٩٩٥)

المعلم المثالي، رجل القرآن، ورائد تعليم النسوان

«لا يسأل عبدٌ عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن، فإنه يحبّ الله ورسوله»، سمع هذا الإعلان الخالد رجلٌ من بنغلاديش، فآمن به، وأحب القرآنَ حبّا ما أحبّ قيس ليلاه، ولا العباس فوزَه، فأعطاه قلبه كلّه، واختلطَ حبّه بلحمه ودمه، ونذرَ حياتَه في تلاوته وترتيله، وتعلّمه وتعليمه، وقضى أيامه في بث نوره، ونشر هديه بين أمّته، وأنشأ كتاتيب ومدارس لكتاب الله، وبنى جيلا كاملا من معلّميه، حتى عُرف برجل القرآن، إنه مؤسس «نادية القرآن بنغلاديش»، ورائد تعليم النسوان في هذه الدولة، والمصلح العظيم، الشيخ الرباني، العلامة المجاهد، مولانا محمد عبد الوهّاب رَحِمَهُ اللهُ.

النشأة الأولى وأثرها في حياته

وُلد الطفل عبد الوهّاب في قرية «بهادوغر» بمحافظة «براهمن باريا» عام ١٩١٧م، في بيت علم وصلاح، ودين وإرشاد، ولوالدٍ له جاه ومكانة في المجتمع، ونظر وباع في العلم والقضايا المعاصرة، وصلة قويّة مع العلماء، الشيخ المرحوم ألطاف الدين، وكان يحبّ العلماء ويزورهم، ويجلّهم، ويدني مجالسهم، وينصب لهم الموائد، هكذا فتحَ عبد الوهاب عينيه على بيئةٍ دينية، طيّبة نقية مباركة، بيئة كلها علم وفضل وصلاح، وتعج بزمرة مختارةٍ من العلماء، وعباقرة الشعب البنغالي الخالدين، الذين جمعتهم الجامعة اليونسية في بداية مسيرها، وعهودها الأولى، وكان على رأسهم المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، والشيخ محمد الله الحافظجي، والشيخ عبد الوهّاب البيرجي، والشيخ أطهر علي، فأشرق قلبه بنور القرآن والعلم منذ الصغر، ثم درسَ القرآن عند الشيخ الحافظجي في بيته، وأخذ مبادئ العلوم من الجامعة اليونسية.

إلا أن الطفل ذاقَ مرارة اليتم في صغره، ففقدَ أباه وهو ابن أربع سنين، وبدأ يترعرع في حضن أمه وتحت ظلال حنانها، حتى جاءَ صديقٌ لوالده، و"صديق الوالد عمّ الولد"، وأُعجب بفرط ذكائه، وخفّة روحه، ورقة شعوره، وسرعة بديهته، ونضجه العقلي مع صغر سنه، فوضعه في مدرسة حكومية، وبعد فترةٍ ذهب إلى العاصمة داكا، والتحق بمدرسة «براكاترا»، ودرسَ فيها خمس سنوات، ثم سافرَ إلى الهند، ودخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، ودرسَ التفسير والحديث، والفقه والأصول، والمنطق والأدب، حتى تخرّج من ديوبند وعادَ إلى مسقط رأسه، وبدأ الجهاد، وقام بالمهمّة التي من أجلها أعدّ نفسه هذه الأعوامَ.

جهوده في تعليم القرآن

من أبرز مهامّ هذا الإنسان التي قضى فيها معظم حياته، ونذرَ لها كثيرا من وقته وجهده، هو تأسيس جمعيّة تعتني بتعليم القرآن الكريم للصغار والأطفال، وتبني كتاتيب القرآن في القرى والأرياف، وتخرّج المعلمين، وتدرّبهم، وتؤهلهم على تدريس القرآن الكريم في أكمل وجه، وجاءتْ هذه الجمعية في الوجود باسم «نادية القرآن بنغلاديش»، إن تأسيس النادية كانت مبادرةً فريدة، ومشروعا لم يسبق له مثيل في هذه البقعة، ولا غرو فالمدارس الدينية والجامعات العربية كانتْ منتشرةً بعدد كبير في ذلك الوقت، وكانت هذه المدارس تدرّس كتاب الله، وتعلّم الأطفال القرآن، أما جمعيةٌ قرآنية تتأسس على تعليم القرآن، وتجعله ركيزة لها، وتهتمّ به وحدَه، وتسعى لتخريج جيلٍ قرآني، فهي قصّة فريدةٌ في تاريخنا، وقد سجّل الشيخ بنفسه هذا التاريخ في كتابه «تعليم المعلّمين»، فلنقرأ ذلك بقلمه:

"نظرا لأهمية تقوية الأساس، وعرض طريقة جديدة لتعليم القرآن، دعا الشيخ العلامة المفسّر سراج الإسلام العلماء الكبارَ من جميع مناطق الدولة إلى مؤتمر عامّ مفتوح، في شهر سبتمبر عام ١٩٥٧م، فنوقشت فيه أساليب التعليم الابتدائي، وموقف الأمة من تعلم القرآن، وإفلاسها فيه، ودور العلماء في حلّ هذه الإشكالية، حتى صحّت عزيمة الحضور على توحيد المساعي، والتعاون بين المدارس العربية وبين معلمي القرآن، وتأسيس جمعية من أهدافها الرئيسية الإشراف على تعليم كتاب الله، ومعلّمي كلام الله للناس، فأنشئت جمعية «نادية القرآن الكريم»، وأُنيطت رئاستها وتوجيهها بالشيخ فخر البنغال تاج الإسلام، صدر المدرسين بالجامعة يونسية آنذاك، ثم بارك الله في هذه الجهود المتواضعة، وأنبتها نباتا حسنا، حتى أُنشئتْ مساجد وكتاتيب، ومدارس القرآن الكريم في كثير من بقاع العالم تحت مظلّتها، بدءا من «يانغون» و«آراكان» من ميانمار، انتهاء بـ«لندن» و«برمنغهام» من بريطانيا، وبهذا امتدّت ساحة

هذا الجهاد وآثار هذه البركة من شاطئ خليج البنغال إلى ساحل بحر الظلمات".

لو يتعمّق القارئ في هذه السطور التي كتبَها الشيخ محمد عبد الوهّاب بقلمه، ليرى أن الشيخ ردّ فضل هذه الجمعية المباركة وهذه المأثرة الخالدة إلى العلماء الكبار أمثال العلامة تاج الإسلام وسراج الإسلام، وأخفى نفسَه منها، كأنه كان بمثابة متفرّج سجّل وقائع الانقلاب، ومراحل الحرب بدقّة وأمانة، ولم ينزل في الساحة، إلا أن الباحث عن الحقيقة وعن جذور هذه الجمعية يرى العجب العجاب، ويرى أن الإنسان الذي فكّر طوال حياته في مثل هذه المبادرة القيّمة، وسهرَ من أجلها ليالي غير محصورة، وناقشَ مع العلماء، واستشار المفكّرين، والذي كان مصدر هذه الفكرة، وأبا عذرتها، هو الذي أخفى نفسَه، ومحا اسمَه، فهو إن يدلّ على شيء فيدلّ على إيمان هذا الرجل بالله، وعلاقته مع الله، ومكانته من الله، وقد عُرف بالتواضع النادر الفريد عند القريب والبعيد، وإن لم يعرف كثيرٌ من الناس هذا التاريخ فقد عرفَه ربّه، وسجّله كرامٌ كاتبون، وله الأجر عند الله يوم القيامة، وهكذا هو ديدن المخلصين في كل عصر ومصر ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]

ريادته في تعليم المرأة

ومن مآثره الأخرى التي لا تزال تشهد على فضله عليها، وتشكره على دوره الريادي الفريد فيها، هي اهتمامه بتعليم البنات، وتثقيف الأمهات، وتوعية النساء على قيمة العلم، وأهمية تسلحهن به وحاجتهن إليه، والتنبيه إلى العواقب الوخيمة التي قد تترتّب على أمية الأمهات، في عصر كانت النساء أسيرات الجهل، وضيق الفكر، واستبداد الرجال، وفي مجتمع كان يبخس أهميتها، ودورها في صنع الحضارات، وكان يقول كلماته الخالدة ويكرّرها في مواطن كثيرة: "تعتزّ الأمة المسلمة في هذه الدولة بكثرة المدارس، والمعاهد الدينية، والمراكز العلمية التي نشأتْ وقامتْ على أرضها، وأدّت دورا بليغا وخدمات جليلة في العلم والمعرفة، والدعوة والإصلاح، ونشر العقيدة الصحيحة، وتوجيه الأمة توجيها رشيدا، إلا أنه من المؤسف جدّا أن هذه المدارس والمراكز كلها تتمحور حول تعليم الأبناء، وتثقيف الرجال، وبناء حياتهم، وتأهيلهم لمستقبلهم، أما بنات الشعب البنغالي المسلم فقد تُركن رهينة قدرهن وحظهن، وأُهملن في مجال التعليم والتربية، ظنا منا بأنهن لسن بحاجة إلى التعليم، والدخول في المدرسة، وما بال النساء أن يتعلمن؟ ولم نرد منهنّ إلا التطريز والخياطة، وتساءلنا ماذا سيفعلن بالثقافة والمدنية، وقد نسينا وسط هذه الأمواج العاتية من الإهمال والازدراء، والاستكراه والاستخفاف، أن المرأة نصف المجتمع البشري، وهي رفيقة للزوج، وأمّ للأبناء، وملكة زمام الأسرة، ووزير الداخلية، ومربّية الأولاد،

وموجهة لهم، وابحثوا عن المرأة من وراء العظماء! فإذا ضربنا صفحا عن هذا الجزء من المجتمع، لن تقوم قومتُه، ولن يصلح شأنه، ولن يبلغ هدفَه، ولن يقوم الإسلام في مكانه، ولن تتمّ الدعوة والإصلاح، وإذا تركت البنات بلا علم ولا ثقافة، فسيكون الجيل كلّه جيلا جاهلا، وقد أدّت هذه الظاهرة المأساوية أن خمسين في المئة من النساء في هذا المجتمع لا يصلين، والخمسون اللائي يصلين لا تصحّ صلاة أربعين منهنّ، لأنهن لا يعرفن أركان الصلاة، ولا يقرأن القرآن، ولا يعرفن النجاسة والطهارة، ولا تعرف كثير منهنّ شهادة الإسلام "لا إله إلا الله محمد رسول الله"! أهكذا تتمّ الرسالة؟ ويصلح المجتمع؟ وإن الإسلام بريء مما أصاب المرأة".

في هذا الواقع الأليم كتبَ الشيخ رسالةً صغيرة حول أهمية تعليم المرأة، وسماها «تعليم النسوان» وفصلّ فيها منهج هذا التعليم وطريقته، ومقرراته، وقد عرض الشيخ في هذه الرسالة نموذجا رائعا فريدا في هذا المجال، فقدّم ثلاثة أنواع من المدارس: الأول: مدرسة للبنات، يمتدّ منهج هذه المدرسة من خمس إلى تسع سنوات، على شكل المدرسة الابتدائية، تدخل فيها الصبية في صغر سنّها، وتأخذ مبادئ العلوم الشرعية، ثم تنتقل إلى تخصصها، والثاني: مدرسة النسوان، وهي منهجٌ كاملٌ للدراسة النسائية، فتدرسُ فيها النساء كما يدرس الرجال، حتى تتخرّج في مرحلة التكميل (ما يعادل الماجستير)، وتُشارك في بناء البيت والمجتمع، والدعوة والإصلاح، والثالث: مدرسة الأمهات، وهي منهج استدراكي يستهدف النساء اللائي فاتهنّ العلم والمعرفة في الحياة، وقد تقدّمن الآن في العمر، ولم يعد ثمة سبيلٌ إلى التعليم النظامي والاستزادة منه، فيجتمعن في مكان واحد مرّة أو مرّتين في الأسبوع، ويتعلّمن مبادئ الشريعة، والفرائض والواجبات، وتكون هذه المدارس بمثابة التدريب الميداني أكثر من التعليم النظري، كما اهتمّ الشيخ بسلامة المنهج لهذه المدارس، وخطورة تربيتهنّ، وتدريبهنّ على الشرف والعفّة، والتقوى والصلاح، وبأن تكون كل طالبة في هذه المدارس نموذجا صادقا للمرأة المسلمة، العفيفة الشريفة، المحتشمة المستترة، البعيدة عن مواطن الريب ومداعس الزلل والانحراف، وكان يقول:" العلم الذي لا يأتي إلا بذهاب الشرف خير منه الجهل".

كما دعا العلماء الكبار وجالسَهم، وناقشَهم، وقدّم إلى المربّين هذه الفكرة الفريدة، فنالت قبولا عاما من العلماء والقادة، ونهض الناس على أثره، وقد قام الشيخ وأسس بنفسه أكثر من عشرين مدرسة للبنات في مسقط رأسه «براهمن باريا» وما يجاورها، وأقام مشاريع، وفتح مخيّمات لتدريبهن على الصلاة والعبادة، والمسائل المتعلقة بالحياة اليومية، وهكذا جاءَ انقلابٌ شاملٌ لتعليم النساء، وبدأت

مدارس للبنات تقوم في كل منطقة من مناطق هذه الدولة، وتقلّبت الموازين ومواقف الناس من هذا التعليم، وشاهدَ الشيخ نجاح دعوته وتحقيق حلمه بأم عينيه، ثم انتقلَ إلى ربّه قرير العين ومطمئن البال عام ١٩٩٥م.

آثاره في ميدان التأليف

لم تمنعه الأعمال الشاقّة والمسؤوليات الكبرى التي تحمّلها على كاهله من التأليف، والصولة في ميدان الكتابة والإنشاء، ومن أبرز ما كتبه: ٥ قبل الصراط وبعده ٥ مخافة الله ٥ تعليم المعلّمين (مجلدان) ٥ تكميل الإيمان ٥ حقوق العباد ٥ طهارة النسوان ٥ تعليم النسوان ٥ معارف النكاح وغيرها، وقد تحدّث في هذه الكتب عن القضايا المتنوّعة، وحاول إصلاح ما فسدَ في المجتمع، وأجاب على كثير من الأسئلة، ووجّه الناس توجيهه رشيدا.

في سبيل الدعوة إلى الله

كان الشيخ محمد عبد الوهّاب رجلا داعية في صميمه، ومصلحا من عظماء المصلحين، ومتواضعا إلى حدّ يثير الدهشة، وقد سافر إلى عدد من بقاع العالم شرقا وغربا، من أجل الدعوة في الدرجة الأولى، وتعليم القرآن في الدرجة الثانية، فذهب إلى ميانمار، وبريطانيا، والمملكة العربية السعودية، وكان سفره إلى الحجاز مع أمير جماعة الدعوة والتبليغ الشيخ يوسف الكاندهلوي رحمه الله، فاستفاد منه طول الرحلة. كما سافر إلى الهند، وإلى باكستان، وقضى في باكستان سنة ونصف، يدعو وينصح ويعظ ويوجّه، ويستفيد من العلماء الكبار، والدعاة الربانيين، كما سافر إلى بريطانيا، وأنشأ فيها مراكز قرآنية تحت مظلة «ندية القرآن».

سر إبداعه ومفتاح نجاحه

قد يحتار القارئ ويندهش من كثرة أعمال هذا الإنسان الإصلاحية، ومشاريعه الرائدة، وكيف سبق في عهده الأكابر [illegible] حركة أقرانه وعلماء عصره، وكبار المصلحين! إلا أن دهشته تزول عندما يطلع على [illegible] في مسيرة حياة الإنسان، فمنذ انطلاق رحلته في درب الحياة، كان الشيخ محمد عبد الوهاب يلتقي مع العلماء والصالحين، وقد فتح عينيه في بيت [illegible] العلماء [illegible] في عهد [illegible] مثل [illegible] الأعظم [illegible]، والشيخ محمد [illegible]، والشيخ مولانا [illegible] وغيرهم، وقد درس القرآن على يد الشيخ [illegible]، كما استفاد من الشيخ حسين أحمد المدني،

والشيخ مولانا يوسف الكاندهلوي، ثم بايعَ الشيخ عبد القادر الرايبوري، وبعدَ وفاته بايعَ على يد الشيخ محمد الله الحافظجي، خليفة الشيخ أشرف علي التهانوي، ونال منه الإجازة، فالرجل الذي جمع بين هذه المحاسن كلها، والتقى على هذا الملتقى العظيم من الصلة مع العلماء والمصلحين، والدعاة والربانيين، والسالكين والعارفين، لا غرو أن يقوم بما قام به من المشاريع الفريدة، ويؤدّي دورا رياديًا في تاريخ الدعوة والإصلاح.(١)

(١) مستفادٌ من كتاب الذين ورثناهم: حياة وأعمال مئة من العلماء والمشايخ، للشيخ مولانا حبيب الرحمن ص٢٩٧ وكذلك تراجم مئة من علماء البنغال، تأليف مولانا أمين الإسلام ٣٠٥، وكذلك تراجم كبار علماء براهمن باريا، تأليف مولانا جاويد حسين، ج ١ ص٢٩١

مولانا شمس الدين القاسمي

(١٩٢٣-١٩٩٦)

ناصر الحق، قاهر الباطل، محارب القاديانية والشيعية

ظلّت بلاد البنغال منذ عهد بعيدٍ في التاريخ ساحة حرّة لممارسة قوّة السواعد للفرق والمذاهب، والفلسفات والديانات، من الهندوسية والبوذية، والجينية، والسيخية، والنصرانية، والبهائية، والشيعية، والقاديانية وغيرها، قلما تجد دينا أو فلسفةً إلا وهي عاشت وعملت فترة من الفترات في هذه البلاد!

فانطلقت الشيعية مسيرتها في شبه القارة الهندية عموما، وفي بلاد البنغال خصوصا، في فترةٍ متقدّمة من التاريخ، ترجع إلى ما قبل ألف عام من يومنا هذا، ودخلت في البنغال في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، منذ ذلك اليوم توطّن الشيعة في هذه البقعة، وحكموها، وضربوا السياط على ظهور أبنائها، وأقاموا المساجد والمراكز العلمية التي تدرّس المذهب الشيعي، وجلبوا من بلاد الفارس، سفنا ممتلئةً بالكتب والأسفار التي لا علاقة لها بالإسلام، كما جلبوا علماء وشعراء، تغنّوا بمجد الإسلام الشيعي، ودعاةً دعوا الناس إليها، تحت ستار الحب للعترة النبوية الطاهرة، والولاء للدولة المحمدية، حتى اعتنق كثير من ملوك البنغال ونوابها هذا المذهب، ونال الشيعة حظوتهم، فكانوا أصحاب الأمر والنهي، وكانوا أهل الحل والعقد في قصور الملوك والسلاطين، فلا غرو أن «صوبه دار» شايستا خان كان شيعيا، وأن النوّاب مرشد قولي خان كان شيعيا، أول نوّاب بالبنغال، والنوّاب علي وردي خان هو الآخر كان شيعيا.(١)

(١) انظر تراجمهم بالشكل المفصل في الموسوعة البنغالية، وانظر كذلك History of Bengal: Mughal Period. University of Rajshahi, By Abdul Karim وكذلك Murshid Quli Khan and His Times, By Abdul Karim وكذلك Alivardi and His Times, By Kalikinkar Datta

كما كانت القاديانية انتشرتْ في هذه المنطقة منذ بداية رحلتها في الهند، وأقامت فيها مساجد ومدارس، ودخلتْ في الحكومة ومراكز التجارة، حتى أصبح كبار الأغنياء والأثرياء وقعوا في شراكها، وأصبحوا قاديانيين.

إلا أنه قد يحتار القارئ وهو يقرأ هذا التاريخ الطويل للشيعية في هذه المنطقة، الممتدّة على قرون، المتمثلة في الملوك والحكّام، والنوّاب والوزراء، وتاريخ القاديانية التي سارتْ في الطرق جنبا إلى جنب مع الشيعية، ثم لم تنتشر إلا في مساحةٍ محدودة منها، ولم تدخلْ إلا في عدد قليلٍ ضئيلٍ من القلوب، فماذا كانت المعجزة؟ ومن الذي قامَ سدًّا منيعا في طريقها؟ ودافعتْ عن كيان الأمة المسلمة سمومها وحممها؟

هنا يأتي دور العلماء ودور الدعاة المصلحين، الذين أظهروا عزة الإسلام، وأبانوا حقيقة الشريعة الغراء، الصافية النقية المتينة، ودافعوا عن الأمة الإسلامية البنغالية على حساب حياتهم، فضحّوا بكل نفس ونفيس، وجاهدوا في كل سبيل، وصابروا على كل محنة، ليدفعوا طوفان هذه الفتن، ويقهروا هذه الفرق الضالة، حتى تكون كلمة الله هي العليا، ويكون دين الله هو الظاهر على جميع الأديان، وتكون رسالة النبي ﷺ هي الرسالة الوحيدة الصالحة للعالم، وكان بطل هذه القصّة من هؤلاء الأعلام والدعاة المصلحين، والمجاهدين ضدّ الفرق الضالة والأفكار المضلّة، وكان حربا على الشيعية والقاديانية بوجه خصوص، هو الشيخ المجاهد، العالم الشجاع، مولانا شمس الدين القاسمي.

الميلاد والنشأة

ولد شمس الدين في «سنديب» بمحافظة شيتاغونغ عام ١٩٢٣ للميلاد، في بيت شريف، وأخذ الدراسة الابتدائية في كتاب قريته، ثم دخلَ في المدرسة البشيرية الأحمدية العالية بـ«هاريشبور» وظلّ فيها سنوات، حتى تخرّج في مرحلة الفاضل (بكالوريوس)، وفي عام ١٩٥٥م سافرَ إلى الهند ودخلَ في دار العلوم ديوبند، ودرسَ فيها سنتين، وفي عام ١٩٥٨م سافرَ إلى باكستان والتحق بالجامعة الأشرفية بـ«لاهور»، وتخصّص في التفسير والحديث، هكذا أخذ العلم من مصادرَ شتى، ومنابع مختلفة، ومراكز علمية كبرى، وتربّى تربية صالحة على أيدي الأساتذة الكبار، أمثال شيخ التفسير مولانا إدريس الكاندهلوي، والشيخ العلامة رسول خان، والشيخ الكبير مولانا أحمد علي اللاهوري وغيرهم رحمهم الله، حتى بلغ في ذلك مبلغا قلّما يبلغه الرجال في العصور المتأخرة، وفي عام ١٩٦١م عادَ إلى وطنه.

على منبر التدريس والتربية

بدأ الشيخ القاسمي مرحلةً جديدةً في مدرسة بمحافظة «مؤمن شاهي» فدرّس فيها فترةً، ثم دخلَ في مدرسة أشرف العلوم «براكاترا»، وبعد عامين تولّى التدريس في مدرسة إمداد العلوم «فريدآباد»، وهكذا ظلّ يتنقّل من مكان إلى مكان، ولا يجد القرار، حتى جاء عام ١٩٧٥م بمرحلة فاصلة في حياته، فتولّى التدريس في مدرسة صغيرة خاملة بـ« ميربور» داكا، وهنا برزَ نبوغه، وعملتْ مواهبه عملا مميزا، وفي بضع سنين أصبحتْ تلك المدرسة الخاملة من مقدمة الجامعات العربية في بنغلاديش، وهي «الجامعة الحسينية عرض آباد»، وطار صيتها من أقصى الدولة إلى أقصاها، وغدت ملتقى الطلاب والعلماء البارزين، وخرّجتْ طائفة كبيرة من العلماء، يفسرون القرآن، ويكتبون المتون، ولهم دورٌ جليل في الشعب والمجتمع.

آثاره في السياسة

كما برز نبوغه في السياسة، فكان رجلا سياسيا في صميمه، جاهدَ طوالَ حياته للسياسة الإسلامية، وليشاهد وطَنه يحكّم كتاب الله وسنّة رسوله، ويقيم حدود الله على أرضه، فاشترك في «جمعية علماء الإسلام»، وظلّ يُجاهد ويعمل ويصول ويجول، ويوجّه ويتحدّث تحت مظلتها، واختير أمير «الجمعية» ثلاث مرّات، وقدّم نموذجا رائعا للسياسة الإسلامية، ووقفَ موقفا حميدا من حرب تحرير بنغلاديش عام ١٩٧١م.[1]

جهاده ضد الشيعة وحربه على القاديانية ومقاومته للتنصير

لعل من أبرز جوانب حياته وأهم إنجازاته كان الجهاد في ساحة الردّ على الفرق الضالة، وأصحاب الباطل والخرافات، فكان حربا على الشيعة والقاديانية، قضى حياتَه كلّها في الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد دسائس ومكر هاتين الطائفتين، كان غايةً في التواضع والرفق، وخفّة الدم والروح، ورقة الشعور، أما في قضية القاديانية والشيعة فكان أشدّ الناس بأسا، وأربطهم جأشا، وأسبقهم نزولا في الساحة، فهو الذي كان في مقدمة من كفروا القاديانية في هذه الدولة، ورفعَ صوتَه بشدّة وقوّة ضدّها، صوتا مسموعا وسط العوام والمثقفين، وكانت له صدى عظيمة في طول البلاد وعرضها، ثم أنشأ «حركة ختم النبوّة» وتولّى رئاستها، كما جاهدَ تحت مظلة «مجلس تحفّظ ختم النبوّة» دفاعا عن كرامة النبي ﷺ ومكانته، وردًّا على أعداء نبوّته والمعتدين على رسالته ردًّا شنيعا.

---

(1) اقرأ في البحث عن علماء، مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٤٦٥-٤٦٦

عندما أراد الرئيس البنغلاديشي الأسبق ضياء الرحمن المرحوم أن يشارك في مؤتمر قادياني، وتناهى الخبر إلى الشيخ القاسمي، خرجَ إلى الرئيس وقال له: "إن كنتَ تذهب اليوم إلى مؤتمرهم، نحن نذهبُ إلى الشعب، ونخبرهم بأن الرئيس ذهبَ مع القاديانيين الذين يؤمنون أن غلام أحمد- فاسق بنجاب- نبي بعد خاتم النبيين ﷺ"، حتى توجّس منه الرئيس خيفة، وأحجم عن الحضور في المؤتمر.

كما كان في طليعة من نذر نفسه وأوقف حياته في الردّ على الشيعة الاثني عشرية، والعمل على إعلاء كلمة الله، ورفع راية السنة، وجاهدَ ضدّهم طوال الحياة بالقلم واللسان، والمظاهرات والاحتجاجات، والمواعظ والنصائح في مواطن كثيرة، وكان له موقفٌ كبير في الردّ على التنصير، والدفاع عن الأمة الإسلامية المنكوبة، والردّ على القبوريين وأصحاب الأضرحة والبدع، وجاهدَ ضد الإلحاد والعلمانية، فدخلَ في السجن مرارا وتكرارا.(١)

وقد كتبَ في الدفاع عن الدين والردّ على البدعة واللادينية عدة كتب قيمة، من أبرزها: ◊ بين البيت المقدس والمسجد الأقصى ◊ مشكلة الدعوات التنصيرية ◊ الصراع بين الإسلام والشيوعية ◊ العلمانية ◊ الشيعة كفار ◊ القاديانية وغيرها، كما أصدرَ عدة صحف ومجلات لنشر الدعوة والردّ على الفرق الضالة، منها مجلة «الجمعية» الأسبوعية، ومجلة «رسالة الحق» الشهرية.

عالمٌ إنساني حامل لواء الإنسانية

كان رجلا إنسانيا يعمل من أجل الإنسان، ويخدم خلق الله، ويقف بجانب المنكوبين والمصابين بالكوارث الطبيعية، على اختلاف الأديان والمذاهب، ففي عام ١٩٦٢م عندما أصابَ جنوب منطقة داكا إعصارٌ شديد، هرعَ إليه الشيخ وقام بجانب المنكوبين، وقد تولّى رئاسة «لجنة الإغاثة المتّحدة» عام ١٩٨٨م وعمل أعمالا كثيرةً، ثم في عام ١٩٩١م عندما داهم شيتاغونغ إعصارٌ استوائيٌ من أعنف الأعاصير في التاريخ، فتركَ أكثر من مئة ألف قتيلا، وشرّد مليونا، نهض الشيخ شمس الدين القاسمي مع العلماء الآخرين، بمن فيهم الشيخ مولانا محيي الدين خان، وسارعَ إلى الأراضي المنكوبة، وقدّم إليهم خدمةً جليلةً.

بعد هذه الحياة الحافلة والإنجازات الخالدة، انتقل إلى رفيقه الأعلى عام ١٩٩٦م في عاصمة داكا، وصلى عليه إماما الشيخ الرباني الحافظ مولانا عبد الكريم (شيخ كوريا)، رحمة الله عليهم أجمعين.(٢)

---

(١) أعلام علماء البنغال، تأليف صلاح الدين جهانغير، ج ٢، ص١٧٤

(٢) مستفاد من مئة من عظماء البنغال، تأليف أشرف علي النظامبوري ص٣٢٦، والذين ورثناهم: حياة وأعمال مئة من العلماء والمشايخ، للشيخ مولانا حبيب الرحمن ص٣١٧، وبعض الصحف والمجلات

عباس علي خان

(١٩١٤-١٩٩٩)

الداعية الزاهد، المؤلف الكبير، القائد السياسي

إن كان السيد أبو الأعلى المودودي رَحِمَهُ اللهُ مؤسس «الجماعة الإسلامية» ومنشئها، فالشيخ عباس علي خان رَحِمَهُ اللهُ مؤسسها الثاني ومحييها في دولة بنغلاديش، وهو من روّاد الحركة الإسلامية في هذه الدولة الذي أنقذ الجماعةَ وأخرجها من تحت الأنقاض، بعد أن ظلّت فيها فترةً كبيرةً منذ ظهور بنغلاديش في خريطة العالم، وأعادَ إليها حياتَها، وهيبتها ونفوذها، ونفخَ فيها روح النشاط والعمل، والبناء والإنشاء من جديد، حتى نهضت الجماعة، وخاضتْ غمار السياسة وميدان العمل مرّة أخرى، تحت قيادة هذا البطل العظيم العلامة عباس علي خان، إلا أن شخصيته لا تقتصر على حزبٍ سياسي أو في حدود طائفة محدودة، وإنما فاق بشخصيته الفريدة حدود الأحزاب والجماعات، والمذاهب والاتجاهات، حتى أصبح إنسانا مباركا لأبناء هذا الوطن جميعا، ذلك هو شخصيته الكاتبة، فهو الكاتب العبقري، والمؤلف العظيم الحكيم، وصاحب «تاريخ المسلمين في البنغال»، أعظم سجل تاريخي لمسلمي البنغال، وأكبر أرشيف لتاريخ علمي وفكري وحضاري وثقافي لمسيرة الدعوة، ووسائل انتشارها، ونجاحها ونتاجها، وأدق دليل لتاريخ الحكومة الإسلامية، والحكام المسلمين والأمراء، وإنتاج العلماء فيها عبر القرون والأجيال.

الميلاد والنشأة

ولد عباس علي خان في محافظة «جايبورهات» عام ١٩١٤م،(١) في أسرةٍ مسلمة شريفة تتحدّر

---

(١) الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق، ص٢٢٦

من سلالة أفغانية عريقة جريئة، افتتح الدراسةَ بكتاب الله في بيته، ثم درسَ في كتاب قريته، وتعلّم القرآن قبل أن يتعلّم اللغة والتاريخ، والرياضة والجغرافيا، فكان خير افتتاح، وكان بداية مباركة، ثم درسَ في مدرسة «هوغلي» وتخرّج منها، وبعد ذلك دخلَ في الكلية الحكومية بـ«راجشاهي»، كما درسَ بعد ذلك في «كلية كارمايكل» بـ«رانغبور»، واجتاز مرحلة ما يضاهي البكالوريوس عام ١٩٣٥م، ثم سافرَ إلى كلكتا ليواصل الدراسة، إلا أنه اضطرّ على تركها والدخول في حياة المهنة بسبب حاجة الأسرة، وهكذا بدأتْ مرحلة جديدة في حياته، مرحلة العمل، وانتهتْ مرحلة الدراسة والتحصيل، لكن الرجل العصامي الذي جُبل على حب القراءة والدراسة، وتثقيف النفس، وبناء الجيل، لم يكن له أن يعتزل الدراسة، فظلّ يدرس ويكتب، وينشئ ويترجم، ويبحث ويحلل طوال الحياة.(١)

في قافلة الجماعة الإسلامية

تنقّل الأستاذ عباس علي خان في وظائف كثيرة وفي مناطق شتّى، فإنه لم يكن يجد فيها بغيته، ولم يطمئنّ إليها، وكأنه كان يحسّ بحاجة في نفسها لم يكن يتبين حقيقتَها، حتى جاءَ عام ١٩٥٢م وتولّى الرئاسة في مدرسة بـ«جايبورهات»، وهنا جاءتْ نقطة تحوّل في حياته، ففي عام ١٩٥٤م التقى بالشيخ الأستاذ غلام أعظم في مجمع عام جاءَ إليه ضيفا، واستمع إلى حديث الاستاذ عن الكلمة الطيّبة، وأعجب بعلمه وسعة اطلاعه وعمق دراسته، وحماسه للحركة الإسلامية، كان الأستاذ مدرّسا في «كلية كارمايكل» بـ«رانغبور» آنذاك، وكان شابّا يتدفّق حياةً وحماسا، فالتقى بالأستاذ في نهاية المجمع، وتناولَ العشاء على مائدة واحدة، وناقشَ معه القضايا الإسلامية الشتى، وهنا سمعَه يتحدّث عن الشيخ السيد أبي الأعلى المودودي ويثني عليه، ويكبر قيمة كتبه ومؤلفاته، وأفكاره الدينية والسياسية، فازداد حبا له ورغبة فيه، حتى جمع بعض الكتب للشيخ المودودي، وقرأها في فترةٍ يسيرة وبشغفٍ نادر المثال، ووجدَ في هذه الكتب بغيتَه، ووجدَ فيه خريطة طريقه ومنهج حياته، فدخلَ في الجماعة الإسلامية في منتصف عام ١٩٥٦م.(٢)

ترجمان الشيخ المودودي

في عام ١٩٥٦م جاءَ السيد أبو الأعلى المودودي في زيارته الأولى لباكستان الشرقية، فكان الشيخ

(١) انظر بالتفصيل في كتاب موجة من بحر الذكريات، تأليف الأستاذ عباس علي خان، ص٢١ وما بعدها

(٢) عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص٧٢

خان رفيقا له في حلّه وترحاله، وصاحبا له في جميع أسفاره، وفي عام ١٩٥٨م عادَ السيد المودودي مرّة ثانية إلى شرق باكستان، وطافَ الأقطار الشتى، ومادام السيد المودودي يتحدّث باللغة الأردية، ولغة المسلمين في هذه الدولة هي البنغالية، فكان الشيخ خان ترجمانا له في هذه الرحلات، وهنا توطّدتْ صلته بالسيد ومع قادة الجماعة الإسلامية في المنطقة، فاختير أمير الجماعة في محافظة «راجشاهي» عام ١٩٥٨م،(١) وظلّ في المنصب حتى نهاية عهد باكستان ونشوب حرب الاستقلال عام ١٩٧١م،(٢) ولما ظهرت الجماعة الإسلامية على مسرح بنغلاديش، الدولة الجديدة، بعد فترةٍ طويلة من الخفاء منذ عام ١٩٧١م، اختير خان نائب الأمير للجماعة، وظل في نيابتها إلى وفاته، وشاركَ في انتخابات كثيرة، كما شاركَ في انتخاب عام ١٩٦٢م واختير عضوا في المجلس التشريعي الولائي لباكستان، وتولّى منصب وزير التعليم لشرق باكستان عام ١٩٧١م،(٣) والحق أنه كلما كانت الجماعة بلا أمير، بسبب وفاة الأمير أو كونه داخل السجن أو خارج الدولة، اختير الشيخ خان أميرها بالنيابة.(٤)

إحياء الجماعة الإسلامية في الدولة البنغلاديشية

في الحقيقة لم يقف دورُه في الجماعة الإسلامية عند تولي المسؤوليات الكبرى وتولّى منصب الإمارة لها، وإنما يستحقّ أن يعدّ بجدارة مؤسسها الثاني، ومحييها بعد خفائها أو مماتها في هذه الدولة، فلما فرضت الحكومة العلمانية المستبدّة الحظر على جميع الأحزاب القائمة على السياسة الدينية، وقد اتخذت موقف تلك الأحزاب من حرب الاستقلال مستندا على ذلك الحظر ومتكأ، وبالتالي بهذا القرار الغاشم الظالم اختفتْ جميع الأحزاب الدينية عن ميدان العمل، وانطوتْ في البيوت والزوايا، وفي الغرف المغلقة، وجاءَ طوفان العلمانية والإلحاد والاستبداد ضد الأحزاب السياسية الإسلامية، وقادوا عليها حملات ضارية متتالية، وعلى رأسها الجماعة الإسلامية، فصبّوا عليها جام الحقد والمحن، وافتروا عليها افتراءات، دون هوادة ولا خوف من الله.

فكان الأستاذ عباس علي خان هو الذي قامَ بدورٍ جريء في تلك الفترة الدقيقة الحرجة، وسعى سعيا دؤوبا من أجل استرداد حقوق العلماء والمسلمين السياسية، وهي من الحقوق الإنسانية الرئيسية،

(١) المرجع السابق، ص٨١

(٢) الروح الخالدة: ذكريات عباس علي خان، تحرير عبد الشهيد نسيم، ص١٣

(٣) عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص٢١٥

(٤) روّاد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ج ١، ص٢١، ٢٢

فجالسَ مع الرؤساء والوزراء ورجال السياسة، وكتبَ رسائل ومؤلفات، وتحدّث في المحافل والمجامع أحاديث، تردّ على تلك التهم، وتقدّم الجماعة للناس في حلّة جديدة نقية صافية، حتى جاءَ الفرج عام ١٩٧٩م، وظهرت الجماعة الإسلامية على المسرح من جديد، وعادتْ إليها حياتها ونشاطها، وكان الأستاذ عباس علي بطل ذلك التاريخ المجيد.[١]

التضحيات في سبيل الدعوة

لقد عانى الشيخ خان معاناة كثيرة بسبب جهاده الدعوي والإصلاحي، ودوره في الحركات الإسلامية، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ونصحه للملوك وزجره لهم، ورفضه لمنحهم وصبره على محنهم، ودخل في السجن مرارا، لكن أبى أن يرفع لهم العَلَم الأبيض! مثل جهاده ضد الرئيس المتغطرس أيوب خان في الردّ على قرار «تحديد النسل»، والقرار المخالف للشريعة حول الأحوال الشخصية.

وقد دخلَ السجنَ عام ١٩٧٢م بعد حرب الاستقلال بفترة وجيزة، لموقفه من الحرب،[٢] وهو الموقف نفسه الذي وقفَه منها حزبه الجماعة الإسلامية وكثير من العلماء الربانيين، على اختلاف مذاهبهم الفقهية والفكرية والاتجاهات السياسية، فظلّ في السجن طوال عامين، قضى هذه الأيام كلّها راكعا ساجدا، يرجو رحمة ربه ويطلب رضوانه، ويخاف عذابه، ويغرق في الدراسة والمطالعة، والتأليف والكتابة، والدعوة بين العصاة والمجرمين وراء القضبان، ومن أبرز ما كتبَ خلال أيامه في السجن الكتاب الأدبي الرائع عن السيرة الذاتية باسم «موجة من بحر الذكريات»، حتى خرج منه وقد أصبح مثل الكبريت الأحمر،[٣] ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

آثاره في ميدان التأليف والترجمة

لكن أبرز جوانب هذا الإنسان بعد السياسة والحركة كانت جهوده المشكورة في مجال التأليف والكتابة، فقد كان كاتبا مطبوعا، وأديبا موهوبا، ومؤلفا حكيما، ومفكّرا من الطراز الأول، وكأنه قد حمل القلم لخدمة جهاده ونجاح حركته، ومن أجل ذلك لا تراه يكتب ويترجم إلا ما يخدم الجهاد الإسلامي والحركات الإسلامية، وتطبيق النظام السماوي في هذه البقعة، ويرغّب الناس في محاسن

(١) القائد الشعبي عباس علي خان في صفحات الذكريات، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ص١٥، ١٦

(٢) انظر تفاصيلها في كتاب عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص٢١٨ وما بعدها

(٢) عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص٩٧ و٩٩

القانون الشرعي، ويعرّفهم بتاريخ الشريعة الإسلامية، والسياسة الشرعية، وفضائل الخلافة ومصالحها، وتوعية المسلمين على ماضيهم العريق وحاضرهم الأليم، كما يردّ التهم الموجّهة إلى الحركات الإسلامية ولا سيما الجماعة، ويبطل النظريات الوضعية، وينتقد المذاهب المفسدة من الإلحاد والعلمانية.

كان يجيد لغاتٍ كثيرة، ويكتب العربية والإنجليزية بكل سلاسة، ويبلغ عدد ما كتبَه وترجمه إلى البنغالية ما يزيد على ٣٥ كتابا ورسالة، ومن أبرزها: ٥ مولانا المودودي: سيرةٌ وتاريخٌ وحركةٌ (١٩٦٧م) ٥ تاريخ الجماعة الإسلامية (١٩٨٦م) ٥ الصراع الأزلي بين الإسلام والجاهلية (١٩٩١م) ٥ تاريخ المسلمين في البنغال (١٩٩٤م) ٥ ما وراء الموت (٢٠٠٥م) ٥ الأجراء والاشتراكية ٥ الأمة المسلمة (الإنجليزية) ٥ الحركة الإسلامية وعناصرها ٥ أسباب انحطاط جماعة إيمانية وطرق خلاصها (١٩٩٨م) ٥ الحجاب والإسلام (ترجمة) ٥ المصرفية المعاصرة والربا (ترجمة) ٥ مجالس المساء (ترجمة) ٥ سيرة سيد البشر (ترجمة) ٥ الإسلام والعدل الاجتماعي (ترجمة) ٥ التصوّف والسيد المودودي (ترجمة).[١]

من هذه الكتب لعل كتابه «تاريخ المسلمين في البنغال» خلّد اسمَه في عالم اللغة والأدب، فإنه ليس كتابا تاريخيا فحسب، وإنما هو صورة صادقة وميزان عادل في معرفة تاريخ الإسلام والمسلمين الديني والاجتماعي في منطقة البنغال، وسجلّ قيّم للحضارة الإسلامية فيها، حضارةٌ أساسها التوحيد والفضيلة، وماضي المسلمين في هذه البقعة الذي ضاعَ بين ضعفهم وغفلتهم، وذوبانهم في الحضارة الوثنية الهندوسية، ولو يقرأ أحدٌ هذا الكتاب ويعطيه حقّه من الدراسة الواعية المستوعبة والنظرة العميقة، والتفكير والتدبّر في سطوره وفقراته، يضمن له أن يحيي الشعور، ويبعث الأمل، ويوجّه الركب، وينفخ فيه روح البعثة والانتفاضة، والعمل بشكل دؤوب على استرداد المجد الذي ضيّعه، فهو إنجيل الحركة الإسلامية لمسلمي البنغال، يا ليتَ أحدا ينهض ويترجم إلى العربية، فيقدّمه إلى العالم العربي!

بصماته في التربية والإصلاح

مع هذه الأشغال الشاقة والحركات المستمرة في ميدان السياسة والكتابة، لم ينسَ الشيخ واجبَه تجاه مجتمعه، وضرورة تقديم نموذج حيّ رشيد لتربية أبناء المسلمين، وتثقيفهم، وتجنيدهم للحركات الإسلامية في هذه الدولة، ليكونوا مستقبل الأمة، وقادة الشعب المسلم في مجال الدعوة والسياسة، فأنشأ مدارس، وأشرف على مراكز علمية، وأدار مكتبات، من بينها «أكاديمية وكلية تعليم الإسلام» بـ«جايبورهات»،

(١) الروح الخالدة: ذكريات عباس علي خان، تحرير عبد الشهيد نسيم، ص ٢٠ و٢١

وهي أكاديمية نموذجية في عصرنا الراهن تجمع بين الأصالة والعصرية، والعلوم المدنية والشرعية، والذي يتخرج منها لا يرى بين الدين والحياة تناقضا، فلا غرو أن يكون مهندسا يصلي في الصف الأول، وطبيبا يقوم صلاة الليل، ويمثل مؤمنا كاملا ومواطنا صالحا في ذات الوقت، وأنشأ «مكتبة شاه ولي الله»، وقد ظل طوال حياته رئيسا لـ«أكاديمية السيد أبي الأعلى المودودي للبحث والدراسة».[1]

الشيخ خان على مسرح العالم

عرف العالم هذا الإنسان الكبير، فقدّر جهاده وجهودَه وأكرمه، وقد سافرَ إلى أرجاء العالم مرارا وتكرارا، فوصل إلى أرض الحرمين الشريفين عام ١٩٧٥م، وزارَ مدن المملكة بما فيها مكّة والمدينة، والطائف، والدمام، والرياض، والتقى مع كبار علماء المملكة، وتحدّث في مجالس كثيرة، وسافرَ إلى الكويت عام ١٩٧٨م، كما سافرَ إلى سنغافورة وماليزيا عام ١٩٧٩م ليشارك في المؤتمر الإسلامي الدولي للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (IIFS)، وسافرَ إلى بريطانيا عام ١٩٨٤م على دعوة من منظمة (FOSIS)، وفي عام ١٩٨٨م سافرَ إلى المملكة السعودية مرّة أخرى، وشاركَ في المؤتمر الدولي لرابطة العالم الإسلامي، وفي عام ١٩٨٩م سافرَ إلى الغرب، وزارَ أمريكا، وكندا، وفرنسا، وشاركَ في مؤتمرات محلية ودولية، وألقى كلمات في مواطن كثيرة.[2]

وقد حكى الشيخ قصص هذه الأسفار، وسجّلها بالجملة والتفصيل، ثم نشرها في شكل كتب ورسائل، وضعَ فيها تجارب هذه الرحلات، وخلاصة ما شاهده من الحضارة والثقافة، والقيم والمثل، والعادات والتقاليد في تلك البلدان، حتى أصبحت هذه الكتب نماذج رائعة في أدب الرحلات، مثل كتابه «واحد وعشرون يوما في بريطانيا» (١٩٨٥م)، و«أيام في خارج الوطن» (١٩٩٥م)، و«خمسون يوما في الخارج» (١٩٩٧م) وغيرها.

في بيته وبين يدي إلهه

رغم أشغاله الشاقّة وجهاد الدؤوب في الحركات الإسلامية، وجهوده الدعوية والتأليفية، كان عابدا وزاهدا، رجلا معنيا بالربانية والسلوك، وتوعية الضمير، والنور والعرفان، فقد أنشأ علاقة وطيدة مع الشيخ الرباني مولانا عبد الحي الصديقي مرشد «فرفرا»، نجل الشيخ المرشد الكامل أبي بكر الصديقي

(١) عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص١١٦

(٢) روّاد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، جـ١، صـ٢٣ و٢٤

مؤسس زاوية «فرفرا»، وبايع على يده منذ صغره، واجتهدَ في السلوك والرياضة وإحياء القلب والعمل، كما أشرف على مساجد ومدارس، وكان إماما في أكبر مصلّى في محافظة «جايبورهات» أكثر من ٣٥ عاما، وكان محافظا على الصلوات مع الجماعة وفي الصف الأول، ويقوم في الليل ويناجي مع ربّه بالأسحار، عندما يكون العالم في السبات العميق، ويتضرّع إليه، وقد واظب على عبادته هذه حتى في شيخوخته![1] كما كان كثيرا ما يقرأ في «تفهيم القرآن» للسيد المودودي ويبكي، فتغرورق عيناه بالدموع، وكان رجلا إنسانيا له دورٌ كبيرٌ في الوقوف مع المحتاجين، والأخذ بأيدي المكروبين.

كان زاهدا متواضعا، إنسانا بسيطا ساذجا، ولم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، طويل الصمت فلا يتكلم إلا للحاجة، يهابه من يراه من بعيد، ويحبه من يراه من قريب، لا يعبس ولا يتكبر، ولا يأنف أن يتعلم ممن دونه، كان يعمل في بيته، يخيط الثياب ويغسلها، ويكويها ويرتبها،[2] وقد رفض منصب الوزارة أكثر من مرّة في عهد الرئيس ضياء الرحمن، لكونه يحمل لواء يختلف عن لوائه، فشتان ما بين الإسلام والعلمانية.[3]

سر قبوله ومفتاح نجاحه

هكذا ظلّ هذا الإنسان يجتهد ويجاهد طوالَ حياته كلها، ويقضي ليلَه ونهارَه في مكتب الجماعة الإسلامية، وفي الشوارع، وفي الجامع والمحافل، ولا يجدُ فرصةً للنزهة والاستجمام، ولا يعرف إجازة ولا أعيادا حتى يقضيها مع أهله وأعضاء أسرته، ويمتعهم ويستريح معهم، بل كان يتعهد بزوجته العليلة المصابة بالشلل، وطريحة الفراش في القرية منذ عشرة أعوام، وهو قائد الجماعة، وموجه ملايين الناس، يقضي أيامَه في العاصمة، ويعود الزوجة في نهاية كل شهرٍ مرّة أو مرّتين، يقرأ عليها السلام، ويتفقّد حالها، ويمنحها مودة ورحمة، ويتبادل معها الحبّ بالإشارة والتلميح، ثم يكبت هذا الكابوس في سويداء قلبه، ويدفن هذه الصورَ تحت أطمار ذاكرته، ويعود إلى العاصمة حيث مقرّ عمله، وساحة جهاده، يا ترى من عطاء وتضحية، وتحمّل من أجل الدين![4] وظلّ هكذا حتى اختاره الله عام ١٩٩٩م، وفاضتْ روحه إلى بارئها، وبه انتهتْ مرحلةٌ قصيرة من حياته لتبدأ مرحلة لا نهاية لها!

(١) عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص٤٣٢

(٢) الروح الخالدة: ذكريات عباس علي خان، تحرير عبد الشهيد نسيم، ص١٨

(٣) عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت، ص٢٢٥

(٤) القائد الشعبي عباس علي خان في صفحات الذكريات، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ص٤٨

رجال صنعوا التاريخ وخدموا الإسلام والعلم في بنغلاديش

رجال صنعوا التاريخ وخدموا الإسلام والعلم في بنغلاديش

مولانا إدريس السنديبي

(١٩٣١-٢٠٠٢)

العالم الرباني، رجل العلم والتربية، والدعوة والإصلاح

إنه رجلٌ عظيم من أولئك الأعلام العظماء الذين أنجبتهم هذه البقعة في القرن العشرين للميلاد، إنه رجل العلم والتعليم، والتربية والتوجيه، والدعوة والإصلاح، أنشأ من الجامعات والمدارس الدينية، وأشرفَ على المراكز العلمية، وتولّى رئاسة المجالس العلمية، وقاد من المواكب الدعوية والإصلاحية، وخرّج من العلماء والدعاة والمصلحين، ما خلّد ذكرَه في عباقرة تاريخ الإسلام، وجلب له قلوب ملايين المسلمين، يقلّدونه ويرونه المثل الكامل، وجعله جزءا من التاريخ المجيد، ورفعَ مقامه إلى مقام الخالدين، إنه الشخصية النموذجية لعلماء عصره ومصره، والعالم الألمعي، والشيخ التقي الرباني، والمرشد الجليل، مولانا محمد إدريس السنديبي، مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم «مدني نغر» داكا، ومنشئ «مجلس التعليم للمدارس الأهلية العربية بنغلاديش».

ميلاده ونشأته

وُلد محمد إدريس في «سنديب» بمحافظة شيتاغونغ عام١٩٣١م، في أسرة مسلمة متواضعة،[١] وفقدَ والدَيه في مرحلةٍ مبكّرة من العمر، فكانتْ أعنف صدمة تكفي أن تقضي على مستقبل إنسان، وأن تقف في وجهه وتصرفه عن هدفه، إلا أن إدريس كان بطلا من الأبطال، وأقوىٰ من أن تصدعه الصدمات، وتصرعه الضربات على الأرض، فبدأَ الدراسة في كتاب قريته، ثم درسَ في المدرسة العالية البشيرية الأحمدية بـ«سنديب»، وبعد فترةٍ دخلَ في المدرسة الإسلامية بـ«نواخالي»، وكانت حياته في هذه

(١) مصلح الأمة الشيخ إدريس السنديبي، تحرير المفتي عمر الفاروق السنديبي، ص٣٠

المدرسة مفروشة بالأشواك، محفوفة بالأخطار والعوائق، إلا أنه بفضل شدة شكيمته وقوّة عزيمته تغلّب على هذه المشاكل، واستمرّ في الدراسة بالحماس الكامل.

في محراب دار العلوم ديوبند

بعد أن تخرّج في الثانوية سافرَ إلى الهند، وقد ظل ديدن علماء الإسلام منذ القديم رحلات يطوفون بها البلاد، ويجوبون الصحاري، ويركبون البحار، ويتنقلون بين عواصم البلاد وحواضرها، بحثا عن كنوز العلم ومنابع المعرفة، فسارَ إدريس على منهج السلف حتى وصلَ إلى الهند، ودخلَ في دار العلوم ديوبند عام ١٣٧١ للهجرة، وقضى فيها أربع سنواتٍ، وأخذ العلم على أيدي الأساتذة الكبار ومحدثي الهند وفقهائها، وعلى رأسهم الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ القارئ محمد طيب، والشيخ القارئ أصغر حسين، والعلامة إبراهيم البلياوي، وشيخ الأدب مولانا إعزاز علي، والشيخ ناصر أحمد البلندشهري رَحِمَهُمُ اللهُ، وتخرّج في مرحلة التكميل عام ١٣٧٥ للهجرة، وكان من أبرز زملائه في دار العلوم ديوبند الشيخ أنظر شاه الكشميري، والشيخ بهاء الحسن المرادآبادي، والشيخ مجاهد الإسلام القاسمي.

في زاوية الشيخ المدني

أنشأَ الشاب إدريس صلةً وطيدةً بالشيخ حسين أحمد المدني منذ أيام طلبه، فكان يجلس مجالسه، ويحضر محاضراته العلمية والتربوية، ويتشاور معه في كبائر الأمور وصغائرها، ويراسله ويزوره من حين لآخر، وكان من عادة الشيخ المدني أنه لا يأخذ البيعة من الطلاب أيام دراساتهم، ومن أجل ذلك انتظر الشابّ سنين، حتى لما تخرّج بايع على يده، ومكثَ تحت رعايته في مسجد طوال عامين، كلها العبادة والزهد، والجهد والجهاد، والرياضة والمجاهدة، والذكر والتلاوة، والصيام والقيام، والثبات في العمل، وتحمل الشدائد، والصبر على المكاره، والقناعة بالنزر القليل، والزهد والعفة، حتى مرّت به أيامٌ لا يجد فيها ما يسدّ به رمقه، ويقيم عوده، هكذا انتهتْ فترة «شعب بني المطلب»، فكانت فترةً مباركة، وجاءتْ بأكبر بشارة في حياته، ونالَ الخلافة والإجازة من الشيخ المدني في السلوك عام ١٣٧٥هـ، ثم عادَ إلى وطنه.[1]

من الزاوية إلى المجتمع

تولّى الشيخ إدريس التدريس في المدرسة العالية بـ«كاتغار»، وبهذا بدأ مرحلةً جديدة في الحياة، إلا

(١) المرجع السابق، ص٤٤ و٥٠

أن بيئة المدرسة لم تعجبه، فتركَها وتولّى التدريس في مدرسة دار العلوم بـ«سنديب»، وقضى فيها ثلاث سنوات، وهنا فكّر في إنشاء مدرسة جديدة، ومركز علمي مثالي في قريته «سانتوشبور» التي كانت إذ ذاك غارقة في بحر لجّي من ظلمات الشرك والوثنية، ومرتعا خصبا للبدع، وسوقا نافقة للخرافات، تتصدى لمقاومة تلك الفتن، ومقارعة الشهوات والأهواء، ووضع حجر زاوية "المدرسة الحسينية قاسم العلوم" في نهاية عام ١٩٥٧م، فكانت نواة نهضة علمية دينية كبرى في هذه المنطقة.[1]

إنسان مبارك أينما حلّ دعا وأصلح

قضى الشيخ إدريس معظم حياته في هذه المدرسة، وظلّ يرأسها ويقودها وسط أمواج طاغية من المحن والمعاناة، وعواصف المكر والدسائس من المناوئين، أهل البدع والخرافات، وظلمات البدع والخزعبلات، وظل يتّخذها مقرّا لدعوته وإصلاحه طوال ثلاثين عاما، يجاهد، وينصح، ويدعو ويصلح، وينبّه نفوسا غافلة، وضمائر نائمة، ويفتح آذانا صماء، وعيونا عمياء، وقلوبا غلفا، حتى فتح الله عليه بقعة «سنديب» وما جاورها، وهزمَ أعداءَه، وفضح خصومه، وجعل كيدهم بينهم عظيما.[2]

ثم خرجَ من «سنديب» لنشر العلم في مناطق أخرى، فأنشأَ الجامعة الإسلامية في «إسلام بور» بمحافظة «نارسنغدي» عام ١٩٨٠م، عندما كانتْ هذه المنطقة في الهرج والمرج، وتتخبّط في الظلماء، وتستهلك قواها في الاغتصاب والسرقة، والصراع الداخلي بين السكّان، حتى بارك الله في هذه المؤسسة، وأنبتها نباتا حسنا، وأنار بها المنطقة كاملها، ولا تزال تبثّ النور، وتمحو الظلام.

تأسست جامعة «مدني نغر»

ثم اتّجه الشيخ إدريس إلى داكا، وبدأ يفكّر بقلق واضطراب في تأسيس مركز علميّ في هذه العاصمة الكبرى، ونهض يبحث عن أرض صالحة يقوم عليها الصرح المنيف للدين والعلم، فما هي إلا أيام حتى اشترى أرضا خواء في ضواحي داكا، بمساعدةٍ من بعض أحبائه وأصدقائه، حضرَ فيها ومدّ كف الضراعة إلى الله، ورفعَ صوتَه بالدعاء الخالد "اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا"، فسهّل الله طريقَه، وحقّق حلمه، حتى جاءَ يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٨٤م، وحضرَ العلماء والدعاة من داخل الدولة وخارجها، ووضع حجر الأساس للجامعة الإسلامية بـ«مدني نغر» على يد الشيخ مولانا السيد

(١) المرجع السابق، ص٥٢

(٢) المرجع السابق، انظر ص٦٤ وما بعدها للتفصيل

أسعد المدني، النجل الأكبر لمولانا حسين أحمد المدني، فكان يوما أغرّ في تاريخ هذه الدولة، ثم بارك الله في هذه النبتة الصغيرة التي وُضعتْ على أيدي مباركة، وعلى دموع من العيون المخلصة الساهرة الباكية، حتى تحوّلت هذه المدرسة الصغيرة التي بدأتْ مسيرتَها في العلم والتاريخ بستة عشر طالبا، أصبحت الآن في طليعة الجامعات العربية الإسلامية الكبرى في هذه الدولة، وأصبحتْ ملتقى كبار العلماء والآلاف الطلاب من كل أرجائها.

سبب إنشاء «مجلس التعليم» رغم وجود مجالس أخرى

جاء عام ١٩٩٦م، وقد تحوّل هذا الإنسان إلى منارة هدى رفيعة تبثّ أنوار العقيدة والإيمان في كل ظلام، وإلى دوحةٍ كبيرة يستظل بظلها ملايين الناس، وقد أنشأَ عشرات الجامعات ومئات المدارس والكتاتيب، وقامتْ تحت إشرافه مراكز دعوية ومعاهد علمية كثيرة منتشرة في شتى بقاع الدولة، بدا فكّر الشيخ أن يلملم شتاتَها ويجمعها تحت مظلّة واحدة، ويقوم بها على رصيف واحد لتشدّ بعضها بعضا، وتتحقّق الأحلام بالترتيب والتنظيم، وحل المشاكل، وتقديم الدعم، والتعاون على البرّ والتقوى، فظهر «مجلس التعليم للمدارس الأهلية العربية بنغلاديش» في صورة تلك المظلّة، واجتمعتْ تحتها الجامعات والمدارس والمؤسسات التي انشئتْ على يده أو نشأتْ وترعرعتْ في كنفه.

قد يتساءل القارئ عن مدى حاجة ظهور مثل هذا المجلس التعليمي رغم وجود مجلس تعليمي أكبر وأقوى من ذلك مثل «وفاق المدارس العربية بنغلاديش»، الذي يعدّ أقدم وأكبر مجالس التعليم للمدارس الأهلية العربية بنغلاديش، إذن هل كانتْ ثمّة حاجة إلى إنشائه؟ لعلنا نجد إجابة هذا السؤال عندما نلقي نظرةً عميقةً دقيقة في حياة هذا الإنسان، واضطرابه للدعوة والإصلاح، ونشر العلم وبث الإيمان، وقلقه الدائم على المؤسسات التي أنشأَها أو نشأتْ تحت إشرافه، وتطوير تلك المؤسسات، وتحقيق الأهداف التي أنشئتْ من أجلها، وعلى الحفاظ عليها، يوم يترك الدنيا ويذهب للقاء ربّه، وقد تجلّت هذه العقلية القلقة المهمومة للدين والعلم، والأمة ومستقبل الدعوة، في مواطن كثيرة، وخصوصا في الجامعة الإسلامية دار العلوم «مدني نغر» عندما داهمتها ظلّة من الظلام والغمام من قبل الحكومة، حتى أصيب الشيخ بصدمةٍ عنيفة كانت سبب وفاته من قريب أو بعيد، وعندما كان في سكرة الاحتضار زالَ عن خاطره كل شيء، الأهل والمال، والأصدقاء والأولاد، وكانت الجامعة هي شغلها الشاغل، شغلت منذ فترة مبكرة من حياته مساحةً واسعة، ولا تزال تشغل عند الوفاة.

إذا كان هذا مدى حبّ الرجل لمدارسه وعنايته بمؤسساته، فلا غرو أن ينشئ مظلّة يجمع تحتها

جميع المؤسسات التي خلقها بيديه، وربّاها وسقاها من دمه وروحه، وعصير قلبه وضميره، حتى تكون مترابطةً متعاونةً، وتتقوّى بعضها بالبعض، ومن هنا جاء «مجلس التعليم للمدارس العربية الأهلية بنغلاديش»، واجتمعتْ تحت مظلّته أكثر من ١٥٠ مدرسةً، يرتّب لها الاختبارات المركزية، ويحدد مواعيد الدراسة والإجازة، ويتولى تعيين المدرّسين والموظفين، وترقيتهم، وتخصيص رواتبهم، ولم يكن سببا في تشتيت شمل العلماء، والفرقة في صفوف الجامعات والمدارس العربية، يتجلّى ذلك من خلال كلمة الشيخ مولانا عبد الجبار الجهان آبادي عن الشيخ السنديبي، الأمين العام لـ«وفاق المدارس العربية بنغلاديش» فقال : "كان غايةً من التعاون والإخلاص لـ«الوفاق»، وما لقينا منه إلا خيرا، ونصيحةً، وتعاونا"، وكذا يبرز ذلك من خلال دخول هذه المدارس في الاختبار المركزي لمرحلتي تحفيظ القرآن والتكميل تحت "الوفاق"، ولا تزال هذه السنّة قائمة، شاهدة على إخلاص هذا الإنسان العظيم ونيّته الصادقة، واعتنائه بوحدة العلماء والأمة.[1]

آثاره في ميدان الدعوة وفي جماعة التبليغ

كان داعية مطبوعا، بدأَ عمله الدعوي منذ فترةٍ مبكّرة من حياته، بل كانت حياته كلّها جولات دعوية، وكان على صلة وطيدة مع قادة «جماعة الدعوة والتبليغ» وأركانها، وفي عام ١٩٦٥م عندما انعقد الاجتماع العالمي في مخيّمات الحجاج بشيتاغونغ وحضره قادة الدعوة وفحول العلماء، أمثال الشيخ مولانا يوسف الكاندهلوي، والشيخ المربي الحاج عبد الوهاب، لقي الشيخ محمد إدريس بهؤلاء الدعاة، فكان له أثر كبيرٌ في شخصيته الناهضة ونبوغه المبكر، وفي عام ١٩٦٧م سافرَ الشيخ إلى باكستان وخرجَ في سبيل الدعوة لستة أشهر، وكان الشيخ مولانا يوسف الكاندهلوي رفيقه في السفر، قضوا أربعة أشهر في باكستان، ثم سافروا إلى السعودية وقضوا فيها شهرين، أدوا من خلالها مناسك الحجّ، ثم تطوّرت الصلة بقادة الدعوة في بنغلاديش، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز، أمير الدعوة في هذه الدولة، وقامتْ بينهم صلة الصداقة والودّ الحميم، هكذا تبوّأ الشيخ مكانة مرموقة في قلوب الدعاة الكبار.

لم يكن في مسقط رأسه «سنديب» مركزٌ للدعوة والتبليغ في ذلك الوقت، وبالإضافة إلى قلّة المساجد كان أصحابها وأئمتها تخالف هذه الدعوة، ولم تسمح للدعاة بالإقامة في المساجد والنوم فيها،

(1) انظر مصلح الأمة الشيخ إدريس السنديبي، تحرير المفتي عمر الفاروق السنديبي ص١٤٨و ١٦٠

وهنا نهضَ الداعية الشيخ محمد إدريس السنديبي، فجمعَ نخبةً من أحبائه وأصدقائه، واشترى أرضا ليقيم فيها مركز للدعوة والتبليغ، ثم شارك الشيخ بنفسه في أعمال بنائه، فبنى بيتا للدعوة، وبنى مدرسةً بجانبه للعلم وإعداد الدعاة، فكان أوّل مركز في منطقة «سنديب»، تدفّق عليه الجماعات من كل مكان، وانعقدتْ مؤتمراتٌ حضر فيها قادة الدعاة أمثال الشيخ السيد أسعد المدني، والشيخ مولانا المفتي سعيد أحمد البالنبوري وغيرهما، وبدأ الناس ينتظمون في صفوف الدعاة.

كان من كرامات هذا الداعية الرباني أنه كلّما أنشأ مدرسةً في مكان سرعان ما يتحوّل ذلك المكان إلى مركز الدعوة والتبليغ، ويتوافد عليه كبار الدعاة وعظماء المصلحين، ومن هذه السنة الذهبية، عندما أنشأ الشيخ مدرسة قاسم العلوم بـ«سانتوشبور»، أصبحت المدرسة مركزا حيّا للدعوة والتبليغ، وكان يحضر في احتفالها السنويّ كبار العلماء والمصلحين، وكذلك عندما أنشأ مدرسةً في «دياكول» بمحافظة «كشورغنج» باسم الجامعة المدنية، تحوّل ذلك المكان إلى مركز علميّ كبير للدعوة، كما سافرَ عام ١٩٩٩م إلى بريطانيا وكندا والولايات المتحدّة، وأنشأ في «نيويورك» مدرسة دينيةً.

سرّ نجاح مشاريعه وانتشار دعوته

لعل أكبر فضل الله تعالى على الشيخ محمد إدريس، كان الحبّ الخالص العميق الذي وضعه له في قلوب العباد، حبّ من طراز نادر ما عرفه العشاق، ولا ذاقه المحبّون، فنال به قبولا عاما لدى كل قلب، وإقبالا عظيما من كل إنسان، ومنزلةً رفيعةً في طول البلد وعرضه، وقد ظهرَ أثر ذلك الحبّ في فترة مبكّرة من حياته، ولذلك عندما عاد الشيخ السنديبي إلى وطنه بعد أن تخرّج في دار العلوم ديوبند ونال الإجازة من الشيخ المدني، بايعَه كثيرٌ من الناس في «سنديب» مريدين له، ثم زاد عليه الإقبال بسرعة هائلة، وعندما أنشأ مركزا للدعوة في «سنديب» كان يحضر المركز في كل يوم الخميس، وكان الناس ينتظرونه بفارغ الصبر، ثم لما خرجَ من «سنديب» إلى داكا، وقفَ يومين في «كشورغنج»، فكانت تلك الوقفة نواة مدرسةٍ دينية ظهرتْ باسم «الجامعة المدنية بدياكول»، وعندما حضرَ الشيخ في حفلة الافتتاح بايع على يده معظم سكّان المنطقة، وفي عام ١٩٧٩م لما وصلَ الشيخ إلى محافظة «راجشاهي» في أول رحلته الدعوية لها، بايعَ عليه كثير من المثقفين ورجال المجتمع، ووصلَ إلى «جمال بور» عام ١٩٨٠م، فأحيا فيها مدرسة جمال العلوم بعد أن كانتْ في سرير الاحتضار، وبايع على يده كثيرٌ من الناس.

هكذا بايعه واتبّعه ملايين الناس في التزكية والسلوك، وكان لهم منارا وضاء، وسراجا منيرا، ينير لهم

الطريق وسط الظلام، وكان يجتمع في كل عام مرّة لمدّة يومين مع أتباعه ومحبّيه، بمناسبة المجلس الإصلاحي، فيتدفّق عليه آلاف الناس من أقطار مختلفة في بنغلاديش، ينصحهم الشيخ ويوجّههم، ويصلحهم ويدعوهم، وكان يذكّرهم دائما بأهمية التعليم والتزكية والتبليغ، بل كانت هذه الكلمات الثلاث ركائز دعوته وجهاده، ولم يُرَ يصلي دون الصفّ الأول قط، وكان إنسانا رقيق القلب، نقي السريرة، قريب الدمعة، عذب الروح وعذب الحديث.

جاهدَ طوال حياته ضدّ أهل البدع والخرافات، وأهل القبور والشطحات، وخاضَ معهم مناظرات على رؤوس الأشهاد فغلبهم، وكبح جماحهم، ودحرهم في كل موطن، لم تقم لهم قائمة بعدها، وفي مقابل ذلك واجه معاناة كثيرة، ولقي صنوف الإرهاق، ولما واجهَ الشدائد وسوء التعامل هو وأهل «سنديب» من جيش التحرير خلال حرب ١٩٧١م، وحدّث عن الجيش الباكستاني ولا حرج، رفعَ ضدّهم الصوتَ، وجمع عددا كبيرا منهم في مكان، فيهم القادة والضبّاط، وتلا قوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ثم نصحهم نصحا بليغا، وحثّهم على الوقوف عند حدود الله، والجهاد ضد الطواغيت والاحتلال دون المدنيين الأبرياء، والشيوخ والأطفال والنساء، كما حذّرهم من محارم الله، وارتكاب الظلم ضد قومه، فكان له أثر جميل في قلوبهم.(1)

الشيخ السنديبي في ذمة الله تعالى

بعد هذه الحياة الكريمة الضخمة، الحافلة بالجد والكفاح، والمآثر والإنجازات، مالت الشمس إلى مغربها، وذهب الإنسان المبارك الذي كان بين الناس سراجا مشرقا، يضيء في كل مكان، وكان ذلك يوم ٢٦ نوفمبر عام ٢٠٠٢م، فكان يوما عبوسا قمطريرا، وما إن انتشر نبأ وفاته إلا كان صاعقة على أتباعه ومحبيه، وجن جنونهم، وتوافدوا على مقر جهاده جامعة «مدني نغر» من كل حدب وصوب، وحدانا وزرافات، صلّى عليه نجله الأكبر وخليفته في جامعة «مدني نغر» الشيخ مولانا فيض السنديبي، ودُفن في ساحة الجامعة وسط أمواج من البشر، وفي جوّ من الحزن الشديد الذي ساد طول بنغلاديش وعرضها.

خلّف الشيخ وراءه أمانة كبرى على الأمة الإسلامية بشكل عام، وعلى خلفائه وأتباعه وأحبائه

---

(1) مصلح الأمة الشيخ إدريس السنديبي، تحرير المفتي عمر الفاروق السنديبي ٨٥

بشكل خاص، تركَ على كواهلهم المحافظة على المدارس والمراكز الدينية التي أنشأها الشيخ وتعهدها بدموعه ودمائه، ومجلس التعليم الذي أنشأه للإشراف على تلك المدارس، إلا أن سنّة التدهور والانحطاط أطلّت بقرونها على مآثر الشيخ عقب وفاته، ففترت كثير من المدارس التي كانت حية دافقة في حياته، كما ضعفَ «مجلس التعليم للمدارس الأهلية العربية» وضاق نطاقه، وقلّ أثرُه في تلك المدارس التي كانتْ يوما تحت مظلّته، لذلك فإن التركة العلمية والدعوية والإصلاحية الهائلة التي تركها الشيخ محمد إدريس السنديبي تنتظر بفارغ الصبر نائبا حقّا عنه، وخليفة له، من يقف بجانبها، ويأخذ بيدها، ويُعيد إليها شبابَها ورونقها، وسيرتَها الأولى.

مولانا هارون الإسلام آبادي

(١٩٣٩- ٢٠٠٣)

المفكر الإسلامي، الداعية الكبير، المؤلف الحكيم

هذه قصّة إنسان عظيم، ومصلح من كبار المصلحين والمجدّدين لدولة بنغلاديش، ومن صفوة علمائها البارزين، سما إلى سماء عزّ ومكانة، فكان عجبا في سموّه ورقيه، وكان آية من آيات الله في اللغات والآداب، وعبقريا من عباقرة الترجمة، الذين عرفهم العالم العربي بإنجازاتهم ومآثرهم، وأدوارهم الخالدة في الدعوة والإصلاح، والقيادة والتوجيه، فقدّر جهودَهم، وشكرهم على جهادهم، إنه المفكر الإسلامي، العلامة الأديب، الشيخ هارون بن إسماعيل الإسلام آبادي، رئيس الجامعة الإسلامية فتية لفترةٍ كبيرة، وصانع تاريخ مجيد في صفحات حياتها.

الميلاد والنشأة

وُلد العلامة هارون الإسلام آبادي عام ١٩٣٨ للميلاد،(١) بمحافظة شيتاغونغ، في بيت ورع وتقوى، بيت عُرف بتوارث العلم والجاه، والشرف والصلاح، فقد كان جدّه الشيخ مولانا غلام مصطفى عالما كبيرا متمكّنا، درسَ في المدرسة العالية بكلكتا، وفازَ بالوسام الذهبي في الدراسة والتميّز، ثم توارث أحفاده هذا الشرف وهذه العبقرية، وأصبح هذا الجدّ مدرسةً كبيرةً لذرّيته الذين أصبحوا بعده أعلام الدنيا، وأبطال التاريخ، وقد كان أبوه الشيخ مولانا محمد إسماعيل من أهل العلم والأدب والفضل، وأنجب ثلاثة أبناء، وربّاهم فأحسن تربيتَهم، وكان أكبرهم شيخ الحديث العلامة إسحاق

(١) هكذا جاء في كتاب الدرر الخمس في الأسرة الواحدة، تأليف أرشد يوسف، ص١٢٩

الغازي،(١) وكان أوسطهم المؤلف الكبير البحاثة الشيخ العلامة يوسف الآشيائي، وكان الأصغر وواسطة العقد، هو شيخنا العلامة هارون الإسلام آبادي رَحِمَهُمُ اللَّهُ.(٢)

في سبيل العلم والمعرفة

بدأ الدراسة بكلام الله، فتعلّم القرآن في بيته، وتتلمذ أول ما تتلمذ على يد والده العالم الفقيه الفاضل، ثم التحق بمدرسة ابتدائية عصرية في قريته، وتلقى فيها مبادئ القراءة والكتابة، ثم دخلَ في مدرسة «إمداد العلوم» ودرسَ فيها لفترة يسيرة، وأخيرا دخلَ في الجامعة الإسلامية فتية مع أخيه الأكبر إسحاق الغازي الذي دخلَ فيها مدرّسا، وهناك أثناء دراسته في جامعة فتية توفيّ والده، فتولّى أخوه الشيخ إسحاق تربيته ونشأته، وتوجيهه، فكان خير موجّه ومعلم، وخير شقيق، وناصح أمين لشقيقه، وصاحب فضل كبير في حياته وبناء مستقبله.

قضى الشيخ الإسلام آبادي في جامعة فتية سنواتٍ حتى تخرّج في مرحلة التكميل عام ١٩٦٠م، ثم تخصّص في المنطق والكلام والفلسفات التي كانت تُسمى آنذاك بقسم الفنونات العالية، وكان لها رواجٌ كبير في أوساط المدارس الدينية في شبه القارة الهندية، ثم أشار عليه الشيخ الغازي للرحلة في سبيل العلم واستمرار الدراسة، فسافرَ إلى الهند ودخلَ في دار العلوم ديوبند، وعكفَ على العلم كما يعكف العابد على العبادة، وأخذ المعرفة من كبار الشيوخ، أمثال الشيخ إبراهيم البلياوي، والشيخ السيد فخر

(١) هو الشيخ مولانا محمد إسحاق الغازي، شيخ الحديث بجامعة فتية، والشقيق الأكبر للشيخ هارون الإسلام آبادي، وُلد في «فتية» بشيتاغونغ عام ١٩١٧م، وبدأ الدراسة في بيته، ثم أدخله أبوه في جامعة جيري ودرسَ فيها طوال ثمانية أعوام، ثم سافرَ إلى الهند ودخل في رحاب دار العلوم ديوبند، وأخذ العلوم من أساطينه، أمثال الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ إعزاز علي، والشيخ إبراهيم البلياوي وغيرهم، ثم عادَ إلى وطنه، قضى الشيخ الغازي حياته كلّها في العلم والتدريس، وإعداد العلماء والدعاة، والعمل للشعب والأمة، وتقديم الخدمات إلى المجتمع، فدرّس في مدارس كثيرة، وأخيرا أرست سفينته في ميناء «فتية»، وظلّ فيها إلى آخر عهده بالدنيا، ولقد كان الشيخ إسحاق أول من تولّى الإشراف على قسم التخصص في الفقه الإسلامي، الذي كان أوّل تخصص مكثف من نوعه في تاريخ هذه الدولة، وكان يفتي بشكل يوميّ تقريبا، كما قدّم خدمات إنسانية بارزة إلى قومه، فأنشأ جمعية خيرية باسم «خادم الإسلام»، وساعدَ المحتاجين والفقراء والمساكين مساعدات مالية كبيرة، وجاهدَ طوال حياته ضد القاديانية، والقبورية، وأهل البدع، والصوفية الخرافية، كما أنشأ موسسة باسم «أنجمن هداية الإسلام» لبث العقيدة الصحيحة في المجتمع، والدفاع عن المسلمين، ومحاربة التنصير والرد على المنصّرين، وقد كانتْ لهم حركات قويّة في مناطق شيتاغونغ في ذلك العصر، فأصدرَ كتبا كثيرة للرد على النصرانية، والكشف عن عوارها، وفضحها على الملأ، مع أخيه الأوسط الأديب الكبير، والمؤلف القدير، الشيخ يوسف الآشيائي، وكانتْ لهذه الموسسة دورٌ حميدٌ في محاربة التنصير، وقد توفيّ الشيخ عام ٢٠٠٦م، ودفن في مقبرة جامعة فتية، ولا تزال الحركات التنصيرية في عنفوانها في هذه الدولة، وخاصة في شيتاغونغ، لكن "ردة ولا أبا بكر لها"!

(٢) الأعلام العشرة في جامعة فتية، تأليف مسعود القدير، ص١٠١

الدين، والشيخ السيد فخر الحسن وغيرهم، إلا أنها لم تطل إقامته في ديوبند، فسافرَ إلى باكستان، ودخلَ في الجامعة الأشرفية بـ«لاهور»، ونال الشهادة العليا في الفلسفة، فالداعية لا بدّ أن يتزوّد بزاد علمي شامل، وأن يخطو بعصا من نور الله وعرفانه، يتوكّأ عليها، ويهش بها على غنمه، ولينال بها مآرب أخرى.

عبقري اللغات والآداب

وفي عام ١٩٦٣م عادَ إلى الوطن، وتولّى رئاسة مركز للبحوث والدراسات العليا باسم "إدارة المعارف" في العاصمة داكا، وبدأ يعمل في جريدة «الباسبان» الأردية التي كانت تصدر من داكا، وهنا برزت فيه نبالته ونبوغه في اللغة والترجمة، والإنشاء والتحرير، فانتشرتْ شهرته، وعلا اسمه، وفي ذلك الوقت كان رئيس الجامعة الإسلامية فتية الشيخ الحاج محمد يونس يفكّر في إصدار مجلة شهرية باللغة البنغالية، للدعوة والإصلاح، ولتوعية الأمة المسلمة والعلماء والطلاب، فوقعَ اختياره على هذا النابغة، وأصدرَ مجلّة «التوحيد» الشهرية، وأناط به التحريرَ.(١)

حياته في الإمارات العربية المتحدة وخدماته

بعد استقلال بنغلاديش جاءتْ مرحلةٌ جديدةٌ في حياة هذا الإنسان، ففي عام ١٩٧٥ للميلاد قامت العلاقة الثنائية بين بنغلاديش والإمارات العربية المتّحدة، وأرسلتْ داكا الأستاذ شمس العالم إلى «أبو ظبي» كأوّل سفير لها، فاقترح معالي السفير على الشيخ هارون أن يسافر معه كسكرتير خاصّ له وكمترجم رئيس، ففكّر الشيخ مليا، وتدبّر وتريّث، وطلب مهلة لكي يستخير الله ويدرس الأمر من جميع النواحي، ويتشاور مع مربييه وأساتذته، وأخيرا وافقَ على هذا الاقتراح وسافرَ إلى الإمارات.

لعل الشيخ كان يسعى إلى هدف كبير، ويحدو إلى غاية عظمى، ولا غرو أن يكون ذلك إلهاما سماويًا في روعه، ولعل هذا الذي جعله أن يعمل سكرتيرا خاصّا ومترجما لرجل دبلوماسي، بعد أن قضى حياته كلّها في رحاب المدارس، وعاشَ في صفحات الكتب والمؤلفات، وتربّى على أيدي أئمة الأمة وأعلام العلماء، فالفرص التي سوف تسنح له لبناء مستقبله، وللقيام بدورٍ كبير فعال في الدعوة والإصلاح، من خلال العمل في هذا المجال، قد لا تسنح في مجال آخر، ولنا أن نتيقّن بوجود هذه الغاية العظمى الطاهرة عندما نرى قفزات هذا الإنسان المستمرّة في هذه الفترة، ومراحل حياته المتجدّدة

(١) انظر مقال المفتي إبراهيم الأنوري، جريدة الانقلاب اليومية، ١ يناير، ٢٠١٧م

المتنقّلة، فما هو إلا عامٌ واحد حتىٰ ترك العمل عند السفير، وأصبح سكرتيرا للشيخ أحمد بن عبد العزيز المبارك، رئيس القضاء الشرعي في أبوظبي والمستشار الشرعي للإمارات، وهذه كانت نقطة تحوّل في حياة الشيخ الإسلام آبادي، وبدأت السفينة تتقدّم نحو الأمام وتمضي قدما، ولم تلتفت إلى الخلف قطّ، فكان بعد فترة أن دخلَ الشيخ في المحكمة الشرعية العليا للإمارات، وبدأ يعمل كمحرر ومترجم للعربية والإنجليزية، وأصبح موضع الثقة والاعتماد للإدارة، ونموذجا رائعا للتفاني والإخلاص في العمل، حتى ارتقتْ رتبته ونال عضوية في دائرة المجلس القضائي للإمارات، وسافرَ إلىٰ باكستان في عهد الرئيس المرحوم ضياء الحق مع قاضي القضاة الإماراتي، في بعثة شرعية دولية.[1]

في إذاعة أبو ظبي

كان رجلا واعيا وعالما نبيها، جمع بين الأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث، فكان يحبّ كل وسيلة حديثة تخدم الدين، وتنشر الدعوة والإصلاح، ولذلك نراه يعمل في جريدة «الباسبان» في باكورة حياته، وقد استمرّت معه هذه العقلية المستنيرة حتىٰ دخلَ في «إذاعة أبوظبي» عام ١٩٨٦م، وبدأ يعمل كمقدّم للبرامج الدينية ومدير الحفلات الشرعية، وبعد فترةٍ بدأ يبثّ برامج إسلامية باللغة البنغالية لأول مرّة من إذاعة أبوظبي، كما تولّى الخطابة في الجمع والأعياد، وأصبح عضوا في مجلس الإدارة لمصرف الإمارات الإسلامي، وعضوا لرابطة العالم الإسلامي، وكان مدير مكتب بنغلاديش للرابطة.[2]

في الطريق إلى الوطن وفي جامعة فتية

بعد أن بلغَ القمّة في الشهرة والمكانة، وأنشأ مملكة كبيرة في قلوب المواطنين للإمارات العربية المتّحدة والمقيمين فيها، وصنعَ تاريخا مجيدا كأول شخص بنغالي يأتي من بنغلاديش، ثم يصل إلى هذه الدرجة من الرفعة والمكانة، والعزّ والكرامة، وإلىٰ هذا الشأو العظيم من القوّة الاجتماعية والإدارية، ونال من الحظوة عند العامة والخاصة ما لم ينله أحدٌ قبله في دولة من دول الخليج، وكل ذلك كان بحكم ذكائه وجدارته، وعبقريته وندرته، وجهاده واجتهاده، وصدقه وإخلاصه، وفضل ربه عليه، وما أعانه علىٰ ذلك نسبٌ ولا حسبٌ، ولا مالٌ ولا نشبٌ، إلا أنه رغم كل ذلك، عندما رأىٰ حلمَه قد تحقّق، وأن المحطّة المنشودة قد حضرها، تركَ حياة الإمارات، بين التمر والثمر، والقصور والبروج، وعادَ إلى

(١) الدرر الخمس في الأسرة الواحدة، تأليف أرشد يوسف، ص١٣٤ و١٣٥

(٢) الأعلام العشرة في جامعة فتية، تأليف مسعود القدير، ص١٠٥

الوطن، ليبدأ مرحلة أخيرة في الحياة، وهي أهمّ مراحلها وأفضلها، وأجلها قدرا، وأهداها سبيلا، وأقربها إلى التحقيق لهدفه الأكبر، وغايته العظمىٰ، التي من أجلها استعدّ هذه السنوات الطويلة، وأعدّ لها نفسه، وأخذ العدّة والأهبة، وقضىٰ حياتَه بعيدا عن الدار، وعن الوطن والأقرباء.

في عام ١٩٩١ عادَ الشيخ الإسلام آبادي إلىٰ بنغلاديش، عادَ معروفا مشهورا، عرفه العرب والعالم، وسمع عنه كثيرا بنو جلدته وعلماء وطنه، وكان الشيخ الحاج محمد يونس، رئيس جامعة فتية، في نهاية حياته، وعلىٰ وشك إلقاء السلام علىٰ العالم، وكان يبحث دوما بقلق عن رجلٍ يكون نائبا عنه، وخليفته بعده في قيادة هذا الموكب العظيم، والحفاظ علىٰ هذا الصرح المنيف الذي استنفدَ حياتَه في صنعه وبنائه، ورفع قواعده وقوائمه، رجل يستحقّ بجدارة ذلك المنصب الخطير، فيؤدّي أمانتَه، ويوفيه حقَه، ونظر في الناس حوله، فوجد الشيخ الإسلام آبادي خير الناس، وأفضل من تُسند إليه هذه المسؤولية الكبرىٰ، فاصطفاه لنفسه، وجعله وزيرا في حياته، وما هي إلا أيام حتىٰ أصبح مركز نشاط فكري وعلمي في الجامعة، ثم لما توفي الشيخ الحاج محمد يونس عام ١٩٩٢ للميلاد، اجتمعتْ هيئة الإدارة والشورىٰ للجامعة، وفوّضت إليه رئاستها وقيادتها.

كان خير خليفة للشيخ الحاج محمد يونس وخير وزير له، وخير محافظ علىٰ التاريخ، الذي صنعَه الشيخ المرحوم في رحاب جامعة فتية، فصبّ جهودَه وإمكاناته كلّها في ترقية الجامعة، وأقبل علىٰ رفع شأنها، والارتفاع بمستوىٰ الدراسة والتدريس فيها، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكذلك بين القديم الصالح والجديد النافع، حتىٰ بدأت الجامعة الإسلامية تحثّ الخطىٰ نحو الأمام، وتجري بسرعة البرق نحو الكمال، وأصبح هو من الرؤساء الخالدين في تاريخ الجامعة.[1]

أتقن أكثر من أربع عشرة لغة

كان آيةً من آيات الله في اللغات والآداب، متقنا لأكثر من أربع عشرة لغةً، غاية في الإتقان، بما فيها البنغالية، والعربية، والأردية، والفارسية، والإنجليزية، والبشتونية، والصينية، والبورمية، والتركية والغوجراتية، وكان يتحدّث فيها بكل سلاسة وطلاقة، وبأسلوب راقٍ متين، يجذب به العامة، ويدهش به الخاصة، وكان له إلمامٌ كبيرٌ باللغة التايلاندية، وعندما كان يخطب بالعربية، لم يكن يفطن أحدٌ أنه ليس عربيا، وقد سافرَ إلىٰ بريطانيا، وألقىٰ فيها عدّة محاضرات، غطّاها التلفاز الوطني، وبثّها علىٰ الهواء،

(١) الأعلام العشرة في تاريخ فتية، تأليف مسعود القدير، ص١٠٦ و١٠٧

فكانت لها ضجّة في أوساط المشاهدين والمثقّفين.[١]

للقارئ هنا أن يندهش ويستغرب، عندما عرفَ أن الرجلَ الذي درسَ طوال حياته في المدارس الدينية، وعاشَ على صفحات النصوص الشرعية، وغارقا في المتون والشروح، ولم يتخصص في اللغات والآداب، وإنما تخصّص في الكلام والمنطق، وفي الفلسفة، ثم كيف تعلّم هذه اللغات كلها؟ يخبرنا التاريخ أن الشيخ جُبل على حب اللغات، والاطلاع عليها، والقراءة فيها، وإتقانها، وكانت اللغات هوايتها، وموضوعها الأثير الحبيب، فلم يجعل لها جدولا خاصا، ولم يحدد مرحلة عمرية، وإنما تعلمها في مراحل مختلفة من حياته، في حله وفي ترحاله، في بيته، وفي مكتبه، ومقرّ عمله، على ظهر الحافلة وعلى متن الطائرة، حتى بلغَ من تعلم اللغات وإجادتها منزلةً لا يبلغها إلا قليل من الناس، هذا هو التعلّم الذاتي وهذا هو منهج العباقرة الذين صنعوا التاريخ من دون أن يقرؤوا التاريخ، وأنشأوا الجامعات والمراكز العلمية، من دون أن يدخلوا في المدارس، ويجلسوا في الصفوف، وابتكروا علوما، وكانوا أساتذتها، من دون أن يتعلموها في الكتب، وعلى أيدي الناس، وأثروا مكتبات بني البشر، فتميّزوا عن غيرهم.

صولاته في الصحافة والكتابة

كان كاتبا قديرا، ومصوّرا بارعا، يصوّر بريشته مشاهداته وانطباعاته، بكل دقة وأمانة، فقد بدأ كتابتَه في مستهل حياته، وفي مطلع شبابه، عندما تولّى التحرير في جريدة «الباسبان» الأردية، إلا أن جهوده خلال تلك السنوات تلاشتْ في النار، وذهبت في البخار ومهابّ الرياح، عندما تعرّض مكتب الجريدة للشغب والحريق.

مع ذلك لا تزال له بعض الكتب مطبوعة ومنتشرة في الأسواق، منها ◊ فضائل الصدقات (الترجمة) ◊ الأحكام السلطانية ◊ الاقتصاد الإسلامي ◊ الموطّأ للإمام مالك (ترجمة) ◊ اقرأ حياتي(أدب الرحلة).

مآثره الخالدة في التربية والإصلاح

كان مصلحا من عظماء المصلحين، فرغم توليه عبء رئاسة جامعة كبيرة مثل جامعة فتية، بذل جهدا مشكورا في مجال الدعوة والإصلاح، والإنشاء والبناء، ولم يدّخر وسعا للجهاد والجلاد، وبرزتْ فيه هذه الروح، وروح العمل، وخدمة الخلق، منذ بداية حياته، ولذلك نراه أثناء إقامته في الإمارات

(١) وقد جاء في بعض المراجع أنه كان يعرف نحو ثلاثين لغةً! انظر الدرر الخمسة في الأسرة، تأليف أرشد يوسف، ص١٨١

العربية المتّحدة، أنشأ جمعيات ومؤسسات لخدمة الجاليات البنغلاديشية فيها، ومن أهمها «الجمعية الإسلامية بنغلاديش»، و«جمعية فلاح المسلمين» و«مدرسة الشيخ خليفة البنغلاديشية بأبوظبي»، ولما رجعَ إلى الوطن، زادَ ذوقه في العمل، وشوقه إلى النشاط، وتكرّس الجهد، وبدأَ يسعى سعيا حثيثا، يعمل ليلا ونهارا في الدعوة والإصلاح، فأنشأ مدارس دينية ومعاهد علمية، ومؤسسات دعوية، جمعيات خيرية، وندوات علمية، بما فيها «النادي الثقافي» الذي أنشأه الشيخ عام ١٩٩٧م لهدف التدريب على العربية والبنغالية، ومجلة «الانتفاضة الأدبية» باللغة البنغالية، ومجلة «الصحوة العربية»، ومجلة «بلاغ الشرق» العربية التي نالتْ شهرةً كبيرة واستحسانا داخل بنغلاديش وخارجها، وشاركَ فيها بالكتابة المؤلفون والأدباء الكبار من العرب،[١] كما أسس مجلس التعليم لكتاتيب بنغلاديش، ومؤسسة لإعادة تأهيل المهتدين.[٢]

وكان رئيس المجلس الاستشاري لأكثر من أربعين مدرسة إسلامية، وعضو مجلس الشورى لمئات المؤسسات، كما أشرف على عدد كبير من الجمعيات، ومجالس التعليم، وتولّى رئاسة اللجن والهيئات، وأدار المعاهد والمراكز، وسافرَ في شرق الأرض وغربها وشاركَ في مؤتمرات، وألقى كلمات، وكان أمّة في رجل، ولا تزال الأمّة المسلمة في دولة بنغلاديش تنتظر من يسدّ تلك الثغرة التي حصلتْ في كيانها، في مساء ٢٧ من سبتمبر عام ٢٠٠٣ للميلاد، عندما امتلأتْ حياتُه جهدا وجهادا، وسعيا وصبرا، وفضلا وعطاء، وانتقلَ إلى جوار ربّه، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.[٣]

(١) انظر قطب الزمان شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس: حياته وأعماله وخدماته، لمولانا محمد حبيب الله ص١٩٥

(٢) الدرر الخمس في الأسرة الواحدة، تأليف أرشد يوسف، ص١٥٠ وما بعدها

(٣) الأعلام العشرة في تاريخ فتية، تأليف مسعود القدير، ص١٠٨

مولانا نور الدين الجوهربوري

(١٩٢٤-٢٠٠٥)

الشيخ الربّاني، والمرشد الحكيم، وقائد العارفين

يعدّ هذا الإنسان من أبرز خرّيجي المدرسة الفكرية والسلوكية التي أنشأها العلامة السيد حسين أحمد المدني، ثم بنى بنفسه بيتا أصبح هو الآخر مدرسةً سلوكية كبيرة، ومركزا علميا خالدا، درّس فيه الحديث النبويّ أكثر من نصف قرن، وخرّج علماء أعلاما، لهم كلمة مسموعة لدى الشعب، وصولة وجولة في الدعوة والإصلاح، وقدح معلى في ميدان السياسة والقيادة، حتى أصبح هذا الإنسان محطّة أنظار العلماء، ومراح أرواحهم، وموضع ثقتهم واعتمادهم، وخير مربّ لهم وخير موجّه، اتّجهت إليه الأنظار، ونيطت به الآمال العريضة، وعهدت إليه من المسؤوليات الحساسة والأعباء الثقيلة ما تنوء به عصبة من الأشداء، وهو يحمله بكل تؤدة وطمأنينة.

كان منارة هدى لملايين البشر في دولة عمّها الظلام، فيحمل مصباح النور ونبراس الرشد، ويمحو الظلام، ويبيد الضلال، يدرّس في النهار، ويُسري في الليل، ويجوب في أرجاء البلد، ويحضر في المحافل الدينية، ومجالس العوام والعلماء، ويعظ، وينصح، ويوجّه ويدعو، مع أنه لم يكن خطيبا مثيرا للجماهير، ولم يكن صاحب صوتٍ شجيّ ساحر، لكنه كان صاحب قلب نقيّ شفّاف، يتصدع على حال الأمة وفسادها، ومرض قلبها، ويتحرك ويتحرّق لإصلاحها، وكان حديثه يخرج من ذلك القلب، فلا يستقرّ إلا في القلوب، ولا يبقى عند حدود ظاهرة من العلم والأذن، فيبكي بنفسه، ويبكي الناس، إنه الشيخ الرباني الكبير، والمرشد الحكيم، وقائد العارفين، شيخ الحديث العلامة نور الدين أحمد الجوهربوري.

الميلاد والنشأة

وُلد نور الدين في «بالاغنج» بمحافظة «سلهت» عام ١٩٢٤م، في أسرة ذات علم وصلاح، كان أبوه الشيخ مولانا ظهور الدين عالما ربّانيا، فتوارثَ عنه العلم والربانية، وبدأ الدراسة على يديه، إلا أنه فقد هذا الظلّ الوارف في صغر سنّه، وأصبح يتيم أبيه وهو صبيّ لم يشبّ عن الطوق، وهنا نهضت أمه، وقد تكون المرأة أرجل من الرجال، فأخذت بيد الصبيّ، وألحقته في المدرسة العربية العالية بـ«عيساموتي»، وبعد ذلك بعثتْ به إلى الشيخ الرباني الكبير بشير أحمد المعروف بـ«شيخ باغا»،[١] وفوّضت إليه أمره، فكان ذلك نقطة تحوّل في حياته.

في رحاب ديوبند

درسَ في مدرسة «باغا» فترةً طويلةً تحت إشراف شيخ باغا، ثم سافرَ إلى الهند، ودخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وأخذ التفسير والحديث، والفقه والأدب، على الأساتذة الكبار، كان على رأسهم العلامة حسين أحمد المدني، حتى تخرّج عام ١٩٥٠م، واحتلّ المركز الأول في الاختبار السنويّ لمرحلة التكميل بين جميع طلبة دار العلوم ديوبند، وكان من زملائه فيها خطيب الملة الشيخ عبيد الحق الجلال آبادي، والشيخ مولانا أمين الدين المعروف بـ«شيخ قاطعة»،[٢] ثم تخصّص في الفقه والحديث تحت إشراف الشيخ المدني، وعادَ إلى الوطن عام ١٩٥٢م.[٣]

(١) إنه الشيخ مولانا بشير أحمد بن خورشيد علي المعروف بـ«شيخ باغا»، وُلد عام ١٨٩٣م في محافظة «سلهت»، درس المراحل الابتدائية في منطقته، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في مدرسة «مرادآباد»، وأخذ الحديث من الشيخ الرباني فخر الدين المرادآبادي، وبايع الشيخ المدني في السلوك ونال منه الإجازة، من أبرز مآثره تأسيس جامعة عربية إسلامية عريقة معروفة باسم «مدرسة باغا»، كما أنشأ وأشرف على مدارس ومؤسسات دينية كثيرة، وكان عالما عابدًا، وشيخا ربانيا، ومربّيا حكيما، ربّى الشيخ نور الدين الجوهربوري فأحسن تربيته، كما بايع على يده عددٌ كبيرٌ من الناس واستفادوا في السلوك والربانية، وقد اختاره الله عام ١٩٨١م.

(٢) هو الشيخ الكبير أمين الدين السلهتي المعروف بـ«شيخ قاطعة»، وُلد عام ١٩١٨م في قرية «قاطعة» بمحافظة «سنام غنج»، درسَ في دار العلوم ديوبند على أيدي الأساتذة الكبار، وعلى رأسهم العلامة حسين أحمد المدني، ثم عادَ إلى مسقط رأسه، وأتى بانقلاب كبير في التعليم والتدريس، فأسس مدارس دينية ومراكز علمية كثيرة، للبنين والبنات، من أبرزها الجامعة الإسلامية دار العلوم بـ«وليتلي» و«قاطعة»، كما أنشأ معاهد لتحفيظ القرآن الكريم، وقد سافر إلى الحرمين مرات هائلة، وأدى مناسك الحج أكثر من ٤٣ مرة، وكان حربا على البدع والخرافات، والفواحش والمنكرات، كلما كان يسمع بفاحشة تكاد أن تقع، يقف في وجهها سدا منيعا، فلم تقم دار السينما في منطقته أيام حياته، وقد توفي هذا الشيخ العظيم عام ٢٠١٠ للميلاد، وصلى عليه أكثر من خمس مئة ألف مسلم. رحمه الله رحمة واسعة.

(٣) مقال الشيخ تفضل الحق الحبي غنجي، مجلة الكوثر الشهرية، أكتوبر، ٢٠١٤م

تأسيس جامعة «جوهربور»

بدأ الشاب نور الدين مرحلة التدريس في المدرسة العالية بـ«بانغاشيا» في محافظة «بريسال»، وتولّى فيها منصب شيخ الحديث، فكان ذلك إرهاصة مباركة لمستقبله، وبعد عامين انتقلَ إلى مدرسة «باليا» ودرّس فيها ثلاث سنوات، حتى جاءَ عام ١٩٥٧م، فوضع حجر زاوية الجامعة الإسلامية الحسينية في مسقط رأسه «جوهربور»،[١] المدرسة التي أصبحتْ في مقدّمة المراكز العلمية في هذه الدولة، وكانتْ مقرّ عمله، وساحة جهاده، وزاوية التزكية والسلوك، ومصنعه الذي كان يصنع فيه الرجال، ويبني الأجيال، وتولّى الشيخ الجوهربوري رئاستها منذ أول يومها، وأدارها ووجّهها، ودرّس فيها إلى آخر عهده بالدنيا، وخرّج من خلالها عددا هائلا من العلماء العاملين، والدعاة والمصلحين، يعتزّ بهم الشعب برمّته، وكان على رأس من نشأ على يديه وتربّى تحت ظلاله الشيخ مولانا غياث الدين، المعروف بـ«شيخ باليا».[٢]

بين الزاوية والقيادة

طغى في الشيخ الجوهربوري جانب السلوك على جانب السياسة، فكان رجل الزاوية أكثر من أن يكون رجل الشوارع، وكان فارس الدعوة والإصلاح قبل أن يكون فارس القيادة والحكومة، إلا عندما تلتقي السياسة مع الدين، وتختلط مع الشريعة، وتمسّ شغاف الإيمان والإصلاح، فتكمن للدين والأمة مصالح ومنافع، أو تهدّد بهما وتقف في طريقهما، وهنا كان الشيخ في طليعة السياسيين، ومقدّمة

(١) انظر تاريخ تأسيسها في كتاب جامعة جوهربور والعلامة الجوهربوري، تأليف عبد العزيز الغوريبوري، ص٤، وكذلك كتاب جوهربور: مدينة الحديث، تأليف مولانا عبد الغفور الشاريشبوري، ص٣٤

(٢) هو الشيخ الرباني مولانا غياث الدين بن طيب الدين المعروف بـ«شيخ باليا»، انتسابا إلى قريته التابعة لمحافظة «مؤمن شاهي»، وُلد عام ١٩٣٨م، وتوفي عام ٢٠١٣م بعد حياة حافلة بالإنجازات والمآثر، والخدمات الجليلة في الدعوة والإصلاح، والتعليم والتربية، التي قدّمها إلى أهل «مؤمن شاهي» خاصة، وإلى أهل بنغلاديش عامّة، درسَ في مدرسة أشرف العلوم بـ«باليا»، ثم دخلَ في مدرسة «جوهربور»، وأخذ العلم تحت إشراف الأساتذة الكبار، وعلى رأسهم الشيخ نور الدين الجوهربوري الذي صاغَ حياته وربّاه تربية حسنة، فكان مثل ابنه، وعضوا من أعضاء أسرته، ثم تولّى التدريس في «جوهربور»، وبعد فترة طويلة طلب الشيخ مولانا دولت علي رئيس مدرسة «باليا» من الشيخ الجوهربوري أن يعطيه غياث الدين كمحدّث في مدرسته، فأذن له الشيخ الجوهربوري، وانتقل الشاب غياث الدين إلى باليا، وظلّ فيها يدرّس، ويحدّث، ويدير ويرأس حتى آخر عهده بالدنيا، وقد تحلّى مع الأيام بفرط ذكائه، ونزاهته وصلاحه، وعلمه وفراسته. موضع ثقة علماء «مؤمن شاهي»، ومن طليعة الدعاة والمصلحين، وفوّضت إليه رئاسة المجلس الأعلى لجمعية «اتفاق العلماء»، وهي جمعية غير سياسية، وأكبر منصّة لوحدة علماء «مؤمن شاهي»، وقد شارك في «جمعية علماء الإسلام» وكان له دورٌ كبير في مواطن مختلفة، كما قاد الحركات والاحتجاجات ضدّ الإلحاد والعلمانية. قضى معظم حياته في التدريس والإصلاح، والجولات الدعوية في أرجاء الدولة، كما سعد أن يظلّ شيخا داعيا وناصحا أمينا، وكان صورةً صادقةً حيّة للشيخ الجوهربوري، وكان خليفة له في السلوك، ثم بايع على يده آلاف الناس، فكان لهم منارة هدى، ونبراسا في الطريق، ولا يزال الناس يشكرون له، ويذكرونه في الدعوات.

القياديين، يدخل في غمار السياسة ويكتوي بنارها، ويشارك في الانتخابات، وينزل في الشوارع، ويقود المظاهرات، ويدير المواكب، ومن هنا وضعَ ثقتَه في «جمعية علماء الإسلام»، ودخلَ في الانتخاب العام للمجلس الوطني بباكستان عام ١٩٧٠م، وكاد أن ينتصر على نظيره لولا أنها كانت الانتخابات قد فسدتْ منذ أول يومها، وأصبحتْ ساحةً منقلبة الموازين، يتحدّث فيها المال، وتصمت المعنويات، ويعلو فيها صوتُ الكذب، ويظلّ الصدق واجما هامدا،[1] فتبرّم الشيخ من هذه السياسة، وألقى عليها سلام الوداع، بعد أن عاش فيها جزءا كبيرا من حياته، وكان من فرسانها، وسيدا من ساداتها، لكن المعاناة لم تودعه، ولما انفصلت بنغلاديش عن باكستان عام ١٩٧١م، وقامت هنا حكومة جديدة، زجّت بالشيخ في السجن لموقفه من حرب الاستقلال![2]

رغم أنه طلّق ميدان السياسة الحكومية، وتنزّه عن أوضارها، وتنفر من نارها وأوارها، إلا أن القيادة للموكب البشري، وتوجيه العلماء وتربية الأجيال، وإدارة دفّة سفينة الأمة المسلمة إلى الخير والفلاح التي قيّضه الله لها وأعدّه من أجلها، لم يتركها قط، فظلّ محطة قلوب العوام، وموطن ثقة وقوّة واعتزاز العلماء، وكان رجال السياسة البارزون وقادة الأحزاب الإسلامية من العلماء الكبار يتشاورون معه، ويستمدّون منه زادا على الطريق، ويستفيدون من تجاربه، فأناطوا به الإشراف على المدارس وتوجيه المؤسسات الدينية والمراكز العلمية بعدد يفوق التصور، وهنا برز نبوغُه، وتجلّت عبقريته، حتى اؤتُمن على أغنى ثروة تاريخية، وتركة علمية وإيمانية لعلماء هذه الدولة، واختير الأمين العام لـ«وفاق المدارس العربية بنغلاديش» عام ١٩٩٦م، وظلّ في رئاسته إلى آخر لحظة من حياته، فكان خير أمين.

صورة حية من السلف الصالح

أما عن عبادته وإنابته، وتواضعه وورعه، وكرمه وإحسانه، وخشوعه في الصلاة، وتضرعه وابتهاله في الدعاء، وزهده في زخارف الدنيا، وإيثاره للآجلة على العاجلة، والحنين إلى لقاء الله، فحدّث عنها ولا حرج، وأطلق للسان زمامَه يحدّث بما يشاء، ويسجلّ ما يُريد، فقد وُلد هذا الإنسان في بيئة حيث العلم والأدب، والحبّ والأحباب، ثم ترعرعَ في جوّ السلوك والروحانية، ونشأ على عالم ربّاني مثل «الشيخ باغا»، وعندما كان في دار العلوم ديوبند استفادَ من سلوك الشيخ المدني وعرفانه، كما استفاد من

(١) مئة من عظماء البنغال: أشرف علي النظامبوري ص٣٣٣

(٢) جامعة جوهربور والعلامة الجوهربوري، تأليف عبد العزيز الغوربوري، ص٢٠

علمه، ثم بايع على يده، وظلّ في رحاب ديوبند يجاهد ويجتهد، ويروض نفسَه على العبادة والإنابة،[1] ولما توفي الشيخ المدني بايع أبرز خلفائه، وأصفى أحبائه الشيخ مولانا حبيب الرحمن الرايبوري، ونالَ منه الخلافة والإجازةَ.[2]

أسرار قبوله وأسباب سعادته

كان قصير القامة، وصغير الجسم، تعلوه سمرة، وركيك العود، وضعيف الجسد، وضامر البدن، نضلا من لحم، فضلا من شحم، وزاهدا متقشّفا، وغير متصنّع في الزي واللباس، وما خصّ نفسَه بطيب مأكل أو لين ملبس، لكنه كان قوي الإيمان، وكثير الفهم، وقوي الشخصية، وشديد الاعتزاز بالدين، له شهامة وأنفة، وكلّ همّه نشر الإسلام، وبث العقيدة الصحيحة، ونفخ روح الإيمان واليقين في القلوب، فوضع الله له إقبالا مطلقا، وقبولا عاما، وحبّا جمّا عميقا في قلوب الناس، فأحبه ملايين البشر، وتوثّقوا به، وانضمّوا إلى زاويته، وبايعوا على يده، واتّخذوه دليلا لهم إلى الصراط، وزادا على الطريق.

كان يسهر ويُسري في الليل، ويحضر في المحافل والمجامع، ويرتفع صوتُه بقول الله وقول رسوله، فيعلو البكاء، ويطغي العويل على الصمت الواجم المخيّم على ظلام الليل، كما كان الناس يموجون عليه من كل جانب ليستمعوا إلى حديثه، وليصلحوا ما فسدَ في الباطن، وليشاوروه في أمور الدنيا والآخرة، كما نالَ حبّا وتكريما من العلماء، وكرامةً من أترابه، واحتراما من معاصريه، وكان موضع تقديرهم وإعجابهم، ولعلّ السرّ في ذلك كان خُلقه، وطريقة تعامله مع العلماء ومع عامّة الناس، فكان صاحب مكارم الأخلاق، وعلى قمّة من المعالي والكرامة وحسن التعامل، وأليفا ودودا، وصاحب عقل وسكينة، وتخشّع وتواضع، مع هيبة ووقار، وعزة نفس، وكان إنسانا ذا قلب صافٍ سليم، وصدوق اللسان، ومخموم القلب، لا يحسد ولا يبغض، تقيا نقيا، ويتحدّث بما يراه حقّا وصوابا، ولين الجانب، ومتواضعا مطبوعا، لا يصانع التواضع، ولا يتكلّف الحبّ والصداقة، ولا يسلّط رأيه على غيره، وكانت له كشوف وكرامات، ووقائع غريبة كثيرة يطول بذكرها الكتاب، فكافأه العلماء المعاصرون إحسانا بإحسان، وأعطوه من الحبّ والكرامة ما لا يعطي معاصرٌ لمعاصره.

(١) انظر حياته في مذكرة الجامعة الإسلامية الحسينية جوهربور، بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما على تأسيسها، ص١٩

(٢) الذين ورثناهم: حياة وأعمال مئة من العلماء والمشايخ، للشيخ مولانا حبيب الرحمن، ص ٤٠١

الشيخ الجوهربوري في ذمة الله

نقد سعى طيلة حياته لوحدة الأمة، والقيام بالعلماء على رصيف واحد ليرتفع منه صوتُهم متعاونين متكاتفين، فكان موجّه العلماء، وحارس الأمة، والمناضل عن شرع الله، وقد أحس الشعب البنغالي بعلمائه وعوامّه، بحجم الفاجعة التي فجعتْهم شهر إبريل عام ٢٠٠٥م، عندما انتقل الشيخ إلى رفيقه الأعلى، وقد أحدثتْ وفاته هوّةً كبيرةً في كيان الأمّة لا تزال تنتظر من يسدّها.

مولانا إسحاق الفريدي

(١٩٥٧-٢٠٠٥)

الداعية المصلح، رجل العلم والقلم، والصبر في سبيل الله

رجلٌ لم يعش إلا فترةً محدودةً من التاريخ، ولم يمتدّ عمره على أكثر من ثمانية وأربعين عاما، وهل هو في حساب الزمن الطويل يعد شيئا ذا بال؟ مع ذلك عندما تقرأ حياته تخاله أسطورة، قدّم إنجازاتٍ عجزَ عنها ملايين المعمّرين، وقامَ بأعمال لا تقوم به إلا لجنةٌ محكمة أو مجمع علميّ كبير، وأسدى خدماتٍ إلى دينه وشعبه سجّلت اسمَه في قائمة الخالدين، تمثل ذلك في العطاء السخي، والمجهود العلمي في محاضراته ومؤلفاته، وجولاته الدعوية في أرجاء الدولة، فكتبَ في عمره القصير أكثر من خمسين ألف صفحة، وأدارَ مركزا علميّا كبيرا أصبح تحت رعايته في طليعة الجامعات العربية الإسلامية في هذه الدولة، وأشرف على مدارس ومجامع، وتحمّل أعباء ثقالا من المسؤوليات الكبرى ما ينوء بالعصبة أولي القوّة، فماذا لو عاش أطول! إنه الأغر المحجّل بين العلماء، والكاتب الربّاني، والنموذج المعاصر للسلف الصالح، ورجل العلم والقلم، والمؤلف الكبير في المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، ورئيس جامعة «تشودري بارا» داكا، الشيخ مولانا إسحاق الفريدي.

ميلاده ونشأته وتحصيله للعلم

ولد إسحاق في «غزاريا» بمحافظة «منشئ غنج» عام ١٩٥٧م، في أسرة مسلمة شريفة، وكان وحيد أبويه، بدأ الدراسة في بيته، ثم أدخله أبوه في مدرسة تحفيظ القرآن، فاستظهره في صغره، ثم درسَ في الجامعة العربية إمداد العلوم بـ«فريدآباد» داكا فترةً، وتخرّج من الجامعة الشرعيّة بـ«مالي باغ» داكا، وأنهى مرحلة الدراسة والتحصيل.

نعم لقد أنهى الشيخ إسحاق مرحلة التحصيل، لكنه لم يجرّد نفسه عن طلب العلم، ولم يخلع صفته "طالب العلم"، فقد ظلّ يطلب العلم إلى آخر لحظة من حياته، بل زادَ من حماسه للدراسة، والطموح إلى المزيد من المعرفة، والشوق إلى الاطّلاع على التاريخ والثقافة، والحضارة العالمية، والتنوّع في التحصيل، فجاء التغيير في المراحل وليس في الهدف والغاية، وتبدّل الاسم وحدَه بينما المسمى ظلّ في حقيقته وواقعه، وتولّى التدريس في الجامعة العربية قاسم العلو بـ«كُمِلّا»، ثم درّس في الجامعة المدنيّة بـ«بريدارا» داكا، عندما دعاهُ شيخه الأستاذ مولانا نور حسين القاسمي، وظلّ فيها فترةً يدرّس ويجتهد، حتى طار صيتُه، وعلا نجمه.

مدير مدرسة ومربي جيل

بينما كان الشيخ إسحاق في الجامعة المدنية قامتْ في منطقة «تشودري بارا» مدرسةٌ دينية جديدة، كانتْ قد بدأتْ مسيرتَها وتبحث عن قائد يقودها إلى المعالي، هنا جاءَ الشيخ إسحاق الفريدي وتولّى رئاسة هذه القافلة الجديدة وقيادتَها في طريقها، وهنا برزَت عبقريته، وحكمته في القيادة والريادة، وجهاده الدؤوب لصالحها، والدفاع عنها، وتوجيهها إلى العلى، وظلّ يقودها طوال خمسة عشر عاما، حتى أصبحت مدرسة «ذو نور الدين» من طليعة المدارس العربية الإسلامية في العاصمة، وتخرّج منها في هذه الفترة من العلماء العاملين والكتّاب والمؤلفين والدعاة والمصلحين بعدد يستحيل إحصاؤه.

هنا يبرز جانب من أهم جوانب حياة هذا الإنسان العظيم، وهو جهاده الدؤوب وسعيه الحثيث في تحقيق الهدف، وتحمّل المشاقّ، وتجشّم المصاعب، واستحلاء المرائر، واستحباب المكاره في سبيل العلم والمعرفة، والبذل والفداء، والعطاء والتضحية لرفع كلمة الله، والدفاع عن حصنٍ من حصون الدين، فلم تكن أيامه الأولى في المدرسة الجديدة أيام الراحة والرفاهية، ولم تكن طريقُ هذه القافلة الجديدة مفروشة الورود، تتقاطر عليها التهاني من كل وجه وفي كل محطّة، بل كانتْ محفوفةً بالأخطاء، مثبّطة للثبات والاستقامة، ومزحزحة لأولي العزم من الرجال، وكانت القضية الاقتصادية تمثل الإشكالية الكبرى، وأكبر عائق في طريق هذه المؤسسة الجديدة، فنزل الشيخ في الميدان وانبرى لهذه المشاكل، وغلبَها واحدةً تلو الأخرى.

أسطورة العلم والقلم وكراماته في ميدان التأليف

أدركَ الشيخ الفريدي أهمية الكتابة والتأليف منذ وقت مبكّر من حياته، فنزل في ميدانها، وشمّر عن ساق الجد، واجتهدَ وجاهدَ، وسعى سعيا حثيثا، حتى برز عالم اللغة والأدب، والترجمة والإنشاء، وغدا رمزا فريدا للكاتب الإسلامي، وصاحب القلم السيّال بعلوم الدين، والاطلاع على التاريخ والمدنية، وكتبَ في غضون فترةٍ يسيرة ما عجزَ عنه معظم الكتاب والمؤلفين، وليست القضية هي عدد الصفحات التي كتبَها أو الكتب التي نشرَها بوحدهما، وإنما هي قيمة الموضوع، وعمق البحث، ومدى إحاطته واستقرائه، وبعد بصيرته.

كتبَ في بداية حياته «تاريخ الأضحية ومسائلها»، فكان باكورة إنجازاته ومقدّمة مسيرته في هذا الدرب، ثم ظل يكتب ويؤلف، ويترجم ويبحث، حتى كتبَ ما يزيد على سبعين كتابا،[1] والسر في ذلك أنه كان مؤلفا حاضر البديهة، وعفو القريحة، لا يتصنع كلامه، ولا يُكرِه قلمه، بل يتركه حرا طليقا يجري على فطرته، ويكتب برشاقته، وقد كان يكتب في كل حين وفي كل مكان، لا تقلقها الأصوات، ولا تعرقلها الزيارات، يتبادل الحديث مع ضيفه أو زائره بلسانه، ويكتب بيده في ذات الوقت![2] ولا غرو أنه من كرامات مؤلف مسلم صبور، ومن بركة حياة مؤمن محافظ على وقته.

من أبرز ما كتبَه: ◊ تاريخ الأضحية ومسائلها ◊ النظام الاقتصادي والمصرفي في الإسلام ◊ الخمر والقمار واليانصيب في ميزان الإسلام ◊ الربا وآثارها المدمرة في الاقتصاد ◊ الصراع بين الحقّ والباطل (نظرة في تاريخ الضلال) ◊ الجهاد في صميمه ◊ الخلافة والسياسة في الإسلام ◊ بين القاديانية وختم النبوّة ◊ عصمة الأنبياء عليهم السلام (الأردية) ◊ الإسلام والدولة والسياسة ◊ هل الإنجيل كتاب سماوي ◊ التثليث في ضوء القرآن ◊ الإسلام ودوره في الأمن العالمي ◊ المسلمون في قفص الخرافات ◊ الزواج الإسلامي ◊ تحديد النسل: في ميزان القرآن والعقل ◊ منهج الدعوة وصفات الداعية ◊ الإحسان والتصوّف والتزكية في ضوء القرآن والسنّة، وكان عضوا مهمّا في قسم الترجمة بـ«المؤسسة الإسلامية بنغلاديش»، وقد ساهمَ في ترجمة أمهات الكتب العربية ودواوين السنة والتاريخ إلى اللغة البنغالية، بما فيها صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وتفسير الطبري، والفتاوى الهندية، وإعلان السنن، والموسوعة الإسلامية وغيرها.

(١) مقال المفتي عنايت الله، في ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، ص١٦٤

(٢) من حديث الشيخ حفظ الرحمن، في ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، ص٩٠

شهادته في وسط الطريق

لقد كان الشيخ إسحاق في طور البروز والظهور، وفي عهد الانفتاح والتطوّر، أطلق عنان قلمه، فلم يرتعش في يده يوما من الأيام، وبدأ يعكف على الكتابة والتأليف، ويصدر كتابا تلو الآخر، وكان حين يمسك القلم تتدفّق عليه المعاني، وتتابع الأفكار، وتفيض الخواطر، وهكذا كاد أن يتربّع على عرش الأدب البنغالي المسلم، ويكتب اسمه في تاريخ الثقافة الإسلامية في هذه الدولة، إلا أنه هنا فوجئ بالأجل، وبادرَه الموتُ قبل أن يبادره إلى هدفه، وفجعت به الأمة المسلمة في حادث سيّارة رهيب أودى بحياته عام ٢٠٠٥م، وهو في طريقه إلى شيتاغونغ، يذهب إلى مرشده الشيخ ضمير الدين النانوبوري ليشارك في مجلس ديني، وليهدي إليه كتابه «الإحسان والتصوّف والتزكية في ضوء الكتاب والسنّة» الذي كتبَه بأمر منه، فكان مسك الختام!

أسباب نجاحه وأسرار تميَزه

قد يتساءل هنا القارئ المعاصر والدارس للحركات العلمية الدينية التي جاءت مؤخرا أن الكتاب تعج بهم اليوم الأسواق، والمكتبات الإسلامية مليئةٌ بالكتب الدينية، والعلماء أصبحت لهم شوكةٌ وصولةٌ في ميدان التأليف، ووسائل الإعلام، إذا كانتْ هذه هي صورة صادقة لعلماء هذه الدولة، ومكانتهم في اللغات والآداب، وفي مجال الكتابة والترجمة، فما هو سرّ أهمية وجود كاتب مثل الشيخ الفريدي؟ وأين تكمن الفداحة في موته، وفي غيابه عن الساحة؟

لقد كان الشيخ الفريدي فريدا في نوعه، ونموذجا رائعا نادرا في الجمع بين العلم والصلاح، والهيبة والتواضع، والمكانة والخضوع، وسعة الاطلاع ورحابة الصدر، وكانت حياته تتزيّن مع علوّ الكعب في العلم والمعرفة بشدّة الحبّ للعلماء، والتكريم للأساتذة، والاحترام للسلف، والصلة المتينة بمن نشأ على يده وترقّى تحت رعايته، فكان محببا لدى شيوخه وتلامذته، ومقبولا عند الجميع، ومخموم القلب، لا يحسد ولا يحقد، ولا يحابي ولا يتملّق، وكان صورةً صادقة لسلف الأمة، فوضع الله له قبولا في الناس.[1]

كتبَ عنه العالم الجليل، والمرشد الرباني الكبير، شاه ضمير الدين النانوبوري رَحِمَهُ اللهُ: "لقد كان «ابني» هذا إنسانا كاملا، جامعا بين ظواهر العلوم وبواطنها، ومجاهدا باسلا في نشر العقيدة الصحيحة ومحاربة البدع والخرافة، وكان «سلطان القلم» و«أمير البيان»، لو طالت به الحياة وعاشَ بعدي، لسلّمتُ

(١) من كلام مولانا أبي صابر عبد الله، في ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، ص٨٩

إليه أمانة كبرى تحملتُها من أسلافي"،[1] وكان الشيخ الفريدي قطعة من قلبه، يحبه حب الخليل لخليله.

كما كتبَ عنه خطيب الملة العلامة عبيد الحق الجلال آبادي إثر وفاته: "إنه كان أصغر منا سنّا، لكنه أكبر منا علما، وأحسن عملا، وأكثر إنجازا"، وكتب عنه شيخ الحديث العلامة عزيز الحق: "كان أصغر منا سنا، لكنه أصبح أسطورة في العلم والسلوك والتأليف! وكان نسيج وحده في خدماته للدين والأمة، سبق علمُه سنَّه، وغلبَ عملُه عمرَه".[2]

كان الشيخ مؤمنا عميق الإيمان بدينه ورسالته، وفصيحا بالغ الفصاحة، وقوي الحجة، كرّس كل ما أوتي من العلم والذكاء واللسان والقلم في سبيل الله، وفي الدعوة إلى الإسلام، وكان يحلم بتأسيس مجتمع مثالي على أساس شريعة الإسلام، وإنشاء دولة تقوم على قاعدة القرآن، لكنه لم يكن ليبني حلمه على الهواء، وليؤسس قصره على الماء، بل كان يؤمن بما يكتب، ويعمل بما يقول، ويستحضر ربه في كل ما يفعل، ويحتسب فيما يأمر به وينهى عنه، ويكون أول من ينزل في الساحة بعد إعلان الحرب، وقد نزل في ميدان السياسة، وشاركَ في الحركات السياسية الإسلامية، لنشر الدين الصحيح ورفع رايته، ومحاربة الإلحاد والعلمانية واللادينية، وجاهدَ لذلك حق جهاده، ولم يكن قط مثل الذي يمطر بقلمه النار، ويرمي القذائف، ويدكّ الملوك، ويقيم الدنيا ويقعدها، وهو وراء كواليسه، وعلى كرسيه، وفي مكتبه، هادئ النفس، مطمئن البال، المتمتع برفاهية الحياة والعيش الرغد، والبون بين واقع حياته وبين أرواث قلمه كالبون بين الأرض والسماء!

ثم إن الشيخ لم يكن أثريا أنانيا، شحيحا مغرورا بما فضل الله به عليه من العلم والحكمة، والذكاء والعبقرية، فيباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، ويرائي به في المجالس، ويصرف به وجوه الناس إليه، بل كان يرى أن نهضة علمية صالحة وانتفاضة دينية كبيرة لن تأتي إلا بنهوض الجميع، واستيقاظ الأمة بكاملها، ومن هنا كان يلح على ضرورة إعداد الجيل، وتربية طلاب العلم على تحمل الشدائد، وقبول للغامرات، والتضلّع في الكتاب والسنة، واللغات والآداب، والاضطلاع بالدعوة والإصلاح، وترك بصمة في تاريخ الأمة والوطن، وقدّ أسس- مع زميله العلامة أبي الفتح محمد يحيى[3] وغيره- جمعية

(١) لعل الشيخ قصد بذلك منحه الإجازة في السلوك وقيادة زاويته، والله أعلم

(٢) انظر مقدمة ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، مطبوع مدرسة الشيخ ذي نور الدين دار القرآن شمس العلوم.

(٣) إنه الشيخ الكبير والكاتب القدير، وأحد أعلام الإسلام البارزين في هذه الدولة، العلامة أبو الفتح محمد يحيى، وُلد في محافظة «مؤمن شاهي» عام ١٩٥٤م، في بيت علمي نبيل، ثم نشأ نشأة دينية وعلمية فريدة، جمع بين التعاليم الدينية والمدنية، حتى أصبح خير مثال لعالم ديني خبير بدنياه، وشيخ

طلابية كانت نواة «لجنة الطلبة بنغلاديش» للنهوض بالطلاب، وهو لا يزال طالبا![1] وكان يرى أن المنهج الدراسي السائد في المدارس العربية فقد صلاحيته، فلا بد من تجديده، ووضع منهج جامع بين الشريعة والحياة، والدين والدنيا، كما كان يتمنى أن تكون شهادات المدارس العربية معترفا بها رسميا من الحكومة، ليسهل نشر الدين في جميع خلايا المجتمع والدولة.[2]

ساقي القوم آخرهم

عُرف الشيخ الفريدي منذ بداية حياته بالعلم والصلاح والتقوى، والقول بكلمة الحق، والصلابة في الدين، والمحافظة على حدود الشرع، وشدة الحنين إلى الآخرة، يعمل نهاره ويقوم ليله، مخلصا لله بعيدا عن الرياء، وكانت مائدته منصوبة في السراء والضراء، لا ترفع أطباقها، ولا يطوى غطاؤها، يطعم الطعام، ويعين الضعيف، ويرحم اليتامى، ولم يُر أنه ردّ سائلا قط حتى ولو أصبح بنفسه مدينا، وقد تحمّل تكاليف مئات الطلاب الشرعية، حتى أصبحوا علماء ودعاة على حسابه! وكان خير الناس لأهله.

إن الدنيا قد أقبلت عليه فزهد فيها،[3] وكان مظهر الزهد والخشونة هو المظهر الغالب عليه، يهتم باللباب دون القشور، وكان في قمة من التواضع، لا يؤذي ولا يهجر، ولا يستخف بكرامة أحد، تعلو وجهه دائما ملامح البساطة والسذاجة بحيث لا يعرف زائره في أول وهلة أنه جالسٌ بين يدي جبل من جبال العلم، وعملاق من عمالقة الإسلام!

مؤمن ضليع من شتى العلوم والمعارف الحديثة، متمكن من اللغات، ومالك لناصية الفلسفة والتاريخ، وعلوم السياسة والاقتصاد، مع تبحره في الكتاب والسنة، وعلوم التفسير والحديث، وقد ظل طوال حياته يدرس الحديث في الجامعة الشرعية بـ«مالي باغ»، كما عمل في منصب نائب الأمين العام لهيئة «وفاق المدارس العربية بنغلاديش» لفترة طويلة، ومما خلّد له مكانة في التاريخ هو أعماله العلمية، والمكتبة العامرة التي خلفها، فقد بقي معظم حياته يقرأ ويكتب، ويترجم ويحلل، ويؤلف وينشر، حتى أصبح عدده يزيد على خمسين كتابا، من أهمه وأبرزه «حركة ديوبند: تاريخها وتراثها وعطاؤها»، و«التطبيق المعاصر للاقتصاد الإسلامي»، و«مبادئ دراسة الحديث»، و«العلم السياسي المعاصر والإسلام»، و«الشيخ والمشيخة في ضوء الإسلام» وغيره، تتميز كتبه بعمق المادة وشمولها، وجودة التحليل، ودقة التصوير، والتركيز الكبير على الموضوعات العلمية الدقيقة، وتسليط الضوء على القضايا المعاصرة التي قلّما ما يكتب فيها العلماء، وهذا هو سر نجاحه، وموطن تميزه، وقد سعى طوال حياته لإنشاء جيل يسير على دربه، ويعرض الإسلام على الشعب في أجمل حلته، ويترك بصمة لحل مشكلات العصر في أكمل وجهه، وقد توفي تغمّده الله عام ٢٠١٧م.

(١) من حديث الشي أبي الفتح محمد يحيى، في ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، ص٧٧ و٧٨، وكذلك حديث الشيخ مولانا محمد أبي صالح ص١٢٦

(٢) مقال الشيخ المفتي عنايت الله، ص١٦٥-١٦٦

(٣) مقال الشيخ المفتي محمد عبد الله، ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، ص١٦١

هذه الشهادات والتزكيات- التي أسلفناها قبل قليل- من أعلام العلماء وأئمة الدعوة والإصلاح في حق هذا الإنسان، وهذه الصفات النادرة والأخلاق الحميدة، والخطط والمشاريع الفريدة، كلها تدل بيقين على عبقريته وندرته، وقبوله، وتفرّده عن غيره، وبرزوه على أقرانه وأترابه، ومعاصريه، بل وعلى كثير ممن كانوا أكبر منه سنا، وأطول عمرا، وفي هذه كلها تكمن أهمية وجوده، وتحديد مكانته في التاريخ، وكان يقول دائما "ليس صعبا أن تكون عالما كبيرا أو مقرئا شهيرا، وإنما الصعوبة في أن تكون إنسانا كاملا".

لقد انتقل الشيخ إسحاق من الحياة مبكّرا، وذهب إلى لقاء ربه سريعا، في فترة دقيقة من التاريخ، وفي مرحلة كانت أمته في أحوج ما تكون إلى مثله، لكن إلى روضة الشهداء في الجنة بإذن الله، وقمّة الخلود في سجلّ التاريخ.

مولانا أشرف علي البيسواناتي

(١٩٢٧-٢٠٠٥)

العالم السياسي المجاهد، المصلح العظيم

الشابُّ الذي شاهدَ بأم عينيه معاناة شعبه، ورأى مصير بني جلدته، وما آل إليه أمرهم من الوهن والاضمحلال، والتشتّت وفرقة الكلمة، والمذلة والمهانة، وسمعَ أناته وآهاته تحت سطوة الاحتلال، وتأثر تأثرا عميقا بالمحنة التي حلت ببني قومه، وجرح بها قلبه، حتى قام ليتدارك الأمر قبل فواته، ويذهب بوعثاء المحنة قبل شدتها، ودخلَ في غمار السياسة وهو في أيام طلبه ومقتبل عمره، وجاهدَ ضدّ الاحتلال، وتزعّم المظاهرات، وقاد الحركات، وهو لم يزل في شرخ شبابه، كان شابًا عظيما، قوي الشخصية وقوي الإرادة، وصاحب عزائم صارمة، فظلّ يستمرّ في جهوده وجهاده، ودعوته وإصلاحه، حتى أصبح من طليعة المجاهدين، ومقدّمة المصلحين، ورائد المجددين، وصاحب تاريخ مجيد لا يزال يتغنّى بمجده أبناء محافظة «سلهت» بخصوص، وأبناء هذا الوطن بعموم، هو المجاهد الباسل، والعالم السياسي البارز، وقائد «جمعية علماء الإسلام»، ونواة الجامعة الإسلامية دار العلوم المدنية بـ«سلهت»، الشيخ مولانا أشرف علي البيسواناتي.

الميلاد والنشأة

وُلد أشرف علي في محافظة «سلهت» نهاية عام ١٩٢٧م، عندما كانت شبه القارّة الهندية على فوّهة البركان، وكان الشعب البنغالي المسلم يُشاهد من الاضطرابات السياسية ومن الحركات والانتفاضات ما كانت تتساقط كحبّات سلسلة طويلة لا نهاية لها، وكانت المواكب السياسية والمظاهرات العلنية تجول في الطرق والشوارع الرئيسية، وُلد في هذه الفترة الدقيقة للتاريخ، فخاض

غمارها واكتوى بنارها منذ اللحظة المبكّرة من حياته، وعندما جاءَ الانتخاب التشريعي الهندي عام ١٩٣٧م، ودخلَ فيه «جمعية علماء الهند» بقيادة الشيخ حسين أحمد المدني، خاضَ الصبيّ أشرف علي وهو ابن عشر سنين غمار الانتخابات والمظاهرات، كما شاركَ في حركة التحرير عام ١٩٤٤م، ولما دخلت «جمعية علماء الهند» في انتخاب المجلس التشريعي الولائي ضدّ الأحزاب الكبيرة مثل المؤتمر الوطني» و«الرابطة المسلمة»، كان الشابّ أشرف علي في طليعة النشطاء، يجول ويصول، ويتحدث ويعلن، ويجتهد ويجاهد لصالح الجمعيّة، وكان كل ذلك إرهاصاتٌ تلمّح بمستقبل قياديّ لهذا الشابّ الحصيف الظريف.

بدأ الدراسة في بيته، ثم درسَ في كتّاب قريته، وبعد فترة دخلَ في المدرسة الحسينية العربية بـ«رانابينغ» التي كانتْ آنذاك من طليعة المراكز العلمية، وظلّ فيها عدّة سنواتٍ حتى تخرّج في مرحلة الفضيلة، ومن أبرز أساتذته في مدرسة «رانابينغ» الشيخ الرباني العلامة رياست علي (شيخ تشوغري)[1] والشيخ مولانا شمس الإسلام الشيربوري، والشيخ عبد المتين (شيخ فولباريا) وغيرهم، ثم دخلَ في جامعة هاتهزاري، وأخذ العلم على أساطينه، أمثال الشيخ المفتي الأعظم فيض الله، والشيخ مولانا أحمد الحق، والشيخ عبد القيوم، ومولانا محمد علي، والشيخ عبد العزيز، والشيخ عبد الوهاب، ودرسَ صحيح البخاري على شيخ الحديث مولانا يعقوب، تلميذ العلامة أنور شاه الكشميري، وتخرّج في التكميل عام ١٩٤٩م، فعادَ إلى قريته.

في محراب التعليم

درّس طوال عشرة أعوام في مراكز علمية كثيرة بما فيها مدرسة «تشرقَاسِمبور (Char Kasimpur)» ومدرسة «بركول»، حتى جاء عام ١٩٥٨م، ففكّر الشيخ في تأسيس مدرسة تكون مقرّ عمله، وساحة جهاده، ومجال اجتهاده، ففتحَ الجامعة الإسلامية دار العلوم المدنية في «بيسوانات» التي كانتْ أقرب إلى الإحياء منها إلى الإنشاء، فقد أُنشئتْ منذ قديم ثم اندرستْ، وانطمستْ معالمها، حتى جاءَ الشيخ

---

(١) إنه الشيخ مولانا رياست علي بن محمد حاضر المعروف بـ«شيخ تشوغري»، شيخ الحديث ورئيس "المدرسة العربية الحسينية برانابينغ"، التي تعدّ من طليعة المدارس العربية بمحافظة «سلهت»، ولد عام ١٩٠٢م تقريبا، ودرس في جامعة ديوبند، وأخذ الحديث من الشيخ أنور شاه الكشميري، بعد أن عاد إلى وطنه أسس مدرسة رانابينغ، وظلّ في رئاستها وتوجيهها وتدريس الحديث فيها أكثر من ستين عاما، وكان دود الكتاب -إن صحّ التعبير- وغارقا في بحر المؤلفات، وكان عابدا صالحا، وداعية مصلحا، وقد اختاره الله عام ١٤١٠هـ بعد أن خلف مدرسة كبيرة، وآلافا مؤلفة من التلاميذ والأتباع والمبايعين على يده.

أشرف علي، وأعاد إليها حياتها، وشبابَها ومجدها، ونذرَ حياته كلّها في سبيل تطويرها وتحسينها، فبارك الله في جهاده، وجعلها من طليعة المراكز الدينية في هذه الدولة، لها دورٌ كبير في نشر العلم، وإعداد الدعاة، وإصلاح الشعب والمجتمع، وقد مضى عليها أكثر من ستين عاما، ولا تزال ترفرف راية العرفان، وتبث النور في كل مكان.

دوره في تعليم المرأة

لقد تميّز عصرُ الشيخ أشرف علي بتخلّف المرأة في ميدان العلم والمعرفة، فكانت في مؤخرة الركب، وفي أذيال قافلة الثقافة، ولم تكن لها فرصةٌ متاحة للتعلم والتعليم، نعم كانت ثمة مدارس تظنّ أنها تدرّس الرجال والنساء في صفّ واحدٍ، وفي قاعة واحدة، التي نسمّيها "بالاختلاط"، إلا أن إثمها كان ولا يزال أكبر من نفعها، فلذلك الأسرة المسلمة الشريفة لم تكن تسمح لبناتها بالدخول في تلك المؤسسات المختلطة، حتى ظلّت متخلّفة في العلم والمعرفة، وفي عزلة عن التنوير والثقافة، شاهدَ الشيخ أشرف علي كل ذلك، وتألّم للحالة، ولم يكن له بدّ من أن يأتي بحلّ لهذه الإشكالية، بصفته مصلحا ومجدّدا، فبدأ تعليم البنات في مبنى مستقلّ تحت مظلّة «الجامعة المدنية»، وبعد فترة بارك الله في جهوده، حتى وجدَ أرضا وبنى فيها «الجامعة المدنية للبنات»، وجاءتْ بانقلاب شامل في ميدان تعليم النساء، ولا تزال تقدّم خدمةً جليلة في تثقيف البنات، وتحليتهم بالعلم والمعرفة.

فارس قوي في ميدان السياسة

لعل من أبرز مآثره هي دوره الخالد في ميدان السياسة، وقد أسلفنا أنه خاض غمار السياسة والقيادة وحركات التحرير في وقتٍ مبكّر من الحياة، وذاقَ حرارتَها ومرارتَها، ثم سارت الأيام بأشرف علي، وازداد خبرةً وتجربةً، وحكمةً وحنكةً، حتى أصبح من كبار السياسيين! وقد بدأ حياته السياسية تحت مظلّة «جمعية علماء الهند» بقيادة شيخه ومرشده المدني، فجاهدَ جهادا كبيرا في حركات التحرير، ثم لما جاءَ عام ١٩٤٧م، ووقفت الهند على مفترق الطرق، وقفتْ معها منطقة سلهتْ- على وجه خاصّ- في أدقّ مراحلها منذ أن خلقها الله ﷻ، لقد شاءت «جمعية علماء الهند» أن تبقى سلهت جزءا من الهند، ومن ثم تحافظ على وحدة الوطن واستقلاله، بينما شاءت «الرابطة المسلمة» ومؤيدوها أن تقرأ سلهت سلام الوداع على الهند الوثنية، وتشارك في موكب إسلامي جديد، وتُصبح جزءا مهمّا لدولةٍ جديدةٍ تقيم حدود الله وتحكم بالكتاب والسنّة، ولا تخاف أحدا إلا الله! في تلك الفترة الدقيقة

كان معظم علماء سلهت في المعسكر الأوّل، ورفضوا فكرة الانفصال، لأسباب لا يتّسع النطاق للحديث عنها، ولعل من أبرزها نشوء هؤلاء العلماء وتربيتُهم على يد الشيخ المدني، وأثره السياسي والفكري في حياتهم، وكونُ منطقة سلهت على حدودٍ مع الهند، وقربها من هذه الدولة الكبيرة، ومجاورتها لها، وكان من أبرزهم الشيخ مشاهد البيومبوري والشيخ الجوهربوري وشيخ كوريا وغيرهم، فالتقى الشابّ أشرف علي معهم على مسرح واحدٍ وجاهدَ من أجل بقاء سلهت مع الهند.

إلا أن حركات الرابطة المسلمة كانتْ قويّة، ثم زاد هذه القوّة ظهورُ العلماء الكبار المؤيدين لفكرة إنشاء باكستان، ومن هنا نهضت «جمعية علماء الإسلام» عام ١٩٤٥م، التي ظهرتْ لتأييد الدولة الجديدة وترغيب الناس في دعمها ودعوتهم إلى الوقوف معها، حتى انتصر المعسكر الثاني على المعسكر الأول، وانفصلت «سلهتْ» عن الهند وأصبحتْ جزءا من باكستان، وكلّ ذلك كان على أساس الدين ولا غيره.

ثم لما انفصلتْ باكستان، اختفتْ حركات «جمعية علماء الهند» في هذه المنطقة، وانفصل العلماء المؤيدون لها عن ميدان السياسة لفترةٍ يسيرة، ومادامت الدولةُ انفصلت والواقعة وقعت، فلا بدّ من العمل من جديد، لتحقيق الحلم الذي خُلقت من أجله، والوفاء بالعهود التي أعطيت للشعب البنغالي المسلم من قبل القادة السياسيين، فبرزَ العلماء في الميدان مرّة أخرى، وبدؤوا العمل تحت مظلّة «جمعية علماء الإسلام»، وجاهدَ الشيخ البيسواناتي في ميدان السياسة مع الجمعية، حتى جاء عام ٢٠٠١م وتولّى رئاسة الجمعية بعد وفاة شيخه عبد الكريم (شيخ كوْريا)، وظلّ في رئاستها صابرا محتسبا، مقبلا على عمله، يجاهد، ويتعب، ويعاني ويصبر، ويواجه الإغراءات، ويتلقى التهديدات، ويدير الحفلات، ويقود المظاهرات، ويرأس المؤتمرات، حتى جاءه الأجل المحتوم، وانتقل إلى رفيقه الأعلى عام ٢٠٠٥م.[1]

العمل الإنساني والإصلاح الاجتماعي

كان الشيخ أشرف علي مصلحا من عظماء المصلحين، يُصلح الظاهر والباطن، ويحلّ مشاكل الدنيا والآخرة، ولا يوصد بابا إلا ويفتح بابا آخر بديلا، ويشمل إصلاحه الحياة الأسرية، والعملية، والسياسية، والثقافية، والفكرية كلها، ولذلك اعتنى بالأعمال الإنسانية وخدمات المجتمع والشعب منذ فترة مبكّرة، مع الاعتناء بإصلاح الباطن، فأنشأ جمعية خيرية باسم «حلف الفضول»، وأدّى خدمات

(١) جريدة "الكفاح" اليومية، مقال محمد روح الأمين نغري، الاثنين، ٢٢ نوفمبر، ٢٠١٠م

جليلة تحت مظلّتها، وأنشأ أسواقا، وفتح محلات، وأسس مساجد ومدارس، ودورا للأيتام، وحفر الآبار، ومهّد الطرق والشوارع، وساعدَ الفقراء والمساكين، ووقف بجانب المنكوبين.

كما أصلح للناس بواطنَهم، وأخذ منهم البيعة في التزكية والسلوك، وقد كان مبايعا للشيخ المدني، ثم نال الإجازة من العلامة عبد الكريم شيخ كوريا، وتجوّب في أنحاء بنغلاديش، وسافرَ إلى خارجها، ووصل إلى بقاع شتّى للدعوة والإصلاح، فسافر إلى أوربا عشرات المرات، كما سافرَ إلى كثير من الدول العربية، وسافرَ إلى العراق عام ١٩٨٧م في بعثة مكوّنة من كبار العلماء، بمن فيهم الشيخ شمس الدين القاسمي رئيس «جمعية علماء الإسلام» آنذاك، والشيخ مولانا عطاء الرحمن خان، والشيخ المفتي وقّاص وغيرهم، على طلب من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وجالسَ مع العلماء والممثلين مجالس كثيرة.

آثاره في الكتابة والتأليف

رغم هذه الأعمال الشاقّة، والمشاغل الثقيلة، لم يهمل الشيخ البيسواناتي الجهاد بالقلم، والعمل في ميدان التأليف والإنشاء، والدفاع عن الإسلام، والردّ على أضاليل أئمة الضلال، ومقاومة الثقافة الغربية بالثقافة الإسلامية، فكتبَ بنفسه، وحرّض الطلاب والعلماء على الكتابة، ومن أبرز ما كتبه: ◊ دراساتٌ في تفسير المودودي للإسلام ◊ مقرّرات مدارس البنات ◊ التعريف الموجز بجمعية علماء الإسلام ◊ صلاة المسافر ◊ العراق في مرآة الذكريات، كما أصدرَ مجلّة «الفرقان» الشهرية باللغة البنغالية عام ١٩٩٨م، ولا تزال هذه المجلّة تستمرّ في رحلتها نحو الأمام، رافعة لواء الأدب الإسلامي وسط عواصف الأدب الخليع والثقافة الماجنة.

الشيخ البيسواناتي في ذمة الله

انتقل الشيخ إلى رحمة الله ولم يتحقّق كثير من أحلامه، فقد كان يحلم بوحدة العلماء، وأن يقوموا صفًا واحدا كالبنيان المرصوص في ميدان السياسة والدفاع عن الأمة، ثم يقيموا دين الله على أرض الله، ويحكّموا القرآن على أرض ربّ القرآن، إلا أن هذه الأحلام ما زالت غير متحقّقة، بل زد إلى ذلك أنه ليس ثمة بصيصا من الأمل لتحقيقها، فالعلماء لا يزالون في فرقة وتشتت، وقيام الدولة الإسلامية على أيدي العلماء لا يزال حلما بعيد المنال.[1]

(١) مستفاد من العلماء الذين وجدنا العلم بغذائهم، تأليف مولانا محبوب الرحمن النظامي، والذين ورثناهم: حياة وأعمال مئة من العلماء والمشايخ، للشيخ مولانا حبيب الرحمن ص٤١٥، وترجمة مئة من علماء البنغال، لمولانا أمين الإسلام، ص٣٨٤

مولانا سراج الإسلام

(١٨٧٣-٢٠٠٦)

رجلُ القرآن، الشيخ الأكبر عند ملايين البشر

رجلٌ عاش مالم يعش مثله أحدٌ من العلماء المعاصرين، فقد عمّر أكثر من مئة وثلاثين عاما، ونذرَ هذا العمر الطويل كلّه للعلم والدعوة، وتعليم القرآن، وتفسيره للناس، حتى لقّب بـ«رئيس المفسّرين»، حبا من الناس له وتقديرا، كما نذرَه لإصلاح الشعب والمجتمع، وإعداد أمّة كبيرة من الدعاة والمصلحين، والقادة والمجدّدين، وخدمة الخلق على اختلاف الأديان والإيمان، حتى أصبح مرجع الخلائق، ومنارة العلم والعرفان، وملتقى الوجهات والاتجاهات في عصره، وأصبح الشيخ الأكبر (بورو حضور) عند ملايين البشر، إنه الشيخ الرباني، والعالم الجليل، والمفسّر العظيم، ورئيس أكبر وأقدم مركز علمي عريق في «براهمن باريا» الجامعة اليونسية، مولانا سراج الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد كان بالفعل سراجا منير، وخريتا ماهرا.

نشأة فريدة لإنسان فريد

لعل من أبرز سمات يتّسم بها هذا الإنسان هي الصبر، والجد، المثابرة، والتحمّل، والتجشّم، والثبات والاستقامة، والعزيمة الصارمة التي لا تزعزعها الجبال، والسعي الدؤوب نحو الهدف، وهذه الحقيقة تتجلّى في جميع مراحل حياته، من ولادته إلى وفاته، فقد وُلد الشيخ يونس في «براهمن باريا» عام ١٨٧٣ م،[1] في أسرةٍ رقيقة الحاق، ليفقد أمّه قبل الفطام وليفقد أباه بعده، فدخلَ بعد وفاة الوالدين في فترة قاتمة من الحياة، وعاش في جوّ أرّقه، وأقض مضاجعه، وأقلق باله، ثم نشأ تحت إشراف جدّه، لكنه فقدَ جدّه في مراهقته، وحينئذ كان عمّه وليّه ومربّيه، فهذه الصدمات المتتالية التي كانت

---

(١) هذا الذي ذكره مولانا أنور حسين بن مسلم مؤلف "حياة سراج: ترجمة مختصرة للعلامة سراج الإسلام"، وجاء ذلك في "مذكرة الجامعة الإسلامية اليونسية بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها"، تأليف المفتي مبارك الله والمفتي عبد الله، ص١١٨، أما كتاب حياة سراج، تحرير مولانا محمد أبي الفتح بھويا ذكره بأنه وُلد عام ١٨٨١م ص٢٢.

تتساقط عليه كحبّات، وهذه الدواهي التي رمته بها الحياة، ونزلت به إلى الحضيض، والتي تدعو أشجع الناس إلى الجنون أو الانتحار، وتكفي أربطهم جأشا وأشدهم أعصابا أن تخرّ في همه، وتثبّط في عزائمه، وتقتله في قلبه وضميره، إلا أن يونس صبرَ على كل ذلك، وحمل ما لا تحتمله الجبال، وسعى إلى هدفه، ومشى إلى غايته حذرا متمهلا، ومضى إلى بناء حياته ومستقبله قدما.

كما تتجلّى هذه الحقيقة في حياته العملية أيضا، فقد تولّى التدريس في الجامعة اليونسية، ودخل في رحابها مدرّسا في شبابه لئلا يخرجَ منها إلا على كواهل الناس إثر وفاته، بعد أكثر من خمسة وسبعين عاما، لم يغيّر مكانه، ولم يبدّل مقرّه، ووهبَ حياتَه كلّها على الجامعة اليونسية، وعاشَ لها في كل لحظة من لحظاتها، حتى أصبح جزءا لا يتجزّأ منها، وامتزجَ تاريخه بتاريخها، وأصبح أهمّ العناصر في مسيرتها نحو الأمام.

جاهدَ الشيخ سراج في سبيل الدراسة والتحصيل جهادا كبيرا، وتنقّل في أماكن شتّى، فلم يكن في ذلك العصر مدارس منظمة، ومراكز علمية قوية، لها مقرراتٌ وطلاب، وإدارةٌ واختبارات، إلا بعدد يعدّ على الأنامل، ومن ثم ظلّ سراج يتنقل في كثير من القرى والأرياف، وكلما كان يسمع عن أستاذ متمكّن من اللغة والأدب أو مدرّس يجلس مع القرآن ويدرّس الطلاب، يهرع إليه، ويستفيد منه قدر المستطاع، وهكذا أكمل المراحل المتوسّطة، ثم سافرَ إلى الهند ودخلَ في دار العلوم ديوبند، فكأنه دخل إلى عالم العلوم والمعارف من أوسع بابه.(١)

قضى الشاب سراج خمس سنوات في ديوبند، وأخذ العلم من أعلامه وعباقرة دهره، أمثال العلامة حسين أحمد المدني، والعلامة إدريس الكاندهلوي، والعلامة إعزاز علي، والشيخ غلام رسول خان، والمفتي محمد شفيع العثماني، والعلامة أصغر حسين وغيرهم، وبعد أن تخرّج في التكميل تخصّص في تفسير القرآن الكريم، فكان له أثرٌ بادٍ جليّ في أعماله وإنجازاته.

في رحاب الجامعة اليونسية

بعد إنهاء الدراسة عادَ الشابّ سراج الإسلام إلى مسقط رأسه، ودخلَ في الجامعة اليونسية، وتولّى التدريس فيها، وهذه الرحلة التي بدأتْ عام ١٩٣١م لم تتوقّف للحظة، بل ظلت تستمر في مسيرتها طوال خمس وسبعين سنة، إلى عام ٢٠٠٦م، درّس خلالها التفسير والحديث، والفقه والأدب، والنحو

(١) مذكرة الجامعة الإسلامية اليونسية بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها، تأليف المفتي مبارك الله والمفتي عبد الله، ص١١٩

والصرف، والمنطق والفلسفة، واللغة والبلاغة، ولما توفّي الشيخ تاج الإسلام فخر البنغال، تولّى الشيخ سراج الإسلام تدريس البخاري، وظلّ يدرّسه بكامله أكثر من أربعين عاما، كما تولّى رئاسة الجامعة اليونسية منذ ١٩٧٤م، وظلّ رئيسا لها حتى وفاته.(١)

منشئ الأجيال ومربّي العلماء

لعل الناظر في حياته يرى المعجزة، حينما يرى عناية الشيخ سراج الإسلام بالعلم والأمانة، ونشر نور القرآن والسنة، والقيام بالواجب، وأداء المسؤولية، والدعوة والإصلاح، فكان الشيخ لا يغيب عن المدرسة أبدا مهما كانت الظروف، ومهما وقفت الأمطار والعواصف في طريقه، وبهذه الجهود والعطاء والتضحية استمرّت الجامعة في مسيرتها إلى العلى، وظلّت من طليعة الجامعات العربية العريقة بعد هذه الفترة المديدة من تأسيسها، وخرّجت عددا هائلا من العلماء البارزين الذين أصبحوا من طليعة رجال الفكر والدعوة، والإصلاح والتجديد في هذه الدولة، ومن أبرز من تخرّج على يديه وتربّى تحت ظلاله شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، والشيخ مولانا علي أكبر مربي «جماعة الدعوة والتبليغ»، ونجله الشيخ مولانا المفتي منير الزمان، والشيخ مولانا عبد الوهّاب صاحب «نادية القرآن» وغيرهم.(٢)

يقولون عنه «رئيس القرآن»

من أبرز مآثر هذا الإنسان التي جعلته خالدا في ذاكرة الناس هي دوره الريادي في نشر كتاب الله، وتعليم القرآن، وتفسيره للعوامّ بلغتهم التي يفهمونها، وبأسلوبهم الذي يدركونه، وتدخل رسالة القرآن في صميمهم وقلوبهم، وقد بدأت هذه المسيرة قبل أكثر من نصف قرن في رحاب الجامعة اليونسية، فكان الشيخ سراج الإسلام يفسر كتاب الله أمام الطلاب والمدرّسين، وعدد من أتباعه ومحبّيه، وهو جالس على الكرسي الخشبي، ويفتح العقول والقلوب على الآفاق القرآنية الواسعة، فاشتهر هذا المجلس، وأصبح حديث الناس في كل مكان، حتى غدا في غضون بضع سنوات أكبر دورة لتفسير القرآن الكريم، ولما أصبح المكان يضيق بالمستمعين، وزّع الشيخ هذه الدورة على مواعيد مختلفة، وجعل يفسّر يوما في مكان، ويوما ثانيا في مكان آخر، ومن هنا عرفَ الناس في هذه الدولة دورات التفسير (محافل التفسير)، وانتشرت في طول البلاد وعرضها، ونهض العلماء والمفسرون، وجاءَ انقلابٌ شاملٌ في قلوب المسلمين

(١) حياة سراج: تحرير مولانا محمد أبي الفتح بهويا ص٤٨

(٢) المرجع السابق، ص٩٦-١٠٢

وموقفهم من كتاب الله، ولقّب بطل هذا الانقلاب بـ«رئيس المفسّرين» حبا وتكريما، وقد ظلّ الشيخ طوال حياته يجلس ويفسّر القرآن، ويدعو في نهاية الدورة دعاء جماعيا، والناس يضجون بالتأمين على دعائه، لا تسأل عن روعته وبكاء الناس فيه، وإقبالهم عليه، فقد كان آلاف الناس يزحفون من أماكن شاسعة ليشهدوا روعته ويشاركوا في الدعوات الصالحة، وعيونهم تفيض من الدمع حسرة على ما اقترفت أيديهم من الذنوب.[١]

جهاده ضد الفرق الباطلة

كما خاضَ في كثير من الجدال والمناظرات ضدّ البدع والخرافات، وأهل الزوايا الضالّة، والقبوريين والقاديانيين ، بل كان تأسيس الجامعة اليونسية على أساس الجهاد والثورة الإسلامية ضدّ القاديانية، وردّة فعل لحركاتهم ودسائسهم في المجتمع البنغالي المسلم، وكان لها مركزٌ قويّ في «براهمن باريا»، فلما قامت الجامعة اليونسية ظلّت المناظرات تستمرّ بين فينة وأخرى، وقد يُشارك فيها علماؤهم من الخارج ويأتي من باكستان الرجال المتمكّنون في هذه الفرقة، كما قاد الحركات ضدّ الإلحاد والعلمانية وضد القوانين المعادية للإسلام الصادرة من المحكمة، فلما أصدرت المحكمة العليا البنغلاديشية عام ٢٠٠١م قرارا يفرض الحظر على الفتاوى الشرعية، ثار العلماء في شرق البلد وغربه، كما ثار الشيخ سراج الإسلام، وقاد الشعب في الإضرابات والمظاهرات، والحركات ضد هذا القرار الغاشم،[٢] أما في عام ١٩٧١م أثناء حرب التحرير، أخذ منهجا متحايدا، فلم ينحز إلى باكستان، ولم يخض حرب التحرير، وكان يقول: "إن الإنصاف سيتغلّب، وإن الفوز سيكون حليفا لأصحاب الحق والعدل".[٣]

صلته بفخر البنغال

كان خير عون للشيخ فخر البنغال تاج الإسلام وساعده الأيمن في دعوته إلى الإصلاح والتقوى وفي جهاده ضد الفرق الضالة، لا سيما في جهاده ضد القاديانية، فالجهاد ضد القاديانية الذي بدأه الشيخ مولانا محمد يونس مؤسس الجامعة اليونسية،[٤] ثم حمل لواءه الشيخ فخر البنغال مولانا تاج

(١) حياة سراج: ترجمة مختصرة للعلامة سراج الإسلام، تأليف مولانا أنور حسين بن مسلم، ص٢٩

(٢) المرجع السابق ص ٥٥

(٣) حياة سراج: تحرير مولانا محمد أبي الفتح بهويا ص٢١٠

(٤) إنه شيخ الطريقة العلامة أبو طاهر محمد يونس، خليفة مولانا المدني، وُلد في «مظفرنغر» بـ«أترابراديش» بالهند، ثم هاجر إلى البنغال الشرقية واستقر في محافظة «براهمن باريا» عام ١٩١٣م، وكانت «براهمن باريا» وقتئذ غارقة في فتنة القاديانية إلى القاع، لا يمضي يومٌ إلا ويعتنق مسلم القاديانية التي هي

الإسلام، حمل تلك الأمانة بعده الشيخ المفسر مولانا سراج الإسلام، فكان خير خلف لخير سلف،[١] كما أدّى دورا قيّما ضدّ أصحاب البدع والخرافات في مراحل مختلفة، وحاربَ التنصير والمنصرين.[٢]

آثاره الباقية في ساحة التأليف

لقد ترك الشيخ عدّة مؤلفات ورسائل علمية وعقدية قيّمة، ألّف بعضَها بقلمه، وصدر بعضها كمجموعة من «الملفوظات» والمحاضرات التي ألقاها في مواطن شتى، ومن أبرزها: ◊ شرح مشكاة المصابيح (الأردية) ◊ مكتوبات سراج ◊ جوهر سراج (مجلدان) ◊ رحلة الحجّ، جمع الشيخ المفتي مبارك الله ◊ المواعظ السراجية- جمع الشيخ إقبال حسين ◊ مجالس سراج، جمع الشيخ أنور حسين بن مسلم، وقد جاءت هذه المؤلفات مفيدةً، حافلةً بالأقوال المفيدة المخلصة، والأضواء الربانية، والفيوض الإلهية، واستفاد منها كثير من الناس.[٣]

عبادته وصلته بمعبوده

كان الشيخ سراج الإسلام مرشدا ربّانيا، ومصلحا تقيّا نقيا، وعابدا زاهدا، اهتمّ بالسلوك والربانية، والعمل مع العلم منذ وقت مبكّر من الحياة، فاستفاد في التزكية من كثير من الأعلام في داخل الدولة وخارجها، وبايع الشيخ حسين أحمد المدني واستفاد منه، وبعد وفاته بايع الشيخ مولانا دلاور حسين المعروف بـ«الشيخ الفينوي» ونالَ منه الإجازة، وحمل لواء التزكية والإحسان،[٤] ثم بدأ يدعو ويُصلح، وينصح وينذر، وقد بايع على يده آلاف من البشر، العلماء والعوامّ والطلاب، وأصبح لهم الشيخ قدوةً حسنةً في السلوك والإحسان، وقد حافظ على الصلوات بالجماعة طوال حياته كلها، حتى في أيام

عبارة عن الارتداد، فهب الشيخ يونس وخاض ضدّهم الجدال والمناظرات، وهزمهم في كل موطن، ثم رأى أن التغير لا بدّ أن يأتي في استراتيجية الجهاد، فأسس "الجامعة اليونسية" عام ١٩١٤م، التي برزتْ حربا على القاديانية، ولعبتْ دورا خالدا في مقاومة هذه الفتنة، ظلّ الشيخ فترةً كبيرة من حياته يتولّى رئاسة الجامعة وينهض بالدعوة والإصلاح في «براهمن باريا»، وفي أيامه الأخيرة وقد جمع زمرةً مختارةً من العلماء في الجامعة اليونسية، رأى أن مهمته قد انتهتْ، وأن الأمانة قد وصلتْ إلى أصحابها، وأن الرسالة قد تحقّقت، فاشتد حنينه إلى الدار، وفوّض رئاسة الجامعة إلى الشيخ تاج الإسلام، وأخذ طريقه إلى الوطن، وقد توفي عام ١٩٥٥م بعد أن قضى حياته كلها في أرض غير أرضه، وفي سبيل العلم والدفاع عن الدين، وقدم أروع وأندر مثال للإخلاص، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

(١) حياة سراج: تحرير مولانا محمد أبي الفتح بهويا ص١٨٤

(٢) حياة سراج: ترجمة مختصرة للعلامة سراج الإسلام، تأليف أنور حسين بن مسلم، ص٥٩ وما بعدها

(٣) تراجم كبار علماء براهمن باريا، تأليف جاويد حسين، ج ١، ص٥٥

(٤) انظر مقال الشيخ تفضل الحق الحبي غنجي، مجلة الكوثر الشهرية، مايو، ٢٠١٥م

شيخوخته ومراحل ضعفه، فكان يحضر الصلوات متّكئا على كواهل أحبابه وتلامذته، وكان يهتمّ بالسواك عند كل صلاة، ويسهر الليالي،[١] كما كان صاحب صوت رخيم يتغنى بالقرآن، في جو روحي عبق، ويستغل كل فرصة تسنح له بتلاوة كتاب الله، وعندما كان يناجي ربّه تطرأ عليه حالات غريبة، ويجهش بالنحيب والبكاء، ويدعو للأمة المسلمة جميعا،[٢] وكان صاحب كراماتٍ.

إنسان مبارك ومصلح اجتماعي

كان إنسانا مباركا، أنشأ كثيرا من المدارس العربية والمؤسسات الدينية في شرق بنغلاديش، منها الجامعة السراجية دار العلوم بـ«بهادوغر»، وأشرف على كثير من المراكز العلمية بما فيه «مجلس نادية القرآن بنغلاديش» للشيخ عبد الوهاب، وبنى مساجد، وقدّم خدمات إنسانية إلى كثير من الناس على اختلاف الأديان، فقد كان من أحب الناس إلى الهندوس في «براهمن باريا»، وكانوا يقدّرون له تقديرا فريدا، وقد أحبّوه في حياته، وبكوه بعد وفاته، ولما توفي الشيخ عام ٢٠٠٦م وعمره ١٣٣ سنة، وزحفت جموع المسلمين من كل حدب وصوب لتشهد جنازته وتصلي عليه، كان الهندوس يقدّمون الماء للوضوء، ويفسحون الطرق، ويتركون البيوت لراحة المصلين، وهل من حب وتكريم أكبر من هذا!!

كيف شكره قومه؟

لم ينل جزاء عمله وإصلاحه ودعوته وجهاده طوال أكثر من خمسة وسبعين عاما، شأنه في ذلك شأن الأنبياء والرسل عليهم السلام والسلف الصالح، الذين لا يريدون من الناس جزاء ولا شكورا، مقابل الدعوة والإصلاح والجهاد التي يضحّون في سبيلها كل ما أوتوا من النفس والنفيس، والمال والثروة، والوقت والحياة، إلا أن بعض المؤسسات الدينية قد أدركت بدورها قيمة جهوده ومدى جهاده، فقامت «اللجنة الوطنية للسيرة النبوية» ومنحته «جائزة أكبر شخصية إسلامية»، وكان ذلك عام ٢٠٠٢م، وقد تولّى تسليم الجائزة العلامة الأديب الشيخ مولانا محيي الدين خان.[٣]

(١) حياة سراج: تحرير مولانا محمد أبي الفتح بهويا ص ١١٥

(٢) المرجع السابق، ص١٢٦

(٣) المرجع السابق، ص٢١٢

السيد محمد فضل الكريم

(١٩٣٥- ٢٠٠٦)

الشيخ الكامل، المصلح العظيم، مرشد زاوية تشرموناي

إنه إنسانٌ عظيم في تاريخ هذه الأمة، وعالم شاهق من النوع الفريد، والطراز الأول، رجلٌ جمع بين العلم والعمل، والشريعة والطريقة، والزاوية والسياسة، والفقه والإمارة، والعبادة والجهاد، والإصلاح والإحسان، والسلوك والسلطان ما يُثير دهشة القارئ لحياته، وكوّن جماعة فريدة في تاريخ الإسلام المعاصر، في عددها وعُددها، وأثرها في حياة الأتباع، ودورها في المجتمع والدولة، وروح السمع والطاعة فيهم للأمير، والتعاون والتعاطف ما بين الأعضاء، ما يندر نظيره في تاريخ الجهاد والحركات، ألا وهو الشيخ الرباني، والمصلح الجليل، ومؤسس «لجنة المجاهدين بنغلاديش»، وزعيم «حركة الدستور الإسلامي»، السيد محمد فضل الكريم رحمه الله، مرشد «زاوية تشرموناي».

النزعة الإصلاحية الموروثة

وُلد محمد فضل الكريم في قرية «تشرموناي» التابعة لمحافظة «بريسال» عام ١٩٣٥ للميلاد، في سلالة تتحدّر من أصل عربيّ من أرض العراق،[١] ولوالدٍ عظيم جليل في الجاه والمكانة، والعلم والمعرفة، والدعوة والإصلاح، والسلوك والإحسان، والتربية والعرفان، الشيخ السيد محمد إسحاق،[٢] الذي كان

(١) المرشد الكامل مولانا السيد محمد فضل الكريم، تأليف الشيخ الحافظ مولانا محمد عمر، ص٢٢

(٢) هو الشيخ الرباني العلامة السيد محمد إسحاق بن السيد أمجد علي، وُلد عام ١٩١٥م بمحافظة بريسال، تخرّج في دار العلوم ديوبند، وأخذ علم القراءة عند الشيخ الرباني القارئ إبراهيم مرشد «أوجاني»، وبايع على يده، حتى نال منه الإجازة والخلافة، ثم أنشأ «خانقاه تشرموناي» لإطلاق الدعوة والإصلاح في جنوب بنغلاديش، كما أنشأ بجانب الزاوية المدرسة الرشيدية العالية، لبث نور الوحي ونشر الكتاب والسنّة، وألّف كتبا كثيرة في التفسير والحديث، والتزكية، والمعرفة، والسلوك والإحسان، رغم أن بعض هذه الكتب تتضمّن أشياء من الأحاديث الضعيفة، والموضوعة أحيانا، والقصص الغريبة

من عظماء المصلحين وقادة المرشدين في تاريخ بنغلاديش، وصاحب أكبر زاوية، ومدرسة سلوكية في جنوب الدولة- «زاوية تشرموناي»، فإنه كان مؤسسها، وصاحب لواء الإصلاح والإحسان في منطقة «بريسال»، يوم كانت تلك المنطقة مظلمة غارقةً في الجهل والظلام، حتى نهض هذا الشيخ الرباني، وأخذ العلم من دار العلوم ديوبند على أساطينه، ثم تسلّح بالمعرفة والسلوك في زاوية الشيخ القارئ إبراهيم، فأنارَ هذه المنطقة بنور العلم واليقين، والرجوع إلى الله ﷻ والإنابة إليه، وأسس المدرسة الرشيدية عام ١٩٣٣م ، باسم مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، ونشرَ في هذه البقعة الأمية ضوءَ التعليم الصحيح والتربية الرشيدة، وخرّج آلاف العلماء، فالناس بلا علماء جهال، تختطفهم شياطين الجن والإنس، وتعصف بهم الأهواء، وقضى حياتَه كلَّها في الجولات الدعوية، مرشدا وموجّها، وقائدا سياسيا إسلاميا، ومؤلفا قديرا، وكان له وللجامعة الرشيدية دورٌ لن يُنسى في حرب التحرير ١٩٧١م.[1]

الميلاد والنشأة

وُلد الشيخ لهذا الوالد العظيم، فكانت لهذا الشخصية الفذة المباركة ارتسامات وظلال في نبوغه المبكّر، لأنه هو الذي أنجبه وأدبه، ورعاه ورباه، وكان له مرشدا ومربّيا، وأستاذا وشيخا، وبيته كان له أول مدرسة، وساحة واسعة للتربية، وكانت طفولته بين نفحات أبيه وأمه، هكذا درجَ الناشئ الصغير في كنف أبويه الصالحيَن الكريمَين، وبدأ الدراسة على يديهما، ثم دخلَ في مدرسة قريته وهو لم يزل في الخامس من عمره، وبعد فترةٍ التحق بـ«المدرسة الرشيدية» بـ«تشرموناي»، وتخرَّج في مرحلة الكامل عام ١٩٥٦م،[2] ثم دخلَ في رحاب المدرسة القرآنية بـ«لالباغ» داكا عام ١٩٥٧م، التي كانت محطة الطلّاب وملتقى العلماء الأفذاذ في ذلك العصر، وكانت بمثابة القيادة في التعليم الإسلامي والتربية الدينية، وتزخر بأساطين العلم وكبار العلماء في بنغلاديش، فدرسَ فيها سنتَين وتخرَّجَ في مرحلة التكميل، وأخذ التفسير والحديث على أمثال المجاهد الأعظم شمس الحق الفريدبوري، والشيخ هدايت الله، والعلامة محمد الله الحافظجي، درسَ عنده البخاري والترمذي وكان من أصفى تلامذته، كما درسَ عند الشيخ عبد المجيد الداكوي، والشيخ المفتي عبد المحيط، وشيخ الحديث العلامة عزيز الحق رحمهم الله

الواهية، وشيئا من الأقوال السقيمة غير المستقيمة أو غير المفهومة للعوام، إلا أنها في الجملة كتبٌ مفيدةٌ وقيمة، وقد توفي الشيخ عام ١٩٧٧م، وخلفه نجله الشيخ المجاهد السيد محمد فضل الكريم، بطل قصتنا هذه، رحمة الله عليهم أجمعين.

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٢٣-٣٣٥

(٢) المرشد الكامل مولانا السيد محمد فضل الكريم، تأليف الشيخ الحافظ مولانا محمد عمر، ص٣٠

جميعا، وقد ظلّ طوال حياته مقدّرا لشيوخه، ومتواضعا لهم، ومجلا لمكانتهم منه.[1]

إذا كانت الولادة في بيت ديني وفي زاوية روحية كبيرة، ثم كانت الدراسة في أغنى مركز علمي، وعلى أيدي نخبةٍ مختارةٍ من العلماء الأفذاذ، والشيوخ الكبار، وعظماء القادة، الذين لهم صولة وجولة في العلم والسياسة، والتوجيه والقيادة، والدعوة والإصلاح، فكان من طبيعة الأمور ومن الأمل المنشود أن ينبت هذا الصبي نباتا حسنا، وأن يتربّى أفضل تربية، ويكون له مستقبل بارز في تاريخ البلاد والعباد.

على منبر التدريس

عام ١٩٥٧م دخلَ الشابّ فضل الكريم في مرحلة جديدة من الحياة، فخاض في رحاب المدرسة الرشيدية التي درسَ فيها وقضى سنين طوالا من الصبا والشباب، دخلَ فيها الآن مدرّسا وأستاذا للحديث، واستمرّ في التدريس اثنا عشر عاما، درَّسَ في هذه الفترة المديدة التفسير والحديث، والفقه والأصول، واللغة والأدب، فكان من أفضل المدرّسين في المدرسة، وكانت له مكانة كبيرة لدى الطلاب والأساتذة، ولم يكن مصدرها مكانة والده أو أسرته في المدرسة، وإنما هي مكانة تنبع من القلوب عن طواعية، للإنسان الكريم النبيل، والأستاذ الخبير، والمعلّم الرباني، والموجّه الرشيد، والقائد الحكيم، فقد جلسَ الشابّ فضل الكريم مع والده منذ نعومة أظفاره، واستفاد من علمه وتربيته، وجهوده في التزكية والسلوك، ثم بايع على يده، وبدأ جهاده في ميدان العرفان والإحسان، فكانت نشأته نشأة موفّقة، وأصبح جامعا بين العلم والعمل، والتدريس والتوجيه، والمعرفة والربّانية، هذه هي المزايا والمحاسن التي حبّبته إلى الأساتذة والطلاب في المدرسة، وجعلته محل ثقة واعتماد وأمانة لدى والده في الزاوية، ووضعته موضع القيادة في ميدان الدعوة والإصلاح.

من محراب العلم إلى ميدان القيادة

رغم هذه المكانة الكبيرة، وهذه المنزلة الرفيعة في العلم والسلوك، والتربية والتوجيه، لم يحدّد اسمَه والده الشيخ محمد إسحاق وهو على سرير الاحتضار، ولم يعينه نائبا عنه، وخليفة له في مملكته الدعوية والروحية الكبيرة التي أسسها في زاوية «تشرموناي»، لأنها مملكة روحانية وإيمانية، وأمانة كبرى من الله، وحقّ من حقوق العباد، وليست مملكة من مماليك الملوك والسلاطين، وإمبراطورية استغلالية للإمبراطور المستبدّ أو الملك الجبّار، يجعلها بقرة فيحلبها ويركبها، ولذلك كوّن قبل وفاته مجلس الشورى باثني عشر

(١) مقال س.م. سخاوت حسين، جريدة "الوكيتو بنغلاديش (بنغلاديش المضيئة) اليومية، الجمعة، ٢٥ نوفمبر، ٢٠١٦م

من عظماء المصلحين وقادة المرشدين في تاريخ بنغلاديش، وصاحب أكبر زاوية، ومدرسة سلوكية في جنوب الدولة- «زاوية تشرموناي»، فإنه كان مؤسسها، وصاحب لواء الإصلاح والإحسان في منطقة «بريسال»، يوم كانت تلك المنطقة مظلمة غارقةً في الجهل والظلام، حتى نهض هذا الشيخ الرباني، وأخذ العلم من دار العلوم ديوبند على أساطينه، ثم تسلّح بالمعرفة والسلوك في زاوية الشيخ القارئ إبراهيم، فأنارَ هذه المنطقة بنور العلم واليقين، والرجوع إلى الله ﷻ والإنابة إليه، وأسس المدرسة الرشيدية عام ١٩٣٣م ، باسم مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، ونشرَ في هذه البقعة الأمية ضوءَ التعليم الصحيح والتربية الرشيدة، وخرّج آلاف العلماء، فالناس بلا علماء جهال، تختطفهم شياطين الجن والإنس، وتعصف بهم الأهواء، وقضى حياته كلَّها في الجولات الدعوية، مرشدا وموجّها، وقائدا سياسيا إسلاميا، ومؤلفا قديرا، وكان له وللجامعة الرشيدية دورٌ لن يُنسى في حرب التحرير ١٩٧١م.[١]

الميلاد والنشأة

وُلد الشيخ لهذا الوالد العظيم، فكانت لهذا الشخصية الفذة المباركة ارتسامات وظلال في نبوغه المبكّر، لأنه هو الذي أنجبه وأدبه، ورعاه ورباه، وكان له مرشدا ومربّيا، وأستاذا وشيخا، وبيته كان له أول مدرسة، وساحة واسعة للتربية، وكانت طفولته بين نفحات أبيه وأمه، هكذا درجَ الناشئ الصغير في كنف أبويه الصالحيَن الكريمَين، وبدأ الدراسة على يديهما، ثم دخلَ في مدرسة قريته وهو لم يزل في الخامس من عمره، وبعد فترة التحق بـ«المدرسة الرشيدية» بـ«تشرموناي»، وتخرّج في مرحلة الكامل عام ١٩٥٦م،[٢] ثم دخلَ في رحاب المدرسة القرآنية بـ«لالباغ» داكا عام ١٩٥٧م، التي كانت محطة الطلّاب وملتقى العلماء الأفذاذ في ذلك العصر، وكانت بمثابة القيادة في التعليم الإسلامي والتربية الدينية، وتزخر بأساطين العلم وكبار العلماء في بنغلاديش، فدرسَ فيها سنتَين وتخرَّجَ في مرحلة التكميل، وأخذ التفسير والحديث على أمثال المجاهد الأعظم شمس الحق الفريدبوري، والشيخ هدايت الله، والعلامة محمد الله الحافظجي، درسَ عنده البخاري والترمذي وكان من أصفى تلامذته، كما درسَ عند الشيخ عبد المجيد الداكوي، والشيخ المفتي عبد المحيط، وشيخ الحديث العلامة عزيز الحق رحمهم الله

الواهية، وشيئا من الأقوال السقيمة غير المستقيمة أو غير المفهومة للعوام، إلا أنها في الجملة كتبٌ مفيدةٌ وقيّمة، وقد توفّي الشيخ عام ١٩٧٧م، وخلفه نجله الشيخ المجاهد السيد محمد فضل الكريم، بطل قصّتنا هذه، رحمة الله عليهم أجمعين.

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٣٣-٣٣٥

(٢) المرشد الكامل مولانا السيد محمد فضل الكريم، تأليف الشيخ الحافظ مولانا محمد عمر، ص٣٠

جميعا، وقد ظلّ طوال حياته مقدّرا لشيوخه، ومتواضعا لهم، ومجلا لمكانتهم منه.[١]

إذا كانت الولادة في بيت ديني وفي زاوية روحية كبيرة، ثم كانت الدراسة في أغنى مركز علمي، وعلى أيدي نخبةٍ مختارةٍ من العلماء الأفذاذ، والشيوخ الكبار، وعظماء القادة، الذين لهم صولة وجولة في العلم والسياسة، والتوجيه والقيادة، والدعوة والإصلاح، فكان من طبيعة الأمور ومن الأمل المنشود أن ينبت هذا الصبي نباتا حسنا، وأن يتربّى أفضل تربية، ويكون له مستقبل بارز في تاريخ البلاد والعباد.

على منبر التدريس

عام ١٩٥٧م دخلَ الشابّ فضل الكريم في مرحلة جديدة من الحياة، فخاض في رحاب المدرسة الرشيدية التي درسَ فيها وقضى سنين طوالا من الصبا والشباب، دخلَ فيها الآن مدرّسا وأستاذا للحديث، واستمرّ في التدريس اثنا عشر عاما، درّسَ في هذه الفترة المديدة التفسير والحديث، والفقه والأصول، واللغة والأدب، فكان من أفضل المدرّسين في المدرسة، وكانت له مكانة كبيرة لدى الطلاب والأساتذة، ولم يكن مصدرها مكانة والده أو أسرته في المدرسة، وإنما هي مكانة تنبع من القلوب عن طواعية، للإنسان الكريم النبيل، والأستاذ الخبير، والمعلّم الرباني، والموجّه الرشيد، والقائد الحكيم، فقد جلسَ الشابّ فضل الكريم مع والده منذ نعومة أظفاره، واستفاد من علمه وتربيته، وجهوده في التزكية والسلوك، ثم بايع على يده، وبدأَ جهاده في ميدان العرفان والإحسان، فكانت نشأته نشأة موفّقة، وأصبح جامعا بين العلم والعمل، والتدريس والتوجيه، والمعرفة والربّانية، هذه هي المزايا والمحاسن التي حبّبته إلى الأساتذة والطلاب في المدرسة، وجعلته محل ثقة واعتماد وأمانة لدى والده في الزاوية، ووضعته موضع القيادة في ميدان الدعوة والإصلاح.

من محراب العلم إلى ميدان القيادة

رغم هذه المكانة الكبيرة، وهذه المنزلة الرفيعة في العلم والسلوك، والتربية والتوجيه، لم يحدّد اسمَه والده الشيخ محمد إسحاق وهو على سرير الاحتضار، ولم يعينه نائبا عنه، وخليفة له في مملكته الدعوية والروحية الكبيرة التي أسّسها في زاوية «تشرموناي»، لأنها مملكة روحانية وإيمانية، وأمانة كبرى من الله، وحق من حقوق العباد، وليست مملكة من ممالك الملوك والسلاطين، وإمبراطورية استغلالية للإمبراطور المستبدّ أو الملك الجبّار، يجعلها بقرة فيحلبها ويركبها، ولذلك كوّن قبل وفاته مجلس الشورى باثني عشر

(١) مقال س.م. سخاوت حسين، جريدة "الوكيتو بنغلاديش (بنغلاديش المضيئة) اليومية، الجمعة، ٢٥ نوفمبر، ٢٠١٦م

عضوا من خيرة تلامذته وصفوة أصفيائه، وعهدَ إليهم باختيار أمير لهم بعد وفاته، على أساس العلم والمعرفة، والصلاح والتقوى، والقدرة على التوجيه والقيادة، فكان السيّد فضل الكريم سرّا لأبيه، وواسطة العقد، وأكثرهم علما، وأشدّهم تواضعا وصلاحا، وبرا بوالده، وإخلاصا واحتسابا، وعبادة وورعا، حتى تمّ ترشيحه عاهلا جديدا لهذه المملكة الإيمانية، وكان خلفا خيرا لسلف خيرٍ.

منادٍ ينادي للإيمان والإحسان

الرحلة التي بدأتْ عام ١٩٧٣ للميلاد لم تتوقّف لفترةٍ يسيرة ولا للمحة بصر، بل استمرت أكثر من ثلاثة وثلاثين عاما متتالية، وقد عمّت هذه الرحلة أرض بنغلاديش بطولها وعرضها، وشملت كل قراها وأريافها، ومدنها وعواصمها الكبرى، فلا تكاد تجد بقعةً في بنغلادش لم يصل إليها هذا الداعي الرباني بدعوته وإصلاحه، ولم يصل إليها صوتُه الشجيّ الرخيم، الفصيح وحلو النغمة، صوتٌ يهز القلوب، ويشقّق الأحجار، فيخرج منها الماء، وتهبط من خشية الله، وكان من أثر كلامه في القلوب والضمائر أنه عندما يتكلم الشيخ ويعظ، يستمع الناس إليه في ذهول وكأن على رؤوسهم الطير، ويبلغ بهم افتتانهم حد الجنون، حتى حصل الاجماع السكوتي على أنه من جلس إليه في مجلس واستمعَ إلى حديثه، ثم لم يرقّ له قلبه، ولم تذرف له عينه، فله أن يشكو صلابة قلبه، وخشونة صدره، وموت ضميره، وله أن يعود إلى نفسه فيحاسبها على ما فرطت في جنب الله، ويعيد حسابه مع الله، ويراجع علاقته بالسماء.

فما كان الشيخ يأتي بكلام من رأسه، أو من صنع هواه أو خيال القصاصين، وإنما كان يتحدث في تؤدة، ويتلو البرهان بعد البرهان، ويكثر من ذكر الموت والقبر، وأن أيام العمر تمضي سراعا، وأن ضمة القبر بفتنته وسؤاله آتية لا ريب فيها! كما كان يكثر من ذكر الحساب والعذاب، والميزان والصراط، والجنّة والنار، ولحظة الوقوف أمام أحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وربما يكرّر بعض الأبيات العربية والفارسية والأردية ما يخلق في دعوته قوّة المغناطيس، يزيد المستمع حماسا، ويخاطب عواطفهم، ويملأ قلوبهم شجنى وحمية، ومن أجل هذا كله اقتربَ الناس منه، وزاد الإقبال والقبول، وتدفّق عليه العلماء والطلاب، والعوام والخواص، حتى أصبح من أقوى الشخصيات في عصره، وأغناها في الأنصار والمشايعين والمريدين، وبايعه خلقٌ كثيرٌ يعدّون بالملايين داخل الدولة وخارجها، وكلما كان يحضر في مكان يمتلئ الفضاء، وتتحول البيداءُ إلى بحرٍ زخّار بالبشر، وتضجّ الأصوات بالبكاء والعويل، وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

كان داعيا بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني، يقضي ٢٧ يوما من الشهر في الشوارع والمحافل، والقرى والأرياف، والمدن والعواصم، يدعو ويوجّه، ويبشّر ويحذّر، وقد كان بعض أتباعه يطلبون منه أن يسافر إلى مكّة، ويعتمر ويعتكف في الحرم خلال شهر رمضان، فكان يقول: "إن ذلك ينفعني بوحدي، أما هذا الذي أفعله فينفعني وينفع الناس، ولو استيقظَ قلبٌ نائم، وأفاقَ من غفلته ضميرٌ غافلٌ ضائعٌ بعد أن سمعَ كلامي، ورجعَ إلى الله بالقلب المنيب، فهو أفضل لي من حمر النعم"!

لم يقف هذا الجهاد العظيم في حدود الأشخاص والناس، بل كان مصلحا من عظماء المصلحين، يصلح الناس والمجتمع، والأشخاص والأحزاب، والجمعيات والمؤسسات، ولا يخفى على القارئ ما كان بين جمهور العلماء في شبه القارة الهندية وعلى رأسهم علماء ديوبند وبين الجماعة الإسلامية، من الخلاف في الرأي، والموقف من بعض القضايا في الدين والإيمان، قد لا يُقال إنها من القضايا الجزئية والمسائل الهامشية، ولذلك سعى العلماء الكبار لحسم هذا الخلاف منذ نشأة الجماعة الإسلامية على يد السيد أبي الأعلى المودودي، فأولى السيد فضل الكريم هذا الجانب عناية بالغة، وجلسَ مع قادة الجماعة الإسلامية مجالس كثيرة، ومن أبرزها مجالسه مع الأستاذ غلام أعظم أمير الجماعة الإسلامية حين ذاك، لكنها جاءتْ بدون جدوى،[1] ومنذ ذلك الحين قطعَ أمله في إصلاحهم والعمل معهم، ورفع ضدّهم لواء المقاومة، واشتدّت حدّته على الجماعة وكل ما ينتمي إليها![2]

كما جلسَ مع قادة «جماعة الدعوة والتبليغ» وعلى رأسهم الشيخ مولانا زبير أحمد، وناقش معهم المسائل التي تثير إشكاليات حول هذه الجماعة، وتحطّ من قيمة جهودها وجهادها، وخصوصا عدم عنايتها بالسياسة والحسبة، ثم كانت له مجالس مع الكاتب الإسلامي الكبير العلامة محمد عبد الرحيم، قائد الجماعة الإسلامية ومؤسسها في بنغلاديش، عندما كتبَ الشيخ عبد الرحيم كتابَه «السنة والبدعة»، وهاجمَ فيه على التصوّف والسلوك هجوما عنيفا، وانتقد مواقف العلماء من الجهاد والإصلاح والمقاومة، فحاور معه الشيخ وخطّأه بأسلوب متّزن عليه طابع الأخوة والنصيحة، وأقنعه، حتى وعدَ الكاتب بالتراجع عما كتب وتصحيحه في الطبعات اللاحقة، كما جلسَ مع كبار العلماء،

---

(١) السيد محمد فضل الكريم، حياته ومآثره، لمولانا محمد يوسف علي ص٤٣-٤٤

(٢) انظر موقفه من الجماعة الإسلامية في المجموعة الكاملة للقاءات مرشد تشرموناي، تحرير محمد صغير أحمد التشودري، ص١٠ و٣٧ على سبيل المثال، وكذلك في كتاب تاريخ جهود الوحدة الإسلامية في بنغلاديش: ١٩٧٨- ٢٠٠٥م، تأليف الأستاذ غلام أعظم، ص٦٣ وما بعدها

وقادة الزوايا الروحية، ورجال السياسة وأركان الدولة، بمن فيهم الرئيس السابق حسين محمد إرشاد، فأصلحهم، ونصحهم على أساس الأخوّة، والتعاون على البرّ والتقوى.[1]

آثاره في ميدان العلم والتعليم

كان مصلحا علميّا في صميمه، يحبّ العلم وينشره، ويراه أول خطوة في طريق الإصلاح، فلا دعوة مع الجهل، ولا إصلاح مع الأمية، وعندما تزول الأمية ويبرز الاعتزاز بكرامة العلم والمعرفة، يكتمل به نصف البناء ويبقى النصف الآخر، وكان يحلم بأن كل قرية من قرى بنغلاديش تقوم فيها مدرسة دينية واحدة على الأقل، وتحقيقا لهذا الهدف سعى طوال حياته سعيا حثيثا، وجاهدَ بكل ما أوتي من قوّة مادّية ومعنوية، وعلم ومعرفة، وإقبال ومكانة، ومال وحكمة، فأنشأ مساجد، ومدارس للبنين والبنات، وجامعات إسلامية، ومعاهد علمية، ومجالس التعليم والتربية، ودور الأيتام، ومراكز إعادة تأهيل المهتدين، وإغاثة المنكوبين أثناء الكوارث الطبيعية المتكرّرة في هذه الدولة، بعدد يصعب عدّه وإحصاؤه.

كان الشيخ محمد إسحاق والد الشيخ السيد فضل الكريم قد أنشأ مدرسةً بجانب «زاوية تشرموناي» باسم «المدرسة الرشيدية»، وكانت تلك المدرسة تحت مظلّة الحكومة التي اشتهرتْ في شبه القارة الهندية بالمدرسة العالية، وكانت هذه المدارس تحاول الجمع بين القديم والحديث، والأصالة والمعاصرة، والدين والدنيا، وبدأتْ بداية جميلةً، إلا أنه مع الأيام بدأ الانحطاط يتسلّل في محيطها، واختلّ الميزان، وأمست كفّة الدنيا والمعاصرة ترجح على كفّة الدين والأصالة، كما أصيب أهل هذه المدارس بالتدهور في الأخلاق والأعمال، والتهاون في السلوك والإحسان، والإيثار والعرفان، والضعف في التمسك بالدين، والتعلّق مع الله، بحيث أصبح لا يكاد يوجد فرقٌ بين أهل هذه المدارس التي قامتْ على أساس الدين، وبين أهل الجامعات والكليات الحكومية التي قامتْ على الدنيا وحدَها مع الاستثناء اليسير، لقد كانت هذه الظاهرة سائدةً وواقعا مرّا في معظم المدارس من هذا النوع، ولا حرج أن تحدّث عن حالها اليوم، "اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرّ منه، حتى تلقوا ربّكم".

أدرك الشيخ محمد فضل الكريم خطورة هذا الوضع، فأسّس مدرسةً دينية على منهج دار العلوم ديوبند في «زاوية تشرموناي»، لتقوم جنبا إلى جنب المدرسة الرشيدية العالية، فيكتمل البناء، ويتحقق المشروع، لأن الشيخ كان جامعا بين الثقافتين، وملتقى البحرين، فقد درسَ المراحل الأولى في المدرسة

(١) المرجع السابق ص٤٥

العالية، ثم درسَ أيامه الأخيرة في الجامعة القرآنية الديوبندية، فكان صاحب تجربة حيّة وواقعية قلما كانت توجد عند إنسان في ذلك العصر، حتى يسر الله له تحقيق الخطّة، وأصبحت لا تزال هاتان المدرستان تقفان في صفّ واحد وعلى أرض واحدة، وتتصافحان في حماس وإخلاص، لا يكاد يوجد فرقٌ بينهما من حيث العلم والعمل، والرياضة والعبادة، والزيّ واللباس، وسط الطلاب والمدّسين، وهذا منظرٌ فريدٌ ونموذجٌ نادر في هذه الدولة.

تتجلى عنايته بالعلم وشغفه بالحديث النبوي وتدريسه خصوصا من التاريخ الذي صنعَه في رحاب الجامعة الرشيدية، فرغم جولاته الدعوية المستمرّة في أنحاء الدولة كلما كان يرجع إلى «تشرموناي» ليوم أو يومين، لا يستريح في البيت، ولا يتهافت على السرير، بل يقضي معظم أوقاته في رحاب الجامعة، بتدريس الكتب الستة، ويوجّه الطلاب وينصحهم، وكان معجبا بجامع الإمام الترمذي، فقد بدأ تدريس هذا الكتاب منذ ١٩٩٧م عندما فُتحت مرحلة التكميل في الجامعة، واستمرّ في التدريس طوال عشرة أعوام، إلى وفاته عام ٢٠٠٦م ، وكان له رأي في طلاب العلم، يرى ضرورة مشاركتهم في عمل الإصلاح، والانتساب إلى الحركات السياسية، والصلة بها منذ أيام الطلب! وذلك ليكونوا على علم بما حولهم، وعلى بصيرة بحاجات المجتمع، ومطالب الشعب، ومخاطر التيارات المعادية للدين، ومستجدات السياسة والقيادة في العالم، فيتخرّجوا ويدخلوا في ساحة العمل وهم مستعدّون لها منذ البداية.[1]

بجانب الجامعة الرشيدية في تشرموناي أنشأ جامعات ومدارس كثيرة في أنحاء الدولة، فكان مديرها ومشرفا عليها، من أبرزها «الجامعة الكريمية العربية» بـ«رامبورا» داكا، وكان عنده اهتمامٌ بتعليم النساء، فأنشأ مدارس كثيرة مخصصة للبنات، منها «الجامعة الأهلية للبنات» بـ«رامبورا»، و«مدرسة فضيلة النساء» بـ«بريسال»، وأنشأ مكتبات ودورا للنشر، ونشرَ مجلات على رأسها مجلة «في الطريق إلى الكعبة» الشهرية، ومجلة «رسالة المجاهد» الشهرية، وجريدة «البراع» الأسبوعية، وجريدة «الاتصال» اليومية وغيرها، وأنشأ «مجلس تعليم القرآن بنغلاديش» لتقوم تحت مظلّته مدارس وكتاتيب قرآنية، وقد أُسست تحت إشراف هذا المجلس أكثر من ثلاثة آلاف كتّاب ومدرسة، كما كان عضوا في المجلس الاستشاري لمجلس التعليم للمدارس العربية في بنغلاديش المعروف بـ«وفاق المدارس العربية»، وقد جاهدَ طوالَ حياته لتأسيس جامعة عربية إسلامية مستقلّة تناطح الجامعات الإسلامية الدولية، إلا أن حلمه لم يتحقق بعد.

(١) المجموعة الكاملة للقاءات مرشد تشرموناي، تحرير محمد صغير أحمد التشودري، ص٢٢

«أن الأرض يرثها عبادي الصالحون»

منذ اللحظة الأولى أدرك الشيخ أهمية السياسة الإسلامية، والسير بالأمة على المنهج الصحيح، ووضعها في يد القيادة الراشدة، فأنشأ جمعية طلابية في أيام دراسته بمدرسة «تشرموناي» باسم «ناصر الملّة»، وكان يرى أن صلاح الأمة بصلاح قيادتها، وفسادها بفساد رُعاتها، وقد رزئت الأمة المسلمة في هذه البقعة منذ قرونٍ في قيادتها، ورزحتْ تحت نير الملوك، وسطوة السلاطين، واستبداد الرؤساء والقادة السياسيين، ثم تدهورت حالات المسلمين السياسية بعد ظهور بنغلاديش تدهورا سافرا مرّة أخرى، وقد نهض بعض عظماء المصلحين والعلماء المجدّدين، الذين نزلوا في الميدان وحاولوا تجديد السياسة التي فسدتْ وتعفّنت في الآونة الأخيرة، وكان على رأس هؤلاء المجددين مولانا محمد الله الحافظجي، برز إلى السياسة تحت مظلّة «حركة الخلافة بنغلاديش»، وأقبل عليه العلماء واشتركوا فيها، بمن فيهم شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، كما انضوى الشيخ فضل الكريم تحت لوائها حتى أصبح الأمير المساعد للحركة، وقد كان قبل ذلك تحت لواء «نظام الإسلام» عندما كان كبار العلماء في بنغلاديش يديرونه ويشرفون عليه، أمثال الشيخ أطهر علي، والخطيب الأعظم صديق أحمد، والشيخ نثار الدين أحمد، والشيخ تاج الإسلام، ووالده الشيخ محمد إسحاق رحمهم الله.

بعد فترةٍ طويلة قضاها بجانب الزاوية في غمار السياسة، فجرّب حلوَها ومرّها، وشاهدَ صلاحها وفسادَها، أدرك الشيخ أن الزاوية لم تعد قلعةً تصون الأمة في جميع جوانب حياتها، ولا تحمي الشعب من العواصف التي تهيج خارجها، ولا تضمن له الأمن والسلامة من الغش والخدعة، عندما يخرج من الزاوية ويدخل في أسواق الحياة، بل لا بدّ من السياسة مع الزاوية تقومان جنبا إلى جنب، ولا بدّ من الجمع بين محراب العبادة ومجلس النيابة، والتقاء حسنات الدنيا مع حسنات الآخرة، والتصلّب في المبادئ والغايات مع التوسّع في الوسائل والآلات، وقد كان حينئذ تحت لواء «حركة الخلافة»، لكن الحركة كانت مصابة بالشلل الفكري، والتصادم الداخلي، والاضطراب العام من رأسها إلى قدميها بعد وفاة مؤسسها الشيخ الحافظجي رحمه الله، فقطع أمله من مستقبلها، وجلس مع العلماء الكبار والقادة السياسيين الإسلاميين البارزين لتكوين حزب سياسي إسلامي مشترك عام ١٩٨٧ للميلاد، لتكون نقطة انطلاق لسياسة إسلامية مشتركة بين العلماء الكبار من مذاهب ومشارب ومدارس مختلفة، وكان العلامة دلاور حسين السعيدي نائب الأمير للجماعة الإسلامية صاحب القدح المعلى في هذه المبادرة المباركة للسياسة المتحدة، ووقوف العلماء على منصة سياسية واحدة. وقد شارك فيها العلماء الكبار والأحزاب السياسة الإسلامية كلها العاملة في الميدان آنذاك، بمن فيهم مولانا محمد عبد الرحيم وشيخ الحديث العلامة عزيز الحق وغيرهما، جاءَ الجميع مع أحزابهم ودخلوا في ظل دوحة باسقة حاملة باسم «حركة الدستور الإسلامي»، فكانت وحدةً فكرية تاريخية لم يسبق مثلها، إلا أن الافتتاح كان منحوسا، وعملت بعض الأيادي الخائنة من الطابور الخامس للقضاء على النبتة الصغيرة ووأدها في مهدها، فغاب الشيخ دلاور حسين السعيدي عن الدولة، وتمايلت الحركة في أول خطوتها وتخبطت، وللقارئ لا يزال حق أن يسأل الشيخ السعيدي عن هذا الغياب.

ظلّت هذه الحركة المشتركة تعمل عملها لفترة تمتدّ على ثلاث سنوات، من عام ١٩٨٧ إلى ١٩٩٠ للميلاد، إلا أنها مع الأيام ظهرتْ انعكاسات الخلاف في الفكر والتجربة، والمذهب والمنهج، وتأثر بها الجهاز الإداري، حتى وقع الانقسام، وأصاب الحركة الشلل، وأصاب زعماءَها الداء العضال القديم، والمرض المزمن لقادة جميع الحركات، وهو داء الخلاف في الرأي، فاشتعل لهيب الفرقة بكل قوّة ونشاط، واستفحل الأمرُ على مرّ الأيام، وبدأ كل واحد يترك هذه النبتة الصغيرة التي وضعوها يوما بالحماس والإخلاص والحب والدعاء، فكانتْ من سوانح الدهر، ومن فلتات الزمان، حتى ذهب الجميع طرائق قددا، وانتقل البعض إلى رفيقهم الأعلى.

آثار حركته في الحياة والمجتمع

رغم هذا التاريخ المؤلم وهذه التجارب المريرة في مهدها، ورغم المعاناة التي واجهتها هذه السنوات الثلاث المتتالية، عادتْ «حركة الدستور الإسلامي» إلى حياتها عام ١٩٩١م عندما تولّى الشيخ السيد فضل الكريم رئاستَها، فتفرّغ لها الشيخ وصبّ فيها جهودَه، وقد كان جَلَدا في جهاده، وقويا في جلاده، حتى قامت الحركة على ساقها، وعادت إليها قوّتها ونشاطها، وأيام عزّها وعنفوانها، ومنذ ذلك الحين أدّت هذه الحركة دورا فعّالا أثّارا في مراحل مختلفة من تاريخ هذه الدولة، وشاركتْ في الانتخابات البرلمانية، ورفعتْ صوتها في قضايا سياسية ودينية حسّاسة، وضحّت بالنفوس والنفائس، وأراقت الدماء الطاهرة الزكية على الشوارع، وقادت المظاهرات والحركات ضدّ الاستبداد والفساد، والظلم والجور، والعلمانية والإلحاد، وأصحاب الزيغ والضلال والمتّجرين بالدين، الذين في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضا، مثل القاديانية، والشيعة والبهائية، والصوفيّة الضالّة المضلّة من «زوايا ديوان باغ»، و«آت رسي»، و«قطب باغ»، و«عنايت بور» وغيرها، وكان له دورٌ ريادي في مقاومة التنصير والوكالات التنصيرية باسم المساعدة، كما لعبَ دورا كبيرا في محاربة الهندوسية، وقد نجا من محاولات الاغتيال في مواطن

كثيرة، وفازَ في الامتحانات العويصة المغرية بالمطامع والمكانة والثروة.[1]

جولاته في مشارق الأرض ومغاربها

امتاز الشيخ السيد محمد فضل الكريم بشخصية عالمية ذات سحر ونفوذ، لها أثر وأتباع ملموس على المستوى الدولي، فقد تعدّت دعوته حدود الوطن، وشملت جولاته الإصلاحية أقطارا عريضة، وسافرَ إلى كثير من الدول الإسلامية والعربية والأوربية، ووصلَ إلى الكويت وباكستان أكثر من مرّة، وتركَ عددا كبيرا من الأتباع والمريدين في القارات، وألقى كلمة تاريخية في ميدان عرفة أثناء حج عام ١٩٩٤م، تحت رعاية رابطة العالم الإسلامي.

في خلوته ومناجاته مع ربه

كان عابدا يعبد الله على بصيرة، ويحافظ على الصلوات والجماعات والسنن والمستحبات رغم الأسفار المستمرّة والجولات المتلاحقة، وقّافا عند حدود الله، وزاهدا في الدنيا، وعادلا في لباسه وطعامه وطريقة عيشه، وغير طامع في ملك أو غنى، وعامر القلب بالربانية والفيوض الإلهية، وقد يصل أحيانا إلى القرى النائية حيثما لا تصل السيارة، فيمشي على قدميه ويحضر في المجامع، ينصح الناس ويدعوهم إلى الله، ويذكرهم بأيام الله، ويستأصل من قلوبهم حب الدنيا، وينتزع الأطماع والشحناء، وكان لباسه في كل مكان قميص وإزارٌ، لم يره أحدٌ بلباس فضفاض، ولم يلبس شيئا أكثر على ذلك، سواء في النادي أو المجامع، أو في مجالس الوزراء وبين القادة ورجال السياسة، وكان يذكر الله كثيرا، ويجعل لسانه غضا طريا رطبا، رطبّه بذكر ربه ﷻ في ليله ونهاره، وكان بكّاء، يبكي نفسه ويبكي الناس، وكانت له مكانة عظيمة عند العلماء المعاصرين، وقبول عامّ لدى المسلمين.

إلى الرفيق الأعلى

بعد حياةٍ حافلة، لا يسع وصفَها هذا المكان الضيق، حياة تقوم على أربع ركائز كانت دستورا له ولدعوته وحركته وأتباعه، وهي الأركان الأربعة التي يجب على جميع الحركات الدينية أن تقوم عليها إذا أرادت أن تنجح في هدفها، وتؤتي أكلها وثمارها، وتنجز دورها: الدعوة والتعليم والتزكية والجهاد، وقد كان السيد محمد فضل الكريم جامعا لها ومحيطا بها قدر المستطاع، ولعل هذا هو مفتاح نجاحه وسر قبوله، وسبب حب الناس له، واقتداء ملايين البشر بهداه، وبعد حياة كلها الدعوة والعبادة، والنصح

(١) جريدة بهسال اليومية، ٢٥ نوفمبر، ٢٠١٣م

والإرشاد، والزهد والقناعة، والصبر على نوائب الزمن وأحداث الدهر مع كثرة ما يطرقه من ذلك، والعلاقة مع الله، والصلة بعباده الصالحين، والعلماء الربانيين، والمصلحين البارزين في بنغلاديش، وبعد أن أنشأ مملكةً كاملة، وحقا أنها مملكة فيها العبادة والزهد، والتعليم والتربية، والسياسة والقيادة، ولها الجيوش والقوّات، والجامعات والمدارس، والمستشفيات والمصارف، والصحف والجرائد، بعد أن أنشأ هذه المملكة الفريدة في بنغلاديش انتقل إلى جوار ربّه، وكان ذلك عام ٢٠٠٦ للميلاد، صلى عليه مئات الألوف من الناس، ثم واروه التراب بالدعاء والدموع، وكان ذلك يوما مشهودا في التاريخ.

الكمال لله العلي العظيم

الرجل الذي ورث من والده أرضا صغيرةً وزاوية ضيّقة، ثم بنى منها مملكةً إيمانية كبرى، وإمبراطورية روحانية عظمى فريدة في نوعها، وقضى حياتَه كلَّها في تطويرها وتحصينها، وجلسَ مع الأشخاص والأحزاب يُصلح ويوجّه، ويصوّب وينصح، لا غرو أن تنبو بعض الخطوط الشاذة في هذه المملكة العظيمة، وأن تكون بعض اللبنات من هذا الصرح المنيف في غير مكانها، فيحصل بعض الخلل، ويحتاج إلى الإصلاح، فهذا الإنسان لا يزال- بعد وفاته- تحيط به هالاتٌ من المدح والإطراء وسط المعجبين به، والمبايعين على يده، ولا يزال الناس متوزّعين بين يديه على فريقَين، فريق يتعصّب له تعصّبا كريها، وفريق يتعصّب عليه حقدا وعنادا، ومن هنا فقد وقع الخلاف بين الشيخ وأبيه وبين العلماء في بعض مواقفه الفقهية والدعوية والسياسية، لكن ذلك لا يحطّ من شأن هذا الإنسان ودعوته، وكيف بمجالس الذكر الجماعي ورفع الصوت بـ"إلا الله" وبعض الهنات في كتب أبيه تهدم هذا الصرح العظيم من قواعده، وتطيح بهذه الحركة العظيمة الفريدة، وتمحو جميع مآثر هذا الإنسان الخالدة في الدعوة والإصلاح ونشر الكتاب والسنة، التي قدّمها إلى دينه ودولته وشعبه وإلى العالم طيلة نصف قرنٍ؟

مولانا عبيد الحق القاسمي الجلال آبادي

(١٩٢٨-٢٠٠٧)

المصلح المجاهد، خطيب الملة، قائد الأمة

قرأتُ سير العظماء فوجدتُ هذا الرجل قد جمعَ العظمةَ من أطرافها، فكان عظيما في علمه ومعرفته، وعظيما في توجيهه وتدريسه، وعظيما في سياسته وقيادته، وعظيما في جهاده، وعظيما في مراحل حياته كلها، وكان صاحب معجزة كبرى في التاريخ المعاصر لهذه الدولة، وعجبا عجابا للعلماء والحكّام، رجلٌ تخرّج من مدرسة لا تعترف بها حكومة هذه الدولة، ثم رأس أكبر مدرسة عربية حكومية، وخطب في جامع وطني وحيد طوال حياته، وأصبح موطن ثقة العلماء ومرجع رجال السياسة، ورمزا لمهابة العلم، وعظمة التقوى والأمانة، وعنوان الصدق، وشعار الجرأة الإيمانية، إنه الشيخ الرباني والقائد الوطني، وخطيب الملة البنغلاديشية المسلمة، والعالم العاقل، والمصلح المحتسب العظيم، مولانا عبيد الحق القاسمي الجلال آبادي رحمه الله.

الميلاد والنشأة

ولد عبيد الحق عام ١٩٢٨م في محافظة «سلهت» لوالد كبير، وعلم من أعلام عصره، ومن طليعة العلماء البارزين والمفكّرين الإسلاميين، الشيخ مولانا ظهر الحق،[1] فأخذ أبجديات العلم على يد والده، ثم درسَ في مدارس شتى، وأخيرا سافرَ إلى الهند وهو ابن أربعة عشر عاما، ودخلَ في دار العلوم ديوبند،

(١) إنه الشيخ ظهور الحق الجلال آبادي، وُلد عام ١٨٨٩م في محافظة «سلهت»، ودرسَ في مظاهر العلوم «سهارنبور»، ثم درسَ في دار العلوم ديوبند، وأخذ الحديث عن الشيوخ الكبار، أمثال العلامة أنور شاه الكشميري، والعلامة شبير أحمد العثماني وغيرهما، كما بايع الشيخ التهانوي ونال منه الخلافة، تولّى التدريس في جامعة مظاهر العلوم لفترة يسيرة، ثم عادَ إلى مسقط رأسه، ودرّس في مدارس وجامعات شتى، كما قام بجولات دعوية في أرجاء الدولة، وكان عابدا وزاهدا في الدنيا، له دورٌ كبيرٌ في الدعوة والإصلاح، وقد توفّي الشيخ عام ١٩٤٦م.

وظلّ فيها سنوات، ودرس التفسير والحديث، والفقه والأصول، والمنطق والفلسفة على أساطين هذه العلوم، ومن أبرز أساتذته في دار العلوم ديوبند الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ مولانا القارئ محمد طيب، والشيخ مولانا إدريس الكاندهلوي، والشيخ مولانا إعزاز علي الأمروهي، والشيخ مولانا فخر الحسن، والشيخ مولانا إبراهيم البلياوي وغيرهم، وكان من بين زملائه في ديوبند الذين أصبحوا فيما بعد نخبة الأمة المسلمة الهندية وأئمتها، وقادتها وسادتها، الشيخ العلامة أسعد المدني، والشيخ سالم القاسمي رئيس دار العلوم ديوبند، والعلامة الأديب مولانا وحيد الزمان الكيرانوي.(١)

في محراب التدريس

بعد أن عادَ إلى الوطن تولّى تدريس الحديث النبوي في مدرسة «براكاترا» بداكا، ثم تنقّل إلى مدارس متعدّدة بما فيها الجامعة الإسلامية دار العلوم بـ«كراتشي»، في عهد العلامة المفتي محمد شفيع العثماني، درّس فيها فترةً يسيرةً، ثم قُدّمت إليه دعوة التدريس في المدرسة العالية بداكا التي كانت من المراكز العلمية الكبرى في ذلك الوقت، وكان يدرّس فيها العلماء الأعلام أمثال الشيخ الكبير، صاحب إعلاء السنن، العلامة ظفر أحمد العثماني، والشيخ مولانا عبد الحق الخيرآبادي، نجل الشيخ فضل الحق الخيرآبادي، وشمس العلماء مولانا نذير حسين الديوبندي، والشيخ عميم الإحسان المجددي وغيرهم.

فدخلَ الشيخ القاسمي الديوبندي في المدرسة العالية وظلّ فيها أكثر من ثلاثين عاما، يدرّس ويوجّه، ويخطط، ويرأس، ثم تولّى التدريس في مدارس عربية ديوبندية، وكان شيخ الحديث في جامعة فتية، ومدرسة قاسم العلوم بـ«سلهت»، ومن هنا كان أستاذ الأساتذة، ومنشئ جيل كبير من الدعاة والمحدثين، كما تولّى الخطابة في الجامع الوطني «البيت المكرّم» عام ١٩٨٤م بعد وفاة الخطيب الشيخ عبد المعزّ رحمه الله، وكان له دورٌ ريادي في تأسيس «المؤسسة الإسلامية بنغلاديش».(٢)

صولاته في ميدان السياسة والقيادة

رغم أنه لم يكن رجلا من رجال السياسة، ورغم أنه لم يقد الأحزاب السياسية، ولم يباشر أعمال الدولة، إلا أنه كان فارسها المغوار، ومربّيا للسياسيين والقياديين، ومرجعا لذوي النفوذ ورجال الدولة، وكان يحلم دائما أن تقوم على هذه الأرض دولةٌ إسلامية، ودولةٌ قرآنية، الأرض التي انفصلت وتحررت

(١) مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، تأليف السيد رضوان أحمد، ص ٧٤

(٢) من حديث العلامة محي الدين خان عن الخطيب، نقلا من كتاب مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، للسيد رضوان أحمد، ص ١٦٣

من أجل الإسلام، فلا بدّ أن ترجع إلى أصلها وتحكّم القرآن والسنّة دستورا لها، ولتحقيق هذا الحلم جالسَ السياسيين، وتحدّث إلى الأحزاب السياسية، بل قد باشرَ السياسة لفترة، وقد شاركَ في حزب «نظام الإسلام» الذي تأسس على يد الشيخ الرباني أطهر علي، ثم شاركَ مع الشيخ محمد الله الحافظجي في «حركة الخلافة»، إلا أن الشيخ لم يخص حزبا سياسيا يرفع لواءه ويدافع عنه، بل كان يدعم جميع الأحزاب السياسية حسب مطالب الدين والأمة، ومقتضيات الوطن، ويتمنى وحدتها، ويسعى لإزالة الفرقة من بينها، ولذلك عندما انعقد المؤتمر الوطني لـ«جمعية علماء الإسلام» عام ٢٠٠٥م في ساحة «بلتن» بداكا، دعا الشيخ عبيد الحق جميع الأحزاب السياسية إلى توحيد صفها، وتحقيق التضامن الإسلامي، ولأن تقوم على منصّة واحدة ترفع قضاياه المشتركة إلى السلطة وإلى الأمة.(١)

أما إذا جاءت السياسة تمسّ صميم الدين بسوء وتلحق به أذى، أو تعارض مصالح الأمة المسلمة، كان يجدّ جده ويشتدّ عوده، ويعلو صوته، وكان أول من ينزل في الساحة، ويصول ويجول في الشوارع، ويقود المظاهرات والإضرابات، ويردّ كيد الكائد في نحره، ففي أول يوم من يناير عام ٢٠٠١م عندما أصدرت المحكمة العليا البنغلاديشية مرسوما يفرض حظرا على الفتاوى بجميع أشكالها وألوانها، ثارت ثورة المسلمين، وندّد العلماء بهذا القرار المشؤوم المخالف للإسلام في جملته وتفصيله، قام الشيخ عبيد الحق بدور تاريخي في تلك الفترة الدقيقة للغاية، فقد اعتلى منبر الجامع الوطني «البيت المكرّم» وهو خطيبه، جمعة ١٢ يناير، وتحدّث ساعةً كاملة عن هذا القرار، وعن آثاره السيئة ومثالبه، وقال بصوتٍ مجلجل أمام آلاف المصلين بمن فيهم الوزراء ورجال الحكومة والسياسة، والأوساط المثقفة، قال الشيخ إن الحظر على الفتاوى في الحقيقة حظرٌ على الإسلام، لأن الفتاوى ليست إلا بيان أحكام الإسلام وتفسير شرائع الله في كل قضية من قضايا الحياة البشرية، إذن هي من صميم الإسلام، ومادام هذا الدين تدوم الفتاوى، ولا خفاء أن الإسلام دين البشر إلى قيام الساعة، فلا يقدر أحدٌ أن يفرض الحظر على الفتاوى، ثم قال الشيخ: "إن اللجنة القضائية التي أصدرت هذا المرسوم المعادي للدين والشعب لا تعرف شيئا عن الدين، ولا تحسّ بأهمية الفتاوى في حياة المسلمين، فعليها أن تتراجع عن هذا القرار في أسرع وقتٍ ممكن".

شاركَ في المؤتمرات المحلية والدولية، وقاد المظاهرات في مناسبات كثيرة، تارة في الردّ على الغارات التي يشنّها الغرب على الأراضي المسلمة، وتارة في الردّ على الفساد والفوضى التي تنشرها بعض الفئات

(١) مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٩، ص١٥٩، ١٥٩، ٢٢٣

المنتسبة إلى الإسلام باسم الجهاد والقتال وإقامة الخلافة الإسلامية، ولذلك عندما ثار حزب «جماعة المجاهدين بنغلاديش» وأحدث تفجيرات مسلسلة في جميع المحافظات البنغلاديشية، التي أوقعت الدولة والأمة في حرجٍ، وكادت أن تحدث الفوضى العظيمة، ويخرج شرّ مستطيرٌ، نهض العلماء يندّدون بهذه العملية الإرهابية، والحرب ضدّ المدنيين المسلمين، وقتل الأبرياء والأطفال والنساء، وتفجير الفوضى في الدولة الأمينة، كما خرجَ الخطيب القاسمي وقاد مظاهرات كبيرة تاريخية تندّد بمثل هذه الأعمال، وتتّهمها بأنها ليست من الإسلام في شيء، كما حذّر الحكومة والأمة من التنصير في مواطن كثيرة، وعقد مؤتمرا من أكبر المؤتمرات التاريخية في هذه الدولة ضدّ القاديانية.

على منبر «البيت المكرّم»

كخطيب للجامع الوطني كان أحقّ الناس بهذا المنصب في تاريخ هذه الدولة، وإنه فاقَ جميع من سبقوه إلى هذا المنصب رغم علمهم ومكانتهم، وجاههم وعظمتهم، بل له فضل الأستاذية والقدوة الحسنة لكل من خلفه وسيخلفه في هذا المنصب، وكان يتحلّى بمزايا قلما تجتمع في إنسان، وكلما تجتمع تجعل من ذلك الإنسان إنسانا كاملا، ومجمع الفضائل، ومحطة أنظار الناس، ومرجع العلماء في التربية وتزكية النفوس، ومكان احترام وتقدير رجال السياسة، وموضع ثقة للأوساط المثقفة.

فقد كان جامعا بين الثقافتين المتصادمتين وما أصعب الجمع بينهما، وملتقى البحرين، وكان متمكّنا من القديم الصالح والجديد النافع، وإلى جانب زخارة علمه وتضلّعه في القرآن والسنة وعلوم الشريعة، كان واسع الاطلاع على شؤون العالم الإسلامي، وخبيرا بتاريخ الحضارة والثقافة، والأديان والمذاهب، والنظريات والفلسفات، وعلوم السياسة والاجتماع، والحكومة والقيادة، وصلاحية الإسلام في عصر العلوم والتكنولوجيا، وكان من رواد المصرفية الإسلامية البعيدة عن رجس الربا وخبثه في هذه الدولة، وفوق كل ذلك كان إنسانا وقورا سمحا، مهيبا بسيطا، هينا لينا، بعيدا عن التكلف والتظاهر، يعرف لكل ذي حق حقه، ويعترف بكل ذي موهبة موهبته، لا يحسد ولا يحقد، ولا يتعصب ولا يتزمّت، ولا يتنطّع ولا يتعنّت، وكان رمزا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان الاحتساب شعاره ودثار، هذه الأشياء هي التي جعلته أولى الناس بهذا المكان، وأحقهم بهذه المنصب العظيم الدقيق، فلما اختير لمكانه الحق والمنصب الخليق به جاءَ بالعجائب، وجلب إليه القلوب، من العوام والخواص، وأخضعَ أمامَه رقابة الحكومة ورجالَها، وليست هي إلا القوّة التي عادت بها عليه عقيدة التوحيد، والإيمان العميق برسالة الإسلام، والصدق مع الله، والإخلاص لدينه.

لا يخاف في الله لومة لائم

كان جريئا في فتواه، وصريحا في أجوبته، وصدّاعا بالحق، وعظيم المهابة، وأروع نموذج لكلمة الحق عند السلطان الجائر، وشديدا في محاسبته للحكام، وكثير النقد لسوء تصرفاتهم، وقبيح أعمالهم، لا تلين له قناة لأحد، ملكا كان مملوكا، راعيا كان أو رعية! كلما يرى شيئا يخالف الدين ويعارض مصالح الأمة، يثور وينهض، ويرفع صوتَه، ولا يبالي بالسلطة أو الحكومة، ولا يخجل في الحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخفي الحقيقة، ولا يحابي ولا يتحزّب،[1] وكان لصوته وزن، وللسانه جذب، ولبيانه سحر، إذا تحدث يأخذ بمجامع القلوب، ويتلاعب بالألباب، وكان يطلق الكلام من فمه كالمدفعيّ الماهر الخبير، في أحسن وقته وأنسب مكانه، فكان له فعل القذائف في المعارضين!

كثير من الناس يتكلمون عن الحركة والجهاد، وحينما يجد الجد ويأتي الأوان، نرى همتهم تتبخر وتتلاشى، وقصور الشجاعة تتهاوى، ولم يكن الخطيب القاسمي من أمثالهم، بل كان بطلا شجاعا في ظاهره وباطنه، وفي برانيته وجوانيته، ولذلك عندما سئل مرة من الجريدة اليومية المشهورة: "أيها الشيخ القاسمي! قد شاع منك أنك دائما تنتقد رابطة عوامي، الحزب الحاكم للدولة"! فقال الشيخ بكل اطمئنان: "إني متحدّث باسم الإسلام، وترجمان القرآن، أتحدّث في ضوء الشريعة، فلا أدري هل هي تتجاوب مع الحكومة أم تصادمها، لأن البلاغ هو واجبي، وكلمة الحق هي إيماني، فلا أستطيع أن أحجم عنها، وقد تحدّثت مرّة عن صورة «الشيّخ» مجيب الرحمن ومبالغة الناس في إجلالها وتقديرها التي قد تبلغ حدّ التقديس والهيام بها، وهذا ليس من الإسلام في شيء"، قاله في عهد سلطة «رابطة عوامي» التي كان «الشيّخ» مجيب الرحمن أكبر بطلها، ومحييها ومجددها ومربّيها.

لم يكن من السهولة أن يتحدّث إنسانٌ عن هذه القضايا الحسّاسة، وينتقد الحكومة ورجال السياسة، ومواقف السلطة السلبية من الإسلام والأمة، لم يكن كل ذاك سهلا ميسورا لإنسانٍ كان في أخطر مكان من الحكومة، وخطيبا للجامع الوطني، ومدرّسا في المدرسة العالية الحكومية، ولذلك عانى الشيخ في مسيرة حياته معاناة كثيرة، تارة من السلطة وتارة من الفرق المنتسبة إلى الإسلام مثل القاديانية، والفرق القبورية، وأصحاب الزوايا والخرافات، حتى كاد الشيخ أن يُقال من منصبه ويُحال إلى التقاعد قسرا، إلا أنه كان طودا شامخا، وجبلا راسيا أمام هذه المعاناة، فاستقام على المبدأ، وثبت على المنهج الذي رآه سبيل السلام والفلاح في الدنيا والآخرة.

(١) انظر تفاصيل هذه كلها في مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، للسيد رضوان أحمد، ص٩٧ وما بعدها.

كيف كان الخطيب في بيته؟

هذه هي صورته الصارمة في الشريعة وفي حدود الله، والدفاع عن حمى الإسلام، وخارج البيت، أما داخل بيته فكان من خير الناس لأهله! هادئ الطبع، رقيق الشعور، طويل الأناة، رضي الخلق، سمحا كريما، متواضعا في غير خضوع ولا مهانة، وكانت حياته مبنية على البساطة والزهد، وقائمة على التقشّف والخشونة، بعيدة عن التعقيد وزخارف المادة، وكان شديد الحرص على الوقت، لا يضيع لحظة منه في غير فائدة أو في سهرات وجلسات طويلة، ضحلة النفع، لكنه كان في حاجة الناس، يطعم الجائع، ويسقي العاطش، وينصر الضعيف، ويكرم الضيف، ويعود المريض، ويفتقد اليتامى والأرامل، ويأخذ للمظلوم، ويسد للمديون، فلم يلبث أن خشعت له القلوب، ودانت له العقول.

الخطيب على مسرح العالم

كما سافرَ إلى بلدان كثيرة في جولات دعوية، وفي بعثات حكومية دينية، فذهبَ إلى السعودية، والعراق، وإيران، ومصر، والمغرب، وماليزيا، وإندونيسيا، وسنغافورة، والهند، وباكستان، والكويت، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وجنوب أفريقيا، يمثل دينه وشعبه، ويتحدّث ويحاضر، ويقترح ويوجه، فاخترقت شهرته حدود الدولة، ووصلت صداه إلى العالم العربي والغربي، وتجاوزت أفكاره حدود الزمان والمكان، وسارت مسير الشمس في الشرق والغرب.

عبقري الكتابة والتأليف

رغم هذه الأعمال الشاقّة أخرج وقتا كبيرا للكتابة والتأليف، لرغبته فيها منذ صغره، وشعوره بخطورتها الشديدة وفائدتها العظيمة، وأنها من الباقيات الصالحات، فكتب عدّة كتب قيمة خالدة، منها: ◊ القرآن الكريم وحياتنا الراهنة ◊ نشر الفوائد في خلاصة شرح العقائد ◊ أزهر الأزهار في شرح نور الأنوار ◊ سيرة المصطفى ◊ تسهيل الكافية ◊ السقاية في شرح الوقاية ◊ تاريخ الإسلام، مع أن مؤلفاته قليلة العدد، لكنها عظيمة النفع، وعميقة المادة، وغزيرة الفائدة، حتى قُرّرت معظمها في منهج المدارس الدينية،[1] وكان أمينا في كتابته، ووثيقا في فكره، ودقيق النظر في الحديث النبوي ومراتبه، وطبقات العلماء ودرجات الرجال، وكثير الروية قبل التصدي لذكر حديث وعزوه إلى النبي ﷺ.[2]

---

(١) انظر للتفصيل مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، تأليف السيد رضوان احمد، ص٨٥ وما بعدها

(٢) كلام الشيخ عبد المالك عنه، نقلا من كتاب مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، للسيد رضوان أحمد، ص١٨٩

صلته بالله تعالى

بالإضافة إلى هذه كلها كان داعية ربانيا، وعلى جانب كبير من الصلابة الدينية، والورع والتقوى، عفيف القلب، وعفيف اللسان، طاهر الظاهر، ونقي الباطن، وكريم النفس، وصافي الروح، اعتنى بالسلوك والتزكية منذ وقت مبكّر من حياته، فقد بايع الشيخ حسين أحمد المدني، ثم بايع الشيخ أطهر علي، ثم استفاد من الشيخ محمد الله الحافظجي ونالَ منه الخلافة، ثم بايع الشيخ أبرار الحق الهردوي بعد وفاة الشيخ الحافظجي،[1] وعُرف بالحلم والصلاح، والحرص على اتباع السنة، والوقوف عند حدود الشريعة.

جامع «البيت المكرَم» بعد وفاته

وقد اختار الله الشيخ عبيد الحق القاسمي عام ٢٠٠٧م، فانتقل إلى رفيقه الأعلى، وترك ثغرةً في كيان الأمة لا تزال ملموسة وماثلةً للعيون ومحسوسةً لدى الجميع، تنتظر من يسدّها، فقد أسلفنا أن الخطيب عبيد الحق كان أحق الناس بخطابة الجامع الوطني «البيت المكرّم» من بين السابقين واللاحقين، ولذلك كل من خلفَه في ذلك المنصب الدقيق قد سد مكانَه ولم يسدّ مكانته، ولم يؤد الأمانة الكبرى التي تتطلب ممن يقوم ذلك المقام، ولن يشعر المسلمون بفراغٍ كبير هائلٍ تركَه الشيخ القاسمي في هذه الأمة أكثر من هذا الوقت الحرج الدقيق الراهن، حين خلفه في ذلك المكان رجال من المبتدعة، متملّقون للسلطة، ومرتادون لقصور الحكام، ومتمرغون على أعتابهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون، اللهم إلا رجل جاءَ لفترةٍ يسيرة ثم لبّىٰ دعوة ربه،[2] والعهدة في ذلك ترجع إلى السلطة، ثم ترجع إلى المسلمين في هذه الدولة، فكيف عجزت الأمة عن اختيار إمامٍ لهم يقودهم في صلاتهم، وتركت حقّ الاختيار لسلطة

---

(١) مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، تأليف السيد رضوان أحمد، ص٩٧

(٢) إنه الشيخ الرباني مولانا المفتي محمد نور الدين بن الحافظ مولانا بلايت حسين، عالم كبير من العلماء المعاصرين، تخرّج من الجامعة القرآنية بـ«لال باغ» داكا، ثم سافرَ إلى باكستان ودخلَ في الجامعة الفاروقية، وتخصّص في علم القراءة والتفسير والفقه، ثم ذهبَ إلى مصر ودخلَ في الأزهر الشريف، كما دخل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورّة، وشاركَ في دورة تدريبية على اللغة والدعوة، تولّى التدريس في مدرسة بـ«مداريبور» ودرسّ فيها صحيح البخاري، وفي عام ١٩٨٤م تولّى الإمامة في الجامع الوطني البيت المكرّم، وكان علما ذا مكانة عند العلماء والأوساط المثقّفة، كما كان مؤلفا قديرا، ولما توفّي الخطيب عبيد الحق كان رجلا وحيدا في محيط الجامع الوطنيّ أن يحمل هذا العبء الثقيل بجدارة، فكان خير خلف لخير سلف، تلقاه الأمة بالقبول، ونال تأييدا معنويا من العلماء والمشايخ لما كان على المنهج الصحيح، وكان رجلا قياديا، وعالما ربانيا، وداعية مخلصا، ولما توفّي عام ٢٠٠٩م انطفأت بذلك آخر المعالم للعقيدة الصحيحة التي طالما كانتْ مسيطرة على الجامع الوطني، وهنا جاءت جحافل البدع والخرافات، وجاست خلال الجامع جيوش القبوريين وأصحاب الأضرحة والمتجرين بالدين.

لا تؤمن بالله إلا قليلا! لكن الحق أحق أن يقال بأن الأمة المسلمة البنغلاديشية لم تعقم- وهي الولود الودود- عن إنجاب رجال ذوي عاطفة سامية، وثقافة واسعة، وعقل كبير، رجال يحبون الإسلام ويتألمون له، ويعشقون مناهجه ومبادئه، وينزفون الدموع من أجله، ويستحقّون بجدارة أن ينوبوا عن الشيخ القاسمي في جمعه بين الثقافات، والعلم والعمل، والإيمان والجرأة، وكلمة حق عند سلطان جائر، والمطالبة بحقوق المسلمين في هذه الدولة المسلمة، وفي رفع الصوت ضدّ بغي الوثنيين واستطالتهم على المسلمين، رغم أقليتهم ورغم الإفلاس في تاريخهم وإيمانهم وعقليتهم، ورغم أغلبية المسلمين الساحقة وكونهم يزيدون أضعافا مضاعفة على الهندوس، وعظمة ماضيهم، وتاريخهم المجيد في هذه الدولة!

مولانا محمد أمين الإسلام

(١٩٣٢-٢٠٠٧)

المفسّر الكبير، صاحب تفسير «نور القرآن»

لقد قام هذا الإنسان بما يقوم مجمع علمي كبيرٌ، أو لجنةٌ محكمة من العلماء المجتهدين، المتمكّنين من اللغات والآداب، والتفسير والحديث، ومقاصد الشريعة، والبيان والبلاغة، والتاريخ والحضارة، والجمع بين العلم الأصيل والعلوم المعاصرة، والنظريات البشرية والاتجاهات الحديثة، لكن هذا الإنسان الشجاع وضعَ في نفسه الثقة، وآمن إيمانا راسخا بقوّة العلم والمعرفة، والتوكّل على الله تعالى، وقيمة الجهود والجهاد، فاجتهدَ، وجاهدَ، وتعرّق وتجشّم، وتحملّ المصاعب والمتاعب، ونذرَ سبعة عشرَ عاما من حياته، على مهمّة واحدة، وعلى مشروع واحد، حتى تحقّق حلمه، وأثمر جهده وجهاده، وجاءَ بأعجوبة فريدة في تاريخ هذه الدولة، غير مسبوقة المثال، وجاءَ "تفسير نور القرآن"، في ثلاثين مجلّدا، يزيد على أحد عشر ألف صفحة، حتى لو يسأل قارئٌ في أي عصر أو مصر، ما هو أوّل تفسير كامل للقرآن الكريم باللغة البنغالية، فسيكون الجواب بأنه "نور القرآن"، وصانع هذا التاريخ المجيد، الشيخ الرباني، العالم الخالد في تاريخ التفسير، مولانا محمد أمين الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

نظرة إجمالية في ترجمة معاني القرآن وتفاسيره بالبنغالية

ليس معنى ذلك أنه لم يكتب شيء في تفسير القرآن الكريم، إلا في القرون المتأخرة المعاصرة باللغة البنغالية، ولا يتصوّر ذلك البتة في منطقة وصلتْ إليها رسالة الإسلام بعد عهد النبوّة بفترةٍ يسيرة، ثم ارتفع فيها لواء الانتصار، ورفرفتْ راية السلطة الإسلامية في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وبرزَ فيها طائفة كبيرة من الكتاب والشعراء، منذ العصور الوسطى، الذين كتبوا عن الإسلام، ونظموا

القصائد في قصص القرآن، وسير الأنبياء عليهم السلام، وتراجم الصحابة، مثلما كتبَ الشاعر المسلم شاه محمد صغير قصديته المشهورة "يوسف وزليخا"، فتعرّض فيها لقصّة النبي يوسف في القرآن الكريم، وذكر تفاسير بعض الآية من سورة يوسف.[١]

نعم لا ينكر- بشكل عام- تقصير المسلمين البنغاليين، علمائهم ودعاتهم، في مجال خدمة كتاب الله عز وجل، ولذلك نرىٰ أن الدعاة الكبار، رغم جهادهم وجهودهم في ميدان الدعوة، ومحاربة النصرانية والهندوسية، ونشر الدين، وتأليف الكتب، لم يترجم كتاب الله، ولم يؤلف شيئا فيه! ولعل السبب في ذلك يعود إلى البيئة السائدة أولا، وبعض المفاهيم والتصورات الخاطئة ثانيا، فكانت الصولة في حياة الناس للغتين الفارسية والأردية، ولم تُشعر حاجة لنقل القرآن إلى البنغالية، كما كان بعض الناس يرون ترجمة القرآن إلى البنغالية عملا غير مشروع، فخشي الجميع من السباحة ضد التيار، ومرن الأيام إلى الأمام.[٢]

لذلك لم تظهر ترجمة القرآن الكريم بشكل مطرّد وعلىٰ منهج واضح باللغة البنغالية إلا في القرون المتأخرة، ولا نرىٰ ترجمة للقرآن- ولو بشكل جزئي- إلا في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي! عندما جاء الشيخ أمير الدين باسونيا في محافظة «رانغبور»، وترجمَ جزء عم من القرآن إلى البنغالية ونشرها عام ١٩٠٨م، لكن الحماس المزيد، والمدّ الكبير لتاريخ الترجمة والتفسير القرآني لم يأت إلا في نهاية هذا القرن، وفي هذا الوقت انتشرت عدة ترجمات القرآن الكريم، والتعليق على الآية، ونشر المقال والبحوث الموجزة حول موضوع معيّن من القرآن، في الصحف والمجلات، فجاءَ الكاتب الهندوسي المشهور غريتش تشاندرا سين (١٨٣٥- ١٩١٠) وترجمَ القرآن كاملا لأول مرّة في تاريخ اللغة البنغالية،[٣] وفي هذا الوقت جاءَ الشيخ مولانا نعيم الدين (١٨٣٢- ١٩٠٨) وترجم القرآن، إلا أن المنية عاجلته قبل أن يكمل مشروعه.[٤]

(١) التفسير باللغة البنغالية، وتفسير نور القرآن نموذجا، رسالة الدكتوراه في جامعة داكا، للأستاذ أبي الكلام آزاد ص١١، وانظر كذلك كتاب "الكتب الإسلامية بالبنغالية: ١٤٠٠-٢٠٠٠م، تأليف عبد الرزاق

(٢) دراسة القرآن بالبنغالية: ظهورها وتطورها، تأليف الدكتور محمد عبد الودود، ص٩٤، وانظر مقدّمة "القرآن الشريف: الترجمة البنغالية والتعليق عليها في ضوء التفاسير المشهورة"، تأليف غريتش تشاندرا سين، مطبوع جهينوك بوستيكا، داكا

(٣) انظر مقدّمة "القرآن الشريف: الترجمة البنغالية والتعليق عليها في ضوء التفاسير المشهورة"، تأليف غريتش تشاندرا سين، مطبوع "جهينوك بوستيكا"، داكا

(٤) إنه الشيخ المولوي محمد نعيم الدين، من أوائل من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة البنغالية، ولد نعيم الدين عام ١٨٣٢م وقيل عام ١٨٣٨م، في محافظة «تانغائيل»، في أسرة تتحدّر من نسل عراقي، درس في كتاب قريته ثم دخلَ في مدرسة بمحافظة «بابنا»، كما حضرَ في العاصمة عام ١٢٥٣ب، والتزم

ولقد شاهد القرن الماضي- القرن العشرون- نهضةً كبيرةً في تاريخ الترجمة والتفسير القرآني، وشارك عددٌ كبيرٌ من الكتاب والمؤلفين، في خدمة القرآن الكريم، بالترجمة، والتفسير، والتعليق عليه، ونشر البحوث والدراسات حول آية أو سورة معينة، وإصدار كتب ورسائل في تفسير موضوعيّ، فما من كاتب إسلامي بارز في القرن الماضي، إلا وقد أسهمَ في خدمة القرآن الكريم ولو بحظّ قليل يسير، ابتغاء السعادة الكبرى، والمشاركة في الموكب القرآني النوراني، ومن أبرزهم الشيخ مولانا محمد عباس علي (١٨٥٩- ١٩٢٣)، وأبو الفضل عبد الكريم (١٨٧٥- ١٩٤٧)، ومولانا تسليم الدين أحمد (١٨٥٢-١٩٢٧)، ومولانا محمد أكرم خان (١٨٦٨- ١٩٦٨)، والدكتور محمد شهيد الله (١٨٨٥- ١٩٦٠) وغيرهم.[١]

هنا يحقّ للقارئ أن يعبّر عن دهشته، وعجبه العجاب، كيفَ مضى على هذا الشعب المسلم الكبير، الشعب البنغالي، مع ما مضى فيهم من العلماء الراسخين، والدعاة والمصلحين، والشيوخ والمجدّدين، والكتاب والمؤلفين، والأعلام البارزين في التفسير والحديث، والتمكّن من الشريعة، وتأسيس المدارس والجامعات، رغم كل هذا وذاك، مضى عليهم زهاء ألف عام، ولم ينبر أحدٌ منهم لتفسير كتاب الله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ولم يبرز فيهم تفسيرٌ كاملٌ مفصّل للقرآن، اكتفاء بالتفاسير العربية، والفارسية، والأردية، حتى جاءَ رجلٌ هندوسي وترجمَ القرآن الكريم بكامله! ثم جاءَ بعض المسلمين، وترجموا القرآن وفسروه، لكنها لم تكن موسعة أو لم تكن منشورة، ولم تكن لتدّعي الكفاية، وهنا ثارتْ حمية الشيخ محمد أمين الإسلام، وشمّر عن ساقيه وساعديه، ووقفَ سبعة عشر عاما من حياته على خدمة القرآن، حتى جاء «تفسير نور القرآن»، فكان ذلك نورا حياته، وسبب خلوده في التاريخ.[٢]

[illegible]

(١) [illegible]، تأليف الدكتور محمد عبد الودود، ص٩٦ و٩٣

(٢) [illegible]

من الميلاد إلى المحراب

ولد أمين الإسلام في محافظة «كُمِلّا» عام ١٩٣٢م، وبدأ الدراسة في كتاب قريته، ثم دخلَ في مدرسة أشرف العلوم «براكاترا» التي كانت في ذلك الوقت من طليعة المدارس العربية في العاصمة، وكانت ملتقى العلماء البارزين الخالدين في تاريخ هذه الدولة، أمثال الشيخ ظفر أحمد العثماني، والمجاهد الأعظم مولانا شمس الحق الفريدبوري، والشيخ مولانا عبد الوهاب البيرجي، والشيخ مولانا محمد الله الحافظجي، درسَ فيها الشيخ ثلاث سنوات،[1] كما درسَ المشكاة عند الشيخ العثماني، وكان من أصفى تلامذته، ثم دخلَ في المدرسة الإسلامية العالية بـ«نواخالي»، تحت إشراف الشيخ ظفر أحمد العثماني، وتخرّج في مرحلة الفاضل، ثم رجعَ إلى العاصمة، ودخلَ في المدرسة العالية بـ«داكا»، ودرس البخاري عند العلامة المفتي محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، وتخرّج في مرحلة الكامل عام ١٩٥٥م، ثم تخصّص في الحديث الشريف، طوال عامين، وكان موضوع بحثه "تخريج أحاديث شرح معاني الآثار للطحاوي" باللغة العربية، لكنه لم يُطبع.

تولّى التدريس في مراكز علمية كثيرة، ودرّس التفسير والحديث في مدارس شتى في العاصمة، حتى استقر في الجامع التاريخي بـ«لال باغ»، المعروف بـ«شاهي مسجد» (المسجد الملكي) عام ١٩٧٤م، وظلّ فيها يخطب، وينصح، ويصلي بالناس ويوجّه، إلى آخر عهده بالدنيا، فكان هذا المسجد ساحة عمله، وميدان جهاده، ومقرّ جهوده، بل كان مدرسةً كبيرة، ومركزا علميا بارزا، كان الشيخ يعظ الناس، قبل خطبة الجمعة، ثم بعد الصلاة كان ثمّة مجلسٌ خاصّ، يحضر فيه الطلاب والعلماء، والأوساط المثقّفة، فيدرّس فيها، ويلقي محاضرات علمية.

تسخير الإذاعة للدعوة

كان الشيخ أمين الإسلام من أبرز الدعاة المعاصرين في دولة بنغلاديش، سخّر لسانَه وقلمَه، ونذر حياتَه كلها من أجل الدعوة والإصلاح، ونشر العقيدة والإيمان، ونفخ روح اليقين في الناس، فقد فسّر القرآن الكريم ونشرَه في الإذاعة منذ خمسينيات القرن الماضي، كما حضرَ في القنوات وقدّم التفسير

عصر الشيخ أمين الإسلام أو قبله، إلا أن هذا التفسير لم يصدر بعدُ في شكله الكامل، وقد صدرَ منه بعض الأجزاء باسم التفسير الحقاني، وهو أكبر حجما وأكثر قيمة، وأشدّ عمقا ورسوخا، وأعم نفعا من بقية التفاسير باللغة البنغالية، لكنه من المؤسف أنه ظلّ هذه العصور كلها تحت أطمار الأوراق ولم يصدر، ولعل السبب يكثر في ذلك، وللتفصيل يراجع ترجمة مولانا شمس الحق الفريدبوري.

(١) حضرت مولانا محمد أمين الإسلام: حياته وجهوده، تاليف محمد محمود الحسن، ص٢٠

القرآني في مواطن مختلفة، وقد بدأ برنامجا دينيا في الإذاعة منذ ١٩٥٤م، باسم «القرآن الحكيم والحياة البشرية»، وهذا البرنامج لا يزال مستمرا باسم «زادٌ على الطريق»، كما كان ضيفا ومقدم «البرنامج السحوري» خلال رمضان، منذ أكثر من أربعين عاما، وعندما سافرَ إلى جنوب أفريقيا، تحدّث في إذاعة «نداء الإسلام»، فحكى فيها قصّة حياته وحركاته الدعوية باللغة الإنجليزية لمدة عشرين دقيقةً.

على مسرح العالم

وقد سافرَ إلى بلدان شتى، وصلَ إليها داعية مصلحا، فخطَبَ الجمع، وتحدّث إلى المجامع العامة والخاصّة، وجالس المسلمين المواطنين والأجانب مجالس كثيرة، فذهب إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٢م على دعوة من «المجلس الديني للمسلمين»، ومكث فيها زهاء شهرٍ، وتحدّث مع المسلمين، وتعرّف على ظروفهم الدينية وأحوالهم الاجتماعية، وقدّم إليها جمال الإسلام وروعة الدين، وضرورة التضحية في سبيل الحفاظ على الهوية الدينية وأجرها في الآخرة، وفي عام ١٩٧٨م سافرَ إلى العراق، وكان معه خطيب الله الشيخ عبيد الحق الجلال آبادي، والشيخ مولانا عبد المنّان، ثم سافرَ إلى العراق مرّة أخرى عام ١٩٩٠م، وفي عام ١٩٩١م سافرَ إلى الولايات المتحدة على دعوة من «المركز الإسلامي بجامايكا نيويورك»، وألقى في مجسد جامايكا خطبةً باللغة البنغالية والأردية والإنجليزية، وكان متقنا لهذه اللغات إتقانا كاملا، مكثَ في أمريكا قرابة شهر وتحدّث في أكثر من ثلاثين مجمع، وفي عام ١٩٩٢م سافر إلى مصر في بعثة حكومية بمناسبة المولد النبوي، وكان يرى جواز الاحتفال به، فقد دُعي للمشاركة في المؤتمر الوطني بالأزهر، وتمّ فيه تكريم الضيوف، ممن فيهم الشيخ أمين الإسلام، على يد الرئيس حسني مبارك، كما سافرَ إلى تركيا عام ١٩٩٧م، وجنوب أفريقيا عام ١٩٩٨م، والمملكة المتحدة في العام نفسه، وتحدّث في مواطن كثيرة، وسافرَ إلى الحرمين مرارا وتكرارا.

فارس القلم وآثاره في ميدان الصحافة والكتابة

كان القلم والإعلام من أبرز مجاله الدعوي، ومحور حركاته العلمية والإصلاحية، فقد [illegible] فألّف وأجاد، ونشر وأصدر كتبا ورسائل، كما اهتمّ بالإعلام الإسلامي والصحافة الدينية منذ وقت مبكر من حياته، وقد أصدر مجلة «البلاغ» الشهرية عام ١٩٨١م، ومن [illegible] هذه المجلة [illegible] توقّف في حياته ولا بعد وفاته، وبالتالي فتكون من تلك المجلات [illegible] في تاريخ هذه الدولة، [illegible] حركات العلماء الإعلامية في هذه الدولة [illegible] المجلات والصحف الدينية قد برزت في هذه البلاد، [illegible]

شيء إلى البيئة التي تصدر فيها، فلم تكن هي بيئة صالحة ومناسبة، مهيّأة لمثل هذه الحركة العلمية، وكانت عقلية المجتمع المسلم تمثل عقلية ناشئة ساذجة لم تكيّف على قراءتها، ولم تعوّد على الحياة الثقافية مثلها، ثم تأتي نوبة الاقتصاد، وهم المفلسون فيها، فلم تعش الصحف الدينية وسط طوفان من الصحف العلمانية والإلحادية، والموالية للحكومة وللهند وللغرب!

رغم كل هذه العقبات نهض الشيخ أمين الإسلام، ومهدّ لمجلته طريقا، وظل يصدرها طوال حياته، ولا يزال أبناؤه وورثته يصدرونها، وهذه المجلة كانتْ باكورة تفسير نور القرآن، فقد نشرَ فيها مقدّمته عام ١٩٨١م، ثم لما ألفى القبول والإقبال من الناس استمرّ في تأليفه ونشره، حتى جاءَ عام ١٩٩٨م، واكتمل العمل، وبرزَ في الميدان باسم تفسير نور القرآن في ثلاثين مجلدا، بعد أن كدّ وتعرّق، وسهر الليالي، واستفرغ جهوده وجهاده في سبيل إنجاز هذا العمل، خلال مدّة دامت سبعة عشر عاما.

كان مؤلفا كبيرا، وعبقريا موهوبا، وكاتبا عصاميا، ألف كتبا كثيرة قد تبلغ خمسين كتابا ورسالة، في التفسير والحديث، والتاريخ والحضارة، والسير والتراجم، وأدب الرحلات، باللغة البنغالية والأردية، ومن أبرزها: ◊ تاريخ الإسلام (مجلدان)، نشره باللغة الأردية عام ١٩٥٥م، وتحدّث في المجلد الأول عن السيرة النبوية، وسير الخلفاء الأربعة، وفي المجلد الثاني تحدّث عن العصرين الأموي والعباسي ◊ المنهاج السوي في حل البيضاوي باللغة الأردية، شرح فيه الجزأين والنصف من التفسير للبيضاوي، وهو مقرّر في منهج المدارس العربية في الهند وباكستان وبنغلاديش، ونشرَه عام ١٩٥٦م ◊ دليلُ الحاجّ، كتابٌ قيّم لمن يُريد حجّ بيت الله الحرام، فصّل فيه المؤلف أداء المناسك من البداية إلى النهاية، وجاءَ الكتابُ في مناسبة رحلة والد المؤلف إلى الحرمين ضيفا لبيت الله عام ١٩٥٧م، فكان جهدا مباركا، نافعا للأمة بأجمعها ◊ القرآن والحياة، فيه بيانٌ لحاجة البشرية إلى القرآن الكريم، نشرَه عام ١٩٦١م ◊ فضل القرآن على الحضارة العالمية، طبع لأول مرّة ١٩٦٩م، ثم تتابعت الطبعات، وولّد الكتاب صدى كبيرة في الأوساط المثقفة، ونال المؤلف ثلاث جوائز وطنية على هذا الكتاب ◊ فضل النبي المصطفى على الحضارة الإنسانية، نشره عام ١٩٧٦م ◊ القرآن في حل مشكلات العصر (١٩٧٨م) ◊ عناية القرآن (١٩٧٧م) ◊ حياة الإنسان في مرآة القرآن ◊ الرسول القائد ◊ حياة الأولياء ◊ الإمام البخاري ◊ رابعة البصرية (العدوية) ◊ النزول على سطح القمر في ضوء القرآن ◊ حياة الصحابة ◊ دور العلماء في حركات التحرير.[١]

(١) حضرت مولانا محمد أمين الإسلام: حياته وجهوده، تأليف محمد محمود الحسن، ص٤٨ وما بعدها

قصة «تفسير نور القرآن» ووقفات معه

الناظر لحياة الشيخ المفسر مولانا أمين الإسلام يرى أن الشيخ تفنّن في الكتابة، وتنوّع في التأليف، تكتب في فنونٍ شتى وفي موضوعات مختلفة، إلا أن النظرة العميقة الفاحصة في صفحات حياته وفي جهاده وجهود تجلي للقارئ أن حياته في معظم حينها تدور حول كتاب الله تعالى، فالقرآن كان محور حياته، وساحة جهاده، ومن أجل ذلك كان معظم مؤلفاته عن القرآن، وتفسير حياة البشر في ضوئه، واستمداد النور من مشكاته، وأكبر شاهد على ذلك كتابه الخالد «تفسير نور القرآن»، الذي بذلَ فيه سبعة عشرَ عاما من حياته، وكفى به شهيدا على إمامته في تفسير كتاب الله باللغة البنغالية، وسبقه في هذه الميدان، وأستاذيته في هذا المجال.

بدأ الشيخ تفسيرَه عام ١٩٨١م، ونشرَه في مجلة «البلاغ»، ولما نال القبول والإقبال من القراء استمرّ في مسيرته، وسارَ طوال سبعة عشرَ عاما حتى انتهى منه عام ١٩٩٨م، وقبل أن يبدأ في التفسير وضعَ المؤلف مقدّمة مبسّطة مفصلة في مستهلّ الكتاب، تمتدّ على أكثر من مئة وخمسين صفحة، بيّن فيه المؤلف دواعي تأليفه، فقال: "منذ أن نزل كتابُ الله تعالى من السماء إلى الأرض قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، حفلتْ مكتبات العالم بتفسيره في لغاتٍ كثيرة، إلا أنه مع الأسف لم يبرز في الوجود حتى الآن تفسيرٌ قرآني مفصّل باللغة البنغالية، ومن هنا جاءت الفكرة في وضع تفسير لكتاب الله، تفسير شامل مفصّل، يقدّم للقارئ عصارة جهود الأئمة المتقدّمين، وخلاصة بحوث ودراسات قيّمة وصلتْ إليها أذهانُ المفسّرين عبر العصور، حتى جاء هذا الكتاب الذي بين يد القارئ".[١]

كما تحدّث في المقدّمة عن جميع ما يتصل بصلة مع القرآن الكريم، ففصّل في تاريخ تدوين القرآن، وفضائله، وطريقة تلاوته، وتأويله، ونزول الوحي، وقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأشهر المصنفات في التفسير، ومناهج المفسّرين المتقدمين، ونبوءات القرآن الكريم وغيرها، وهذه المقدّمة تتكرّر في نفس الشكل تقريبا في بداية كل جزء، تذكر خلاصة ذلك الجزء، وأهم عناصره، وفضائله ومسائله، والفوائد التي يستمدّ منه القارئ.

من أبرز الكتب التي استعان بها الشيخ على وضع تفسيره واستمدّ منها كثيرا «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، و«جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للطبري، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي،

(١) انظر مقدمة تفسير نور القرآن

و«مفاتيح الغيب» للرازي، و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي، و«خلاصة التفاسير» للكرماني و«بيان القرآن» للتهانوي، و«التفسير الماجدي» لعبد الماجد الدرياآبادي، و«التفسير الحقاني» للفريدبوري، و«تفسير معارف القرآن» لمحمد شفيع، لكنه لم يذكر في هذا الكتاب الضخم شيئا من «تفهيم القرآن» للسيد المودودي، أو «في ظلال القرآن» للسيد قطب، قد يكون السبب في ذلك البون في المنهج الفكري والنظر في المجتمع والحياة.

أما طريقته في التفسير فإنه يعرّف أولا بالسورة واسمها، مع ذكر سبب التسمية، وعدد آياتها، ثم يتحدّث عن فضائلها، ثم يأتي بشيء فريدٍ في التفاسير، وهو "الأعمال القرآنية"، يتحدّث فيه عن الرقى والأوراد، والأدعية والأذكار المأثورة، والتمائم والحجب التي جاءتْ في الأحاديث النبوية، ثم يبين لنا نزولها، وأخيرا يبدأ في التفسير المفصل.

يبدو أن المؤلف اتبع في تفسيره منهج الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في معظم الأحيان، فيفسر الآيات بالآيات القرآنية، ثم بالأحاديث النبوية، ثم بأقوال السلف من الصحابة والتابعين، ولا يكتفي بآرائه واجتهاداته، كما يفصّل المسائل الفقهية في آيات الأحكام تحت عنوان «مسائل القرآن»، وجاءتْ هذه المسائل في غالبها على ضوء المذهب الحنفي، حتى جاء الكتاب موسوعة شاملةً للفقه الحنفي في أحكام القرآن.

ولم يهمل المؤلف مطالب العصر الحاضر، والعلم الحديث، وعقلية الأوساط المثقّفة، فتناولَ كثيرا من القضايا العلمية المعاصرة التي تُثير دهشة القارئ المثقّف، مثل سدّ ذي القرنين في ضوء الجغرافيا، وحاول الإجابة على كل سؤالٍ يتوقع أن ينبت من ذهن عقلاني، وعلماني، وحتى إلحادي! كما ردّ على الشكوك والشبهات التي تثار من قبل المنصّرين والملحدين وأعداء الدين، وأوضح سياق الآيات، وصلتها مع السابقة واللاحقة، وأكثر من ذكر الأبيات العربية والأردية والفارسية، لإيضاح المعاني، ولإيصال الرسالة إلى ذهن القارئ.[1]

رغم قيمة هذا الكتاب في التفسير البنغالي بصفة خاصة، مكانته في مكتبات عالم التفسير بصفة عامة، وثناء العلماء عليه، وجهود المؤلف في وضعه، وسعة اطلاعه، وتمكّنه من علم التفسير، وصلته بكتاب الله، وجهوده في تطهير الكتاب من الأخطاء، رغم هذا كله فإنها من سنّة الله تعالى السرمدية أن

(١) حضرت مولانا محمد أمين الإسلام: حياته وجهوده، تأليف محمد محمود الحسن، ص٦٢-٦٣

لا تخلو الأعمال البشرية من الهنات والأوهام، والأخطاء والأغلاط، بل إن هذه الأغلاط هي خير شاهد على بشرية المؤلف، وإنسانية الصانع، وإلا لكان كلّ فعلة إنسانية تشبه أفعال الخالق، ويُشبه تفسيرُ القرآنِ القرآنَ، ومن هنا لم يكن هذا الكتاب خلوا من جميع الأخطاء والأوهام، بل دخلَ فيه كثيرٌ من الأحاديث الموضوعة، والقصص الخرافية، والروايات الموهومة، وطوفانٌ من الإسرائيليات، كما دخلَ فيه كثير من المبالغات في ذات النبي ﷺ، مثل التوسّل به، والإطراء في مكانته، والتزايد في إظهار الحبّ والتكريم له،[1] وكذلك إقامة عنوان في بداية معظم السورة بـ«أعمال القرآن» تخلو من الخلل والإشكالية، فقد ذكر فيه كثيرا من الروايات الواهمة، والقصص الأسطورية، والرقى التي لا تستند إلى الكتاب والسنة الصحيحة، ولعلّ السبب في كل ذلك يرجع إلى منهج فكره، واتجاه المؤلف، وحياته الخاصة، فقد كان يشتغل بالوعظ والرقى، ويجيز الأوراد والأذكار، والأحزاب الطرقية، وكان على نهج الصوفية، ويؤمن بصلاحيتها وجدارتها، ولا يخفى على القارئ أن لهذه الطرق- رغم المآخذ والمثالب- فضلا لا يُنكر في الاحتفاظ بالروح، والاهتمام بداخل الإنسان أكثر من خارجه، كما كان في الفقه على مذهب الحنفية، وفي الفكر على منهج علماء ديوبند، والكلام فيما بين الديوبندية والسلفية في هذه القضايا ذو شجون.

إلا أن الكتاب، في جملته، اضمحلّت هذه الهنات أمام محاسنه، ومن هنا جاءَ سفرًا فريدًا في التاريخ، بل جاءَ هذا الكتاب باكورة التفسير البنغالي الكامل، وخير شاهد على جهود علماء البنغال في خدمة القرآن، وفتحَ أفقا جديدا، ومهّد طريقا فريدا لعلماء هذه الدولة، وظلّ موضع حماس للمزيد والجديد في فن التفسير باللغة البنغالية، فكل من سيأتي بعده، ويؤلف في التفسير، سيظلّ مدينا لهذا الكتاب القيم، ولهذا المفسّر العبقري الرائد.

وقد عرفه العالم، وعرف عبقريته، ونبالته ونبوغه، فاعترف به، وقدّر جهوده وجهاده تقديرا كبيرا، وقد نال «جائزة المؤسسة الإسلامية بنغلاديش» عام ١٩٨٩م لخدمته في مجال التأليف، كما حازَ «الجائزة الرئاسية المصرية» عام ١٩٩٢م لخدمته إلى الدين، وكان عضو اللجنة الحاكمة لـ«المؤسسة الإسلامية بنغلاديش»، وعضو مجلس الزكاة، وعضوا في «مجلس التعليم لمدارس بنغلاديش» في فترات طويلة.

(١) انظر تفاصيلها في التفسير باللغة البنغالية، وتفسير نور القرآن نموذجا، رسالة الدكتوراه في جامعة داكا، للأستاذ أبي الكلام آزاد، ص ٣٦٢-٣٦٣

مع الناس ومع الله

لم ينس وسط هذه الزحمة، وهذا الطوفان العارم من الأشغال والارتباطات، والمهام الجليلة، والمشاريع الدقيقة، والأعباء الثقيلة، لم ينس العلاقة بينه وبين ربّه، والصلة بدينه وروحه وإيمانه، فقد نشأ تحت ظلال العارفين، وكان على صلة دائمة بالعلماء الربانيين، وأقطاب العالم الإسلامي، ويستفيد منهم في كل مرحلة من مراحل حياته، بايع على يد الشيخ القارئ محمد طيب، رئيس جامعة ديوبند عام ١٩٦٤م، في الطريقة «الجشتية»،[(١)] ثم بايع على يد الشيخ الرباني، مولانا محمد الله الحافظجي، وجاهد في سبيل التزكية والربانية، والسلوك والإحسان.

في يوم الجمعة، ١٦ من نوفمبر عام ٢٠٠٧م، تحدّث في مجلس ديني أسبوعي، كان ينعقد كل يوم الجمعة، بعد المغرب في بيته، وناقشَ مع الزملاء والأتباع والأحباء بعض الآيات والأحاديث، ولما صلّى العشاء، بدأ يحسّ بالإشكالية في الصحّة، ثم تدهورت الحال، واشتدّ المرض، وهنا بدأتْ رحلته إلى ربه ﷻ، وبدأ يقترب منه رويدا رويدا، حتى جاءَ ١٩ نوفمبر، فالتقى برفيقه الأعلى بعد حياة حافلة بالأعمال والمآثر الخالدة، التي تستحقّ عناية العلماء بها، ووضعها في مكانها، فقد ترك عدة مؤلفات، بما فيه «فضل القرآن على الحضارة العالمية» على سبيل المثال، تستحقّ بجدارة أن تنقل إلى لغات العالم، وخاصة إلى العربية والإنجليزية، وحدّث ولا حرج عن سفره الخالد "تفسير نور القرآن"، فلما كانت التفاسير الأردية والفارسية ترجمت إلى اللغة العربية، فلا مبالغة أن يستحق هذا التفسير أن يترجم إلى العربية ويقدّم إلى العالم العربي، وهنا يكون ذلك عملا فريدا في موضوعه، وإضافة قيّمة إلى المكتبة العربية الغنية، وخدمة جليلة إلى الأمة بأسرها، ووفاءً بحقّ هذا الإنسان العبقريّ الذي وُلد في هذه الدولة، وقليلٌ ما يولد مثله هنا.

(١) حضرت مولانا محمد أمين الإسلام: حياته وجهوده، تاليف محمد محمود الحسن، ص٢٥٠

مولانا محمد سخاوت الله

(١٩٣٠-٢٠٠٧)

ترجمان الدعوة، مترجم الدعاة

قضى هذا الإنسان حياتَه كلَّها في سبيل الدعوة والتبليغ، يكتبُ ويصنف، وينقل ويترجم، ويؤلف وينشئ، فترجم سلسلةً من الكتب، وصبّ فيها جام إخلاصه وإحسانه واحتسابه، حتى تقبّل الله عمله قبولا كبيرا، وأنبته نباتا حسنا، وأصبحت تلك الكتب ركائز هذه الدعوة، وظلت تُقرأ بعد كل صلاة، وفي جل المساجد، وفي المدارس الدينية ومجالس العلم، وحلقات العلماء، فكانت آية في التأثير والإفادة، يستفيد منها ملايين الناس في داخل هذه الدولة وخارجها، في كل مكانٍ ينطق فيه الناس باللغة البنغالية، ويُصلون لله تعالى ويسجدونه، ويقرؤون في كتب الدين والإيمان، وكلّ سطر من سطورها، يكتب له صدقة جارية، وصالحة باقية، ويُضيف إلى ميزان حسناته، إنه الشيخ الجليل، والمؤلف الكبير، وأديب الدعاة، وترجمان المبلّغين باللغة البنغالية، ومترجم «فضائل الأعمال»، الداعية إلى الله، مولانا سخاوت الله رحمه الله.

ميلاده ونشأته

ولد سخاوت الله في قرية «تومتشار (Tumchar)» بمحافظة «لاكشميبور» عام ١٩٣٠م، في أسرة مسلمة شريفة، تتلمذ على والده وقرأ عليه مبادئ العلم، وتعلم القرآن في بيته، ثم دخلَ في كتّاب قريته وهو ابن ست سنين، وكان يكرّر دعاء «ربّ زدني علما» دائما في ذلك العمر، حتى زاد الله علمه، وبارك في ذهنه، وزاد في قوّة ذاكرته، فأصبح آية من آيات الله في العلم والمعرفة، وقد عُرف منذ الصغر بتواضعه ورفقه، ولين جانبه، ورقة قلبه، وخفّة دمه، والميل إلى العبادة والصلاح، وكان أعجوبة في صدقه وأمانته.

ثم دخلَ في المدرسة العالية بداكا، وأكمل الشوط في مرحلة التكميل بالدرجة الأولى، واشتغل فيها كباحث مساعد، لفترةٍ يسيرةٍ، ثم تولّى التدريس في المدرسة الإسلامية العالية بـ«تومنتشار»، وجاء بالمعجزات، فما هي إلا سنواتٌ حتى ارتفع المستوى الدراسي للمدرسة، ومستوى الطلاب العلمي والعملي، وفازَ طلابُها بالدرجات العليا في مجالس التعليم بالبنغال، حتى علاتْ شهرتُها، وأصبحت من طليعة المدارس العربية آنذاك، وكان للشيخ محمد سخاوت الله، القدح المعلى في هذا التاريخ المجيد، لكن هل من أحدٍ أن يسجله، أو يستعيد ذكراه!

إنسانٌ جُبل على الدعوة والتبليغ

منذ اللحظات الأولى من الحياة، كان الشيخ سخاوت الله يميل إلى العبادة والإنابة، والدعوة والإصلاح، ويتفجّع قلبه أسفا على الأمة الواقعة على عتبات الانحطاط، وعلى شفا حفرة من الهلاك والضياع، والجهل والأمية، ولذلك ما إن شبّ عن الطوق، ودخلَ في الشباب، حتى نهض ليعمل في سبيل الله، ولرفع كلمته، ولما تولّى التدريس في مدرسة «تومنتشار»، هبّ ينشئ الصلةَ بالدعاة الكبار، والمشايخ العظام في مركز الدعوة والتبليغ في «كاكرائيل» بداكا، ويخرج في سبيل الله من حين لآخر، حتى جاءَ العام ١٩٦١م، ونشرَ رسالةً صغيرة باسم "خزانة الدعاء"، وكان ذلك الكتاب نقطة انطلاق رحلته الدعوية والعلمية والإصلاحية.

آثاره الخالدة في طريق الدعوة إلى الله

هذه الرحلة التي بدأتْ عام ١٩٦١م لم تتوقّف في يومٍ من الأيام، بل تفرّغ الشيخ للدعوة والإصلاح تفرّغا غريبا، وكتبَ كتبا كثيرة، وترجمَ أكثر من ذلك، ونقل إلى البنغالية سلسلةً من الأسفار القيمة والمؤلفات التي تعدّ ركائز هذه الدعوة، والمقررات الإجبارية في منهج هذه المدرسة الدعوية والفكرية، فترجمَ «فضائل الأعمال» لشيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي، الكتاب الذي يشتمل على فضائل القرآن، وفضائل الصلاة، وفضائل الذكر، وفضائل رمضان، وفضائل الصلاة على النبي ﷺ وفضائل التبليغ، وحكايات الصحابة، وفي النهاية رسالة صغيرة تحمل عنوان «انحطاط المسلمين وعلاجه»، كما ترجمَ «فضائل الصدقات» للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، و«منتخب الحديث» و«حياة الصحابة» (خمسة مجلدات) للشيخ يوسف الكاندهلوي، وألّف كتبا ورسائل متعدّدة، كما أنشأ دارا للنشر باسم "مكتبة التبليغ" (تبليغي كتب خانة) وأصدرَ منها كتبَه كلَّها، ومثلَها معها.

وقفات مع «فضائل الأعمال»

لما ذكرنا كتاب «فضائل الأعمال» للشيخ زكريا الكاندهلوي وترجمته للشيخ مولانا محمد سخاوت الله بالبنغالية، يجبرنا واقع الأمة الإسلامية الأليم على أن نتعرّض لهذا الكتاب في سطورٍ إن لم يكن في فصول، فهذا هو الكتاب التاريخيّ الذي توزّعت حوله الأمة الإسلامية في معسكرين متحاربين، معسكرٌ يقاتل هذا الكتاب بكل ما أُوتي من علم وقدرة وسلاح وسلطان، يحرّم قراءتَه على المسلمين، ويأمر بإخراجه من المكتبات الإسلامية، وإحراقه بالنار أو الرمي به في الأنهار، فهو يرى أن هذا الكتاب جماع البدع والخرافات، ومنبع الشطحات، وثالثة الأثافي، وبابٌ مفتوحٌ على مصراعيه من أبواب الشرك والضلال، ومن يقرأ في هذا الكتاب فيجب أن يُزجر ويُستتاب، كأنه قد أتى ذنبا كبيرا، أو صنع صنيعا منكرا، وجنى جناية كبرى.

بينما يرى المعسكر الثاني أن هذا الكتاب سفرٌ خالدٌ فريدٌ في التاريخ، وإن كل ما جاءَ به هذا الكتاب من الأحاديث، والتاريخ، والقصص والأقوال، حقيقة ثابتة مقطوع بها ولا تقبل جدلا، كأنه وحي نزلَ من السماء، أو جاءَ به نبيٌّ من الأنبياء عليهم السلام، وقد اتّخذه البعض بديلا لكتاب الله، وتحويلا عن سنة رسول الله، فعكفَ على قراءته وحفظه والبحث عن الحكم والمعارف في سطوره، وتركَ كتاب الله وراء ظهره، وقد يختم هذا الكتاب مرارا في حياته بينما لا ينظر في كتاب الله مرّة واحدةً؟ وقد لا يعرف قراءة القرآن البتّة، ولذلك نراه يقرأ في هذا الكتاب قبل الصلاة وبعدها، وفي مجالس التعليم، وفي البيوت والشوارع، بينما تمضي عليه أيامٌ أو أشهر، لا يمسّ كتاب الله ولا ديوانا من دواوين السنّة، ولا يقرأ فيها، فيا للكارثة والطامّات الكبرى!

للأسف الشديد كما يتجلّى للقارئ الخبير والداعية المجرّب الحكيم أن كلّا من هذين المعسكرَين قد انحرفَ عن الجادّة، وأجحفَ الحقّ، وتحاشى العدلَ والإنصافَ، ولم يوف الحقَّ حقَّه، وما جاء الحكم صحيحا موفّقا، فإن هذا الكتاب ليس وحيا منزّلا من السماء، وليس مؤلفه ملكا مقرّبا يمشي على الأرض، ولا نبيا أو رسولا، إنما هو بشرٌ مثل سائر الناس، يأكل ويشرب، ويمشي في الأسواق، ويصيب ويخطئ، ويغضب ويضعف، وتعتريه حالاتٌ، ولم يكن ملكا من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهذا الكتاب الذي ألّفه الشيخ زكريا الكاندهلوي لعله لم يفكّر حين تأليفه ماذا أخفت له الأيام في بطنها، وماذا ينتظره من الإقبال والانتشار، ولم يتصور مدى نشره في العالم، وترجمته إلى لغاتٍ شتّى، فألّفه كما يؤلّف كلّ مؤلف كتابه، وجمعَ فيه من الأحاديث الصحيحة، والضعيفة، وقد

تسربت فيه بعض الأحاديث الموضوعة، والقصص الواهية، والوقائع الغريبة، قد لا يكون لها أصلٌ ولا أساسٌ، ولا مصدرٌ موثوقٌ من مصادر التاريخ، ولا بدعَ فكتابٌ ضخمٌ هائل مثله لا يُستغرب أن يشتمل على بعض الإشكاليات مثلها، إما عن جهلٍ وغفلةٍ، أو عن حكم بيئة نشأ فيها المؤلف وشبّ، ودرسَ وكتبَ، لكن مهما كان الأمر عندما جاءَ الكتاب، أصبحَ معجزةً من معجزات الدهر، ونال قبولا لم يكتبه الله إلا لكتابه وسنّة رسوله ولبعض المؤلفين المعدودين السعداء في تاريخ الإسلام، وتُرجم الكتاب إلى أكثر لغات العالم، فلو عاد المؤلف إلى حياته، وشاهدَ ما نال هذا الكتاب من الإقبال والقبول، والمكانة والمودّة، لكذّب عينَه، واتّهم بصرةَ أو عقلَه، ولعدّه حلما من أضغاث الأحلام، أو قصّة من عالم الخيال!

إذن هذا الكتاب– مع قيمته ومكانته– يتضمّن بعض الأشياء التي يجمل به أن يكون خاليا عنها، وبريئا منها، وخصوصا عندما يكون في متناول العلماء والعوامّ جميعا، ويقرأه العالم المثقف، ويستمع إليه الأمي الجاهل، فلا يفرّق بين الصحيح والسقيم، والواقع والخيال، والحقيقة والأسطورة، فيكون وبالا عليه، وعونا على الضلال والظلام، ويحدث زلزلة في إيمانه وعقيدته، هنا ينبغي لنا أن نعذر المؤلف، ونحسن به الظنّ، ونذكر المزايا والمحاسن، وتاريخ الخير الذي أحدثَ هذا الكتاب، فقد جاءَ حركة الدعوة والتبليغ بانقلابٍ شامل فريد في تاريخ البشر، وكان هذا الكتاب كنبراسٍ في طريقها، يستمدّ نورَه من نور الوحي ومشكاة النبوّة، ثم يبثّها في ظلام المجتمع الإنساني، فينير الطريق، ويضع عليه شارات النور، ومعالم الهدى، وكم أصلح من البشر، وأفاقَ من النائم، وأيقظ من الغافل، وذكّر من الناسي والساهي، وجاءَ إلى المسجد بالذي لم يطأ عتباته في حياته يوما من الأيام، فوضعَ في قلبه جذوةً من الإيمان، وشعلة من النور، أحرقت الذنوب، وأنار القلوبَ، وأعد الرجال، ومصابيح الدجى، وأئمة الهدى، فوصلوا في صميم أوربا، وفي أدغال أفريقيا، وفي ظلمات أستراليا والصين وروسيا، وخرجوا إلى الدنيا دعاةً وهداة، لا قُساةً وقضاةً، وأناروا ملايين البشر بنور الإيمان والإسلام، وكان هذا الكتاب سبب هداية هذه الخلائق كلها، فلا غرو أن نعذرَ المؤلف في أخطائه وحالات غفلته، كما نعذر الكتابَ في إجحافه وانحرافه، واجتنابه للصواب، ونحاول تخليته من ظلمه وظلماته، واستنارته بنور الروح والإيمان، والعرفان واليقين، وعندما يتمّ ذلك يكون أكبر خدمةٍ تسدى إلى أمّة كبيرة، وأغلى تحفة تُعرض على قوم مسلم، أما النقد اللاذع فهو يهدم أكثر من أن يبني، ويفسد أكثر من أن يصلح، وهنا تعثّرت بعض الأقدام الفاضلة، طويلة الباع وعالية الكعب، فجرحوا المؤلف والكتاب جرحا فيه إجحاف ومبالغة، ومجانبة للعدل، لاعتمادهم الكليّ على المصادر الضعيفة المغرضة، وعدم تجربتهم بالحقائق تجربة ميدانية.

كما ينبغي للمعسكر الثاني أن يعرف أن هذا الكتاب لم يبرز في الوجود ليكون للقرآن بديلا، ولم يرد مؤلفه ذلك، وإنما هي ظاهرةٌ مؤسفةٌ وحالة طارئةٌ نزلتْ بهم وخيّمتْ عليهم، فالقرآن أحقّ أن يقرأه المسلم، ويعرف تلاوتَه، كما يجب عليه أن يقرأ في دواوين السنّة النبوية، ويعرف كلام حبيبه، وأقوال رسوله، وهو ﷺ خير واعظٍ، وخير موجّه، وخير ناصح، وقد أدّى رسالته، وبلّغ أمانته، واكتملَ دين الله على يده، وأغلق باب السماء بوفاته، فلم يترك في كيان الشريعة ثغرة ينسلّ منها عضوٌ غريبٌ فينوب عنها، ويحتلّ مكانتَها، وهذا الكتاب ليس إلا مقرّرا في الصفّ ومنهجا تعليميا مدرسيا، يتغيّر بتغيير الصفوف والمراحل، وهل يتقيّد الطالب بمقررات الابتدائية في مراحله الجامعية! وهل يبقى الدارسُ في صفّ واحد، ومع مقرّر واحدٍ طوالَ حياته كلّها!

الجمع بين التأليف التطبيق

هكذا دخلَ الشيخ محمد سخاوت الله في التاريخ من أوسع بابه، فقد نالت ترجمته– وقد تعدّدت ترجمة هذا الكتاب إلى البنغالية قبله وبعده– قبولا نادرا وإقبالا فريدا، واستفاد منه ملايين البشر، وله أجرٌ كلما يذكر إنسانٌ ربّه بعد قراءة هذا الكتاب، أو يسجد له سجدةً مؤمنةً مخلصةً.

كان داعية من النوع الأول، ولم يكن من النوع الثاني، فيتفرّغ للكتابة والتأليف، ويغلقُ عليه باب بيته، وينغمس في صفحات الكتب، ولا يعرف العواصف التي تجري حول بيته، ولا واقع الأمة المسلمة التي تجرّبه في كل لحظة، فيكون فارس كتاب، وليس فارس ميدان، ومجاهد سرير، وليس مجاهد ساحة، ولذلك لم يتوقّف الشيخ عند التأليف والكتابة، ولم يوصد على نفسه الأبوابَ، وإنما خرَجَ إلى الدنيا، ونزلَ في الساحة، وجاهدَ طوال حياته جهادا كبيرا، وجابَ طول البلاد وعرضها، وتعدّى حدودها، ووصلَ إلى العالم يحمل رسالة الإسلام، والدعوة إلى الإيمان.

ورعه وخلقه

كان عابدا صالحا، وتقيّا مخلصا، ورجلا إنسانيا، كريم الطبع، وحسن المعاشرة، قدّم خدمات إنسانية إلى أهل قريته، وأبناء مسقط رأسه، وبنى فيها مركزا دينيا، ومدرسة لتحفيظ القرآن، وكان ليّن الجانب، ودمث الأخلاق، ولم يكن فظّا أو غليظا، وكانت معاملته مع أهله وأسرته ومن كان تحت أمره معاملة برّ وإيناس، وكان التواضع أبرز جوانب هذا الإنسان العظيم، وقد اختاره الله عام ٢٠٠٧م، وخلّف وراءَه مكتبةً غنية ثريّة، تُرشد الأمة البنغالية، وتقويّ فيهم الإيمان، رحم الله الشيخ سخاوت الله، وجعلَ الجنّة مثواه.(١)

---

(١) انظر حياته في تراجم مئة من علماء البنغال، تأليف مولانا أمين الإسلام، ص٤٠٦

الأستاذ الدكتور محمد مهر علي

(١٩٣٢-٢٠٠٧)

المؤرخ الأمين، أستاذ جامعة الإمام بالرياض، الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية

مقدمة صارمة لا بد منها

نحن الآن أمام نابغة من نوابغ الدنيا في عصره، أمام رجلٍ لم يعرفه وطنه، فلم يعرفه أبناء وطنه، وتجاهله مثقفو دولته، وأهمله علماء بلده، وكتب عنه التاريخُ على هامشه، فظلّ مغمورا في حياته، ومدفونا تحت أنقاض النسيان، وأطلال الإهمال والإهدار بعد وفاته، بينما عرفَه العالم شرقا وغربا، وقدّر جهودَه وجهادَه، وأكرمه العالم العربي على الخصوص، وأحسن ضيافته، وأكرم مثواه، حتى أصبح يتردّد اسمه عاليا في غربته، وخافتا في مسقط رأسه.

لم يعرفه وطنه ولا مثقّفو وطنه، لأنه كان مؤمنا صادقا، ومسلما شجاعا، يؤمن بدينه وتاريخه، وعزّه وإبائه، وسلطانه على الأديان كلها، كما يؤمن بقيمة الكتاب الذي أنزل الله على رسوله، ويؤمن بمكانة الرسول ﷺ، ويحبه أكثر من نفسه، ويدافع عن عرضه وكرامته، كما يؤمن بعالمية الإسلام، وصلاحيته لكل زمان ومكان، ويؤمن بأن المسلمين ليسوا متطفّلين على أية بقعة من بقاع العالم، ومن ثم فإن مسلمي البنغال هم الآخرون ليسوا غرباء، وليسوا أجانب بين المواطنين الهندوس في هذه الدولة، وإنما هم من صميمها، وأبنائها، وفلذات كبدها، ولهم تاريخٌ مجيدٌ في هذه البقعة، تشهد عليها الوثائق التاريخية المعتمدة، لا كما يصورّهم المؤرخون الحاقدون من الاحتلال والاستغلال، الإنجليز والهندوس، تجاهلَه وطنه ومثقّفوه لهذه الأسباب، وأحبّه العالم العربي للأسباب نفسها، فلِم أهمله علماء وطنه؟ والشعب المسلم في دولته؟ وهو أقرب الناس إليهم، وأرحمهم بهم، وأعزّ عزيز لهم، إنها جناية فادحة، وخطأ فاحش، وإنها تقصيرٌ لا يفيه الاستدراك.

ومن ثم رغم أنه وُلد في بنغلاديش، ورضع بلبانها، ونشأ في ظلالها وهوائها، وتحت سمائها وفوق أرضها، إلا أن جهوده وأعماله لا تتّجه إلى أمّة بعينها، ولا تقتصر على وطن بعينه، بل كانت عالمية الأهداف، إذ كان إنسانا عالميا، إنسان للعالم الإسلامي كله، وللدول العربية برمّتها، إنسانٌ صدقَ مع دينه وربّه، وثبتَ على مبدئه، رغم التهديدات والإغراءات، وجاهدَ طيلة حياته لانتصار إيمانه وعقيدته، وكان لا بدّ لهذه الشخصية الإسلامية الفذّة أن تجد الاهتمام والانتشار، حتى هيأ الله له أسباب الذيوع، ووضع له القبول والإقبال، وجعل له بلدا غير بلده، وشعبا غير شعبه، وقيّض له قوما يحبّونه، ويكرمونه ويجلونه، لو كان في بلده وبين شعبه لم يكرم مثله، حتى منحوا جوائز ومناصب، وأناطوا به المسؤوليات الكبرى، فكان أول رجل يفوز بـ«جائزة الملك فيصل العالمية» في تاريخ البنغال، إنه مؤرخ بنغلاديش الأكبر، ومن كبار مؤلفي القرن العشرين الميلادي، والكاتب الحكيم، وفيلسوف الإسلام المعاصر، والمجاهد ضدّ الاستشراق والتنصير، والناقد الأمين البصير، وصاحب كتاب «تاريخ المسلمين في البنغال»، البطل المسلم، الأستاذ الدكتور محمد مهر علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إنه لمن دواعي الأسف الشديد ونحن في صدد حياة هذا الإنسان بأننا نقدّمه إلى العالم العربي باللغة العربية، ولم يقدَّم بعدُ إلى وطنه وبني جلدته باللغة البنغالية الأمّ، إلا أننا لم نرد أن نجاري التيار، فنتوقّف عن تقديم هذا الإنسان إلى العالم، كما توقّف مؤلفو شعبه عن تقديمه إلى شعبه، فندفن مآثره وإنجازاته تحت أطمار التاريخ، وكم من العلماء الأعلام أنجبتّهم هذه الدولة، ثم دفنت مآثرهم مع جثثهم، وقد أصبح هذا هو ديدن هذا الوطن، فهو لا ينجب الكبير، وإن ينجب لا يقدر قدره، ولا يستفيد منه، ومن أجل ذلك أردنا أن نسبح ضدّ التيّار ونقدّمه إلى العالم، لكي يرى وطنه أنه إن لم يقدّره فهناك من يقدّره، ويستفيد منه، ويشكره ويكافئه، حتى يكون ذلك درسا لن ينساه.

ميلاده ونشأته

وُلد الأستاذ مهر علي في محافظة «باغرهات» عام ١٩٣٢م،[١] فقد والَده وهو ابن ست سنين، فنشأ في حضن أمه، وتحت ظلّ خاله، وبدأ الدراسة في كتاب قريته، ثم درسَ في مدرسة «هوغلي» بالبنغال الغربية، ولما انفصلت البنغال الشرقية عن الهند عام ١٩٤٧م، عادَ الدكتور إلى وطنه ودخلَ في «كلية القاضي نذر الإسلام»، ثم دخلَ في جامعة داكا، واجتازَ البكالوريوس والماجستير في قسم التاريخ

(١) هكذا جاء في ترجمته لدى إدارة جائزة الملك فيصل العالمية، أما الأستاذ م، أ، ج بيغ، خريج جامعة كمبردج وصديق الأستاذ علي، فذكر بأنه وُلد عام ١٩٢٩م.

الإسلامي، وفي عام ١٩٦٠م سافرَ إلى بريطانيا، ودخلَ في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (School of Oriental and African Studies- SOAS)، وهي كلّية متخصّصة في شؤون آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا تابعة لجامعة لندن، وتخرّج في دكتوراه التاريخ الحديث لجنوب آسيا عام ١٩٦٣م، كما دخلَ في «جمعية لنكولن إن» بلندن، وحصلَ على إجازة في القانون (Bar at law) عام ١٩٦٤م.

قضى الأستاذ معظم حياته مع القلم والكتاب، ومع التعليم والتدريس، في عدد من الكليات والجامعات الحكومية داخل الدولة وخارجها، فدرّس في الكلية الحكومية بداكا (١٩٥٥م)، ثم درّس في الكلية الحكومية بشيتاغونغ (١٩٥٦- ١٩٥٧م)، وفي عام ١٩٥٨م دخلَ في جامعة داكا، وعمل أستاذا في قسم التاريخ لفترةٍ، وهنا سنحتْ له فرصة الدراسة في بريطانيا، فأكمل الدكتوراه، ثم عادَ إلى جامعة داكا مرّة أخرى.

من العالم الضيّق إلى العالم الفسيح

ظلّ الأستاذ مهر علي في جامعة داكا إلى نهاية عام ١٩٧٤م، وسط عواصف وكوارث، ومعاناة وتهديدات، وسجن ومراقبة، وفي ظروف قاسية حاقت به وبأمثاله من المثقفين الإسلاميين، والأساتذة الجامعيين، الغيورين على الهوية الدينية قبل الهوية القومية، ثم سافر إلى بريطانيا، وحضر في مؤتمر دولي بلندن أقامه «المجلس الإسلامي» بأوربا، وقدم في المؤتمر بحثا رصينا حول تاريخ المسلمين في البنغال، اندهش به الحاضرون، الإنجليز والعرب، وذهلوا، وأعجبوا بباحث بنغاليّ يتحدّث بالإنجليزية الفصحى بكل سلاسة، ويحلل تاريخ المسلمين في البنغال بشكل مدهش، ويرصد الحقائق في غير مبالغة، ويسرد الشواهد في دقّة وأمانة، هنا جاءتْ نقطة تحوّل في حياته، فتحوّل هذا الإنسان من باحث محلّي إلى مؤرّخ دوليّ، بكل جدارة واستحقاق، وخرجَ من دائرة تاريخ البنغال إلى تاريخ الإسلام والمسلمين، وتاريخ نبي الإسلام، وتاريخ القرآن، وتاريخ الشعوب والأمم، والحضارات الإنسانية، والعلاقة بين الأديان والمذاهب، وقد نشرَ قبل ذلك عدّة كتبٍ في وطنه، كلها بالإنجليزية.

في المملكة العربية السعودية

كانتْ في المؤتمر بعثة رسميّةٌ من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، واقترحت على الباحث أن يعمل كأستاذ في الجامعة، وقد كانت مواهب الأستاذ مهر علي وطاقاته، ونظراته البعيدة

الواسعة العميقة، تتطلّب ميدانا أوسع، ومجالا أفسح، فعرفَ الأستاذ أنها دعوةٌ ليست هيّنة، بل هي تحقيق للأحلام، وبشارةٌ كبرى للحياة، فأجابهم، وأسرعَ إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٦م، وانضمّ إلى جامعة الإمام أستاذا في قسم التاريخ الإسلامي، وظلّ في هذا المنصب طوال اثني عشر عاما، ثم دخلَ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ودرّس فيها سبعة أعوام في قسم التاريخ الإسلامي، ثم عمل كباحث في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف زهاء سنتين (١٩٩٤-١٩٩٥م)، وبعد ذلك عادَ إلى بريطانيا، ولم يعد إلى وطنه، ولا ندري الآن لو عادَ إلى وطنه هل بلغَ مثل ما بلغه الآن من العلم والمعرفة، والخدمات العلمية الجليلة للإسلام والأمة، وهل نال ما ناله من الاعتراف، والشكر والتقدير؟

مؤرخ مثالي في التاريخ المعاصر

كان الأستاذ مهر علي من كبار المؤرخين لتاريخ المسلمين في الهند عموما، وفي البنغال خصوصا، فقد قضى حياتَه كلّها مع التاريخ وفي التاريخ بالتاريخ، وبرز فيه نبوغٌ مبكر يبشّر بمستقبل واعد في علم التاريخ والتسجيل، فقد تخصّص في التاريخ أثناء المراحل الدراسية كلها، بدءا من البكالوريوس حتى الدكتوراه، ثم عمل أستاذا للتاريخ في الكليات والجامعات زهاء أربعين عاما، داخل الوطن وخارجه، وهكذا اختلطَ التاريخ بلحمه ودمه، الذي جعله رجلا عصاميا في التاريخ، وموهبة نادرة من مواهب القرن المعاصر، قريبة العهد بنا وبحياتنا الدينية والسياسية والاجتماعية، وهبَ حياته ومواهبه لخدمة تاريخ الإسلام وتاريخ دولته، وخلّد التراث الإسلامي العلمي، فكتبَ التاريخ من أفق جديد ومع أبعاد جديدة، واتّبع أسلوبا ينأى به عن جفاف السرد التاريخي إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب، وحلّله تحليلا جديدا، ووضعَ تاريخ مسلمي البنغال في ميزانٍ جديد، قلما كان العالم يعرفه قبل ذلك.

آثار عبقريته ورشحات قلمه

وقد برز هذا النبوغ التاريخي المثالي في الكتابة والتأليف، فقد كتَب كتبا كثيرة، ونشر مؤلفات قيمة، كانتْ ركائز جهاده التأليفي في هذا كله تتمحور قبل كل شيء حول التاريخ، وتاريخ المسلمين في البنغال، وتاريخ محنهم ومعاناتهم تحت سطوة الإنجليز، ووطأة الاحتلال، والإحساس بشعور مسلمي البنغال ضدّ الإمبراطورية البريطانية، والحضارة الغربية، وهذا الشعور الصادق جعله لم يأخذ التاريخ كموضوع علمي مجرّد، بل أخذه كواقع الحياة، وسجلّ الماضي المجرّب، ووزن المستقبل المجهول بميزان

الحاضر المشهود، واستمداد الدروس من العصور الغابرة، ورسم خريطة الطريق في ضوئها، لتكون أقرب إلى الصواب، وأجدى في النتيجة، وقد عُرف منذ صغره بسعة النظر، وصفاء الحس، وسعة الاطلاع، وسلامة الصدر، والتوازن النادر، فأفرغ هذه المواهب كلها على المكتبة التاريخية العظيمة، وكان مؤرخا مثاليا، رمز الاقتصاد في المدح والقدح، والتقريظ والنقد، وتحرّي الدقة والقول الفصل، ومعرفة دقيقة للحضارة، وقيم الأمم ومثلها.

كما كان قمّة في اللغة الإنجليزية وآدابها، وكان من أولئك العباقرة المعدودين في هذه الدولة الذين نبغوا في اللغة الإنجليزية، وبرزوا في ميدانها، وكتبوا فيها بأسلوب سهل سلسال، من غير تكلّف وإجهاد نفس، فمن أبرز ما كتبه واقفا في هذا الموقف: ◊ A brief survey of Muslim Rule in India (التاريخ الموجز للحكم الإسلامي في الهند (١٩٥٤) ◊ Islam in the Modern World (الإسلام في العالم المعاصر (١٩٥٦) ◊ Intermediate general history 1st and 2nd part (التاريخ العام للمرحلة الثانوية (مقرر الكليات) (مجلدان) (١٩٥٧) ◊ An Outline of Ancient Indo-Pak History (تاريخ شبه القارة الهندية القديمة (١٩٦٠) ◊ The Bengali Reaction to Christian Missionary Activities (ردّة فعل البنغالي لحركة التنصير في البنغال ١٨٣٣-١٨٥٧ (رسالة الدكتوراه عام ١٩٦٠) ◊ The Fall of Sirajuddaulah (سقوط سراج الدولة (١٩٧٥) ◊ History of the Muslims of Bengal (تاريخ المسلمين في البنغال (أربعة مجلدات) (١٩٨٦).

هذا التاريخ للمسلمين، وتاريخ معاناة مسلمي البنغال تحت سنابك الاحتلال الغربي، أرسى بالدكتور مهر علي على ميناء الغرب، فدرسَ حضارتَه وثقافتَه، وعرفَ مكره وخدعته، ودسائسه ذات الأبعاد المتعدّدة التي لا تقتصر على المادّة، والسلطة والاحتلال، والإمبراطورية الغاشمة، وإنما تريد أن تبني إمبراطورية معنوية قائمة على التنصير، وإثارة الشكوك والشبهات حول الإسلام، وكتاب الله، وسيرة نبيه، وهنا تحوّل أفقه التاريخي من إقليمي إلى دوليّ، ومن أفق قوميّ إلى أفق ملّي شامل لملّة الإسلام في بقاع الأرض جميعا، وبدأ يردّ على الغرب في أوسع نطاق وأشمل مسافة، ولقّن الدنيا استراتيجية جديدةً للردّ على الإمبراطورية الغربية الظالمة، لا يزال يتغنّى بعبقريته ودوره العالم الإسلامي برمّته.

من أبرز ما كتبه في هذا الموضوع: ◊ Sirat al-nabi and the Orientalists (سيرة النبي والمستشرقون (١٩٩٧) ◊ The Qur'an and the Orientalists: An Examination of their

القرآن والمستشرقون: دراساتٌ لأصل فرضياتهم ومزاعمهم Main Theories and Assumptions (٢٠٠٤م) A Word for Word Meaning of the Qur'an ترجمة معاني القرآن الكريم كلمة فكلمة (٢٠٠٣– ثلاثة مجلدات).

وقفات مع «تاريخ المسلمين في البنغال»

إلا أن «تاريخ المسلمين في البنغال» هو الذي برزَ فيه نبوغه التاريخي، وهو الذي عرضَهُ على مسرح العالم، وجعل من مؤرّخ بنغلاديشي إلى مؤرخ عالمي، وهو الذي رفعَ نجمَه، وجلب له جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٤٢٠هـ الموافق لـ ٢٠٠٠م، لخدماته في الدراسات الإسلامية،[1] وسجّل اسمه بمداد الفخر والاعتزاز في سجلّ الخالدين، وقد قضى فيه الأستاذ عشرة أعوام من حياته (١٩٧٦- ١٩٨٦) أثناء أستاذيته في جامعة الإمام، يجمع وينقح، ويؤلف ويصحّح، ويكتب ويفحص، ويبحث ويتتبع، وبه قلمه الشلال الذي يتدفّق بقوّة، وينحدر بقوّة، كما ساعدته قدرةٌ بيانية، ورافقته ثروة لغوية، حتى جاء الكتاب في أبهى حلّة، وأكمل وجه، في أربعة مجلدات، بعيدا عن التكلف، ومصونا من الاختلال، ترتاح له القلوب، وتهتز له النفوس، وقد تلقاه الناس بالقبول والاستحسان، وأقبلوا على مطالعته بشوق وشغف، وتواردت عليه رسائل التقريظ والتشجيع.

يحكي هذا الكتاب قصّة المسلمين البنغاليين عبر زهاء سبع مئة عام (١٢٣٠- ١٨٧١م)، ويبيّن قصّة طلوع شمس الإسلام في سماء البنغال، وقدوم الحكّام المسلمين، والانتصار الإسلامي السياسي لها، ويفصّل تاريخ المسلمين، وحضارتهم، وثقافتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وحياتهم السياسية طوال هذه القرون، كما يبيّن كيف أثر الإسلام في حياة مواطنيها، دينا وإيمانا، وحضارة وثقافة، وعلما ومعرفة ومدنية ومعنوية، وكيف جاءت حضارة الإسلام لتتفاعل مع الحضارة البنغالية تفاعلا رشيدا، حتى أنتجت مركّبا بنائيا ضخما هائلا هو الحضارة الإسلامية البنغالية، مع بقاء هذا الدين عنصرا رئيسا وعاملا وحيدا في هذه الحضارة، دافقا روحا وحياةً، وقوّة ونشاطا.

ثم حكى المؤلف كيف انقضت أيامُ المسلمين ودارت عليهم الدائرة، وعبست بهم الأقدار، حتى عاشوا تجربة غريبةً في التاريخ، وواجهتهم سلسلةٌ لامتناهية من الاضطرابات الطائفية، والصراعات العرقية العنيفة، والتفرقة العنصرية، فتناول قصة اضطهاد المسلمين على يد الهندوس، وقيّد في هذه الرحلة

(١) بيان صحفي عن جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

التاريخية مشاهداته وملاحظاته، ولم يبالغ في الأمور، ولم يتحيّز ولم يتحزّب، بل آثر الاقتصاد والدقة والأمانة، وامتاز ببعد النظر، وسداد الرأي، حتى جاء الكتاب مرآة وضيئة أمينة، وخير مثال لتسجيل تاريخ شعب ومجتمع، تاريخ لا يدور حول البلاط والقصور، ولا يقتصر على الملوك والأمراء، والأشراف والفضلاء، والأحداث السياسية، مع توثيق جميع المعلومات بالمصادر التاريخية الموثوق بها، والوثائق الرسمية، والاستعانة بالمجلات القديمة، ومذكّرات الزوار، وسجلات الحكومة، والنقوش الحجرية، والانتقاء من المراجع العربية والإنجليزية والفارسية والبنغالية.

كيف كتبوا تاريخنا؟

لم يكن الدكتور علي أوّل من تحدث في تاريخ الإسلام والمسلمين في البنغال، فقد سبقه عددٌ من المؤلفين والمؤرخين، كتبوا في هذا الموضوع، وصنفوا المصنفات، ونشروا المجلدات، وعلى رأسهم جادونات سركار Jadunath Sarkar (١٨٧٠ –١٩٥٨م)، ورامیش تشاندرا مزومدار R.C Majumdar (١٨٨٨-١٩٨٠م)، إلا أن المؤرخين الهندوس أمثالهما لم يتوقّع منهم المجتمع البنغالي المسلم قط أن ينصفوا إلى تاريخهم، ويعطيه حقّه من العدل والإنصاف، والصدق والدقّة، والموضوعية والحياد، فقد قلب هؤلاء المؤرخون الموازين، وحرّفوا الكلم عن مواضعها، وسوّدوا الأبيض، وبيّضوا الأسود، وحوّلوا الموضوع رأسا على عقب، وملؤوا كتبَهم بكل رطب ويابس، وما يوثق به وما لا يوثق به، ولم يألوا جهدا في تأريخ الإسلام والمسلمين بعدسات الهندوسية، والشماتة بهزيمتهم السياسية والثقافية والدينية، كما صوّر جادونات هزيمة السلطان سراج الدولة في ساحة بلاسي بـ"أنها طلوع شمس جديدة في أفق الهند، ونهاية العصور الوسطى، وبداية عهد جديد لم يسبق مثيله في التاريخ"![1] مع أنها كانت كارثة في تاريخ البنغال، وكانت غروب شمس الحرية والاستقلال، وبداية عهد الاحتلال!

هكذا كتبوا تاريخنا، تاريخ المسلمين في البنغال، كما اتّهموهم بتهم شنيعة، وصوّروا المسلمين أجانب وغرباء على هذه المنطقة، ولم يصوّروهم أمّة لها ثقافةٌ خاصّة، وحضارةٌ مستقلة، حضارةٌ قبست منها أوربا حضارتها، ونظام حياة صالح لكل زمان ومكان، ولكل أمّة، ولها حكومةٌ وسلطةٌ، بل صوّروهم أمة بين أمم البنغال، تختلط معها وتذوب فيها، وتضيع هويتها، كما أنكروا دور العلماء

(١) انظر كلامه في The History of Bengal, Vol: II, Muslim Period, by Jadunath Sarkar, p. ٤٩٧ وما بعدها

خصوصا، ودور المسلمين عموما، في الجهاد ضدّ الاحتلال، وفي حركات التحرير، وأهملوا ذكر الحركات الإسلامية الكبرى، بينما ذكروا كل نقير وقطمير من الملوك الهندوس، والقصص والوقائع التي لا قيمة لها في الميزان، وصوّروهم أبطال التاريخ وأركانه.(١)

أما الدكتور مهر علي فقد صوّر للمسلمين تاريخهم المجيد، وتاريخ عزّهم وكرامتهم، وأن المسلمين كانوا حكّام هذه المنطقة وسلاطينها، وأساتذة العلم والأدب فيها، ثم انعزلوا أو عُزلوا عن القيادة، وانسحبوا من ميدان الحياة، وانهزموا في السباق، وتخلفوا في الركب، كما أعلن دور العلماء وعامة المسلمين في حركات التحرير بكل شجاعة وصوتٍ مجلجل، وبيّنَ أن المسلمين هم كانوا قادة حركات التحرير وروّاد تلك القافلة، ومن ثمّ فصّل الحركة الفرائضية للحاج شريعت الله، والحركة الجهادية لتيتومير تفصيلا رائعا مستفيضا، هكذا كأنه جمع البحر في قارورة، ووضع جبلا من الرمال في كفّة اليد، حتى جاء الكتابُ تحفة ثمينة فريدة لمسلمي البنغال في تاريخهم الطويل، وسجلّا أوّلا ووحيدا من نوعه، ومكتبة غنية أمينة للتاريخ، لم ينجب مثله غير الدكتور مهر علي، وكان بالفعل جديرا بالتقليد، وأن ينسج على منواله.(٢)

الأستاذ في مواجهة الاستشراق

القرآن الكريم والسنّة النبوية هما أشدّ ما تعرّض لهجوم الأعداء منذ بداية تاريخ الإسلام، وهما كانا محطّة أنظار المستشرقين والمنصّرين، فصوّبوا إليهما سهامَهم في كل عصر ومصر، وحاولوا النيل منهما، والحطّ من شأنهما، وإثارة الشكوك والشبهات حول جذورهما، وتاريخ تدوينهما، وإلصاق تهم الحذف والزيادة بهما، ثم حاولوا تصويب السهام إلى صدر صاحب الرسالة فداه بأبي وأمي، والافتراء عليه، وصب جام الحقد والتلفيق على سيرته النقية الصافية، وكان على رأس هؤلاء المستشرقين ويليام موير William Muir (١٨١٩ -١٩٠٥م) في كتابه The Life of Mahomet (حياة محمد)، وديفيد صموئيل مارغوليوث David Samuel Margoliouth (١٨٥٨ - ١٩٤٠م) في كتابه Mohammed and The Rise of Islam (محمد وظهور الإسلام)، وويليام مونتغمري واط William Montgomery Watt (١٩٠٩ -٢٠٠٦م) في كتابه Muhammad at Mecca (محمد في مكة)

---

(١) تاريخ البنغال، تأليف رامش تشاندرا مزومدار، العصور الحديثة، ج ٣ و ٤ وانظر كذلك كتابه The Sepoy Mutiny and The Revolt of ١٨٥٧

(٢) انظر مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٦، ص١٦٩-١٧٠

وغيرهم، وقد جرّب الدكتور مهر هذه المعاناة في عصر الاحتلال، ثم لما سافرَ إلى بريطانيا، مقرّ الاستشراق، وقاعدة الجيش العدواني، شاهدَ بأم عينيه هجوما شرسا مسعورا يقوده المستشرقون على الإسلام والمسلمين، وجرّب حرارته ومرارته، ولذلك لما سافرَ إلى المملكة العربية السعودية، ودخل في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ألّف كتابه العظيم «سيرة النبي والمستشرقون»، ثم ألّف كتابه القيم «القرآن والمستشرقون»، ونقد فيهما موقف المستشرقين من الإسلام عموما، ومن القرآن والسنة والسيرة النبوية خصوصا، وردّ على كثير من التهم والافتراءات التي جاءتْ منهم، ودحضهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة.

رجلٌ أحب كتاب الله ورسول الله

لقد قضى الأستاذ علي فترةً كبيرةً من حياته في الحركات السياسية تحت مظلة «الرابطة المسلمة»، ثم درسَ القانون في بريطانيا، وعادَ إلى الوطن، وعملَ كمحام في المحكمة العليا لفترةٍ يسيرة، إلا أنه اكتشف بعد ذلك أنه لم يُخلق من أجل السياسة والمحاماة، بل خُلق للجهاد في المجال الفكري، والقيادة المعنوية، والريادة العقلية، وخاضَ في التدريس والتعليم، وتفرّغ للكتابة والتأليف، وكان رجلا عظيما، يكتب ما يؤمن ويعتقد، ولما عاشَ في السعودية تعلّم العربية، ولا تسأل عن إتقانه للإنجليزية، فقد عاشَ مسلما بنغاليا وإنجليزيا في ذات الوقت، وقضى معظم حياته في بريطانيا، وكتبَ وألف بالإنجليزية، وحاضرَ وتحدّث فيها، ثم توفّي ودُفن في أرض الإنجليز.

لذلك لما كان باحثا في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنوّرة، نشأ في روحه رغبةٌ عارمةٌ لكتاب الله، وحبّ عميق للقرآن الكريم، وقد تجلّى هذا الحب في الأيام الأخيرة من حياته، فترجمَ القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية السهلة، ونشرَها باسم «ترجمة معاني القرآن الكريم»، ولعلّ إقامته في المملكة السعودية لفترة كبيرة، وتعرّفه على منهج علماء الجزيرة، تركت في تكوين عقليته وذهنه أثرا كبيرا، وهذا يتجلّى في ترجمته للقرآن الكريم، فرغم كونه رجلا لم يدرس في مدرسة دينية، ولم يأخذ القرآن وتفسيره على أيدي العلماء والمشايخ، حافظَ على منهج السلف محافظة تامة، وسارَ على دربهم في ترجمة الآيات، وتفسير الكلمات الغامضة، وتحليل القضايا القرآنية الدقيقة، ومن أجل ذلك تفادى الأخطاء التي وقع فيها كثيرٌ من المترجمين والمفسرين المسلمين المعاصرين، أمثال الدكتور عبد الله يوسف علي الهندي، والأستاذ محمد أسد النمساوي وغيرهما، رحمهم الله جميعا وغفر لهم.

كيف كافاه شعبه؟

لقد اختار الله هذا المؤلف الجليل عام ٢٠٠٧م، وهو يؤلف كتابا في السيرة النبوية، في مدينة «إسكس» شرق إنجلترا، بعيدا عن وطنه، ودُفن في أرض غير أرضه، ولم يعرف عنه أحدٌ في وطنه، ولم يُنشر نبأ وفاته في الصحف البنغلاديشية!

وقد يتجلى إهمال هذه الدولة لابنها هذا، وإهدار أبناء هذا الوطن للجهود الضخمة العظيمة التي بذلها أخوهم هذا، أن عدة كتبه ترجمتْ إلى اللغة العربية، ونُشرتْ في العالم العربي، ونالتْ قبولا عاما في الأوساط العلمية والثقافية، بينما ظلّتْ كتبه ومؤلفاته لا تزال مجهولة في هذه الدولة، ولم يترجم منها شيءٌ إلى البنغالية! كما أنه كل ما كُتب عن حياته وأعماله لم يكن جامعا مستوفيا، ولم يفرد أحدٌ -فيما وقفتُ عليه- كتابا خاصّا في ترجمة هذا الإنسان العظيم.

لماذا أهملوا هذا الإنسان العظيم؟ ولماذا ظلت هناك محاولات مستمرة لتهميشه من مجتمعه، وإبعاد أعماله العظيمة وإنجازاته الخالدة عن الضوء؟ بل لماذا ظهرت محاولات تشويه صورته، واتهامه بتهم هو منها براء!؟

لأنه سبحَ ضد التيار، ورفع لواء الإسلام وسط أمواج العلمانية والاشتراكية، ومشى سويا على صراط مستقيم، بين طرق شائكة وعرة، وبين أناس يمشون مكبين على وجوههم، فثاروا وانتقموا، وصبوا عليه جام الحسد والحقد، وسجلوا اسمه في القائمة السوداء! وجعلوا من مسلم مؤمن مجرما منافقا! ثم كان له رأي خاص وموقف من حرب استقلال بنغلاديش عام ١٩٧١م، وقفه عن إيمان لا عن نفاق، فكان لا يرى انشقاق باكستان، وانفصال شرقها عن غربها، وقد أدى به هذا الموقف إلى العداء السافر مع الحكام، ولا سيما مع الرئيس «الشَّيْخ» مجيب الرحمن، فلما حصل الانفصال، واستقلت الدولة، كافأته الحكومة بالسجن، ورمته وراء القضبان لعدة سنوات، ومنعته من السفر! حتى جاءَ الفرج عام ١٩٧٤م، وهاجرَ الوطنَ إلى غير عودة، وربما يكفيه عزاء أنه قد هاجرَ مثله كثير من عباقرة هذه الدولة في هذه الفترة المظلمة من تاريخها، مثل الأستاذ سجاد حسين وغيره،[١] وشاركوه في معاناته.

(١) إنه الأستاذ الكبير والباحث العبقري، والكاتب الإنجليزي القدير الدكتور سجاد حسين، أول حامل شهادة الدكتوراه في الإنجليزية من مسلمي البنغال! وُلد عام ١٩٢٠م في محافظة «ماغورا» في أسرة مسلمة شريفة، حصل على شهادة الماجستير من جامعة داكا عام ١٩٤٢م، ثم بدأ التدريس، ودخل في جامعة داكا محاضرا، وفي عام ١٩٥٢م سافر إلى بريطانيا، وحصل على شهادة الدكتوراه في الإنجليزية من جامعة «نوتنغهام»، وقد عمل نائب مدير جامعة

كما أن علماء هذه الدولة رغم حبهم له، وتفاؤلهم به، وتوقيرهم إياه، لم يعرفوا مدى خدماته التي قدمها إليهم، وإلى الشعب البنغالي المسلم، وإلى الإسلام، فلم يفوا بحقهم حتى اليوم، ولم يقدروه حق قدره، بل لم يعرفوه.

رحم الله الأستاذ علي، وجزاه على جهوده خير الجزاء، وقيّض من يعرضه على وطنه، ويترجم كتبه ومؤلفاته، حتى تعمّ الفائدة، وينتفع به بنو جلدته، ويعترف وطنُه بقيمة وعبقرية ابنه![١]

«راجشاهي» وفي المنصب نفسه في جامعة داكا لفترات طويلة، ثم أحاطتْ به معانات بعد انفصال بنغلاديش عن باكستان، لموقفه من حرب الاستقلال، ولثباته على المبدأ والدفاع عن الهوية، فهاجر الوطن، ودخلَ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، أستاذا لها في قسم اللغة الإنجليزية، كان كاتبا قديرا في اللغة الإنجليزية، ألف عشرات المؤلفات في الدين والتعليم والحضارة، ومن أبرزها "أزمة التعليم الإسلامي" (١٩٧٩م) و"دليل المسلم الناشئ إلى أديان العالم" (١٩٩٢م) و"الحضارة والمجتمع" (١٩٩٤م)، كما شاركَ بالمقالات في الموسوعة البريطانية الشهيرة، وقد توفي الأستاذ عام ١٩٩٥م وهو يُعِدّ كتابا في سيرة نبينا ﷺ.

(١) مستفادٌ من لقاء خاص أجراه الأستاذ م.أ.ج. بيغ مع الأستاذ الدكتور مهر علي عام ٢٠٠٦م في لندن، ونشره في موقع "معهد دراسة مسلمي البنغال بالمملكة المتحدة"، إضافة إلى بعض المواقع الأخرى على الشبكة، وخصوصا مقال الكاتب فهميد الرحمن في ترجمة الدكتور مهر علي.

مولانا عزيز الرحمن النشارآبادي

(١٩١٥- ٢٠٠٨)

الداعية المصلح، القائد الناصح، مؤذن «الاتحاد مع الاختلاف»

هو الإنسان الذي قضى حياته كلّها في توحيد العلماء، وجمع شمل المسلمين، ولمّ شتاتهم، ونبذ الخلاف من بين قادة الأمة الإسلامية وعوامها، والوقوف معهم على منصّة واحدة، يرفع منها أذان الوحدة والمودّة، ومن أجل هذا السعي الدؤوب، وهذا الجهاد المستمرّ في ميدان توحيد الأمة، أصبحَ رمزا فريدا للاعتصام بحبل الله جميعا، وأيقونة لاحترام حرية الرأي، والتحرر من الاتهام، والتعصب والتحزب، وصاحب لواءٍ جديد في التاريخ يحمل شعار«الاتحاد مع الاختلاف»، هو المرشد الرباني، والمصلح العظيم، العلامة عزيز الرحمن النشارآبادي، المعروف بـ«قائد صاحب» عند شعب هذه الدولة.

الميلاد والنشأة

وُلد عزيز الرحمن عام ١٩١٥م في قرية «نشارآباد»،[١] بمحافظة «جهالوكاتي»، في أسرة مسلمة تحدّر من سلالة عربية خالصة، معروفة بالعلم والمعرفة، والتقى والصلاح، فقد كان جدّه الأعلى عربيا، هاجرَ إلى منطقة البنغال في زمرةٍ من الدعاة، ثم توطّن فيها، ومن هذه الأرومة العربية جاءَ والدُه الشيخ مفيض الدين الذي كان معروفا كإنسان صالح شريف، وكان مبايعا للشيخ المرشد بادشاه ميان،[٢] أحد العلماء الأعلام والمصلحين العظام في تاريخ البنغال.

---

(١) لم يُعرف تاريخ ميلاده بالضبط، لكن مولانا رفيق الله النشارآبادي ابن اخت الشيخ القائد رجّح في كتابه أنه عام ١٩١٥م فاخترناه، انظر حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النشارآبادي، ص١٣ و١٤

(٢) إنه أبو خالد رشيد الدين أحمد، المعروف في التاريخ باسم «بير بادشاه ميان»، وُلد في سلاسة تتحدّر من مجاهد باسل فريد في تاريخ البنغال، الشيخ الحاج شريعت الله، مؤسس الحركة الفرائضية، فقد كان الحاج شريعت الله جدّه الثالث، ولد ميان عام ١٨٨٤م في محافظة «مداريبور»، بدأ الدراسة في كتّاب قريته، وتعلّم البنغالية والإنجليزية، وفي عام ١٨٩٨م التحق بالمدرسة المحسنية بداكا، ودرس فيها فترةً طويلةً، يتجلّى دورُ الشيخ بادشاه ميان في جبهتين، جبهة الجهاد ضد الاحتلال، وجبهة الدعوة والإصلاح في المجتمع، فقد كان يجري في عروقه دم المجاهد البطل الحاج شريعت الله، ومن ثم نهضَ ضد الاحتلال، وشارك في حركة الخلافة عام ١٩٢١م، وخلّ في السجن أكثر من مرّة، وقبل انفصال باكستان عندما حدث الشغب بين الهندوس

في سلاليم العلوم والمعارف

تلقى عزيز الرحمن الدراسة الابتدائية في قريته، ثم درسَ في المدرسة العالية بمحافظة «بهولا» فترة ما بين ١٩٣٠م-١٩٣٥م، بعد ذلك دخلَ في رحاب حلمه، ومقرّ حياته وقراره، والتحقَ بمدرسة «دار السنة العالية» بـ«سرسينا»، وظل فيها طيلة سبع سنوات، يأخذ العلم من الأساتذة الكبار، ويسبح في بحار السلوك والعرفان، ويقضي الليل والنهار في الذكر والتلاوة، والفكر والمراقبة، تحت ظل المرشد الكبير الشيخ نثار الدين أحمد في زاويته، حتى أنهى الدراسة في هذه المدرسة.[1]

إلا أنه كان إنسانا شجاعا، طموحا جريئا، لا يشبع من العلم بقليله ولا بكثيره، ولا يتخلّف عن موكب الثقافة والمعرفة، فاستشارَ شيخَه وشدّ الرحال إلى الهند، ودخلَ في المدرسة العالية بكلكتا التي كانت حينئذ قبلة الطلّاب، وملتقى العلماء والأساتذة، وأزهر الهند، دخلَ فيها الشابّ عزيز الرحمن وتخصّص في الحديث، وكان من زملائه في المدرسة العالية المفكر الإسلامي الكبير والمؤلف المشهور الشيخ مولانا محمد عبد الرحيم، وشاه عزيز الرحمن رئيس وزراء بنغلاديش الأسبق (١٩٧٩- ١٩٨٢).

عادَ أستاذا في رحاب سرسينا

بعد إكمال الدراسة عادَ إلى مسقط رأسه، وتولّى التدريس في المدرسة التي درس فيها سبع سنواتٍ، وفي المعسكر الذي تدرّب فيه على السلوك والجهاد تحت رعاية شيخه نثار الدين أحمد، فكوّن فيه شخصيته، وبنى فيه مستقبله، وهاهو الآن عادَ إلى تلك المدرسة، وإلى ذلك المعسكر، ليؤدي دوره، وليخرّج علماء ربّانيين، وليعدّ جيشا عرمرما من المجاهدين، الذين سيجاهدون في سبيل العلم والمعرفة، والردّ على البدع والخرافات، ونشر السنّة في مكانها، وإصلاح ما فسد في السياسة، وقيادة الأمة نحو الصلاح والفلاح.

وللمسلمين، كان له دورٌ كبير في إطفاء ناره، وإعادة المياه إلى مجاريها، كما صالَ وجالَ في ميادين السياسة مع «جمعية علماء الإسلام» وحركة «نظام الإسلام»، وقد جاهدَ جهادا كبيرا لإقامة الحكومة الإسلامية على أرض باكستان طوال حياته كلها، وكذلك أدى دورا كبيرا في إصلاح المجتمع، فردّ على البدع والخرافات، وقضى على الزوايا والحوانيت في منطقته، وأسس «المدرسة العالية الشريعتية» لنشر العلم والمعرفة في المجتمع، وكان محافظا على الفرائض والواجبات، وملتزما بالسنن والتطوعات، ولم يترك قيام الليل منذ طفولته، فكان عابدا وقائدا في وقت واحد، وكان كما يُقال فارسا في النهار، وراهبا في الليل، وقد توفي عام ١٩٥٩م، ولا يزال حلمه ينتظر التحقيق، حلم «الخلافة الإسلامية» في هذه الأرض.

(١) حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النثارآبادي، ص٢٥

أنشأ جيلا كاملا

دخلَ الشيخ عزيز الرحمن في مدرسة «سرسينا» عام ١٩٤٢ للميلاد، واستمرّ في التدريس والتعليم والإدارة والتوجيه ربع قرن كامل، فدرّس في هذه المدّة المديدة آلافا مؤلّفة من الطلاب، وخرّج كوكبة من العلماء والقادة، والدعاة والمصلحين، والسياسيين والمؤلفين، وأساتذة الجامعات ورجال الإعلام، فانتشرتْ شهرته، وأصبح من العلماء المعدودين في هذا البلد، ومن أبرز من تخرّج على يده ثم قام بدورٍ ريادي في حياة هذا الشعب، الأستاذ المرحوم، المؤلف الإسلامي الكبير، ورئيس التحرير لجريدة «سنغرام» اليومية سابقا، الشيخ أختر فاروق، والشيخ الحاج مولانا عبد الرب خان، الذي تولّى الرئاسة فيما بعد لهذه المدرسة، والشيخ الكبير، والمفسر البارز الشهير، ونائب الأمير للجماعة الإسلامية ببنغلاديش، خطيب الإسلام العلامة دلاور حسين السعيدي، والدكتور مستفيض الرحمن، الأستاذ في جامعة داكا،[1] والعالم الصحافي الكبير روح الأمين خان، رئيس التحرير التنفيذي لـ«جريدة الانقلاب» اليومية الصادرة من داكا باللغة البنغالية.

قائد الدعوة والإصلاح والسياسة

لقد جُبل الشيخ النثارآبادي على الدعوة والإصلاح منذ شبابه وأيام طلبه، فأنشأ «أنجمن الإصلاح» وهو طالب المدرسة العالية بكلكتا، ثم برزَ نبوغه منذ أول لحظة دخلَ في مدرسة سرسينا، نجمعَ بين الدراسة والقيادة، والتدريس والتوجيه، تحت مظلة «أنجمن الإصلاح»، ولم يكن يرى بينهما تضادًا أو تناقضا، ومن أجل ذلك رآه الطلّاب في رحاب سرسينا من أفضل الأساتذة وخيرة المدرّسين، كما رآه الشعب في ميدان الإصلاح والجهاد إنسانا قياديا بارزا، ومصلحا عظيما، ومجاهدا باسلا، وكان أوّل من اكتشفَ فيه تلك الشخصية البارزة القوية هو معلمه ومرشده الشيخ نثار الدين أحمد، ولأجل ذلك، الحركة الإصلاحية التي كان الشيخ قد أنشأها وسمّاها باسم «حزب الله جمعية المجاهدين»،[2] وكانت في مهدها، أناطَ قيادتها منذ طفولتها بتلميذه الوفيّ البارّ الشيخ عزيز الرحمن، وذلك يدل على مدى ثقته به، واعتماده عليه، وتفاؤله بمستقبله، فاندمجت الحركتان في حركة واحدة، وأنجزت إنجازات هائلة.

---

(١) انظر الإنسان الكامل: ترجمة الشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي، مطبوع موسسة الشيخ القائد ص٢٤

(٢) وقد تغيّر اسمها عام ١٩٥٠م، وأصبح "جمعية حزب الله".

وقد قابل شيخه هذه الثقة، وهذا الإيمان واليقين، بأفضل ما يُقابل به، فوضعَ العمل للجمعية موضع الجدّ، وبدأ يجتهد ويجاهد، ويتعب ويعرق في سبيل نشرها وتطويرها، وإصلاحها وتنقيتها، والتغيير في أسلوب عرضها على الناس، وجذب الأرواح وتجنيد الجيوش لها، وكان لسيرته العطرة في التعامل والمعاشرة، ونزاهته وعفّته المعروفة، وعلمه الواسع العميق، دورٌ كبيرٌ في إقبال الناس على الجمعية والترحيب بها، حتى انتشرتْ في أنحاء بنغلاديش، ووجدتْ من الناس تجاوبا، وآذانا صاغية، وبدأت كتائب المتطوعين تتدفّق عليها من كل مكان عن طواعية وترحاب، حتى أصبحت من طليعة الجمعيات والمؤسسات العاملة على مستوى الدولة، وهنا فرحَ الشيخ نثار الدين بهذا الإنجاز القيادي الذي أتاه تلميذه الشيخ عزيز الرحمن، فخلعَ عليه لقب «القائد»، حتى اشتهر الشيخ بلقبه، وتغلّب ذلك على اسمه، وصارَ الناس يعرفون «قائد صاحب» أكثر مما يعرفون عزيز الرحمن، وحقّا كان قائدا عظيما.(1)

روائع الحب والإخلاص: من «باشندا» إلى «نثارآباد» ...

كان مرشده الشيخ نثار الدين أحمد قد توفّي عام ١٩٥٢ للميلاد، حين كان الشيخ النثارآبادي مدرّسا في مدرسته دار السنة بسرسينا، وعندما توفّي الشيخ وواراه الناس تحت الأرض، وخلت الروضة من أزكى زهرتها، ومنبع جمالها، بدأ البلبل يقلق ويضطرب، رغم كل ذلك بقي بعد وفاة مرشده سنوات يدرّس ويقود «جمعية حزب الله»، حتى جاءَ عام ١٩٦٧ للميلاد، فتركَ الشيخ دار السنّة وعادَ إلى قريته «باشندا».

نعم كان اسم قريته «باشندا»، وهو اسم لا قيمة له في عالم الأسماء والصفات، وكلمة لا معنى لها في القواميس والمعاجم، وكانت هي حالة أكثر أسماء هذه المناطق التي تخلّفت في ركب الحضارة، وتشرّبت ثقافة الهندوسية، فظهرتْ عليها أعراضها وأمراضها، وظلّت قرونا في مدلهم الجاهلية والأمية، فهنا قام الشيخ بدوره الإصلاحي والقياديّ، وغيّر اسمها، وبماذا سمّاها يا ترى؟

هنا حدثتْ واقعة من روائع الواقعات، وتحقّقتْ قصّة نادرة من قصص الخيال، قصّة الحبّ والودّ النقي الصافي فيما بين بني البشر، وقصّة التكريم والتبجيل، وأنموذج رائع للحبّ في الله وفي سبيل الله، فقد أعطى الشيخ قريته «باشندا» اسم «نثار آباد» (معناه مدينة نثار)، ينسب إلى أستاذه ومرشده الشيخ

(1) حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النثارآبادي، ص٤٧

نثار الدين أحمد، تكريما له، وتخليدا لذكراه، وقد انتسبَ إليه بنفسه من قبل، فعُرِف بالنثارآبادي،(1) ثم أنشأ فيها مدرسةً عام ١٩٥٣م، تحمل اسمي مرشده ونجل مرشده وخليفته في الزاوية، وزميله في الدراسة الشيخ أبي جعفر محمد الصالح، فجاءت «المدرسة النثارية الصالحية» التي كانت نواة مجمع إسلامي كبير، ومركز علميّ، ومقر جهادي وإصلاحي، وقد أصبحت الآن هذه المدرسة في طليعة المدارس الإسلامية الحكومية في بنغلاديش التي تحاول الجمع بين العلوم الشرعية والعصرية، وبين الدين والدنيا، وما أصعب هذا الجمع! لا يقدر عليه إلا العظماء، الموفّقون من الله.

آثاره في التعليم والتربية

بعد أن تأسست «المدرسة الصالحية» بـ«نثارآباد» وقامتْ على ساقها، استمرّت هذه الرحلة المباركة، وامتدّت هذه السلسلة، حتى تحوّلت هذه المدرسة إلى مجمّع إسلامي كبير، وقامتْ زهاء خمسين مؤسسة في منطقة بريسال تحت إشراف الشيخ، وتحت مظلة هذه المدرسة، ما بين مساجد ومدارس، وكتاتيب، ومعاهد لتحفيظ القرآن، ودور للأيتام، ومدارس للبنات، في منطقة كانت بمنأى عن النهضة العلمية الحديثة، وخالية من الجامعات والمدارس الدينية، والمعاهد الشرعية، رغم توافرها في مناطق أخرى، كما أنشأ عدة مراكز للتدريب المهني، ليعزّ الناس العمل والعمالة، ولتحيا سنّة البحث عن مورد للرزق، والكسب من عمل اليد، والتحرّي في أكل الحلال، وكان دائما يحثّ الناس على العمل، ويمنع ترك الدنيا ونصيبها.

وكان كاتبا، ميالا إلى اللغة والإنشاء والأدب، والبحث والدراسة، فأنشأ «حزب الله دار التصنيف»، و«حزب الله دار الأفكار»، وكتبَ كتبا، وأصدر مجلات ودوريات، وكان له دورٌ كبيرٌ في الأدب الإسلامي وتوعية العلماء عليه، ومن أبرز ما كتبه الشيخ: ◊ هداية القرآن ◊ **الحياة الإسلامية** ◊ حقيقة العلم الديني ◊ الحديث الأربعون ◊ الإسلام والتصوّف ◊ الإسلام والسياسة ◊ **تعمير الأخلاق** ◊ زاد الدارين ◊ الدليل الهادي ◊ تعريف أهل السنة والجماعة وعقائدهم ◊ النصيحة والوصية.(2)

النثارآبادي في موازين الحب

كان نموذجا فذّا وأسوةً حسنةً في العمل الإنساني، بذلَ جهدَه وجهادَه، ونذر حياته للدعوة

(1) المرجع السابق، ص١٥ و ١٦

(2) حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النثارآبادي، ص٦٤ وما بعدها

والإصلاح، وقضى عمره كله في التضحيات والعطاء، وفي سبيل الخير، ومساعدة الآخرين، وخدمة الخلق، والإعانة على نوائب الحق، على اختلاف الأجناس والأديان، نعم على اختلاف الأديان، لقد فتحَ مشروعا باسم «صندوق الإمداد»، وأمدّ به عددا كبيرا من الخلق، وعلى رأسهم الهندوس، وهم أكثر عددا في محافظة «جهالوكاتي» من غيرها، وكان دائم العون، وكالريح المرسلة لهم، وكان يقول: «من المؤسف أن معظم المسلمين اليوم تركوا الأعمال الإنسانية، وتغافلوا عن خدمة الخلق، بينما لا يكمل إسلام المرء إلا بأداء حقوق الله وحقوق العباد، والجمع بين عبادة الخالق وخدمة المخلوق»،[1] وقد عمل بما قال طوال الحياة، فأصبح أسطورة للخير والإحسان حتى لدى الهندوس، وقد قابلوا هذا الإحسان بالإحسان، ففتحوا له قلوبهم، وأحبوه في حياته، وبكوه بعد وفاته، والتاريخ يشهد لنا أنهم أشد الناس عداوة وحربا على المسلمين، وأكثرهم شماتةً بكوارثهم.

أوقف حياته كلها على توحيد الأمة

كل ما استطعنا حتى الآن هو رسم خطوط عامة وملامح عريضة لهذه الشخصية العملاقة، إلا أنه من أبرز جوانب حياة هذا الإنسان وأكبر إنجازاته كان جهاده الدؤوب، وسعيه المستمرّ المطرد في سبيل جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوف العلماء وقادة الأمة، ورفع النزاع والشقاق من بينهم، ونبذ الخلاف الفقهي المؤدي إلى الفرقة، وصرف أذهانهم من المهمّ إلى ما هو الأهم، وإهمال الاختلاف الثانوي للاتحاد على الأهداف الكبرى، والغايات العظمى.

لعلّ هذه المزية كانت في أعماق طبيعة هذا الإنسان ومن صميم فطرته، ولم تكن مصطنعةً أو مكتسبةً لتحقيق حاجة في نفسه، ولذلك نراه منذ البداية يذهب إلى كل شيخ ومرشد، وينشئ صلة الحب والمودّة مع كبار العلماء وقادة المشايخ، ويذهب إلى المرشدين الكبار في الطرق المختلفة ويستفيد منهم، مهما كانت الخلفية الفكرية، والخلاف في المذاهب الفقهية، والمشارب السياسية، ولعل كان عنده منهج شخصيّ يسير في ضوئه على هذا الطريق العويص، فهو يكرّم الكريم، ويوقّر الكبير، ويرحم على الصغير، مهما كان منبته وأصله، وميوله وغايته، فكان على صلة وطيدةٍ مع مشايخ «جونبور»، ومع الشيخ المرشد بادشاه ميان، شيخ الطريقة «الفرائضية»، ومع الشيخ المرشد السيد فضل الكريم، مرشد زاوية «تشرموناي»، والشيخ عبد القهار الصديقي، مرشد زاوية «فرفرا» وغيرهم، وكان يكرر دائما: أحب الصالحين ولستُ منهم ... لعل الله يرزقني صلاحا [2]

(١) انظر مقال الشيخ خليل الرحمن النثارآبادي في الإنسان الكامل: ترجمة الشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي، مطبوع مؤسسة الشيخ القائد ص٣٦ و٣٧

(٢) حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النثارآبادي، ص٣٠-٣٣

تحقيقا لهذا الهدف الكبير، وهذا الحلم الصعب المنال، جاءَ بدعوةٍ فريدةٍ، وبطريقة جديدة إلى الوحدة، اشتهرتْ فيما بعد بدعوة «الاتّحاد مع الاختلاف»، لأن الشيخ يرى دائما أن على العلماء وقادة المسلمين أن يتناسوا ويتغافلوا الخلاف الجزئي والنزاع في المسائل الفقهية والكلامية، من أجل الحفاظ على القضايا المشتركة الدقيقة، وكان يرى كما أن الأحزاب المتفرّقة المتناحرة لا تقوم بها دولة قويّة صالحة مستقرة، كذلك لا تقوم دولة الإسلام على أمة مسلمة متنافرة، موزعة على معسكرات تتربّص بعضها بالبعض الدوائر، وتتحين فرص الطعن في الأظهر، من أجل تحقيق الغاية العظمى في حياة الأمة المسلمة، أقام مؤتمرا في إستاد «جهالوكاتي» عام ١٩٧٠ للميلاد، اجتمعَ فيه العلماء من أحزاب سياسية ومذاهب فقهية وفكرية مختلفة، وتحدّثوا عن الوحدة وسبيل تحقيقها.

وفي عام ١٩٧٧ للميلاد أرسل دعوة عامة لجميع الأحزاب الإسلامية، العاملة في بنغلاديش، وعلمائها الأعلام، ليحضروا مؤتمرا في محافظة «جهالوكاتي»، لتحقيق وحدة إسلامية كبرى، ورفع الشقاق من بينهم، وقد استجاب لدعوته كثيرٌ من العلماء المسلمين، الممثلين لطوائف متنوّعة، والمنتسبين إلى مدارس فكرية مختلفة، فانعقد المؤتمر على مستوى عال من العلم والثقافة والتخطيط والدقّة، يسوده الجوّ الروحي والأخوي، ثم تكوّنت لجنةٌ للسعي وراء الغاية العظمى التي هي وحدة العلماء والأمة، كان من بين أعضائها الشيخ السيد فضل الكريم، مرشد «تشرموناي»، والشيخ العلامة دلاور حسين السعيدي، نائب الأمير للجماعة الإسلامية.[1]

الآن قد لا يصعب على القارئ أن يتصوّر مدى شمول دعوته وسماحة صدره، وإخلاصه لدينه الله، وتضحياته لتحقيق الوحدة الإسلامية، ومنهجه الصارم في التقارب والتباعد، والتحابب والتباغض، فهو الذي كتب رسالة في الرد على الجماعة الإسلامية، بعنوان «حقيقة الجماعة المودودية»، ثم هو الذي أثنى على السيد المودودي في عدة مسائل،[2] وهو الذي كتبَ رسالة ينتقد فيها زاوية (تشرموناي»، ثم في النهاية أثنى على دورها في الدعوة والإصلاح! وهو الذي ردّ على زاوية «آت رسي» في كثير من أمورها الحساسة، التي تُخرجها من دائرة أهل السنة والجماعة، وفي النهاية ذكرَ أن مرشدها لم يأخذ العلم من العلماء، ولم يتربّ على أيدي الفقهاء، ولم يتخرّج من مركز ديني مشهود له بالخير والاعتماد، فلا غرو

(١) انظر تاريخ جهود الوحدة الإسلامية في بنغلاديش: ١٩٧٨- ٢٠٠٥م، تأليف الأستاذ غلام أعظم ص٦٢ و٧٠

(٢) الإنسان الكامل: ترجمة الشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي، مطبوع مؤسسة الشيخ القائد ص ٣١٨

أن يُخطئ، وله بدوره أن يرجع من أخطائه إلى منهج رسول الله ﷺ![١] وقد كانت له صلة حب وتعاون ونقد بناء مع هذه الأحزاب كلها كما أسلفنا، وهل رأيت منهجا أقوم وأرشد من هذا؟ وهو عين المنهج القرآني: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ المائدة: ٨

نظرته في السياسة

كان الشيخ يفرّق بين السياسة الإسلامية والسياسة الحزبية، فيحّب الأولى، ويرى ضرورة التمسك بها، والعمل من أجلها، أما السياسة الحزبية فهي -في نظرته- لا تزيد المسلمين إلا فرقة وشتاتا، تشتت شمل الأمة، وتمزّق وحدة العلماء، وتثير بينهم الضغينة والشحناء، ولم تكن هذه السياسة المقيتة في عصور سلفنا الصالح، بل هي وليدة الديمقراطية الغربية، التي ما أنزل الله بها من سلطان، أما السياسة الشرعية، فهي الاعتصام بحبل الله جميعا، وتعمير الأرض على أساس المحبة والتعاون والأخوة، ولذلك تفريق الأمة باسم الأحزاب السياسية، فلا يجوزه دين الله، كما أنه ما كان يحبّ السياسة للطلاب في أيام طلبهم، تلك الظاهرة الفاشية في مدارس شبه القارة الهندية ومراكزها العلمية، ويرى أن عملهم الوحيد في أيام الدراسة هو السعي وراء العلم والمعرفة، والتأصل في الشريعة.[٢]

مع ذلك كله، جالس الشيخ العلماء السياسيين، وحاول الوقوف بجميع الأحزاب السياسية المنتسبة إلى الإسلام على منصة واحدة، وحاورَها وناقشها، وبادلَها الحب والإخلاص، والنصائح والوصايا، وتعاون مع كل حكومة في رشدها وصلاحها، وخالفَ وزجرَ في غيها وضلالها، وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على قلبه الكبير، وإخلاصه المتين لدينه ولأمته، ومدى تمسّكه بمنهجه في الوحدة والحسبة اللتين دعا إليهما طيلة الحياة.

غاية «حزب الله جمعية المصلحين» التي خلقت من أجلها

استمرارا في السعي وراء هذا الغاية العظمى أنشأ عام ١٩٩٧ للميلاد «حزب الله جمعية المصلحين»، لتكون ساحة الوحدة، ومنصّة يقوم عليها قادة الأمة صفا واحدا، ضدّ مثلّث القوى المعادية للإسلام وللناس، كما كان يراه الشيخ، هي وحدة المؤمنين ضدّ الملحدين، ووحدة المواطنين ضد المحتلين، ووحدة الناس بشكل عام على اختلاف المذاهب والأديان، ضدّ الفساد والاستبداد، والفحشاء

(١) انظر رسالته "حقيقة الجماعة المودودية"، و"حقيقة تشرموناي وآت رسي"، نقلا من "الإنسان الكامل"، ص٤٦٤ و٤٦٥

(٢) الإنسان الكامل: ترجمة الشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي، مطبوع مؤسسة الشيخ القائد ص ٤٦٠ و٤٦١

والمنكرات، والأعمال المعادية للمثل الإنسانية العليا، أما الغاية العظمى التي كانت تسعى إليها «جمعية المصلحين» فهي تشمل ثلاثة ميادين إصلاحية، إصلاح النفس، وإصلاح الأمة، وأخيرا إصلاح الدولة.[١]

كيف...لو تحقق حلمه وتكلل جهده؟

لكن بعد هذا الجهد المضني الدؤوب، والإخلاص الكبير النادر، لم تنجح مهمة الشيخ القائد، ولم يقف العلماء على منصة الوحدة، بل بالعكس إن كثيرا منهم تجهمت وجوههم، واكفهرت ملامحهم، وملأ الغضب قلوبَهم، فلم يرفعوا إليه رأسا! وقد قال الشيخ الكبير مولانا محيي الدين خان أسفا: "إنه سعى وجاهدَ طوال حياته من أجل توحيد الأمة، ثم ذهبَ إلى رفيقه الأعلى، أما نحن فلا نكاد نستشعر بخطورة المهمة التي دعا إليها وتركَها على أكتافنا، وهذا اللاشعور هو الذي سيؤدي بنا إلى **الانهيار** عاجلا أو آجلا".[٢]

لو تحقق حلم هذا المصلح العظيم، والناصح الأمين لقومه وعلماء أمّته، وتكللت جهوده بالنجاح، لكان لهذه الأمة شأن آخر، ولما كان الإسلام والمسلمون في هذه البقعة، رغم أغلبيتهم الساحقة، أضعف الأمم على الأرض، أمّة تئن وترزح تحت سطوة شرذمة قليلة من الهندوس، تولّي من نشاء وتعزل من نشاء، حتى أصبح مصير الأمة الكبيرة بيد تلك الشرذمة، ولما كان علماء هذه الأمة رغم عددهم الهائل، ورغم المدارس والمراكز الدينية التي تعجّ بها هذه الدولة، ليس لهم أثرٌ في حياة الناس السياسية، الخارجة عن دوائر المساجد والمدارس، وليست لهم هيبة في الشوارع والأسواق، ولا كلمة في البرلمان ومجلس الوزراء، كل يوم يصدر من المحكمة قانونٌ يصدم الإسلام في صميمه، والعلماء لا يتعدّى دورُهم حدود بعض المظاهرات والإضرابات، ووضع الملصقات على الجدران، وتوزيع المنشورات أمام المساجد، فما دام العلماء في معسكرات متصارعة، ومادامت جهودهم تنفد في سبيل التحزّب والتفرّق، وإنشاء الأحزاب السياسية والفرق الفكرية والمذهبية، لا خير في هذا كله، ولا مستقبل للإسلام والمسلمين في هذه الدولة، وما دام للهندوس ومن شايعهم ودار في فلكهم من المسلمين اليد العليا والكلمة النافذة، فلا أمل في عودة المؤمنين إلى مركزهم السياسي والاجتماعي في هذه البقعة.

(١) حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النثارآبادي، ص٥٠

(٢) الإنسان الكامل: ترجمة الشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي، مطبوع مؤسسة الشيخ القائد ص ١٠٩

مع الله ومع الناس

من أبرز ما يميّز هذا الإنسان عن كثير من الناس، خصلة مشتقة من نفسه، ومستمدة من صميمه، وهي إخلاصه العميق المتين لله عز وجل ولدينه، فقد كان أبعد الناس عن الرياء، وأكرههم للتكلف والتصنّع، وأبغضهم للنفاق، وأطهرهم من رذائل الأخلاق، وكان صورة حية من السلف، في ورعه وعبادته، ما إن يسمع الأذان إلا يتوقّف عن العمل، ويمشي إلى المسجد قبل الجميع، وينصرف بعد الجميع، وكان يكرر: المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص![1] وكان محافظا على الفرائض، مهتما بالنوافل، يطيل سجوده بحيث يظن الناس أنه قد نام![2]

كما كان في قمة من الصدق والأمانة، والزهد والقناعة، يتقي الشبهات، فلا يأخذ هدية من لا يصلي الصلوات الخمس، يعفو عن الناس، ويتسامح مع ألد الأعداء، ويعود المريض، ويشيع الجنازة ويعنى بحقوق غير المسلمين أيما عناية.

النثارآبادي في ذمة الله

بعد هذه الحياة الحافلة، الثرّة الخصبة، متنوّعة العطاء، وبعد هذا الجهد العظيم، والإصلاح الشامل، والجهاد المستمرّ في سبيل التوحيد، انتقل الشيخ النثارآبادي إلى جوار ربه عام ٢٠٠٨ للميلاد، ومنذ ذلك الحين أصبحت الأمة المسلمة في هذه الدولة لا تسمع إلى دعوة مخلصة أمينة تدعوها إلى القيام على منصّة الوحدة، وتدافع عن نفسها وعن دينها وسط أمواج متلاطمة من العلمانية والإلحاد من ناحية، والهندوسية المتطرّفة من أخرى، رحم الله الشيخ النثارآبادي، وقيّض للأمة من ينوب عنه، ويحقق أحلامه، ويتم رسالته.

---

(١) لكن ذكر الإمام العجلوني "لم أعرفه حديثا وإن اشتهر بذلك، ويشبه من كلام مالك بن دينار، فقد نقل المناوي عنه أنه قال المنافقون في المساجد كالعصافير في القفص"، انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ج ٢، ص٢٩٤، رقم الحديث ٢٦٨٩.

(٢) انظر مقال الدكتور محمد أمين الحق، في الإنسان الكامل، ص٥٤٤

مولانا عطاء الرحمن خان

(١٩٤٣-٢٠٠٨)

الداعية الاجتماعي، العالم السياسي الكبير، صاحب المؤسسات

شجرة التقوى والقيادة

إنها قصة توارث العلم والإمامة، وقوّة النسل الطاهر والدم الزكيّ، وقيمة السلالة الكبيرة، وعراقة الأصل وكرامة المحتد، التي تحمل العلم والمعرفة، والدعوة والإصلاح، والسياسة والقيادة، والقبول والإقبال، كابرا عن كابر، وأبا عن جدّ، وإنها قصّة سلسلة فريدة تتلألأ حبّاتها بكل بهاء وطلاوة، ورواء ورونق، وتاريخ يبهر كل تاريخ ويبذّه، إنها قصّة جدّ وأب ونجل وحفيد، كلهم علماء، وكلهم مصلحون، وكلهم كبار، وكلهم قياديون، وإذا كان العرق دسّاس، وإذا كان الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فإنها نصّة معدن كريم، وإنها قصّة رجل كان من هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تميّزوا عن ملايين البشر في حياتهم وأعمالهم، ودورهم الفريد في تاريخ علمي وديني لهذه الدولة، والذين تركوا أثرا كبيرا في سياستها وإدارة دفّتها، إنها قصة العالم السياسي الكبير، وخطيب الملّة، والعضو البرلماني، والنموذج الحيّ للجمع بين العلم والقيادة، والدعوة والسياسة، الشيخ مولانا عطاء الرحمن خان.

ميلاده ونشأته

ولد عطاء الرحمن في محافظة «كشورغنج» عام ١٩٤٥م، في بيتٍ شريف، بيت العلم والمعرفة، ذي الأنفة والعزة والاستعلاء، والنفوذ والمنعة في صعيد «كشورغنج» وما يجاورها، وتاريخ عريق في المجد والعزّ، فقد كان أسلافه من علية القوم ووجوه الناس، جدّه العلامة عبرت خان كان عالما كبيرا، أما أبوه فحدّث عنه ولا حرج، إنه الشيخ الرباني، والعالم الكبير، ورئيس «الجامعة الإمدادية» العريقة، مولانا أحمد

علي خان،[١] وُلد في هذه الأسرة الكبيرة ليكون وحيدا لوالديه، وليحمل وحدَه هذا العبء الثقيل، والأمانة الكبرى، التي توارثها رجالُ هذا البيت منذ قديم وحافظوا عليها، فتوارثَها الشيخ، وأدى الأمانة، وبنى حياتَه ومستقبله بحيث يغبط عليه كثير من العلماء، ويعتزّ به دينه وأمته، ثم أنجب أبناء مؤهلين لحمل مسؤوليته، وتبليغ رسالته، وتحقيق آماله التي تركَها على كواهلهم، وهم خير ممثلين لوالدهم، وخير خلف لخير سلف، وخير شاهد على عبقرية هذا الإنسان، وروحه القيادية، وقدرته على تربية الإنسان، وبناء المجد، وإصلاح الأمة وتوجيهها، فالعبقرية تبدأُ من البيت، وخيركم خيركم لأهله.

بدأ الدراسة في بيته، وهو مدرسة علمية كبيرة، تحت إشراف والده، ثم دخلَ في رحاب الجامعة الإمدادية التي لا تزال تعدّ من طليعة المراكز العلمية في الدولة، دخلَ فيها الطفل عطاء الرحمن ولم يخرج، وإنما تخرّج في مرحلة التكميل عام ١٩٦٣م، ثم تخصّص في تفسير القرآن الكريم، وهكذا انتهت المراحل المدرسية والجامعية، ولم تنته الدراسة، ولم تتوقّف المسيرة في طريق المعرفة، فقد ظلّ حريصا على العلم، ومتلهّفا عليه، ومتعلّقا به، وغارقا في الكتب والمؤلفات، وشغوفا بالبحوث والدراسات، طوال حياته، كما درسَ بنفسه اللغة والأدب، والتاريخ والفلسفة، وعلم السياسة، والاقتصاد، والنظريات، والأفكار المعاصرة، درسَ كلّها خارج مقررات الجامعة، ليعدّ نفسَه للمستقبل، وليدخل في غمار السياسة والقيادة، وهكذا يكون الكبار، فالمدرسة التي تكون في صميم أنفسهم، وفي عالم فكرهم، هي أقوى مدرسة في العالم، وأغناها، وأكثرها إنجازا، وأقدرها على كشف العبقرية الكامنة، وإبراز الإنسان على مسرح العالم.

في ميدان التعليم والتربية

تولّى التدريس في الجامعة التي درسَ فيها، ثم درّس في جامعات ومدارس كثيرة في مراحل مختلفة من الحياة في «كشورغنج» وداكا، كما تولّى رئاسة مدرسة دار العلوم «ميربور»، ورئاسة الجامعة الإمدادية بـ«فريدآباد»، ودرّس الحديث النبويّ أكثر من خمسة وأربعين عاما، وأنشأ مدارس ومراكز علمية كثيرة،

---

(١) ولد أحمد علي عام ١٩٠٤م، في محافظة «كشورغنج»، أخذ الدراسة الابتدائية في كتّاب قريته، ثم درسَ في عدّة مدارس حكومية، وأخيرا تخرّج من المدرسة العالية بكلكتا عام ١٩٢٧م، ورغم أنه لم يدرس في جامعة ديوبند، ولم يدخل في المدارس العربية التابعة لمنهج ديوبند، إلا أنه شارك في إنشاء مركز علمي مع شيخه ومرشده العلامة أطهر علي، أصبح من طليعة المدارس الديوبندية في هذه الدولة، وهو "الجامعة الإمدادية" بـ«كشورغنج»، وظلّ في رئاستها طوال أربعين عاما، درّس من خلالها آلافا من الطلاب، وأعدّ عددا كبيرا من الدعاة والمصلحين، وكان عابدا زاهدا، ومعروفا بمستجاب الدعوة، ثم اختاره الله عام ١٩٨٢م، وخلّف وحيدَه وفلذة كبده الشيخ عطاء الرحمن خان.

من أبرزها الجامعة الملّية بداكا، والجامعة الفاروقية في مسقط رأسه «كشورغنج»، وهو يُعتبر بالمؤسس الثاني للجامعة الإمدادية بـ«كشورغنج» ومحييها، واختير الأمين العام لـ«وفاق المدارس العربية بنغلاديش» لفترة طويلة تمتدّ على خمسة عشر عاما، كما تولّى رئاسة «تنظيم المدارس العربية»[١] مدّة كبيرة، فكل هذا وذاك يبرز عبقرية هذا الإنسان في التعليم، ودوره في التربية، ومكانته في الأوساط العلمية، والتعليم العربي والإسلامي بشكل عام.

من محاريب العلم إلى معامع السياسة

ذكرنا ملامح عامة عن حياة هذا الإنسان وخطوطها العريضة، لكن أبرز ملامح هذا الإنسان، والذي خلّده في تاريخ العلماء، وتاريخ هذه الدولة، هو موقفه الريادي من السياسة، ودوره الفريد في القيادة والحكومة، فقد كان رجلا سياسيا، وممثّلا حيا صادقا للسياسية الحكيمة، والسياسة الإسلامية، السياسة التي تكون من أجل الدين، ورفع كلمات الله، ولصالح الأمة، وقد تربّى على يد عالم سياسي فريد، بل على أكبر شخصية مثالية في تاريخ بلاد البنغال، الذي كان خير مثال للجمع بين العلم والسياسة، والدعوة والقيادة، والذي لن ينساه التاريخ أبدا، ما دامت هذه الدولة، ومادامت أمة الإسلام فيها، سيظلّ هذا الإنسان خالدا فريدا، وهو الشيخ الرباني، العلامة أطهر علي، فقد ترك الشيخ أثرا كبيرا في حياة عطاء الرحمن خان، في حياته العلمية، والعملية، والفكرية، والدينية والدنيوية، وكان مدينا له بالشكر والامتنان، في كل شيء أنجزه في الحياة،[٢] ولذلك عندما أكمل الدراسة في الجامعة الإمدادية، أراد أن يرحل إلى الهند ويدخل في دار العلوم ديوبند، إلا أن شيخه ومربّيه مولانا أطهر علي منعَه عن ذلك، وأمره أن يبدأ التدريس، فانصاع لأمر الشيخ، وأطاعه بلا معارضة، ولا نظر ولا تأخير، فبارك الله في هذه الخطّة وآتت ثمارا شاهدتها الدنيا، وكأن الشيخ الرباني أطهر علي بفراسته الإيمانية أدرك علوّ همّة الشاب، وقوّته العلمية، وقدرته على التثقيف النفسي وبناء الحياة، وكان متأثرا جدا بالخطيب الأعظم صديق أحمد، مولعا بآرائه، ومعتزّا باتباعه، كما كان معجبا فكريا ودعويا بشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي.[٣]

بدأ حياته السياسية في «اللجنة الطلابية» التابعة لحركة «نظام الإسلام» وهو ما زالَ في شبابه، ثم

---

(١) هو المجلس الإقليمي لتعليم المدارس العربية بـ«مومن شاهي» وما جاورها

(٢) مقال للشيخ فيصل أحمد الجلالي، جريدة "الانقلاب" اليومية، ١٨ أغسطس ٢٠١٧م

(٣) انظر مجلة "الكوثر" الشهرية، مقال الشيخ مولانا عبيد الرحمن خان، أكتوبر، ٢٠٠٨م

دخلَ في «نظام الإسلام» وجاهدَ تحت مظلّته فترةً كبيرةً، ثم شاركَ في الانتخاب التشريعي عام ١٩٨٦م، كمرشّح حرّ، في عهد الرئيس حسين محمد إرشاد، وانتصرَ على الخصوم، إلا أن النتيجة أعلنتْ عن هزيمته، تحت ضغوط الحكومة العسكرية، ثم شاركَ في انتخاب عام ١٩٩١م، بعد زوال العهد العسكري، تحت مظلّة «الحزب القومي البنغلاديشي(BNP)»، وفاز بفارق كبير، وأصبح عضوا برلمانيا، ودخلَ في البرلمان مرفوع الهامة، ومعتزّ القامة، يمثّل العلماء، ويقدّم لهم خير نموذج للسياسة، ويمهّد لهم الطريقَ، وكان يرى أن الدنيا قد تغيرت، وتقلبت رأسا على عقب، فنشر الدين، والدفاع عن العقيدة والأمة، لا يمكن الآن بالعلم وحده، بل لا بد للعلماء من الجمع بين العلم والجهاد، والدعوة والسياسة، والمحراب والميدان، والدنيا والآخرة![1]

لقد عاشَ هذا الإنسان طوال حياته خارج العاصمة، إلا أنه كانت له حضرة دائمة فيها بمناسبة في كل قضية تمسّ الدين والدولة، والأمة والتعليم المدرسي، وكانت له مكانةٌ كبرى عند علماء العاصمة.

دليل فراسته ودوره في حرب التحرير

كان سياسيا حكيما، يعمل بفراسته الإيمانية، وتجاربه في الحياة، فكلما تخرج حركةٌ جديدة، أو تبرز دعوةٌ، وتطلع مظاهرات وحركات، لم يكن يُشارك فيها عشوائيا، بل كان يتمهل، ويتأنى، ويفكر ويقدر، ويحاول أن ينظر في عمقها، ويتحسّس مستقبلها وآيات المستقبل على بصيرة، ثم يُشارك فيها أو يحجم عنها، ومن أجل هذا لم يشارك في التكتلات السياسية، ولم يتنقّل بين الأحزاب، ولم يغيّر الأولوية والعناوين، طوال حياته السياسية كلها، وقد برزتْ عبقريته هذه أيام حرب التحرير عام ١٩٧١م، بينما خالفَها- أو بالأحرى ظل محايدا لها- حزبه نظام الإسلام، وجميع قادته، وعلى رأسهم شيخه ومربيه مولانا أطهر علي، لكن الشيخ أيد الحرب، وخاضَ فيها بقلبه وقالبه، وأوى في بيته المظلومين، من المسلمين والهندوس! وبذلك قدم نموذجا فريدا يدل على إنسانيته، وعبقريته السياسية، وفراسته الإيمانية، وبعد نظره في مصير البلاد والعباد.[2]

سيد القوم خادمهم

لقد تجلّت في حياة الشيخ عطاء الرحمن عبقرية التوجيه والإدارة، والرئاسة والقيادة، ومن ثم تولّى

(١) مقال للدكتور محمد عبد الحق، جريدة "الأفق الجديد" اليومية (البنغالية)، الأحد، ٣١ يوليو، ٢٠١٦م

(٢) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٧٨

رئاسة مؤسسات [illegible] والمجمعات، واللجان والمؤسسات [illegible] والحكومية. [illegible] في [illegible] التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية، [illegible] في [illegible] الإسلامية، و[illegible] الأوقاف [illegible] في [illegible] مؤسسة الإسلامية ببنغلاديش، كان عضو هيئة [illegible] الإسلامية.

كما [illegible] فيه، فكان نائب الرئيس [illegible] بنغلاديش) وجمعية التعاون للمدارس [illegible] كما قاد حركات كثيرة للرد على البدع والخرافات [illegible] الجماهيري الإسلامي ببنغلاديش [illegible] التي كان عضوا في البرلمان، [illegible] في كل قضية، وسهر من أجلهم، [illegible] وأحبه كل من كان يعرفه.

[illegible]

[illegible] أن يكون إنسانا كاملا، [illegible] في مراحل حياته كلّها، بدءا من [illegible] عظيم كل العظمة في معدنه [illegible] مع هيبته ووقاره، ولم يره أحدٌ عابسا باسرا [illegible] لسانه قولة الخنا والفحش، وسلم المسلمون من لسانه ويده، [illegible] بوائقه، [illegible] وتجريح شعورهم وعواطفهم من الكبائر، وكان جميل الصورة، ومهيب الطلعة، ووقورا، ولين الجانب، ورقيق القلب، ومتكرّما، ورحيما بالناس، ولا يأمر أحدا أمرا عسكريا، رغم كونه عالما كبيرا، وسياسيا جليلا، وعضوا برلمانيا، بل أنزل الناس وأضعفهم في المجتمع كان يقترب منه ويجلس معه بلا خوف ولا وجل، ويتحدّث إليه حديث الخليل مع الخليل، ويبثّ له حاجته، وكان بابه لا يغلق أمام الناس.

فارس النهار وراهب الليل

كان عابدا مضبوعا، وكان أبعد الناس عن الغيبة، فلم يُسمع أنه اغتاب في حياته أحدا، رغم أنه كثيرا ما كان يتعرّض للنقد والحسد، ونكران الجميل، يقول عنه الشيخ عبيد الرحمن خان الندوي،

دخلَ في «نظام الإسلام» وجاهدَ تحت مظلّته فترةً كبيرةً، ثم شاركَ في الانتخاب التشريعي عام ١٩٨٦م، كمرشّح حرّ، في عهد الرئيس حسين محمد إرشاد، وانتصرَ على الخصوم، إلا أن النتيجة أعلنتْ عن هزيمته، تحت ضغوط الحكومة العسكرية، ثم شاركَ في انتخاب عام ١٩٩١م، بعد زوال العهد العسكري، تحت مظلّة «الحزب القومي البنغلاديشي(BNP)»، وفاز بفارق كبير، وأصبح عضوا برلمانيا، ودخلَ في البرلمان مرفوع الهامة، ومعتزّ القامة، يمثّل العلماء، ويقدّم لهم خير نموذج للسياسة، ويمهّد لهم الطريقَ، وكان يرى أن الدنيا قد تغيرت، وتقلبت رأسا على عقب، فنشر الدين، والدفاع عن العقيدة والأمة، لا يمكن الآن بالعلم وحده، بل لا بد للعلماء من الجمع بين العلم والجهاد، والدعوة والسياسة، والمحراب والميدان، والدنيا والآخرة![١]

لقد عاشَ هذا الإنسان طوال حياته خارج العاصمة، إلا أنه كانت له حضرة دائمة فيها، بمناسبة في كل قضية تمسّ الدين والدولة، والأمة والتعليم المدرسي، وكانت له مكانةٌ كبرى عند علماء العاصمة.

دليل فراسته ودوره في حرب التحرير

كان سياسيا حكيما، يعمل بفراسته الإيمانية، وتجاربه في الحياة، فكلما تخرج حركةٌ جديدة، أو تبرز دعوةٌ، وتطلع مظاهرات وحركات، لم يكن يُشارك فيها عشوائيا، بل كان يتمهل، ويتأنى، ويفكر ويقدر، ويحاول أن ينظر في عمقها، ويتحسّس مستقبلها وآيات المستقبل على بصيرة، ثم يُشارك فيها أو يحجم عنها، ومن أجل هذا لم يشارك في التكتلات السياسية، ولم يتنقّل بين الأحزاب، ولم يغيّر الأولوية والعناوين، طوال حياته السياسية كلها، وقد برزتْ عبقريته هذه أيام حرب التحرير عام ١٩٧١م، بينما خالفَها- أو بالأحرى ظل محايدا لها- حزبه نظام الإسلام، وجميع قادته، وعلى رأسهم شيخه ومربيه مولانا أطهر علي، لكن الشيخ أيد الحرب، وخاضَ فيها بقلبه وقالبه، وأوى في بيته المظلومين، من المسلمين والهندوس! وبذلك قدم نموذجا فريدا يدل على إنسانيته، وعبقريته السياسية، وفراسته الإيمانية، وبعد نظره في مصير البلاد والعباد.[٢]

سيد القوم خادمهم

لقد تجلّت في حياة الشيخ عطاء الرحمن عبقرية التوجيه والإدارة، والرئاسة والقيادة، ومن ثم تولّى

(١) مقال للدكتور محمد عبد الحق، جريدة "الأفق الجديد" اليومية (البنغالية)، الأحد، ٣١ يوليو، ٢٠١٦م

(٢) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٣٧٨

رئاسة مؤسسات، وأشرف على لجن وجمعيات، وعمل عضوا في كثير من المعاهد والمجمعات، واللجن والمؤسسات الدينية والحكومية، فقد كان عضوا في اللجنة البرلمانية الدائمة التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية، وعضوا في لجنة المكتبة المركزية التابعة للمجلس الوطني، ومنظّما في البعثة الإسلامية، ولجنة الأوقاف بنغلاديش، وعضوا في اللجنة الدائمة والهيئة الحاكمة للمؤسسة الإسلامية بنغلاديش، كان عضو هيئة رئاسة المجلس الوطني للشريعة الإسلامية.

كما قدّم خدمةً جليلة إنسانية إلى شعبه وأمته، والمجتمع الذي عاشَ فيه، فكان نائب الرئيس لجمعية الهلال الأحمر بـ«كشورغنج»، وأنشأ «مؤسسة العلماء بنغلاديش» و«جمعية التعاون للمدارس العربية» لمساعدة الطلاب، وتطوير الأمور الاقتصادية للعلماء، كما قاد حركات كثيرة للرد على البدع والخرافات، وبثّ نور التوحيد، والعقيدة الصحيحة، وأنشأ «منظّمة التعليم الجماهيري الإسلامي بنغلاديش» لنشر العلم والثقافة، ومحو الجهل والأمية من المجتمع، وفي الفترة التي كان عضوا في البرلمان، قدّم خدمةً غير مسبوقة المثال إلى سكّان «كشورغنج»، وساعدَهم في كل قضية، وسهرَ من أجلهم، وجاهدَ لتطويرهم وتقديمهم، فأحبّه العلماء، وأحب المسلمون، وأحبه الهندوس، وأحبه به كل من كان يعرفه.

كان في عينه صغيرا وفي أعين الناس كبيرا

فوق كل هذا وذاك، لقد كان ا لشيخ عطاء الرحمن إنسانا فريدا، أو كاد أن يكون إنسانا كاملا، متبصرا متيقظا، وغالبا على أمره، وواعيا عما يقول وما يفعل، ومميزا فذا في مراحل حياته كلّها، بدءا من الأهل والأسرة، حتى البرلمان ومجلس النوّاب، وكان بسيطا في مظهره، عظيما كل العظمة في معدنه وأعماله، متخشّعا ومتواضعا، وشعبيا في فكاهته وحديثه، مع هيبته ووقاره، ولم يره أحدٌ عابسا باسرا مقطّبا قطّ، عفيف اللسان، واليد، والبطن، فما جرتْ على لسانه قولة الخنا والفحش، وسلم المسلمون من لسانه ويده، وأمن الناس بوائقه، يرى إيذاء الناس وتجريح شعورهم وعواطفهم من الكبائر، وكان جميل الصورة، ومهيب الطلعة، وقورا، ولين الجانب، ورقيق القلب، ومتكرّما، ورحيما بالناس، ولا يأمر أحدا أمرا عسكريا، رغم كونه عالما كبيرا، وسياسيا جليلا، وعضوا برلمانيا، بل أنزل الناس وأضعفهم في المجتمع كان يقترب منه ويجلس معه بلا خوف ولا وجل، ويتحدّث إليه حديث الخليل مع الخليل، ويبثّ له حاجته، وكان بابه لا يغلق أمام الناس.

فارس النهار وراهب الليل

كان عابدا مطبوعا، وكان أبعد الناس عن الغيبة، فلم يُسمع أنه اغتاب في حياته أحدا، رغم أنه كثيرا ما كان يتعرّض للنقد والحسد، ونكران الجميل، يقول عنه الشيخ عبيد الرحمن خان الندوي،

الكاتب الكبير ونجله الأكبر: "رأيتُ أبي طوال خمسة وثلاثين عاما، وما رأيتُه يغتاب أحدا، فإذا جاء الحديث عن شخصٍ، وذكره بعض الحاضرين في المجلس بسوء، كان الشيخ ينهض ويذكر شيئا من فضائله، فكانت الفضائل متغلبة على الرذائل، وكان يتّقي المحارم، ويستنكف الشبهات، وهنا عندما فاز في الانتخاب التشريعي، وأصبح عضوا في البرلمان، استقال عن منصب الأمين العام لـ«الوفاق»، لئلا يكون موضع الاتّهام.

أما الزهد فقد كان آية الآيات فيه، وقد يبلغ زهده درجة الإنكار، لولا الثقة بالراوي، والاعتماد على ذاكرته وصحّة طريقة الرواية، فعاشَ حياته كلها إنسانا بسيطا، ولم يعرف القصور الفاخرة، ولا الموائد الحافلة، ولا حياة السرف والترف، يعزّ العلم والتقوى، ويترفّع عن لعاعة الدنيا، ولما توفّي وُجد عنده ألفان تاكا فقط (ما يعدل مئة ريال سعودي)، ولا يملك حسابا مصرفيا، فضلا عن الودائع المصرفية! وهو عضو مجلس النوّاب![1]

كان رجل القرآن، يقرأ بنفسه، ويفسّر للناس، ويرغبّهم في الأعمال الصالحة وفي الجنّة، ويحذّرهم من النار، وما كان يفسّر القرآن للمصالح السياسية، كما كان رجل السيرة النبوية، وشغوفا بصاحبها عليه ألف ألف سلام، وكان يتحدّث في المحافل والمجالس العلمية والدينية عن السيرة النبويّة، فكان حديثه عن السيرة حديثا حيّا، دافقا بالحياة وروح الإخلاص، يبكي بنفسه، ويبكي الناس، وكلما يمرّ بحياة الصحابة ﷺ، وتاريخ بذلهم وفدائهم، وتضحياتهم للدين، كان ينتحب انتحابا.

الشيخ خان في ذمة الله تعالى

وقد اختاره الله تعالى عام ٢٠٠٨م، وخلّف وراءه إنجازات عظيمة، وأمانات كبيرة، وخلفه من بعده خلفٌ ربّاهم على الإسلام، فأحسن تربيتهم، وهم أنجاله الخمسة، لا يزالون يمشون على درب أبيهم، ويجاهدون لتحقيق أحلامه، رحم الله الشيخ عطاء الرحمن، وبارك في جهود من خلفوه، وورثوا عنه علمه وعمله ودعوته وجهاده.

وقد اختاره الله عام ١٩٦٨م، بعد أن جاهدَ طوال قرنٍ كامل، وبعد حياة حافلة بالمآثر الخالدة والخدمات الجليلة للدين والأمة، وخلد وراءه كتبا ومؤلفات قيمة، لا تزال تشهد على عبقريته، وجهاده، وتضيء الطريق لملايين الناس، الذين يحلمون العمل من أجل دين الله، وإعلاء كلمته.

(١) انظر مجلة "الكوثر" الشهرية، مقال الشيخ مولانا عبيد الرحمن خان، أكتوبر، ٢٠٠٨م

مولانا أبو سعيد محمد عمر علي

(١٩٤٥- ٢٠١٠)

داعية الإسلام، المؤلف القدير، ترجمان العلامة الندوي

نحن الآن بين يدي إنسان عظيم من عظماء هذه الدولة، وداعية حكيم من كبار دعاتها، وكاتب قدير من أبرز كتّابها، وواحد من رواد الحركة العلمية، إنسانٌ فجّر مواهبَه وأبرز نبوغَه المفكر الإسلامي الكبير ومجدّد القرن الماضي العلامة أبو الحسن علي الندوي، فربّاه في حضنه، وأحسن تربيته، وصاغَ عقليته واتجاهه في قالبه، وصقل عبقرياته، وأنشأَ صلته بالله، وقرّبه من الله، وغرسَ فيه غرسة من الإخلاص والاحتساب، والتفاني في سبيل الدعوة والإصلاح، ما غيّر مجرى حياته، وغيّر نظرته إلى الدنيا والحياة، وحوّل مصيرَه، وحدّد مكانته في التاريخ، وجعله من هؤلاء الدعاة الذين كان همّهم الوحيد في الحياة، وشغلهم الشاغل، هو "حمر النعم"، الذي أعلنه النبي ﷺ مكافأةً على دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، إنه الشيخ الرباني، والمؤلف القدير، والعالم الموسوعي، والداعية المخلص، وترجمان العلامة الندوي باللغة البنغالية، وأول خلفائه في هذه الدولة وأبرزهم، وصفوة تلاميذه، ومؤسس جمعية «دعوة الإسلام بنغلاديش»، مولانا أبو سعيد محمد عمر علي.

لقد كان إنسانا خاملا مغمورا، وشابّا متواضع الحال، ومضطرب البال، لكنه كان جريء القلب، ومليء الحماس، إذ تعرّف على الشيخ المصلح العلامة الندوي، فهرول إليه، والتقى به، وهنا وجدَ بغيته، ووجد الإنسان الذي طالما حلم به، فسلّم إليه نفسه، وفوّضَ إليه أمرَه، واصطبغ بصبغته، وانصاغَ في بوتقته، حتى أصبح صورة صادقة من حياة مرشده الشيخ الندوي، ومثالا حيّا له، في الإخلاص والاحتساب، والبذل والعطاء، وبكاء العين والقلب معا على الأمة، والجهاد في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، والوقوف بجانب المهتدين، والعمل على إبراز محاسن الإسلام، وصلاحيته للعصر الحاضر

وللعقل المعاصر، وتقديمه إلى الأوساط المثقفة في حلّة جديدة مناسبة، وترسيخ مفهوم الشريعة والدين في أذهانهم، وهنا يتجلّى فضل اللقاء مع الكبار، والصلة بهم، والجلوس معهم، والانتفاع بعلومهم وفيوضهم وعرفانهم.

الميلاد والنشأة

ولد أبو سعيد محمد عمر علي في محافظة «تشوادانغ   أكتوبر من عام ١٩٤٥م، في أسرة رقيقة الحال،(١) وثرية البال، وغنية الدين والصلاح، توارثت الدّين والصلاح كابرا عن كابر، فقد كان جدّه مبايعا للشيخ مولانا أبي بكر الصديقي، مرشد «فرفرا»، وكان من أبرز تلامذته، كما كان أبوه مبايعا للشيخ روح الأمير البشيرهاتي، خليفة الشيخ الصديقي، هكذا وُلد الشيخ عمر علي في بيت يغلب عليه الطابع الديني بشكل كبير، ويسوده التقوى والخوف من الله، واختيار ما عنده على ما عند الناس، فتركَ ذلك أثرا كبيرا في عقلية الطفل، ونشأ على التقوى والصلاح، والتمسّك بالشريعة منذ طفولته، وبدأ يصلي ويصوم منذ الصغر.

افتتحَ الدراسة في بيته، ثم درسَ في المدرسة العالية بـ«قابل نغر»، ثم دخلَ في «مدرسة قوّة الإسلام العالية» بمحافظة «كوستيا»، وتخرّج في مرحلة الفاضل عام ١٩٦٥م، بعد ذلك التحق بالمدرسة العالية بمحافظة «بابنا»، واجتازَ مرحلة الكامل في الحديث عام ١٩٦٧م، وفي عام ١٩٧١م دخلَ في جامعة داكا، ودرس الماجستير في قسم علوم السياسة، وتخرّج عام ١٩٧٥م.

في ميدان الحياة وساحة العمل

عام ١٩٧٦م بعد التخرج من جامعة داكا تولى العمل في «المؤسسة الإسلامية بنغلاديش»، وبعد فترة بسيطةٍ ذهبَ إلى محافظة «تانغائيل»، وتولّى التدريس في الجامعة الإسلامية بـ«سانتوش» التي أسسها العالم السياسي الكبير مولانا عبد الحميد خان البهاشاني، ودرّس فيها قرابة سنة، وتولّى التحرير لمجلة «كلمة الحق» الشهرية عام ١٩٧٨م، وشاركَ في عدد من الندوات الثقافية، منها «مجلس التمدّن الثقافي»، وقد ترك ذلك أثرا كبيرا في تكوين عقليه وتحديد وجهاته، وأخيرا عادَ إلى العاصمة ودخلَ في المؤسسة الإسلامية بنغلاديش مرّة أخرى.

لو ينظر القارئ في حياة الشيخ محمد عمر علي نظرة فاحصة دقيقة، يرى أنه كان إنسانا علميا

(١) انظر كلام الشيخ فريد الدين مسعود في ذكريات مولانا أبي سعيد محمد عمر علي، ص٢٠

في صميمه، معلّما ومربّيا طبعا فيه لا تطبّعا، ومدرّسا في عمقه، ولذلك رغم أننا نراه يقضي معظم حياته في المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، التي تمتدّ على أكثر من ٢٧ عاما، إلا أنه تولّى التدريس في مقتبل عمره، ولما أحيل إلى التقاعد من المؤسسة الإسلامية عادَ إلى التدريس مرّة أخرى، وظلّ يدرّس في مدارس دينية كثيرة إلى آخر عهده بالدنيا، وكان إذا لمح بارقة ذكاء ونجابة، وجهود واجتهاد في أحد من الطلبة، فرحَ بها، وأبرزها، وكان يشجع الطلاب على التفوق والإبداع، ويدفعهم إلى المساهمة في نشر الدعوة ومحاربة التنصير بشكل تجديدي، أما دخوله في المؤسسة الإسلامية فكان لهدفٍ عظيم في حياته، ولغاية مباركة، وقد حقّق هدفَه، وبلغ غايته، فجاءَتْ حياتُهُ في المؤسسة الإسلامية بثمراتٍ خلدته، وكان عصره فيها أعز العصور وأزهاها في تاريخها، أضف إلى ذلك أنه مع كونه موظّفا في المؤسسة الإسلامية، كان على صلة وطيدةٍ مع العلم والعلماء، والمدارس الدينية، والمؤسسات العربية.

وقفَ الشيخ معظم حياته في المؤسسة الإسلامية على عمل لا يزال يعدّ من أهم وأعظم عمل علمي في تاريخ هذه الدولة وفي تاريخ المؤسسة، وهو «الموسوعة الإسلامية» التي أصدرتها المؤسسة في ٢٥ مجلدا، و«موسوعة السيرة النبوية» في ١٤ مجلدا، بجهود عدد كبير من العلماء الكبار وتحت إشراف هذا الإنسان العظيم، ومن أجل هذا العمل استنفد جزءا كبيرا من حياته في مؤسسة تابعة للحكومة، رغم كونه رجل العلم والدعوة، والسلوك والإحسان، ولهذا عندما تحقق حلمه وبرزت الموسوعتان في الوجود، تركَ المؤسسة وتفرّغ للتدريس والتوعية، والتأليف والدعوة، على أوسع نطاق، وفي أروع صورة، وكان يقول: "التعليم هو رأس مالي وهدفي الأسمى في الحياة، إلا أن مشروع الموسوعة هو الذي أجبرني على الدخول في المؤسسة الإسلامية بنغلاديش".(١)

مع أبي الحسن الندوي: من المعرفة إلى الخلافة

لما كان الشيخ أبو سعيد محمد عمر علي يشتغل في المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، وقعَ في يده كتابٌ بعنوان «إذا هبّت ريحُ الإيمان»، تأليف الشيخ أبي الحسن الندوي، ولم يكن الشيخ يعرف المؤلف إلا بهذا الكتاب، فلما أخذ يقلب صفحاته، كانت كل كلمة صغيرة وجملة ضئيلة تعطيه الدليل على عظمة مؤلفه وجلاله، وعمق فكرته وندرة أسلوبه، ولغته وروحه، وقوّة بيانه، وروعة تعبيره، والقدرة على جذب القارئ، وأثره البعيد المدى، فما كان منه إلا أن ترجم الكتاب في فترة يسيرةٍ، ونشرَه من المؤسسة

(١) مولانا أبو سعيد محمد عمر عليه: حياته وأعماله- مقال كتبه الدكتور شهيد الإسلام الفاروقي، ص١٥

الإسلامية، ثم وجدَ كتابا آخر للمؤلف وهو «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، فلما قرأه أصيب بالكهرباء، واعترته حالةٌ غريبةٌ، وجاءتْ هزّةٌ كبيرة في عالم فكره وكتابته، من أثر ما شاهدَ من روائع التاريخ الإسلامي، وعظماء الدعاة الكبار وبذلهم في سبيل الدعوة والإصلاح، كما انتشى بأسلوب المؤلف، فترجمَه ونشره من المؤسسة، إلا أن الشيخ لم يكن يعرف من هو أبو الحسن علي الندوي، سوى أنه أديبٌ من الأدباء، وعالمٌ من علماء الهند.

هنا في يوم من الأيام أثناء حواره مع زميله في المؤسسة الإسلامية ومديرها الأسبق، مولانا فريد الدين مسعود، أخبره الشيخ فريد بأن مؤلف هذين الكتابين الذي نقلهما الشيخ عمر علي ليس مؤلفا أو أديبا فحسب، وإنما هو شيخٌ من المشايخ الربانيين، وعارفٌ من العارفين، وقمّة في السلوك والإحسان،[1] فضربَ هذا الكلام على الوتر الحساس من الشيخ عمر علي، وتركَ فيه أثرا كبيرا، وبدأ يفكّر في أفق جديد من حياته، وهنا بعد فترة جاءَ مولانا الندوي في زيارته لبنغلاديش عام ١٩٨٤م، فهرولَ إليه الشيخ، وأقرّ عينَه، وأثلج صدرَه، بالجلوس معه، والحديث إليه، والاستفادة منه، حتى بايعه، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة في حياته.

منذ ذلك العام كان الشيخ أبو سعيد محمد علي يقضي كل رمضان تقريبا في زاوية الشيخ الندوي؛ في صحبته وبركته، والاستفادة من علمه وفيضه ونوره، ويعتكف مع مرشده، ويجاهد في التزكية والسلوك، حتى أصبح أنجب تلاميذه وأوفاهم له في هذه البقعة، وكان الشيخ يحبّه كثيرا، ويجلّ مقامَه، ويثق به، ويهتمّ بمكانه، ويفتقده في غيابه، ويقرّب مجلسه في حضوره، ويوقفه بجواره في الصلاة، وفي الغداء والعشاء، وكلما يلتقي معه يصافحه ويضمه في صدره، وقد أمرَه بترجمة عدد من كتبه القيمة إلى اللغة البنغالية، بفضل فراسته الإيمانية، وتجاربه مع الناس والأيام.[2]

وكان الشيخ عمر علي أحق الناس بأداء هذا الواجب، وتقبل بهذه الأمانة الكبرى، فأحسن قيامَها وأداءها، وترجمَ عددا كبيرا من كتبه، ومن أبرزها: ٥ إذا هبت ريح الإيمان (١٩٨٢م) ٥ رجال الفكر والدعوة في الإسلام (١٩٨٧م) ٥ السيرة النبوية (١٩٩٧م) ٥ سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ٥ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢٠٠٢م). وقد قام كثير من الناس بترجمة كتب الشيخ الندوي

(١) كلام الشيخ إسحاق [illegible] في ذكريات مولانا أبي سعيد محمد عمر علي، ص [illegible]

(٢) [illegible] كلام الشيخ [illegible] في ذكريات مولانا أبي سعيد محمد عمر علي، [illegible]

إلى البنغالية، بل وتكررت الترجمات، حتى ترجم كاتب هذه السطور هو الآخر بعض كتبه، إلا أن روح المؤلف وإخلاصه، وحسن تعبيره وروعة بيانه، وسحر كلامه للقارئ، لا يتجلى في بهائه وروائه إلا في ترجمة خليفته الشيخ أبي سعيد محمد عمر علي، وأين ترجمة غيره من ترجمته! وقد بدأ ترجمة الكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وهو في زاوية مرشده وتحت ظلاله، فأين تجد ذلك النور في غيره! وهو صاحب قلم يفيض رقّة وجاذبيةً فريدة في نوعها، وشتان ما بين جمال وجمال، وبين الثرى والثريا.

٣٠ ديسمبر عام ١٩٩٩م، يوماً سبق يوم وفاة العلامة أبي الحسن الندوي، كان الشيخ أبو سعيد محمد عمر علي في بيت شيخه ومرشده بـ«رائي بريلي» الهند، [illegible] به شيخه، وسأل "[illegible]" وكان الشيخ عمر علي يعمل آنذاك في المؤسسة الإسلامية، ففوجئ بهذا السؤال من مرشده، وحار في تحديد مفهومه وهدف شيخه الذي أراده منه، وهنا توفي الشيخ الندوي في اليوم التالي، ٣١ ديسمبر عام ١٩٩٩م، الذي كان يوماً عبوساً قمطريرا في تاريخ البشر، وكان أشد عبوساً وأكثر ظلاماً للشيخ أبي سعيد محمد عمر علي، فقد فقدَ فيه أستاذَه ومربيَه، وشيخه ومرشده، وأهمّ [illegible] حياته، كما بقي السؤال مغموراً غامضاً، وبقي الشيخ حائراً تائهاً، وبعد أيام أدرك الشيخ أن السؤال أراد منه أمراً عظيماً، وقراراً مهماً، ومرحلة جديدةً في حياته وفي تاريخ هذه البلدة.

داعية الإسلام: وقف حياته على دعوة غير المسلمين ومقاومة التنصير

لذلك [illegible] العمل في المؤسسة، [illegible] ذلك الأفق الذي حدده له شيخه ومرشده، وكان [illegible] ذلك الأفق، [illegible] من عرفه أو اقترب منه [illegible] الشيخ كان [illegible] من جميع الأعمال، [illegible]". ولا [illegible] العمل كان هو التحدي في سبيل الدعوة، وقضى الأيام والليالي في [illegible]، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام، [illegible] الدين [illegible] في هذا القرن الحادي والعشرين في أرجاء بنغلاديش [illegible] وكهوفها. وقد يتساءل القارئ - [illegible] - كيف يكون هناك [illegible] في هذا القرن وهو لم يسمع عن الإسلام شيئاً [illegible]؟

(١) [illegible] كلام الشيخ [illegible] في ذكريات مولانا أبي سعيد محمد عمر علي، [illegible]

وكيف يكون هناك مسلم لا يعرف كلمة الحق؟ وشهادة التوحيد؟ وللأسف هذه هي حال الأمة المسلمة وغير المسلمة في كثير من بلدان العالم، وفي نواحي الأرض ومجاهلها، فهم لا يعرفون من الإسلام إلا القليل الغامض الذي لا يفيد علما، ولا ينفي جهلا، رغم أن معظم علمائنا ودعاتنا يستحيلونها!

كما شاهد بعينيه تغلغل النصرانية في بيته، وجهود القسيسين المستميتة لصرف الشعب المسلم عن دينهم، وصدّهم عن عقيدتهم وروحهم، فتألّم بهذا كله، وتقدّم ونزل في الميدان، وتفرّغ لمقاومة التنصير، وبدأ يجوب أقطار الدولة ويطوف بقراها وأريافها، ومناطقها الجبلية، وبقاعها النائية عن العاصمة وأنوار الحضارة، المناطق التي غرقتْ في الظلمات، ووقعتْ في شراك النصرانية، الأمم التي تنصّرتْ أو كادت أن تتنصّر، وتجاهلتها الحكومة المسلمة البنغلاديشية، كما تجاهلها العلماء والأوساط المثقفة، ولذلك الدعوة التي بدأ بها السير وليام كيري في هذه الدولة، ثم تبعها المنصّرون والقسيسون، وقام في وجهها سدّ منيع الدعاة المجاهدون أمثال الشيخ المنشئ مهر الله والشيخ الحاج محمد يونس وغيرهما، أصبحت الحركات الدعوية، والجهاد في هذه الجبهة المهمّة للإسلام مهجورة، وانشغل معظم العلماء والدعاة- على اختلاف المذاهب والمشارب- بالفروع الفقهية عن أصولها، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه! وتفشّى في مجال الدعوة انحطاطٌ إذا قورن حاضره بماضيه المجيد، فسقطت الهمم وتقاصرت الأنظار، وما بقي في الميدان أحد يقوم بهذا العمل الحسّاس، وهنا برزَ الشيخ أبو سعيد محمد عمر علي، وأصبحت دعوة غير المسلمين ومحاربة التنصير شغله الشاغل، وحديثه في النوادي والمحافل، ومجال عمله، وموضع دراسته، ومحور جهوده وجهاده، واستمدّ نورَه من شيخه ومرشده العلامة أبي الحسن الندوي، وقد لقّبه "داعية الإسلام"، كما استمدّ الشيخ عمر علي نورَه من داعية آخر، وعبقري فذّ في تاريخ الدعوة المعاصر بأرض الهند، الشيخ مولانا محمد كليم الصديقي.

من أجل هذا كله، الدعوة التي رفَعَ لواءَها الشيخ أبو سعيد محمد علي من جديد، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ومقاومة التنصير في هذه الدولة، كان عملا تجديديا فريدا، يضع هذا الإنسان في قائمة المجدّدين بدون أن يتطرّق إليه شكّ، وقد يشك القارئ في مدى تجديدية العمل في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، إلا أن النظرة العميقة في تاريخ الإرساليات، والدراسة من كثبٍ ورسوخ لتاريخ التنصير، ومراقبة فداء المنصّرين، ونجاحهم في الدعوة، حتى أصبحت النصرانية أكبر ديانة العالم اليوم حسب تعداد الرؤوس، كلها تركّز على أهمية هذا العمل، وحاجة الأمة المسلمة إليها، بعد أن أصبح شيئا مهملا مهجورا، وأصبحت "الدعوة" مقتصرة على المجتمع المسلم، واشتغلت الأمة المسلمة بالدفاع

عن الإقدام، وبالحفاظ على الكيان عن التجنيد والتقوية، حتى أصبحت الأمة الداعية أمة مدعوة. أصبحت المجتمعات الإسلامية تتعرّض للتنصير والدعوة إلى الصليب! وهنا قام بعض العباقرة في الآونة الأخيرة، وجاؤوا بانقلابٍ عظيم في تاريخ الدعوة، أمثال الشيخ عبد الرحمن السميط والشيخ أحمد ديدات في أفريقيا، والشيخ مولانا محمد كليم الصديقي والشيخ ذاكر نايك في الهند، كما نهض مولانا أبو سعيد محمد عمر علي وجنوده يحملون لواء «جماعة دعوة الإسلام في بنغلاديش»، وأعلنوا على الملأ بأن التنصير أصبح سيلا عارما يجرف بالإيمان والعقيدة، وسما قاتلا للحياة الإسلامية. وحرّضوا الناس على التمسّك بأهداب الدين، والصمود أمام تيار المادية الرعناء والإغراءات الفاحشة. والتنصير الجارف، حتى انتبه العلماء والمسلمون إلى أهمية وحساسية هذا العمل من جديد، وجاء مدّ كبيرٌ للدعوة بالمقاومة.

ضرورة محاربة التنصير ومعاناة الدعاة

الدعوة التي بدأ بها الشيخ في هذه الدولة، والجهاد الذي رفع لواءه خفاقا، يستحق بلا شك أن يكون رمزا من رموز الدعوة الإسلامية في هذا العصر على الإطلاق، ومن حماة الدين والوطن عظمة في التاريخ، ويستحق كذلك أن يلقى دعما كبيرا، وتأييدا كليا من الشعب والحكومة. فهذا العمل لم يكن لصلاح الدين والإسلام فحسب، وإنما كان لصلاح الوطن هو الآخر، فالتنصير لا يهدّد بالإسلام فقط، وإنما يهدد باستقلالية الدولة وحرية الشعب، ويمهد السبيل للاحتلال باسم الاستعمار، ويفتح منافذ جديدة للسلطة الغربية والإمبراطورية الغاشمة. فلذلك مقاومة التنصير والمنصرين يعدّ عملا عظيما يستحق المكافأة من الله ومن الوطن في ذات الوقت، إلا أن الحكومة التي تجهل خيرها وخير وطنها، وخير شعبها، ولا تدين بدين في صميمها، لا تدرك أهمية هذا الجهد وقيمته، ولا تكافئ فوارسه إلا بالإساءة، ويغير رجالها حول الدين، ولا يصغون إلى ثمه، لذلك نرى هذه الدعوة وهذا المشروع الخيّر بعد وفاة الشيخ عمر علي تعاني من معاناة كثيرة، جهة من المنصرين ومن رجال الحكومة، وتعرّض المبلغون والدعاة لصنوف من التعذيب، والاضطرابات، والتهديدات من كلا الطرفين. فالدولة التي تمثّل أغلبية ساحقة للمسلمين يدخل فيها رجال الغرب بكل كبر وخيلاء، ويمشون على أرضها بكل عجب ومرح، ويقومون بأنشطتهم التنصيرية بكل حرية، بينما يعاني المسلمون والدعاة والعلماء من عدم توفر معاناة كبيرة في دخول هذه الدولة، ويتم القبض على الدعاة، ويسجنون في السجن بتهمة الإرهاب. هذه هي الدولة "المسلمة" بنغلاديش! ترى فيها أصوات الدعاة المسلمين تتهافت مع الحملة المضادين، وترى أصوات المشركين ترتفع، وتدعو بدعوى الوطنية والعصبية بدل الإسلام، وتبيح لربه وتحرّض

على السفور والفحش، والحكومة تحابيهم ولا تستحيي من الله ولا من الناس، وتجل غاية أملها، ومنارة قلبها حضارة الغرب، قاتل الله هذه القوّة الشيطانية!

أسرار نجاحه وأسباب قبوله

كانت حياته يسيرة بسيطة كل البساطة، ومتواضعة غاية في التواضع، رغم ما وسّع الله عليه في الرزق، لكنه إلى بساطته وتواضعه كان عزيز النفس، مرفوع الهامة، صبورا على الشدائد وصروف الدهر، ولا يريق ماء وجهه في أشد حالات العسر، وكان آية الآيات في الزهد والقناعة، يزهد في أكله ولباسه وطريقة عيشه، ولقد ألقى وراء ظهره كل المغريات والمطامع، وأكبّ على دعوة ربه على نحو لا يقدر عليه إلا كبار الرجال، فكان يسكن مع أسرته في ضواحي العاصمة، في ريف شبه منعزل عنها، في بيت متواضع، وهو إذ ذاك مدير مؤسسة كبيرة مثل المؤسسة الإسلامية!

كان اهتمامه بالمخبر أكثر منه بالمظهر، لا يتبنى الأنفة، ولا يتكلف الأبهة، رضي النفس، مليء الوجه بالبشر والتفاؤل، هادئ الطبع، كريم الخلق، عفيف اليد وعفيف اللسان، وكثير الاعتذار إلى الإخوان، وكان وطيد الصلة بالعلماء، وكثير الحب للدعاة، ومقدرا لجهودهم، ولم يكن متكبرا، لأن الكبر عظمة النفوس الصغيرة، وهو كبير النفس، وإن الله يبغض كل متكبر، ويبغض كل جعظري وجواظ، فكان التواضع شعاره ودثاره، وكان يكرر دائما "إنما أنا ابن مزارع"! ويرحّب بأصغر طلابه أحرّ ترحيب، ولا ينبئك مثل خبير.

أما عبادته فلا تسأل عن روعتها وجمالها، وصلته بالربّ ومناجاته معه فلا تسأل عن قوّتها وعمقها! فقد كان شغوفا بالقرآن ومشبعا بتلاوته، لم تمض عليه ليلة في حياته لم يقرأ فيها شيئا من القرآن قبل نومه! وعندما يتلوه كانت له حاجة عجيبة معه، يستبشر بوعده، ويرتعش بوعيده، ويتناغم مع قصصه كأنه يعيش مع الأنبياء عليهم السلام ويشهدهم بأم عينيه! وكان رقيق القلب، طيّع الدمع، سريع البكاء، يستيقظ عند الساعة الثالثة من الليل، فيقوم أمام ربه ويدعوه، فيشتدّ بكاؤه، ويعلو نحيبه، حتى يسمع من حوله نشيجه![1]

النجاح الباهر الذي أحرزه الشيخ في الدعوة إلى الله وخصوصا في دعوة غير المسلمين، يرجع حظ كبير منه إلى رقة قلبه وإنسانيته، وحبّه للناس، وإحسانه إليهم، وإخلاصه لهم، فكان يساعد الفقراء، ويعين ذوي الحاجة، وينفق على اليتامى، ويفتقد الأرامل، وكان مقتصدا في إنفاقه، لكن إذا جاءه

(١) انظر كلام زوجة الشيخ في ذكريات مولانا أبي سعيد محمد عمر علي، ص ٢٨

أحد- وخصوصا أحد من المهتدين- بسطَ يده كل البسط، وأعطى كل ما كان في جيبه عطاء من لا يخاف الفقر!

الأمانة الكبرى التي تركها الشيخ على كواهل العلماء

في ١٤ أغسطس عام ٢٠١٠م، فوجئت دولة بنغلاديش، وفجعت ساحة الدعوة بهذا الإنسان العظيم، في وقتٍ كانت الأمة في أمس الحاجة إلى مثله، إلى من يقضي ليلَه ونهارَه في جبال شيتاغونغ، وفي شطآن خليج البنغال، وفي قرى وأرياف المناطق الشمالية، هي المناطق التي أكثر ما تتعرّض للفقر، ومن ثم للتنصير، وقد حدثت بوفاته هوّة كبيرة في كيان الدعوة الإسلامية لا تزال تنتظر من يملؤها، فالخصائص والمقومات التي تتكفل بالنجاح في مثل هذه المهمة، من العلم بكتب الأديان الأخرى، والإلمام بها إلماما كاملا، والإخلاص والاحتساب، وروح التفاني والبذل والعطاء اللامحدود، كان الشيخ عمر علي يمتلك نواصي هذه العوامل كلها.

وقد خلّف بعده جماعةً نورانية من الدعاة الذين وقفوا حياتهم وأموالهم وجهودهم كلها على سبيل دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومحاربة التنصير في هذه الدولة، هم حماة الدين والوطن في ذات الوقت، وقد تضمّنت هذه الجماعة قلوبا طاهرة مخلصة لا تزال تعمل عملها بعد وفاة الشيخ عمر علي، وعلى رأسهم شيخنا ومولانا محمد نجم الدين، والشيخ المفتي زبير أحمد، والشيخ عبد الرزاق الندوي وغيرهم كثيرون، إن لم تسمح لنا مساحة الكتاب بتسجيل أسمائهم هنا، فإن سجل الله أوسع وأشمل لأسمائهم وعطائهم جميعا، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها، وهم لا يزالون يعملون أعمالهم ويؤدّون أماناتهم رغم أن فقدوا ربان السفينة وأمير القافلة، ورغم المعاناة والمحن التي تعتريهم في كل حين ومكان، فهم خير خلف لخير سلف، ويستحقّون من الأمة نصرا مؤزرا، ولاسيما هم بحاجة إلى الدعم المادي والمعنوي الكبير من المسلمين في داخل الدولة وخارجها، فالدعوة في غير المسلمين أكثر صعوبة من الدعوة في المسلمين. لأنها تحتاج تأليف القلوب، والبذل في سبيلهم، وتأهيل المهتدين، وتولي تربية أبنائهم، ورعاية أسرهم وأطفالهم. تحتاج في الحقيقة ملكةً ترعاهم وتهتمّ بهم. ومن أجل هذه كلها فقدت الدعوة الآن كثيرا من قوّتها وعنفوانها، وضيعت من معالمها، فيا ليت الأمة المسلمة والعلماء المخلصين يقدّرون جهود هؤلاء الدعاة، ويقدّمون إليهم الأيادي البيضاء، ويشاركون في هذا الموكب الدعوي النوراني العظيم.

العلامة عزيز الحق

(١٩١٩- ٢٠١٢)

شيخ الحديث، ترجمان البخاري في البنغال، المجاهد الباسل

مكانته في تاريخ العلم والحضارة

إنه من أجلّ الناس في عصره، وأعلاهم منزلةً، وأرفعهم مكانةً، وأجمعهم لجميع الصفات المحمودة، والعبقريات الإنسانية الخالدة، والمواهب البشرية الفريدة، وإنه في هيبته وعظمته بين الناس، وجرأته وصراحته مع الحكام، وفضله وعطائه، أمّة كاملة بوحده، وإنه رجلٌ عظيمٌ غاية في العظمة، وعلم من الأعلام في علم الحديث وأنواعه، وآية الآيات في حفظه والاطلاع على مظانه ومصادره، وأعجوبة الدنيا في الذكاء والعلم، وفي جمع الفضائل من أطرافها، فلم يدع ميدانا من ميادين الحياة إلا وتركَ فيه عنانه، وصالَ وجالَ، وخلّف معالم حياته البارزة، لشجاعته وبسالته، وأستاذيته وعبقريته، ونبوغه وندرته، واشترك في مختلف الحركات الوطنية والفكرية، ونال الصدارة في كل ميدان ومجال، حتى أصبح مدرسةً من أعظم المدارس الفكرية والسياسية والروحانية والقيادية والإصلاحية في تاريخ هذه الدولة.

إنه رجلٌ قلما ينجب الدهر مثله، ورثَ كبار عباقرة القرن الماضي، وجمعَ في نفسه فضائل أعلام العلماء السالكين، والقادة العارفين، وزعماء الدعوة والإصلاح، وأساتذة العالم وحملة لواء الحضارة، وقادة الجهاد والمقاومة، والسياسة والقيادة، الذين اشرأبت إليهم الأعناق مهابة وإجلالا، وتقديرا وولاء، لم يرث مثله أحدٌ من بني جلدته، وأبناء وطنه في الآونة الأخيرة، فالجهاد الذي بدأه الشيخ شبير أحمد العثماني، ثم رفعَ لواءَه الشيخ ظفر أحمد العثماني، ورثَ ذلك منهما إرثا مباشرا، وورثَ القيادة والربانية، والإخلاص والزهد، من شيخه ومرشده، ومربّيه وموجّهه، وصانع حياته، المجاهد الأعظم مولانا شمس

الحق الفريدبوري، الذي انتهتْ إليه الزعامة في المعارف الدينية، والدعوة والإصلاح والتربية في بلده وفي عصره، وكان واسطة العقد وبيت القصيد من بين أساتذته وشيوخه، كما ورثَ السياسة الإسلامية، والسعي الدؤوب من أجل الدفاع عن الدين والوطن والشعب والأمة، من الشيخ الرباني العلامة محمد الله الحافظجي، وورثَ العلم والمعرفة، والدراسة والرسوخ، والفراسة والنباهة من هؤلاء الجميع، فكان جماع خير كله، وكان أغنى وارثٍ في تاريخ شبه القارة الهندية عبر القرون.

بعدما تفرّعت العلوم، وتشعّبت المعارف، وتوزّعت الحياة على جبهات ومعسكرات، ذا جيوش ورجالٍ، وتفرّد واختصاص، أصبح المجتمع البشري في دائرته، واقفٌ عند حدوده، لا يهمّه إلا [illegible] وتخصّص فيه، أو أخذه كميدان عمله وساحة جهاده، ومن هنا تلاشت الحياة الموسوعية، بانقطاع سلسلة الأعلام الموسوعيين والعباقرة المسلمين، الذين كانوا بمثابة دوائر المعارف، فيهم [illegible] والزهد والصلاح، والجهاد والمقاومة، والسياسة والقيادة، والتأليف والإنشاء، والكتابة والترجمة، [illegible] والتربية، [illegible] أمثال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية والإمام ولي الله الدهلوي وغيرهم على الصعيد العالم الإسلامي، والمجاهد الأعظم شمس الحق الفريدبوري وغيره على الصعيد الهندي، إلا أنهم كانوا أمة قد خلت. ثم أصاب المجتمع الإسلامي [illegible] وعقم، [illegible] وانقطعت تلك السلسلة [illegible]. ويعد الشيخ عزيز الحق كآخر حلقة [illegible] في وقته [illegible] في القرن الحاضر.

ومضات من حياته العلمية

وُلد عزيز الحق في محافظة [illegible] في أسرة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

تحديد عبقريته وتميزه بين أقرانه ومعاصريه

لعل القارئ لحياة الشيخ عزيز الحق للمرّة الأولى، والناظر في هذه الوقائع نظرةً عابرةً سريعةً يحتار ويضطرب، ويبحث عن مواطن العبقرية في هذه السطور، وقد يشكو ويتساءل أين العبقرية؟ وأين موطن ندرة هذا الإنسان؟ فقد درسَ في المدارس الدينية كما يدرس الملايين، وتخرّج من دار العلوم ديوبند وكثيرٌ ما هم الذين يتخرّجون منها في كل عام، ويتشعبون في كل مجال وفي كل مكان، إلا أن الدارس لحياة هذا الإنسان دراسةً عميقة قريبةً، والقارئ لصفحات حياته قراءةً فاحصةً مخلصة يرى العبقرية في كل سطرٍ، وفي كلّ فقرةٍ تتحدّث عن هذا الإنسان، وتُحير العقول من شدّة ندرته، وقلّة وجوده في التاريخ المعاصر، وقد لا يسمحنا المقام بالإسهاب والتوسّع في سيرته الكبيرة، بل سننتقي منها صورا، ليس فيها من التفاصيل بقدر ما فيها من إبراز مواطن عبقرية هذا الإنسان، ومواضع العبر والاستبصار.

لقد طلعتْ سعادة هذا الإنسان منذ فترةٍ مبكّرة من حياته، واستمرّت معه طوال معظم عهده بالدنيا، وهي سعادةٌ قد لا ينتبه لها كثير من الناس، ولا يستفيدون منها، ولا يقدرون لها قدرا، ولا يعرفون قيمتها، بينما كانتْ هذه السعادة صانعة حياته، وراسمة مستقبله، وركائز هذه العبقرية، وهي سعادة اللقاء بالسعداء، والنشوء تحت ظلال الدوحات الباسقة، والتربية على الأيادي القويّة المباركة، أخذ العلم والمعرفة والربانية والعرفان في ذات الوقت من زمرة مختارة من العلماء الأفذاذ، كانوا لباب البشر في عصرهم، وخلاصة العالم الإنساني، وزعماء الفكر والدعوة والإصلاح والجهاد في وقتهم، وكانوا أساتذة الأستاذين، وشيوخ المشايخ، وقليلٌ ما تكتب مثل هذه السعادات كلها لإنسان واحد، وكان ذلك الإنسان السعيد هو الشيخ عزيز الحق.

تحت ظلال الدوحة الكبرى: العلامة الفريدبوري

تبدأ النواة الأولى من تحصيل عزيز الحق وتكوينه العلمي والثقافي بدخوله في الجامعة اليونسية، التي أسلمه إليها والده وهو ابن سبع سنين، والتي كانتْ آنذاك، ولا تزال من طليعة المدارس العربية الإسلامية في الدولة، وكانتْ في بداية عهدها، وعزّها وعنفوانها، وتفتخر بزمرة مختارةٍ من العلماء الأعلام، أمثال المجاهد الأعظم مولانا شمس الحق الفريدبوري، والشيخ مولانا محمد الله الحافظجي، والشيخ العلامة عبد الوهاب البيرجي، والشيخ المفسّر مولانا سراج الإسلام وغيرهم، لكن والده الشيخ الحاج إرشاد علي، فوّض أمرَ ابنه إلى مولانا الفريدبوري، وهنا انفتح باب السماء، وباب القلوب والبصائر، ونزلت السعادة، واهتزّت موات الأرض بالحياة.

الحق الفريدبوري، الذي انتهتْ إليه الزعامة في المعارف الدينية، والدعوة والإصلاح والتربية في بلده وفي عصره، وكان واسطة العقد وبيت القصيد من بين أساتذته وشيوخه، كما ورثَ السياسة الإسلامية، والسعي الدؤوب من أجل الدفاع عن الدين والوطن والشعب والأمة، من الشيخ الرباني العلامة محمد الله الحافظجي، وورثَ العلم والمعرفة، والدراسة والرسوخ، والفراسة والنباهة من هؤلاء الجميع، فكان جماع خير كله، وكان أغنى وارثٍ في تاريخ شبه القارة الهندية عبر القرون.

بعدما تفرّعت العلوم، وتشعّبت المعارف، وتوزّعت الحياة على جبهات ومعسكرات، لها جيوش ورجالٌ، وتفرّد واختصاص، أصبح المجتمع البشري في دائرته، واقفا عند حدوده، لا يهمّه إلا الذي درسه وتخصّص فيه، أو أخذه كميدان عمله وساحة جهاده، ومن هنا تلاشت الحياة الموسوعية، وانقطعت سلسلة الأعلام الموسوعيين والعباقرة المسلمين، الذين كانوا بمثابة دوائر المعارف، فيها العلم والمعرفة، والزهد والصلاح، والجهاد والمقاومة، والسياسة والقيادة، والتأليف والإنشاء، والكتابة والترجمة، والمدرسة والزاوية، والدين والدنيا، أمثال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية والإمام ولي الله الدهلوي وغيرهما على صعيد العالم الإسلامي، والمجاهد الأعظم شمس الحق الفريدبوري وغيره على صعيد هذه الدولة، إلا أنهم كانوا أمّة قد خلتْ، ثم أصابَ المجتمع الإسلامي سقم وعقم، فضعفَت وخارَت، وقلّ إنتاجها، وتقطّعت تلك السلسلة الذهبية، ولعل الشيخ عزيز الحق كان حبّة أخيرة لها في وطنه، ومسقط رأسه، في القرن الماضي.

ومضات من حياته العلمية

وُلد عزيز الحق في محافظة «منشي غنج» عام ١٩١٩م، في أسرة مسلمة غنية، واسعة النفوذ، وذات جاه ومكانة، وشرف وثروة، وفقدَ أمّه في طفولته، فنشأ في حضن جدّته من الأم، إلا أنه بفضل ثروة أبيه وتجارته الواسعة نشأ مرفّها مدلّلا، أنيق الثياب، وعطر الأردان، وكان أبوه يحب العلم ويغشى مجالس العلماء، فأراد أن يكون ابنه عالما، وألحقه في كتاب قريته، حتى تعلّم القرآن الكريم وهو ابن خمس سنين، ثم دخلَ في الجامعة اليونسية، ودرسَ فيها فترةً، وبعد ذلك دخلَ في المدرسة الحسينية أشرف العلوم «براكاترا» بداكا العاصمة، ودرسَ فيها سنين حتى تخرّج في مرحلة التكميل، ثم سافرَ إلى الهند، والتحق بالجامعة الإسلامية تعليم الدين بـ«دابيل»، ودرسَ فيها مرحلة التكميل مرّة أخرى، وهنا دخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وتخصّص في تفسير القرآن الكريم، وانتهتْ مراحل التحصيل، وعادَ الشيخ إلى وطنه.

تحديد عبقريته وتميزه بين أقرانه ومعاصريه

لعل القارئ لحياة الشيخ عزيز الحق للمرّة الأولى، والناظر في هذه الوقائع نظرةً عابرةً سريعةً يحتار ويضطرب، ويبحث عن مواطن العبقرية في هذه السطور، وقد يشكو ويتساءل أين العبقرية؟ وأين موطن ندرة هذا الإنسان؟ فقد درسَ في المدارس الدينية كما يدرس الملايين، وتخرّج من دار العلوم ديوبند وكثيرٌ ما هم الذين يتخرّجون منها في كل عام، ويتشعبون في كل مجال وفي كل مكان، إلا أن الدارس لحياة هذا الإنسان دراسةً عميقة قريبةً، والقارئ لصفحات حياته قراءةً فاحصةً مخلصة يرى العبقرية في كل سطرٍ، وفي كلّ فقرةٍ تتحدّث عن هذا الإنسان، وتُحير العقول من شدّة ندرته، وقلّة وجوده في التاريخ المعاصر، وقد لا يسمحنا المقام بالإسهاب والتوسّع في سيرته الكبيرة، بل سننتقي منها صورا، ليس فيها من التفاصيل بقدر ما فيها من إبراز مواطن عبقرية هذا الإنسان، ومواضع العبر والاستبصار.

لقد طلعتْ سعادة هذا الإنسان منذ فترةٍ مبكّرة من حياته، واستمرّت معه طوال معظم عهده بالدنيا، وهي سعادةٌ قد لا ينتبه لها كثير من الناس، ولا يستفيدون منها، ولا يقدرون لها قدرا، ولا يعرفون قيمتها، بينما كانتْ هذه السعادة صانعة حياته، وراسمة مستقبله، وركائز هذه العبقرية، وهي سعادة اللقاء بالسعداء، والنشوء تحت ظلال الدوحات الباسقة، والتربية على الأيادي القويّة المباركة، وأخذ العلم والمعرفة والربانية والعرفان في ذات الوقت من زمرة مختارة من العلماء الأفذاذ، كانوا لباب البشر في عصرهم، وخلاصة العالم الإنساني، وزعماء الفكر والدعوة والإصلاح والجهاد في وقتهم، وكانوا أساتذة الأستاذين، وشيوخ المشايخ، وقليلٌ ما تكتب مثل هذه السعادات كلها لإنسان واحد، وكان ذلك الإنسان السعيد هو الشيخ عزيز الحق.

تحت ظلال الدوحة الكبرى: العلامة الفريدبوري

تبدأ النواة الأولى من تحصيل عزيز الحق وتكوينه العلمي والثقافي بدخوله في الجامعة اليونسية، التي أسلمه إليها والده وهو ابن سبع سنين، والتي كانتْ آنذاك، ولا تزال من طليعة المدارس العربية الإسلامية في الدولة، وكانتْ في بداية عهدها، وعزّها وعنفوانها، وتفتخر بزمرةٍ مختارةٍ من العلماء الأعلام، أمثال المجاهد الأعظم مولانا شمس الحق الفريدبوري، والشيخ مولانا محمد الله الحافظجي، والشيخ العلامة عبد الوهاب البيرجي، والشيخ المفسّر مولانا سراج الإسلام وغيرهم، لكن والده الشيخ الحاج إرشاد علي، فوّض أمرَ ابنه إلى مولانا الفريدبوري، وهنا انفتح باب السماء، وباب القلوب والبصائر، ونزلت السعادة، واهتزّت موات الأرض بالحياة.

منذ ذلك اليوم الذي سلّمه أبوه إلى مولانا الفريدبوري، ظلّ ينشأ تحت ظلاله، ويتربى على يده، ويمشي في ركابه، ويقوم ويجلس بإشارة عينه، ويعيش أطوع له من بنانه، طوالَ الحياة، فمولانا الفريدبوري هو الذي صنعَ حياتَه، وكوّن شخصيته، ورسم خريطته، وحدّد مصيره، وبنى مستقبله، ومنحه من علمه ومعرفته، وفيضه وعرفانه، وحبّه وإخلاصه، مالم يمنح أحدا من العالمين، حتى قال في تلميذه البارّ: "لو سألني الله ﷻ يوم القيامة ماذا فعلتَه في الدنيا؟ وماذا أتيتَ به للآخرة؟ لتقدمت بعزيز الحق وهدايت الله إلى ربي، وقلتُ هذا الذي أعددتُه لهذا اليوم"![1]

من هنا لما فتح الله ﷻ عليه أبواب العلم والمعارف، ورفعَ شأنه، وبارك فيه، وجعله من العلماء العاملين، قابل الشيخ عزيز الحق شيخَه وأستاذه بالمثل، وأصبح له قرّة العين، وكافأه بالشكر والتقدير، والاعتراف والامتنان، والانقياد والاستسلام، والخضوع والتواضع، والتكريم والاحترام، ما يدهش العقول، ويحيّر القلوب، حتى ظلّ يشكره، ويكرّر اسمه، ويسير على منهجه، ويعمل على تحقيق أحلامه، ويدعو له، ويبكي على ذكرياته، إلى آخر عهده بالدنيا، وفي أيامه الأخيرة سافرَ مرّة إلى الجامعة الإسلامية دار العلوم خادم الإسلام بـ«جوهردانغا»، بمناسبة المؤتمر السنوي، المدرسة التي بناها شيخه ومرشده مولانا الفريدبوري، ثم دُفن في ساحتها، يقول المفتي واجد علي، وهو أحد طلابه المقربين وشاهد القصّة وراويها: "أصابنا إرهاق شديد من السفر الطويل، والزحمة في الطريق، فلما وصلنا إلى المدرسة، طلبنا من الشيخ أن يأخذ الراحة، لكنه انفعل غاضبا، وقال زاجرا : "أتريدون مني ألا أكون مؤدبا مع شيخي وأقوم بواجبي؟ حضرتُ عند مرشدي، فكيف آخذ الراحة قبل أن أزوره وأسلّم عليه تسليما"؟ ثم نهَضَ بإجهاد نفسه، منهوك القوى من وعثاء السفر، وعناء الشيخوخة، وكان حينئذ لا يقدر على المشي، فيستخدم العربة، لكننا فوجئنا بالواقع، إذ رأينا الشيخ قد نهض من العربة، وخلع نعليه، وخرج بين صاحبيه تخطّ رجلاه الأرض، وتقدّم بخطى بطيئة إلى قبر مرشده، وألقى عليه السلام، وظلّ يناجي ربّه ويتضرّع إليه، ويدعو لشيخه، وعيناه تذرفان من الدموع، وبعد وقت طويل رجع إلى الغرفة، وأخذ الراحة، وقد شاهدنا تاريخا غريبا في الصلة بين الطالب وشيخه، والتلميذ وأستاذه"![2]

---

(١) انظر للتفصيل مجلة الرسالة الرحمانية، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م، ص١٢، ٦١ وما بعدها

(٢) المرجع السابق، مقال المفتي واجد علي، ص١٣٩

يأخذ العلم من شيخه

بقي العلامة شمس الحق الفريدبوري فترةً قصيرةً في الجامعة اليونسية، ثم سافرَ إلى «خولنا»، وبعد ذلك حضرَ في العاصمة وأسس الجامعة الحسينية "أشرف العلوم «براكاترا»، فجاءَ معه تلميذه عزيز الحق، ودخلَ في مدرسته. وظلّ فيها سنوات طوالا يدرس على الأساتذة الكبار في ذلك الوقت، على رأسهم شيخه ومرشده العلامة الفريدبوري، والشيخ مولانا ظفر أحمد العثماني، المحدث الكبير وصاحب «إعلاء السنن»، وكان حينئذ يعيش في باكستان الشرقية، ويقوم بدور بليغ في السياسة والقيادة، ويتولّى التدريس في الجامعة ذاتها، وفي المدرسة العالية، ويدرّس في مدرسة أشرف العلوم «براكاترا»، فدرسَ عنده البيضاوي، والترمذي، والبخاري. كما درس عند الشيخ الأديب مولانا محمد طه الحافظجي، والمحدّث الكبير الشيخ مولانا رفيق أحمد الكشميري، والشيخ مولانا عبد الوهاب الپيرجي، حتى تخرجَ في مرحلة التكميل.[1]

أثناء الدراسة في مدرسة أشرف العلوم طالعَ عزيز الحق الكتاب الخالد «فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم» للشيخ شبير أحمد العثماني، واشتاقَ إليه، وأرادَ أن يدرس عنده البخاري مرّة ثانية، فسافرَ إلى الهند عام ١٩٤٢م، ودخل في الجامعة الإسلامية بدابيل، وقرأَ على الشيخ البخاري من أوله إلى آخره قراءة تدبّر وإتقان، وحقّق حلمه، وقد تحقّق هنا شيء آخر، وحصلَ أمرٌ تاريخيّ لعل الشيخ لم يحلم به قط، ولم يخطر ببالِه أن يحدث مثله في هذه المرحلة من حياته، سنتحدّث عنه بعد قليل في مكانه.

الحديث النبوي: شغفه ونشره

أقبل الشيخ على حب الحديث النبوي منذ صغره، فكان علم الحديث هو العلم الأثير عنده، وكان الاشتغال به دراسةً وقراءةً، وتعلما وتعليما، وتأليفا وكتابة من صميم فطرته، وكان الصحيح للإمام البخاري أحبّ كتاب إليه بعد كتاب الله، فقضى معه حياته كلّها، وعاش في صفحاته، وبحث عن كنوزه وثروته، ثم قدّمها إلى جيله، وقد ظلّ طول حياته يدرّس الحديث النبوي تتقاطر عليه العلماء والطلاب، آلاف سنويًّا، حتى أعدّ جيلا كاملا، وأخرجت نبلاء فضلاء في الحديث النبوي في دولته، وعُرِف بالشيخ الحديث، و«البخاري البنغالي»، و«خليفة الإمام البخاري وأمينه» في هذه المنطقة، ولا غرو فهذا

---

(١) الشيخ العلامة مولانا عزيز الحق: جوانب من حياته ونشاطاته، مقال مولانا محمد ...، مجلة الكوثر الشهرية، ديسمبر ٢٠١٢م

الحبّ والشغف بالحديث النبويّ، وبالتالي بالبخاري، هو الذي جاءَ به إلى الهند، وأدخله في مدرسة «دابيل»، وأجلسه أمام الشيخ شبير أحمد العثماني، وقد مكثَ شهرا قبل وصوله إلى «دابيل» في مظاهر العلوم بـ«سهارنبور» عند الشيخ مولانا أسعد الله، خليفة الشيخ أشرف علي التهانوي، ودرسَ عليه «الأحاديث المسلسلات»، ونالَ منه الإجازةَ،[1] فهل بعد ذلك من عجبٍ أن يطلع نجمه في عالم الحديث، ويلعب دورا بليغا في تاريخ الحديث النبويّ وعلومه في شبه القارة الهندية، حتى أصبح تنتهي إليه رئاسة تدريس الحديث الشريف في هذه الدولة، لعلوّ سنده وغزارة علمه، وسعة اطلاعه على كتب السنة، فيكتب الله له الخلود، ويكون عبقريا فذّا في الحديث النبوي، وأوثق مرجع لكلام رسول الله ﷺ في طول الهند وعرضها.

قصة كتابه «جود الباري في حل البخاري»

بينما كان عزيز الحق يدرس البخاري عند الشيخ شبير أحمد العثماني، وما أدراك من هو العثماني في عالم الحديث، إنه عبقريّ حيّ ونابغة عصره، فكان عزيز الحق يسجّل محاضرته، ويكتبه بالقلم في دفاتره، قلم لا يكلّ ولا يملّ، ولا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا يحصيها، وقد تطول المحاضرة طوال ثلاث أو أربع ساعات، لكن يد الشيخ لا تفتر ولا تتعب، ولم يكن ثمة مسجّل في ذلك العصر، فكانت الذاكرة القويّة والعقل النبيه واليد العاملة النشيطة عونا للشيخ على هذه المهمّة العويصة، حتى انتهت الرحلة، وبلغ الشيخ غايتَه، وتم إعداد مسودة تزيد على ١٨٠٠ صفحةً، وسماها «جود الباري في حل البخاري»، فقدّمها إلى الشيخ العثماني، فأعجب بها إعجابا كبيرا، وأمرَ الشيخ بأن يصاحبه إلى بيته بجوار دار العلوم ديوبند، ليعيد النظر في المسودة، ويتناولها بالحذف والإضافة التي لا بدّ منها، فذهبَ الشيخ عزيز الحق مع أستاذه إلى ديوبند، ووجدَ فرصةً للدخول في جامعتها، والتحق بقسم القرآن وتخصّص في التفسير تحت إشراف المفسّر الكبير العلامة محمد إدريس الكاندهلوي، صاحب التفسير الخالد لكتاب الله «تفسير معارف القرآن»، كما جلسَ في دروس الشيخ حسين أحمد المدني، واستفادَ من علومه وفيوضه.

عادَ الشيخ عزيز الحق إلى مسقط رأسه، وبقيت مسودته لشرح البخاري عند أستاذه الأثير الشيخ العثماني، وكان ذلك السنة الأخيرة التي درّس فيها العثماني الحديث النبوي، ثم خاض غمار السياسة،

[1] تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥ - ١٤٣٦) ص٢١٧

وأصبح قائدا من أعظم قوّاد شعبه، وحَبْر قلوب ملايين الناس في دينهم ودنياهم. وقامت حركة باكستان على قدم وساق، حتى نجحت القضية المنشودة، وانفصلت باكستان عن الهند. هاجر الشيخ العثماني إلى الدولة الجديدة التي كرّس جهده لإقامتها، وتفضّل وسعى من أجلها، ثم بذل جهوده في جبهة جديدة، [illegible] نشطة وحركة فعالة متحرّكين متيقّظين خائفين من «الرابطة المسلمة»، [illegible] عهودهم، وخانوا الشعب، كما خانوا العلماء الذين [illegible] ودعواتهم، [illegible] في سبيل إنشاء باكستان، وتعرضوا لأنواع المحن، [illegible] ما كانت هناك باكستان، ولم تكن ثمة بنغلاديش، واستمرّ في جهوده ضد الخائنين، ومن أجل تطبيق النظام الإسلامي في باكستان حتى وفاه الأجل المحتوم، ولم يجد فرصة لإعادة النظر في تلك المسودة، وهكذا ضاعت جهود سنوات تحت [illegible] والنسيان. والشيخ عزيز الحق [illegible] عن تلك المسودة، إلا أن قضاء الله كان مفعولا، فاكتشفها عالم باكستاني ونشر جزء منها باسم «فضل الباري» في مجلدين، ثم توفي قبل نشر [illegible]، حتى جاءت تلك المسودة إلى صاحبها من باكستان إلى بنغلاديش، بعد مناقشات ومفاوضات، وجهود جبارة، [illegible]، وأخذت [illegible] فلا تأمنه، وتنشر من بنغلاديش [illegible]، [illegible] مشروحا، ونال قبولا وقيلا من العلماء والفضلاء، وقد أشاد بهذا الجهد [illegible] العلماء والأئمة في عبارات قوية، وأثنوا عليه ثناء [illegible]، [illegible] رسوخ الشيخ [illegible].

ستون عاما مع صحيح البخاري

في عام [illegible] عاد الشيخ إلى وطنه، وتولى التدريس في مدرسة [illegible] [illegible]، [illegible] فيها [illegible] سنوات، [illegible] الحديث والتفسير [illegible] ثم [illegible] الشيخ [illegible] جامعة [illegible] [illegible] معه الشيخ عزيز الحق، [illegible] فيها. [illegible] صحيح البخاري [illegible] عام [illegible] [illegible] وفاته. [illegible] [illegible]، [illegible] في [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible].

[illegible]

الحبّ والشغف بالحديث النبويّ، وبالتالي بالبخاري، هو الذي جاءَ به إلى الهند، وأدخله في مدرسة «دابيل»، وأجلسه أمام الشيخ شبير أحمد العثماني، وقد مكثَ شهرا قبل وصوله إلى «دابيل» في مظاهر العلوم بـ«سهارنبور» عند الشيخ مولانا أسعد الله، خليفة الشيخ أشرف علي التهانوي، ودرسَ عليه «الأحاديث المسلسلات»، ونالَ منه الإجازةَ،[1] فهل بعد ذلك من عجبٍ أن يطلع نجمه في عالم الحديث، ويلعب دورا بليغا في تاريخ الحديث النبويّ وعلومه في شبه القارة الهندية، حتى أصبح تنتهي إليه رئاسة تدريس الحديث الشريف في هذه الدولة، لعلوّ سنده وغزارة علمه، وسعة اطلاعه على كتب السنة، فيكتب الله له الخلود، ويكون عبقريا فذّا في الحديث النبوي، وأوثق مرجع لكلام رسول الله ﷺ في طول الهند وعرضها.

قصة كتابه «جود الباري في حل البخاري»

بينما كان عزيز الحق يدرس البخاري عند الشيخ شبير أحمد العثماني، وما أدراك من هو العثماني في عالم الحديث، إنه عبقريّ حيّ ونابغة عصره، فكان عزيز الحق يسجّل محاضرته، ويكتبه بالقلم في دفاتره، قلم لا يكلّ ولا يفلّ، ولا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا يحصيها، وقد تطول المحاضرة طوال ثلاث أو أربع ساعات، لكن يد الشيخ لا تفتر ولا تتعب، ولم يكن ثمة مسجّل في ذلك العصر، فكانت الذاكرة القويّة والعقل النبيه واليد العاملة النشيطة عونا للشيخ على هذه المهمّة العويصة، حتى انتهت الرحلة، وبلغ الشيخ غايتَه، وتم إعداد مسودة تزيد على ١٨٠٠ صفحةً، وسماها «جود الباري في حل البخاري»، فقدّمها إلى الشيخ العثماني، فأعجب بها إعجابا كبيرا، وأمرَ الشيخ بأن يصاحبه إلى بيته بجوار دار العلوم ديوبند، ليعيد النظر في المسودة، ويتناولها بالحذف والإضافة التي لا بدّ منها، فذهبَ الشيخ عزيز الحق مع أستاذه إلى ديوبند، ووجدَ فرصةً للدخول في جامعتها، والتحق بقسم القرآن وتخصّص في التفسير تحت إشراف المفسّر الكبير العلامة محمد إدريس الكاندهلوي، صاحب التفسير الخالد لكتاب الله «تفسير معارف القرآن»، كما جلسَ في دروس الشيخ حسين أحمد المدني، واستفادَ من علومه وفيوضه.

عادَ الشيخ عزيز الحق إلى مسقط رأسه، وبقيت مسودته لشرح البخاري عند أستاذه الأثير الشيخ العثماني، وكان ذلك السنة الأخيرة التي درّس فيها العثماني الحديث النبوي، ثم خاض غمار السياسة،

(١) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦) ص٢١٧

وأصبح قائدا من أعظم قوّاد الدنيا، وخير قدوة لملايين الناس في دينهم ودنياهم، وقامتْ حركة باكستان على قدم وساق، حتى نسي قضية المسودة، ولما انفصلتْ باكستان عن الهند، هاجرَ الشيخ العثماني إلى الدولة الجديدة التي كم جاهدَ واجتهدَ، ونهضَ وسعى من أجلها، ثم بدأ جهادا في جبهة جديدة، ضدّ السلطة والحكام الطغاة المتجبّرين المستبدّين الخائنين من «الرابطة المسلمة»، الذين خالفوا عهودَهم، وخانوا الشعب، كما خانوا العلماء الذين عصروا دماءَهم ودموعَهم، وبذلوا كل ما كان لهم في سبيل إنشاء باكستان، وتعرضوا لأنواع المحن، ولولاهم لما كانتْ هناك باكستان، ولما كانتْ ثمة بنغلاديش! فاستمرّ في جهاده ضد الخائنين، ومن أجل تطبيق النظام الإسلامي في باكستان حتى وافاه الأجل المحتوم، ولم يجد فرصةً لإعادة النظر في تلك المسودة، وهكذا ضاعتْ جهود سنواتٍ تحت أطمار النسيان، والشيخ عزيز الحق قطعَ بدوره أملَه عن تلك المسودة، إلا أن قضاء الله كان مفعولا، فاكتشفها عالم باكستاني ونشرَ جزءا منها باسم «فضل الباري» في مجلدين، ثم توفّي قبل نشر المجلد الثالث، حتى جاءتْ تلك المسوّدة إلى صاحبها من باكستان إلى بنغلاديش، بعد مناقشات ومفاوضات، وجهودٍ جبارة، وأثمان باهظة، وأخوك البكري فلا تأمنه، وانتشرَ من بنغلاديش المجلد الثالث، وبهذا اكتمل المشروع، ونالَ قبولا وإقبالا من العلماء والفضلاء، وقد أشاد بهذه الخدمة العظيمة كبار العلماء والأئمة في عبارات قويّة، وأثنوا عليها ثناء بالغا، وهم ليسوا ممن يكيل المدح جزافا، والثناء اعتسافا، وكان على رأسهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.[1]

ستون عاما مع صحيح البخاري

في عام ١٩٤٢م عادَ الشيخ إلى وطنه، وتولّى التدريس في مدرسة أشرف العلوم بأمر من شيخه مولانا الفريدبوري، وظلّ فيها ثماني سنوات، يدرّس الحديث والتفسير والعلوم الأخرى، ثم لما أسس الشيخ الفريدبوري الجامعة القرآنية بـ«لال باغ» وهاجرَ إليها، هاجرَ معه الشيخ عزيز الحق، واختيرَ مدرّسا فيها، وبدأ تدريس صحيح البخاري منذ عام ١٩٥٢م، وهنا برزتْ عبقريته، وفي غضون فترة وجيزة انتشر اسمه، وطبّقت شهرته الآفاق، واشتهر في الأوساط العلمية كمحدّث جليل، وهكذا الرحلة التي بدأتْ في غرة خمسينيات القرن الماضي، لم تتوقفْ للحظةٍ، بل ظلّت تستمرّ وتسير على دربها، وما

(١) انظر مقال محمد مأمون الحق، في مجلة الرسالة الرحمانية، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م، ص٧٦ و٧٧

زادت الأيام إلا سرعة ونشاطا، وجدّية وجدوى، وبركةً ونفعا، حتى اختلط الحديث بلحمه ودمه، وأصبح اسمه معلّقا على الجامع الصحيح للبخاري، بل انتهتْ إليه الإمامة والرئاسة في تدريس «الصحيح» في هذه الدولة، وأصبح أوثق مرجعٍ، وأفضل شارح له، ولقّب بـ«شيخ الحديث»، حتى كاد هذا اللقب أن يكون مترادفا باسمه، ومحجوزا في سجله، بل إنه يمثّل الطبقة الأولى من كبار المحدثين على المستوى العالمي.

تدفّق عليه طلاب الحديث من كل حدب وصوبٍ، وهبّت المدارس العربية الدينية تطلب منه أن يتولّى تدريس البخاري فيها، فدرّس البخاري في مدارس وجامعات كثيرة داخل العاصمة وخارجها، وفي عام ١٩٨٨م أسس الجامعة الرحمانية العربية التي أصبحتْ في غضون فترةٍ وجيزةٍ من طليعة الجامعات العربية الإسلامية في الدولة، ولا تزال تؤدي دورَها، وتتغنّى بمجد العلوم الشرعية، وتشهد على عبقرية هذا الإنسان، وظلّ يدرّس فيها البخاري إلى عام ٢٠١٠م مع تدريسها في المدارس العربية الكبرى في مناطق شتّى بداكا،[1] وهكذا درّس الشيخ الجامع الصحيح للإمام البخاري أكثر من ستين عاما، وخرج خلالها عددا هائلا من العلماء لا يمكن حصرهم، ودرّس ثلاثة أجيال متتابعة، فجاءَ الأب ودرسَ عند الشيخ، ثم جاء الابن ودرسَ، وأخيرا جاءَ الحفيد وأخذ من الشيخ نفسه، حتى قلما يوجد أحدٌ في هذه الدولة، وخصوصا في مدارس وجامعات العاصمة داكا، يروي الحديث النبويّ، وأحاديث البخاري بالتحديد، وهو لا يمرّ بالشيخ عزيز الحق في إسناده، وهكذا أصبح أستاذ الأساتذة، وشيخ المشايخ، ولقّب حقّا بـ«شيخ الحديث»، و«ترجمان البخاري» في دولة بنغلاديش.

عبقريته في ميدان التأليف

لو نظرنا في حياة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق لرأينا العجب العجاب، ورأينا مواهب جماعة برزتْ في شخصيته، ونوابغ أمّة كاملة التقتْ في هذا الإنسان، فكان معلما ومدرّسا، ومفسرا ومحدّثا، ومؤرخا ومؤلفا، وكاتبا ومحررا، وسياسيا وقائدا، ومؤسسا ومنسقا، ومفكرا ومرشدا، ومربيا وموجها، ومنشئ المؤسسات، ورئيس الحركات والأحزاب، ومرجع العلماء والقادة، والوزراء ورجال السياسية، إلا أن المقام لا يسمح لنا بأن نفصّل في هذه الجوانب كلها، ولذلك نخصّ بالذكر أبرز جوانب حياته، وميادين أعماله التي تجلّت فيها عبقريته ونبوغه أكثر من غيرها، وهي عبقريّته في التدريس والتربية التي

(١) انظر جريدة "شنغرام" (الكفاح) اليومية، الخميس، ٩ أغسطس، ٢٠١٢م

أسلفنا ذكرَها، وعبقريته في التأليف والكتابة، والسياسة والقيادة، ولقد قام وحده رغم اشتغاله بالدراسة والتدريس، وقيامه بالجامعات والمؤسسات، والأعمال الإنسانية والاجتماعية والسياسية والقيادية، بما لو قام به مجمع علمي كامل، لاستحقّ الشكر والتقدير.

برزتْ عبقريته الكتابية والتأليفية منذ فترة مبكّرة من حياته، ومنذ أيام دراسته وتحصيله، حتى قبل «فضل الباري»، وقد مرّت بنا قصّة إعداد «فضل الباري بشرح البخاري»، وهو طالبٌ في مرحلة التكميل بالجامعة الإسلامية «دابيل»، تحت إشراف الشيخ شبير أحمد العثماني، فقد بدأ قبله يكتب شرحا لجامع الترمذي وهو في مرحلة الفضيلة بمدرسة أشرف العلوم بداكا، قبل سفره إلى الهند، وقد كتب خمس مئة صفحة، لكنه لم يُكتب له أن يكتمل، فجاءَ السفر إلى الهند، وتفرّغ لإعداد شرح البخاري.

أول شارح للبخاري في البنغال وقصة شرحه

هكذا أنجز إنجازات قيّمة وهو في مقتبل عمره، وفي أول الطريق إلى النبوغ في حياته، لكن أبرز مآثره في عالم التأليف والكتابة، وأبعدها أثرا، وأكثرها جدوى، وأعمّها نفعا، هي ترجمته لصحيح البخاري وشرحه، إلى اللغة البنغالية، التي لم تكن عملا عظيما في حياته وحده، بل كانتْ قصّة فريدةً في تاريخ اللغة البنغالية بكاملها، ومرحلةً جديدة في الأدب البنغالي، ومفخرةً عظيمةً، وتحفةً ثمينةً للشعب البنغالي المسلم، وإضافة جليلةً إلى التراث الإسلامي في هذه الدولة، وقد ترجم الجامع الصحيح قبله وبعده عدد من العلماء، لكن الشيخ فاق الجميع بحجم عمله، ونصاعة أسلوبه، ورشاقة بيانه، وإذا قيس هذا العمل الجليل بالصعوبات التي واجهته من جميع المناحي، من عصر المؤلف وبيئته، والمذهب الفكري السائد فيه وتيار الشعب، تجلّت أهمية عمله التأليفي، وقيمته العلمية والتحقيقية.

جاءَ الكتاب في وقتٍ كان الشعب البنغالي المسلم في أمسّ حاجة إلى مثله، فقد كانت اللغة البنغالية إلى منتصف القرن العشرين الميلادي مفلسةً في العلوم الإسلامية، ونصوص الشريعة الأصيلة، وركائز الدين والإيمان، ولذلك باستثناء بعض الحركات والانتفاضات في ميدان الصحافة والإعلام، وقيام عدد معدودٍ من العلماء بتأليف بعض الكتب الدينية وترجمة بعضها، كانت اللغة البنغالية في أحطّ أدوار الإفلاس الديني، ولم يكن ثمّة تفسيرٌ مفصّل للقرآن الكريم باللغة البنغالية، ولم يترجم إليها شيءٌ من كتب الحديث ودواوين السنّة، سوى جزء يسير من كتاب مشكاة المصابيح، لكونه مقرّرا في مناهج المدارس الإسلامية، وهنا نهضَ المجاهد الأعظم الفريدبوري، وبدأ يكتب «التفسير الحقاني»، كما نهضَ علامتنا

شيخ الحديث، وبدأ يترجم صحيح البخاري ويشرح، لأوّل مرّة في تاريخ اللغة البنغالية.

لقد كانت الصعوبات باديةً ظاهرةً، وكانت المعاناة ماثلة أمام العين، وكانت الطريق محفوفةً بالأخطاء والعقبات، فإنها مع كون ضخامة الكتاب، وطول المسافة، وبعد الغاية، كانتْ ثمّة إشكاليات أخرى، فقد كانت الأوساط العلمية في ذلك العصر في معظم مناطق داكا ينطقون بالأردية، ولم تكن اللغة البنغالية تجد لها قرارا بعد فيها، ولم تكن تحلم بمستقبل زاهر باهر، ومن ثم لم تكن ثمّة مكتبةٌ أو دار للنشر لتصرف مبلغا ضخما في طبع هذا الكتاب الضخم الديني ونشره، ثم لم يكن ثمّة عمل آخر يستعين به، ويأخذ منه التجربة في مشواره، من أجل هذا وذاك، كان البدء في هذا العمل أشبه بالمجازفة والمخاطرة، إلا أن الإنسان الذي نشأ على المجازفات العلمية منذ صغره، كان أكبر من كل العقبات التي وُضعت في طريقه، وكان أقدر الناس على تحمل مثلها، وأملك الناس لزمامها، لذلك بعد أن شاورَ شيخه ومرشده العلامة الفريدبوري، وبعد أن جاءت الموافقة، عقل وتوكّل على الله، وبدأ المسيرة.

بدأ الشيخ رحلته العلمية التأليفية التي لم يكن يقدّر أنها ستطول إلى هذا الطول، وأنها ستكون من الالتواء والصعوبة بهذا المكان، فاستمرت هذه المسيرة العلمية الفريدة طوال ستة عشر عاما، ومضى الشيخ هذه المدّة المديدة يعتكفُ على صفحات البخاري، يبحث ويكتب، ويشرح ويترجم، ويعلّق ويفسر، حتى تم المشروع، وجاءَ الكتاب في حلة قشيبة وفي سبعة مجلدات، وبذلك برزت أول ترجمة بنغالية لصحيح البخاري في الوجود، بل جاءَ أوّل شرح موجز لهذا الكتاب، وذلك لأنه لم يكن هذا الكتاب ترجمة البخاري فحسب، بل كان شرحا وتعليقا، وتفسيرا وتبسيطا، وهذا هو موضع تميّزه عن غيره، وتفوّقه على كل ترجمة لحقته، وهذا هو مزيّة هذا الكتاب الذي لا يوجد في الترجمات الأخرى له باللغة البنغالية، فقد كان الشيخ يعرف أن الأحاديث النبوية تتناول أحيانا أشياء وقضايا يستصعب فهمُها على العوام، وتعلو معانيها كثيرا عن أفهام الناس، ولا بدّ حينئذ من الشرح والتفصيل، وحلّ لغز الكلمات والجمل، والمقارنة بين الأحاديث، وترجمة الأحاديث النبوية مع مراعاة الآيات القرآنية، ولذلك لم ير الشيخ أن يكتفي بالترجمة المجرّدة، بل زيّنه بالشرح والتوضيح، والتاريخ والسيرة، وذكر كثيرا من الأمور العقدية لأهل السنة والجماعة، دون الاختلافات الفقهية التي تمتلئ بها الترجمات الأردية، وردّ على الإشكاليات والاتهامات، وحسم كثيرا من الأمور الخلافية، وجمع الأحاديث المكرّرة في البخاري في موضع واحد، وبالجملة أن المؤلف قد صبّ في هذه الموسوعة مواهبه وسجاياه، فجاءَ قطعة من نفسه، ونسخة من روحه، متصلا بالأذهان، وملتحما بالعقول والأفئدة، وجاءَ فريدا في بابه، وخالدا في

التاريخ، لا نقدر على قراءته، فضلا عن نسخه، وفضلا عن تأليف مثله، ولا يزال يعدّ أهم مرجع للأحاديث النبوية، ويشهد على عبقرية هذا الإنسان، وفراسته الإيمانية، وبعد نظره، ومجازفته بالوقت والحياة، فكانتْ مجازفةً مباركة موفّقة، وكانت قصّة مغامرة كبرى، مادامت اللغة البنغالية، وما دام هناك أحدٌ ينطق بالبنغالية، سيظلّ هذا الكتاب منارة هدىً تهدي في الظلام، ومعالم واضحة ترشد في متاهات.(1)

عمل حديثي آخر: لو أكمل لكان عظيما

بعدَ أن تفرغ من الجهاد العظيم الذي امتدّ على بساطٍ طويلٍ من الزمن، قد يزيد على ستة عشر عاما، وبعد أن انتهى من هذا المشروع الكبير القيّم، وهذا العمل المضني، أخذ مشروعا جديدا، وعملا ثانيا، وكان ذلك المشروع هو جمع أحاديث ستة كتب مشهورة بين دفّتي كتاب واحد، فأخذ صحيح مسلم أساسا لعمله، وبدأ يجمع فيه أحاديث السنن الأربعة، سنن أبي داوود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، بالإضافة إلى مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، وهو منتشر في شبه القارة الهندية انتشارا هائلا، ومقرر في معظم المدارس الدينية، والجامعات العربية، فكان الشيخ يأخذ حديثا من مسلم، ثم يجمع إليه جميع الأحاديث المكرّرة أو المتقاربة في الموضوع، والشواهد والمتابعات من الكتب الخمسة، مع شرحها والتعليق عليها، إلا أنه مع الأسف لم يكتمل هذا المشروع، فلما انتهى الشيخ من جمع ١٥٠٠ حديث تقريبا، أصابه الوهن، ودهمته الشيخوخة، فتوقّف المشروع في منتصف الطريق، ولو تمّ ذاك لكان عملا فريدا في تاريخ السنّة النبوية، ويا ليتَ أحدا من ورثة الشيخ في علمه ومعرفته لا في دمه بالضرورة ينهض بهذا العمل المبارك، ويوصله إلى نقطة الكمال!

وقفات ومقتطفات من «ديوان العزيز»

كما أن الشيخ كان أديبا موهوبا، وبديعا، وبليغ البيان، وصاحب البراعة واللسان، ومتقنا للغات والآداب، وصاحب أسلوب أدبي رفيع، بعيد الإشارة، قريب العبارة، وأقرب إلى الفهم، وقد أتقن العربية إلى حدّ العجب، حتى كان العرب يندهشون منه ويعبرون عن عجبهم وإعجابهم، وكان خطيبا مفوّها، يبذّ الخطباء، مع أن أكثر أحاديثه كانت فيض الخاطر، وعفو الساعة، وكان معروفا بسلاسة الأسلوب

---

(1) انظر مقال الدكتور أ.ف.م. خالد حسين، في مجلة الرسالة الرحمانية، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م، ص٧٢ و٧٣

وجلاء الفكرة، وتوقد البصيرة، ووضوح الرؤية الإسلامية، وقد خلّف وراءه دويًا تتناقل أصداءه العصور، ومآثر وإنجازاتٍ في عالم الأدب العربي لا تزال تشهد على نبوغه، وحبّه وشغفه بالآداب، مع كونه رجلا علميا رصينا، ومولعا بالسنّة النبوية، إلا أننا لو نظرنا في حياة شيخ الحديث نظرةً عميقة لرأينا أن حبّه للحديث النبويّ، وشغفه بصاحبه عليه السلام، وشوقه وإعجابه بنبي الإسلام، الذي قد يصل إلى حدّ الهيام، هو الذي أدّى به إلى الآداب، والبلاغة والبيان، حتى نهضتْ فطرته، وجادتْ قريحته بأبيات العشق والمودّة، والحب والإخلاص، فنظم قصائد كثيرة، نادرة المثال، في مواطن مختلفة، معظمها في صفات النبي ﷺ، وإظهار الحبّ له، والتفاني في سبيل عشقه، وقد جمعت هذه القصائد بين دفتي كتاب مع قصائد أخرى، يحمل اسم "ديوان العزيز".

وإلى القارئ أمثلة على بعض الأبيات من ديوان العزيز:

قِفا نَحْظَ من ذكرى حبيب ومنزل ... سقتْه السواري والغوادي بسَلْسَل
ومـــهلا على تذكـــار آثـار طيِّـبة ... مـدينة محبـوب كـريـم مفـضَّل
بها قبّة خضراء في رونـق الضُّحى ... تلألأ نـورا فـوق بـدر مـكـمـل[1]
فـهذا رسـول الله يـأتـي بـشـــفقـة ... عـــلى مـن يجـور مـن عدو وقاتـل
ويـدعو لـهم بالخير حبـــا ورحمة ... يسـكن غـضـب الله حـين الـــتنزل
معيـن لخـلق الله في كـل غـــمة ... شفيـع العـصاة في شـــديد الـمآزل
وساقي عطاش الناس في يوم محشر ... من الحوض أحلى من حليب مـعسل
شرابا طهورا من يصب منه جرعـة ... يجـد ريـــة تبـــقى ولـم تـتزيل[2]

(١) ديوان العزيز، ص٤٦-٤٧

(٢) المرجع السابق، ص٥٧

منعت عـيوني عن دمـوع مـكررا ... وراودتـها عـن رنـة كي تصـــبرا
وجرعت نفسي حزنها وغمومها ... وألهيتـهـا عنـهـا لئـلا تـفـكـــرا
ولكن دموعـي كـالسيول تدفقت ... فصـــارت عـيوني كالعيون تفجرا
وليس لها حب الحســـان وودهـا ... فمـن بعـدها آسـى وأبكي تحسرا
ولكن بي حب الـمدينـة طيبة ... فمن بعـــدها آسى وأبـكي تذكرا
تذكـرت آثـار الـمدينـــة طيـبة ... فصـارت فؤادي نحوها قد تطيرا
مدينة محـبوب حياة لمؤمـن ... ليـأرز إيمـان إليـها مســـخـرا
يفوح بهـــا ريا الـحبيب كـأنها ... نسيم الصبا جاءت عبيرا معطرا[1]

لكن هناك أمورٌ أشكلت على بعض القارئ للديوان، وأزّمت الموضوع، فقد جاءتْ في ثنايا القصائد أبياتٌ توحي إلى التوسّل بالنبي عليه السلام، وطلب المغفرة منه، كما تحتوي على فيضٍ من الألقاب والكنى الجليلة، والاصطلاحات الدقيقة الغامضة التي قد توهم أن النبي ﷺ يقضي الحوائج، ويلبّي بدعوة الداعي، وأنه يغيث ويلجئ، ويغفر وينجي، وقد أحدث ذلك ضجّة كبيرة بين الأوساط الدينية، وتكلم فيها العلماء، ومن تلك الأبيات:

ســـلام من عـــزيز الحـق عبد ... أتـاك بـالـأمـــاني غـــير عـــد
أتـاك خائـفـا ذنبـــا ذنـــوبا ... ليرجـو مـــن نـــوال مستفاد

(١) مرجع سابق، ص٦٩-٧٠

نوالــك يا رســول الله يــغني … فـإنـك فــائق كـل الـجواد

رجـائـي مـن نـوالـك غير فان … كمثــل صــلاة ربـي في مزيد[1]

أتــيتك مولائــي بلطفك راجيا … ولــن يحـرم الراجي بباب محمد

وباب مـحمد ماحي الـذنـوب … ولــو كانـت تعـادلها الـبحور

غـرقت ببحر الذنب مـالي عصمة … فخذ بيدي أنت الكريم فخذ يدي

أتيتُك تائــبا مــن كــل ذنب … رجـــاء للـــشفاعة هــل تجير[2]

وهذا يرجع إلى أسباب، منها شغفه بسيرته ﷺ منذ الطفولة، وشدّة الولع بالقراءة والسماع لسيرته العطرة، والرغبة العارمة في الحبّ للنبي ﷺ، وهذا الذي دفع الشاعر بفعل قوّة العاطفة وسلاسة اللغة إلى أن يأتي ببعض الكلمات الغامضة التي قد تلمّح إلى الإشكالية، ولولا الثقة بالشاعر، والعلم اليقين بإيمانه وعقيدته، ومنهجه، وعلمه وفضله، ومكانته بين علماء السنة، وتمكّنه من الحديث النبوي، لكان مأساة! كما يعود جزء منه إلى الخلاف الفقهي بين التيارين، فيرى علماء ديوبند أن التوسّل بالأنبياء ﷺ يجوز، وطلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد وفاته لا يضرّ بالإيمان! بينما يرى علماء أهل الحديث أنه شركٌ ومحرّم، يجب الابتعاد عنه، على هذا وذاك، جاءَ الكتاب يشمل هذه الاعتراضات التي سمّاها البعض بـ"الشرك الجلي"، ثم جاءت الردود عليها والدفاع عن الشيخ من كبار العلماء البارزين في الدولة، ولا يسعنا المقام أن نفصّل فيها.[3]

بالإضافة إلى هذه الأعمال الضخمة الجليلة الثقيلة، ترك الشيخ الأعمال الكتابية الأخرى، ومنها

(١) المرجع السابق، ٨١

(٢) المرجع السابق، ص٨٤

(٣) انظر هذه الاعتراضات والردود عليها بقلم مولانا نعيم الحق بن محمود الحق، وبمراجعة الشيخ عبد المالك، في ديوان العزيز، ص٢٧ و٣٥، وانظر كذلك كتابين جليلين في هذا الموضوع: المهند على المفند للشيخ خليل أحمد السهارنبوري رحمه الله، وعلماء ديوبند: اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي للشيخ القارئ محمد طيب رحمه الله.

... فضح ضلال القاديانية ◊ الرأسمالية والاشتراكية والإسلام ◊ ترجمة «المناجات المقبولة» لمولانا التهانوي، ... البنغالية مع الأدعية المأثورة ◊ وترجمة «المثنوي» للشيخ جلال الدين الرومي مع الشرح والتعليق.[1]

ترجمته لـ«المثنوي» وقفات مع العقل والروح

هنا قد يتعجّب القارئ ويُعبّر عن دهشته بأن الإنسان الذي بلغَ هذه القمّة في العلوم والمعارف ... ربانية، واحتل هذه المنزلة الرفيعة في السنّة النبوية، ونذرَ حياتَه على تدريس الأحاديث والآثار، وقضى ... معظم أيامه ولياليه عاكفا على صحيح البخاري، ومثابرا على الدراسة والتحصيل، مدرسا ومترجما، ... باحثا ومحقّقا، كيفَ جمع إلى هذه كلها كتاب المثنوي، وتحمّل عناء ترجمته وتفسيره بالبنغالية؟ ثم قدّمه ... لمسلمي هذه الدولة الذين هم أحوج إلى السنّة النبويّة وكتب السلف والأئمة المتقدّمين من حاجتهم ... «المثنوي».

هنا تحدث الإشكالية، ويأتي– مثل الذي سبقَ في الديوان– الصراع الدائم القائم بين التيّارين في ... مجتمع المسلم على الصعيد العالمي، وهو التيار السلفيّ في جانب، والتيار الديوبنديّ والصوفي أو غير ... سلفيّ في جانب آخر، وهنا يتوزّع المسلمون على معسكرَين متصارعين، كلّ منهما يهدّد بالآخر، ... ويتربّص البعض بالبعض الدوائر، ويتراشق بالتهم والانتقادات، إلا أن نزاعهما نزاع فكري، ميدانه ... المساجد، وحلقات الدرس، والكتب والصحف، والمجلات والمؤلفات، وسلاحهما الحجج والبراهين، ... يرى المعسكر الأوّل أن المثنوي كتابُ البدع والخرافات، وقد يزيد البعض ويوصله إلى درجة الشرك ... والإلحاد، بينما يرى المعسكر الثاني أنه من أفضل الكتب بعد كتاب الله وسنّة رسوله، وأنه من تلك ... الأعمال العظيمة الخالدة في التاريخ التي عجزت العقول عن خلقها مرّة أخرى، وأنه ممتلئ بالمعارف ... الربانية، والرشد السماوي، والفيوض الروحية، واللطائف النفسية، والإحسان والعرفان، فيكفّر بعضهم ... بعضا، ويستحلّ الواحد دماء الآخر، على حين لم تكن الأمة المسلمة بحاجة إلى ذلك، على أساس ... الخلاف المجرّد في المواقف، والتباين في الآراء، والنظر في العقل والروح، وكان من الممكن لكلا الفريقين ... أن يأتي بالحلّ الأفضل من هذا كله، فهو كتاب بشري، وليس وحيا منزلا من السماء، وإن الإنسان ... بالجسد والروح، وإن الجسد لا يقوم بلا روح، كما أن الروح لا تكون إلا في الجسد!

[1] ذكرى شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، مقال عريف الرحمن جسيم، جريدة "بنغلاديش كل يوم" اليومية، السبت، ٨ أغسطس، ٢٠١٥م

عبقريته في السياسة ونبوغه في القيادة

أما جهاده في ميدان السياسة والقيادة، والدفاع عن الدين والأمة، فإنها تتجلّى فيه عبقريته لتفرّده بالزعامة، وحمل الأمانة من العلماء الأجداد، وذلك لما مضى العلماء الأجلاء، وزعماء السياسة الإسلامية في الدولة، أمثال العلامة شمس الحق الفريدبوري، والخطيب الأعظم صديق أحمد، والشيخ محمد الله الحافظجي، والشيخ أطهر علي وغيرهم، بعد أن انقضى عصرهم، وانتهى دورهم، لم يبقَ في الميدان من عصرهم إلا رجلٌ واحدٌ، جاهدَ معهم، وشاهدَ جهادَهم عن كثبٍ لا عن كتب، هنا نهض الشيخ وحمل لواء السياسة وسط العواصف والكوارث، والمحن والمعاناة، وقد كان أشجع الناس في اقتحام الأهوال، وكان الأرجح في الميزان، وبنهوضه نهضت السياسة الإسلامية مرّة أخرى، وعادتْ إليها حياتُها، ونشأت الأحزاب، وتكوّنت الجمعيات، وخرجت المظاهرات وانعقدت المؤتمرات، وجاءتْ مرحلة جديدةٌ للسياسة الإسلامية، وتجدّدت الآمال والأحلام، واستراح الناس، وتنسّموا الرحمة بعد أن عاشوا في عذاب الهون سنين طوالا، ومن أجل هذا كله، فإن شيخ الحديث تعود إليه مرجعية السياسة الإسلامية، وأستاذيته للعلماء السياسيين.

أعارَ الشابّ عزيز الحق انتباهَه إلى السياسة منذ عصر الاحتلال، عندما كانت الهند على فوّهة بركان، وكانتْ حركات التحرير على قدم وساق، ثم خاض غمار الحركات، وسارَ في ركاب العلماء الأجلاء، ورفعَ صوتَه معهم لإنشاء باكستان، وفي خمسينيات القرن الماضي، لما كان الشيخ أطهر علي يجتهد ويجاهد لتطبيق النظام الإسلامي في باكستان، ويردّ على الطواغيت المستبدّين، كان الشابّ عزيز الحق خير عونٍ له في هذا الجهاد، وسارَ وراءه في جميع حركاته، ثم لما نهضَ المجاهد الأعظم المصلح الجليل مولانا شمس الحق الفريدبوري بجهاده ضدّ الحكّام الظالمين، ويردّ على القرارات المصادمة للقيم الإسلامية، وروح الشريعة، نهض الشابّ عزيز الحق مع شيخه ومرشده، وظلّ معه في ميدان الجهاد طوال حياته.

وفي عام ١٩٧٦م اختير عزيز الحق كرئيس «جمعية علماء الإسلام»، وظلّ في الرئاسة لفترة كبيرة، وأدّى دورا بليغا في تلك الفترة، وهنا جاءتْ فكرة تكوين مجلس التعليم للمدارس العربية، فتكوّنت لجنة علمية تحت تنسيق الشيخ مولانا رضاء الكريم الإسلام آبادي، وكانت نواة «وفاق المدارس العربية بنغلاديش»، وكان للشيخ فيها دور البطولة.

فلما توفّي المجاهد الأعظم مولانا الفريدبوري والشيخ أطهر علي وغيرهما، وخلا ميدان السياسة الإسلامية عن الزعامة الكبرى، وانتشر الظلام انتشارا ذريعا، واستشرى النفاق في السياسة، ورفع المنافقون رؤوسهم التي كان هذان البَطَلان قد أذلّاها بالصدق والأمانة، والإخلاص والبذل والفداء، هنا بزغت شمسٌ جديدة في شخصية الشيخ الرباني مولانا محمد الله الحافظجي، وبرزَت في ميدان السياسة عاصفةً كعاصفة في البيداء، جاءتْ فجأة ثم ذهبتْ بكل ما تعرّض لها في الطريق، وهكذا برزَ الشيخ الحافظجي في ميدان السياسة، ودخلَ في السباق الأكبر، وانتخاب الرئاسة، من دون إشعارٍ سابق، وممارسة ومناورة، فوجد الشيخ عزيز الحق في الشيخ الحافظجي قدوة السلف، ونموذج الزعيم الحي المثالي، ووجدَ فيه شيخه ومرشده مولانا الفريدبوري، فنهض معه، وخاضَ في الميدان مرة أخرى، وكان "الساعد الأيمن" للشيخ الحافظجي، وكان متحدّثا رسميا باسمه وباسم «حركة الخلافة»، وكان رفيقا للشيخ الحافظجي في جولاته الواسعة الدعوية والإصلاحية والقيادية داخل الدولة وخارجها، كما سافرَ معه إلى الشرق الأوسط، وإلى إيران والعراق، أثناء حرب الخليج الأولى بين الدولتين الشقيقتين.[1]

وقفات مع الأحزاب السياسية الإسلامية وقضية توحيد الأمة

إلا أن «حركة الخلافة» التي أنشأها الشيخ الحافظجي بعد خروجه من انتخاب الرئاسة، تحقيقا للاستمرار في الجهاد ضدّ الظلم والظلمة، واسترداد الحقوق للدين والأمة، ضعفت بعد فترةٍ يسيرة، وسرى فيها الوهن والهرم، ودبّ فيها دبيب الخلاف، ففقدت قوّتها وروحَها، واستفحل الأمر مع الأيام، وسمعت صدى ذلك في المجالس الادارية واللجان، حتى تشتّت شملُها، ووقع الانقسام إلى معسكرات، وذهب العلماء القادة طرائق قددا، وبدأ كل حزبٍ يفرح بما لديه ويرى الصواب في موقفه، مع ذلك لم ييأس شيخ الحديث عن الوحدة، وجلس مع العلماء والقادة، وبدأ يحلم من جديد، حتى جاء عام ١٩٨٧م وتكوّنت «حركة الدستور الإسلامي»، إنما كانتْ في الحقيقة جمعية إسلامية، وكانت منصة في صميمها، تكونت من الأحزاب الإسلامية المتعددة، لوقوف العلماء عليها في صفّ واحد، ولمخاطبة الشعب من فوقها، ولم تكن حزبا سياسيا، والنقطة الهامة الوحيدة التي جمعتهم على رصيف واحد كانت القلق المشترك في نفوسهم على تخلّف المسلمين في ميدان الحياة، وانحطاطهم في الدين والاجتماع، ووقوعهم في الأزمة السياسية والقيادية الكبرى، وكان شيخ الحديث متحدّثا رسميا باسم هذه الجمعية.[2]

---

(1) انظر مقال محمد مأمون الحق، في مجلة الرسالة الرحمانية، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م، ٨٣

(2) تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥- ١٤٣٦) ص٢٣٠

ظهرت هذه الجمعية لتصنع تاريخ الإسلام في هذه الدولة من جديد، لكن شتان ما بين صانع التاريخ وحائن صنعه! فبعد فترة من الزمن، عاد الداء العُضال مرة أخرى وأصابَ الجمعية المتّحدة، وزرع بينها ألغام الفرقة، فتشتّت شملها، وبدا البون، وظهرتْ في الميدان أحزاب كثيرة، واستمرّت الفجوة تتسع بين هذه الأحزاب، حتى أصبح من الصعب إقامة القنطرة عليها، فضلا عن ملئها أو ردمها، وتبخرت الأحلام في تزاحمها.

هنا ظهرَ حزب «مجلس الخلافة بنغلاديش» عام ١٩٨٩م تحت قيادة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، وفي عام ١٩٩١م تكوّنت جبهةٌ متّحدة للأحزاب الإسلامية الستّة، وظهرت في الميدان باسم «التحالف الإسلامي»، فكانت مرحلة مجيدةً في تاريخ السياسة الإسلامية في الدولة، ويرجع الفضل في ذلك كلّه إلى هذا الإنسان الرباني المخلص، وقد شارك هذا التحالف في الانتخابات، ودخل أعضاء في البرلمان تحت مظلّته، وكان هذا التحالف ميدان جهود الشيخ، وساحة عمله، ومنصّة جهوده وحركته، إلى آخر عهده بالدنيا، وقد حاول من خلال هذا التحالف إحياء السياسة الإسلامية الخالصة، والعودة إلى ذلك الدرب الذي تركهم عليه علماؤنا الأسلاف وأجدادُنا الأجلاء، ولولا مرض [illegible] والتفرقة والتحزّب، والأنانية والمطامع، والانحصار بالحركة في دائرة المساجد والمدارس والطلاب والمدرّسين في المدارس الدينية، والعزلة التامة عن العامّة، لكان «التحالف الإسلامي» منصّة قويةً للسياسة الإسلامية، ورفع صوتٍ موحّد للعلماء، يطالب بتطبيق شريعة الله في أرض الله، وإقامة الخلافة الإسلامية في هذه الدولة.

وذلك لأن الشيخ كان لا يفرّق بين التدريس والسياسة، ولا يتمسك بأحدهما على حساب الآخر، بل كان يرى الجمع بينهما، فالتدريس - في رأيه - خدمة العلم، والسياسة لخدمة الدين!

هو ريحانة العلم ونفحة من [illegible]

لقد جعله شيخ الحديث [illegible] في ساحة واسعة من جهود [illegible] [illegible] [illegible] الإسلام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible]

من أجل هذا نراه يخرجُ في الميدان تنديدا بالكاتب الزنديق سلمان رشدي الباكستاني الذي كتب «الآية الشيطانية»، وأنشأ ضجّة كبيرة في العالم الإسلامي، كما نراه يثور ضدّ الملحدين والزنادقة في الدولة، أمثال أحمد شريف، والشاعر شمس الرحمن، والكاتبة الخليعة تسليمة نسرين وغيرهم، ويقود المظاهرات ويرفعَ الأصوات ضدّ القاديانية، ويطالب من الحكومة أن تعلن اعتبارها فئة غير إسلامية، ويؤدّي دورا بليغا في الردّ على التنصير والحركات التنصيرية، ويردّ على قرارات الحكومة المصادمة للشريعة.

ولعل كان من أبرز مآثره الجهادية هي قيادته لـ«المسيرة» التاريخية إلى حدود الهند عام ١٩٩٣م، تنديدا بالعدوان الهندوسي على «المسجد البابري»، وكانتْ لهذه المسيرة صدىً كبيرة في أرجاء العالم، نالت الترحيب والتشجيع من الدول الإسلامية نيابة عن شعبها وعلمائها، كما كان لها دويّ كبيرٌ في الأوساط السياسية والقيادية، وتغيير خريطة طريق الهندوس، وتغيير موقفهم العنفيّ من مساجد المسلمين.[١]

لعب شيخ الحديث دورا كبيرا لصالح المدارس العربية في بنغلاديش، وطالبَ من الحكومة الإقرار لها، والاعتراف بشهاداتها مرارا وتكرارا، ولما لم تأت هذه المطالبات بجدوى، ولم تعر الحكومة إليها بالا، ثار العلماء، وخرجوا في الشوارع، ووقفوا في طرقات العاصمة أياما متتالية بقيادة شيخ الحديث، وقد مكث الشيخ بدوره عدّة أيام في الشارع، وتحت السماء، مع الطلاب والأساتذة، وقد كانت لهذه الحركة صدىً كبيرة في السلطة.[٢]

وكان الشيخ يرى ضرورة إصلاح المدارس، والتغيير اللائق في مناهج تعليمها، وإضافة العلوم العصرية إليها التي تتعلق بواقع الحياة، مع الحفاظ على روح المنهج القديم وأصالته، لكنه علم بعد الاختبار والتجربة أن ذلك لا يتمّ إلا إذا أسس بدوره مدرسةً تكون مثالا عمليا حيّا للمدارس الأخرى، فأسس «جامعة العزيز الإسلامية» على مبدأ التغيير والإصلاح، التي أصبحتْ مع الأيام نموذجا رائعا للجمع بين الأصالة والمعاصرة، والقديم الصالح والجديد النافع، وأثبتت جدارتَها.[٣]

هكذا ظلّ هذا الإنسان المخلص يسعى ويجاهد، وينهض ويثور، ويبذل جهوده الجبارة، ويعصر

(١) المرجع السابق، ص٨٥

(٢) من سعادة راقم هذه الحروف أنه شاهدَ تلك المشاهد بنفسه، وتابع حركات الشيخ بعينه، وقضى معه تلك الأيام في شوارع داكا، يستمع إليه، ويصلي بجنبه، ويأكل معه، ويدافع عنه، فكانت أسعد أيام الحياة.

(٣) شيخ الحديث مولانا عزيز الحق: جوانب من حياته وخدماته، مقال مولانا محمد مأمون الحق، مجلة الكوثر الشهرية، ديسمبر ٢٠١٢م

قلبه، ويسكب دماءه في ميدان السياسة والقيادة، ويدخل في السجن مرارا وتكرارا، ويتعرّض للمحن والمعاناة، ويتّهم بتهم، مرة بأنه عميل السياسة، وأخرى بأنه شيعي،(١) إلى آخر عهده بالدنيا، وقد قاد المظاهرات، وترأس المؤتمرات، وتزعّم الأحزاب، من دون أن يدخل في البرلمان، ويحتلّ منصب الحكومة، ويستفيد من السلطة، لأنه لم يخض غمار السياسة من أجل السلطة أو الجاه والثروة، والمنصب والمكانة، وإنما خاضَ ما خاضَ له قبله أسلافه وأساتذته، من الدفاع عن الدين والأمة، والرد على الظلم والاستبداد، والوقوف بجانب المظلومين، ولذلك ما إن وقفَ واقف في طريق الإسلام والمسلمين، وما إن أصاب كيان الأمة والدين شيءٌ، إلا كان شيخ الحديث أول من يخرج في الطريق، ويبرز في الميدان، ويرد عليه بصوتٍ مؤمن مجلجل، لا يعير اهتماما للتهديدات، ولا يلتفت إلى الإغراءات.(٢)

ولذلك كان مرجع العلماء، ومصدر الأمل والعمل، فلما ذهب شيخ الحديث وانتقل إلى رفيقه الأعلى، خبت السلوة من آخر أثر لأسلاف الأمة، والأجداد الأجلاء، وذهبت معه الأخيرة من الجيل الأول، حتى نزل في الميدان الجيل الثاني، وحرمت السياسة الإسلامية في بنغلاديش من تلك الدوحة الباسقة التي كان يستظل بظلها جميع الناس، وذهب بذهابه ذلك الإنسان الذي كان منصة أخيرة للوحدة والوفاق.

آثاره في إصلاح المجتمع وتجديد التعليم والتربية

أما حياة الشيخ في مجال الدعوة، ودوره في الإصلاح، فحدّث عنها ولا حرج، وهل كانت دراسته وتدريسه، وكتابته وتأليفه، وتأسيسه للمدارس والمساجد، وصوته وجولته في ميدان السياسة، وفي الشوارع والطرق، هل كان شيء منها خارجا عن دائرة الدعوة والإصلاح! بل كل لحظة قضاها في حياته وكل خطوة اتخذها كانت للدعوة والإصلاح، فقد درّس طوال أكثر من ستين عاما، وخرّج خلالها من الدعاة والمصلحين، والقادة الربانيين، ما لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج وحصى البطحاء.

كما أنشأ مدارس ومراكز لا تزال تعمّ الدعوة، وتخرّج الرجال والقادة، وكتب كتبا، ونشر صحفا ومجلات، وترجم البخاري وشرحه، كلها كانت من أجل الدعوة، وتعليم الناس، وتربية جيل على غراره

(١) مقال الشيخ أبي الفتح محمد يحيى في مجلة الرسالة الرحمانية، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م، ص ٢٦ و٢٨.

(٢) اقرأ حياة شيخ الحديث في السياسة وجهوده في ميدان الإصلاح والاحتساب [illegible] في تاريخ [illegible] الإسلامية، [illegible] الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥هـ [illegible]

والسنّة، ثم لما خاض غمار السياسة، وجاهدَ في الميدان، ورفعَ صوتَه في مواطن كثيرة، كلها كانتْ من أجل الإصلاح العظيم الشامل، ونفحة من نفحات هذا الداعية العبقري، والمصلح الخالد الجليل!

مع الله ومع الناس

كان الشيخ دائم الاشتغال، وكانت أوقاته مضبوطة منظّمة بغير إخلال، لا يضيع لحظةً من لحظات حياته، ويعمل حسب برنامجه منذ طفولته، بل ظل يستخدم كل ثانية وكل دقيقة من حياته أحسن الاستخدام، ولما يكون في السيارة أو في الشوارع يتلو القرآن، أو يذكر الله بصوف خفيّ، وقد بايع على يد شيخه ومرشده المجاهد الأعظم الفريدبوري، ثم جدّد بيعته عند الشيخ محمد الله الحافظجي، كما استفادَ من الشيخ معظم حسين، خليفة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، في السلوك والإحسان، ونال منه الإجازة.(١)

وكان يجوب أقطار الأرض، ويطوف بالمدن والعواصم، والقرى والأرياف، ينصح الناس، ويوجّههم، ويبشرهم وينذرهم، ويرغّبهم ويحذرهم، ويخاطب الناس عقولهم وقلوبهم معا، بكل بساطة وسذاجة، بلغاتهم وبلهجاتهم، فيحيي موات النفوس، وخواء العقول، وكان بعيدا عن التصنّع والتكلّف في الأمور كلها، وكانت معاملته مع الناس معاملة برّ وإيناس وانبساط، ويستجيب لكل من يدعوه إذا سنحت الفرصة، وكان إنسانا ساذجا، وغرّا كريما، اتباعا لما عبّر عنه لسان النبوّة، يغلب عليه الهدوء والوداعة، ويصلح ليكون مظلوما أكثر مما يصلح ليكون ظالما.

ثم كان قدوةً حسنةً ومربّيا قديرا في بيته قبل أن يكون في الناس، فقد كان مطيعا للكبار من أسرته، ومطاعا عند الأتراب والصغار، وشفوقا على أهله، يوصي أولاده وذرّيته بصلة الأرحام، وإنزال الناس في منازلهم، وأعدّ جيلا قرآنيا ليمشي على دربه بعده، ويحقّق أحلامه، وقد جُمعتْ أحاديثه في المناسبات العامة والمجامع الدينية، ونشرتْ في كتابين باسم «الجهاد في سبيل الحق» و«الطريق إلى الحياة الناجحة».

ركائز حياته وأسرار نجاحه

كانتْ ركائز حياة هذا الإنسان، وأسرار نجاحه، ومفاتيح عبقريته، هي حبّه لله ﷻ ولدينه، وشغفه بالنبي ﷺ، وصلته بشيوخه وأساتذته، واحترامه لهم، والتشاور معهم، والمشي في ركابهم، والاقتداء

(١) مجلة الرسالة الرحمانية، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/نوفمبر ٢٠١٢م، ص ٣٨

أثرهم، والعكوف على الحديث النبويّ، وافتتانه بصحيح البخاري، وتواضعه للجميع، وبعده عن الغيبة كل البعد، بل كان ذلك من أبرز كراماته، واستغلاله للحياة ولكل الفرص، وفوق كل هذا وذاك كان الإخلاص لله والبعد عن الرياء والمظاهر الجوفاء، والتحاشي من الظهور والشهرة، وإيثار العمل بعيدا عن الأضواء، أهم ركائز حياة هذا الإنسان، ورأس ماله، وزادٌ في مسيره الذي امتدّ على قرابة قرنٍ، ثم انتقل إلى رفيقه الأعلى عام ٢٠١٢م، وانتهى بذلك تاريخ القرن العشرين الميلادي لهذه الدولة، وذهب آخر شاهد لمسيرة الدين والأمة في هذه الفترة.

تركنا الشيخ ومضى إلى ربّه، وقد ترك على كواهل ورثته من الأولاد والتلاميذ الذين تربّوا على يديه، ونشؤوا تحت إشرافه، مسؤوليات كثيرة، وحقوقا جليلة، لم يوفوا بها بعد، فقد كان هذا الإنسان يستحقّ أن تقوم باسمه مؤسسات ومكتباتٌ، وتدرس حياته ضمن مقررات المدارس العربية، مع شيوخه ومرشديه الكبار أمثال المجاهد الأعظم الفريدبوري والعلامة الحافظجي والشيخ أطهر علي وغيرهم، هذه هي حقوقهم على من جاؤوا بعدهم، تنتظر من يؤديها.

المفتي فضل الحق الأميني

(١٩٤٥- ٢٠١٢)

المجاهد المقدام، السياسي الكبير، حامي الدين والأمة

نظرة عابرة في حياة إنسان كبير

"لصوت القعقاع بن عمرو في الجيش خيرٌ من ألف رجلٍ"- لو يصدق قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذا في القعقاع بن عمرو التميمي، فإنه يصدق في هذا الإنسان الذي نحن الآن بين يديه، إنسان نزع من قلبه حب السلامة التي سيطرت على كثير من العلماء في عصره، وقضى حياته كلّها في الجهاد والمقاومة، والحركة الدؤوبة في الدفاع عن الدين والأمة، وكلما كان الإسلام والمسلمون تحدق بهم المحن، وتحل عليهم النوازل، كان هذا الإنسان أوّل من ينزل في الميدان، ويقاوم الهجمات، ويردّ المكائد على نحور الأعداء، وكلما يرى أحدا يمسّ صميم الدين، كان يزأر ويزمجر، ويهزّه هزا عنيفا، فكان فارسا مجليا، وأسدا مزمجرا، وقائدا مظفرا مقداما.

كان آخر حجرة عثر في طريق الإلحاد والعلمانية في هذه الدولة، وكان آخر سفينةٍ للأسطول التاريخي الهائل الذي أعدّه سلفنا وأجدادنا، والعلماء الأجلاء، وسط أمواج عاتية وعواصف هوجاء من الظلم والطغيان، والديمقراطية الفاسدة، والدكتاتورية والاستبداد، فإنه جدد سنة الأئمة السلف في احتمال المحن ومواجهة الطوفان، فلما ذهب هذا الإنسان، غرق الشعب البنغالي في فتن وكوارث لا نظير لها في التاريخ، وتتابعت الهجمات على الدين والأمة، والإيمان والعقيدة، والتعليم والثقافة، كحبّات من السلاسل، ولم يبق في الميدان من يزمجر الآن، ويغضب لدين الله، ويرفع راية الجهاد، ويقف سدّا منيعا لحماية الدين والوطن، ويثبت للأعداء أن هذا الشعب لا يزال فيه روحٌ وحياة، وفي صدره قلب

نابض، وفي شرايينه دم متدفّق، كان ذاك الإنسان هو الشيخ الرباني، والعالم المجاهد الباسل، والفارس المغوار في تاريخ الجهاد والحركات في هذه الدولة، الشيخ المفتي فضل الحق الأميني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تحديد مكانته وسر عبقريته

لم يكن المفتي الأميني قائدا من كبار قادة الحروب في تاريخ البشر، ولم يكن سياسيا يقضي حياته كلّها في ميدان السياسة، ويكتوي بنارها، ويجرّب حرارتها ومرارتها، ثم يموت في غمار السياسة ويدخل في القبر كقائد سياسي، بل بدأ حياته في كل سذاجة وبساطة، وقضى عنفوان شبابه في دائرة المدارس، يدرس ويدرّس، ويقرأ ويطالع، ويغرق في صفحات الكتب، وينزوي في المكتبات، ويعيش في المؤلفات، لا يعرف من السياسة شيئا ولا يهتمّ بها، إلا أنه من مفاجأة التاريخ أن هذا الإنسان البسيط في غضون بضع سنوات أصبح من كبار السياسيين، وقادة الحركة والجهاد في هذه الدولة، ورمزا للنهضة الإسلامية، وشعارا للدفاع والذبّ عن حوزة الدين والأمة، فقاد المظاهرات وأقام المؤتمرات، ودخل في البرلمان، وأصبح إنسانا قويّا على مستوى الوطن والعالم، فماذا كان الدافع في ذلك؟ وماذا سرّ هذا التحويل الغريب المبارك، وهذا الانقلاب العظيم؟

إنه سرّ التربية والتنشئة، ومعجزة التأثير والصحبة، وكرامة الإعداد والبناء، فقد نشأ تحت ظلال زمرة من العلماء كانت زمرة أخيرة من نوعها في تاريخ هذه الدولة، وآخر شاهدة على عبقرية علماء الإسلام في شبه القارة الهندية بعمومها، وآخر ممثلة لهم، ونموذج من أعمالهم وإنجازاتهم. وكان على رأس تلك الزمرة المباركة المجاهد الأعظم مولانا شمس الحق الفريدبوري، والعلامة محمد الله الحافظجي، والشيخ المفتي دين محمد خان، والشيخ المحدث مولانا هداية الله. والشيخ الحديث العلامة عزيز الحق، فقد ترعرع الأميني على أيديهم، وترقّى بين أحضانهم، ونشأ تحت إشرافهم، فكان خير ممثل لهم، وآخر مهجة من نورهم وعرفانهم، وهذا الذي جعل من الطالب البسيط قائدا فريدا، وجعل من مدرس متواضع مجاهدا مقداما مهيبا.

البيئة التي وُلد فيها ونشأ

وُلد فضل الحق في «أمين بور» بمنطقة محافظة (برهمن باريا) عام [illegible] في بيت كريم مجد [illegible]، وفي أسرة ذات جاه ومكانة، ودين وصلاح. ولما فتح عينيه ما يقع بصره إلا على شيخ [illegible] أسرته عاكفا على التلاوة والدراسة، وعلى جماعة تحيط به كهالة القمر، فقد كان [illegible] على صلة متينة بالشيخ [illegible] العلامة [illegible] وكان [illegible]

الضيافة، ومحطّة الاستراحة للعلماء الكبار، وملتقى الشيوخ الربانيين البارزين، وروضة الصالحين، ينزل عليها الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ أبو طاهر محمد يونس، والشيخ مولانا صديق أحمد (الخطيب الأعظم)، والشيخ تاج الإسلام (فخر البنغال)، والشيخ محمد الله الحافظجي وغيرهم ضيوفا، وإذا كانت النزعات النفسية أكثرها تكون وليدة الأسرة والبيئة فقد وُلد الشيخ الأميني في أسرة دينية كاملة، وطالع فجر الحياة في محيط العلم والعلماء، وتفتحت عيناه على تلك المجالس النقية الخالصة التي كان يقيمها كبار العلماء في بيت والده، ومن هنا هذه البيئة هي التي وضعت التصميم الأول لشخصيته الفذة الفريدة، ورسمت لها خريطة الحياة.

والده يسلمه إلى العلامة الفريدبوري

بدأ الدراسة في كتاب قريته، ثم دخل في الجامعة اليونسية التي كانت آنذاك معهدا إسلاميا معروفا على الصعيد الوطني، وفي عام ١٩٦١م أدخله أبوه في الجامعة القرآنية بـ«لال باغ»، وسلّمه إلى المجاهد الأعظم مولانا الفريدبوري، وقال له: "أوقفتُ ابني هذا على دين الله ﷻ، وفوّضت أمره إليك"،[1] فكان تفويضا خالصا، وكان أول خطوة جليلة مباركة على درب العلم الحقيقي، مما كان له أكبر الأثر في رقيه درجات العز والمجد في قابل الأيام، فظلّ في الجامعة القرآنية سنين طوالا، وأظهر تفوّقا واضحا في علمه وعمله، حتى تخرّج منها في مرحلة التكميل عام ١٩٦٨م، ثم سافرَ إلى باكستان، دون الهند، على إشارة من الشيخ الفريدبوري، ودخلَ في «جامعة العلوم الإسلامية علامة بنوري تاون» بـ«كراتشي»، وتخصّص في الفقه والإفتاء، وهو من أشرف العلوم، ولبّ الدين، تحت إشراف المفتي، ومحدّث العصر، مولانا يوسف البنوري، ثم عادَ إلى وطنه.

عادَ فضل الحق الأميني إلى وطنه وقد توفّي شيخه ومرشده الشيخ الفريدبوري، فذهبَ إلى المربي الثاني مولانا محمد الله الحافظجي، وتولّى التدريس في مدرسته، وحفظَ القرآن في تسعة أشهر وهو في مرحلة التدريس وليس التحصيل، كما تزوّج بابنة الشيخ الحافظجي، وفي عام ١٩٧٥م اختير مدرسا ونائب المفتي في الجامعة القرآنية بـ«لال باغ»، ولما توفّي الشيخ الحافظجي في عام ١٩٨٧م، تولّى رئاسة الجامعة، كما تولّى رئاسة مدرسة أشرف العلوم «براكاترا» عام ٢٠٠٣م، وبالإضافة إلى ذلك أسس مدارس كثيرة، وأشرف على مراكز علمية ومؤسسات دينية ما لا يُحصى.[2]

---

(١) مقال المفتي سيف الإسلام في كتاب المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص١١

(٢) المفتي الأميني في أوراق الذكريات، تأليف وتحرير مولانا جاويد حسين، ص١٤ و١٥

شغف نادر بالكتب والقراءة

هذه كلها خدماته العلمية والحياة الثقافية والمعرفية التي كانت من صميمه، فقد جُبل الشيخ الأميني على حب المعرفة، والهيام بقراءة الكتب، والعيش في محراب العلم، والعكوف على المطالعة، والاستمتاع بالقراءة، وكان يحب العلم لذات العلم، وكم جلس مع الكتاب بعد صلاة العشاء، فانتهى الليل وأذّن الفجر، وهو لا يشعر به،[1] هكذا كان الكتاب رفيقا أمينا في حياته، يطمئنّ إليه، يصل ليله بنهاره، ولا يكاد يفارقه الكتاب إلا لضرورة، حتى كلما كان يصيبه الهمّ وينتابه المرض، يسلم نفسه إلى القراءة، فيجد فيها القرار، وسكينة النفس، وتخفّ عليه وطأة المرض.

مع أن الشيخ الأميني كان رحب الصدر في العلم والدراسة، ومتتبّعا للحديث الأحدث من العلوم والتجارب، ويصغي للفوائد، إلا أنه كان يتخير الكتب، فيحب كتب السيرة النبوية، وسير الصحابة، وتراجم السلف الصالح، وكانت هوايته تاريخ علماء ديوبند، فكثيرا ما كان يقرأ في كتبهم، يهزّ نواعظهم، ويشاهد مواقفهم الخالدة، ومآثرهم الماجدة، فإذا عيناه تذرفان، وكان ينصح طلابه بالإكثار من مطالعة تراجم السلف، مع الاهتمام بالمضامين لا العناوين، والمبادئ لا الأشخاص، حتى عندما كان في السفر، وفي السيارة والطائرة، يحمل معه شيئا من كتب السلف، مثل «حكاية الصحابة» لشيخ الحديث زكريا الكاندهلوي، و«ملفوظات الشيخ التهانوي» وغيرهما، ولما خاض غمار السياسة، وأصبح من القادة الكبار، ودخلَ كعضو في البرلمان، ودخلَ أيضا في السجن، لم ينسَ فطرتَه، وظلّ ولوعا بالقراءة، وصبورا على المطالعة، يدرس ويدرّس، ويقرأ الكتب والرسائل، فيبكي ويبكي الناس، وفي أيامه الأخيرة، كان كثيرا ما يقرأ في كتب العلماء العرب، ويكرّر اسم الشيخ سعيد رمضان البوطي على طلابه.[2]

آثاره في ميدان التأليف

كما أحدث هذا الحبّ للكتب والعكوف على الدراسة والقراءة والمثابرة على التحصيل من آثار بعيدة المدى في حياته، فقد برزت فيه عبقرية الكتابة والإنشاء، وبلغ من عدة لغات حد الإجادة، وألّف بضعة كتب قيمة، ومن بين ما كتبه الشيخ: ◊ القانون الإسلامي دامغٌ للقانون الوضعي (العربية) ◊

(١) مولانا أهل الله واصل في المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص١١١

(٢) انظر كلام المفتي فيض الله في المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص٩٩

دروس البخاري لسلفنا الصالح (العربية) ◊ طريقة مطالعة السلف (الأردية) ◊ معارف المعراج والإسراء (الأردية والبنغالية) ◊ فتاوى الجامعة (مجموعة فتاواه، في سبعة مجلدات، بالبنغالية) ◊ دروسٌ من كربلاء (البنغالية) ◊ في سبيل الله (البنغالية) ◊ الطالب المثالي (البنغالية) ◊ الخلافة والسياسة المثالية ◊ معارف السير ◊ تلاوة القرآن ◊ الدين الإلهي ◊ علماء السوء وأئمة الضلال ◊ الدعاء والمناجات وغيرها.[1]

كيف دخلَ مدرس ديني في ميدان السياسة؟

إلا أن هذا النبوغ العلمي والمآثر الخالدة في ميدان الكتابة، يضمحلّ كل ذلك أمام عبقرياته السياسية، وحركاته وجهاده، وتضحياته وإنكاره للذات، وصولاته وجولاته، وهديره ووعيده، وزمجرته ودمدمته، ولعل كل ذلك يرجعُ إلى إخلاص هذا الإنسان واحتسابه، فلم يأخذ السياسة بأنها مطيّة إلى المادّة والدنيا، وبأنها طريقةٌ مثلى للحصول على السلطة والقوّة، والجاه والمكانة، والمهابة والعظمة، وسلّم إلى الغنى والثروة، وإنما أخذها واجبا على كاهل المؤمن التقي الصادق مع الله ومع إيمانه، وأخذا لحقّ المظلوم من الظالم، ومسؤولية كبرى تجاه الدين والأمة، ودفاعا عن حرم الوطن، ولا غرو فقد رأى في أيام طفولته ودراسته الجهاد والحركات المستمرة التي كان يقودها شيخه ومرشده مولانا الفريدبوري، ثم دخلَ في مدرسة السياسة تحت إشراف شيخه العلامة محمد الله الحافظي، ودرسَ السياسة والقيادة منه، وما بالك بالحافظجي وإخلاصه، وأهدافه في السياسة!

هكذا بدأَ حياته السياسية تحت ظلال العلامة الحافظجي، ولما شاركَ الشيخ في انتخاب الرئاسة، وأنشأَ حزب «حركة الخلافة»، اختارَ تلميذَه الأميني أمينا عامّا للحركة عام ١٩٨١م، فأدّى دورا بليغا في حركاته وانتخاباته، إلا أنه لما توفّي الشيخ الحافظجي وانتقل إلى رفيقه الأعلى، انتقل معه كلّ شيء، وذهبت الركيزة من «حركة الخلافة»، وأصابها الداء القديم العضال، داء الخلاف والفرقة، فتمزّقت كلمتها، وتشتّت شملها، وانكسر الزجاج، وذهب الناس طرائق قددا.

مصلح عظيم ومجاهد باسل في صورة سياسي

لما ثارت الدولة في قضيّة الكاتبة الملحدة تسليمة نسرين وكتاباتها ضدّ الإسلام وشعائر الدين، نهض الشيخ الأميني، وكوّن «جبهة محاربة الأنشطة ضدّ الإسلام» مع الشيخ الكاتب المشهور مولانا محيي الدين خان، ونزلَ في الميدان تحت مظلّة هذه الجبهة، ومع الأيام تحوّلت الجبهة غير السياسية إلى

(١) انظر مقال المفتي سيف الإسلام في كتاب المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص ٣٦

الحزب السياسي، وجاءَ في الميدان باسم «الخلافة الإسلامية» من جديد، وفي عام ١٩٩٧م شاركَ في «التحالف الإسلامي» كأمين عام له، ثم أدّىٰ دورا بارزا في تكوين التحالف مع «الحزب القومي البنغلاديشي» تحت قيادة رئيسة الوزراء خالدة ضياء عام ١٩٩٩م، ودخلَ في الانتخاب التشريعي عام ٢٠٠١م تحت مظلّة «تحالف الأحزاب الأربعة» وأصبح عضوا في البرلمان، وتولى رئاسة «التحالف الإسلامي» عام ٢٠٠٤م.[1]

لكن لو ينظر الباحث في حياة الشيخ فضل الحق الأميني من نافذة الأحزاب والرايات، والمناصب والنعرات، لا يكتشف معالم شخصيته الكبيرة، ولا يدرك مدىٰ نبوغه السياسي والقيادي، ولا يتصور عبقريته في الجهاد والمقاومة، ولا يحدّد مكانته بين القادة، ومكانه في التاريخ، لكي نقدّر هذا الإنسان حقّ تقدير، ولكي نرسم ملامح شخصيته، والخطوط العريضة من حياته، ونفي بحقّه من الاعتراف والإنصاف، ونضعه في مكانه، لا بدّ أن نتحدّث عنه من أفق أوسع ومن باب أكبر.

كيف كان ينظر إلى السياسة الراهنة؟

من هنا نقول رغم أنه خاض غمار السياسة، وقاد المظاهرات، وتزعّم الأحزاب والعصابات، إلا أنه لم يكن سياسيا في الاصطلاح المعاصر، بل كان مجاهدا مؤمنا، أخذ السياسية وسيلة لتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهادا لإقامة الخلافة على منهاج النبوّة، فاستخدَمَ قوّته وصوتَه كسلاح له، واستخدم مكانته السياسية كمكان القيادة في ساحة المعركة، وكان يرىٰ أن السياسة من صميم الدين وقوام الأمة، وأنها أمر لازم للعلماء لزوم الماء للحياة، وأن اعتزال السياسة، والابتعاد عن ميدان الجهاد، والانطواء في المدارس والزوايا، كارثة لمستقبل الدين، وتهديد كبير بمستقبل العلماء، فإن الناس- كما يقولون- على دين ملوكهم، متىٰ صلح الرأس صلحت الجوارح.[2]

زاد طريقه ومشكاة نوره

وقد تأثّر بثلاث شخصيات هم من أكبر الشخصيات الإسلامية في التاريخ المعاصر، العلامة شمس الحق الفريدبوري، والشيخ مولانا محمد الله الحافظجي، والشيخ المفتي العلامة يوسف البنوري،[3] فجمعَ

---

(١) جريدة "نيا ديغانتا" (الأفق الجديد) اليومية، مقال محمد أمان الله، السبت، ١٠ ديسمبر، ٢٠١٦م

(٢) مقال مولانا أهل الله واصل في المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص١١٩

(٣) مقال مولانا شريف محمد، مجلة الكوثر الشهرية، يناير، ٢٠١٣م

بين العلم والربانية، والدعوة والتربية، والتعليم والجهاد، والمقاومة والقيادة، والمادّة والمعنوية، والدين والدنيا، جمعا يندر نظيره في القرون الأخيرة، وشاهدَ جهاد العباقرة المسلمين أمثال مجاهد الإسلام وبطل معركة حطين، وفاتح القدس السلطان صلاح الدين الأيوبي، والملك العادل السلطان نور الدين محمود زنكي وغيرهما، من خلال عالم الصفحات، كما قرأ حياة الإمام شاه ولي الله الدهلوي والشيخ المدني عن كثب، وكان شغوفا بتاريخ العلماء المسلمين، والأئمة المجتهدين، وقصص العلماء المتأخّرين، وخصوص علماء ديوبند، فاستمدّ من كل إنسان أبرز معالمه، ثم أدرجه في جدوله وخريطة طريقه، وهذا هو سرّ إيمانه وإخلاصه، ومصدر قوّته وقدرته، ومنبع بسالته وشجاعته، والدوافع لتجشّم المشاقّ، وتحمّل المصاعب، والترحيب بالمحن والمعاناة، بكل سرور واطمئنانٍ، وبوجه طلق بشوش.

هكذا نظرَ هذا الإنسان في السلطة والسياسة، ورأىٰ أنها للدفاع عن الدين والأمة قبل كل شيء، ومحاربة الفتن والفساد، والشر والمنكرات، مهما كلّف ذلك من الثمن، وأنه سيسأل عن دينه وشعبه يوم القيامة، يسأل عما أدّىٰ إليهم من واجباته وما قام به من دوره، وهذا هو معنىٰ السياسة، وهذه هي السياسة التي خاضَها السلف الصالح، ومن هنا جاءَ الشيخ الأميني إنسانا مثاليا في التاريخ المعاصر، ومجاهدا عبقريا فريدا، وأيقونةً رائعة في الجهاد على منهج المتقدّمين، ومثالا حيا للجهاد من أجل الدين ومن أجل الوطن، ومن أجل الإنسانية، فكلما أصابَ الإسلامَ والمسلمين شيء، كان أول من ينزل في الميدان، ويقف في وجهه، ويغضب ويثور، ويزأر ويزمجر، لا يبالي بمن ينزل معه ويسير وراءه، وماذا يخفي له مستقبله، فيعمل على الجهاد أكثر مما يعمل على السياسة، ويدافع عن بيضة الدين، ويحمي حمى الوطن، أكثر مما يدافع عن الحزب، والذي هو ديدن السياسة بجميع أنواعها.

رجلٌ يبغض لله ولدينه

من هنا نراه يتقدّم في المسيرة الطويلة التاريخية التي قادَها شيخ الحديث العلامة عزيز الحق عام ١٩٩٣م، إثر العدوان الهندوسي على «المسجد البابري» في الهند، فسارَ الشيخ الأميني في ركاب أستاذه، وأدّىٰ دورا بليغا في هذه المسيرة، وهزّ العالم الهندوسي هزّا، وفي عام ١٩٩٤م لما هاجمت الكاتبة الملحدة تسليمة نسرين على القرآن الكريم هجوما مسعورا، ونقدته نقدا يجافي الحقيقة والواقع، وطالبت من الحكومة بتغييره وتحريفه، نرىٰ المفتي الأميني يثور، وينزل في الساحة، ويستنفر الثورة العامة، ويقود المظاهرات والإضرابات، ويهدّد بها ويتوعّد، حتى تسلّلتْ تسليمة من بنغلاديش ولم تعد إليها حتى اليوم، وفي عام ٢٠٠١م لما أصدرت المحكمة العليا البنغلاديشية قرارا يفرض الحظر بدوره على الفتاوىٰ

الشرعية بجميع أنواعها، ثارَ الشيخ الأميني قبل الجميع وكاد أن يتفجّر، وأعلن بجرأة المؤمن الشجاع: "إن الفتاوى هو بيان حكم القرآن والسنّة، ومن ثم فالحظر عليه هو الحظر على القرآن والسنة، فالذين أصدروا هذا القرار المصادم للشريعة صراحة وجهارا ارتدّوا عن الإسلام، وخرجوا من دائر الدين جملة واحدة"، ثم استنفر الرأي العام، وجمع العلماء والناس، وكوّن جمعية باسم «لجنة تنفيذ القانون الإسلامي»، وكانتْ هذه الجمعية ساحة جهاده طوال الحياة، كما نزلَ في الميدان عام ٢٠٠٧م عندما أعلنت الحكومة البنغلاديشية «السياسة الوطنية لتنمية المرأة عام ٢٠١١م» التي كانتْ تتضمّن المساواة بين الذكر والأنثى في التركة، على أساس أن الناس سواسية كأسنان المشط، وكَطَفِّ الصاع لن تملأه، ومن ثم تصادم القرآن الكريم مصادمة صريحة، وأعلنت «السياسة الوطنية للتعليم» التي كانتْ تتضمن المواد العلمانية والإلحادية، ثارَ الشيخ الأميني، وقاد المظاهرات، وجمع الناس، وعانى معاناة،[1] كما سافرَ إلى خارج الدولة مرارا وتكرارا، ومن أبرزها رحلته مع شيخه الحافظجي إلى إيران والعراق أثناء حرب الخليج الأولى.[2]

هكذا ظلّ هذا الإنسان ينهض في كل موقف يحتاجه قبل الجميع، وينزل في ساحة الوغى كلما تصيب الإسلام والأمة مصيبة وتحل بها نكبة، ويعاني المحن والمعاناة، ويدخل في السجن، ويتخطف منه ولده وفلذة كبده، ويقيم في البيت إقامة جبرية، يُمنع من التدريس والإفتاء، والحديث مع الناس ومخاطبتهم، ويواجه الإغراءات والتهديدات، ويتلقى بصدره الهجمات، في شجاعة وصبر، وإباء وشمم، ويواجه سنوات عجافا قاسية، دون أن تلين قناته وتكلّ همته، وتتثبّط عزيمته، وقد عاشَ أيامه الأخيرة في الحبس المنزلي، وتحت مراقبة العيون والجواسيس ليل نهار، لرصد كلماته، وتسجيل حركاته وتصرفاته، لأنه أبى أن يجاري الحكام في أهوائهم، ويسكت عن خياناتهم وجرائمهم، ويستجيب لطلباتهم، حتى لقي الله وهو في المحجة البيضاء، ومن هنا يعرف أن حياته كلّها ساحة جهاد، ومعمعة قتال، وبحر هائج مائج بالعواصف والكوارث، مع كل ذلك سفينته لا تتذبذب ولا تغرق، ولا تميل ولا تضل، بل تثبت على دربها، وتمخر العباب نحو الأمام.

(1) المفتي الأميني في أوراق الذكريات، تأليف وتحرير مولانا جاويد حسين، ص٣٩

(2) انظر تفاصيل هذه الرحلة في الشيخ الحافظجي في الشرق الأوسط، تأليف الأستاذ أختر فاروق

آثار جهوده وجهاده

بينما نحن نعتزّ بدوره الخالد في تاريخ هذه الدولة، قد يدور بخلد قارئٌ واعٍ نبيه موضوعٌ آخر، موضوعٌ غاية في الأهمية، يحتاج إلى البحث والتدقيق، والمناقشة والمخاصمة الفكرية، والدراسة العميقة، وهو موضوع الأثر البعيد المدى لهذا الجهاد، ونتائجه العامّة، وثماره المستمرّة، ولذلك نرى أنه لما توفي هذا الإنسان، خلا ميدان القيادة الإسلامية والجهاد ضدّ الإلحاد والعلمانية، وأصبحت الطرق معبّدة ممهدة لكل من يريد النيل من الدين ومسّ الأمة، ولم يبق في الساحة من يرفع صوتَه ضدّ ظلم الحكام وفساد النظام، ويدعو الناس إلى نور القرآن وضياء الإسلام، ويجمعهم على منصّة واحدة للرد الجماعي القوي، وهكذا كأن الجهاد ضدّ الظلم والجور في السنوات الأخيرة أصبح يعتمد عليه جملة وتفصيلا، وكان هو عمدته وأساسه، ومحرّكه ومفتاحه، فلما ذهبَ، ذهبَ معه كل شيء، وانهار البنيان.

هنا قد يتساءل القارئ ماذا قيمة هذا الجهاد الذي ينتهي بنهاية قائده، وماذا قيمة هذا الانقلاب الذي يموت بموت رائده، فهل أعدّ الشيخ الأميني لذلك عدّة؟ وهل فكّر فيمن يقوم بعده مقامه؟ من جهتنا نقول إن الشيخ الأميني أعدّ جيلا ليخلف خل فه، ويحمل أمانته، ويحقّق أحلامه بعده، إلا أن ذلك الجيل لم يكن في مكانته من الإيمان والبسالة، ومكانته في قلوب الشعب، فلم يقم بنصيبه ودوره، ولم تتحقّق أحلامه، وهذا الذي أثبت للتاريخ مرّة أخرى أن الحركة التي تعتمد على شخصٍ معيّن دون جماعة، وتتمحور حول إنسان واحدٍ دون مشاركة قيادية، وروح فريق العمل، لا تعيش طويلا، ولا تترك أثرا خالدا بعيد المدى.

كما يتساءل عن استراتيجية هذا الجهاد الدفاعي ومزايا هذه الحركة التي تعتمد على ردّة الفعل، والمقابلة بالمثل، وتكتفي دائما بالدفاع دون أن ترسم لنفسها خريطة طريق بعد دراسة عميقة للأوضاع والمحيط، والماضي والمستقبل، ودون أن تأخذ لنفسها مشروعا طويل المدى، يستمرّ في البناء والإنتاج، ويتجاوز حدّ الدفاع إلى الإقدام، ولذلك بعد أن ذهب الشيخ نرى صولة الإلحاد وجولة العلمانية، والهجمات المتتالية على الشريعة، وتصويب الرماح والسهام إلى العلماء وإلى المدارس الدينية والمراكز الشرعية، وتضييق الخناق على كل ما له صلة بالإسلام، نرى كل ذلك ولا نرى أحدا في الميدان، ولا نرى أحدا يرفع صوتَه، ويجمع الناس، مع استثناء بسيط لا يكاد يُذكر، فهذا يدلّ على أن الشيخ مع عبقريته في جهاده وحركته وكفاحه ودفاعه، لو أعدّ جيلا بعده كما أعدّ شيوخه وأساتذته، أمثال الشيخ الفريدبوري والشيخ محمد الله الحافظجي وغيرهما، ولو تنوّع في عمله، لكان ذلك جهادا أكثر جدوى وأبعد أثرا، مع ذلك كان الشيخ فضل الحق الأميني مدرسةً فكريةً، ومنهجا جديدا في الجهاد والدفاع،

لو استخدمه العلماء بعده استخداما حسنا، لكان له أثر كبير حتى بعد وفاته، لكن "لقد أسمعتَ لو ناديت حيا- ولكن لا حياة لمن تنادي".

فارس النهار وراهب الليل

أما عبقريته في الزهد والعبادة، والتمسك بتعاليم الإسلام والاعتزاز بها، واتباع السنة النبوية، والخشية والتواضع، والربانية والسلوك، فقد كان مثالا حيّا للسلف الصالح، وأثرا باقيا للعلماء المتقدّمين الذين عرفوا كفرسان في نهارهم، ورهبان في ليلهم، إلا أن الذي لا يعرفه، ولا يعرف الفضل إلا ذووه، ربما يظنّه سياسيا عاديا، وأين سياسة اليوم من الديانة والأمانة، وخشية الله ﷻ، أما الشيخ الأميني فكان في منزلة رفيعة، وقمّة من السلوك والإحسان، بايع الشيخ محمد الله الحافظجي ونال منه الإجازة، وكان دائما يقرأ حياة العلماء، وتراجم الصالحين، وخصوصا تراجم أعيان علماء ديوبند، ثم يمشي في نورها، ويزيّن حياتَه بزينتها، ويسير على درب الأسلاف.(١)

ناهيك بشغفه بالسيرة النبوية والحديث الشريف، فقد درّس البخاري إلى آخر عهده بالدنيا رغم جهاده وحركته، والأعمال الشاقة، والارتباطات المزدحمة وأحيانا المتناقضة، وكان يسهر الليالي، ولا ينام فيها إلا قليلا، يحييها بالدراسة والتدريس، والصلاة والذكر، وقد حافظَ على صلاة التهجّد طوال حياته، ويُسمع من غرفته صوتُ البكاء والنحيب المحبوس في نهاية الليل، وكان بكّاء، يبكي كثيرا في دعائه ومناجاته، ويُبكي الناس، ويستدرّ الدمع من أبخل العيون بالدمع، وكانتْ أنوار العبادة تتلألأ على جبينه، يراها كل قريبٍ وبعيد.(٢)

نظرته إلى الدنيا وزهرتها

لقد بذل نفسه ونفيسه وكل ما كان له في سبيل الجهاد والحركة، والدفاع عن الدين والأمة، وترك الدنيا وهو لا يملك منها شيئا، ولم يترك حسابا في المصرف، ولا خزانة في البيت، ولا عقارا ولا أملاكا، ولم يخلف لأهله إلا القدوة، والذكر الحسن، ولما أصبح عضوا في البرلمان، زادَ في البيت فقرا وضيقا، وعاشت الأسرة طوال ثلاثة أشهر على الأرز والعدس!(٣)

(١) المفتي الأميني في أوراق الذكريات، تأليف وتحرير مولانا جاويد حسين، ص

(٢) انظر كلام نجله أبي الحسنات الأميني في المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص١٤٣

(٣) المرجع السابق، ص١٤٤

كان يجوب في الدولة، ويطوف بالقرى والأرياف، ويحضر في المجامع والمناسبات، ويتحدّث ويلقي الكلمات، ثم لا يأخذ من الهدايا إلا ما يضاهي أجرة السيارة، وتكاليف الطريق! وقد حضرَ الرئيس حسين محمد إرشاد في بيته مرّة، فلما دخلَ في بيته وهو أشبه ما يكون بكوخٍ، أثارَ عجبَه، وقال له: أرسلتُ لك مبلغا ضخما من المال، وأنتَ تسكن في هذا الكوخ، فأين ذهب كلّ ذلك؟ ففاجَأه الشيخ بهدوء كامل: "لم تعْطِني شيئا، ولم ترسلْ لبناء بيتي مبلغا، وإنما أعطيتَ للمدارس وللحركات".(١)

إنسان مخموم القلب ومؤذن الوحدة

لقد حدثتْ كثير من الخلافات السياسية بينه وبين كبار العلماء أمثال شيخ الحديث العلامة عزيز الحق والشيخ أحمد الله أشرف وغيرهما، إلا أنه لم يكن يغتاب أحدا، ولم يذكر لهم كلمة سوء، بل كان يحبّهم ويجلّهم، ويحفظ لهم مكانة في قلبه، وكلما يلتقي بهم يرحب بوجه بشوش، كأن لم يكن بينهما شيءٌ، وكان يحلم بوحدة الأمة، ووقوف العلماء بأجمعهم على منصّة واحدة،(٢) ويكره التناحر بين الأحزاب والفرق التي تنتمي إلى الإسلام وتحمل العقيدة الصحيحة الغراء، ويرى التعاون فيما بين المسلمين، إلا أنه كان يرى السياسة مع الصلة بالمدرسة والمؤسسات الدينية، ولا قطع بينهما، فقطع العلاقة مع المدارس والتفرّغ للسياسة- في رأيه- يبعد الإنسان عن دربه، ويأتي بالتغيير والتحريف في هدفه.

قضية تولية المرأة وموقف الشيخ منها

وردتْ بعض الإشكاليات من العلماء والعوامّ عليه وعلى منهجه السياسي، بعد أن شاركَ في السياسة العامة القائمة على الديمقراطية، وكوّن تحالفا مع الأحزاب القومية واليسارية أحيانا، وفوق كل ذلك تحت قيادة امرأةٍ، وقد حرّمها الرسول ﷺ وقال "لن يفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأةً"، وقد سمعَ الشيخ هذه الإشكالات وأجابَ عليها إجابةً شافيةً كافية، تتلخّص في أنها للضرورة، والضرورة تبيح المحظورات، فقيام الخلافة الإسلامية أو تطبيق النظام الإسلامي في مثل هذه الدولة لن يمكن إلا بعد تمكين العلماء والدين من هذه الأرض، ولم يعد إلى ذلك التمكين طريقٌ إلا التعامل مع الديمقراطية قدر الحاجة، أما الانقلاب المسلح وتحقيق الهدف بهذه الطريقة فهو أشبه بالمحال في العصر المعاصر، وكذلك قضية تولية

(١) مقال المفتي سيف الإسلام، في كتاب المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده، ص ٣١

(٢) انظر شهادة الشيخ العلامة شاه أحمد الله أشرف في كتاب المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده ص٥٠



المرأة، فالتحالف والتولية بينهما فرقٌ كبير، وتحالف العلماء مع الأحزاب السياسية الأخرى حتى تحت قيادة المرأة لا يعني توليتهم إياها أمورهم، ومنحهم إياها زمامهم، ولا الدخول في صميم الديمقراطية واستحلال القومية، والإيمان بدستورها وعقائدها، وليس هذا التحالف عبارة عن تحالف القيم والمثل، والمبادئ والمفاهيم، وإنما هو الاستراتيجية السياسية، لدفع الأخبث بالخبيث، ونزع الشوكة بالشوكة.

الأمانات التي تركها على أكتافنا

لقد اختاره الله ١٢ ديسمبر عام ٢٠١٢م، بعد حياة قضاها في الجهاد وفي الميدان، والدفاع عن الدين والأمة، وبذلك انطوت صفحة من أجل وأعظم صفحات التاريخ السياسي والديني، وقد تركتْ وفاته هوّة كبيرة في كيان الأمة المسلمة في هذه الدولة، فالرجل الذي تولّى قيادة الجهاد والدفاع في جميع المواطن، وفي جميع ميادين الأمة، وردّ على الأعداء ردّا قويا، ووقفَ سدّا منيعا أمام كل طوفانٍ وكل سهامٍ تتوجّه إلى الأمة، أصبحتْ بعد وفاته تتعرّض للهجوم والسهام صباح مساء، وليلا ونهارا، وليس في الميدان إلا بعض الأصوات المرتجفة من الخوف، والمرتعشة من الوجل، الخافتة التي لا تزيل الوحشة، ولا تكسر الهدوء، ولا تهدّد الخصومَ!

كما استمرّ الخلاف والفرقة في الحزب الذي تركَه في الميدان، وذهب خلفاؤه وأصحابُهُ، كلٌّ في طريقه مع شرذمة قليلة من الأتباع، حتى أصبح «التحالف الإسلامي» مجرّدَ حزب دون أن يكون "تحالفا"، وأصبح حزبه السياسي في سرير الاحتضار وفي قائمة الانتظار، وقد ترك الشيخ أحلاما كثيرة على أكتاف العلماء لم تتحقّق في حياته، فكان يكرر أهمية الإعلام الإسلامي، ودور العلماء في الصحافة، ويفكّر في فتح مشروع إعلامي، كما كان يركّز على المصرفية الإسلامية في العصر الحاضر، ويرسم خريطة طريق لفتح **«مصرف الأمين الإسلامي»**.

رحم الله الشيخ الأميني، ورزق هذه الأمة من يقوم مقامه، ويحقّق أحلامَه، ومن يغضب لله ولدينه، وقد أثبت في حياته أن لله رجالا يغضبون له!

الأستاذ غلام أعظم

(١٩٢٢- ٢٠١٤)

المؤلف الكبير، الزعيم السياسي، أمير «الجماعة الإسلامية»

لا يعدّ هذا الإنسان من أبرز زعماء السياسة الإسلامية في هذه الدولة وحدَها، وإنما يعدّ من طليعة القادة الإسلاميين ومن أشهر السياسيين في شبه القارة الهندية الذين عرفَهم العالم الإسلامي برمّته، له سمعة طيّبة، وشهرة حميدة، ومكانة كبيرة في قلوب علماء الإسلام، وخصوصا عند علماء العرب، قادَ أكبر حزب ديني وسياسي في بلده، وكتبَ مؤلفات قيّمة، ترك بها أثرا خالدا في قلوب ملايين البشر، فكان مدرسةً فكرية وسياسية كبيرة، لا يزالَ يتحسّس أثرها آلاف الناس، إنه الزعيم السياسي، والكاتب الكبير، والأديب الأريب، وقائد حركة اللغة البنغالية عام ١٩٥٢م، وأمير الجماعة الإسلامية الأسبق، الشيخ الأستاذ غلام أعظم رَحِمَهُ اللهُ.

قبل أن نتحدّث عن هذا الإنسان ونجول معه في أودية المعرفة، لا بد أن نعرف في البداية وفي لمسات يسيرة أن هذا الإنسان قد صبّت عليه السلطة البنغلاديشية تهمة خيانة كبرى في تاريخ هذه الدولة، خيانة مع وطنه وأبناء وطنه، وقتل بني قومه، وغصب بنات أمّه حواء، حتى أصبح عندها وعند عدد كبيرٍ من أبناء هذا الوطن زعيما من زعماء الطابور الخامس، وقائدا من قادة الخونة، وذيول الأعداء، وأمراء القتلة والمغتصبين، وأذناب الجيش الباكستاني الغاشم، فحكمت عليه المحكمة العليا بالسجن السرمدي، وقضى الأستاذ أيامَه الأخيرة وراء القضبان، ولم يخرج منه إلا على أكتاف الرجال، لذلك عندما يريد أن يتحدّث عنه متحدث أو يكتب فيه كاتبٌ، لا بدّ أن يكون على حذرٍ وانتباه، ويتشبث بمحايدة وأمانة علمية ودينية، ولا يسمح بأن تشذّ عنه كلماتٌ توقع المترجَمَ في ضيق، أو تجحف المترجَم له، وتبخسه في حقّه.

من الميلاد إلى ميدان الحياة

[illegible]

مع السيد أبي الأعلى المودودي

[illegible]

وطريقة تطبيقها، حتى أعجب بالسيد المودودي إعجابا كبيرا، ونالَ فيه بغيته وطمأنينته، وانضمّ تحت لواء الجماعة الإسلامية.(1)

في القيادة العظمى للجماعة

وضعَ الأستاذ غلام أعظم ثقتَه وإيمانه ويقينه في الجماعة الإسلامية، فنهض يجتهد ويجاهد من أجلها، ونشرها في المجتمع، وتبليغ رسالتها إلى الشعب، والتجنيد لمستقبلها، وترغيب الناس في الانضواء تحت رايتها، حتى فوجئ بالمحنة قبل إكمال سنة، ودخلَ في السجن عام ١٩٥٥م، ومن غريب المصادفة أن هذه المحنة التي بدأتْ في السنة الأولى من حياته السياسية والجهادية، استمرّت معه طول حياته، وأحاطتْ به من كل جانب، فكان السجن عالمه الذي عاشَ فيه طويلا، حتى كانتْ وفاتُه في السجن!

من أجل هذا الإخلاص والاحتساب، والجهاد والاجتهاد، والبذل والعطاء، أعجب به القادة والعامّة، وقابلوه بالثقة العظمى، وأناطوا به قيادة هذه القافلة الكبيرة، وتوجيه هذا الموكب العظيم الفريد، فاختير أمير الجماعة الإسلامية بباكستان الشرقية عام ١٩٦٩م، ثمّ لما ظهرت الجماعة على مسرح الدولة الجديدة بعد أن اختبأت عن ميدان السياسة لفترةٍ كبيرة، إبان حرب التحرير وظهور بنغلاديش، اختير الأستاذ أميرها عام ١٩٩١م، وظل في منصبه عشرة أعوام، حتى اعتذرَ عن هذه المسؤولية الثقيلة عام ٢٠٠٠م لسبب طول جهاده، وفتور جسمه دون فتور الروح والضمير، لكن بقي يوجّه ويقود، وينصح ويدير، ويحتلّ مكانا فوق مكان الرئاسة والإمارة في قلوب الناس.

وقفَ الأستاذ أعظم حياتَه على السياسة والقيادة، وقضى معظمَ حياته في الشارع والساحة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويردّ على الطواغيت الظلمة، ويدافع عن السياسة الإسلامية، ويجاهد من أجل تحقيق الحلم الذي على أساسه نشأتْ باكستان وجاءت في الوجود، وهنا تتجلى عبقريته ونبوغه في السياسة وإخلاصه في العمل، عندما نراه يقف مع العلماء على اختلاف المشارب والمناهج، والأفكار والآراء، يقف معهم في مواطن كثيرة وعلى رصيف واحد من أجل تحقيق المصالح العظمى، فهذا في عام ١٩٦٤م يجلس مع الأحزاب السياسية الكبرى، بما فيها «نظام الإسلام» الذي كان يقوده علماء ديوبند، وهذا يجلس مع «جمعية علماء الإسلام»، و«نظام الإسلام» هو الآخر، والأحزاب

(1) مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٢، ص٥٧، ٦٣، ١١٣ وما بعدها

من الميلاد إلى ميدان الحياة

وُلد الأستاذ في داكا عام ١٩٢٢م، في أسرة مسلمة شريفة تنتهي من جهة الأمة إلى السيد عبد القادر الجيلاني، لها مكانةٌ في المجتمع، وشهرةٌ في العلم والمعرفة، وكانت هذه الأسرة نموذجا رائعا ومثالا حيّا للجمع بين الثقافتين الدينية والعامّة، وبين محاسن القديم والجديد، وفضائل الدين والدنيا، فكان جدّه مولانا عبد السبحان من كبار العلماء في عصره، ومتخرّج المدرسة المحسنية في العاصمة ومدرّسها، بدأ الدراسةَ في كتاب قريته بمحافظة «كُملّا»، ثم دخلَ في جامعة داكا واجتازَ الماجستير في علوم السياسة عام ١٩٥٠م، ثم بدأ مرحلةً جديدةً من حياته بتولّي التدريس في «كلية كارمايكل» بمحافظة «رانغبور» نهاية عام ١٩٥٠م.(١)

كما بدأ معه الدعوة والإصلاح، وشاركَ في «جماعة الدعوة والتبليغ»، فكان يحضر في مساجد ومجالس عامة، ويتحدّث إلى الناس حديث الإيمان واليقين، ويذكّرهم بأيامهم ومسؤولياتهم، حتى اختير أمير جامعة الدعوة والتبليغ في «رانغبور»، ولم تدم مهنة التدريس هذه إلا خمس سنوات، كما لم تستمرّ جهوده في الدعوة والتبليغ إلا سنتين، ثم شاركَ في حركة إصلاحية اجتماعية في «رانغبور» باسم «تمدن مجلس»، إلا أنه لم يجد بغيته في هذه كلها ولم يطمئنّ لها، حتى جاءتْ في حياته نقطة تحوّل كبير، جعله من واد إلى واد آخر، وذهبَ به من درب إلى درب، ونقله من عالمه إلى عالم ثانٍ، وأصبح من جبهةٍ إلى جبهةٍ بينهما صراعٌ مستمرّ قديم، ضاربٌ في التاريخ.

مع السيد أبي الأعلى المودودي

لا شكّ أن ركيزة شخصية الأستاذ غلام أعظم هي السياسة، فهي التي جعلت له مكانة في العالم، وخلّدته في التاريخ، وجعلتْ من مدرّسٍ كلية موجّهَ شعب كبير، وزعيم حركة سياسية كبرى، وقائد ملايين الناس، وقدّمته إلى العالم العربي بشكلٍ رائع، وكان الأستاذ سياسيا مطبوعا، كأنه قد وُلد سياسيا، ولذلك كان له دورٌ قيادي حتى في أيام دراسته وتحصيله، فكان الأمين العام لـ«الندوة الطلابية المركزية» لجامعة داكا عام ١٩٤٩م، وقد برزتْ هذه الموهبة السياسية عام ١٩٥٤م بعد أن توارت لفترةٍ كبيرةٍ، عندما تعرّف الأستاذ على الشيخ السيد أبي الأعلى المودودي رَحِمَهُ اللهُ مؤسس «الجماعة الإسلامية»، فدرسَ حياتَه ومنهجه، وقرأَ كتبَه وبحوثَه، وأفكارَه في السياسة، وآراءَه في النظام الإسلامي،

(١) جريدة "شنغرام" (الكفاح) اليومية، مقال شمس العارفين، الجمعة، ٢٤ أكتوبر، ٢٠١٤م

طريقة تطبيقها، حتى أعجب بالسيد المودودي إعجابا كبيرا، ونالَ فيه بغيته وطمأنينته، وانضمّ تحت لواء الجماعة الإسلامية.(١)

في القيادة العظمى لـ«الجماعة»

وضعَ الأستاذ غلام أعظم ثقتَه وإيمانه ويقينه في الجماعة الإسلامية، فنهض يجتهد ويجاهد من أجلها، ونشرها في المجتمع، وتبليغ رسالتها إلى الشعب، والتجنيد لمستقبلها، وترغيب الناس في الانضواء تحت رايتها، حتى فوجئ بالمحنة قبل إكمال سنة، ودخلَ في السجن عام ١٩٥٥م، ومن غريب المصادفة أن هذه المحنة التي بدأتْ في السنة الأولى من حياته السياسية والجهادية، استمرّت معه طول حياته، وأحاطتْ به من كل جانب، فكان السجن عالمه الذي عاشَ فيه طويلا، حتى كانتْ وفاتُه في السجن!

من أجل هذا الإخلاص والاحتساب، والجهاد والاجتهاد، والبذل والعطاء، أعجب به القادة والعامّة، وقابلوه بالثقة العظمى، وأناطوا به قيادة هذه القافلة الكبيرة، وتوجيه هذا الموكب العظيم الفريد، فاختير أمير الجماعة الإسلامية بباكستان الشرقية عام ١٩٦٩م، ثما لما ظهرت الجماعة على مسرح الدولة الجديدة بعد أن اختبأت عن ميدان السياسة لفترةٍ كبيرة، إبان حرب التحرير وظهور بنغلاديش، اختير الأستاذ أميرها عام ١٩٩١م، وظل في منصبه عشرة أعوام، حتى اعتذرَ عن هذه المسؤولية الثقيلة عام ٢٠٠٠م لسبب طول جهاده، وفتور جسمه دون فتور الروح والضمير، لكن بقي يوجّه ويقود، وينصح ويدير، ويحتلّ مكانا فوق مكان الرئاسة والإمارة في قلوب الناس.

وقفَ الأستاذ أعظم حياتَه على السياسة والقيادة، وقضى معظم حياته في الشارع والساحة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويردّ على الطواغيت الظلمة، ويدافع عن السياسة الإسلامية، ويجاهد من أجل تحقيق الحلم الذي على أساسه نشأتْ باكستان وجاءت في الوجود، وهنا تتجلى عبقريته ونبوغه في السياسة وإخلاصه في العمل، عندما نراه يقف مع العلماء على اختلاف المشارب والمناهج، والأفكار والآراء، يقف معهم في مواطن كثيرة وعلى رصيف واحد من أجل تحقيق المصالح العظمى، فهذا في عام ١٩٦٤م يجلس مع الأحزاب السياسية الكبرى، بما فيها «نظام الإسلام» الذي كان يقوده علماء ديوبند، وهذا يجلس مع «جمعية علماء الإسلام)، و«نظام الإسلام» هو الآخر، والأحزاب

(١) مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٢، ص٥٧، ٦٣، ١١٣ وما بعدها

السياسة الأخرى عام ١٩٦٩م، للجهاد صفا واحدا ضد طواغيت باكستان، كما استمرّ في هذا الدور القيادي بعد الانفصال وبعد ظهور بنغلاديش.

المعاناة في سبيل الحياة

أما المحن والمعاناة فحدّث عنها ولا حرج، حتى لو قيل إنها لم تكن حياة الأستاذ غلام أعظم إلا قصّة طويلةً من المعاناة، ومسرحية حيّة من البلاء والعناء، والمحن والامتحانات، لا تكون فيها أيّما مبالغة، لكن المهم أنه خرج منها كلها ظافرا ظاهرا، حتى لقي ربه ﷻ شهيدا مبتسما بإذن الله، فالمعاناة التي بدأتْ في فترةٍ مبكّرة من العمر دامتْ معه ما دامتْ حياته، فدخلَ في السجن لأول مرّة عام ١٩٥٥م، وتوفّيَ في السجن عام ٢٠١٢م، وفي الفترة التي بينهما دخلَ في السجن مرارا وتكرارا، وقضى فيه أشهرا وأعواما، وحرِمَ من جنسيّته، فقد ألغت الحكومة جنسيّته عام ١٩٧٣م تحت رئاسة «الشيخ» مجيب الرحمن بعد استقلال بنغلاديش بفترة يسيرة، على أساس دوره في حرب التحرير، ولم يسترجعها الأستاذ إلا بعد أكثر من ٢١ عاما، كما نُفي عن وطنه والتجأ إلى باكستان، ثم إلى بريطانيا وعاش فيها فترةً كبيرةً، ثم عادَ إلى وطنه، وعاشَ فترةً كبيرةً كزائرٍ في مسقط رأسه، وغريب في بيته!

توزّع العلماء على معسكرات تجاه حرب التحرير

عندما نشبت معركة بين شقّي باكستان الشرقي والغربي، أو قل بين بنغلاديش وباكستان، توزّع علماء بنغلاديش على ثلاثة معسكرات في موقفهم من هذه الحرب، التقى معظم العلماء مع جمهور الناس على رصيف واحد، فنزلوا في الساحة، وحملوا السلاح ضدّ جيوش الظلمة الطاغية، ودافعوا عن الوطن وعن الأمة اعتداء المعتدين وظلم الظالمين، غير هيابين لسطوة الحكام، ولا قوة الدولة وصولة الجيش! كما تخلّفَ بعض العلماء المرتزقة وهم أقلّ قليل الذين لم يفهموا طبيعة الموقف، ولم يقرؤوا الواقع قراءة صحيحة، فالتقوا مع الطابور الخامس، ولو اكتفوا بذلك ما كان في أعمالهم ضررٌ كثير، لكنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وحملوا السلاح ضدّ إخوانهم، وخانوا بني قومهم، وساعدوا الجيش الباكستاني على عدوانهم، وظنّوا أنهم يحسنون صنعا ويدافعون عن وحدة الوطن، ويجرّدون السيوف للقضاء على العصيان والتمرّد، بينما يشهد التاريخ والتجارب على أنهم كانوا في خطأ فاحش، وغلط مبين، وحفروا قبرا لأنفسهم، وكان أكثرهم ممن ينتسبون إلى الرابطة المسلمة، ثم إلى الجماعة الإسلامية.[1]

(١) البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شكر حسين الشيخ، ص [illegible]

بينما كان هناك معسكرٌ ثالث من العلماء الربانيين والقادة السياسيين والمشايخ العارفين، وكانوا يرون هذه الحرب تقسيما في المجتمع الإسلامي، ونشوب حرب العداوة بين الإخوان المؤمنين، ووقوعا في شراك الاشتراكية والعلمانية والوثنية، وليس تحريرهم من أغلال الاستبداد والاستعباد، وأخذ حقوقهم من الظالم، بل هي عين الاستعباد، ومجرّد التنقل من عبودية «راولبندي» إلى عبودية «دهلي»، ومن الجمهورية الإسلامية إلى الجمهورية القائمة على العلمانية، وكانوا يرونها حربا أهليا في بيوت المسلمين، أشعلها الجار الخائن، وهو الذي سيكسب ربحها في نهاية المطاف، وسيشمت بخسائر المسلمين،[1] إلا أنهم لم يحملوا أسلحة، ولم يتحزّبوا أحزابا، بل ظلّوا محايدين في مواقفهم، لا هؤلاء ولا هؤلاء، كان كثير من علماء وقادة الجماعة الإسلامية في المعسكر الثالث، وكان معهم الأستاذ غلام أعظم،[2] والسبب-كما أوضحنا- هو الدفاع عن وحدة الأمة، والابتعاد عن مساعدة الاشتراكية والعلمانية في تقويض دولة إسلامية وتأسيس دولة لادينية في مكانها.[3]

من هنا يتجلّى موقف علماء بنغلاديش من حرب تحريرها، وهذه هي الحقيقة التي لا غبار عليها، ويشهد بها تاريخ الحرب والشهادات الصادقة من المجاهدين الذين نزلوا في الساحة متكاتفين مع العلماء، فشاهدوا بأم أعينهم مواقف العلماء الصلبة تجاه تحرير وطنهم، وجرأتهم وشجاعتهم، ودفاعهم عن أرواح إخوانهم، وأعراض أخواتهم، وبيوتهم وأموالهم، لا كما تملي الحكومة على المؤلفين المتطفّلين الذين ينظرون إلى حرب الاستقلال بعدساتهم، ويؤرخونها وفق أهوائهم، فيحوّلون المجاهدين إلى المنافقين، ويجعلون المؤمنين كالمجرمين، ويجعلون من الأعداءِ الأبطالَ، ومن الخونةِ القادةَ، ويرسمون العلماء ومن كل من يدين بالإسلام في صميمه ألد أعداء الاستقلال، وأقرب الناس إلى الجيش الباكستاني الاحتلالي، ثم ينعقون بالإلحاد والعلمانية في كل واد، تحت دعوى حرية الاعتقاد، وعدم الحجر على التفكير الحرّ، ويتّهمون الدين بالرجعية والجمود، ويفصلونه عن السياسة، ويتغنّون بمجد الهيمنة الوثنية.

من أجل هذا السوار من الغموض والإبهام، وهذه الهالات من الظلم والظلام والدسائس والمكائد، حول مواقف أبناء هذا الوطن من حرب استقلاله، ومن أجل مساعي كل حزبٍ لجرّ النار إلى قرنه، عندما نرى الحكومة البنغلاديشية تقبض على قادة الحركة الإسلامية، وتتّهمهم بارتكاب جرائم فادحة

(١) دولتي بنغلاديش، تأليف الأستاذ غلام أعظم، ص٣٠، ٣٦ وما بعدها

(٢) انظر مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٣، ص١٣٥، ١٤٦، ١٥٠ وما بعدها، وانظر كذلك كتاب "من ٥٢ إلى ٧١"، تأليف ابن غلام المصطفى ص٣٧ و٣٨

(٣) دولتي بنغلاديش، تأليف الأستاذ غلام أعظم، ص٤٠ و٤١ و٤٧ و٤٨

)ضدّ الإنسانية (أثناء الحرب، وتكيل عليهم التهم الشنيعة، ثم تمثلهم أمام المحكمة التي تُسمّىٰ)الدولية(، لتحكم عليهم بالإعدام دائما، وبالسجن المؤبّد أحيانا، كما نفذ حكم الإعدام شنقا بالشيخ مطيع الرحمن النظامي،(١) والشيخ عبد القادر الملا، والشيخ قمر الزمان، ونفذ السجن المؤبد على الأستاذ غلام أعظم، والشيخ عباس علي خان، والسيد دلاور حسين السعيدي، ولا يزال هؤلاء وأصحابهم في بنغلاديش قائمين على مفترق الطرق، وعلى الخطر المقبل، تطاردهم الحكومة، وتصادر أملاكهم، وتحاكم أهلهم وذريتهم محاكمات طويلة وعريضة، هكذا دفعوا أبهظ ثمن وأغلاه لهذا الموقف في التاريخ، لا يتخلّون عن تبعاته جيلا بعد جيل، حتى ظل الناس يعتقدون أنهم هم المسؤولون حقا عن هذه الكارثة التي وقعتْ في تاريخ حرب الاستقلال، وهم الذين جاؤوا بالجيش الوافد الجبار، وفتحوا على أهلهم وبني جلدتهم أبواب المأساة، فباؤوا بإثمها، وحصدوا شرها!

عندما نرى هذه كلها، ويراها الناس- علماؤهم وعامتهم- في وسائل الإعلام وفي المحافل والمجالس، ويجدونها عندهم مكتوبة في الكتب والمجلات، ثم لا يرون من يفندها بقوة، ويرفع صوته ضدها، هنا لا يجد الناس مستندا قويا على تبرير ساحاتهم من تلك التهم، ولا يطيقون أن يعلنوا إياهم وذيولهم نقيّة صافية، فقدتْ ثبتت معارضتهم في التاريخ، كما ثبتت معارضة حزبهم.

إلا أن هذه التهم كلّها من القتل والاغتصاب، والاعتداء على النفوس البريئة، والمجزرة الجماعية للمسلمين، والسرقة والنهب، وقطع الطرق، وهتك الأعراض، وإحراق البيوت والأموال والناس، هذه التهم التي صُبّت على رؤوس هؤلاء الأعلام المسلمين، والقادة السياسيين، وزعماء حزب إسلامي له مجدٌ وله تاريخٌ، هذه كلها تفوق حدّ الخيال، ولا يؤمن بها أحدٌ إلا إيمانه بشيءٍ طارتْ به العنقاء!

الرجل الذي وُلد في أسرة مسلمة شريفة، وافتتح دراستَه بكتاب الله وسنّة رسوله، ثم درسَ في

---

(١) إنه الزعيم الكبير، العالم السياسي الخبير، أمير الجماعة الإسلامية الأسبق ببنغلاديش، مولانا مطيع الرحمن النظامي رحمه الله، وُلد عام ١٩٤٣م في محافظة «بابنا»، في أسرة دينية شريفة، نشأ وترقّى تحت ظلال القرآن وفي محيط الإسلام، وأخذ الدراسة الابتدائية والثانوية في محافظته، ثم دخلَ في المدرسة العالية بداكا وتخرّج في مرحلة الكامل عام ١٩٦٣م، كما حصلَ على شهادة الماجستير من جامعة داكا عام ١٩٦٧م، شاركَ في «الجمعية الطلابية» التابعة للجماعة الإسلامية منذ أيام طلبه، وبذلَ جهده، وأبرز جدارته وقيادته، وواصلَ سيره إلى القمة، وظلّ في المناصب الحساسة للجماعة، حتى أصبح أميرها عام ٢٠٠٠م، كما دخلَ في الانتخابات الوطنية ودخلَ في البرلمان أكثر من مرّة، وأصبح وزير الزراعة والصناعة! وهو يدل على شعبيته لدى عامة الناس وقبوله، عُرف الشيخ النظامي بجهوده الدعوية والحركية والسياسية منذ صغره، فأسس الجمعيات، وأدار الحركات، وقاد المظاهرات، في مناسبات شتى، وكان حربا على الظلم، وصريحا جريئا في مخالفته للحكومة المستبدّة، حتى أصبح قذى في عينها، فاتهمته بتهم كثيرة، وفي نهاية المطاف أعدمته شنقا عام ٢٠١٦م، وسط تنديدات دولية كبيرة.

المدرسة الدينية، وتعمّق في القرآن وعلم الشريعة، ودرسَ حقوق المسلمين وحقوق الذمّيين، وأحكام الإسلام في الحرب، وحقوق النساء والأطفال والمدنيين خلال القتال درسا وافيا، ثم تولّى إمارة أكبر وأقوى حزب إسلامي في عموم الدولة، وتولّى تربية وتنشئة وتوجيه ملايين البشر، وأودع لديه ثروة هائلة من أمانة الناس وأمانة الحزب، ثم كيف يقوم هذا الإنسان في الحرب ويشهر السيف، ويعمله في رقاب إخوانه، ويقتل بني جلدته قتلا جماعيا، ويعيث في الأرض فسادا، ويهتك أعراض أمهاته وخالاته، ويغتصب بناته وأخواته! وينهب ويسرق أموال الناس! هذه الأشياء كلها لا تصدّقها النفوس، ولا تقبلها محكمة العقل، ولا تؤيدها الشواهد، بل تشهد بعض المصادر التاريخية أن دور الأستاذ غلام أعظم في الأيام الأولى من حرب التحرير كان يقتصر على مناصرة فكرة وحدة باكستان، ومعاصاة فكرة انفصال شرق باكستان عن غربها، لكن لما شاهدَ غطرسة الجيش الباكستاني وعدوانَه على أبناء هذا الوطن، أحجمَ عن موقفه، وطلب من الحكومة الباكستانية أن تتوقّف عن هذه الحرب!

إلا أن بغض السياسة وحقدها، وحبّ القوّة، والتعلق بالمادة والطمع في المناصب والوظائف، والتكالب على السلطة، وانهيار المبادئ، هي التي تعمي البصائر والأبصار عن رؤية الحق الواضح، وهي التي تحول دون العدل والإنصاف، والصدق والأمانة، وهي التي تسود وجه التاريخ، وتكتب بمداد العار مأساة الظلم والاستبداد، والطغيان والعدوان، مع ذلك كله، هذا يبقى من ناحية حسن ظننا بهؤلاء الرجال، ثم الدلائل التاريخية وشهادات الثقة بهم، وليس العلم اليقين، فالعلم عند الله، وهو لا تخفى عليه خافية، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

كيف كانت أيامه الأخيرة؟

في عام ٢٠١٣م ألقي القبض على الأستاذ غلام أعظم وهو شيخٌ تقدّمت به السنّ، وعجزَ عن الوقوف على قدمه والمشي بشكل كامل، وفترَ جسمه، وضعفتْ قوّته، وعمره يزيد على تسعين عاما، اعتقلته الحكومة في تلك الحالة الدقيقة بتهمة ارتكاب الجرائم ضدّ الإنسانية، وعمليات التخريب أثناء حرب التحرير، اختلقتها الأجهزة الخبيثة اللئيمة، فتكررت مأساة المحاكمة الصورية، حتى حكمتْ عليه المحكمة بالإعدام شنقا، ورفض الشيخ التماس العفو بإباء العلماء، وشمم الأولياء، ثم بعد فترة خفّف الحكم إلى السجن مدى الحياة، فظلّ في السجن زهاء سنة، حتى وافاه الأجل المحتوم وانتقل إلى رفيقه الأعلى عام ٢٠١٤م، فكان ذلك براءته من التهم، وخلاصه من المحن، وقد أبت نفسه الأبية الكريمة ذات المعدن الطيب أن تغترّ بالدنيا، وتُغرى بعرضها، وتُسيل لعابه على فتاتها!

عبقري نادر يشهد به صديقه وعدوه

كانت حياته موزعة بين وجهات كثيرة تكاد تكون متناقضة، إلا أنه بفضل نشأته الفريدة الجامعة بين القديم والجديد، والتعليم الشرعي والمدني، والعربي والإنجليزي، والدين والدنيا، أنجز رسالته بحيث يعجز قليل من الناس.(١) فهو سياسي عالم، وسياسي مثقف في غاية من الثقافة، وسياسي كاتب، وسياسي أديب، وسياسي فيلسوف، ولذلك نرى أنه رغم المسؤوليات الكبرى والأشغال الشاقة في مجالات شتى، برزت عبقريته في الكتابة والإنشاء، والتأليف والترجمة، وقد شارك في حركة اللغة البنغالية في خمسينيات القرن الماضي، وكان له دور ريادي في تحديد مكانة البنغالية كاللغة الأم لأبناء هذه الدولة، عندما أرادت الحكومة الباكستانية أن تفرض عليهم الأردية كاللغة الأم، وتسلب من أفواههم لغة أمهم.(٢)

قضى الأستاذ أعظم معظم حياته في الحركات والمعاناة، في فترات دقيقة معقدة من تاريخ هذه الدولة. فترات ما كانت الظروف تسمح فيها بعمل إيجابي هادئ بناء، لاضطراب حبل الأمن، وتوتر الأعصاب. وعليه مزجت حياته السياسية والعقيدية، مع ذلك لو ينظر القارئ في حياة هذا الإنسان ومسيرته العلمية، يأخذه العجب والدهشة، من كثرة ما أنجز من الأعمال الفكرية، وما حرر من الصحف ونشر من المجلات. وكان كاتبا موهوبا مطبوعا، يملك سلامة الذوق، وحسن الترسل، والأسلوب السهل الرقيق. فكتب كتبا كثيرة، كتب في التفسير والحديث، والسيرة والتاريخ، والسياسة والحركة، والفكر والفلسفة، والثقافة والاجتماع، وقد يبلغ عدده مئة كتاب تقريبا، لا تزال تشهد على نبوغه وعبقريته، وسعة اطلاعه، وعمق فكره وبعد نظره، واطلاعه من اللغات والآداب، والبلاغة والبيان، ونزاهته من الاختلال والتكلف، وسلامته من الغموض وبراءته من التعقيد، ويجعل القارئ يتساءل كيف تفرغ له هذا الإنسان ومتى؟

من أهم ما كتبه: [illegible] ◊ الإسلام والفلسفة ◊ الإسلام والعلم ◊ الحركة الإسلامية: النجاح والفشل ◊ معالم النظام التعليمي الإسلامي ◊ على طريق الوحدة الإسلامية ◊ ترجمة معاني القرآن

(١) [illegible] مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم [illegible]

(٢) [illegible] غلام أعظم، ص٣٠، وكتاب الحركة [illegible] ص٤٧ إلى ٥٢، تأليف مصطفى كمال (فبراير ١٩٨٧م) [illegible] مقدمة كتاب مشاهد من حياتي [illegible] غلام أعظم، وكذلك جريدة [illegible] اليومية، [illegible] ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٤م.

الكريم (ثلاثة مجلدات) ◊ مشاهد من حياتي (ثمانية مجلدات، وهي ذكريات حياته، وتعد من أعظم أعماله الأدبية والتاريخية) ◊ من ساحة بلاسي إلى بنغلاديش ◊ بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ◊ سجن المؤمن ◊ السياسة في حياة المصطفى ◊ الإسلام والديمقراطية ◊ بين إقامة الدين وخدمة الدين ◊ العلمانية ◊ الإسلام في العالم المعاصر◊ الصلاة الحية ◊ Political thoughts of Abul A'la Mawdudi ◊ Address of Allah وغيرها كثير، وقد ترجمت عدة كتبه إلى الإنجليزية والأردية والتاميلية والآسامية.(١)

صلته بالعلماء وجهوده في توحيد الأمة

كان إنسان عظيما، واسع الصدر، بعيد النظر، ومقدّرا لصاحب الفضل فضله، لذلك رغم أنه انتهج منهجا خاصّا في الإصلاح والسياسة، منهج يختلف عن منهج جمهور علماء هذه الدولة، إلا أنه حاول طوالَ حياته للحفاظ على وحدة الأمة، وتوحيد كلمة المسلمين، وجمع شملهم، والوقوف بالجميع صفّا واحدا، من أجل تحقيق المصالح المشتركة الكبرى، والغايات العظمى، ونية المؤمن أبلغ من عمله، ولذلك نراه ينشر رسالة صغيرة باسم «الوحدة الإسلامية والحركة الإسلامية» عام ١٩٧٨م، ويلقي ضوءا على طريق الوحدة وجمع الكلمة، ويرسل ممثّلين إلى قادة علماء ديوبند، وأمراء الدعوة والتبليغ، وأصحاب المراكز الدينية الكبرى، ومشايخ الطرق والتصوف، حتى أنشأ– مع العلماء الآخرين– جمعية «اتحاد الامة» عام ١٩٨١م، وكانت بمثابة منصّة يقوم عليها معظم كبار علماء بنغلاديش على اختلاف مناهجهم ومشاربهم، بحيث قل نظيرها في التاريخ، لكن هذه المحاولات لم تنجح في النهاية، في وجه مخالفة بعض كبار العلماء لها، كان على رأسهم الشيخ المرشد محمد الله الحافظجي رحمه الله، ثم لأسباب ليس هذا الكتاب موضع بيانها،(٢) لكنه لم يقطع أمله قط من الوحدة، وظل يحلم بها مؤمنا مخلصا إلى آخر أيامه في الدنيا، وأفضل دليل على ذلك كتابه «تاريخ جهود الوحدة الإسلامية في بنغلاديش: ١٩٧٨– ٢٠٠٥م» الذي صدرَ قبل وفاته بسنوات معدودة.

وقد كان لصلته المتينة بكبار العلماء، وتأثره بالدعاة الربانيين في بداية حياته وشبابه دور كبير في تكوين عقليته السمحة هذه، وكان على صلة قوية بالعلامة شمس الحق الفريدبوري، صلة يعتزّ بها، وقد

(١) انظر قائمة كاملة لكتبه في روّاد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ج ١، ص٩٤

(٢) مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٥، ص٢١٦، وكذلك ٢٥٩ وانظر كذلك ج ٦، ص٤٨ ما بعدها

ترك الفريدبوري أثرا كبيرا فيه صرّح به الأستاذ في كتبه، كما كان على صلة بالشيخ العلامة نور محمد الأعظمي، والشيخ مولانا فضل الكريم، والشيخ مولانا محمد أكرم خان، وتأثر بالشيخ مولانا عبد العزيز أمير الدعوة والتبليغ، والشيخ مولانا أطهر علي، رحمهم الله جميعا، كما كان لجماعة الدعوة والتبليغ أثر عميق في حياته الدعوية.[١]

الأستاذ على مسرح العالم الفسيح

إن كان وطنه لم يعرف هذا الإنسان الكبير، بفعل السياسة الحاقدة الكريهة، وثقافة البغض والحسد، والخلاف على القضايا الفرعية والمسائل الجزئية، إلا أن العالم قد عرفه حقّ المعرفة، فقدّر جهوده، وكرّم مثواه، وقد سافرَ الأستاذ إلى بلدان شتّى من الشرق والغرب، يلقي الكلمات، ويدير المؤتمرات، ويخوض مع العلماء والقادة الحوارات، ويناقش القضايا الدينية، والمسائل المشتركة، فشاركَ في المؤتمر الدولي للندوة العالمية للشباب الإسلامي عام ١٩٧٢م، وشاركَ في مؤتمر الشباب الإسلامي بطرابلس عام ١٩٧٣م، وفي مؤتمر الرابطة العالمية بمكة عام ١٩٧٤م، كما شاركَ في مؤتمر منظّمة فوسيس (FOSIS) في بريطانيا، وزار تركيا عام ١٩٧٧م، وشاركَ في مؤتمر الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية، وتحدّث فيه، وسافرَ إلى اليابان عام ١٩٩٩م على دعوة من المركز الإسلامي باليابان، وشاركَ في مؤتمره السنوي، وقد سافرَ إلى الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة مرارا وتكرارا،[٢] وزارَ المملكة السعودية، وحجّ واعتمر، وجلسَ مع الملك فيصل بن عبد العزيز أكثر من مرّة، كما جلسَ بعده مع الملك خالد بن عبد العزيز، وناقشَ الأمور الدينية والسياسية والدولية.[٣]

كيف كافأه الناس؟

الرجل الذي عرفَه العالمِ بأسره، وعرفَ مكانته علماء العالم العربي، ورؤساء الدول الإسلامية، فشكروه وكافؤوه، لم يعرفه وطنه، ولا أبناء وطنه، بل لم يعرفه حزبه حقّ المعرفة، أو عرفَه ولم يقدّر قدرَه، وغمطه حقّه من الإنصاف والاعتراف، والعرض والتقديم، والتشريف والتكريم، فلو يسأل اليوم أحدٌ

(١) انظر تقديم الدكتور القاضي دين محمد لكتاب مشاهد من حياته، للأستاذ أعظم، المجلد الأول، ثم انظر اعتراف الأستاذ بنفسه بتأثير مولانا فريدبوري وجماعة الدعوة والتبليغ في حياته ص٩٠، ٩٢، ٩٨، ١٨٨، ٢٢٦ ٢٨٣ وغيرها

(٢) انظر تفاصيل أسفاره الخارجية في روّاد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام، ج ١، ص٩١ وما بعدها

(٣) مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم، ج ٤، ص١٧١، ج ٥ ص١٦

حزبَه والجيل الذي نشأ تحت ظلّه، ماذا قدّموا لهذا الإنسان في حياته، وماذا قدّموا له بعد وفاته؟ لا ندري ماذا سيكون جوابهم، التهم التي من أجلها قضى الأستاذ المسنّ أيامَه الأخيرة في السجن، هل فعلوا شيئا يبرّر ساحتَه عنها ولو بعد وفاته؟ وهل كتبوا ترجمتَه بقلم الإنصاف؟ وهل قدّموا كتبَه إلى العرب، وإلى العالم؟ وهل بيّنوا للقوم حقيقة موقفه من الحرب، وأيامَه وأنشطته أثناء الحرب، وقد يتساءل القارئ ما الفائدة في تسجيل تلك الحقائق بعد ما انتهت المسرحية، ووقعت الواقعة؟ لكن التاريخ يقول لنا إن إبراز تلك الحقائق بعد وفاته أكثر حاجة وأشد ضرورة منه في حياته، لأن ذلك الذي سوف يقرّر مصيره في التاريخ، وسوف يحدّد مكانته في مستقبل الأمة، فإما أن يراه العالم في سجلّ الخالدين، وإما أن يراه في قائمة المنافقين!

المفتي عبد الرحمن

(١٩٢٠- ٢٠١٥)

فقيه الملة، منشئ المدارس والمراكز الدينية، مرجع العلماء

إنه فقيه الملة، لقب يتشرّف بحامله وليس لحامله أن يتشرف باللقب، فإنه أعرف من أن يُعرف، وأشهر من نار على علم، لو ذهبتَ إلى شمال بنغلاديش ولقيتَ مسلما مثقفا أو عاميا، أو إمام مسجد، أو طالب مدرسة، وسألتَ عن هذا الإنسان، لرأيت العجب العجابَ، مع أنه لم يولد في هذه المنطقة، ولم يعش فيها إلا بضع سنوات، لكنه أنجزَ فيها إنجازا خلّده في التاريخ، وناهيك به عن مكانته في المناطق الأخرى داخل الدولة وخارجها، في شيتاغونغ، وفي العاصمة داكا، وفي العاصمة العلمية الهندية ديوبند، اذهب حيثما تشاء، كلها لا تزال تحمل بصمات تركها هذا الإنسان في حياته، إنه الشيخ الكبير، ومنشئ الجيل، ومؤسس عدد هائل من المدارس والمراكز العلمية، ومرجع العلماء، وخليفة الشيخ أبرار الحق الهردوي، فقيه الملة المفتي عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ميلاده ونشأته

وُلد عبد الرحمن في محافظة شيتاغونغ عام١٩٢٠م، في بيت متواضع لم يكن لأحد أن يتكهن بمستقبل هذا الصبي الذي وُلد فيه، لكن قدر الله كان نافذا فيه، وكان التاريخ في انتظاره، فدرسَ الابتدائية في كتاب قريته، بعد ذلك درسَ في الجامعة العربية نصير الإسلام بـ« ناظرهات»، ثم التحق بجامعة هاتهزاري ودرسَ فيها فترة، وأخيرا سافرَ إلى الهند، ودخلَ في رحاب دار العلوم ديوبند، وتخرّج في مرحلة التكميل عام ١٩٥٠م، ثم دخلَ في قسم التخصص في الإفتاء الذي فُتح لأول مرة في تاريخ ديوبند عام ١٩٥١م، وتخرّج فيه بامتياز، فكان أول طالب بنغلاديشي يحمل لقب "المفتي" من قسم

الإفتاء في ديوبند.[1]

في رحاب التدريس

عادَ عبد الرحمن شابا متدفقا إلى وطنه، يحمل من العلم والفقه مالا يحمله إلا قليل من الناس، وقد أدرك ذلك الشيخ الكبير المفتي عزيز الحق المدير المؤسس لجامعة فتية، وما أدراك مَن عزيز الحق، المعروف بفراسته وتبصّره، وبعد نظره، وخبرته بالناس، وانتقائه للرجال، وقسطاسه المستقيم، يزن الناس كما يزن الصيرفي دنانيره، فدعاَ عبد الرحمن للدخول في جامعة فتية، ولم يكن منه إلا أن يستجيب لدعوته، ودخلَ في رحاب جامعة فتية ليفتح فيها مرحلة جديدة من الحياة.

نقطة تحول في حياته وموطن عبقريته

بقي المفتي عبد الرحمن عدة أعوام في فتية، يتولى تدريس التفسير، والحديث، والفقه، والكلام، هنا حصلتْ له قصة غريبة، وجاءت نقطة التحول التي حوّلته من أفق ضيق إلى أفق واسع فسيح، وجعلت من مدرسٍ متواضع مصلحا عظيما، ومن مفتي جامعةٍ فقيهَ ملة، وصانع أمة كبيرة، ومنشئ جيلٍ كامل، ومؤسس مدارس ومراكز علمية كثيرة.

مع أن منطقة شيتاغونغ ومناطق البنغال الأخرى- ولا سيما العاصمة وما جاورها- كانت عامرة بالمساجد والمدارس منذ عهد الاستعمار، ثم كثر عددها كثرة هائلة في العهد الباكستاني، غير أن المناطق الشمالية في هذه البقعة ظلت متخلفة منذ بداية التاريخ، وقابعة في قوقعتها، فكان التعليم المدني المدعوم من الحكومة في نطاق ضيق، ولطبقات محدودة من المجتمع، لا يقدر عليه إلا أصحاب المال والثروة، أما الإنسان الذي لا يكاد يحتمل عبء أسرته، ويرزح تحت نير الضيق الاقتصادي، كيف يثقف أولادَه، ويضحي بيومه الحاضر في أمل الغد المجهول؟ أما العلوم الدينية فكانت شبه مهجورة، وكانت هذه المنطقة خاوية من المدارس الدينية، والمراكز العلمية، كما كان معظم الناس في الظلام والجهل والأمية، اللهم إلا عدة مدارس دينية كانت تبث بصيصها في هذه الليلة البهيمة المكفهرة، ووسط عواصف الفتن العمياء، لا يكاد يقطع الظلام، فضلا عن أن ينير الطريق، ويجلب الفجر المنير.

هنا قامت بعض القلوب المستنيرة من شمال بنغلاديش، وطلبوا من الشيخ المفتي عزيز الحق أن يبعث إليهم بمن ينهض بهم، ويساعدهم في نشر العلوم الدينية، والعقيدة الصحيحة، ويمحو ظلام الأمية

(١) مقال المفتي كفايت الله شفيق، مجلة الأبرار الشهرية، أكتوبر، ٢٠١٧م، ص٣٣

من هذه المنطقة، ولم يأخذ الشيخ وقتا طويلا لاختيار ذاك الإنسان الذي سيسند إليه هذه المهمة الحساسة، وينيط به هذه المسؤولية الثقيلة الدقيقة، لأن الاختيار كان قد تمّ مسبقا، والبطل كان جاهزا مستعدا، فبمجرّد الإشارة من الشيخ خرجَ عبد الرحمن ليحث خطاه إلى الشمال.

منذ عام ١٩٦٠م إلى عام ١٩٦٨م، قضى فقيه الملة عبد الرحمن ست سنوات في شمال بنغلاديش، واصلَ فيها نهاره بليله وليله بنهاره لإدراك غايته، وحرم نفسه لذة النوم والراحة لإكمال خطته، وجاهدَ جهادا دؤوبا في كل حينه، وأخلص لله ولدينه العمل، حتى بارك الله في وقته، وفي حجم آثاره، حتى أنجز في غضون ثماني سنوات أعمال ثمانين سنة! وقامت مراكز دينية كبرى في الشمال، وأنشئت مساجد وكتاتيب ومدارس بعدد هائل، وجاءتْ نهضة إيمانية ودينية وعلمية شاملة، كانت قاعدة هذه النهضة جامعة قاسم العلوم بـ«بوغرا» ، أكبر جامعة إسلامية في المناطق الشمالية ببنغلاديش المعروفة بـ«مدرسة الجميل»، وكانت مرحلة بقاء فقيه الملة فيها وتوليه إدارتها وقيادتها أعز مراحل تاريخها، ولا تزال تعمل عملها، وتقوم بدورٍ فعال لنشر العلم في هذه المنطقة.[1]

آثاره في التعليم والتربية وإنشاء المراكز الدينية

هنا لا تتوقّف عبقرية فقيه الملة في نشر العلم والعقيدة، وهنا لا تنتهي مهمته، وليست هذه وحدها دليل نبوغه، وإنما هي غيض من فيض، وقطرة من بحر، إذ نذرَ الرجل حياته كلها على خدمة الإسلام والمسلمين، ونشر الكتاب والسنة، وتعليم أبناء الوطن علما دينيا، وتربية الجيل الناشئ على أساس الإسلام، والخشية من الله، وبناء الصالحين والمصلحين، حتى قامتْ تحت إشرافه عدد كبير من المدارس الدينية، والمراكز العلمية، ومعاهد تحفيظ القرآن، في أرجاء الدولة البنغلاديشية، تأتي في طليعتها ساحة جهاده ومقر عمله في الأيام الأخيرة، "مركز الفكر الإسلامي" بـ«بشوندرا» داكا، التي أسسها عام ١٩٩١م، و"جامعة الأبرار" بـ«كيرانيغنج» داكا عام ٢٠٠٤م، و"مدرسة مدينة العلوم" بـ«بشوندرا»، و"المدرسة الأشرفية" بـ«غازيبور»، وكان له دورٌ ريادي فريد في تطوير جامعة فتية في مراحل مختلفة، كما كان رئيس هيئة المدارس الإسلامية في المناطق الشمالية التي عُرفت باسم «تنظيم المدارس الدينية»، ولا يخفى على القارئ دور هذا التنظيم في تطوير المؤسسات الدينية العلمية في هذه المنطقة.[2]

(١) مقال المفتي كفايت الله شفيق، مجلة الأبرار الشهرية، أكتوبر، ٢٠١٧م، ص٣٤

(٢) انظر مقال الشيخ المفتي منصور الحق، مجلة الأبرار الشهرية، فبراير، ٢٠١٦م، ص٣٣

عبقري الاقتصاد الإسلامي والنظام المصرفي المعاصر

لقد كان الشيخ من صفوة علماء هذه الدولة وفقهائها الذين قاموا بدور فعال في التقارب بين الاقتصاد الإسلامي والنظام المصرفي المعاصر، وتحقيق فعالية قانون التمويل الإسلامي في الواقع المعاش، لإنقاذ الأمة المسلمة من قفص الربا السائد في العالم الإسلامي برمته، بل كان لفقيه الملة دورٌ ريادي في ظهور عدة مصارف وبنوك في هذه الدولة، تعتمد على قواعد الشريعة الإسلامية، وتستمد من نورها، وتلتزم بأحكامها.

منذ فترة مبكرة كتب فقيه الملة بحوثا ومقالات علمية في مجال الاقتصاد، وفقه المعاملات، وإمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية في أنظمة التمويل المعاصر، والتحديات والعقبات، وطرق تذليلها، وقضايا التأمين الإسلامي المعاصرة، وأحكام العشر والخراج في الديار الهندية، وأحكام العملة الورقية وغيرها، وناقش أصحاب البنوك، وجالس خبراء الاقتصاد وكبار التجار والمستثمرين مجالس كثيرة، حتى حصلت استجابة حميدة، وتم إنشاء "المجلس الشرعي"، لعدة مصارف ومؤسسات مالية، وقد تولى الشيخ عضوية المجلس الشرعي لـ«البنك الإسلامي بنغلاديش»، وظل طوال حياته في رئاسة المجلس الشرعي في «مصرف العرفة الإسلامي»، و«مصرف شاه جلال الإسلامي».(١)

في عام ٢٠٠٩م أنشأ "مركز الاقتصاد الإسلامي" في «بشوندرا»، وهو معهد مستقل متخصص في الاقتصاد الإسلامي، وفقه المعاملات المالية المعاصرة، والدراسات المصرفية، فريدٌ في نوعه، كما سافرَ إلى العالم العربي وإلى الهند وباكستان عدة مرات، يشارك في المؤتمرات العالمية، يحاضر فيها، ويلقي الكلمات، ويتناقش مع فقهاء العالم الإسلامي، ويتبادل الآراء والأفكار، والتجارب، كما عقد بنفسه عدة مؤتمرات اقتصادية في وطنه، ونظم ورشات العمل، والدورات المكثفة، لتوعية العلماء على خطورة الاقتصاد الإسلامي، وضرورة الاجتهاد والعمل لتطبيقه، وتدريب المتخرجين في تخصص الفقه والإفتاء عليه، كما ترك عدة مؤلفات في الفقه، وحل القضايا الاقتصادية المعاصرة، والدعوة والإصلاح، تأتي في قمة هرمها: «فتاوى فقيه الملة» (اثنا عشر مجلدا، طُبع منها حتى الآن خمسة مجلدات)، وأصدر مجلة «الأبرار» الشهرية الدعوية الثقافية، ولا تزال هذه المجلة تستمر في صدورها.

هذه كلها إن دلت على شيء فهي تدل على اهتمام فقيه الملة عبد الرحمن بهذا المجال، فقه

(١) من مقال الشيخ عبيد الرحمن خان الندوي، مجلة الأبرار الشهرية، فبراير ٢٠١٦م، ص٣٨

الاقتصاد الإسلامي، وصدارته فيه، وجهوده من أجل تنفيذه في واقع المجتمع المسلم، لكن قد يتساءل هنا القارئ مدى نجاح جهاده، ومدى تطبيق الشريعة الإسلامية في البنوك والمصارف، فيجاب بأنه ربما يكون الخلل فيه كبيرا، وربما يكون الهدف لا يزال بعيدا، إلا أنه لا يشك أحد في أن أعماله الريادية تركتْ آثارا عميقة، وصدى بعيدة المدى في هذا المجال، حتى قامت عدة مصارف تحاول أو تدعو إلى تطبيق الشريعة، وأصبحت بعض البنوك الربوية الصرفة تفتح الفروع الإسلامية في مناطق شتى، وهاهي نقطة نجاحه، وموطن عبقريته.

مع الله ومع الناس

منذ عنفوان شبابه أولى فقيه الملة عناية بالغة بتزكية النفس، وتزويدها بالعلم، وتقويتها بالعمل، والجمع بين الظاهر والباطن، فاستفاد من الشيخ المفتي عزيز الحق رئيس جامعة فتية أثناء بقائه في رحاب الجامعة، ثم بعد وفاته وطّد صلته بشيخ الحديث العلامة زكريا الكاندهلوي، الصلة التي نشأت أثناء دراسته في ديوبند، فاستفادَ منه في السلوك والإحسان، ولما توفي الشيخ الكاندهلوي، بايعَ الشيخ الكبير أبرار الحق الهردوي، خليفة الشيخ التهانوي، وظل ينتفع به طوال حياته، حتى نالَ منه إجازة التزكية والإحسان، وأسس رباطا داخل رحاب جامعة بشوندرا باسم «الخانقاه الإمدادية الأشرفية الأبرارية»، وقد استفاد عدد هائل من الناس –العلماء والعوام– من هذه الزاوية، وانتشر نورها في أرجاء الدولة، كما كان فقيه الملة يتجول في شتى مناطق بنغلاديش، ويحضر في المجامع والمحافل، يعظ وينصح، ويبشر، وينذر، وينبه الناس على السنن المهجورة والمنسية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

رغم الأعمال الشاقة في مجال الدعوة والإصلاح، وإدارة كثير من المساجد والمدارس، لم ينسَ الشيخ واجبه تجاه الإنسانية المغلوبة على حظها، فأنشأ جمعية خيرية باسم «مؤسسة فقيه الملة»، وقام بدور بطولي تحت مظلتها، في مجالات صحية وتعليمية واجتماعية، لا سيما البرامج الإغاثية التي قدّمها إلى المتضررين في المناطق الساحلية أثناء العواصف والكوارث الطبيعية، كما منح عناية كبيرة بمسلمي الروهينغا، المهاجرين من أراكان إلى منطقة «كوكس بازار» البنغلاديشية.(١)

كان زاهدا في الدنيا، مخلصا لله ولدينه ولعباده، ومتوكلا عليه، وصادقا أمينا، بل كان في قمة من الأمانة، بيده زمام مئات المدارس والمساجد، وكثير من الهيئات والجمعيات الدينية، والمؤسسات الخيرية،

(١) انظر بعض تفاصيله في مقال المفتي كفايت الله شفيق، مجلة الأبرار الشهرية، أكتوبر، ٢٠١٧م، ص ٣٨

وحساباتها المصرفية، وآلاف الطلاب ومصاريفهم التي تعد بمليارات، فأدى كل شيء بكل صدق وأمانة، ووضعَ كل وديعة في مكانها، لا يكذب ولا يخون، ولا يغتاب، يكرم الضيف، ويعين المحتاج، ويعود المريض، ويتكفل بتكاليف عدد كبير من طلاب العلم.[1]

أما عبادته فحدث عنها كما تشاء، فقد كانت الصلاة قرة عينه، ويجد راحته في أداء النوافل، ويحافظ على السنن النبوية، وخصوصا السنن المنسية أو شبه المهجورة، ويحث الناس عليها، ويحن إلى زيارة الحرمين، والإقامة فيها، فزارها مرارا وتكرارا، ودرّس في المسجد النبوي أثناء رمضان أكثر من مرة.

وكان صريحا جريئا، لا يخشى لوما، ولا يهاب لائما، يقول ما يراه حقا، ويفتي بما يراه- بعد دراسته وجتهده- صوابا، مهما خالفَ ذلك آراء الآخرين، وكان متصلبا في الأمر بالمعروف، وشديدا في النهي عن المنكر، ولذلك عُرف عنه القيل والقال، واعترض عليه بعض الناس أسلوبه ومنهجه، وبعض فتاوه وموقفه، مثل إنكاره الشديد على الأعمال الإرهابية باسم الإسلام، حيث قد يمس هذا الإنكار صميم حركات جهادية حقة في أوساط المدارس الدينية، ويقضي على شعور العلماء وحنينهم إلى الجهاد، ويعطي صورة سيئة للمجاهدين! وكذلك مخالفته للدعوة السلفية، ونقده الشديد لداعية الإسلام الدكتور ذاكر نايك وغيره، لكن ذلك من فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولكل زهرة عبيرها وأشواكها، وقد وقف تلك المواقف لحكمة رآها، وأراد بها نفع للدين والأمة، فإنه كان في صميمه إنسانا كبيرا، ومؤمنا مخلصا، وشفيقا رحيما، عرف كل من رآه من قريب، وعاش معه فترة من فترات.

---

(1) [illegible] مجلة الأبرار الشهرية، أبريل، ٢٠١٦م، ص٤١

مولانا محيي الدين خان

(١٩٣٥- ٢٠١٦)

الأديب العملاق، منشئ مجلة «المدينة»، عضو «رابطة العالم الإسلامي»

في يوم السبت ٢٥ يونيو عام ٢٠١٦م، فقدت دولة بنغلاديش ابنا عظيما لها، وفقدت الأوساط العلمية مربّيها وموجّهها، وفقدت ساحة الأدب والفكر البنغالي فارسها المجلي، وفقدت الأمة المسلمة حاميها والمدافع عنها، وفقد العالم الإسلامي برمّته علما شامخا من أعلام المسلمين، وكاتبا من الكتّاب البارزين، ورائدا من رواد الأدب الإسلامي، وداعية من أعيان الدعاة، ومصلحا من عظماء المصلحين، وأديبا من الأدباء الإسلاميين الخالدين الذين نذروا حياتهم لإعلاء كلمة الله، وجرّدوا أقلامهم ومشاعرهم الحيّة الدفاقة من أجل الدعوة، والدفاع عن حوزة الدين عقيدة وشريعة ومنهاج حياة كامل، وقدّموا إلى الأمة الإسلامية خدمات علمية وثقافية جليلة، حتى ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس، وأصبحوا مراجع الأمة، ومصادر الآمال والأحلام، وقادة النهضات والانتفاضات، ثم فارقوا الدنيا وهم لا يملكون من حطامها شيئا، لأنهم جاهدوا لله وفي الله، وللحياة السرمدية، ومن هنا فقد كانت حياته تصويرا صادقا تجلّت فيه ملامح شيخ رباني، وعالم مصلح، ومؤلف قدير، وأديب ناقد، ومفكر حرّ ديناميكي، يجمع بين القديم والحديث، والصمود والانفعال، ويفقه متطلبات العصر ومقتضياته، وتحدياته وتهديداته، فيمثّل عصره بحياته وشخصيته، ويمثل ماضيه وتاريخه بمؤلفاته، ولا يدع ميدانا إلا يصول فيه ويجول، ويسهم ويبرّز، إنه الأديب البنغالي الإسلامي من الطراز الأول، وصاحب مدرسة خاصّة وأسلوب خاصّ في الأسلوب والإنشاء، ومترجم «تفسير معارف القرآن» إلى البنغالية، ورائد دراسات السيرة النبوية في هذه الدولة بلغتها، وعضو رابطة العالم الإسلامي وممثلها في دولة بنغلاديش، ومنشئ مجلّة «المدينة» الشهيرة ورئيس تحريرها، مولانا محيي الدين خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المرحلة التاريخية التي جاء فيها ثم غير مجراها

لقد جاء هذا الإنسان على مسرح الحياة في فترةٍ دقيقةٍ حرجة من تاريخ هذه الدولة، وفي عهد مضى من عهودها السود، تحرّرت الدولة من براثن الاحتلال، ووجدت الأمة حريتها السياسية واستقلالها الجغرافي، إلا أن الاستعباد الثقافي، والانحطاط العلمي والمعنوي، والتدهور الاجتماعي، كلها كانتْ مخيّمة على الأمة، ومضيّقة خناقها، كان المجتمع البنغالي المسلم في مؤخرة السفينة، وخلف القافلة، وكان المسلمون قد تركوا رسالتهم ووصلوا إلى الدرك الأسفل من الانحطاط السياسي والاقتصادي، حتى أصبحوا في حيرة من مستقبلهم ومصيرهم، وانتقلوا من منصب القيادة إلى درك التبعية، وكانت الثقافة الإسلامية ترزح تحت وطأة الثقافة الهندية الوثنية، وكانت الأسلحة بأيدي الهندوس، فهم كانوا كتّابا ومؤلفين وصحفيين وإعلاميين، وكانوا أصحاب رايات في ميدان اللغة والأدب والثقافة العامة، وكان المجتمع المسلم مفلسا في لغته الأم، ومتخلّفا في الموكب، فيقرأ كل ما يكتبه الهندوس، ويعتقد بكل ما يصدر من أقلامهم. ويأكل على مائدتهم، فيتأثر بثقافتهم، ويؤمن بعظمتهم وجدارتهم، ويتملص من الثقافة الإسلامية العريقة.

في مثل هذه الفترة الدقيقة برزَ الشيخ محيي الدين خان في الميدان، وخاضَ في الصراع الثقافي، ونزلَ في حلبة البحث والدراسة، ورفعَ لواء الدين والاستقلال الثقافي في أوساط العلم، خفاقا بالنصر المبين، وجاهد من أجل توعية المجتمع المسلم وإيقاظ الأمة من غفوتها الطويلة، فكتب، وألف. وترجم، ونشرَ، وأدّى دورا رائدا في الصحافة الإسلامية، وتكوين الجبهة الأدبية الإسلامية في وجه الجبهة الهندوسية، واستطاع أن يقوم بسعيه الفردي ما تقوم به المجامع العلمية الكبرى واللجان المنظمة في عامة الأحوال، في حياة لم تطل كثيرا. حتى أفاق المجتمع المسلم، وتفتحت الآذان والعيون، وجاء انقلابٌ شامل في اللغة والأدب والثقافة والمعرفة. كان الشيخ خان قائد هذا الانقلاب، وبطل هذا التاريخ، وبدأ يصدر مجلّة «المدينة». فكانت بداية مرحلة جديدة في تاريخ هذه الدولة، وكان فاتحة لأزهى عصور العلم والأدب والدعوة والإصلاح في تاريخ اللغة البنغالية وآدابها، الذي عُرف بـ«العصر المدني»، وكان الشيخ خان خليفة ذلك العصر، وأعدّ مملكةً كاملة للأدب الإسلامي البنغالي، لها جيوشٌ وجنودٌ، وسلطة وشرع، ومنهج ودستور، وقوّة وتقدير، وهم الذين يتزعّمون اليوم الصحافة البنغالية الإسلامية، وهنا تبرز عبقرية هذا الإنسان. وتفرّده عن غيره، وتميّزه عن آلاف الكتاب والمؤلفين في وقته ومحيطه، بل كل من جاء بعده من العلماء والإسلاميين، وألّف مؤلفات، وأصدر الصحف والمجلات، كان عيالا عليه.

المثل الأعلى للأسرة

وُلد محيي الدين خان في محافظة «مؤمن شاهي» عام ١٩٣٥م، في أسرة ذات شرف وصلاح، أسرة تتوارث العلم والمعرفة، والتقوى والصلاح، وكان المثل الأعلى الذي يسيطر على أذواقها واتجاهاتها هو الروحانية والسلوك، والتمسّك بالشريعة، والاهتمام بالربانية، وعُرف آباؤها وأجدادُها بالصبر وسعة الصدر، وقوّة الاحتمال وشدّة المراس، تجري في عروقهم دماء العزّة والأنفة، وتتمثل فيهم الرجولة بأسمى معانيها، كابرا عن كابر، وأبا عن جد، فقد كان جدّه الأكبر مبايعا للشيخ مولانا كرامت علي الجونبوري ومن أصفى تلامذته، وكان أبوه مجاهدا باسلا في حركات التحرير، ورفيقا في جهاد الشيخ مولانا شمس الهدى الباتشباغي ضدّ الظلم والجور، والدفاع عن حقوق الشعب، ومبايعا للشيخ أبي بكر الصديقي مرشد «زاوية فرفرا».[١]

في محراب العلم تحت ظلال الأعلام

بدأ الدراسة تحت إشراف والده، فأحسن تربيته، وعلّمه النطق السليم القويم، ثم دخلَ في المدرسة الإسلامية العالية بـ«باتشباغ»، ونشأ فيها بين أحضان الطبيعة وتحت ظلال الحياة الريفية، وكان لذلك أثر كبير في صقل شخصيته، وتكوين عقليته، ورسم معالم دعوته وإصلاحه فيما بعد، حتى اجتاز مرحلة «الفاضل» عام ١٩٥٣م مع مرتبة الشرف، ثم حضرَ في العاصمة داكا ودخلَ في «المدرسة العالية»، وكانتْ آنذاك من طليعة المراكز العلمية، ومحطّة العلماء الكبار في باكستان الشرقية، تعجّ بكبار الأساتذة وزعماء الدعوة والإصلاح والسياسة، فدرسَ على أيدي أساطين العلم والمعرفة، أمثال الشيخ ظفر أحمد العثماني، والفقيه الكبير الشيخ المفتي محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، وهنا تعرّف على الشيخ الجليل العلامة عبد الرحمن الكاشغري، فاكتشف العلامة الكاشغري مواهب وثّابة في داخل هذا الطالب المتواضع، الذي خرجَ من قريته وجاء إلى العاصمة للدراسة، فأعطاه من عصارة نبوغه، وبذل فيه من جهوده قلما يوجد له مثال، وهنا جاءتْ نقطة تحويل في حياته، وهنا بدأتْ قصّة حياة محيي الدين تأخذ مسارا جديدا، فأصبح من أصفى تلامذة الشيخ الكاشغري،[٢] ومن أشدّ المعجبين به،

---

(١) انظر مجلة المدينة الشهرية، العدد الخاص بذكرى الشيخ محيي الدين خان، أغسطس، ٢٠١٦م، ص١٢ و١٩

(٢) إنه الشيخ الكبير، والأديب العظيم، مولانا عبد الرحمن الكاشغري رحمه الله، أحد من عظماء المربين في تاريخ هذه الدولة، لكنه تركي الأرومة وبنغالي المواطنة، وُلد عام ١٩١٢ بـ«كاشغر» في تركستان الشرقية (المحتلّة الصينية حاليا)، هاجر في شبابه إلى الهند بعد الثورة الشيوعية في روسيا، ونشأ غريبا فقيرا في محيط دار العلوم التابعة لندوة العلماء بـ«لكناؤ» الهند، ودرسَ فيها التفسير والحديث، وأتقن العربية غاية في الإتقان، وهكذا برزت طلائع سعادته، وبدأ

وتقن العربية والأردية تحت إشرافه، كما كان على صلة متينة بالعلامة شمس الحق الفريدبوري، يستشيره ويستفيد منه ويمشي في ضوء توجيهاته،[1] حتى تخرّج في مرحلة «الكامل» مع التخصّص في الحديث عام ١٩٥٥م، ثم تخصّص في الفقه عام ١٩٥٦م، وانتهتْ مراحل الدراسة والتحصيل.[2]

إرهاصات ثورة أدبية إسلامية في تاريخ البنغال

منذ سن باكرة من حياته نشأ هذا الإنسان على حب القراءة والمطالعة، والشغف بالصحف والمجلات والجرائد والدوريات، يقرأ كل ما تصل إليه يده، وكان لبيته ولوالديه دورٌ كبيرٌ في هذه النشأة العلمية والثقافية المباركة، فلم تكن أسرته ذات ثراء ورخاء، وأملاك وعقار، وإنما كان زادها ورأس مالها وكنزها الذي تتوارثه مكتبة غنية ثرية، تتضمّن الكتب العلمية القديمة والجديدة، والمجلات والدوريات، كما كان والده رجلا علميا، تأتيه المجلات من «دهلي» ومن «لكناؤ»، فاستفادَ منها الشيخ خان منذ طفولته، وأقبل على الصحف المجلات الصادرة من البنغال بشكل عام، وقرأ مجلة «المحمدي» الشهرية، ومجلة «المحمدي» الأسبوعية، ومجلة «الإسلام»، ومجلة «النعمت»، واشتركَ في مجلة «حديث البنغال» وهو طالب الصف الخامس الابتدائي في مدرسة «باتشباغ».

ولما كانتْ أمه في سرير الاحتضار وهو في الثاني عشر من عمره دعتْ به يوما، وكانتْ صالحة متعلمة، وقارئة للكتب مثل «حياة الجنة» لمولانا التهانوي، و«كيمياء السعادة» للإمام الغزالي، وكانتْ مرآة كاملة للأنوثة، وكانت بديعة، وبالغة البيان، تبذّ الخطباء، وكانت معلّمة نساء قريتها، وتعرف الدرس. فلما حضر الطفل حثّته على العلم والمعرفة، وأوصتْه بإصدار مجلةٍ إسلامية على غرار مجلة «النعمت» الشهرية التي كانتْ حينئذ من المجلات الإسلامية الشهيرة في البنغال، ليخدم بها الإسلام والمسلمين. هكذا كانت الأم الحنون هي أول من زرعت هذه العبقرية وكانت بذرة ضعيفة، وماتت قبل أن تشهد كيف صارت هذه النبتة دوحة باسقة.

[illegible]

ثم لما حضرَ في العاصمة، ودخلَ في المدرسة العالية، وجد هنا أرضا خصبة للصحافة والكتابة، وممارسة الأدب والإنشاء، كما وجدَ أساتذة أجلاء، وعلى رأسهم الشيخ الكاشغري، وبدأ يكتب في صحيفة «التعليم» الأسبوعية، و«القافلة»، و«نظام الإسلام»، و«الإنصاف»، وجريدة «آزاد» لمولانا محمد أكرم خان، وجريدة «الملّة» الشهيرة، وهكذا تعرّفَ على عالم الصحافة والإعلام، وهو لا يزال طالبا في المدرسة العالية بداكا، وظل يجلس مع الصحفيين، ويحضر في الندوات الأدبية والإعلامية، وينشئ صلة بكبار الكتاب والمؤلفين، أمثال الشيخ المنشئ محمد مهر الله، والشيخ مولانا محمد أكرم خان، والدكتور محمد شهيد الله، والخطيب الأعظم صديق أحمد، وشاعر النهضة الإسلامية فروخ أحمد وغيرهم، فيتعلّم منهم، ويستفيد من تجاربهم، فكان كل ذلك إرهاصات تبشّر بمستقبل باهر له، وتنبئ عن مكانته في تاريخ اللغة والآداب والصحافة.[1]

الرجل الذي فتحَ عينيه على الصحف والمجلات، وقضى طفولته بين الكتب دون اللهو واللعب، وعاشَ أيام مراهقته وعنفوان شبابه مع تاريخ الإسلام، وسيرة رسول الله ﷺ، ومع المداد والقلم، يكتبُ وينشئ، ويرسل المقال إلى الصحف، ويجلس مع الكتاب ورجال الإعلام، فلا غرو أن يتخذ الصحافة والكتابة مجال عمله، وساحة جهاده، ومنهج حياته، ولذلك نراه بعد ما تخرّج في مرحلة «الكامل» وأكمل دراسته عام ١٩٥٦م، لم يدخل في مدرسة ولا كلية، ولم يدخل في دائرة حكومية أو وظيفة رسمية، بل تفرّغ للعمل على الصحافة والإعلام، فبدأ العمل كمترجم من البنغالية إلى الأردية في جريدة «باسبان» الأردية الصادرة من داكا عام ١٩٥٧م، وكان ذلك بداية مرحلة جديدة من حياته، ثم تولّى تحرير صحيفة «اليوم» الأسبوعية في العام نفسه، كما حرّر مجلة «الدليل» التي كانتْ تصدر تحت مظلّة «نظام الإسلام» وكمتحدّثة باسمه، وهكذا في غضون سنواتٍ لمح نجمه، وسار اسمه، وانتشر صيتُه، حتى أصبح مرجعا من مراجع اللغات والآداب، والحركات العلمية والثقافية، فأكثر من جاءَ بعده وكتبَ في الأدب الإسلامي، اعتمد عليه، واقتبس منه، واستفاد بكتبه ومؤلفاته.

كيف بدأت «المدينة»، مسيرتها وأصبحت عنوان الأمة المسلمة البنغالية؟

في عام ١٩٦١م كان الشابّ محيي الدين خان يتدفّق حياةً ونشاطا، وعملا وجهادا، ويدبر في إصدار مجلّة إسلامية بنفسه، وقد عمل في جرائد ومجلات، كمترجم تارة، ومحرر تارة أخرى، ويحلم الآن

(١) مقال محمد خالد سيف الله الصديقي، جريدة الانقلاب اليومية، ٢٦ يونيو، ٢٠١٦م وكذلك مجلة المدينة الشهرية، العدد الخاص بذكرى الشيخ محيي الدين خان، أغسطس، ٢٠١٦م، ص٢٧

بدء مشروع ريادي جديد، وظلّ يفكر، ويأخذ الخطة، ويرسم خريطة الطريق، ويجلس مع الأصدقاء، ويناقش مع العلماء والوجهاء، والأدباء والشعراء الإسلاميين، حتى حلّ الموعد المنتظر، وبدأتْ مجلّة إسلامية جديدة مسيرتَه، في مارس من ذلك العام، تحمل عنوان «مجلّة المدينة الشهرية»، بدأتْ مسيرتَها من غرفةٍ متوضعة متهارة، وفي بيئة متضعضعة، **إلا** أنه حضرَ في حفلة افتتاحها كوكبةٌ درّية في سماء اللغة والأدب، من الكتاب والشعراء الخالدين في تاريخ هذه الدولة، أمثال الشيخ الدكتور محمد شهيد الله، والشاعر غلام مصطفى، والرئيس إبراهيم خان، والكاتب الكبير مشرف حسين، والشاعر تعليم حسين وغيرهم، فأولم لهم وليمة، وكان احتفالا تاريخيا، لبث عمرا وهو حديث الناس، كما كان فتحا مباركا، وبداية عهد جديد في تاريخ ثقافي وديني لهذه الدولة.(١)

بدأت مجلة «المدينة» مسيرتَها، وهكذا بدأ الركب الإسلامي الصغير، وكانت نواة حركة واسعة، ووقف الشيخ خان حياته على نجاحها وتطويرها، وبذل جهودا متضافرة لتحقيق الأهداف التي خُلقت من أجلها، فظلّ يجتهد ويجاهد، ويعاني ويقاوم، في سبيل نشرها واستمرارها، وقد واجهته في البداية عواصف هوجاء من النقد الهدام والاستهزاء، والكراهية والازدراء، والهمز واللمز، بما أن عالما مدرسيا يصدر مجلة! لأن العلماء في ذلك العصر كانوا بعزلة عن هذه الدنيا، ولم تكن ثمّة محاولةٌ جديرةٌ بالذكر والشكر، ولم تكن لهم صدى في الأوساط الأدبية، فلما صدرت «المدينة»، في صورة جديدة غريبة عجيبة، تجمع بين العلوم الشرعية والعلوم الحديثة، والتاريخ والجغرافيا، والحضارة والثقافة، واللغة والأدب، وحلّ الإشكاليات المثارة حول الإسلام والمسلمين، والرد على الظلم والاستبداد، والدكتاتورية والتعصّب، والإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالحياة والواقع، أصبحتْ قذى في عين الأعداء، وبدأت الدسائس تُحاك ضدّها، وتوقّفتْ أكثر من مرة في فترات مختلفة، إلا أن الشيخ محيي الدين خان كان قد وضع «المدينة» نصب عينيه، وجعلها شغله الشاغل، والهدف الأسمى في حياته، فتحمّل جميع المتاعب، وتجشّم المرارات والتهديدات، وتغلّب على العقبات، وحطّم القيود، وسحق كل ما كان أمامه. حتى في غضون عدة سنوات أصبحت «المدينة» أكبر مرجع ديني، ولأول مرة في التاريخ بدأت مجلة دينية تتعدّى حدود العلماء والإسلاميين، وتحرز في صف واسع بين الأوساط العلمانية والمثقفة، وهكذا استمرّت «المدينة» في طريقها، وتلقّت إقبالا كبيرا، وحصلت شعبية لم تحظ بها مجلة إسلامية قبلها ولا بعدها، ولا تزال تستمرّ في مسيرها وتنشر نورها.

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

أين تكمن عبقريته إن كان عبقريا؟

قد يتساءل القارئ: ماذا ابتكر الشيخ خان؟ وماذا أضاف إلى الأدب البنغالي الإسلامي؟ وماذا قدّم إلى الصحافة الإسلامية في هذه الدولة؟ وأين تكمن عبقريته وريادته في مجال الأدب والإنشاء؟ وبما أن هناك كانت جماعة مختارة من العلماء البارزين الذي لعبوا دورًا كبيرا وياديا في ميدان اللغة والأدب، والصحافة والإعلام، والكتابة والترجمة، أمثال الشيخ منير الزمان الإسلام آبادي والشيخ مولانا محمد أكرم خان وغيرهما، وقد سبق عصرُهم عصرَ شيخنا خان، وأصدروا صحفا ومجلات، وكتبوا مؤلفات، وأدوا دورا بليغا في نطاق واسع، بل كان لبعضهم فضل الأستاذية على الشيخ خان، وكان هو بمثابة طالب متواضع لهم، فكيف يصحّ أن تردّ إلى الشيخ ريادة الصحافة الإسلامية؟ وأنه رائد الأدب البنغالي الإسلامي!؟

لكن لو نظرنا في حياة الشيخ محيي الدين بعمق ودقّة، وبحثنا عن مواطن عبقريته وانفراده، لرأينا العبقرية في مكان آخر، ولرأينا الريادة من النوع الجديد الفريد، فلم يكن الشيخ خان رائد الصحافة البنغالية الإسلامية بحيث كان أول من حرّر الصحف وأصدر المجلات، وقد حرر وأصدر قبله الكثير، ولم يكن رائد الأدب البنغالي الإسلامي بأنه أوّل من كتب عن الإسلام بالبنغالية، وقد كتب قبله مئاتُ العلماء، ولم تكن مجلّة «المدينة» رائدة المجلات الإسلامية بأنها كانت أول مجلة إسلامية تصدر بالبنغالية، وقد سبقتها عشراتُ الصحف والمجلات، بل إن عبقرية محيي الدين خان تبرز في طريقة عمله، وفي منهج حياته، ومنطلقاته وأهدافه، فقد نزلَ قبله كثيرٌ من العلماء في الميدان، وعملوا أعمالا جليلة، إلا أنّ كلا منهم نزلَ بوحده، وعملَ بوحده، فلم يعدّ أحدا ينزل معه، ولم يهيّئ أحدا يعمل معه، فلما ذهب، ذهب كلّ شيء معه، ذهبت المجلات والصحف، وذهب الإنشاء والأدب.

أما الشيخ خان فقد نزلَ في الميدان وحدَه، لكنه طهرّ الميدان، ونظّف الساحة، ومهّد الطريق، ثم أنزل معه جماعةً كبيرةً، وفتحَ المصنع بوحده، لكنه صنع فيه جيلا كبيرا، درّبهم على الصحافة والإعلام، وعلّمهم اللغة، وعرّفهم بالأدب والإنشاء، وأخذ بأيديهم مثل الأطفال، وعلّمهم كيف يمشون في طريقهم، ويبنون مستقبلهم، ولم يضنّ بعلمه وأدبه واستراتيجية جهاده على أحدٍ مخافة أن يسبقه أو يحتلّ مكانه!(١)

لذلك لو ينظر أحد الآن في ميدان الصحافة الإسلامية، وفي الحركات الإنشائية والكتابية التي يقودها العلماء والكتّاب الإسلاميون، يجد أن معظمهم نشؤوا تحت ظلال هذه الدوحة الكبيرة، أو تربّوا

---

(١) انظر شهادة الشاعر البنغالي الكبير المحمود في مجلة المدينة الشهرية، العدد الخاص بذكرى الشيخ محيي الدين خان، أغسطس، ٢٠١٦م، ص٧

على يد هذا العصامي، أو استمدّوا على الأقل من مشكاته، وهنا تفرّد الشيخ خان عن جميع الصحافيين والإعلاميين، وعن جميع الكتاب والمؤلفين الذين سبقوه، فلم يكن صحافيا فحسب، ولم يكن كاتبا إسلاميا وحدَه، وإنما كان مدرسةً كبيرةً، ومكتبةً غنية، ومصنعا حيّا فريدا، ومؤسسة قوية، وهل من زيادة فوق هذا؟[1]

آثاره في ميدان التأليف والترجمة

لم تقتصر عبقريته على الصحافة والإعلام، وإصدار الصحف والمجلات، كما حدثَ لكثير ممن سبقه أو عاصره من العلماء الأجلاء، وإنما تجلّت عبقريته اللغوية والأدبية في الكتابة والتأليف، والإنشاء والترجمة، فبدأ يسمع بالأذن، ويكتب بالقلم، ويخطب باللسان، ويحرر وينشئ، ويؤلف ويترجم طوال حياته، حتى أصبح ما كتبه وترجمه أكثر من مئة كتاب، كتبَ في التفسير والحديث، والسيرة والتاريخ، والحضارة والتراجم، والثقافة والأدب، وكان آية في النبوغ والسليقة الكتابية، وأديبا مطبوعا موهوبا، صاحب أسلوب نادر يجمع بين الرشاقة والاسترسال، وروعة العاطفة وقوّة الحماس، وبذلك امتزجت كتبه ببراعة الأسلوب، وروعة الأداء، وجمال اللغة، وشرف المعاني، مع حسن الانتقاء، ودقة الملاحظة، وشمول الفكر، بعيدة عن الملل والاختلال، ومن أبرز كتبه: ◊ الفاروق للشيخ شبلي النعماني (ترجمة) ◊ إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (خمسة مجلدات– ترجمة) ◊ رسائل الإمام الغزالي (ترجمة) ◊ حركات التحرير– ١٨٥٧م للشيخ فضل الحق الخيرآبادي (ترجمة) ◊ الإنسانية في سرير الاحتضار لمولانا أبي الكلام آزاد (ترجمة) ◊ الثورة الإيرانية للشيخ منظور النعماني (ترجمة) ◊ تعريف القرآن ◊ نور الإيمان ◊ حياة الشيخ مولانا إلياس ◊ معجم «الكوثر» ◊ على مسرح الحياة (السيرة الذاتية).

ترجمة «تفسير معارف القرآن»: عمل خلده

لقد كانت ترجمة «تفسير معارف القرآن» من الأردية إلى البنغالية أهمّ أعماله في حياته، وأجلّ إنجازاته التي لا تزال تشهد على ألمعية هذا الإنسان ومواهبه، وإخلاصه واحتسابه، وحبّه للقرآن الكريم، ولبني جلدته، وتفانيه في سبيل الدعوة ونشر رسالة القرآن، وتمكّنه من اللغة البنغالية وآدابها، فترجمة مثل هذا الكتاب الضخم الذي طبع في ثمانية مجلدات لم تكن مهمّة سهلة، وكان من حقّها أن تقوم بها لجنةٌ علمية كبيرةٌ، إلا أن الشيخ ربط جأشه، وعزم وتوكل على الله، ثم بدأ في العمل، وقام بنفسه ما يقوم به

(١) انظر مقدمة ترجمة إنجيل برنابا باللغة البنغالية، لأفضل التشودري، ص١٣

مجمع علمي كبير، وقد لقي هذا التفسير قبولا نادرا في الأوساط العامة والخاصّة، وجاءت هذه الترجمة مثالا حيا على عبقرية المترجم بعد المؤلف، ومكانته في اللغات والآداب، فجاءَ بلغةٍ سهلةٍ ممتنعة، وعبارة بليغة، وأسلوبٍ أدبيّ رفيع، بعيد عن التكلّف والإغراق والمبالغة، لا يملّه القارئ ولا يستثقله، ولا يجد خشونة العبارة، ولا وعورة المصطلحات، وإنما يخيّل إليه أنه سمير عزيزٌ، ونديم فكةٌ، فيساعده على التعمّق، والدخول في صميم كلام الله، والتمتّع به، والاطمئنان إليه.

وقفات مع التفسير وتحليل بعض جوانبه

هذا الكتاب هو الذي لفتَ إلى الشيخ الأنظار، وشدّ إليه القلوب، وجمع حوله من يوافقه ويخالفه، وهو الذي عرّف به العالم العربي، وأخرجه من حدود دولته، حتى اختاره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، وطبعه في صورةٍ موجزةٍ جامعةٍ شاملة، في حلة قشيبة أنيقة، فعرفه العالم، وأصبح في الخالدين.

إلا أن ترجمته لتفسير معارف القرآن– مختصر معارف القرآن– لم تستمرّ طبعاته في المجمّع، لكونه– على حد تعبيره – "يتضمّن بعض الأخطاء المنهجية، وكثيرا من الانحرافات العقدية التي لا تتجاوب مع عقائد أهل السنة والجماعة، ومن أمثلتها حشو التفسير بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث الواهية، والتذبذب في التعامل مع آيات الصفات، بين التفويض والتأويل، والخطأ في بيان المسائل المتعلقة برسول الله ﷺ، خصوصا بما يتعلق بحياة النبي البرزخية."[1]

لو ذهبنا بدورنا نسأل بأنها كيف تسربت هذه "الطامات الكبرى" في تفسير خرج على يد عالم كبير، ومفسّر جليل، وفقيه عظيم، عُرف بـ«المفتي العام» في الديار الباكستانية، في شرقها وغربها؟ ثم مع وجودها كيف نالَ هذا التفسير قبولا عاما شاملا في القارة الهندية ما لم ينله غيره، وانتشر هذا الانتشار؟

إنها قضية المسلك، وطريقة التفكير، ومنهج الاجتهاد قبل كل شيء، فالمسائل العقدية التي ذكرت في هذا التفسير جاءتْ على منهج الأشاعرة والماتريدية، وبالتالي على مذهب علماء ديوبند في العقيدة، السائد في شبه القارة الهندية، وصاحب التفسير الشيخ العلامة المفتي محمد شفيع العثماني كان من كبار تلامذة مولانا التهانوي ومن طليعة علماء ديوبند، ولا خفاء أن علماء ديوبند يتّبعون في العقائد –في

(١) استفدنا في هذه المعلومات من كلام الدكتور أبي بكر محمد زكريا، الذي كان حينذاك طالبا في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وأناطَ به– وبزملائه– المجتمع دراسة هذا التفسير، وتسجيل الملاحظات، وتسليمها إليه، وقد فعلوا حتى توقّفت طباعته!

معظمها- منهجا يجمع بين الماتريدية والأشعرية،[1] وكتبهم- في التفسير والحديث والفقه- تشهد بها، بل تنشرها وتدافع عنها، فلما جاءَ هذا التفسير يحمل في طياته ما يحمل، لم يحرّك ساكنا، ولم يُقِم قاعدا، ولم يثر سؤالا أو إشكالا، بل كأنه جاءَ في أوانه ومكانه، وفي الحلة المناسبة له، وحدّث الناس بلغاتهم وبما يفهمون، فافتتن الناس بجماله، واشتغلوا بدرره ولآلئه، ولم يفكّروا أصلا أن هذا التفسير يعلمهم أشياء من شأنها "أن تضر بإيمانهم، وتهددهم في دينهم"، لكن لما وصلَ هذا الكتاب إلى أرض الحرمين، وفي بلد غير بلده، وأصحاب فكر ومنهج غير فكره ومنهجه، حصلَ الصراع بين المنهجين، ونتأ البرزخ بين البحرين، وقام الناس وقعدوا، وأصبح ما كان أصغر من حبة أكبر من قبة!

ولنا أن نسأل مرة أخرى: هل هذه هي الأسباب الوحيدة التي من أجلها مُنع هذا التفسير من الطباعة والتوزيع من المملكة أم هناك أسباب أخرى؟ عندما ندخل في العمق ونراقب الأشياء بدقة وعناية، نشعر بأن هناك أسبابا أخرى عملت عملها تحت جنح الظلام، وخصوصا عندما نعرف أن قد حصلَ المصير نفسه لـ«تفسير العثماني» للشيخ العلامة شبير أحمد العثماني بالأردية، الذي طبعه المجمّع ونشره في باكستان، ثم منَعَ طباعته ونشره! وأن مؤلفه هو الآخر ديوبندي!!

إذن هي نتيجة الصراع بين الديوبندية والسلفية، والمذهبية واللامذهبية، وإنها عاقبة الحروب الأهلية بين فئتين من المؤمنين، وجماعتين من أهل السنة والجماعة، الحرب التي نشبت في شبه القارة الهندية منذ قرون، وما زادت الأيام إلا حرّها وشرها، وكم خسرت الأمة المسلمة في الهند وباكستان وبنغلاديش من أجلها، فالإشكالات التي أثيرت حول هذين التفسيرين لا يكاد يخلو منها تفسير قديما وحديثا، وقد تحدّث عنها الشيخ المفتي تقي العثماني بكل تفصيل في رسالته إلى الشيخ عبد الله عمر نصيف، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي آنذاك،[2] وقد أفادني بعض الثقات الذين كانوا طلاب الجامعة الإسلامية آنذاك، وشهدوا الواقعة بأم أعينهم، وتابعوا سيرها بكل دقة، أن الذين أُنيط بهم النظر في هذه المسائل والتحقيق من صحتها كانوا حربا على المذهب الحنفي، فما أرادوا أن تنشر التفاسير الحنفية على نفقة المملكة، واستبدلوا بها التفاسير السلفية وانتهى.

على كل حال لقد خسرت الأمة البنغالية بوقف طباعة وتوزيع هذا التفسير من المملكة خسارة فادحة، وحرمت نعمة كبيرة، لأن البدائل التي جاء بها المجمع لا تداني هذا التفسير في شيء، لا في

(١) انظر المهنّد على المفند، تأليف الشيخ خليل أحمد السهارنبوري، إداره إسلاميات (١٩٨٤م) (الأردية والعربية)، ص٢٩ و٣٠

(٢) ليراجع القارئ إلى «مقالات العثماني»، للشيخ محمد تقي العثماني، ج ١، ٢٩ وما بعدها

الترجمة ولا في التفسير، ولا في اللغة والأسلوب، وحرارة القلب والروح، فضلا عن أن تفوقه، وتسدّ ثغرته، وتحل محله، عشاق لبنى كثيرون، لكن من منهم قيس بن ذريح؟

كلٌّ يدّعي وصلاً بلبنى ... ولبنى لا تقرُّ لهم وِصالاً
ولو عَلِمتْ بما يحكيهِ عنها ... لشقّتْ صدرَها وأتتْ وبالا

حبّه للسيرة النبوية وأعماله فيها

كان أحب ميدان إليه بعد القرآن السيرة النبوية على صاحبها ألف ألف تحيّة وسلام، فقد كتبَ وترجمَ في السيرة النبوية وسير الصحابة والأئمة المجتهدين كتبا كثيرة، بل هو الذي فتحَ هذا الباب، وقدّم إلى الشعب البنغالي المسلم سيرة رسول الله ﷺ في حلّة جديدة، وكوّن مكتبةً غنية حافلة بالسيرة، في حين لم تكن توجد في هذه البقعة إلا كتبٌ معدودةٌ في السيرة، هنا نهض الشيخ خان والأمل معقود عليه، وحق أن يعقد الأمل على الإنسان الذي ملأ قلبه حبُّه لرسول الله ﷺ، وشغفه بسيرته، وشوقه إلى مدينته وروضته، فكان الشيخ رجل الساعة، وألّف عدة كتب في السيرة، وترجم أفضل ما كُتب فيها من العربية والأردية إلى البنغالية، وعقد مؤتمرات وأقام حفلات حول السيرة النبوية، وأتحفَ بني جلدته أغنى مكتبة فيها.[1]

من أبرز ما كتبه وترجمه في السيرة: ◊ سيرة النبي، للشيخ شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي (ترجمة) ◊ شواهد النبوة، لعبد الرحمن الجامي (ترجمة) ◊ الرسول كأسوةٍ، للشيخ عبد الحي (ترجمة) ◊ الحياة الأسرية للرسول، لشيخ الحديث زكريا الكاندهلوي (ترجمة) ◊ الطريق إلى المدينة، للشيخ عبد الحق الدهلوي (ترجمة) ◊ الخصائص الكبرى، لجلال الدين السيوطي (ترجمة في مجلدين) ◊ سراج محمد، للشيخ زاهد الحسيني◊ تاريخ الروضة الشريفة ◊ رسول الله في عالم الأحلام وغيرها، ومن ثم يعدّ الشيخ خان بحق وجدارة رائد السيرة النبوية بالبنغالية، ومن أجل هذا الحبّ العميق للسيرة أسّس جمعية علمية باسم «اللجنة الوطنية للسيرة النبوية» التي أدّت دورا رياديا في دراسة السيرة من جديد، وأصدرتْ مطبوعات، ونظّمت مؤتمرات في السيرة النبوية التي كانت لها صدى مباركة، وقد ظلّ الشيخ خان في رئاسة اللجنة

(١) "مولانا محيي الدين خان ومجلته المدينة"، مقال مولانا س.م أنوار الكريم، جريدة الاتفاق اليومية، ٢٢ يوليو، ٢٠١٦م

طوال حياته.

في نهاية خمسينيات القرن الماضي عام ١٩٥٩م، أسس الشيخ «دار المدينة للنشر»، في عصرٍ لم يكن يصوّر أحدٌ أن عالما دينيا يؤسس مثل هذه الدار، ثم يصدر منها الكتب والمؤلفات، إلا أن الشيخ أقبل على هذه الخطوة الجريئة بجرأة المؤمن المخلص، وفي غضون عدّة سنواتٍ جاءت الدار بثمرة طيبة زكية، وأدّت دورا بليغا في نشر العلم والثقافة، وهو الذي أسس « النادي الصحافي مؤمن شاهي» عام ١٩٥٩م، وقد أصدر صحيفة «العالم الإسلامي» الأسبوعية، وكان يحلم بأن يجعلها صحيفة يومية، إلا حلمه لم يتحقّق في حياته، فنسأل الله أن يحقّقه بعد وفاته، وخصوصا في عصر أصبح العلماء بحاجة إلى صحيفة يومية كحاجة السمك إلى الماء.

بين فارس القلم وفارس السياسة

لم يكن الشيخ محيي الدين خان كاتبا يكتبُ ويؤلف، ويعتكف على صفحات الكتب والمؤلفات، وفي الجرائد والمجلات، فيخبر الناس عن العالم، ويحدو بهم إلى النهضة والانتفاضة، بينما هو يبقى وراء الكواليس، ويصيح صيحة مدوية ثم لا يتبعها العمل، ولا ينزل في الساحة، ولا يطبّق بنفسه ما يكتبه أو يصيح به، وإنما كان كاتبا مؤمنا، ومؤلفا محتسبا، ومخلصا لربه ودينه، ووطنه وشعبه، فكان أوّل من ينفذ ما يقوله أو يكتبه قبل تنفيذ الناس له.

لذلك لم يقتصر جهاده على الصحف والمجلات، والكتب والمؤلفات، وفي دائرة مكتب عمله، أو دار نشره، بل نزل في الساحة منذ فترة مبكرة من حياته، وظلّ يجتهد ويجاهد في سبيل السياسة والقيادة، وتطبيق النظام الإسلامي في هذه البقعة، ويدافع عن الدين والأمة، وقد تأثر بحركات الخلافة في مقتبل عمره، وشاركَ في مؤتمر العالم الإسلامي الذي أُنشئ ردّا على سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا، وقد أدّى دورا كبيرا في المؤتمر كممثل رئيس له في هذه الدولة.

ثم شاهدَ في بداية حياته حركات العلماء من أجل الخلافة الإسلامية في هذه الدولة، ورأى الشيخ مولانا أطهر علي والشيخ مولانا نور محمد الأعظمي وغيرهما من كثبٍ، وتأثر بهؤلاء السياسيين الأعلام، حتى دخلَ في «جمعية علماء الإسلام» في ستينيات القرن الماضي، ومن هنا ظلّ يعمل ويجاهد، ويدخل في الانتخابات تحت مظلّة «الجمعية»، ويزيّن مناصبها المهمّة، ويتحمّل مسؤولياتها الكبرى، ولما نشبت حرب التحرير عام ١٩٧١م، أيّد الحربَ، وأيدها معه حزبه «جمعية علماء الإسلام»، وشاركَ فيها بنفسه

وماله، وأظهر البطولة، كما ترك بصمة قبل ذلك في حركات اللغة عام ١٩٥٢م.(١)

إلا أن دورَه في السياسة والقيادة لا يصح أن نزنه بميزان الأحزاب الديمقراطية، وننظرُ إليه بعدسة السياسة الراهنة، ونقيسه بمقياس الانتخابات المزورة، لأنه كان يجاهد للدين، ويصول ويجول في غمار السياسة العلمانية من أجل القيادة السماوية، وليس للحزب أو للأهداف الحزبية الضيقة، ولذلك عمل للجميع، ووقفَ مع الجميع على منصّة واحدة، وكلما دعاهُ أحدٌ للوحدة والوفاق كان أول من يلبّي بدعوته، ويجيب بطلبه، ويحضر في بيته، ويعمل معه جنبا إلى جنبٍ، ونزلَ في الميدان ضدّ كل هجومٍ على الإسلام والمسلمين، ورفعَ صوتَه في كل موطن كلما أريد بالإسلام سوءٌ! وقاد المظاهرات، وترأس المؤتمرات للدفاع عن الأمة والوطن، كما قادَ «المسيرة الطويلة» إلى سدّ «تيبايموخ» ردا على العدوان الهندي على مياه بنغلاديش عام ٢٠٠٥، وكانت لها صدىً كبيرة في داخل الدولة وخارجها.

آثاره في التعليم والإصلاح

كما قام بدور بليغ في الدعوة وإصلاح المجتمع، فقد أنشأ مدارس دينية، ومراكز علمية كثيرة، ودورا للأيتام، ومكتبات إسلامية، وهو الذي قام بتأسيس «دار العلوم المعهد الإسلامي» في ستينيات القرن الماضي، داخل حدود الجامع الوطني «البيت المكرّم»، وقد قام المعهد بأعمال جليلة خلال فترةٍ قصيرة، ثم أمَّمته الحكومة الأيوبية فهدمه، ونزعه من مزاياه، فتركه الشيخ خان بيد القدر، وبعد أن ظهرَت بنغلاديش ظهر هذا المعهد وحمل اسم «المؤسسة الإسلامية بنغلاديش»، ونهض عددٌ من العلماء الكبار من أهل السنة والجماعة، وجاهدوا في سبيل تطويرها وتحقيق أهدافها، حتى أصبحت المؤسسة مركز دينيا كبيرا، ومرجعا للناس، ونشرت كتبا قيّمة، وأدّت دورا بليغا في الدعوة والإصلاح، ونشر الثقافة الشرعية، إلا أنها أصيبت بالانحطاط في الآونة الأخيرة، وتسلّط عليها المرتزقون والمخرّفون ممن يُسمّون «علماء السوء» و«تجار الدين» من الطرق الصوفية البدعية، وطوائف الفقراء، فكثر عدد الأدعياء والجهلاء، وضيّعت كثيرا مما كانت تعتزّ به في الماضي، وفقدتْ لمعانَها ومجدَها.

محارب التنصير وداعية غير المسلمين إلى الإسلام

كان الشيخ خان رجلا إنسانيا في صميمه، وقد أخذ الأعمال الإنسانية سلاحا من أسلحة دعوته، لتأليف قلوب الناس وترغيبهم في الآخرة، فأنشأ «مجمّع أنصار نغر» في مسقط رأسه «مؤمن

(١) اقرأ في البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي، ص٤٥٩-٤٦١

شاهي»، وفتح تحت مظلّته مدرسة للبنين، ومدرسة للبنات، ودارا للأيتام، ومدرسةً عصرية تجمع بين التعليم الديني والتعليم المدني، وجمعية خيرية، ومستشفى، ومكتبةً، كما أعار اهتماما كبيرا بدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، والردّ على التنصير.

ولا يخفى على القارئ أن المناطق الجبلية في بنغلاديش تتعرّض أكثر من غيرها للهجمات التنصيرية، وقد تنصّر آلافُ الناس في هذه المنطقة، فما كان من هذا الإنسان المخلص والداعية المصلح أن يكون بغفلةٍ من هذه القضية الخطيرة، فنهضَ وجاهد جهادا كبيرا، وفتح جمعية خيرية باسم «رسالة التوحيد» في محافظة «بندربان» الجبلية، وقد أسلم على يده كثيرٌ من الناس، فأعاد تأهيل هؤلاء المهتدين، وساعدَهم على حياتهم وتعليمهم، وتربية أبنائهم، وكان يزورهم، ويقف عليهم واحدا واحدا.[١]

هنا تتجلى عبقرية الداعية المسلم، الإنسان الذي نذرَ حياتَه للصحافة والكتابة، والجهاد بالقلم واللسان، وتولّى مسؤوليات قيادية ثقيلة، وسافرَ إلى شرق الأرض وغربها، رغم هذه الأعمال الشاقة والارتباطات المتشابكة كلها لم ينس أهل بيته، وأعضاء أسرته، وبني جلدته، ولم يتركهم للوقوع في شراك المنصّرين.

إلا أن معظمَ تلك الجهود الدعوية ذهبتْ في الآونة الأخيرة، بوفاة الدعاة المخلصين أمثال الشيخ محيي الدين خان، والشيخ أبي سعيد محمد عمر علي وغيرهما، فأثر ذلك في الدعوة والإصلاح، وقلب مسير الدعوة في غير المسلمين ومقاومة التنصير قلبا، وضيّق مساحتها، وحوّلها من دعوة متدفّقة إلى عزلةٍ وانطواء على نفسها!

الشيخ خان على مسرح العالم

وقد سافرَ من أجل الدعوة والمشاركة في المؤتمرات ولإلقاء الكلمات إلى دول كثيرة، فحضر في السعودية والإمارات والعراق ومصر مرارا، كما ذهب إلى السودان والصومال والنيجر، وقبرص، وتركيا، والمملكة المتّحدة، وإيران، وباكستان وأفغانستان، وأندونيسيا، وماليزيا في فتراتٍ مختلفة، وقد أصبح عضوا في رابطة العالم الإسلامي عام ١٩٨٨م، وحضر في كثير من مؤتمراتها وجلساتها، وتشرّف بالدخول في الكعبة المشرّفة، كما كان عضوا في كل من رابطة الأدب الإسلامي ومؤتمر العالم الإسلامي.

---

(١) في ذكر مولانا محيي الدين خان، مقال مسعود مزومدار، جريدة "نيا ديغانتا" (الأفق الجديد) اليومية، الأربعاء، ٢٩ يونيو، ٢٠١٦م

أسرار نجاحه وأسباب قبوله

في الختام يحق بنا أن نقول: لعل من أبرز جوانب هذا الإنسان وأكبر كراماته كان خلقه، فقد كان على خلق عظيم، وصاحب مكارم الأخلاق والفضائل الإنسانية، من التواضع والخضوع، واحترام الناس، والبساطة والسذاجة، والبعد عن الدهاء والشطارة، وحدّة الذكاء التي تُستخدم في تحقيق مآرب شخصية، ونيل المنصب والجاه، وكان مائلا إلى معالي الأمور، وزاهدا في سفاسفها، هذه هي التي ألقت عليه المحبة والمهابة، وجعلته ملتقى العلماء، ومحطّة العوام والخواص، ومرجع جميع التيارات والأجيال الناشئة، وكان كريم الصحبة، ولطيف العشرة، وليس أدّل على ذلك من أن الشيخ خان نشأ ودرسَ في المدارس «العالية» التي تختلف عن المدارس الديوبندية في المنهج الدراسي والفكري والسياسي اختلافا كبيرا، مع ذلك نراه يقضي معظم حياته في المدارس الديوبندية، ويجاهد في الساحة مع علماء ديوبند تحت مظلة «جمعية علماء الإسلام».

كان يحبّ المدارس الديوبندية، ويرى رأيا خاصّا في صلتها بالحكومة، فكان لا يريد الشهادة الرسمية لهذه المدارس، ويرى أنها ستؤدّي بها إلى الحضيض كما أدّت بالمدارس العالية بعد تأميمها، وجالسَ مع علماء التيارات الأخرى من السلفية والطرق الصوفية، ووقفَ معهم صفّا واحدا، مادام لا تكون ثمّة مخالفة صريحة للشريعة، ونقضٌ مباشر لعقيدة أهل السنة والجماعة، وتحقيقا لهذا الهدف النبيل أنشأَ «هيئة كبار علماء بنغلاديش» وجعلها منصّة للوحدة.

كما كان أول من يلبّي بدعوة الوحدة والوفاق كلما يسمعها، وكان صدوق اللسان، وسليم القلب للعباد من الغل والحسد، فلا يحمل في طياته بغضا ولا حقدا للعلماء العاملين في ميدان الدعوة والإصلاح، والدفاع عن الدين، وخدمة الوطن والأمة، مهما اختلفت المشارب، وتباينت الاتجاهات والمذاهب، وهذا الإخلاص جعله يُشرك الناس في مشاريعه، ويربّي ويوجه، وينصح ويعلّم، حتى أخرج جيلا كاملا للدعاة والمصلحين والعلماء العاملين في ميادين شتّى، وممن يقود اليوم هذا الجيل العلامة أبو طاهر المصباح، ومولانا عبيد الرحمن خان الندوي، والدكتور خالد حسين، ومولانا لياقت علي، ومولانا زين العابدين، ومولانا شريف محمد وغيرهم، ومن أجل هذا لما سئل الشيخ خان في أيامه الأخيرة: "هل تحققت الأهداف التي من أجلها أنشأت مجلّة «المدينة» الشهرية، وجاهدتَ في سبيلها طيلة حياتك"؟ أجاب الشيخ بشجاعة المؤمن وثقته: "ليس من الضروري أن تتحقّق جميع الأهداف في حياتي وأمام عيني، وإنما هي غرسةٌ غرستُها في الأرض للجيل الناشئ، فإما أن يحفظها أو يهدمها، ويحدّد مصيرَه في

ضوئها"، وهذا هو أكبر عبقرية الشيخ خان التي دخلَ بها في تاريخ الخالدين من أوسع بابه، وهذا الجيل هو الذي سيظلّ شاهد خلوده في تاريخنا، أبد الآبدين بإذن الله تعالى.

ثم إن شدة حبه للنبي ﷺ ولكل ما له صلة به كان له دورٌ في تكوين شخصيته النيرة، وقبوله الكبير الشامل لدى قومه، وقد بلغ به هذا الحب كل مبلغ، قلما يوجد له نظير، لذلك لما أنشأ مجلة شهرية سماها "المدينة"، ولما أنشأ دارا للنشر سماها "المدينة"، ولما أحس بضرورة البيعة على يد شيخ في التزكية والسلوك، اختارَ الشيخ السيد عميم الإحسان المجددي البركتي وهو من السلالة النبوية الطاهرة ومن دوحة المصطفى ﷺ، حتى نالَ منه الإجازة،[1] ثم هو الذي أسس «اللجنة الوطنية للسيرة النبوية»، وهو الذي تركَ أغنى مكتبة في السيرة النبوية باللغة البنغالية، فكتبَ بوحده في السيرة ما لم يكتبه جماعة من المؤلفين! ولم يكن لهذا كله أن يذهبَ سدى، حتى رفعَ الله مكانته، ووضعَ له القبولَ.

(١) مجلة المدينة الشهرية، العدد الخاص بذكرى الشيخ محيي الدين خان، أغسطس، ٢٠١٦م، ص٣٥

الدكتور خوندكار عبد الله جهانغير

(١٩٥٨- ٢٠١٦م)

الداعية المصلح، حامل لواء السنة والوسطية، محارب التنصير

عصره ومصره

لقد بعث الله هذا الإنسان على المسرح في عصرٍ كان وطنه في أمس الحاجة إليه، وكانت الأمة المسلمة البنغلاديشية في انتظاره، عندما خيمت البدع والخرافات على كثير من الناس، وصار التصوف مرتعا خصبا لترويج الأفكار المنافية للتوحيد، وممزوجا بالديانات الهندية، والفلسفات اليونانية، والمعتقدات الفارسية القديمة، حتى صارت الشريعة حكرة على تلك الزوايا الصوفية، تستبد بها، وتصدر صكوك الرشد والهداية، وتقود الناس إلى متاهات الضلال باسم التزكية، هنا جاءَ هذا الإنسان يحمل لواء إحياء السنة وإماتة البدعة، والرجوع بالأمة إلى المحجة البيضاء ليلها كنهارها، التي تركَ النبي ﷺ أمته عليها؛ كما كانت الفرقة والنزاعات الدينية تبطش بالأوساط العلمية بطشة جبار، وتمزقها شر ممزق، وتستبد بعقول المسلمين نزعة العداوة والشحناء، وكان العلماء متوزعين على معسكرات، كل معسكر يرفع لواءه، ويدافع عنه، ويدعو إليه، ويصد ويرد على غيره، هكذا كانت إمكانيات الأمة المسلمة تضيع في منافسات ومناظرات عقيمة، وحلت القضايا الثانوية والمسائل التافهة محل أصول الدين وأركانها؛ فاشتغلوا بالفروع عن الأصول، حتى جاءَ هذا الإنسان المبارك كحلقة الوصل بين القوات المتنافرة، والمعسكرات المتلاحمة، يرفع لواء الوحدة الإسلامية المباركة، ويدعو إلى الأخذ بالأهم قبل المهم، وأصول الدين قبل فروعه، والفقه الأكبر قبل الفقه الأصغر، ومسائل الإيمان قبل مسائل العمل، والجمع بين السنة والأمة؛ كما كانت الحركات التنصيرية على قدم وساق، في جهل من الأمة وفي غفلة من العلماء

أو تقصيرهم، وكان كثير من المسلمين يرتدون عن الإسلام ويدخلون في النصرانية، وهنا جاءَ هذا الإنسان يحيي فريضة مهجورة بين العلماء، وهي فريضة الردّ على التنصير والمنصرين، والذود عن حياض المسلمين، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام التي هي لب دعوة الأنبياء عليهم السلام وروحها، وبتركها أصبحت الأمة الداعية أمة مدعوة!

هكذا أصبحَ هذا الإنسان بطلا مسلما فريدا في تاريخ هذه الدولة، وعملَ في حياته القصيرة ما لا يعمله جماعة كبيرة من المعمرين في فترات طويلة مديدة، ولو عاشَ لكان مرجع الأمة، ومعجزة الدعاة، وعظيما من العظماء، ومصلحا من المصلحين الأعلام، إنه العالم الكبير، والداعية الحكيم، والمؤلف القدير الخبير، ومحارب التنصير، ومنشئ الجيل، ومحسن الأمة البنغالية، الأستاذ الدكتور خوندكار أبو نصر محمد عبد الله جهانغير رحمه الله.

من الميلاد إلى التخرج

وُلد عبد الله جهانغير في محافظة «جهينايده (Jhenaidah)» عام ١٩٥٨م، في بيت مسلم نبيل، وبيئة علمية، وأسرة صالحة، فدرسَ الابتدائية في كتاب قريته، ثم درسَ في المدرسة الصديقية العالية، وتخرّج في مرحلة الفاضل عام ١٩٧٧م، وفي عام ١٩٧٩م تخرّج في مرحلة الكامل من المدرسة العالية بداكا، بدرجة الامتياز، وكان من مشايخه فيها الخطيب مولانا عبيد الحق الجلال آبادي، ومولانا عبد الباري السلهتي، ومولانا ميان محمد القاسمي وغيرهم، ولم يروِ ظمأه من هذا كله، بل دفعه هيامه بالعلم والمعرفة إلى الجمع بين التعليم الديني والتعليم المدني، فدخل في المدارس الحكومية، حتى نالَ شهادة الثانوية من كلية حسين شهيد السهراوردي بـ«ماغورا»، بالمرتبة الأولى في عموم المجلس التعليمي بمنطقة «جسر».

في عام ١٩٨١م فُتحت أمام الشاب عبد الله جهانغير نافذة جديدة، كانت في الحقيقة نافذة إلى العلم، ونقطة تحوّل نقلته من الأفق الضيق إلى الأفق الواسع الفسيح، حيث وصلته منحة خارجية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، فهبَّ الشاب الطموح ووصلَ إلى المملكة، ودخلَ في رحاب جامعة الإمام، وظلّ غارقا في هذا البحر العلمي الزاخر طوالَ ثمانية عشر عاما، يدرس ويقرأ، ويبحث ويكتب، ويحضر حلقات المشايخ، ويأخذ العلم على أئمة الإسلام والمصلحين، والفقهاء والمحدثين، على رأسهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والشيخ أبو عبد الله محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، والشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ

صالح بن فوزان بن الفوزان وغيرهم، يستفيد منهم ليل نهار، ويصعد في سلاليم العلوم والمعارف، وقد نالَ شهادة البكالوريوس عام ١٩٨٦م، والماجستير عام ١٩٩٢م، والدكتوراه عام ١٩٩٨م في النحو بمرتبة الشرف الأولى، وتشرّف بجائزة التقدير والتكريم على يد الملك سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض آنذاك.

في محراب التدريس

عام ١٩٩٨م عادَ عبد الله جهانغير إلى مسقط رأسه، ودخلَ في جامعة دار الإحسان، لكنه لم يستمرّ فيها إلا عدة أشهر، حتى دخلَ في الجامعة الإسلامية بـ«كوستيا» محاضرا، في قسم الحديث والدراسات الإسلامية، وترقى إلى رتبة الأستاذ عام ٢٠٠٩م، وظلّ يعمل فيها إلى آخر عهده بالدنيا، كما كان يدرّس البخاري في مدرسة دار السلام بـ«ميربور» داكا، وفي المدرسة التابعة لمؤسسة السنة، مقر عمله، ومنبع أمله، ومراح روحه، وساحة جهاده، طوال حياته كلها.

آثاره في الدعوة والإصلاح

إنه أحد عمالقة الإسلام، وعبقري الدعوة الإسلامية، وقد برزت إرهاصات دعوته منذ وقت مبكر من حياته، وأيام طلبه، فقد عملَ في المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد بشمال الرياض أثناء دراسته في جامعة الإمام، كما عملَ مترجما في قاعدة عسكرية أمريكية بالرياض، وقيل إنه إبان العمل الدعوي في الرياض أسلم على يده نحو ثلاث مئة شخص!

ثم لما تخرّج في الدكتوراه عُرضت عليه مناصب دعوية كثيرة في المملكة، وقُدم له طلبٌ وإلحاح، وكانت الإغراءات بجميع أنواعها تعمل عملها، لكن كيف لعبقري من عباقرة الإسلام، صاحب منهج قويم، وثابت على المبدأ، أن يركن إليها، ويستجيب لها، ويضحي بالمستقبل للحاضر العاجل، وكان يعرف أن الرسل يُبعثون إلى أقوامهم، وأن الدعوة لا تنجح ولا تصل إلى غايتها، ولا تعطي ثمرتها المرجوة إلا إذا كان الداعي يعمل في قومه، وبين بني جلدته، وأبناء وطنه ولغته وثقافته الذين نشأ فيهم، وعاشَ معهم في فرحهم وترحهم، ووزن عقليتهم ونفسيتهم، فيخاطبهم بلغتهم، ويحدث إليهم بما يفهمون، فجلّ على كل الإغراءات والوساوس، وأخذ خطاه الحثيثة إلى مسقط رأسه.

بالعكس من كثير من العلماء والدعاة الذين يؤثرون العمل في العاصمة أو في ضواحيها، لبعض المصالح الدينية والدنيوية، ركّز الشيخ عبد الله عنايته على القرى وخصوصا على محافظة «جهينايده».

المنطقة التي وُلد فيها ونشأ، وعلى المناطق المتاخمة لها، فقد كانت هذه المنطقة حتى قبل عقود في أحط أدوار تاريخها الديني والعلمي، وكانت أسواق البدعة والخرافات رائجة نافقة فيها، بينما كان نور التوحيد منطفئا، فرأى أن هذه المنطقة هي أرضٌ خصبة لدعوته، وأن العمل فيها يكون زكاة لعلمه، وأداء لحق إيمانه ومعرفته، فأخذها قاعدة لجهاده، وتفرّغ للدعوة، وظل يعمل عمله، ويبني كتاتيب لتعليم القرآن، ويفتح المراكز العلمية، والمدارس الدينية العربية لتخريج العلماء والدعاة، على رأسها «أكاديمية الفاروق الإسلامية» التي أسسها عام ١٩٩٨م، والمدارس التابعة لمؤسسة السنة عام ٢٠١١م، ويحضر في المجالس والمحافل الدينية، ويلقي الكلمات، ويحاضر ويناقش، ويخطب في الجمع والأعياد، والمناسبات الدينية، ويظهر في القنوات، ويتحدث ويجيب على الأسئلة، ويعقد مجالس، وينظم دورات، حتى ازدهرت النهضة الإيمانية في هذه المنطقة، ونشأ جيلٌ كاملٌ بجميع فئات المجتمع من الشيوخ والشباب، والعلماء والطلاب، والعامة والخاصة، يحبونه، ويصغون له، ويتشاورونه، ويأخذونه قدوةً في طريقهم إلى الرشد والصلاح، وكان له دورٌ كبير في تنقية زاوية «فرفرا» من كثير من الشوائب العقدية والعملية.

آثاره في ميدان التأليف والكتابة

منذ صغره تميّز الشيخ عبد الله جهانغير بفرط الذكاء، وتوقد الذهن، وبعد النظر، وحدّة الشعور، ودقة الملاحظة، وتجلى ذلك في مراحل حياته كلها، ثم لما شبّ عن الطوق أحس بضرورة إتقان الكتابة، وإجادة اللغات والآداب، لعمل الدعوة في سبيل الله، حتى أتقن عدة لغات: البنغالية والعربية والإنجليزية، ليقرأ فيها ويكتب، ويستفيد من علوم الآخرين.

لم يكن الشيخ من هؤلاء الكتاب والمؤلفين الذين يكتبون وراء الكواليس، ويطلقون نارا ورصاصا على الأوراق، فيحث الناس على العمل والنزول في الساحة، وهو قابع في مكتبه، وقاعد على كرسيه، لا يتحرك إلا قلمه، فيأمر ولا يأتمر، وينهى ولا ينتهي، ويدعو ولا يعمل، بل كان داعية في صميمه، ومصلحا متنقلا في الطرق والشوارع، ومتجولا في كافة البلاد، ولذلك لم يُكتب للشيخ أن يتفرغ للكتابة، بل بالأحرى أنه لم ير التفرّغ لها، وإنما ركّز على بناء المدارس، وإنشاء المراكز، والتدريس في الجامعات والمدارس، والخطابة في الجوامع، وإلقاء الكلمات في المحافل، والجلوس مع العامة والحديث إليهم، ودعوتهم إلى الله، ثم إذا سنحت له فرصة، أو بالأجدر أنه خلق فرصة على حساب الراحة، في حله وترحاله، وفي البيت وفي السيارة، وعلى متن السفينة والطائرة، حمل القلم، وكتب، وألف، وترجم، ونشر، وبحث، وحلل، حتى أصبح عدد كتبه ورسائله يزيد على ثلاثين! وليس من ناحية العدد فقط؛

بل كل من ينظر فيها يدرك مكانة الشيخ في العلم والمعرفة، ودقة نظره، وعمق فقهه، وسعة اطلاعه، وإحاطته بالعلوم العصرية، والمناهج الفقهية، والمدارس الفكرية، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، والشريعة والمدنية، والشرق والغرب، والدين والدنيا، وهذا ليس إلا كرامة من كرامات هذا العالم المؤمن.

من أبرز ما كتبه الشيخ: ◊ الطريق إلى ولاية الله والأذكار النبوية (٢٠٠٢م) ◊ زكاة الزروع والثمار وتطبيقها في بنغلاديش (٢٠٠٣م) ◊ أركان الإسلام والأذكار المسنونة (٢٠٠٣م) ◊ الدعوة إلى الله (٢٠٠٤م) ◊ الوضع في الحديث والأحاديث الموضوعة المشتهرة (٢٠٠٥م) ◊ الإرهاب باسم الإسلام (٢٠٠٦م) ◊ العقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة (٢٠٠٧م) ◊ إحياء السنن: التمسك بالسنة واجتناب البدعة (٢٠٠٧ الطبعة الخامسة) ◊ الملابس والحجاب والتجمّل في ضوء القرآن والسنة (٢٠٠٧م) ◊خطبات الإسلام (خطب الجمع والعيدين من الكتاب والسنة) (٢٠٠٨م) ◊ ليلة النصف من شعبان في ضوء القرآن والسنة (٢٠٠٩م) ◊ تعيين الذبيح وبيان تحريفات الكتاب المقدس (٢٠١٠م) ◊ الكتاب المقدس: تعريفه وتحليله (٢٠١٣م) ◊ وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة: دراسة حديثية نقدية (٢٠١٤م) ◊ ترجمة وشرح الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة (٢٠١٤م) ◊ ترجمة إظهار الحق لرحمت الله الكيرانوي ◊ ترجمة فقه السنن والآثار للشيخ عميم الإحسان المجددي وغيرها.

وقفات مع بعض كتبه

هنا لا بد أن نقف مع بعض كتبه وقفات قصيرة، لما كثر الكلام حولها، وأثير النقاش الطويل والعريض عليها، ووُجّهت إليها اعتراضات، وكُتبت فيها بحوثٌ، يأتي في طليعتها كتابه "العقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة"، وضعَ الشيخ هذا الكتاب لبيان عقيدة الإسلام على أساس الكتاب والسنة، ومن نصوص السلف، ونبذ تأويلات المتأخرين من المتكلمين والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية، وإنقاذ الأمة المسلمة من الشرك والوثنية باسم الصوفية المنحرفة الضالة، وتحقيقا لهذا الهدف حاولَ الإكثار من ذكر روايات أئمة الحنفية في العقيدة والاستدلال بكلامهم، بدءا من المتقدمين أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة، والإمام أبي يوسف، والإمام الطحاوي، حتى المتأخرين، أمثال الإمام الملا علي القاري، والإمام شاه ولي الله الدهلوي وغيرهم، وذلك لحكم سيادة المذهب الحنفي وقيادته في هذه الدولة.[1]

---

(١) انظر في كتابه العقيدة الإسلامية تعريفه للإيمان والاستدلال بقول الإمام أبي حنيفة في ص٢٥، وانظر ردّ الإمام أبي يوسف على أهل الكلام ص٣١

أما المسائل اليسيرة التي فيها خلافٌ بين أئمة الحنفية وبين العلماء السلفيين، مثل الإيمان والإرجاء وغيرهما، تحاشى الشيخ الخوض فيها والاستقصاء لها،[1] مخافة أنها تخلّ بهدفه، وتحول الوصول إلى غايته، كأنه حاولَ أن يقول بأنه ليس هناك خلافٌ في أصول الدين بين أئمة المذهب الحنفي المتقدمين وبين العلماء السلفيين، إلا بعض المسائل البسيطة التي لا تكاد تذكر، فصادف الكتاب إعجابا عاما، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على عبقريته وفراسته، وندرته وتميزه، وحكمته في الدعوة، ومخاطبة القوم بلغتهم، وقد سارَ على هذا المنهج طوال حياته، وهذا المنهج هو المثل الأعلى في الدعوة والإصلاح، يجب أن يُقتدى.

من أهم ما قدّمَ الشيخ عبد الله جهانغير للأمة المسلمة البنغالية هو ترجمته لكتاب "الفقه الأكبر" المنسوب إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة، وشرحه بالبنغالية، ومع أنه قد كثر الكلام في نسبة هذا الكتاب إلى الإمام، إلا أن الشيخ رأى أن هذه النسبة صحيحة، أو على الأقل العقائد التي جاءت في هذا الكتاب هي من عقائد الإمام، جاءت من إملائه على تلامذته أو نقل كلامه، فلا بأس أن ينسب ما جاء فيه من العقائد بأنها عقيدة الإمام،[2] وقد قسّم الكتاب على بابين، وخصص الباب الأول للحديث عن الإمام أبي حنيفة، وسيرته، وعقيدته، وكتبه، حديثا مفصلا، أما ترجمة الفقه الأكبر وشرحه والتعليق على كثير من مسائله، فذكرها في الباب الثاني، لكن الأمر الذي يجدر أن يلفت نظر الباحث هو أن المؤلف رغم ميله إلى السلفية ميلا كبيرا، وأخذه العلوم من أساطين الشيوخ الحنابلة، نزلَ هنا في الساحة يدافع عن الإمام أبي حنيفة دفاعا قويا، ويردّ على الاعتراضات التي وُجهت إلى الإمام قديما وحديثا، ويثبت براءته منها، ومن ثم يستحق هذا الباب أن يُنشر في شكل كتاب مستقل، ليرى القارئ مكانة الإمام في الفقه والحديث، ودوره في تاريخ الإسلام، وليرى سماحة مؤلف مؤمن يسع صدره الرحب لكل من ينتمي إلى الحق، ويرفع لواء الكتاب والسنة، مهما اختلفت المناهج والمشارب، وهدفه

و٣٢، وانظر كذلك مكانة الحديث عند الإمام أبي حنيفة وأصحابه ص٥٠، وكلام الإمام شاه ولي الله الدهلوي ص٥٧، ولما قسّم التوحيد قسمه مستندا إلى كتاب العقيدة الطحاوية، وشرحه للإمام أبي العز الحنفي ص٨٦، وانظر كذلك كلام الإمام أبي حنيفة والملا علي القاري في التكفير وأصوله ص٥٢١، وكلامهم في أسماء الله وصفاته ص٥٨٧

(١) انظر في العقيدة الإسلامية على سبيل المثال كلامه في تعريف الإيمان، فلم يفصّل الخلاف بين الأئمة الحنفية والسلفية في ص٢٥، ولما تحدّث عن المرجئة تجنب الكلام في مرجئة الفقهاء، ص٦٢٤، ولما تحدّث عن الفرق تحدّث عن الخوارج والمعتزلة والقدرية والجبرية وغيرها، لكنه لم يتحدث عن الأشاعرة والماتريدية، لما يثير ذلك التذبذب بين صفوف المسلمين وبالتالي يخلّ بهدفه.

(٢) ترجمة الفقه الأكبر وشرحه، ص١٣٧ و١٤٠ وما بعدها

في ذلك هو تأليف قلوب أتباع الإمام في مذهبه الفقهي، والعودة بهم إلى محجته وأصول عقيدته، التي- كما يراها المؤلف- "تعرّضت لكثير من الانحرافات بعده، وأصبح جمهور الحنفية يقلدون الإمام في فقهه دون عقيدته،"[1] وقد برز ذلك جليا عند حديثه عن الأشاعرة والماتريدية، وقد تكلم في بعض مسائل هذا الكتاب الشيخ مولانا عبد المالك، تلميذ الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، وأمين التعليم في مركز الدعوة الإسلامية بداكا، ورأى أنه ينبغي إعادة النظر فيها وتصحيحها.[2]

أكثر ما أثار الشكوك والشبهات حول منهج الشيخ في الجهاد، وموقفه من القتال، والجانب الحركي من الدين، هو كتابه "الإرهاب باسم الإسلام"، الذي أحدث ضجة كبيرة بين الأوساط العلمية في هذه الدولة، فقد حاول الشيخ في هذا الكتاب الدفاع عن الإسلام، والمسلمين، والعلماء، بأنهم برآء من الإرهاب، ولا صلة بين الإسلام والإرهاب، والمسلمين والإرهابيين، والذين يقتلون الناس الأبرياء، ويسفكون الدماء بلا سلطان، وباسم الإسلام، وصمهم العلماء بالخوارج، وليس لهم من الإسلام نصيب.

لكن نهض بعض العلماء والطلاب بحماس، وتكلموا في الكتاب بأسلوب غليظ، ونسبوا الشيخ إلى نوع من الإرجاء، وذكروا بأنه في هذا الكتاب حاول إنكار صلابة الدين وعزيمته، وشدّته على الأعداء والمنافقين، وعرضَ الإسلام في صورة متسالمة على غرار الليبراليين!

ولا يخفى أن الكلام فيه ذو شجون ليس هذا الكتاب مكانه، إلا أننا نكتفي بالقول بأن تصوير الإسلام دائما في صورة سلمية، وبأنه دين لا يعرف القتل ولا سفك الدم، ولا حمل السيف إطلاقا، وبأن الإسلام عبارة عن السلام، والرحمة الشاملة لجميع الناس، مؤمنا كان أو منافقا، زنديقا كان أو ملحدا، ليس تصويرا دقيقا لهذا الدين، بل من شأنه أن يترك أثرا سلبيا غائرا في الأمة، ثم هو ليس تصوير دين محمد، وإنما هو تصوير ديانة بوذا، أما منهج الشيخ في هذا الكتاب فنقول بأنه ربما رأى هذا المنهج صحيحا، صالحا للأمة المسلمة في مرحلة ضعفها إلى أن تدخر القوى وتنهض، لكن الشعور بالهزيمة أسوأ الهزائم، والموت قبل الأجل، والفرار قبل اللقاء، وبهذا فقد اجتهدَ، والمجتهد يصيب ويخطئ بلا ملامة.

---

(١) انظر مقدمة الكتاب ترجمة الفقه الأكبر وشرحه، ص٥

(٢) مقدمة كتبها الشيخ عبد المالك، لمقال زكريا بن عبد الوهاب، في مجلة الكوثر الشهرية، سبتمبر ٢٠١٦م

جهاده ضد التنصير وخدماته الإنسانية

بحكم فراسته الإيمانية، وبعد نظره، وفرط ذكائه، وتجاربه في ميدان الدعوة، أدرك الشيخ خطورة التنصير القائم على قدم وساق في شتى مناطق بنغلاديش، ورأى أن الإجراءات اللازمة لا بد أن تؤخذ، ولا بدّ أن يوضع السد أمام هذا الطوفان قبل أن يعم ويطم، فأسس مؤسسات اجتماعية وخيرية ودعوية، وأدار حوارات، وألقى محاضرات، وألف مؤلفات، لتوعية المسلمين وعلى رأسهم العلماء والدعاة على هذه الكارثة التي تنتظر أن تفتك بالمسلمين، ولتحقيق هذا الهدف، والتخفيف من حدة التنصير، وإنقاذ الأمة المسلمة من قفصهم، أخذ سنة "تأليف القلوب"، وقدم مساعدات كبيرة إلى الفقراء والمساكين، واليتامى والأرامل، في مسقط رأسه «جهينايده» والمناطق المجاورة لها، حتى نشأ وعي كبير في الأوساط الدينية والعلمية، وتنبه الناس، وجاءت نهضة ضد التنصير والمنصرين.

أسباب نجاحه وأسرار قبوله

النجاح الباهر الذي حصل عليه هذا الإنسان في حياته الدعوية ومهمته الإصلاحية، والقبول النادر الذي ناله، والإنجازات الضخمة العملاقة التي قدمها في حياته القصيرة، لو ذهبنا أن نحدد أسبابها، ونبنش عن أسرارها، كيف نجدها؟ وماذا كانت عوامل نجاحه وقبوله، وأين مواطن عبقريته؟ ومفاتيح سعادته؟

للإجابة على هذه الأسئلة الحساسة لا بد أن ندخل في عمق هذا الإنسان وصميمه لنرى عن كثب إخلاصه لدين الله وعباد الله، ومدى تضحياته في سبيل الدعوة، وجهوده لنشر العقيدة الصحيحة النقية، ولإحياء السنة وإماتة البدعة، وسهره على تربية الناشئة المسلمة، وتثقيف النساء، وتوعية الشباب، وتنبيه الشيوخ، ومحاربته للتنصير، وتقديم المساعدات الإنسانية إلى ذوي الحاجات، ولو دققنا في أخلاقه ومسلك حياته، ومنهج دعوته ووسائل أعماله، واهتمامه بالجوانب التي لا يهتم بها إلا قليل من الناس، وسيره في طرق قلما يسير فيها العلماء والدعاة، لو نظرنا في هذه النواحي كلها لأخذنا العجب العجاب، واكتشفنا أن الرجل كان إنسانا كاملا، وعبقريا من عباقرة الإسلام، حريا أن يكون قدوة للدعاة، وجديرا بأن يُقدّر، ويُنشر خبره، ويقتفى أثره، وكل من يسير على منهجه، ويأخذ بأسبابه ووسائله، ويستفيد من تجاربه، ينجح، وينجز، وينفع الدين والأمة نفعا كبيرا.

من أهم ما يميز هذا الإنسان من كثير من الناس هو إخلاصه النادر لدين الله وخلقه، وحماسه

للدعوة ونشر التوحيد، وطمس معالم الشرك والبدعة والجاهلية، فقد كان قلبه يمتلئ حبا للأمة المسلمة ورحمة بها، ويتفجر أسى على انحطاط المسلمين، وتخلفهم في ركب الحضارة والثقافة، والتعليم والتربية، وضعفهم في العقيدة، وتقصيرهم في واجبهم تجاه الدين، من أجل هذا كله لم يستطع أن ينام يوما أو ليلة قرير العين هانيها، بل أمضى حياته كلها دائم القلق، ومستمر الفكر والاضطراب، يواصل ليله بنهاره، ونهاره بليله، لا يعرف الراحة ولا الإجازة، دائم السعي، وقائم الحركة، ورحالة لا يهدأ، يتنقل من منطقة إلى منطقة، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، يدعو ويحاضر، يكتب ويخاطب، يفكر ويخطط.

ثم يأتي تخطيطه الدقيق للدعوة، ورسم خريطة العمل بكل وضوح وجلاء، فلم يكن يمارس العشوائية والمجازفة، والبدء في العمل بالصدفة، بل كان يخطط كل أعماله تخطيطا دقيقا، ويسير على منهج واضح جلي، مشرق العقل، ومستنير الذهن، ولذلك نرى أنه استفاد من كل دقيقته، بل من كل لحظة من لحظاته، وكلما خطا خطوة جاءَ بنجاح باهر، وثمار أكثر في أقل وقت ممكن، ومن ثم لما أكمل الدراسة وعادَ إلى الوطن، لم يدخل في المدارس العربية والإسلامية، ولم يحصر نفسه في حدود مساجد، أو مؤسسات دعوية وخيرية، بل دخلَ مباشرة في رحاب الجامعة الحكومية الواسعة، ليوسّع مجال دعوته وساحة عمله، وليكثر من عدد مستمعيه، وليؤثر في الأوساط المثقفة والطبقات العليا من المجتمع، التي لا تعطي آذانها عادة إلى العلماء والدعاة، وأصحاب المدارس، ولا تسمع إلا لأساتذة الجامعة والدكاترة، وحملة الشهادات الجامعية، وقد حقق الله حلمه، فتجاوزَت آثار دعوته الأوساط الدينية، وتركت أثرا كبيرا في الأوساط المثقفة من المهندسين والأطباء، والتجار ورجال الأعمال، ورجال السياسة والدولة.

لكن لما كانت المدارس الدينية والمراكز العلمية الشرعية معقل هذا الدين، وحصنه الحصين، وموئل الإسلام، وهي التي تربي العلماء، وتخرج الدعاة، وتنشئ الأجيال الربانية، وتذب عن حياض الدين والشريعة، والتي هي بمثابة الروح للجسم، والماء للسمك، وقد أحس الشيخ بفراسته الإيمانية ودراسته لتاريخ الدعوة والإصلاح بضرورة بناء المدارس، فوضعَ حجر زاوية "مؤسسة السنة" لتكون مقر عمله، وساحة جهاده، ومصدر قوته، ومنبع أمله، وقد كان ما تمنى، فأصبحت هذه المؤسسة منبع خير وهدى، ونور يمشي في ضوئه عدد كبير من الناس، وأصبحتْ تخرّج العلماء، وتنشئ الجيل المسلم على أساس الكتاب والسنة، وهذه المؤسسة في الحقيقة مؤسسة فريدة، تستحق أن يُبنى على منوالها، وتكثر أمثالها.

لقد آتاه الله تفقها عميقا في الشريعة، مع الحكمة النادرة في الدعوة والإصلاح، وقد استغلها بدوره أحسن الاستغلال، فجنى أكلها وثمارها، إذ لم يكن الشيخ فقيها جامدا، مخلدا على القديم، ومقيدا به رأسا وعقلا، ومقلدا لما تركه الأسلاف تقليدا مطلقا، بل كان يميل إلى التوسّع والتفتّح، والاستفادة من الجديد ومن سماحة الشريعة، مع الوقوف عند حدود الله، والبعد عن تتبع الرخص واتباع الهوى، فكان الشيخ حريصا أشد الحرص على استخدام الوسائل الجديدة في الدعوة، واستغلال أحدث ما يوجد في عالم الاكتشافات لإيصال صوته إلى الناس، ومن ثم نراه يخرج في القنوات التلفزيونية، في حين ظل كثير من الدعاة والعلماء يحرمونها أو على الأقل يتجنّبونها، وكان يبرز في أكثر من قناة، يناقش، وينصح، ويجيب على أسئلة المشاهدين، وقد نالت برامجه شهرة واسعة في المسلمين، وخصوصا في الأوساط المثقفة، لمنهجه المعتدل الأثير، فكان له أثر حميد في المجتمع.

وفي الأخير نتحدث عن أهم سمة هذا الإنسان العظيم، وأكبر سبب نجاحه وقبوله، وانتشاره وشعبيته، ألا هو أخلاقه! نعم بأخلاقه كسبَ الناس وفتح القلوب، وقهر الملوك، ودحرَ الخصوم، واحتلّ في السمو الإنساني والعلو الخلقي مكانة تناطح السحاب، وتشرئب لها الأعناق، وتتطاول إليها الأعين! فقد كان جبلا من التواضع، وبحرا من الرحمة، وآية من آيات الله في الكرم والتسامح، والعفو والصفح، والنصح للناس، وتقديم الآخرين على النفس، والثناء على ألد الخصوم، وكان سباقا إلى البر، ومفتاحا للخير، ومغلاقا للشر، وصورةً حية من السلف الصالح، كان خلقه سنة رسول الله ﷺ، بل دفعَ حياته كلها في السنة وللسنة ومع السنة، حتى أصبحت السنة شعاره ودثاره، ولحمته وسداه، ولذلك مع كونه قد تخصّص في اللغة (العربية) والنحو، إلا أنه تولى التدريس الجامعي في قسم السنة، ثم لما أنشأ مقرّ عمله أسماه "مؤسسة السنة"، ولما أسس دارا للنشر سماها "دار السنة للنشر"، وكتبَ مؤلفات كثيرة في إحياء السنة، وإماتة البدعة.

أما في حياته العملية هي الأخرى فكان نموذجا حيا للسنة النبوية، يتتبّعها في كل أعماله وعباداته، وفي تعامله مع الله ومع الناس، وكان حنفي المذهب في الفقه، إلا أنه سعى طوال حياته للعمل في ضوء السنة، والحديث الذي يرجح عنده، فلا يهمه أن وافق المذهب أم خالفه، ولذلك في كثير من المسائل خالفَ المذهب وعملَ بنص الحديث الصحيح الصريح.

ثم عندما نتحدث عن تعامله مع الناس، نقول بدون مبالغة بأن هذا الإنسان في أخلاقه العظيمة كاد أن يكون ملكا! فقد كان دائم الابتسامة، فاره القامة، رحب الهيكل، يتبسم في وجه كل من يلقاه،

صديقا كان أو عدوا، مسلما كان أو غير مسلم، صغيرا كان أو كبيرا، ابتسمَ طوال حياته، ولم يُر قط أن يعبس في وجه أحد، ويزجر أحدا وينهر، فضلا عن أن يسب ويغتاب، ويشاحن ويخاصم، ويترفع ويتعجرف، فقد كان يُشيد بخصومه، ويذكر بالخير من يذكره بالسوء! وقد أبصر ذلك عيناي، وسمعه أذناي، ووعاه قلبي، ولا ينبئك مثل خبير، والذي يرغب أن يعرف خلقه بالتفصيل فليراجع كتابه "الدعوة إلى الله" الذي نشره عام ٢٠٠٤م، فإن كل ما ذكره الشيخ في هذا الكتاب من حِكم الدعوة، وواجبات الداعي وصفاته، طبّقها في حياته قبل أن يقدمها للقارئ، حتى كأن جاءَ هذا الكتاب صورة مصغّرة من حياته، وجاءت حياته تطبيقا عمليا لكتابه.

عاملَ مع الجميع معاملة نبوية، وتعلّى عن التحزب والتعصب، ونادى الجميع إلى الجماعة، والوقوف على منصة واحدة لصالح الإسلام والأمة المسلمة، على اختلاف المذاهب والمسالك، والمناهج الفكرية والسياسية، ولذلك رغم أنه لم يدرس قط في المدارس الديوبندية ولم يعش معهم، ولم يأخذ العلم منهم، إلا أنه لما بدأ عمله أنشأ بهم صلةً وطيدة وثيقة، صلة الشقيق بشقيقه، لأن العلماء الديوبنديين هم سواد الأمة في هذه الدولة، فلإنجاح أية مهمة وأداء أية رسالة، وإحداث نهضة دينية وإيمانية كبرى، لا بد من التعامل معهم، والتعاون على الخير، والاستفادة منهم، وتبادل النفع بين مدارس الإسلام المختلفة، فكان يحب العلماء الديوبنديين، ويقرأ في كتبهم بلذة وشوق وشغف، ويستفيد منهم ويثني عليهم، وينشئ المدارس على غرار مدارسهم؛ لذلك بعد أن رأى أن المدارس العالية (الحكومية) قد ضعفتْ في روحها وإنتاجها، وكادت أن تفقد صلاحيتها، وقد درسَ بنفسه فيها، إلا أنه لما أنشأ مدرسةً أنشأها على غرار المدارس الديوبندية، لكونه يعرف دورها في المجتمع، وأثرها في التعليم، وصلاحيتها للبلاد والعباد.

كان كثيرا ما يحب ويكرر على لسانه أسماء الشيخ عبد الحي اللكهنوي، وعبد الفتاح أبي غدة، والشيخ المفتي تقي العثماني، أما الإمام شاه ولي الله الدهلوي فكان له أثر كبير في تكوين عقليته وصياغة منهجه، بل كان منهجه في الفقه والدعوة والبحث والدراسة أقرب من منهج الدهلوي، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد كان معجبا بعلمه إلى درجة لا تصدق، ومتتلمذا على كتبه ورسائله، وهكذا كان الشيخ جهانغير ملتقى البحرين، وذا النورين، وجامعا بين المدرستين الكبيرتين في تاريخ الإسلام، مدرسة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية الحراني، وشيخ الإسلام الإمام شاه ولي الله الدهلوي.

كان يريد انتصار دين الله وليس انتصار نفسه، وإعلاء كلمة الله وليس إعلاء كلمته هو، ونشر

العقيدة الصحيحة وليس نظرياته الشخصية، ولذلك لم يرد قط أن يحرز بنفسه قصب السبق دون غيره، ويفعل أعمال الإسلام كلها بوحده ليستبد بالشرف، بل كان يريد أن يتم نور الله، ولا يهمه أن يتم ذلك على يده أو يد غيره؛ لذلك كان يقدم غيره على نفسه، ويستمع إلى الآخرين أكثر من أن يُسمعهم! وكل من يعمل من أجل الدين فهو أخوه وصديقه، لا يتحاسد ولا يتباغض، ولا يتجسس ولا يتحسس، ولا يتحنّف ولا يتسلّف، ولا يتحزّب ولا يتعصب، ولا يحابي ولا يتملق، ويسمح بالاختلاف دون الافتراق، وكان باطنه مثل ظاهره، هكذا لما أصلح جوانيه أصلح الله برانيه، ولما أصلح ما بينه وبين الله، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ووضع له القبول في القلوب، وأحبه الناس حبا لم يكد يحظَى بمثله أحدٌ قبله في تاريخ هذه الدولة.

ذهبَ إلى الرفيق الأعلى ومهمته لم تتمّ

بينما كان الشيخ عبد الله جهانغير في العقد السادس من عمره، وكان نجمه في طلوع وبروز، وفي صعود إلى السمو، وكانت الأحزاب الإسلامية كلها والمدارس الفكرية برمتها تعلّق عليه آمالا، وتخطط معه مخططات، وكانت الأمة المسلمة البنغالية تحلم به أحلاما، وكانت النهضة الدينية والوحدة الإسلامية تدور حول هذا الإنسان في هذه الفترة الحرجة الدقيقة، وفي هذه المرحلة الحساسة، إذ فُجعتْ دولة بنغلاديش بهذه النفس الطاهرة الزكية، وفوجئت الأمة المسلمة بوفاة هذا الإنسان، فتوفّي الشيخ على إثر حادث مروري رهيب ذهب بحياته وسطَ الشارع عام ٢٠١٦م، وهو في الطريق من بيته «جهينايده» إلى العاصمة داكا، فخسر الإسلام ابنا أمينا له، وخسر المسلمون في هذه الدولة خسارةً فادحة لا تعوّض، لكن الله يفعل ما يشاء لحكمة ولغاية هو أعلم بها.

تحديد مكانته ورسالة من حياته

كيف نجده لو ذهبنا الآن نحدد مكان هذا الإنسان في تاريخ دعوة الإسلام والإصلاح في هذه الدولة، ومكانته بين الدعاة والمصلحين؟ وقد قلنا إن الله وضعَ له قبولا عاما في قلوب العباد، وإنه حظيَ بمكانة نادرة عند جميع المدارس الفكرية، والمذاهب الفقهية، بحيث ما لم يحظَ به أحد قبله، لكن هل معنى ذلك أنه لم يخالفه أحد ولم يخاصمه؟ ولم ير أحدٌ غير ما رآه؟ وأن كل ما فعله نال موافقة تامة من جميع العلماء والدعاة، بلا معارضة ولا اعتراض؟ لا، لم يحصل ذلك قط، ولا يمكن أن يحصل البتة.

لذلك مع أن الشيخ نال قبولا عاما عند جمهور الشعب وعامة الأمة المسلمة في هذه الدولة

وخارجها، إلا أن هناك معسكرات خالفته، وعارضته، وتعرقلت في سبيله، وهذا الذي حصلَ من بعض الزوايا الصوفية المنحرفة، والمتجرين بالدين، والمروجين لسوق البدع، لما جاءَ الشيخ وحاربَ بدعهم، حتى كسدت بضاعتهم، وخربت حوانيتهم، فاتهموا الشيخ بتهم، وخالفوه في كل موطن!

لكن للأسف خالفه وناصبَه العداء بعض من ينتسبون إلى السلفية، وكثير ممن ينتسبون إلى الحنفية، لما رأوه لا يمشي في ركابهم، ولا يغني على ليلاهم، ولا يتكلم بلسانهم ولغاتهم، والسبب في ذلك أن الشيخ كان بحرا عريضا عميقا، يحتضن كل سفينة تنزل فيه وتسبح على صدره، لا يباري ولا يماري، يتعاون مع كل أحد يعمل للدين والأمة، ويريد أن يكون للجميع ومع الجميع، ومن ثم ظنّه السلفيون بأنه سلفي، ثم رأوه يخالفهم! كما ظنه الحنفية بأنه حنفي، ثم رأوه يخالفهم! بل صرّح الشيخ بأنه ليس حنفيا ولا سلفيا، وإنما هو مؤمن، ومتبع لشريعة محمد ﷺ، هكذا لما أراد أن يكون صديقا للطرفين، أصبح عدوا للطرفين، ووقعَ في فكي الأسد، وهذه هي ظاهرة مسيطرة على الأمة المسلمة الممزقة في العالم كله.

إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث، فكيف ببحرٍ لا ساحل له؟ من أجل ذلك مع بعض الملاحظات في حياته ومنهجه، علم الله عبده هذا، وعلم صدقه، وإخلاصه النادر لدينه ولإعلاء كلمته، وإيمانه بمنهج التعاون على البر والتقوى والدعوة والإصلاح، فأيده وآزره، وجزى إحسانه بالإحسان، وخلّده في التاريخ مع قصر حياته، وأبى أن يجعل منه إنسانا فقط، ليجعل منه فكرةً ومنهجا، ومدرسةً إيمانية ودعوية وإصلاحية، وكوكبة منيرة تستنير في سماء البنغال إلى أبد الآبدين.[1]



---

(١) مستفادٌ من مقال زكريا بن عبد الوهاب في مجلة الكوثر الشهرية، سبتمبر ٢٠١٦م، ومن مسودة غير مطبوعة بعنوان العالم الذي سبقَ عصرَه، من إعداد الأخ تنوير حسن بن عبد الرفيق، ومن عدة كتب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

ثبت المصادر والمراجع

العربية:

١. أدب المفتي: للمفتي محمد عميم الإحسان المجددي، تحقيق وتعليق محمد عادل أيوب
٢. التعريفات الفقهية: للمفتي عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣. الحركة السلفية في البنغال: للشيخ مصلح الدين.
٤. ديوان العزيز: لشيخ الحديث العلامة عزيز الحق.
٥. ردّ المحتار: للعلامة ابن عابدين، دار عالم الكتب.
٦. شرح العقيدة الطحاوية- للإمام ابن أبي العز الحنفي
٧. صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري.
٨. علماء ديوبند- اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي: للقارئ محمد طيب
٩. الفتاوئ العالمكيرية، الطبعة الكبرئ الأميرية.
١٠. فقه السنن والآثار: للمفتي محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: للإمام العجلوني
١٢. مجلة البعث الإسلامي الشهيرة: الصادرة من ندوة العلماء بالهند، العدد الرابع، يونيو ١٩٩٢م.
١٣. مقالات العثماني: للمفتي محمد تقي العثماني
١٤. المهند على المفند: للشيخ خليل أحمد السهارنبوري
١٥. الموضوعات: للعلامة ابن الجوزي.
١٦. ميزان الأخبار في مصطلح أهل الأثر: للمفتي محمد عميم الإحسان المجددي البركتي

الأردية:

١. برصغير مين اهل حديث كي أوليات: مولانا محمد يوسف بهتي.
٢. تحريك سيد احمد شهيد: حضرت مولانا غلام رسول مهر.
٣. تذكره حضرت مولانا كرامت علي جونبوري: مولانا مجيب الله ندوي

۴. تذکرہ ضمیر، مختصر حالات قطب عالم حضرت الحاج مولانا شاہ ضمیر الدین أحمد إسلام آبادي: مولوي فیض أحمد اسلام آبادي

۵. تذکرہ عزیز: سلطان ذوق الندوي.

٦. جانباز مجاهد: مفتي رفیع العثماني

۷. حیات مفتي أعظم (بالفارسیة مع الترجمة الأردیة): جمع وترتیب مفتي محمد إظهار الإسلام

۸. سیرت مولانا کرامت علي الجونبوري: مولانا عبد الباطن جونبوري.

۹. سیرة النبي: شیخ شبلي النعماني

۱۰. کاروان إیمان وعزیمت: سید أبو الحسن ندوي، مجلس نشریات إسلام.

۱۱. کاروان زندگي: سید أبو الحسن ندوي، مکتبة إسلام.

الإنجليزية:

١. Alivardi and His Times, By Kalikinkar Datta

٢. Bangladesh: Past and Present, Salahuddin Ahmed (٢٠٠٤)

٣. Biographical Encyclopedia of Sufis: South Asia, N Hanif (٢٠٠٠)

٤. British Policy and the Muslims in Bengal ١٧٥٧-١٨٥٦, Azizur Rahman Mallick

٥. Constructing Bangladesh: Religion, Ethnicity, and Language in an Islamic Nation, Sufia M. Uddin ٢٠٠٦)

٦. Encyclopedia of Eminent Thinkers, Vol XXI, Dr. Jai Narain Sharma

٧. Encyclopedia of Islam

٨. Historical Dictionary of Bangladesh, Syedur Rahman

٩. History of Bengal: Mughal Period. University of Rajshahi, By Abdul Karim

١٠. History of Indian Journalism, J. Natarajan (١٩٥٥)

١١. History of Modern India, S.N Sen

١٢. History of the Faraidi Movement, Dr. Muin-ud-din Ahmak khan, (IFB Oct: ١٩٨٤)

١٣. History of the freedom movement in India, R.C Majumdar, Vol I

١٤. History of the Muslims of Bengal, Dr. Mohar Ali

١٥. International Journal of Advanced research in Management and social Science. Vol II, Feb ٢٠١٤

١٦. Islam in Bangladesh, Razia Akter Banu (١٩٩٢)

١٧. Islam in Bengal (from thirteenth to nineteenth century), Jagadish Narayan Sarka

١٨. Islamic Revival in British India, Metcalf D. Barbara

١٩. Land of two rivers, Nitish K. Sengupta (٢٠١١)

٢٠. Modernist Islam ١٨٤٠-١٩٤٠ A Source Book, Edit, Charles Kurzman (Oxford ٢٠٠٢)

٢١. Moulana Bhashani Leader of the Toiling Masses: Leader of the Toiling Masses, Edit. Anisuzzaman Chowdhury ٢٠١٢

٢٢. Moulana Bhashani: His Creed and Politics, Edit. Anisuzzaman Chowdhury

٢٣. Murshid Quli Khan and His Times, By Abdul Karim

٢٤. Muslim Politics in Bengal ١٨٥٥-١٩٠٦, Jayanti Maitra

٢٥. Pakistan Quarterly (١٩٦٤), Vol ١٢-١٣

٢٦. Peasant Labour and Colonial Capital Vol III, Sugata Bose

٢٧. Political Ideology of Abul Ala Maududi, Dr. Zakirullah Firdausi

٢٨. Political Parties in South Asia, Edit. by Subrata K. Mitra & Others, (٢٠٠٤)

٢٩. Politics in Bangladesh, A study of Awami League ١٩٤٩-١٩٥٨, M Bhaskaran Nair (١٩٩٠)

٣٠. Religious controversy in British India, Kenneth W. Jonese (Suny press)

٣١. Searching for Bhashani Citizen of the World, Dr. Abid Bahar

٣٢. Selections from Akram Khan's Tafsiurl Qur'an, (BIIT; ٢٠٠٩) Edit. Md. Mahmudul Hasan

٣٣. Shaheed Titumir, the Muslim Hero of Bengal, Muin-ud-din Ahmad Khan

٣٤. Shane-E Waisi, Ahmadul Islam Chowdhury, (٢٠٠٧)

٣٥. South Asia's Modern History, Michael Mann

٣٦. The Bengal Delta: Ecology, State and Social Change, I. Iqbal

٣٧. The History of Bengal, Vol: II, Muslim Period, by Jadunath Sarkar

٣٨. The Indian Musalmans, W.W. Hunter, (London ١٨٧٦)

٣٩. The Muslim Heritage of Bengal, Mojlum Khan, (Kube Pblishing)

٤٠. The Muslims of British India, P. Hardy (Cambridge ١٩٧٢)

٤١. The Oxford History of Islam, John L Esposito (Oxford University press)

٤٢. The religious and philosophical basis of Bhashanis political leadership, Abid S. Bahar (٢٠٠٣)

٤٣. The Sepoy Mutiny and The Revolt of ١٨٥٧, Jadunath Sarkar

البنغالية:

١. أثر الثورات المحلية في الأدب البنغالي والثقافة البنغالية، تأليف رانجيت كمارا سهادر (বাংলা ভাষা ও সংস্কৃতিতে স্থানীয় বিদ্রোহের প্রভাব)

٢. أحاسيس بالاكوت" تأليف جيبول أمين دولال (বালাকোটের চেতনা)

٣. أربعةٌ من أعلام البنغال المسلمين البارزين، تأليف الدكتور سيف الدين التشودري (বাংলার চারজন বরেণ্য মুসলিম মনীষী)

٤. الإرهاب باسم الإسلام- الدكتور خوندكار عبد الله جهانغير (ইসলামের নামে জঙ্গীবাদ)

٥. أسرار الهندوسية وفضائح آلهتها" تأليف الشيخ مهر الله (হিন্দুধর্ম রহস্য ও দেবলীলা)

٦. إسهامات شيتاغونغ في الأدب البنغالي، تأليف الأستاذ شاهد علي (বাংলা সাহিত্যে চট্টগ্রামের অবদান)

٧. الأعلام العشرة في جامعة فتية، تأليف مسعود القادر (পটিয়ার দশ মনীষী)

٨. أعلام علماء بنغلاديش، تأليف صلاح الدين جهانغير (বাংলার বরেণ্য আলেম)

٩. أعلامت الصوفية، تحرير ديوان نور الأنوار حسين التشودري، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش (আমাদের সূফীয়ায়ে কিরাম)

١٠. أمير الشريعة مولانا محمد الله الحافظجي، تأليف مولانا صلاح الدين زينل (আমীরে শরীয়ত মাওলানা মোহাম্মদুল্লাহ হাফেজ্জী)

١١. الإنسان الكامل: ترجمة الشيخ عزيز الرحمن النثارآبادي، مطبوع مؤسسة الشيخ القائد (ইনসানে কামেল কায়েদ ছাহেব হুজুর)

١٢. أيامي وأفكاري، تأليف الشاه عبد الحنان (আমার কাল আমার চিন্তা)

١٣. البحث عن علماء مقاتلي التحرير، تأليف شاكر حسين الشبلي (আলেম মুক্তিযোদ্ধার খোঁজে)

١٤. البطل الأسطوري: مولانا شمس الهدى الباتشباغي، تأليف نسيم عرفات (কিংবদন্তির মহানায়ক মাওঃ শামছুল হুদা পাঁচবাগী)

١٥. تاريخ الأدب البنغالي (العصر المعاصر)، تأليف محمد عبد الحي، والسيد علي أحسن (বাংলা সাহিত্যে ইতিহাস মধ্যযুগ)

١٦. تاريخ البنغال الاجتماعي والثقافي، تأليف الدكتور محمد عبد الرحيم، (الترجمة البنغالية) (বাংলার সামাজিক ও সংস্কৃতিক ইতিহাস)

١٧. تاريخ البنغال، تأليف راميش تشاندرا مزومدار، العصور الحديثة (বাংলাদেশের ইতিহাস আধুনিক যুগ)

١٨. تاريخ العلماء الأبطال: من شيخ الهند إلى شيخ الحديث (مذكرة الجامعة الرحمانية العربية عام ١٤٣٥-١٤٣٦) (শাইখুল হিন্দ থেকে শাইখুল হাদীস: সংগ্রামী আলেমদের ইতিহাস)

١٩. تاريخ جهود الوحدة الإسلامية في بنغلاديش: ١٩٧٨- ٢٠٠٥م، تأليف الأستاذ غلام أعظم (বাংলাদেশে ইসলামী ঐক্য প্রচেষ্টার ইতিহাস)

٢٠. تاريخ حركة اللغة، تأليف بشير الهلال (ভাষা আন্দোলনের ইতিহাস)

٢١. تاريخ دار العلوم هتهزاري، تأليف المفتي جسيم الدين (দারুল উলূম হাটহাজারীর ইতিহাস)

٢٢. تاريخ زاوية سرسينا للأستاذ محمد إسماعيل حسين (ছারছীনা দরবার শরীফ)

٢٣. تراجم كبار علماء براهمن باريا، تأليف جاويد حسين (ব্রাহ্মণবাড়িয়ার উলামা-মাশায়েখ কর্মময় জীবন)

٢٤. تراجم مئة من علماء البنغال، تأليف مولانا أمين الإسلام (বাংলার শত আলেমের জীবনকথা)

٢٥. ترجمة الفقه الأكبر وشرحه- الدكتور خوندكار عبد الله جهانغير ((আল-ফিকহুল আকবর (বঙ্গানুবাদ ও ব্যাখ্যা))

٢٦. ترجمة إنجيل برنابا باللغة البنغالية، لأفضل التشودري (বার্নাবাসের বাইবেল)

٢٧. ترجمة شاه نثار الدين أحمد والشيخ شريف محمد عبد القادر، تأليف محمودة فردوسية القادرية (পীর নেছার উদ্দীন এবং অধ্যক্ষ শরীফ মুহাম্মদ আবদুল কাদির এর জীবনী)

٢٨. ترجمة كتاب الفرقان بين الحق والباطل في علم التصوف والإحسان، للسيد محمود الحسن

٢٩. تعريف أهل الحديث- تأليف الشيخ عبد الله الكافي (আহলেহাদীছ পরিচিতি)

٣٠. التفسير باللغة البنغالية، وتفسير نور القرآن نموذجا، رسالة الدكتوراه في جامعة داكا، للأستاذ أبي الكلام آزاد (বাংলা ভাষায় তাফসীর চর্চা: বিশেষত তফসীরে নূরুল কোরআন)

٣١. تفسير نور القرآن- الشيخ محمد أمين الإسلام (তফসীরে নূরুল কোরআন)

٣٢. تيتومير أو حرب ناركيل باريا، تأليف بيهاري لال سركار (তিতুমীর বা নারিকেলবাড়িয়ার লড়াই)

٣٣. تيتومير في صورة جديدة، تأليف رودرابرتاب تشاتوبادهيايا (নবরূপে তিতুমীর)

٣٤. تيتومير: أول شهيد في حركات التحرير، تأليف الأستاذ أ.ب.م عبد الباري (তিতুমীর মুক্তি সংগ্রামের প্রথম শহীদ)

٣٥. جامعة جوهربور والعلامة الجوهربوري، تأليف عبد العزيز الغوريبوري (জামেয়া গহরপুর ও আল্লামা গহরপুরী)

٣٦. جلال آباد المعاصرة: أبطال النهضة الإسلامية"، تأليف الشيخ تاج الإسلام (চলমান জালালাবাদ: ইসলামী রেনেসাঁয় অনন্য যাঁরা)

٣٧. جوهربور: مدينة الحديث، تأليف مولانا عبد الغفور الشاريشبوري (হাদীসের শহর গহরপুর)

٣٨. حركة الخلافة: تعريفها وأهدافها، مطبوع دار الأشرف للنشر (খেলাফত আন্দোলন কী ও কেন?)

٣٩. حركة اللغة: من ٤٧ إلى ٥٢" تأليف مصطفى كمال (ভাষা আন্দোলন সাতচল্লিশ থেকে বায়ান্ন)

٤٠. حركة اللغة، تأليف أحمد رفيق (ভাষা আন্দোলনের ইতিহাস)

٤١. الحركة الوهابية، تأليف عبد المودود (ওয়াহাবী আন্দোলন)

٤٢. حركة أهل الحديث: تاريخها وتطوّرها في جنوب آسيا، للشيخ محمد أسد الله الغالب (আহলেহাদীছ আন্দোলন, উৎপত্তি ও ক্রম বিকাশ, দক্ষিণ এশিয়ার প্রেক্ষিত সহ)

٤٣. حركة ديوبند: تاريخها وتراثها وعطاؤها (البنغالية)، تأليف العلامة أبي الفتح محمد يحيى (দেওবন্দ আন্দোলন- ইতিহাস ঐতিহ্য অবদান)

٤٤. حضرت مولانا محمد أمين الإسلام: حياته وجهوده، تأليف محمد محمود الحسن (হযরত মওলানা মোহাম্মদ আমিনুল ইসলাম জীবন ও সাধনা)

٤٥. حياة أطهر، تأليف الشيخ مولانا شفيق الرحمن جلال آبادي (হায়াতে আতহার)

٤٦. حياة البرنوي، تأليف دلروبا رحمن الحميدي (হায়াতে বর্ণভী)

٤٧. الحياة السياسية لمشاهير العلماء في شبه القارة الهندية، تأليف مولانا أبي بكر الصديق (উপমহাদেশের প্রখ্যাত আলিমদের রাজনৈতিক জীবন)

٤٨. حياة الشيخ مولانا الحاج شريعت الله، تأليف محمد عبد اللطيف البريسالي (হাজী শরীয়াতুল্লাহ)

٤٩. حياة الشيخ مولانا القارئ إبراهيم، تأليف الشيخ مولانا محبوب إلهي الأوجاني (মাওলানা কারী ইবরাহীম সাহেবের জীবনী)

٥٠. حياة المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا محمد عبد الأول (মুজাহিদে আজম আল্লামা শামছুল হক ফরিদপুরীর জীবনী)

٥١. حياة المصلح الاجتماعي العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف الشيخ مولانا عبد الرزاق (সমাজ সংস্কারক আল্লামা শামছুল হক ফরিদপুরীর জীবনী)

٥٢. حياة سراج: تحرير الشيخ مولانا محمد أبي الفتح بهويا (হায়াতে সিরাজ)

٥٣. حياة سراج: ترجمة مختصرة للعلامة سراج الإسلام، تأليف مولانا أنور حسين بن مسلم (আল্লামা সিরাজুল ইসলাম র. এর সংক্ষিপ্ত জীবনী: হায়াতে সিরাজ)

٥٤. حياة فخر البنغال العلامة تاج الإسلام وأصحابه، تأليف الشيخ الحافظ محمد نور الزمان (ফখরে বাঙ্গাল আল্লামা তাজুল ইসলাম ও সাথীবর্গ)

٥٥. حياة وأعمال الشيخ القائد، تأليف محمد رفيق الله النشارآبادي (হযরত কায়েদ ছাহেব হুজুর জীবন ও কর্ম)

٥٦. الخطيب الأعظم صديق أحمد: مصدر انقلاب شامل، تأليف للدكتور أ.ف.م خالد حسين (খতিবে আজম মাওলানা ছিদ্দিক আহমদঃ একটি যুগ-বিপ্লব উৎস)

٥٧. دراسة القرآن بالبنغالية: ظهورها وتطوّرها، تأليف الدكتور محمد عبد الودود (বাংলা ভাষায় তাফসীর চর্চা উৎপত্তি ও ক্রমবিকাশ)

٥٨. الدرر الخمس في الأسرة الواحدة، تأليف أرشد يوسف (পঞ্চরত্ন পরিজন)

٥٩. الدكتور محمد شهيد الله في صميمه، تأليف الدكتور غلام ثقلين (অন্তরঙ্গ আলোকে ডক্টর মুহম্মদ শহীদুল্লাহ)

٦٠. الدليل الهادي محمد شهيد الله، تأليف نجله أ. ج. م. تقي الله (মুক্তির দিশারী মুহম্মদ শহীদুল্লাহ)

٦١. دور العلماء في حركات التحرير، تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي (আযাদী আন্দোলনে আলেম সমাজের ভূমিকা)

٦٢. دور علماء البنغال في السياسة، تأليف الدكتور محمد عبد الله (রাজনীতিতে বঙ্গীয় উলামার ভূমিকা)

٦٣. دور مولانا محمد أكرم خان في الحياة الدينية والثقافية البنغالية، تأليف الدكتور أبي الكلام محمد عبد الله (বাঙালী ধর্মীয় ও সাংস্কৃতিক জীবনে মওলানা আকরম খাঁর প্রভাব)

٦٤. دولتي بنغلاديش، تأليف الأستاذ غلام أعظم (আমার বাংলাদেশ)

٦٥. ذكريات الدكتور محمد شهيد الله، مطبوع مجمع اللغة البنغالية (ডক্টর মুহম্মদ শহীদুল্লাহ)

٦٦. ذكريات الشيخ الحافظجي، مطبوع مجلس الشيخ الحافظجي (হাফেজ্জী হুজুর স্মারকগ্রন্থ)

٦٧. ذكريات العلامة إسحاق الفريدي، مطبوع مدرسة الشيخ ذي نور الدين (আল্লামা ইসহাক ফরিদী স্মারকগ্রন্থ)

٦٨. ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري، تحرير مولانا لياقت علي (আল্লামা শামসুল হক ফরিদপুরী স্মারকগ্রন্থ)

٦٩. ذكريات العلامة شمس الحق الفريدبوري، تحرير مولانا لياقت علي (আল্লামা শামছুল হক ফরিদপুরী স্মারকগ্রন্থ)

٧٠. ذكريات مولانا أبي سعيد محمد عمر علي، من تحرير مولانا لياقت علي (মাওলানা আবু সাঈদ মুহাম্মদ ওমর আলী স্মারকগ্রন্থ)

٧١. الذين ورثناهم: حياة وأعمال مئة من العلماء والمشايخ، للشيخ مولانا حبيب الرحمن (আমরা যাদের উত্তরসূরী)

٧٢. الرسالة الرحمانية"، العدد الخاص بمناسبة وفاة شيخ الحديث العلامة عزيز الحق، العدد ٢٠٤، أكتوبر/ نوفمبر ٢٠١٢م (মাসিক রাহমানী পয়গাম)

٧٣. روّاد الحركة الإسلامية في بنغلاديش، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام (বাংলাদেশে ইসলামী আন্দোলনে অগ্রপথিক যারা)

٧٤. الروح الخالدة: ذكريات عباس علي خان، تحرير عبد الشهيد نسيم (মৃত্যুহীন প্রাণ: আব্বাস আলী খান স্মারকগ্রন্থ)

٧٥. السراج المنير (البنغالية)، ترجمة الشيخ السيد محمد نعيم الإحسان البركتي (সিরাজাম মুনীরা)

٧٦. السنة والبدعة، لمولانا محمد عبد الرحيم (সুন্নাত ও বিদয়াত)

٧٧. السيد محمد فضل الكريم، حياته ومآثره، لمولانا محمد يوسف علي (পীর সাহেব চরমোনাই (রহঃ) এর জীবনী)

٧٨. سيرة موجزة لمولانا القارئ إبراهيم، تأليف مولانا السيد محمد إسحاق (হজরত বড় কারী ইবরাহিম সাহেবের সংক্ষিপ্ত জীবনী)

٧٩. سيرة وسياسة مولانا البهاشاني، تأليف أمجد حسين (মওলানা ভাসানীর জীবন ও রাজনীতি)

٨٠. شيخ الحديث العلامة عبد الودود السنديبي: حياته وعطاؤه، تحرير المفتي كفايت الله (আব্দুল ওয়াদুদ সন্দ্বীপী জীবন ও অবদান)

٨١. الشيخ سلطان أحمد النانوبوري: حياته وتراثه" تأليف الشيخ المفتي سعيد أحمد (শাইখ সুলতান আহমদ নানুপুরী জীবন ও অবদান)

٨٢. صفحات من حياة مولانا البهاشاني: معلومة ومجهولة، تأليف عبد الحي سيكدار (জানা অজানা মওলানা ভাসানী)

٨٣. صفحات من حياتي(البنغالية)، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي (আমার জীবন-কথা)

٨٤. صفحات من حياتي، تأليف العلامة سلطان ذوق الندوي (আমার জীবন কথা)

٨٥. الطائفية في سياسة شبه القارة الهندية والمسلمون، تأليف عبد الواحد، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش (١٩٨٣م) (উপমহাদেশের রাজনীতিতে সাম্প্রদায়িকতা ও মুসলমান)

٨٦. عباس علي خان: حياته وأعماله، تحرير نجم السعادت (আব্বাস আলী খান: জীবন ও কর্ম)

٨٧. عبد الله جهانغير: العالم الذي سبق عصره- تنوير حسن بن عبد الرفيق (غير مطبوع) (সময়ের থেকে এগিয়ে থাকা আলিম আব্দুল্লাহ জাহাঙ্গীর))

٨٨. العبقري محمد شهيد الله، تأليف أبو محمد(পাণ্ডিত্যাভিমানহীন মুহম্মদ শহীদুল্লাহ)

٨٩. العقلية المسلمة والآداب البنغالية، لأنيس الزمان (মুসলিম মানস ও বাংলা সাহিত্য)

٩٠. العقلية المسلمة والهندوسية" تأليف أبي الأسد (٢٠١٤م) (হিন্দু মুসলিম মানস)

٩١. العقيدة الإسلامية- الدكتور خوندكار عبد الله جهانغير ইসলামী আকীদা

٩٢. العلامة أبو الحسن الجسري: حياته وأسوته، تأليف المفتي عبد الله الفاروق (আল্লামা আবুল হাসান যশোরী জীবন ও আদর্শ)

٩٣. العلامة مشاهد البيومبوري: حياته ومنهجه الفكري، تأليف الأستاذ مولانا محب الرحمن (আল্লামা মুশাহিদ বাইয়মপুরী: জীবন ও চিন্তাধারা)

٩٤. علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي (বাংলাদেশের সংগ্রামী আলেম ওলামা পীর মাশায়েখ)

٩٥. علماء بنغلاديش ومشايخها المجاهدون: تأليف الشيخ ذي الفقار أحمد القسمتي (মাওলানা নূর মোহাম্মদ আজমী)

٩٦. علماء شاتغام: حياتهم وأعمالهم، تأليف الدكتور هلال الدين محمد نعمان (চট্টগ্রামের আলিম সমাজ জীবন ও কর্ম)

٩٧. علوم الحديث وتاريخه، للشيخ نور محمد الأعظمي(হাদীসের তত্ত্ব ও ইতিহাস)

٩٨. على مسرح الحياة- تأليف مولانا محيي الدين خان (জীবনের খেলাঘরে)

٩٩. عيد ميلاد النبي والاحتفال به: حفلة نورانية في ضوء الكتاب والسنة، تأليف السيد محمد صفوان النعماني والسيد محمد نعيم الإحسان البركتي (ঈদে মিলাদুন্নবী ও মিলাদ মাহফিল)

١٠٠. الغازي مولانا إمام الدين البنغالي، تأليف مولانا أ.س.م. أطهر الدين الملا الأحمدآبادي (গাজী মাওলানা ইমামুদ্দীন বাঙ্গালী রহ.)

١٠١. فخر البنغال العلامة تاج الإسلام، تأليف نسيم عرفات (ফখরে বাঙ্গাল আল্লামা তাজুল ইসলাম)

١٠٢. الفصول المجهولة من حياة البهاشاني، تأليف ديوان غلام مرتضى(ভাসানী জীবনের অলিখিত অধ্যায়)

١٠٣. القائد الشعبي عباس علي خان في صفحات الذكريات، تأليف الأستاذ مظهر الإسلام (স্মৃতির পাতায় জননেতা আব্বাস আলী খান)

١٠٤. قائد القرن مولانا البهاشاني، تأليف أ.ن.م. عبد السبحان (শতাব্দীর জননেতা মওলানা ভাসানী)

١٠٥. القرآن الشريف: الترجمة البنغالية والتعليق عليها في ضوء التفاسير المشهورة"، تأليف غريتش تشاندرا سين، مطبوع جهينوك بوستيكا، داكا (কোরআন শরীফ)

١٠٦. القرآن الشريف: الترجمة البنغالية والتفسير الموسع (البنغالية)، تأليف محمد أكرم خان (কোরআন শরীফ: বাংলা অনুবাদ ও বিস্তারিত তফছির)

١٠٧. قطب الزمان، شيخ العرب والعجم الحاج محمد يونس، حياته وأعماله وخدماته- لمولانا محمد حبيب الله (কুতবে জমান শাইখুল আরব ওয়াল আজম আল্লামা শাহ হাজী মুহাম্মাদ ইউনুস জীবন কর্ম ও অবদান)

١٠٨. كتاب الشيخ الحافظجي في الشرق الأوسط، تأليف الأستاذ أختر فاروق(মধ্যপ্রাচ্যে হাফেজ্জী হুজুর)

١٠٩. الكتب الإسلامية بالبنغالية: ١٤٠٠-٢٠٠٠م"، تأليف عبد الرزاق বাংলা ভাষার ইসলামী সাহিত্য (গ্রন্থপঞ্জি (১৪০০-২০০০ খৃ)

١١٠. الكواكب اللامعة في تاريخ دار العلوم هاتهزاري الشهيرة، تأليف العلامة جنيد البابونغري (দারুল
উলূম হাটহাজারীর কতিপয় উজ্জ্বল নক্ষত্র)

١١١. المجاهد الأعظم العلامة شمس الحق الفريدبوري، تأليف نسيم عرفات (মুজাহিদে আজম শামছুল
হক ফরিদপুরী)

١١٢. مجلة المدينة الشهرية، العدد الخاص بذكرىٰ الشيخ محيي الدين خان، أغسطس، ٢٠١٦

١١٣. المجموعة الكاملة لصحيفة حق كوتها (كلمة الحق) الأسبوعية، جمع وترتيب أبو سالك (٢٠٠٦م)
(হককথা সমগ্র)

١١٤. المجموعة الكاملة للقاءات مرشد تشرموناي، تحرير محمد صغير أحمد التشودري (পীর সাহেব
চরমোনাই'র সাক্ষাতকার সমগ্র)

١١٥. محبوبي مولانا البهاشاني، تأليف السيد عرفان الباري (আমার ভালোবাসা মওলানা ভাসানী)

١١٦. محمد عبد الله الكافي، تأليف سيف الدين التشودري (মোহাম্মদ আব্দুল্লাহেল কাফী)

١١٧. مذكرة الجامعة الإسلامية الحسينية جوهربور، بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما على تأسيسها

١١٨. مذكرة الجامعة الإسلامية اليونسية بمناسبة مرور مئة عام على تأسيسها، تأليف العلامة المفتي مبارك
الله، والمفتي عبد الله (জামিয়া ইউনুছিয়া ব্রাহ্মণবাড়িয়ার শতবর্ষ পূর্তি স্মারক)

١١٩. المرشد الكامل مولانا السيد محمد فضل الكريم، تأليف الشيخ الحافظ مولانا محمد عمر (পীরে কামেল
মাওলানা সৈয়দ মুহাম্মাদ ফজলুল করীম)

١٢٠. المرشد نثار الدين أحمد، جمعه الشيخ محمد رفيق الله النثارآبادي (পীর নেছারুদ্দীন আহমদ)

١٢١. مشاهد من حياتي، للأستاذ غلام أعظم(জীবনে যা দেখলাম)

١٢٢. مشايخ شاتغام، تأليف العلامة شاه أحمد حسن، وتحرير العلامة المفتي الحافظ أحمد الله (মাশায়েখে চাটগাম)

١٢٣. مصلح الأمة الشيخ إدريس السنديبي، تحرير المفتي عمر الفاروق السنديبي (শায়খ সন্দ্বীপী জীবন ও কর্ম)

١٢٤. مع شيخ الحديث في خاصته، تأليف محمد إحسان الحق (অন্তরঙ্গ আলোকে শাইখুল হাদীস)

١٢٥. المفتي الأميني في أوراق الذكريات، تأليف وتحرير مولانا جاويد حسين (স্মৃতির পাতায় মুফতী ফজলুল
হক আমিনী)

١٢٦. المفتي السيد محمد عميم الإحسان: حياته وعطاؤه، للدكتور أ. ف. م أمين الحق (মুফতী সাইয়িদ
মুহাম্মাদ আমীমুল ইহসান : জীবন ও অবদান)

١٢٧. المفتي فضل الحق الأميني: حياته وجهاده (মুফতী ফজলুল হক আমিনী জীবন ও সংগ্রাম)

١٢٨. من ٥٢ إلى ٧١"، تأليف ابن غلام الصمد (বায়ান্ন থেকে একাত্তর)

١٢٩. من لاهور إلى قندهار، تأليف السيد مبنو (লাহোর থেকে কান্দাহার)

١٣٠. المنشيء مهر الله: حياته وأعماله، تحرير الأستاذ ناصر هلال (মুনসী মহম্মদ মেহেরউল্লা জীবন ও কর্ম)

١٣١. المنشيء مهر الله: عصره ومصره ومجتمعه، تأليف محمد أبي طالب (মুনশী মোহাম্মদ মেহেরুল্লাহঃ দেশ কাল সমাজ)

١٣٢. موجة من بحر الذكريات، تأليف الأستاذ عباس علي خان (স্মৃতি সাগরের ঢেউ)

١٣٣. الموسوعة الإسلامية، مطبوع المؤسسة الإسلامية بنغلاديش (ইসলামী বিশ্বকোষ)

١٣٤. الموسوعة البنغالية (বাংলাপিডিয়া)

١٣٥. مولانا الإسلام آبادي، تحرير السيد مصطفى جمال (মাওলানা ইসলামাবাদী)

١٣٦. مولانا البهاشاني: القائد المظلوم، تأليف أبو جعفر مصطفى صادق (মজলুম নেতা মওলানা ভাসানী)

١٣٧. مولانا البهاشاني، براتيا جسيم (মওলানা ভাসানী)

١٣٨. مولانا البهاشاني، تأليف شاه جهان ساجو (মওলানা ভাসানী)

١٣٩. مولانا عبد الرحيم: حياة حركية، تأليف نور حسين المجيدي (মাওলানা আব্দুর রহীম: এক বিপ্লবী জীবন)

١٤٠. مولانا عبيد الحق: حياته وأعماله، تأليف السيد رضوان أحمد (মাওলানা উবায়দুল হক জীবন ও কর্ম)

١٤١. مولانا محمد أكرم خان، جمعه وحرره الأستاذ أبو جعفر (মওলানা আকরম খাঁ)

١٤٢. مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف شمس الزمان خان (মনিরুজ্জামান ইসলামাবাদী)

١٤٣. مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، تأليف مشرف حسين خان (মাওলানা মনিরুজ্জামান ইসলামাবাদী)

١٤٤. مولانا نور محمد الأعظمي، للأستاذ أ.س.م. عزيز الحق الأنصاري (মওলানা নূর মোহাম্মাদ আজমী)

١٤٥. المولوي محمد نعيم الدين- أول مترجم بنغالي للقرآن الكريم، تأليف الشيخ عبد الحليم خان-আল
কোরআনের প্রথম অনুবাদক (মৌলবী মোহাম্মাদ নঈমুদ্দীন)

١٤٦. مؤمن شاهي الكبرىٰ: علماؤها وأسلافها، تحرير الشيخ أبي الفتح محمد يحيىٰ (বৃহত্তর মোমেনশাহীর
আকাবির আসলাফ)

١٤٧. مئة من عظماء البنغال: أشرف علي النظامبوري (দ্যা হানড্রেড)

١٤٨. نصائح الشيخ البرنوي ووصاياه، جمع وتأليف الشيخ مولانا أبدال حسين خان (নসীহত ও অসীয়ত)

فهرس الأعلام

(بالترتيب الألفبائي)

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع — **الصفحة**